

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الجزء الحادى عشر من تفسير القرآن الحكيم

(٩٤) يَمْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ، قُلْ لَا تَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكُمْ ، قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ ، وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٥) سَيَجْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ ، إِنَّهُمْ رِجْسٌ ، وَمَا أَوْهَمَ جَهَنَّمَ جَزَاءً ، بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٦) يَجْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ ، فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ

هذه الآيات بيان لما سيكون من امر المنافقين الذين تخلفوا في المدينة وما حولها:
عن غزوة تبوك مع الرسول ﷺ والمؤمنين بعد عودتهم اليهم ، قال عز وجل:
﴿ يَمْتَدِرُونَ إِلَيْكُمْ ﴾ يمتدرون اليكم أيها المؤمنون أولئك الذين رضوا بأن يكونوا
مع الخولاف وهم اغنياء أحماء لا عذر لهم ﴿ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ ﴾ من سفركم هذا عن جميع
سيئاتهم ﴿ قُلْ ﴾ أيها الرسول لهم حينئذ ﴿ لَا تَعْتَدِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكُمْ ﴾ ان صدقكم

تصديق جوح واثمان لكم بتبليسكم بالاسلام تحسينا للظن ، ولا عملا بالظواهر ،

ولماذا ؟ ﴿ قد نبأنا الله ﴾ بوحيه إلى رسوله الميم ﴿ من اخباركم ﴾ التي تسرونها في ضاركم ، وهي مخالفة لظواهركم التي نمتدرون بها ، ونبأ الله هو الحق اليقين ومن عرف الحق لا يقبل الباطل ، ولا يصدق الكاذب ، ولم يقل « نبأني » وهو صلى الله عليه وسلم النبأ من الله وحده لان المراد انه امره أن ينبيء بذلك أصحابه ، ولم يكن هذا النبأ خاصاً به . واعتذارهم للجميع يقتضي أن يعلموا أن الجميع عالمون بما فضحهم الله به ، وان كان المبلغ لهم هو الرسول صلى الله عليه وسلم بما له من الرياسة ، وما خبره من الثقة التي لا يشك فيها أحد ، والتأثير الذي يحسب له كل حساب ، فهو من قبيل التبليغات الرسمية العليا الصادرة عن الملوك والسلاطين ، دع كونه اسماً واعلى

لأنه نبأ الرسول المعصوم عن الله عز وجل ﴿ وسيرى الله عملكم ورسوله ﴾ بعد الآن . وهو الذي يدل إما على الاصرار على النفاق ، وإما على التوبة والاذعان في الايمان ، الذي تترتب عليه الاعمال . وأما أقوالكم فلا قيمة لها وان أكدتموها بالايمان . فان تبتم وأنتم ، وشهد لكم عملكم بصلاح سريرتكم ، فان الله يقبل توبتكم ، ويعاملكم رسوله بما يعامل به المؤمنين الذين تشهد لهم أعمالهم باخلاصهم وصدقهم ، وان أبيتهم إلا الاصرار على نفاقكم ، والاعتماد على نفاق سوق كذبكم بأعدائكم وأيمانكم ، فسيعاملكم رسوله بما أمره الله به في هذه السورة من جهادكم والاعلاظ عليكم كلخوائكم الكفار المجاهرين ، وعدم السماح لكم بالخروج معه أبداً ، ولا بان تقاتلوا معه عدواً ،

وما يتعلق بذلك من اهانة واحتقار ﴿ ثم تردون ﴾ من هذه الحياة على الذل

والموت عليه ﴿ الى عالم الغيب والشهادة ﴾ الذي يعلم ما تسرون وما تعلمون ، وما تكتمون وما تظهرون . والغيب ما غاب عن المخاطبين علمه ، والشهادة

ما يشهدونه ويعرفونه^١ ﴿ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ عندما تحشرون وتحاسبون، وبجازيكم عليه بما تستحقون، وهو ما أوردكم به في هذه السورة وفي غيرها كقوله (إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار)

ومن الفقه في الآية أن من آداب الإسلام تحامي كل ذنب أو تقصير يحتاج فاعله إلى الاعتذار، وورد في بعض الأحاديث المرفوعة «إياك وكل أمر يعتذر منه» رواه الضياء في الأحاديث المختارة عن انس وروى غيره مثله في أثناء حديث آخر

﴿ سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم ﴾ سيؤكدون لكم اعتذارهم بالإيمان الكاذبة إذا انقلبتم وتحولتم إليهم من سفركم لأجل أن تعرضوا عن عتابهم وتوبيخهم على قعودهم مع الخالفين من النساء والأطفال والعجزة، وبخلافهم بالنفقة، ولم يذكر الحلوفاً عليه للدلالة على شموله لكل ما يعتذر عنه

﴿ فأعرضوا عنهم ﴾ إعراض إهانة واحتقار، لإعراض صفح وإعذار، وهذا التعبير من أسلوب الحكيم وهو قبول ما يبيغون من الأعراض عنهم ولكن على غير

الوجه الذي يرجونه منه بل على ضده، وقد علل الأمر بقوله ﴿ أنهم رجس ﴾ أي قدر معنوي يجب الأعراض عنه تميزها عن القرب منه بأشد مما يميزه الطاهر الثوب والبدن عن ملابس الأرجاس والأقدار الحسية. وهذا بمعنى ما تقدم من قوله (٢٨ إنما المشركون نجس) وسبق بيان معنى الرجس في تفسير آية (٩٣:٥) إنما

الخر والميسر) من سورة المائدة^٢ ﴿ وما وأهم جهنم جزاء بما كانوا يكسبون ﴾ أي وملجؤهم الأخير نار جهنم جزاء بما كانوا يكسبون في الدنيا من أعمال النفاق التي دنست أنفسهم، والأعراض عن آيات الله الذي زادهم رجسا على رجسهم، كما تراه في الآية (١٢٥) الآية

(١) تقدم تحقيق معنى الغيب المطلق والمقيد مفصلاً في تفسير (٦ : ٥٩ و ٥٠)

من الجزء السابع (٢) يراجع معنى الرجس منه في ص ٥٧ ج ٢

﴿يخلفون لكم لترضوا عنهم﴾ فاستدعوا معاملتهم السابقة بظاهر اسلامهم ، وهذا غرض آخر وراء غرض الاعراض عنهم لا يهنأ عيشهم بدونها ، ولا حظ لهم من إظهار الاسلام غيره ، ولو كان اسلامهم عن إيمان لكان غرضهم الاول إرضاء الله ورسوله كما تقدم في آية (٦٢ يخلفون بالله لكم ليرضوكم) الخ وليس لكم أن ترضوا عنهم وهذه حالتهم ﴿فإن ترضوا عنهم﴾ فرضا وقد

أعلمكم الله بمخالفتهم ﴿فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين﴾ عن أمره منهم ولا من غيرهم ، فإن هذا الفسوق سبب او علة لسخط الله تعالى فالحكم بعدم رضاه متعلق به لا بدواتهم وشخصهم ، ومقتضاه أنه اذا فرض أن بعض المؤمنين رضي عنهم وآمن لهم باعتذارهم بعد النهي عنه كان فاسقا مثلهم ، محروما من رضائه تعالى ، كما أن من يتوب منهم ويرضى الله ورسوله يخرج من حدود سخطه عز وجل ويدخل في حظيرة مرضاته إذ لا يعد بعد ذلك فاسقا . فأحكام الله العامة ووعده ووعيده تتعلق بالاعمال والصفات النفسية والبدنية لا بالذوات والاعيان ، ولو قال « فإن الله لا يرضى عنهم » لما أفاد التعبير هذه الخفايا والمعاني ، بل كان يكون حكما على أفراد معينين ، مسجلا عليهم الموت على كفرهم وعدم قبول توبة أحد منهم ، وما أبعد هذا عن حكمة الله وعن هداية كتابه العزيز! ولا ينافي هذا التحقيق ما يروى عن ابن عباس من نزول هذه الآيات في

الجد بن قيس ومعتب بن قشير واصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلا امر النبي ﷺ المؤمنين لما رجعوا الى المدينة بأن لا يجالسوهم ولا يكلموهم. اذ لا دليل على ان هؤلاء مقصودون من الآيات بدواتهم وشخصهم كالذين نهى عن الاستغفار لهم وعلاه بموتهم على كفرهم ، كعبد الله بن أبي ، وقد قال قتادة ان هذه الآيات نزلت فيه ، فإنه حلف للنبي ﷺ بعد عودته ان لا يتخلف عنه وطلب ان يرضى عنه فلم يفعل . والآيات اعلم من هذا وذاك . وهي من أنباء الغيب بما فيها من بيان مقاصدهم الخفية ، وان كان الاعتذار والحلف من سجايهم المعروفة . وأن من علامات النفاق كثرة الحلف ، اشعر المنافق دائما بأنه متهم بالكذب

ويجب التنبيه في هذا المقام لجهل فطيع وقتنا عليه بما ذكره بعض المشتغلين بعلوم الدين التقليدية مخالف لهذه الآية وأمثالها من كتاب الله تعالى وهو زعمهم أن ما عابه الكتاب الحكيم على المشركين والكافرين من أعمال الشرك والكفر كدعاء غير الله واتخاذ أولياء من دونه يقرّبونهم إليه ويشفعون لهم عنده فيما يطلبون من دفع ضرر وجلب نفع مما لا ينال بالكسب فهو خاص بهم وبأوليائهم وشفعائهم ، وأن وقوع مثله من المسلمين لا ينافي صحة إيمانهم ، والاعتداد بإسلامهم ، للفرق الواضح بين من يدعو الأصنام والأوثان ويجعلها واسطة بينه وبين الله تعالى تشفع له عنده وتقربه إليه زلتى ، ومن يدعو الأنبياء والأولياء لذلك وهم عباد الله المكرّمون ، الذين لا شرف عليهم ولا هم يحزنون !!

جهل هؤلاء أن الشرك والكفر لا يختلف حكمه باختلاف متعلقه فمن يدعو مع الله صنفاً أو كوكباً، كمن يدعو نبياً أو ملكاً، على أن الأوثان والأصنام كانت تماثيل لذكرى بعض الأولياء والصالحين كالقبور المنسوبة إلى بعضهم نسبة صحيحة أو مزورة ، ولكن ماذا يقول هؤلاء الجاهلون المدافعون عن الشرك وأهله في أهل الكتاب الذين يدعون ويستغيثون الأنبياء والصالحين ، متوسلين بهم ومستشفعين ، وهم الذين اتبع القبور ويؤمنون من المسلمين سننهم في شركهم كما أخبر صلى الله عليه وسلم بذلك تحذيراً وإنذاراً بقوله « لتتبعن سنن من قبلكم » الحديث وهو متفق عليه وتقدم ذكره مراراً ، وفصلت هذه المسألة في تفسير الآية (٣١) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً فيراجع تفسيرها (١)

ويذكر هؤلاء الجاهلون بالقرآن وتاريخ الإسلام فرقا آخر بين شرك المسلمين وشرك من قبلهم ، وهو أن المشركين السابقين اتخذوا أوثانهم وأنبياءهم وأوليائهم آلهة وأرباباً ، وأن المسلمين الذين يدعون الأولياء ويستغيثونهم في الشدائد طلباً لشفاعتهم لم يتخذوهم آلهة ولا أرباباً وإنما يتخلونهم وسائل ووسائط ويعتقدون أنهم مخلوقون مثلهم

والجواب عن هذا انه لا فرق بين عمل الفريقين إلا في التسمية ولكن من بعض الوجوه ، فمشركو العرب لم يكونوا يسمون أصنامهم أرباباً بل كانوا يعتقدون ويقولون ان رب العالمين وخالقهم ومدبر أمورهم الذي يجير ولا يجار عليه هو الله وحده ، لان هذا مقتضى لغتهم ، وإنما كانوا يسمونها آلهة لان الآلهة في لغتهم هو المعبود ، والمعبود هو من يتوجه اليه ويدعى فيما لا يقدر عليه الناس بكسبهم في دائرة الاسباب المعروفة لهم ، ويعظم ويترب اليه بالذبايح وغيرها الاجل ذلك ، سواء كان سلطانه على النفع ودفع الضر بذاته لذاته وهو الله تعالى ، أو بشفاعته عند الله . وقد تقدم بسط هذا المعنى مرارا ، وسيعاد في تفسير سورة يونس للنصوص الصريحة فيه . فتسمية هذه العبادة لغير الله توسلا في عرف بعض الناس لا يخرجها عن حقيقتها ، ولا عن كون اسمها في اللغة العربية عبادة وهو ما كان يسميها به أهل هذه اللغة . وإنما التوسل الشرعي التقرب الى الله تعالى بما شرعه من الاعمال الصالحة ، لا بالاھواء المبتدعة ، ولا بالتقاليد المتبعة

(٩٧) الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ

مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ . عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٩) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرْبًا عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَّتْ بِالرَّسُولِ ، أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ ، إِنْ اللَّهُ صَفُورٌ رَحِيمٌ

هذه الآيات الثلاث في بيان حال الأعراب منافقيهم ومؤمنيهم ، والظاهر انها قد نزلت هي وما بعدها الى آخر السورة بعد وصول النبي ﷺ والمؤمنين الى المدينة ، فهي بدء سياق جديد في تفصيل احوال المسلمين في ذلك العهد ، بدء

بذكر الاعراب من المناققين لمناسبة ما قبله وفصل عنه لانه سياق جديد مع ما بعده .

﴿ الاعراب اشد كفرةً ونفاقاً واجدر أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله ﴾
 بيان مستأنف لحال سكان البادية من المناققين ، لانهما يسئل عنه بعد ما تقدم في مناققي الحضرة من سكان المدينة وغيرها من القرى . فالأعراب اسم جنس لبدو العرب ، واحده أعراي ، والانثى اعرايية ، والجمع اعرايب . والعرب اسم جنس لهذا الجيل الذي ينطق بهذه اللغة ، بدوه وحضره واحده عربي . وقد وصف الاعراب بأمرين اقتضتهما طبيعة البداوة [الاول] أن كفارهم ومناققيهم اشد كفرةً ونفاقاً من أمثالهم من أهل الحضرة - ولا سيما الذين يقيمون في المدينة المنورة نفسها - لأنهم أغلظ طباعاً ، وأقسى قلوباً ، وأقل ذوقاً وآداباً ، - كدأب أمثالهم من بدوسائر الأمم - بما يقضون جل أعمارهم في رعي الانعام وحمايتها من ضواري الوحوش . ومن تعدي أمثالهم عليها وعلى نسايتهم وذرايرهم ، فهم محرومون من وسائل العلوم الكسبية ، والآداب الاجتماعية [الثاني] أنهم اجدر اي أحق وأخلق من أهل الحضرة بأن لا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله من بينات والهدى في كتابه ، وما آتاه من الحكمة التي بين بها تلك الحدود بسنن أقواله وأفعاله . وفهم ألفاظ القرآن اللغوية ، لا يكفي في علم حدوده العملية . كان أهل المدينة وما حولها من القرى يتلقون عنه (ص) كل ما ينزل من القرآن وقت نزوله ، ويشهدون سنته في العمل به ، وكان يرسل العمال الى البلاد المفتوحة يقيمون فيها يبلغون القرآن ، ومحكمون بين الناس به وبالسنة الميمنة له ، فيعرف أهلها تلك الحدود التي حدها الله تعالى ونهاهم ان يمتدوها . ولم يكن هذا كله ميسوراً لأهل البوادي ، وهم مأمورون بالهجرة ، لاجل العلم والنصرة ، لأن الاسلام دين علم وحضارة

فالأعراب اجدر بالجهل من الحضرة بطبيعة البداوة لا بضعف أفهامهم ، أو بلادة أذهانهم ، أو ضيق فطاق بياهم ، فقد كانوا مضرب الامثال في قوة الجنان ، ولوذعية الاذهان ، وذراية اللسان ، وسطة بيداء البيان ، وعندهم أخذ رواة العربية اكثر مفردات العربية وأساليبها

والجدارة بالشيء قد تكون طبيعية ، وقد تكون بسباب كسبية ، من فنية

وشرعية وأدبية ، وقد تكون بسبب سلبية اقتضاها حالة المعيشة والبيئة ، قيل أنها مشتقة من الجدار وهو الخائط الذي يكون حداً للبلستان أو الدار ، وقيل من جدر الشجرة ، ويرادف الجدير بالشيء والاجدر ، الحقيق والاحق ، والخليق والخالق ، وقد يستعمل أفضل في كل منها للتفضيل مع التصريح بالمفضل عليه غالباً ، كحديث « والشيب أحق بنفسها من وليها » ومع تركه للعلم به أحياناً ، ومنه قوله تعالى (ورضوان من الله أكبر)

﴿ والله عليم حكيم ﴾ واسع العلم بأمور عباده وصفاتهم وأحوالهم الظاهرة من بدوارة وحضارة وعلم وجهل ، والباطنة من إيمان وكفر ، وإخلاص ونفاق ، تام الحكمة فيما يحكم به عليهم ، وما يشرعه لهم ، وما يجزيهم به ، من نعمهم مقيم ، أو عذاب أليم .

روى أحمد وأصحاب السنن - ماعدا ابن ماجه - والبيهقي في الشعب عن ابن عباس يرفعه « من سكن البادية جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى السلطان افتتن » قال الترمذي هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من حديث الثوري . وروى أبو داود والبيهقي عن أبي هريرة مرفوعاً « من بدا جفا ، ومن اتبع الصيد غفل ، ومن أتى أبواب السلطان افتتن ، وما ازداد أحد من سلاطنه قرباً إلا ازداد من الله بعداً » وسبب الاخير ان السلاطين قلما يرضون عمن يلتزم الحق والصدق والنصح الصريح ، وقلما يأتهم ويزداد قرباً منهم الا المراني الذي يمدحهم بالباطل ويعينهم على الظلم ولو بالتأول لهم ، وقد بينا هذا المعنى في تفسير (٦١) منهم الذين يؤذون النبي ويقولون هو أذن)

﴿ ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً ﴾ تقدم في الآية [٩٠] ان بعض الأعراب جاءوا النبي ﷺ معذرين يأذن لهم في القعود عن غزوة تبوك ، وذكر في هذه الآية حال الذين كانوا ينفقون بعض أموالهم في سبيل الجهاد رياء وتقية فيعدون ما ينفقونه من الخازم وهي ما يلزمه المرء مما يتثقل عليه فيلتزمه كرها ووطوعاً لدفع مكروهه عن نفسه أو عن قومه وليس له فيه منفعة ذاتية . ولم يكن هؤلاء الأعراب المنافقون يرجون بهذه النفقة جزاء في الآخرة لانهم لا يؤمنون بالبعث .

ولهذا قال الضحاك: يعني بالمعرم انه لا يرجو ثوابا عند الله ولا بمجازاة وانما يعطي ما يعطي من الصدقات كرها. وعن ابن زيد انما ينفقون رياء اتقاء أن يعزوا ويحاربوا ويقاتلوا ويرون نفقاتهم مفرما [قال] وهم بنو أسد وغطفان

﴿ ويتربص بكم الدوائر ﴾ اي ينتظرون دوائر الزمان اي تصاريفه ونوائبه التي تدور بالناس وتحيط بهم بشمورها أن تنزل بكم فتبدل قوتكم ضعفاء وعزكم ذلا، وان تصاركم هزيمة وكسرا، فيستريحوا من اداء هذه المعارك لكم، بالتبع للخروج من طاعتكم، ولا استغناء عن اظهار الاسلام نفاقا لكم، كانوا أولا يتوقعون ظهور ناشركين واليهود على المؤمنين، فلما يتسوا من ذلك صاروا ينتظرون موت النبي ﷺ ويظنون ان الاسلام يموت بموته صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله. وهكذا يعمل الجاهل الضعيف نفسه الخبيثة بالاماني والاوهام

وإذا كان منافقو المدينة الذين هم أجدر من هؤلاء الاعراب أن يعلموا مافي الاسلام من القوة الذاتية، وما في اعتصام المؤمنين الصادقين به من القوة الحربية، كانوا يترصون بالمؤمنين الهزيمة من الروم في تبوك، وكانوا إن أصاب النبي ﷺ مصيبة مما لا يخلو عنه البشر يفرحون وينولون (قد أخذنا أمرنا من قبل) أي احتطنا لهذه العاقبة قبل وقوعها، فهل يستغرب مثل هذا التربص من الاعراب سكان البادية الذين يجملون ماذا كر؟ (راجع تفسير الآيات ٥٠ - ٥٤ من هذه السورة)

﴿ عليهم دائرة السوء ﴾ دعاء عليهم بما يترصونه بالمؤمنين، أو خبر بحقيقة حالهم معهم، ومآل الاحتمالين واحد، لان الخبر في كلامه تعالى حق ومضمونه كضمنون الدعاء واقع، ماله من دافع، والدعاء منه عز وجل يراد به ماله وهو وقوع السوء عليهم واحاطته بهم. والسوء بالفتح في قراءة الجمهور وهو مصدر ساءه الامر ضد سره، وقرأه ابن كثير وابو عمرو ههنا وفي سورة الفتح بالضم وهو اسم لما يسوء. والاضافة: كرجل صدق وقدم صدق. وتقديم الخبر يفيد الحصر أي عليهم وحدهم الدائرة السوءى تحيط بهم دون المؤمنين الذين يترصونها بهم، فان هؤلاء لاعاقبة لهم تربص بهم إلا ما يسرهم ويفرحهم من نصر الله

وتوفيقه لهم وما يسوء أعداءهم من خذلان وخيبة وتعذيب لهم في الدنيا قبل الآخرة حتى بأموالهم وأولادهم ، كما تقدم في قوله تعالى (٥٢ قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين) وقوله (٥٥ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم)

﴿ والله سميع عليم ﴾ لا يخفى عليه شيء من أقوالهم المعبرة عن شعورهم واعتقادهم في نفاقهم إذا تحدثوا بها فيما بينهم ، وأقوالهم التي يقولونها للرسول أو لعالمه على الصدقات ، أو لغيرهم من المؤمنين مراعاة لهم ، ولا من أعمالهم التي يعملونها ، ومن نياتهم وسرائرهم التي يخفونها ، فهو سيحاسبهم على ما يسمع ويعلم - أي على كل قول وفعل - ويجزيهم به

ولما ذكر حال هؤلاء الاعراب المنافقين عطف عليه بيان حال المؤمنين الصادقين منهم ^(١) فقال

﴿ ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ﴾ إيماناً صادقاً اذعانياً تصدر عنه آثاره من العمل الصالح . قال مجاهد: هم بنو مقرن من مزينة وهم الذين قال الله فيهم (٩٢ ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) الآية . وقال الكلبي : هم أسلم وغفار وجهينة ومزينة ، وتم روايات أخرى فيهم ، والنص يشمل جميع المؤمنين الصادقين منهم ومن غيرهم من الاعراب . وقد ذكر من وصفهم ضد

سماذ كره في وصف من قبلهم في أمر النفقة في سبيل الله فقال ﴿ ويتخذ ما ينفق

قربات عند الله وصلوات الرسول ﴾ أي يتخذ ما ينفقه وسيلة لأمرين عظيمين أولهما القربات والزلفى عند الله عز وجل ، وثانيهما صلوات الرسول ، أي أدعيته لأنه ^{صلوات الله وسلامه} كان يدعو للمتصدقين ويستغفر لهم ، ولم يثبت في النص انتفاع احد بعمل غيره إلا الدعاء وما يكون المرء سبباً فيه كالولد الصالح ، والسنة الحسنة يتبع فيها . فهذا

(١) مما تواتر عن جهة الترك الذين يبغضون العرب أنهم يحفظون قوله تعالى (الاعراب أشد كفرًا وثفاقاً) الآية وبظنون ان المراد بالاعراب جنس العرب متعبرون به من يفاخروهم منهم ولا يحفظون الآية التالية في مدح الاعراب ولا آية (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار وهم صميم العرب !!

القصد في اتخاذ الصدقات ضد اتخاذ المنافقين إياها مغرماً . والقربات كالتقرب جمع قربنة (بضم القاف) وهي في المنزل والمكانة ، كالتقرب في المكان والقرباة ، والقربى في الرحم ، والأصل في الكل واحد وهو الدنو من الشيء مطلقاً ، فقصد القربة في العمل هو الإخلاص وابتغاء مرضاة الله ورحمته ومشوئته فيه . وجميعها باعتبار تعدد النفقات ففيه إيماء إلى إخلاصهم في كل فرد منها . والصلوات جمع صلاة ومعناها ، أو أحد معانيها في أصل اللغة الدعاء وإطلاقها على العبادة المتخصصة من أركان الإسلام شرعي وجبه أن الدعاء هو روحها الأعظم لأنه مخ العبادة وسرها الذي تتحقق به العبودية على أكل وجوهها ، وهو في الفاحشة فريضة ، وفي السجود فضيلة ، ويأتي قريباً ببيان هذه الصلوات على المتصدقين في تفسير الآية (١٠٣)

وقد بين الله تعالى جزاء هؤلاء الأعراب على ما شهدتم به من صدق الإيمان وإخلاص النية في الانفاق في سبيل الله ، وإادائهم به حق الله ، وهو قصد القربة عنده ، وحق الرسول وهو طلب دعائه لهم بقبول نفقتهم وإثابتهم عليها ، فقال

باسلوب الاستئناف المشعر بالاهتمام ﴿ **الأنها قربة لهم** ﴾ وهو إخبار بقبوله تعالى لنفقتهم مؤكداً بفتتاحه باداة التنبيه الدالة على الاهتمام بما بعدها وهي (**الأن**) وبـ [**إن**] الدالة على تحقيق مضمون الجملة وبالجملة الاسمية فقوله تعالى [**أنها قربة**] راجع إلى النفقة الماخوذ من قوله [**ما ينفق**] فأفواد القربة لآنها خير لضمير المفرد

وقوله ﴿ **سيدخلهم الله في رحمته** ﴾ تفسير لهذه القربة والمراد بالرحمة هنا الرحمة الخاصة بمن رضي الله عنهم وهي هداية الصراط المستقيم وماننتهي إليه من دار النعيم ، ومعنى إدخالهم فيها أن يكونوا معمرين فيها وتكون هي محيطه بهم شاملة لهم ، وهذا أبلغ من مثل (**يبدشهم ربهم برحمة منه**) والسين في قوله [**سيدخلهم**]

لثبات كيد الوعد وتحقيقه وتقديم مثله . وعالله بقوله : ﴿ **إن الله غفور رحيم** ﴾ أي واسع المغفرة والرحمة يغفر المخلصين في أعمالهم ما يأمون به من ذنب أو تقصير ، ورحم الصادقين في إيمانهم فيهدبهم به إلى أحسن العمل وخير المصير ، وفي الآية من بلاغة الإيجاز ما يدل على علو مقام هؤلاء الأعراب

(١٠٠) وَالسَّابِقُونَ الْأَوْلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ
 وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَنٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ
 جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ
 ﴿١٠١﴾ وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
 مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ ، لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ^{مَرَّةً}
 يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٢﴾ وَأَخْرُوجُوا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ
 خَلَطُوا مَعَلَّامًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا ، عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ
 إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ

هذا تقسيم آخر للمؤمنين الصادقين والمنافقين من أهل الحضرة والبدو جميعاً عطف
 على تقسيم الاعراب لمشار كته له في بيان حقيقة جماعات المسلمين في ذلك العهد، قال

﴿ والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان ﴾
 هذه طبقات ثلاث هي خير هذه الامة التي هي في جملتها خير امة اخرجت
 للناس (فالاولى) السابقون الاولون من المهاجرين قيل هم الذين صلوا الى القبلتين
 وروي عن ابي موسى الاشعري وسعيد بن المسيب وابن سيرين والحسن وقتادة
 وغيرهم . وقيل هم اهل بدر وروي عن محمد بن كعب وعطاء بن يسار، وقيل هم
 الذين شهدوا بيعة الرضوان في الحديبية وعليه الشعبي ، ولكن هذا القول وما
 قبله في السابقين من المهاجرين والانصار جميعا : وأما السابقون من المهاجرين
 وخدمهم فهم الذين هاجروا قبل صلح الحديبية لان المشركين كانوا الى ذلك
 الوقت يضطهدون المؤمنين في بلادهم ويقاثلونهم في دار الهجرة وما حولها ،
 ولا يمكنون أحداً من الهجرة ما وجدوا إلى صده سبيلا ، ولا منجاة للمؤمن من
 شرهم إلا بالفرار أو الجوار ، فالذين هاجروا قبل صلح الحديبية وجاهدوا بأموالهم

وانفسهم كانوا كلهم من المؤمنين الصادقين ، ليس فيهم منافق كما قلنا من قبل ،
اذ لم يكن للنفاق في ذلك الوقت مقتض ولا سبب ، وللهجرة والجهاد داع غير
الاخلاص في الايمان وإقامة بناء الاسلام ، وإن كان هؤلاء يتفاضلون في السبق
وفي غيره من الاعمال ، فأفضلهم الخلفاء الاربعة فسائر الذين بشرهم النبي
ﷺ بالحجة بأشخاصهم ، وما كل سابق أفضل من كل مسوق ، ومن السابقين
بالايمان من سبقه غيره بالمهجرة ، وأول من آمن على الاطلاق خديجة [رض]
لانه ﷺ بلغها خبر بعثته قبل كل أحد فصدقت وآمنت ، ويلها من كان معه
ﷺ في بيتها ، وهم علي وكان ابن ١٠ سنين ، وزيد بن حارثة ، ومن خارجه
أبو بكر الصديق [رض] والمشهور انه اول من آمن من الرجال ، ولا خلاف في إيمانه
آمن عند ماداه النبي ﷺ بغير ادنى تريث او تردد ، ولا في انه أول المهاجرين
مع الرسول كما تقدم في تفسير آية الغار ، وأول الدعوة إلى الاسلام مع النبي ﷺ
(الطبقة الثانية) السابقون الاولون من الانصار وهم الذين يبعوا النبي ﷺ
عند العقبة في منى في المرة الاولى سنة احدى عشرة من البعثة وكانوا سبعة ، وفي المرة
الثانية وكانوا سبعين رجلا واصرائين ، ويلهم الذين آمنوا حين قدم عليهم أبو زرارة
مصعب بن عمير بن هاشم من قبل النبي ﷺ يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين
وارسله مع اهل العقبة الثانية سنة اثنتى عشرة من البعثة وكذا من آمن عند قدوم النبي
ﷺ وقبل أن تكون للمسلمين قوة غالبية تقوى وترتجى ، وهذه القوة رسخت
عقب هجرته ﷺ وصار بعض أهل المدينة يظهرون الاسلام نفاقا بدليل قوله
تعالى في الآيات التي نزلت في شأن غزوة بدر وكانت في السنة الثانية (٨ : ٤٩)
اذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) ولم يكن فيهم
أحد من المهاجرين ولا من الانصار السابقين وان كانوا كلهم من الأوس والخزرج
(الطبقة الثالثة) الذين اتبعوا هؤلاء السابقين الاولين من المهاجرين والانصار
في الهجرة والنصرة اتباعاً باحسان ، أو محسنين في الافعال والاقوال ، فتضمن
هذا القيد الشهادة للسابقين بكمال الاحسان لانهم صاروا فيه أئمة متبوعين ، وخرج
به من اتبعوهم في ظاهر الاسلام مسيئين غير محسنين في هذا الاتباع وهم المنافقون ،

ومن اتبعوهم محسنين في بعض الاعمال ومسيئين في بعض وهم المذنبون والآيات الآتية مبينة حال الفريقين

هؤلاء الطبقات الثلاث ﴿ رضي الله عنهم ﴾ في إيمانهم وإسلامهم واحسانهم ، وأعداءه ما كان من هجرتهم وجهادهم ، فقبل طاعتهم ، وغفر سيئاتهم ، وتجاوز عن ذلاتهم ، اذ بهم اعز الاسلام ، ونكل باعدائه من المشركين واهل الكتاب .
﴿ ورضوا عنه ﴾ بما وفقهم له ، وأسبغ عليهم من نعمه الدينية والدنيوية ، فأنتقدهم من شرك ، وهداهم من ضلال ، وأغناهم من فقر ، وأعزهم من ذل .

﴿ وأعد لهم جنات تجري تحتها الانهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم ﴾
تقدم مثل هذا الوعد الكريم في الآية (٧٢) وفي آيات أخرى ومعناه ظاهر ، وأي فوز اعظم من نعم الجنة الخالد من دني وروحاني ؟

قرأ الجمهور (والانصار) بالخفض عطفا على المهاجرين وقرأها يعقوب بالرفع عطفا على (السابقون) وروي عن الحسن البصري ، بل روي أيضا — وفيه نظر عندي — أن عمر (رض) قرأها كذلك مع جعل (الذين اتبعوهم) صفة للانصار وأنكر على رجل قرأها بالخفض فأخبره انه تلقاها عن أبي بن كعب كاتب الوحي وجامع القرآن ، فسأل عمر أيها فصدقه وأخبره انه هكذا سمعها من النبي ﷺ ، وفي رواية أنها هكذا أنزلها الله على جبريل ونزل بها جبريل على قلب رسول الله ﷺ قال عمر : لقد كنت أرى انا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا — يعني المهاجرين الاوين — فقال ابي : تصديق هذه الآية في أول سورة الجمعة (وآخرون منهم لما يلحقوا بهم وهو العزيز الحكيم)

ولفظ الاتباع فيها نص في الصحابة المتأخرين الذين اتبعوا الاولين من المهاجرين والانصار في صفتيهم : الهجرة والنصرة ، وهو بصيغة الماضي فلا يدخل في عمومه التابعون الذين تلقوا الدين والعلم من الصحابة ولم ينالوا شرف الصحبة والهجرة والنصرة وتسمية هؤلاء بالتابعين اصطلاحية حدثت بعد نزول القرآن وانتقال النبي ﷺ الى الرفيق الاعلى

وقد ورد ذكر الطبقات الثلاث من الصحابة في آخر سورة الانفال وعبر فيه عن الطبقة الثالثة بقوله (٨ : ٧٥) والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) وذكر في تفسيرها آيات سورة الحشر وقد عبر فيها عن الطبقة الثالثة بقوله (٥٩ : ١٠) والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان) الخ^١ ولا شك في مشاركة سائر المؤمنين لأولئك الصحابة الكرام في رضاء الله وثوابه بقدر اتباعهم لهم في الهجرة ان وجدت اسباب الجهاد بالاموال والانفس لنصرة الاسلام ، ومنها نصرته بالحجة والبرهان . وفي سائر اعمال البر والاحسان ، وان الآيات تدل على ذلك في كل موضع لان الجزاء في حكم الله الحق وشرعه العدل على الاعمال ، وللسابقين في كل عصر ، فضيلة السبق والامامة في كل عصر ، ويمتاز عصر الرسول الذي وجد فيه الاسلام ، وأقيم بنيانه ، ورفعت أركانه ، ونشرت في الخافقين أعلامه ، على كل عصر بعده ، وهم الافلون المقربون كما قال تعالى (٥٦ : ١٠) والسابقون السابقون ١١ أولئك المقربون في جنات النعيم ١٢ * ثلثة من الاولين ١٣ * وقليل من الآخريين)

هذه الشهادة من رب العالمين للطبقات الثلاث من أصحاب رسول الله ﷺ يدمع بحقها باطل الروافض الذين يطعنون فيهم ، ويحشو التراب في افواههم ، والذي سن لهم هذا الطعن في جمهورهم الاعظم عبد الله بن سبا اليهودي الذي أظهر الاسلام لاجل ايقاع الشقاق بين الامين وإفساد أمرهم ، ثم نظم الدعوة لذلك زنادقة المحبوس بعد فتح المسلمين لبلادهم ، كما بيناه مراراً . ثم جعل الرفض مذهباً ، له فرق ذات عقائد ، منها ماهو كفر صريح ، ومنها ماهو ابتداع قبيح . ومنها ماهو دون ذلك . وروي عن أبي صخر حميد بن زياد قال أتيت محمد بن كعب القرظي فقلت له ما قولك في أصحاب رسول الله ﷺ ؟ فقال : جميع أصحاب رسول الله ﷺ في الجنة محسنهم ومسيئهم . فقلت من أين تقول هذا ؟ قال اقرأ قول الله تعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار - الى أن قال - رضي الله عنهم ورضوا

عنه) وقال (والذين اتبعوهم باحسان) شرط في التابعين شريطة وهي أن يتبعوهم في أفعالهم الحسنة دون السيئة . قال أبو صخر: فكأنني لم أقرأ هذه الآية قط

والتحقيق ما قلناه، فإن هذه الآيات وما بعدها في بيان حال المسلمين في عهد نبيهم مؤمنينهم ومنافقيهم ، ومحسنينهم ومسيئينهم، والذين خلطوا منهم عمالصالحا بغير سيئات ، والذين تاب الله عليهم والذين أرجأ توبتهم . وهذه الآية نص في الطبقات الثلاث من السابقين الاولين والذين اتبعوهم في الايمان والهجرة الجهاد عند ما اباحت الهجرة وتيسرت أسبابها بصلح الحديبية قد فازوا كلهم برضاء الله ووعده لهم بالجنة ، وأنه ليس فيهم احد من المنافقين بل كان جميع المنافقين من أهل المدينة وما حولها الى ان فتحت مكة واعتق النبي ﷺ أهلها فأظهروا الاسلام والسيوف تقطر من دماهم فكان منهم المنافقون، وضعفاء الايمان المغلدون ، وهم الذين كانوا سبب الهزيمة في حنين كما تقدم في تفسير الآيات ٢٥-٢٧ ثم حسن اسلام الاكثرين ، ففتحو الفتوح ونشروا الاسلام في العالمين

وجملة القول أن جميع افراد هذه الطبقات الثلاث ، قد جازوا القنطرة واستبقوا الصراط ، وما عاد يؤثر في كمال ايمانهم شيء ، لان نورهم يحو كل ظلمة تطرأ على أحد منهم بالمامه بذنوب . واذا كان بعض المحدثين يقول: ان من انفق الشيخان على تعديله في الرواية - أي اعتمدا عليه في اصولها المسندة - قد جاز قنطرة الجرح ، فماذا يقال فيمن عد لهم الله عز وجل ، وشهد لهم بأنه رضي عنهم ورضوا عنه؟ وسيأتي ان الله تعالى تاب على المذنبين والمقصرين وغفر لهم

وللشيخ محي الدين بن عربي مناظرة مع نفسه بسطها في كتابه (روح القدس) ذكر فيها انه في أثناء مجاورته بمكة المكرمة حدث ل نفسه من الاعجاب بعبادتها ومعرفة ما دعاه الى مناظرتها واقامة الحجية عليها بغرورها ، فعرضها أولا على القرآن ، فاعترفت بضعفها عن بلوغ ما قرره من أوج الكمال ، فعرضها على سيرة نبي ﷺ فاعتذرت بحديث عائشة « كان خلقه القرآن » وهو ما يعجز عنه من دونه « تفسير القرآن الحكيم » « ٣٠ » « الجزء الحادي عشر »

كل انسان ، فعرضها على فضائل الصحابة فأقرت بعمجزها عن الرجحان في هذا الميزان ، ومسابقة من رباهم المصطفى بكتاب الله وآياته ، وزكاهم بحكمته فاقببوا نوره من مشكاته ، ولكنها أثبت أن تعترف لكبار التابعين بمثل هذا السبق ، وكان له معها حجاج في أويس القرني هو من اعلى حقائق علم النفس^١

﴿ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة﴾ بعد أن بين تعالى حال كلمة المؤمنين كلهم قفي عليه بذكر مرادة المنافقين من أهل البدو والحضر ، وعطفتهم عليهم من باب عطف الضد على الضد ، فهو يقول ان بعض الاعراب الذين حولكم أيها المؤمنون منافقون . قال البقوي وهم من مزينة وجهينة واشجع وأسلم وغفارة ، كانت منازلهم حول المدينة ، أي كما كان فيهم مؤمنون صادقون دعا لهم النبي ﷺ - وان من أهل المدينة نفسها منافقين أيضا من الاوس والخزرج غير من أعلم الله رسوله بهم في هذه السورة بما صدر عنهم من الاقوال والافعال

المنافية الايمان ، وقد وصف هؤلاء بقوله ﴿مردوا على النفاق﴾ أي مرنوا عليه وحذقوه حتى بلغوا الغاية من اتقانه وجعله بحيث لا يشعر أحد به لانقائهم جميع الامارات والشبهات التي تدل عليه . يقال مرد على الشيء يمرد (كقعد يقعد) مرودا اذا مرن عليه . واذا عتا واشتد فيه حتى يتعذر ارجاعه عنه . ومن الأول الغلام الامرد الذي لم ينبت الشعر في وجهه ، والشجرة المرءاء التي لا ورق فيها ، ومنه مرد الشيء ، تمريدا اذا صقله وملسه حتى صار أملس لاحتشة فيه ولا خشونة ومنه (صرح ممرد من قوارير) قل في اللسان وتأويل المرود ان يبالغ الغاية التي تخرج من جملة ما عليه الصنف . ثم قال : والمرود على الشيء المرون عليه ، ومرد على الكلام أي مرن عليه لا يعبا به [أي لا يعنى أن يتكلف له] قال الله تعالى (ومن أهل المدينة مردوا على النفاق) قال الفراء يريد مرنوا عليه وجربوا ، كقولك تمردوا ، وقال ابن الاعرابي المرءد التناول بالكبر والمعاصي ومنه قوله (مردوا على النفاق) أي تناولوا اه

﴿ لا تعلمهم نحن نعلمهم ﴾ أي لا تعرفهم أيها الرسول بفطنتك ودقة فراستك التي تنظر فيها بنور الله لحذقهم في التقية وتجنب مشاركات الشبهة، وأكد هذا النفي بآيات العلم بأعيانهم له وحده عز وجل، ولعلمهم أخفى نفاقاً وأشد تقية من قال فيهم (٢٨:٤٧) أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج أضغانهم ٢٩ ولو نشاء لأرينا لهم قلمرفتهم بسميهم، ولتعرفتهم في لحن القول)

فهؤلاء ممن لم يعلمه الله بأعيانهم كأعلمه بمن اشير اليهم في الآية [٧٤] ولا فضحهم باقوال قالوها ولا بافعال فعلوها كإفصح غيرهم في هذه السورة، لانهم عرودهم على النفاق يتحامون ما يكون شبهة على إيمانهم، فضرره قاصر عليهم، وحكمة اخباره تعالى إياه بذلك أن يعلموا هم ان الله عليم بما يسرون من نفاقهم، ويخدروا ان يفضحهم كإفصح غيرهم، ليتوب المستعد الايمان منهم وهو في ستر الله تعالى قبل أن ينجز ما وعدهم بقوله ﴿ سنعلمهم مرتين ﴾ أي في الحياة الدنيا احداها ما يصيبهم من المصائب وتوبيخ الضائر، وانتظار الفضيحة بهتك استار السرائر، وما يتلو ذلك من جهادهم اذا ظهر نفاقهم كغيرهم، والثانية آلام الموت وزهوق أنفسهم وهم كافرون وضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند موتهم، فأقرب ما يفسر به العذاب مرتين هو ماتقدم في تفسير الآيات ٥٥ و٧٣ و٧٤ و٨٢ و٨٣ ففيه بيان لكل ما يصيب المناققين في الدنيا من عذاب الوجدان الباطن، وعذاب من يفتضح أمرهم في الظاهر، وورد في التفسير المأثور أقوال في هاتين المرتين بعضها في معنى ما ذكرنا وبعضها مردود ومتناقض.

﴿ ثم يردون إلى عذاب عظيم ﴾ أي في الآخرة وهو عذاب جهنم، وهم في الدرك الاسفل منها كما تقدم.

جاء في كتب التفسير المأثور ان رسول الله (ص) خطب الناس مرة فحمد الله واثنى عليه ثم قال «ان منكم منافقين فمن سميته فليقيم» ثم قال قم يا فلان — حتى سعى ٣٦ رجلاً، فان صح فهو عدد الذين سبق تهديدهم في هذه السورة لظهور نفاقهم دون الذين مردوا على النفاق، ولكن لم يرو لنا ما كان من أمر هؤلاء بعد هذه الفضيحة بكرهم ومنعهم من الصلاة، ومقتضاه ان تجري عليهم احكام المرتدين، ومثل هذا لا يخفى وتتوفر الدواعي على نقله بالتواتر او الاستغاضة ولم يرو

لما المدثون شيئاً فيه والذي اراه ان، الرواية غير صحيحة والله اعلم
 والعبرة في هذا السياق أن هؤلاء المنافقين فريقان: فريق عرفوا باقوال قلوبها
 وأعمال عملوها ، وفريق مردوا على النفاق وصدقوه حتى صار أملس ناعماً لا يكاد
 يشعر أحد بشيء يستنكره منه فيظهر عليه ، وكل من الفريقين يوجد في كل عصر ،
 ولا سيما منافقي السياسة في هذا العهد ، وهم الذين اتخذهم الاجانب المعتدون
 على بلاد الاسلام دعاة وولاة وأعواناً على استعباد أمتهم واستعمار أوطانهم ، فما
 من قطر من هذه الاقطار التي رزئت بالاجانب الا ولهم فيها أعوان وأنصار من
 أهلها يزعمون انهم يخدمون أمتهم ووطنهم من طريق استمالتهم واسترضائهم ،
 وانهم لولاهم لما وقعوا من الظلم وهضم الحقوق عند الحد الذي هم عليه ، ومنهم من
 يخدمون الاجانب خدماً خفية لا تشعر بها الامة لانهم مردوا على النفاق ، وانما
 يحتاج الخونة الخادمون للاجانب الى النفاق ، وتلبس خيانتهم واخفائها بالكذب
 والاختلاق ، اذا كان للرأي العام فطنة وقوة يحشونها ، وأما البلاد التي استحوذ
 عليها الجهل والضعف فلا يبالي الخائنون برضاء أهلها ولا بسخطهم

واشد المنافقين مردواً واتقاناً للنفاق أعوان الملوك والامراء المستبدين، وشرهم

واضرهم الذين يلبسون لباس علماء الدين

﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾ أي وثم آخرون أو ممن حولكم من
 الاعراب ومن أهل المدينة أناس آخرون ليسوا من المنافقين ، ولا من السابقين
 الاولين ، ولا من الذين اتبعوهم باحسان لا إساءة فيه ، بل من المؤمنين المذنبين
 ﴿ خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً ﴾ أي خلطوا في اعمالهم بأن عملوا عملاً صالحاً
 وعملاً سيئاً ، وقيل معناه خلطوا صالحاً بسيئاً وبصالح ، أو خلطوا في كل منهما
 ما ليس منه فكان ناقصاً والكنه لم يغلب الآخر ويندغم فيه ، فلم يكونوا من
 الصالحين الخالص ولا من الفاسقين أو المنافقين ، ذلك بأنهم آمنوا وعملوا الصالحات ،
 واقترفوا بعض السيئات ، وهم أو منهم بعض الذين تخلفوا عن النفر والخروج إلى غزوة
 تبوك من غير عذر صحيح كالضعفاء والمرضى وغير الواجدين ، ولا استئذان كاستئذان
 المرتابين ، ولا اعتذار كاذب كالمناققين ، ثم كانوا ناصحين لله في أثناء قعودهم ،

شاعرين بذنبهم ، خائفين من ربهم ، فكان كل من قعودهم ونصحهم مقترنا بالآخر ، كالذي يدخل أرضاً معصوبة فيصالح فيها ، ويعترف بأنه مذنب بدخولها ، ويأتي بالإصلاح لتكفير ذنب الاعتداء . وهذا المعنى لا يؤديه قولك : خلط العمل الصالح بالسيء ، كما تقول خلط القمح بالشعير أو الماء باللبن ، لان هذا الضرب من الخلط يصير فيه الخلوطين والخلوط به شيئاً واحداً أو كالشيء الواحد فلا يقول صاحبه عندي ماء فرات ولا لبن محض . وأما الضرب الاول المراد من الآية فقد بقي فيه كل من النوعين ممتازاً بنفسه ، وإنما خلطه مع الآخر عبارة عن الجمع بينهما ، وعدم انفراد أحدهما دون الآخر ، والواو العاطفة هي التي تؤدي هذا المعنى من الجمع ، وهو من دقائق بلاغة القرآن بالعدول عن التمدية بالباء إلى العطف

﴿ عسى الله أن يتوب عليهم ﴾ أي هم محل الرجاء لقبول الله توبتهم ، التي يشير إلى وقوعها اعترافهم بذنوبهم ، وقد تقدم (في ص ٢١٠ ج ١٠) ان كلمة « عسى » وضعت للتقريب والاطلاع ثم استعملت في الرجاء كعمل ، وقول بعضهم انها من الله للإيجاب غير صحيح ، او لتوفيقهم للتوبة الصحيحة التي هي سبب المغفرة والرحمة . وإنما تتحقق التوبة بالعلم الصحيح بقبح الذنب وسوء عاقبته ، وألم الوجدان من تصور سخط الله والخوف من عقابه ، والإفلاع عن الذنب أو الذنوب بباعث هذا الألم الذي هو ثمرة ذلك العلم ، والعزم على عدم العود إلى اقترافها ، ثم العمل بضدها ، ليخفى من النفس أثرها ، والروايات صريحة بأن اعتراف من ذكر بذنوبهم قد استتبع كل هذا

﴿ ان الله غفور رحيم ﴾ تعليل لرجاء قبول توبتهم ، إذ معناه انه كثير المغفرة للتائبين : واسع الرحمة للمحسنين ، كما قال (٢٠: ٨٢) وإني انفجار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى) وكما قال (٧: ٥٦) إن رحمة الله قريب من المحسنين) وكما قص علينا من خبر استغفار الملائكة للمؤمنين قولهم (٤٠: ٧) ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلماً فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم - إلى قوله - ٨ وقهم السيئات ، ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته)

قال بعض العلماء ان هذه الآية أرجى آية في القرآن وقال آخرون أرجى الآيات قوله تعالى (٣٩: ٥٣) قل يا عبادي الذين اسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من

رحمة الله ان الله يعفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم) وانما هذا علاج لمن اشتد عليهم الخوف من اسرافهم في شهواتهم، حتى كادوا ينفطون من رحمة ربهم، للمعصين على ذنوبهم بغير مبالاة، ولذلك قال بعدها (٥٤) وانيدوا الى ربكم واسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لاتنصرون) الى آخر الايات

ومن العبرة في هذه الاقسام المسلمين ان قسم الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا يوجد في كل زمان ومكان، كقسم الذين اتبعوا السابقين الاولين من المهاجرين والانصار، وأما المهاجرون والانصار الاولون الذين أقام الرسول صلى الله عليه وسلم بهم بنساء الاسلام فهم الذين لا يلزُّ بهم قرين ، ولا يلحقهم لاحق من المالمين ، ولعل أ كثر المسلمين الصادقين في هذا الزمان من الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، ولعل أسوأ سيئاتهم ترك الجهاد بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله ، فيجب أن يسترشدوا بهذه الآية، وبما ورد في سبب نزولها من توبة أبي لبابة وأصحابه . ولا تم العبرة بها ، الا بتدبر ما بعدها ، وهو تطهير النفس من النفاق وضمف الايمان، ببذل الصدقات وغيره من صالح الاعمال

وقد روى البخاري في تفسير الآية في صحيحه عن سمرة بن جندب مرفوعا «أتاني الليلة (أي في النوم) ملكان فابتعثاني فاتنبا بي الى مدينة بلن ذهب ولبن فضة فتلقانا رجال شطر من خلقهم كأحسن ما أنت راء ، وشطر كأقبح ما أنت راء . قالوا لهم اذهبوا ففعلوا في ذلك النهر ، فوقعوا فيه ثم رجعوا الينا قد ذهب ذلك السوء عنهم فصاروا في أحسن صورة، قالوا لي هذه جنة عدن وهذا منزلك، قالوا وأما القوم الذين كانوا شطر منهم حسن وشطر منهم قبيح فانهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا تجاوز الله عنهم» اهـ

فهذا تمثيل في الرؤيا لتحسين العمل الصالح وتجميله للنفس وتشويه العمل القبيح لها، ولتطهيرها بالتوبة والعمل الصالح حتى تكون كلها حسنة جميلة وأهلا لدار الكرامة ، بعد ان تبعث في الصورة التي كانت عليها قبل التوبة. وقد قال تعالى (١١: ١١٤) ان الحسنات يذهبن السيئات) وشبه النبي ﷺ صلوات الله عليه وسلم بالصالحات الخمس بنهر يفيض على غيبة الانسان خمس مرات كل يوم «فهل يبقى عليها وسخا أو قدرا ؟»

(١٠٣) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوَاتِكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٤) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٥) وَقُلْ أَعْمَلُوا فَسِرِّي اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان فوائد صدقة الاموال ومنافعها، والحث عليها، وعلى اتوبة لمن قصر في الجهاد في سبيل الله بما له ونفسه، أو في غير ذلك من أمور دينه. وفي الحث على العمل، وكونه هو الذي عليه المعول.

أخرج ابن جرير من طريق علي بن أبي طلحة ان أبا لبابة وأصحابه جاؤا رسول الله ﷺ حين أطلتوا فقالوا: يا رسول الله هذه أموالنا فتصدق بها عنا واستغفر لنا، فقال « ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئا » فأنزل الله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم بها) وأخرج مثله عنه من طريق محمد بن سعد عن أبيه وزاد: فلما نزلت هذه الآية اخذ رسول الله ﷺ جزءاً من أموالهم فتصدق بها عنهم. وله في سبب النزول روايات اخرى. وهذا النص حكاه عام وإن كان سببه خاصاً، عام في الآخذ يشمل خلفاء الرسول من بعده ومن بعدهم من أئمة المسلمين، وفي المأخوذ منهم وهم المسلمون الموسرون، قال العماد ابن كثير: وهذا عام وإن عاد الضمير في (أموالهم) إلى الذين اعترفوا بذنوبهم وخطأوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ولهذا اعتقد بعض مانعي الزكاة من أحياء العرب أن دفع الزكاة إلى الامام لا يكون وإنما كان هذا خاصاً بالرسول ﷺ واحتجوا بقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الآية. وقد رد عليهم هذا التأويل والفهم

٢٤ التزكية للأنفس وأسنادها إلى الله وإلى الرسول وإلى المزيك بالفعل التفسير: ج ١

الفاقد أبو بكر الصديق وسائر الصحابة (رض) وقاتلوه حتى أدوا الزكاة إلى الخليفة كما كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ حتى قال الصديق: والله لو منعوني عناقاً — وفي رواية عقلاً — كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه اه. وهذا مشهور في الصحاح والسنن والسير ومجمع عليه، وهذا معنى الآية:

﴿خذ من أموالهم صدقة﴾ أي خذ أيها الرسول من أموال من ذكر، ومن سائر أموال المؤمنين — على اختلاف أنواعها، ومنها مال التجارة — صدقة معينة كالزكاة المفروضة أو غير معينة وهي التطوع — فالصدقة ما ينفقه المؤمن قربة لله كما تقدم في نفقة مؤمني الأعراب ﴿تطهرهم وتزكهم بها﴾ أي تطهرهم بها من دنس البخل والطمع والدناءة والقسوة على الفقراء البائسين وما يتصل بذلك من الرذائل، وتزكي أنفسهم بها أي تنميتها وترفعها بالخيرات والبركات الحقيقية والعملية، حتى تكون بها اهلالاً للسعادة الدنيوية والاخروية. فالطهر هنا الرسول والمطهر به الصدقة. والتزكية صبغة مبالغة من الزكاء وهو نماء الزرع ونحوه، قال في مجاز الاساس: رجل زكي زائد الخير والفضل بين الزكاء والزكاة (وحناناً من لدنا وزكاة) اه والتزكية للأنفس بالفعل تسند الى الله تعالى، لانه هو الخالق المقدر الموفق للعبد ليعمل ما تزكو به نفسه وتصلح قال تعالى (٢٤: ٢٠) وتولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من احد ابداً ولكن الله يزكي من يشاء) وتسند الى الرسول ﷺ لانه هو المرئي للمؤمنين على ما تزكو به أنفسهم ويعلو قدرها بسنته العملية والقولية في بيان كتاب الله وما لهم فيه من الاسوة الحسنة ومنه هذه الآية وقال تعالى (٦٢: ٢) هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) فتزكيتهم ﷺ للامة من مقاصد البعثة^(١) وتسند الى العبد لكونه هو الفاعل لما جعله الله سبباً لطهارة نفسه وزكائها كالصدقات وغيرها من أعمال البر ومنه قوله تعالى (٩١: ٩) قد افلح من زكاه (١٠) وقد خاب من دساها) وقوله (٨٧: ١٤) قد افلح من تزكى (١٥) وذكر اسم ربه صلى) وأما قوله تعالى

(١) راجع تفسير آية البقرة الثانية في هذا المعنى ص ٢٩ ج ٢ تفسير

التوبة: س ٩ الصلاة لغة وشرعاً وصلاة النبي على المتصدقين . سمع الله وعلمه ٢٥

(٤ : ٤٨) ألم تر الى الذين يزكون انفسهم بل الله يزكي من يشاء) وقوله (٥٣ : ٣٢) فلا تزكوا انفسكم هو أعلم بمن اتقى) فهو في زكاة النفس بدعوى اللسان ، فالتركية تطابق على الفعل المزكي وهو الاصل وعلى القول الدال عليه ومنه تزكية اليهود

﴿ وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم ﴾ قرأهزة والكسائي وحفص (صلاتك) ، بالمفرد أي جنسها والباقون (صلواتك) بالجمع وهو باعتبار جماعة المتصدقين . والصلاة اسم من صلى يصلي تصلياً وقد هجر لفظ التصلي في الاسلام ومنه :
تركت الدنان وغزف اقيان وأدمنت تصلياً وابتها

ومعناها الاصلى الدعاء وهو المراد من الآية ، وسميت العبادة الاسلامية المخصوصة صلاة من تسمية الشيء بأهم أجزائه ، فان الدعاء مخ العبادة وروحها . وقيل في التعليل غير ذلك . والصلاة من الله على عباده الرحمة والحنان ، ومن ملائكته الدعاء والاستغفار قال تعالى (٣٣ : ٤٣) هو الذي يصلي عليكم وملائكته ليخرجكم من الظلمات الى النور وكان بالمؤمنين رحيماً) ثم قال (٥٥) ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً) وصلاتنا على نبينا ﷺ دعاؤنا له بما أمرنا به في الصلاة بعد التشهد الاخير وما في معناه كقولنا في دعاء الاذان المأثور « اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمداً الوسيلة والفضيلة وابشه مقاما محمودا الذي وعدته » رواه الجماعة الامساك . والسكن ما تسكن اليه النفس وترتاح من اهل ومال ومتاع ودعاء وثناء

والمعنى ادع ايها الرسول للمتصدقين واستغفر لهم عاطفاً عليهم ان دعائك واستغفارك سكن لهم يذهب به اضطراب انفسهم إذا أذنبوا ، وتطمئن قلوبهم بأن تقبل توبتهم إذا تابوا ، ويرتاحون إلى قبول الله صدقاتهم بأخذك لها ، ووضعك إياها في مواضعها ﴿ والله سميع عليم ﴾ أي سميع لدعائك سماع قبول وإجابة ، عليم بما فيه من الخير والمصلحة ، فالمراد من السماع والعلم لازمها . وسميع لاعترافيهم بذنوبهم ، عليم بندمهم وتوبتهم منها ، وبالخلاصهم في صدقتهم وطيب انفسهم بها ، فهو الذي يثيبهم عليها ، لجملة (ان صلاتك) تعليل للامر بالدعاء ، وتذليلها

بالتذكير بسمع الله وعلمه إشعار بقبول الدعاء وقبول الطاعات والجزاء عليها ،
وتصرح به الآية التالية

روى الشيخن من حديث عبد الله بن أبي أوفى قال كان النبي ﷺ إذا
أتاه قوم بصدقتهم قال « اللهم صل على فلان » فأتاه أبي بصدقته فقال « اللهم
صل على آل أبي أوفى » فقوله: بصدقته ، صريح في ان المراد بها زكاة الفريضة .
وهو يدل على ان المراد بالآية صدقة الفريضة او مايمع الفريضة وغيرها ، وعلى
أنه ﷺ كان مواظبا على هذا الدعاء ، ولذلك قيل ان الامر في الآية للوجوب
وهو خاص به ﷺ وقال بعض الظاهرية بوجوب الدعاء على آخذي الزكاة من
الأئمة أيضا ، والجمهور على انه مستحب لهم . وقد بوب البخاري للحديث بقوله:
(باب صلاة الامام ودعائه لصاحب الصدقة ، وقوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة
- إلى قوله - سكن لهم) والجمهور على أن الدعاء بلفظ الصلاة خاص بدعائه (ص) لغيره
وبدعاء المسلمين له ، وقيد الاول بعض العلماء بما عدا هذا اللفظ الذي كان يدعو به
للمتصدقين « اللهم صل على فلان » عند اعطاء الصدقة . وقد ثبت انه ﷺ كان
يدعو بغيره أيضا فقد روى النسائي من حديث وائل بن حجر انه ﷺ قال في رجل
بعث بناقة حسنة في الزكاة « اللهم بارك فيه وفي ابله » وقال الشافعي: السنة للامام
اذا أخذ الصدقة أن يدعو للمتصدق ويقول آجرك الله فيما أعطيت ، وبارك لك فيما أبتيت .
والأفضل الجمع بين الصلاة والسلام عليه (ص) وعلى آله ، وأكثر المسلمين
يخص بالسلام الانبياء والملائكة ، وكذا جماعة آل بيته ﷺ والشيمة يلتمزون السلام
على السيدة فاطمة وبعلمها وولديهما والأئمة المشهورين من ذرية السبطين ويوافقهم
كثير من اهل السنة وغيرهم في الزهراء والسبطين ووالدها سلام الله ورضوانه عليهم
إذا ذكروا جماعة أو أفرادا ، وأما الصلاة والسلام على الآل بالتبع للرسول ﷺ
فهو مجمع عليه ، ومنه صلاة التشهد ، وكذا عطف الصحابة والتابعين على الآل
ذائع في الكتب والخطب والاقوال

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي للبشر ﴾

وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان

ما ذكره الله تعالى من تطهير الصدقة للمؤمنين وتركيبتهم بها يشمل أفرادهم وجماعتهم، فهي تطهر أنفس الافراد من أرجاس البخل والذناء والقسوة والاثرة والطمع والجشع، ومن أكل أموال الناس بالباطل من خيانة وسرقة وغصب وربا وغير ذلك، فإن الذي يترتب بالايان على بذل بعض ما في يده أو ما أودعه في خزائنه وصندوقه في سبيل الله ابتغاء مرضاته ومغفرة ذنوبه ورفع درجاته، جدير بأن ينزه نفسه عن أخذ مال غيره بغير حق. وهذا التطهير لأنفس الافراد وتركيبتها بالعلم والعرفان، والتقوى التي هي مجموع ثمرات الايمان، يستلزم تطهير جماعة المؤمنين (وما يبر عنه في عرف هذا العصر بالهيئة الاجتماعية) من أرجاس الرذائل الاجتماعية التي هي مشار التحاسد والتعادي والبغى والعدوان والغبن والحروب ذلك بأن الأموال قوام حياة الناس^(١) وقطب الرحي لمعايشهم ومرافقهم العامة والخاصة، وهم متفاوتون في الاستعداد للكسب والتميز، والاسراف والتقتير، والقصد والتدبير، والجود والبخل، والتعاون على البر، فلا ينفك بعضهم محتاجا إلى بعض في كسب الرزق وفي إنفاقه، وأشد هم استعداداً لجمع الثروة الذين يقلب على طباعهم الحرص والبخل حتى على أنفسهم وأولي قرباهم، وبهذا يكون بعضهم فتنة — اي امتحانا — لبعض ومشاراً للتنازع والتخاصم كما قال تعالى (وجعلنا بعضهم لِبعض فتنة أتصبرون؟) أي ذلك مقتضى سنته في تفاوت البشر في

الاستعداد والاخلاق والاعمال. وقد بينا حكمة ذلك من قبل

ولما كان الدين مرشداً للبشر إلى ترقية أنفسهم وتقوم أخلاقهم بما تصاح به فطرتهم، ويرتقي به أفرادهم وجماعتهم — شرع الله فيه من الاحكام التعمدية والعملية ما يقيمهم شر هذه الفتنة، وينقدهم مما يترتب على إهمالها من الخنث، فأوجب

١ « قوام الشيء بالفتح والكسر عماده الذي يقوم به وينتظم، ونقاب أو المكسور

ياه جوازا ومنه « ولا تؤنوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما »

على أصحاب الاموال من النفقات والصدقات ، ما يبدل سيئات الثروة في الاسلام. حسنات ، واننا لم نجد في كتب التفسير ولا كتب الفقه ولا دواوين التاريخ الاسلامي بياناً علمياً لحكمة الشريعة في السياسة المالية وما انفردت به من الاصلاح المعقول فيها ، وكنت عازماً على شرح ذلك في تفسير هذه الآية فلما وصلت اليه وفكرت في أصول هذه المسألة وفروعها تبين لي أنه لا يمكن تفصيل القول فيها الا بتأليف سفر مستقل ، ورأيت أن أكتفي هنا بإيراد أهم الحقائق التي تشير إلى عظم شأن هذه المسألة واصلاح الاسلام فيها فأقول:

ان اتساع دوائر العلوم والفنون والمصالح العامة في هذا العصر قد اضطر الباحثين إلى انفراد بعض الافراد والجماعات بالاختصاص في كل فرع من فروعها لتحخيص مسائنها والاحاطة بها بقدر الامكان ، حتى ان الرجال المالبين لا يستحقون هذا اللقب فيه (أي لقب المالي) إلا بعد إتقان عدة علوم منها ، والتمرن بالعمل في بعض فروعها ، واننا نرى بعض الاجتماعيين منهم يجزمون بان جميع الثورات والحروب السياسية والدينية ذات الشأن في تاريخ البشر قد كان المأل سببها الصحيح ، او أحد الاسباب المؤثرة فيها أشد التأثير ، ولم يستثنوا من ذلك حروب اوربة الدينية ولا حروبها الصليبية للإسلام

بل نشر منذ سنتين كتاب عربي طبع في القدس موضوعه (الحركات الفكرية في الاسلام) زعم مؤلفه (١) تابعا لبعض مؤرخي الافرنج: ان الاسلام لم يكن فكرة دينية محضا بل كان مسألة اقتصادية واجتماعية أيضا ، او كان هذا هو الغرض الاول المقصود بالذات منه ولم يكن الدين الاوسيلة له ونقل عن (كاتاني) المؤرخ الايطالي المشهور ان الاسلام لم يكن دينيا إلا في الظاهر ، وان جوهره كان سياسيا واقتصاديا (قال) « ومن فضل مؤسس الدين الاسلامي ومظاهر عبقريته انه أدرك مصدر الحركة الاقتصادية والاجتماعية التي ظورت في أيامه بمكة عاصمة الحجاز ، وعرف كيف يستفيد منها ويسخرها لأغراضه السامية دينية كانت او اجتماعية » ثم بسط ذلك من طريق ظواهر التاريخ بما هو باطل في نفسه ، خادع

(١) هوبند لي جوزي السوري الروسي التابعة أحد أساتذة جامعة باكو الروسية

ببعض مظاهره ، وما أظن ان الناقل عنه - وهو نصراني الديانة ، شيوعي السياسة - يمتد اعتقاده هذا ، وانما يريد فيما يظهر نشر الشيوعية التي ابتدعها بلاشقة دولته الروسية في العرب ، وزلزلة العقائد الاسلامية في المسلمين ، وربما نجد فرصة للرد على كتابه في المنار ، وحسبي هنا أن أقول لو كان الاسلام كما ذكر لظهر أثره في أعلم الناس بحقيقته ، وأصدقهم في إقامة أركانه بالعلم والعمل ، وفي طليعتهم الخلفاء الراشدون ، والأئمة المجتهدون ، وقد قال عمر بن عبدالعزيز الجامع بين الامميتين في كتاب له الى بعض عماله المالين « إن محمداً (ص) بعث هادياً ، ولم يبعث جابياً » والحق ان الاسلام هو الدين الوسط ، الجامع بين مصالح الروح والجسد ، للسيادة في الدنيا والسعادة في الآخرة ، فهو وسط بين اليهودية المادية الدنيوية ، والنصرانية الروحانية الزهدية (١) وان من مقاصده الاصلاحية في الاجتماع البشري هداية الناس إلى العدل والفضل في أمر المال ، ليكتفي الناس شر طغيان الأغنياء ، وذلة الفقراء ، ونصوص القرآن والسنة في هذا هي الغاية القصوى في الاصلاح ، وهي هادمة لمزاعم هؤلاء المغتاتين على الاسلام بالجهل والهوى ،

غلا عباد المال من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله ، واستعباد الالوف والوف الالوف من العمال الفقراء به ، بجعله دولة بينهم ، وغلا خصوصهم من الاشتراكيين في مقاومتهم ومحاوله جعل الناس فيه شرعاً ، وجعله بينهم حقاً شائماً ، فانتهى هذا الغلو بالشيوعية الروسية في عصرنا أن استعبدت أكثر من مائة الف من البشر تسخرهم في تنفيذ مذهبها كالانعام والدواب ، وتبذل جل ما تنتزعه من ثروتهم في بث الدعاية له في جميع الاقطار . ويخشى العقلاء من عاقبة هذا الاسراف والغلو من الجانبين حرباً عامة طامة ، وفتنة لاتصين الذين ظلموا منهم خاصة

ولا منقذ الامم من هذه الفتنة وعواقبها إلا بدين الاسلام - أعني بالتدين به والعمل بأحكامه المالية وغيرها ، ولا يمكن التزامها بالعمل إلا باذعان الدين ، وقد بدأ عقلاء الافرنج يشعرون بالحاجة إلى دين معقول يصلح بالتزامه قساد هذه المدنية المادية ، ولن يجدوا حاجتهم إلا في دين القرآن ، وسنة خاتم النبيين

(١) راجع تفسير (٢ : ١٤٣) وكذلك جماناكم أمة وسطا) ص ٣ ج ٢ تفسير

عليه الصلاة والسلام ، وأخشى ألا يهتدوا اليه الا بعد البطشة الكبرى ، والطامة العظمى ، وهي حرب التدمير المنتظرة من تنازع البلشفية والرأسمالية ، وانني أذكر هنا أهم أصول الاصلاح الاسلامي في المسألة المالية التي تبتدر فكري وتبدهه فأقول :

(١) اقرار الملكية الشخصية وتحريم أكل أموال الناس بالباطل

(٢) تحريم الربا والقمار

(٣) منع جعل المال دولة بين الاغنياء - أي يتداولونه بينهم من دون الفقراء ،

ولم يكن هذا التداول في عصر من أعصار البشر كما في عصر النظام المالي المتبع في الحضارة الغربية نظام البيوت المالية (المصارف) والشركات والاحتكارات التي يحاربها العمال ، ويعادون لاجلها أرباب الاموال

(٤) الحجر على السفهاء في أموالهم حتى لا يضيعوها فيما يضرهم ويضر أمتهم

(٥) فرض الزكاة المطلقة في أول الاسلام ، وكانت اشتراكية باعتبارها إذعان.

الوجدان لا اكره الحكم ، ثم نسخت اوقيدت بالمعينة الاجبارية عند ماصار للاسلام دولة ، ولو وجدت تلك الحال التي كان عليها المسلمون في مكة قبل الهجرة لوجبت عليهم فيها تلك الزكاة الاشتراكية ، أعني انه إذا وجد في مكان جماعة محصورون منهم المومر والعسر ، وصاحب الثروة وذو الفقر المدقم ، وجب أن يقوم اغنياؤهم بكفاية فقرائهم وجوبا دينياً إذا كانت الزكاة المعينة لا تكفيهم

(٦) جعل الزكاة المعينة ربع العشر في التقدين والتجارة ، والعشر او نصف

العشر في الغلات الزراعية التي عليها مدار الاقوات . وزكاة الانعام معروفة في كتب الحديث والفقهاء

(٧) فرض نفقة الزوجية والقرابة

(٨) إيجاب كفاية المضطر من كل جنس ودين ، وضياقة الغريب حيث لا مأوى

ولا فئادق المسافرين ، إلا إذا كان مهدور الدم أو محاربا للمسلمين

(٩) جعل بذل المال كغفارة لبعض الذنوب (ومنها الظهار وإفساد صيام يوم

من رمضان بشرطها المعروفة)

(١٠) ندب صدقات التطوع والترغيب فيها

- (١١) ذم الإسراف والتبذير، والبخل والشح والتقير، وعده من أسباب الهلكة وسوء المصير، أي الأفراد ولامة والدولة
- (١٢) إباحة الزينة والطيبات من الرزق بشرط اجتناب الإسراف والحيلاء الموقمين في الامراض والادواء البدنية، المضيعين للثروة المالية، المثيرين للحسد والمداوة والمفاسد الاجتماعية، وهي من أعظم اسباب ترقى الثروة
- (١٣) مدح القصد والاعتدال، في النفقة على النفس والعيال.
- (١٤) تفضيل الغني الشاكر، على الفقير الصابر، بجعل اليد العليا، خيراً من اليد السفلى، وأعمال البر المتعدي نفعها إلى الناس، أفضل من الاعمال القاصر نفعها على فاعلها، وجعل الصدقة الجارية، من الثوبات الدائمة الباقية
- أرأيت أمة من الامم تقيم هذه الاركان ويوجد فيها فقر مدقع، أو غرم موجه، أو شقاء مفظع؟
- الم تر أن زكاة النقدين الواجبة - وهي ربع العشر - هي أوسط ربح تدفعه المصارف المالية لمودعي نقودهم فيها للاستغلال، وقد يقل عن ذلك؟
- قدر الثروة القومية في النقد والتجارة للشعب المصري وانظر مقدار ربع عشرها الواجب دفعه في كل عام لغقراؤها ومصالحها، وارجع البصر الى سائر أنواع الزكاة ومقاديرها، تعرف قدر سعادته اذا وضعها في مواضعها، وتعلم صدق ما قلناه في تفسير آية مصارف الصدقات، من ان أداء الزكاة وحده كاف لاعادة مجد الاسلام الذي أضاعه المسلمون
- اقرأ (وأبفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقرأ (ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) وتدبر جد التدبر (ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فنمكم من يبخل، ومن يبخل فتمما يبخل عن نفسه، والله الغني وأنتم الفقراء. وإن تولوا يسهل قوما غيركم، ثم لا يكونوا أمثالكم)
- وقد جاء في الكتاب والسنة من الترغيب في بذل المال في سبل البر، وجعله من أكبر آيات الايمان، وموجبات الثواب والرضوان، وتبوي وغرف الجنان، وتسميته اقراضاً للرحمن، مالم يجيء مثله في أي عمل من أعمال البر والاحسان.

وتجد أكثر الشواهد على ذلك في سورة البقرة (*) ثم في هذه السورة (براءة) ما تقدم تفسيره منها وما تأخر.

﴿ ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده ﴾ أي ألم يعلم أولئك التائبون من ذنبهم ان الله هو الذي يقبل توبة التائبين من عباده ، ولم يجعل ذلك لرسوله ، بآية من دونه من خلقه ، فلاستفهام لتقرير ما دل عليه القرآن وكونه هو الذي حملهم على التوبة ، - أو ألم يعلم المؤمنون كافة هذا وهو مقتضى الايمان وموجبه ؟ والاستفهام على هذا تحضيض على هذا العلم وما يستلزمه من التوبة . وقبول التوبة عنهم ، قيل انه بمعنى قبولها منهم ، نحو : لاصدقة إلا عن غنى ومن غنى ، وقيل ان القبول هنا قد تضمن معنى التجاوز والصفح ، أي هو الذي يقبلها منهم متجاوزاً

عن ذنوبهم عفواً عنها وهذا أبلغ ﴿ وبأخذ الصدقات ﴾ أي يتقبلها بأنواعها ويثيب عليها ، ويعدّها اقراضاً له فيضاعف ثوابها ، بمقتضى وعده في مثل قوله (ان تقرضوا الله قرضاً حسناً يضاعفه لكم ويغفر لكم) وقوله (من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً يضاعفه له أضعافاً كثيرة) فأخذ الصدقات له ثلاث صور (احداها) أخذ الفقراء والمساكين وغيرهم إياها من المستحقين من يد المتصدق (الثانية) أخذ النبي ﷺ في عهده والأئمة من بعده إياها لاجل وضعها في مصارفها التي أمر الله بها (الثالثة) أخذ الله عز وجل إياها وهو قبولها للثأب عليها بالمضاعفة التي وعدها . وفي التعبير بأخذ الله تعالى بعد قوله للنبي (خذ من أموالهم صدقة) تشريف للنبي

ﷺ بكونه تعالى هو الذي يأخذ ما أمره بأخذه ﴿ وان الله هو الثواب الرحيم ﴾ أي وانه هو الذي يقبل التوبة بعد التوبة من كل مذنب يشعر بضرر ذنبه ، ويتوب عنه متنبها الى ربه ، مها يتكرر ذلك الرحيم بالتائبين الذي يثيبهم . فصيغة المبالغة (الثواب) تتحقق بكثرة التائبين وتكرار التوبة من المذنب الواحد الذي يمنه

(*) راجع صفحة ٢٩٣ من الجزء الاول وص ١٢٦ - ١٥٩ وص ٤٥٦ ج ٢ وص ١٥ و ٥٩ و ٦٧ و ٧٨ - ٩٢ و ٣٧١ ج ٣ و ١٣٢ ج ٤ - ٩٧ و ٤٠١ و ٣٢٧ و ٤٠٥ ج ٥ و راجع ألفاظ الزكاة والصدقات والمال في فهرس الجزء العاشر وغيره

الخوف من ربه ، أن يصر على ذنبه ، كما قال تعالى في وصف المتقين (٣ : ١٣٥)
والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ، ومن
يعفر الذنوب إلا الله ؟ ولم يصر على ما فعلوا وهم يعلمون) وفي الحديث « ما أصر
من استغفر وإن عاد في اليوم سبعين مرة » (١) روى الشيخان من حديث أبي
هريرة مرفوعاً « ما تصدق أحدكم بصدقة من كسب حلال طيب - ولا يقبل الله
إلا الطيب - إلا أخذها الرحمن بيمينه وإن كانت تمرة ، فقبو في كف الرحمن
حتى تكون أعظم من الجبل كما يربي أحدكم فلوه أو فضيله » (٢) والحديث تمثيل
لمضاعفته تعالى للصدقة المقبولة

وهذه الجملة الاسمية المؤكدة بان وبضمير الفصل الدالة على الحصر ، وما فيها
من صيغة المبالغة بمعنى الكثرة من التوبة ، ومبالغة الصفة الراسخة من الرحمة ، تفيد
أعظم البشرى للتائبين ، وأبلغ الترغيب في التوبة المذنبين ، كما يخفى على المتدبرين .

﴿ وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون ﴾ هذا عطف على
قوله تعالى (خذ من أموالهم صدقة) الخ أي وقل لهم أيها الرسول اعملوا الدنيا كم
وآخرتكم ولا أنفسكم وامتكم (حذف متعلق بالعمل يدل على العموم ، وقدره بعضهم
اعملوا ما شئتم) فإنا العبرة بالعمل لا بالاعتذار عن التقصير ، ولا بدعوى الجد والتشهير ،
وخير الدنيا والآخرة منوطان بالعمل ، وهو لا يخفى على الله ولا على الناس أيضاً ،
فسيرى الله عملكم خيراً كان أو شراً ، فيجب عليكم أن تراقبوه تعالى في أعمالكم ،
وتذكروا أنه ناظر اليكم ، عليم بمقاصدكم ونياتكم ، لا يخفى عليه منكم خافية ، وجدير
بمن يؤمن برؤية الله لعمله أن يتقنه ، وأن يخلص له النية فيه ، فيقف فيه عند
حدود شرعه ، ويتحرى به تزكية نفسه والخير لخلقه ، ولا يكتفي فيه بترك
معاصيه ، واجتناب مناهيه ، راود رجل امرأة عن نفسها في فلاة قائلاً إنه لا يرانا
هنا إلا السكواب ، قالت فأين مكوكبها ؟ فحجل وانصرف . وسيراه رسوله

(١) رواء أبو داد والترمذي عن أبي بكرة مرفوعاً (٢) « الفلو بتشديد الواو
(كعدو) المهر ، أي ولد الفرس يفصل عن أمه ، والفصيل ولد الناقة حين يفصل عن أمه
« تفسير القرآن الحكيم » « ٥ » « الجزء الحادي عشر »

والمؤمنون ، ويزنونه بميزان الايمان ، المميز بين الاخلاص والنفاق ، وهم شهداء الله على الناس ، قال رسول الله ﷺ فيما رواه احمد وابو يعلى وابن حبان والبيهقي « لو ان أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لأخرج الله عمله للناس كأنما كان » وقال زهير :

ومها تكن عند امريء من خليقة وان خالها تخفي على الناس تعلم

فاذا كانت الخلائق النفسية ، والاعمال السرية ، لا تخفي على الناس مهما يكن من محاولة صاحبها الاخفاؤها ، فماذا يقال في الاعمال التي هي مقتضى العقائد والاخلاق وما انطبعت عليه النفس من المملكات ، ومرنت عليه من العادات ؟ ترى المؤمنين الصادقين يخفون بعض أعمالهم التي يستحب اخفاؤها كالصدقة على الفقير المتعفف سترًا عليه ، ومباغة في الاخلاص لله تعالى الذي ينافيه الرياء وحب السمعة ، ولكنهم لا يلبثون أن يشتهروا بها ، وترى بعض المنافقين يخفون بعض أعمال النفاق خوفا من الناس لا من الله ، ولكنهم لا يلبثون أن يفتضحوا بها . ومن أمثال العوام : ان الذي يخفي هو الذي لا يقع

والآية تهدينا الى أن مرضاة جماعة المؤمنين القائمين بحقوق الايمان ، المقررة صماتهم في القرآن ، تلي مرضاة الله ورسوله ، وانهم لا يجتمعون على ضلالة . وفي معناه حديث أنس في الصحيحين قول : مروا بجماعة فأنشوا عليها خيرا فقال النبي ﷺ « وجبت » ثم مروا بأخرى فأنشوا عليها شرا فقال « وجبت » فقال عمر ابن الخطاب (رض) ما وجبت ؟ قال « هذا أنثيتم عليه خيرا فوجبت له الجنة ، وهذا أنثيتم عليه شرا فوجبت له النار ، انتم شهداء الله في الارض » وفي لفظ مسلم تكرار « وجبت » ثلاث مرات في الموضعين ، وكذا تكرار « أنتم شهداء الله في الارض » وفي معناه حديث ابن عمر مرفوعا « إن الله لا يجمع أمتي - أو قال أمة محمد - على ضلالة ، ويد الله على الجماعة ومن شد شد الى النار ، أسند الترمذي من طريق ساجان المدني وقال هذا حديث غريب من هذا الرتبة وساجان المدني عندي هو ساجان بن سفيان اه أقول وهو ضعيف منكر الحديث باتفاقهم ويعزى الحديث الى الطبراني بلفظ « لا تجتمع أمتي على ضلالة » والعلماء يستدلون به على خجية

الاجماع لصحة معناه بموافقته للآيات والصحاح من الاخبار، وإنما يدل على اجماع الامة، أمة الاجابة وأهل الاستقامة، لا على الاجماع المصطلح عليه عند الاصوليين . وفي معناه قول ابن عباس «مارآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن» رواه عنه احمد في السنة لا في المسند، ومن الناس من يظن انه حديث مرفوع، ويستدل به الجهال حتى من المعممين ادعياء العلم على استحسان البدع الفاشية حتى في العقائد الثابتة، كبدع النُبور التي كان يابن النبي ﷺ فاعليها في مرض موته، من بناء المساجد عليها، والصلاة اليها، وايقاد السرج والمصابيح عندها، بل ما هو شر من ذلك وهو عبادتها بالطواف حولها، ودعاء اصحابها، والنذر لهم، والاستغاثة بهم، حتى في الشدائد وهو ما لم يكن يفعله عباد الاصنام في مثل هذه الحال، بل كانوا فيه يخاضون الدماء لله، فلا حول ولا قوة الا بالله

بعد هذا الارشاد الى ما يقتضي الاحسان في الاعمال من مراقبة الله وتحمري مرضاته ومرضاة رسوله وجماعة المؤمنين والخير لعباده بها، ذكرهم تعالى بما يقتضي ذلك من جزاء الآخرة عليها، فقال ﴿ وستردون إلى عالم الغيب والشهادة ﴾ بالبعث بعد الموت ﴿ فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ في الدنيا مما كان مشهوداً للناس منه، وما كان غائباً عن علمهم منه، ومن نياتكم فيه، ينبئكم به عند الحساب، وما يترتب عليه من الجزاء بحسن الثواب، أو سوء العذاب

(١٠٦) وَأَخْرَوْنَ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ
وَاللَّهُ دَلِيمٌ حَكِيمٌ

هذه الآية عطف على قوله تعالى (وأخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً) وهؤلاء هم القسم الاخير من المتخلفين عن غزوة تبوك . فقد علم مما تقدم ان المتخلفين منهم المنافقون وهم أكثرهم، وقد تقدم بيان أقسامهم ومن اعتذر ومن لم يعتذر منهم، ومنهم المؤمنون وهم قسماً (أحدهما) الذين اعترفوا بذنوبهم وتابوا وزكوا توبتهم بالصدقة وطلب دعاء الرسول

واستغفاره فتاب الله عليهم ، و (ثانيهما) الذين حاروا في أمرهم ولم يمتدروا
 لرسول (ص) لانهم لا عذر لهم ، وارجأوا توبتهم فأرجأ الله الحكم القطعي في
 أمرهم للحكمة التي يأتي بيانها قريبا . قال ابن عباس ومجاهد وعكرمة والضحاك
 وغيرهم : هم الثلاثة الذين خلفوا أي عن التوبة ، وهم مرارة بن الربيع وكمب بن
 مالك وهلال بن أمية ، قعدوا عن غزوة تبوك في جملة من قعد كسلا وميلا إلى
 الدعة والحظ وطيب الثمار والظلال لاشكا ونفاقا ، فكانت طائفة ربطوا أنفسهم
 بالسواري كما فعل ابو لبابة وأصحابه ، وطائفة لم يفعلوا ذلك وهم هؤلاء الثلاثة
 المذكورون ، فنزلت توبة اولئك قبل توبة هؤلاء ، وارجي . هؤلاء عن التوبة
 حتى نزلت آيتا التوبة الآتيتين (١١٧ و ١١٨)

﴿ وآخرون لأمر الله ﴾ أي وثم أناس آخرون من المتخلفين
 مؤخرون لحكم الله في أمرهم ، اولأمره لرسوله بما يعاملهم به . قرأ نافع وحزرة
 والكسائي وحفص عن عاصم (مرجون) بحذف الهمزة للتخفيف ، والآخرون
 (مرجؤن) بالهمزة على الاصل ، فهو اسم مفعول من أرجأه إذا أخره ، وقيل هما
 لفتان . رجاه يرجوه وأرجأه يرجئه . وروي ان هذا الإرجاء كان ٥٠ يوما

﴿ إما يعذبهم وإما يتوب عليهم ﴾ أي إيهام الأمر عليهم وعلى الناس ، لا
 يدرون ما ينزل فيهم ، هل تنصح توبتهم فيتوب الله عليهم كاتاب على الذين اعترفوا
 بذنوبهم ، أم يحكم بعذابهم في الدنيا والآخرة كما حكم على الخالفين من المذنبين ؟
 فالترديد بين الأمرين هو بالنسبة الى الناس لا إلى الله عز وجل ، وحكمة إيهام
 أمر هؤلاء عليهم إثارة الهم والخوف في قلوبهم لتصح توبتهم ، وحكمة إيهامه
 على الرسول ﷺ والمؤمنين تركهم مكالتهم ومخالطتهم ، تربية للفريقين على
 ما يجب في أمثالهم من الذين يؤثرون الراحة ونعمة العيش ، على طاعة الله ورسوله
 والجهاد في سبيله لاعلاء كلمة الحق والعدل ، ودفع عدوان الكفار عن المؤمنين ، حتى ما

كان من أمرهم ما بينه في الآية (١١٨) ﴿ والله عالم حكيم ﴾ عالم بمحال عبادته و
 ربهيم ويزكبيهم ويصالح حال أفرادهم ومجموعهم ، حكيم فيما يشرعه لهم من

الأحكام المفيدة لهذا الصلاح ما عملوا بها . ومن آثار علمه وحكمته إرجاء النص على توبتهم في كتابه ، ومن هذه الحكمة تكرار تأثير تلاوة المؤمنين للآيات في ذلك في الأوقات المتفرقة ، فإنها من أعظم آيات القرآن ترهيباً وخويفاً ، وعظة وتهذيباً

(١٠٧) وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ، وَلِيَحْفَنُ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٨) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا، لَمَسْجِدٍ أُسَسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ، فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهَّرِينَ (١٠٩) أَفَمَنْ أُسَسَ بِنَيْبَتِهِ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أُسَسَ بِنَيْبَتِهِ عَلَى شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنهَارٌ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ؟ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١١٠) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ

نزلت هذه الآيات الأربع في واقعة حال من مكابد المنافقين للرسول ﷺ والمؤمنين ، لم أر أحداً بين حكمة خاصة لتأخيرها عن أمثالها مما نزل في أعمال المنافقين ، ووضعها هنا في سياق توبة المذنبين من المؤمنين : ما تقدم منها فقبل ، وما تأخر فأرجي . ، وقد بينا الحكمة العامة في تفريق الآيات في الموضوع الواحد — وهو تجديد الذكرى والعظة ، وما تقتضيه من التأثير والعبارة — في مواضع متعددة من الكلام على التناسب ووجوه الاتصال بين الآيات . ولعل بعض ضعفاء المؤمنين كانوا قد شايعوا أولئك المنافقين الاثنى عشر الذين بنوا مسجد الضرار في علمهم جاهلين مقاصدهم منه ، فأريد بوضع القصة هنا وإيهام عطفها على من أرجأ الله الحكم

في امرهم، ان يعظوا لئلك العاقلون من المؤمنين المتورين بمسجد الضرار ومتخذه
ويخافوا أن يؤاخذوا بشايتهم لهم ، ولو بصلاتهم معهم في مسجدهم .

روي ان مجمع بن حارثة كان امامهم في مسجد الضرار فكلم بنو عمرو بن
عوف أصحاب مسجد قباء عمر بن الخطاب في خلافته بان يأذن لمجمع فيؤمهم في
مسجدهم، فقال لا ولا نعمة عين، أليس بامام مسجد الضرار؟ فقال يا امير المؤمنين
لا تمجل علي ، فوالله لقد صليت بهم والله يعلم اني لا اعلم ما أضمروا فيه ، ولو علمت
ما صليت معهم فيه ، كنت غلاما قارئا للقرآن وكانوا شيوا لا يقرءون من القرآن
شيئا . فعذره وصدقه وأمره بالصلاة بقومه قال تعالى

﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً

لمن حارب الله ورسوله من قبل ﴾ **﴿** يحتمل أن تكون هذه الجملة ابتدائية معطوفة
على ما قبلها من السياق في جملته حذف خبرها للعلم به ، ويبعد ان تكون معطوفة
على قوله (وآخرون مرجون) إلا على قول ضعيف روي عن الحسن وهو انه
في المنافقين ، والافصح أن يكون لفظ « الذين » منصوباً على الاختصاص بالذم ،
وجعله محتملاً لما ذكر وانغيره نراه من الابهام ، الذي تقتضيه البلاغة في هذا المقام ،
لما أشرنا اليه آنفاً من الابهام ، وقد قرر علماء البيان ان البلاغة تقتضي أحيانا
ايراد عبارة تذهب النفس في فهمها عدة مذاهب محتملة فيها . وقرأ نافع وابن عامر
(الذين) بغير واو . وهي أقرب الى قول الحسن منها الى قول الجمهور ، وما
أشرنا اليه من حكمة وضع الآيات هنا أظهر في هذه القراءة منه في قراءة
جمهور القراء (فتأمل)

ذكر المفسرون أن هؤلاء الذين اتخذوا هذا المسجد كانوا اثني عشر رجلا
من منافقي الاوس والخزرج وسموهم باسمائهم، وقد بين الله تعالى ان الاغراض
التي بنوه لاجلها أربعة ذكرت منصوبة على المفعول لأجله وهي:

(١) انهم اتخذوه لمضارة المؤمنين أي محاولة إيقاع الضرر بهم ، وهم أهل مسجد قباء (الذي بناه لهم رسول الله ﷺ ومقدمه من مكة مهاجراً وقيل وصوله إلى المدينة) إذ بنوه بجواره مضادة لهم في الاجتماع للصلاة فيه

(٢) الكفر أو تقوية الكفر ، وتسهيل أعماله من فعل وترك ، كتمكين المنافقين من ترك الصلاة هنالك مع خفاء ذلك على المؤمنين لعدم اجتماعهم في مسجد واحد ، والتشاور بينهم في الكيد لرسول الله ﷺ وغير ذلك ، قيل لا بد هنا من تقدير مضاف لأن بناء المسجد نفسه ليس كفراً ، ولكن التعليقات الاربعة في الآية هي للقصد من البناء المعبر عنه بالأتخاذ ، والكفر يطلق على الاعتقاد وعلى العمل المنافين الايمان

(٣) التفريق بين المؤمنين الذين هنالك ، فانهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد قباء ، وفي ذلك من مقاصد الاسلام الاجتماعية ما فيه ، وهو التعارف والتآلف والتعاون وجمع الكلمة ، ولذلك كان تكثير المساجد وتفريق الجماعة منافياً لمقاصد الاسلام ، ومن الواجب على المسلمين في كل بلد أن يصلوا الجمعة في مسجد واحد إذا تيسر ، فان تفرقوا عمداً وصلوا في عدة مساجد والحالة هذه كانوا خاطئين ، وذهب بعض الائمة إلى أن الجمعة الصحيحة تكون حينئذ لاهل المسجد الذين سبقوا بالتجميع وهذا يدل على أن بناء المساجد لا يكون قرينة مقبولة عند الله الا إذا كان بقدر حاجة المؤمنين المصلين ، وغير سبب لتفريق جماعتهم ، ومنه يعلم أن كثيراً من مساجد مصر القريب بعضها من بعض — وكذا أمثالها في الامصار الاخرى — لم تبني لوجه الله تعالى ، بل كان الباعث على بنائها الرياء ، واتباع الاهواء ، من جهلة الامراء والاغنياء .

(٤) الارصاد لمن حارب الله ورسوله من قبل اتخاذ هذا المسجد ، أي الانتظار والترقب لمن حارب الله ورسوله أن يجيء محاربا ، فيجد مكانا مرصداً له ، وقوماً راصدين مستعدين للحرب معه ، وهم هؤلاء المنافقون الذين بنوا هذا المسجد مرصداً لذلك . يقال : رصدته أي قعدت له على طريقه أترقبه ، وراصدته راقبته ،

وأرصدت هذا الجيش للقتال، وهذا الفرس للطراد اهـ منحصراً من الأساس، واتفق
المفسرون على أن الذي أغراهم ببناء هذا المسجد لهذا الغرض رجل من الخزرج
يعرف بأبي عامر الراهب، وعدهم بأن سيأتيهم بجيش من الروم لقتال النبي ﷺ وأصحابه

﴿وليخافن إن أردنا إلا الحسنى﴾ إخبار مؤكّد بالقسم أنهم سيخلفون
إنهم ما أرادوا ببنائه إلا الخصلة أو الخطة التي تفوق غيرها في الحسن، وهي الرفق
بالمسلمين وتيسير صلاة الجماعة على أولي العجز والضعف ومن يحبسهم المطر منهم،
ليصدقهم الرسول صلى الله عليه وسلم ويصلي لهم فيه ﴿والله يشهد إنهم لكاذبون﴾
في قولهم، حاثون بيمينهم. قال العماد ابن كثير:

سبب نزول هذه الآيات الكريمات أنه كان بالمدينة قبل مقدم رسول الله
ﷺ اليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب، وكان قد تنصر في
الجاهلية وقرأ علم أهل الكتاب، وكان فيه عبادة في الجاهلية وله شرف في الخزرج
كبير. فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه وصارت
للاسلام كلمة عالية وأظهرهم الله يوم بدر، شمرق العين أبو عامر بريقه وبارز بالعداوة
وظاهر بها، وخرج فاراً إلى كفار مكة من مشركي قريش، فأبهم لحرب رسول
الله ﷺ فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب واندموا عام أحد، فكان من
أمر المسلمين ما كان، وامتحنهم الله عز وجل، وكانت العاقبة للمتقين، وكان هذا
الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في احدها رسول الله ﷺ وأصيب
ذلك اليوم فجرح وجهه وكسرت رباعيته اليمنى السفلى وشج رأسه صلوات الله
وسلامه عليه، وتقدم أبو عامر في أول المبارزة إلى قومه من الانصار فخطبهم
واستألمهم إلى نصره وموافقته، فلما عرفوا كلامه قالوا: لا أنعم الله بك علينا يا فاسق
ياعدو الله، ونالوا منه وسبوه، فرجع وهو يقول: والله لقد أصاب قومي بعدي
شر، وكان رسول الله ﷺ قد دعاه إلى الله قبل فراره وقرأ عليه من القرآن
فأبى أن يسلم وتمرد، فدعا عليه رسول الله ﷺ أن يموت بعيداً طريداً، فنانته

هذه الدعوة ، وذلك أنه لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ﷺ في ارتفاع وظهور ، ذهب الى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ فوعده ومنأه ، وأقام عنده وكتب الى جماعة من قومه من الانصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنبهم انه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويغلبه ويرده عما هو فيه ، وأمرهم ان يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لاداء كتبه ، ويكون مرصداً له إذا قدم عليهم بعد ذلك . فشرعوا في بناء مسجد بجوار المسجد قباء ، فبينوه وأحكموه وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ الى تبوك ، وجاءوا فسألوا رسول الله ﷺ ان يأتي اليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلانه فيه على تقريره وإثباته ، وذكروا انهم انما بنوه للضعفاء منهم وأهل العلة في الليلة الشاتية ، فعصمه الله من الصلاة فيه فقال « إنا على سفر ولكن إذا رجعنا ان شاء الله » فلما قفل عليه السلام راجعا الى المدينة من تبوك ولم يبق بينه وبينها الا يوم او بعض يوم نزل عليه جبريل بنخبير مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين في مسجدهم (مسجد قباء) الذي اسس من اول يوم على التقوى ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الى ذلك المسجد من هدمه قبل مقدمه المدينة كما قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية - وذكر روايته بمعنى ما ذكر مختصرة اهـ

وذكر البغوي في خبر أبي عامر الفاسق هذا انه مازال يقاتل النبي ﷺ ويحرض عليه المشركين الى يوم حنين فلما انهزمت هوازن ينس وخرج هاربا الى الشام ، وأرسل الى المنافقين ان استعدوا بما استطعتم من قوة وسلاح ، وابنوا لي مسجداً فني ذاهب الى قيصر ملك الروم فأت بجند من الروم الحما تقدم آفعا ﴿ لا تقم فيه أبدا ﴾ هذا نهي للرسول ﷺ والمؤمنين بالتمتع له عن الصلاة فيه مؤكداً بلفظ الابد الذي يستغرق الزمن المستقبل ، وتفسير القيام بالصلاة هنا مروى عن ابن عباس وهو معهود في التنزيل كقوله (وقوموا لله قانتين) وقوله (قم الليل إلا قليلا) والنهي عن القيام المطلق يتضمن النهي عن القيام للصلاة ، ولكنها

هي المقصودة بالنهي لطلبهم لها منه ﷺ ﴿ المسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه ﴾ اللام الداخلة على المسجد للتقسيم أو للابتداء . والتأسيس وضع الأساس الأول للبناء الذي يقوم عليه ويرفع ، والمراد منه هنا القصد والغرض من البناء ، والتقوى الاسم الجامع لما يرضي الله ويقي من سخطه ، أي إن مسجداً قصد بينائه منذ وضع أساسه في أول يوم تقوى الله تعالى بإخلاص العبادة له وجمع المؤمنين فيه على ما يرضيه من التعارف والتعاون على البر والتقوى هو أحق أن تقوم فيه أيها الرسول مصلياً بالمؤمنين من غيره ، ولا سيما ذلك المسجد الذي وضع أساسه على المقاصد الأربعة الخبيثة ، والسياق يدل على أن المسجد الذي أسس على التقوى من أول يوم مسجد قباء ، وقد صح في أحاديث رواها الإمام أحمد ومسلم والترمذي والنسائي وغيرهم أن النبي ﷺ سئل عنه فأجاب بأنه مسجد الذي في المدينة ففي رواية مسلم عن أبي سعيد أنه لما سأله أخذ ﷺ كفاً من حصاء فضرب به الأرض ثم قال « هو مسجدكم هذا » وفي رواية لأحمد عنه وعن سهل بن سعد « هو مسجدي هذا » ولفظ الآية لا يمنع من إرادة كل من المسجدين ، لأن كلامهما قد بناه النبي ﷺ ووضع أساسه على التقوى من أول يوم شرع فيه بينائه أو من أول يوم وجد في موضعه (والتحقق أن « من » تدخل على الزمان والمكان)

﴿ فيه رجال يحبون أن يتطهروا ﴾ هذه جملة وصف بها المسجد الذي أسس على التقوى تؤكده جميع القيام مع أهله المطهرين في مقابل أهل مسجد الضرار وهم رجس والمعنى : فيه رجال يعمرونه بالإعتكاف وإقامة الصلاة ، وذكر الله وتسيبته فيه بالقدور والآصال ، يحبون أن يتطهروا بذلك من كل ما يملق بأنفسهم من درن الآثام ، أو التقصير في إقامة دعائم الإسلام ، كما تطهر المتخلفون منهم عن غزوة تبوك بالتوبة والصدقات ، ومن لوازم عمارته المعنوية والعكوف فيه طهارة الثوب والبدن الحسية ، وطهارة الوضوء والغسل الحكيمية ، فالتطهر صيغة مبالغة تشمل الطهارتين النفسية والبدنية ، ووردت الروايات بكل منهما ، ولكل من الاستعمالين هو موضع من التنزيل ، واجمع بينهما هو الأولى

﴿ والله يحب المطهرين ﴾ أي المبالغين في الطهارة الروحية والجسدية، وإنما يبالغون فيها إذا أحبوها، وحينئذ تكمل انسانيتهم المؤلفة من الروح والجسد. ولا يطبق نجاسة البدن وقذارته إلا ناقص الفطرة والادب، وأنقص منه من يطبق بحيث النفس بالأصرار على المعاصي والعادات القبيحة، والتخلق بالاخلاق الذميمة. دع رجس المنافقين المرأين في الأعمال، الاشحة بالخلين بالاموال. وأما حب الله للمستحقين لحبه، فهو من صفات كماله، لان العالم بتفاوت الاشياء في الحسن والقبح، والكمال والنقص، يكون من أفضل صفاته حب الجمال والتأمل والحق والخير وبغض اضدادها وكرهاتها. ووجه اللاتق برؤيته منزعه عن مشابهة حينما، كتنزه ذاته وسائر صفاته عن مشابهة ذواتها وصفاتها، ولكن يظهر أثره في المحبوبين من عبادته في أخلاقهم وأعمالهم، ومعارفهم وآدابهم، واعلامه أشار اليه حديث البخاري القدسي «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به» الخ (١) وقد قال الله تعالى مملأ ما وعظ به نساء نبيه ﷺ من أمره ونهيها لمن بما يليق بمكاتبهم من رسوله (انما يريد الله ليذهب عنكم أهل البيت ويعطوكم طعاميرا) وقد فسر بعض المفسرين بحبته تعالى للمطهرين برضاه عنهم واحسانه اليهم، وهو تأويل فسر به اللفظ ببعض لوازمه، فان كان هربا من نظرية من قال من المتكلمين ان اتصاف الله تعالى بالحب محال، لأنه انفعال نفسي يستحيل على ذي الجلال، فيجب تفسيره بلازمه المذكور كما قال بعضهم في الرحمة وغيرها من الصفات — فهو هروب من مذهب السلف الحق، ووقوع فيما فروا منه بالتأويل، وهو تشبيه الله بخلقه. إذ يقال لهم إن الرضا عاطفة نفسية كالحب، والاحسان عمل بدني كبسط اليد بالبدل، وهما يسندان الى الناس فلا يصح أن يوصف بهما الخالق عز وجل، لانه تشبيهه له بالخلق، وكذا العلم والقدرة والمشيئة والكلام، وغيرهما من صفات الذات، فان كلا منها وضعت في اللغات، لمعانيها المعروفة في الخلوقات، ككون العلم صور المعلومات المنتزعة منها في الذهن، وهو بهذا المعنى محال على الله عز وجل. وإذا كان الامر كذلك فالحق أن يوصف تعالى بما ووصف به نفسه على ظاهره بقيوده.

الثلاثة التي قررها السلف الصالح : اي بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل . فعلمه تعالى انكشاف يليق به ، وحبه معنى نقدي يليق به الخ

ذكر السيوطي في الدر المنثور عدة روايات حاصلها ان النبي ﷺ سأل أهل قباء عن سبب ثناء الله تعالى عليهم بهذه الآية فأجابوه بانهم يستنجون بالماء . وفي بعضها انهم يتبعون الحجارة بالماء . و ذكر ان ابن ماجه وابن المنذر وابن أبي حاتم والدارقطني والحاكم وغيرهم رووا عن طلحة بن نافع قال حدثني ابو أيوب وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك (رض) ان هذه الآية لما نزلت (فيهم رجال يحبون أن يتطهروا) قال رسول الله ﷺ « يا معشر الانصار ان الله قد أنى عليكم خيراً في التطهور فما تطهروا كما هذا ؟ » قالوا نتوضأ للصلاة ونغتسل من الجنابة . قال « فهل مع ذلك غيره ؟ قالوا ان أحداً فإذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء قال « هو ذلك فعليكموه »

أقول طلحة بن نافع هذا ثقة روى عنه الجماعة كلهم ولكن رواية البخاري عنه مقرونة بنيردوهي أربعة أحاديث رواها عن جابر . ولعله اقتصر عليها لقول شيخه علي بن المديني إنه لم يرو عن جابر غيرها ، أي لم يصح عنده غيرها . وقال ابو حاتم انه لم يسمع من أبي أيوب ، ولكنه هنا صرح بالسماع منه فيما زاده من ذكر وغيرهم . وحديثه هذا على كل حال أقوى من أحاديث سؤال النبي ﷺ أهل مسجد قباء وجعله انشاء عليهم ، وهو في سؤال الانصار ، والمسؤلون منهم كلهم من سكان المدينة ، ويؤيده الاحاديث الصحيحة الناطقة بان المسجد الذي أتى الله عليه وعلى أهله هو مسجده فيها . وقد قلنا انه لا مانع من ارادة كل منهما ، وهو أولى من القول بتعارضهما ، كما أن الروايات فيهما لا تنافي ارادة نوعي الطهارة كليهما ، ويؤيد ارادة ابطهارة المعنوية قوله تعالى

﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير ؟ أم من أسس بنيانه

على شفا جرف هارٍ فانهار به في نار جهنم ؟ ﴾ هذا بيان مستأنف للفرق بين أهل المسجدين في مقاصدهما منها : أهل مسجد الضرار الذي زادوا به رجساً إلى

وجسهم ، وأهل مسجد التقوى وهم الرسول ﷺ وانصاره الذين يحبون أكمل الطهارة لظاهرم وباطنهم ، فاستفادوا بذلك محبة الله لهم ، وورد بصيغة استفهام التقرير ، لما فيه من تنبيه الشعور وقوة التأثير ، والبنيان مصدر كالعمران والغفران ، ويراد به المبنى من دار أو مسجد وهو المتعين هنا . وتقدم آنفا معنى التأسيس والشفاء (بالفتح والقصر) الحرف والشذير للحرف والنهر وغيره . والحرف (بضمتين) جانب الوادي ونحوه الذي يتحفر أصله بما يجرفه السيل منه فيجتاح أسفله فيصير ما نال للسقوط . والهار الضعيف المتصدع المتداعي للسقوط^١ وهذا التعبير يضرب مثالا لما كان في منتهى الضعف والاشراف على الزوال ، وهو من أبلغ الامثال ، لمنتهى الوهي والانحلال المراد بالمثل هنا بيان ثبات الحق الذي هو دين الاسلام وقوته ودوامه ، وسعادة أهله به ، وذكره بأثره وتمرتة في عمل أهله وجماعها اتقوى ، وبجزائهم عليه وأعلاء رضوان الله تعالى ، وبيان ضعف الباطل واضمحلاله ، ووهيه وقرب بزواله ، وخيبة صاحبه وسرعة انقطاع آماله ، ونسب أهله المنافقين ، ونسب أعمالهم ما أخذوه من مسجد الضرار لانهما سد الاربعة المدينة في الآية الاولى من هذا السياق وقد ذكر في وصف بنيان الفريق الاول وهم المؤمنون المشبهه دون المشبه به لانه المقصود بالذات ولم يذكر فيما قبله من عملهم إلا المبالغة في الطهارة . وذكر من وصف بنيان الفريق الثاني الهيئة المشبه بها دون المشبه ، لانه ذكر فيما قبل مقاصدهم منها كلها ، وهذا من دقائق إيجاز القرآن

تقول في المعنى الجامع بين المشبه به في الفريقين: أفمن أسس بنيانه الذي يتخذة مأوى وموئلا له ، يقيه من فواعل الجو وعدوان كل حي ، وموطنا لراحته ، وهناء معيشته ، على أمتن أساس وأثبتة ، وأقواه على مصابرة العواصف والسيول ، وصد الهوام والوحوش - هو خير بنيانا ، وراحة وأمانا ؟ أم من أسس بنيانه على أوهى القواعد وأقلها بقاء واستمساكا ، فهي عرضة للانهار ، في كل لحظة من ليل او نهار ؟ وأما معنى المشبه المقصود بالذات في كل منهما فيصور هكذا: أفمن كان مؤمنا صادقا يتقي الله في جميع أحواله ، ويتبع رضوانه في أعماله ، بزيكية نفسه بها ونفع (١) اصله هار من هار هور فهو هار وهار ، ومثله شائك وشاك ، وصائت وصات

عياله ، (وانخلق كلهم عيال الله كما ورد في الخبر عن رسوله ﷺ) - افمن كان كذلك خيراً عملاً ، وأفضل عاقبة وأملاً ، ومن نزل فيهم (ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً) أم من هو منافق مرتاب ، سراء كذاب ، يبتغي بأفضل مظاهر اعماله الضرر والضرار ، وتقوية أعمال الكفر وموالاته الكفار ، وتفريق جماعة المؤمنين الاخيار ، والارصاد لمساعدة من حارب الله ورسوله من الاشرار ، وما يكون من عاقبة ذلك في الدنيا من الفضيحة والعار ، والحزى والبوار ، وفي الآخرة من الانهيار في نار جهنم وبئس القرار ؟

وفي معنى هذا المثل (١٣ : ١٧ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها) الآية . وخلاصة المثليين ان الايمان الصادق ، وما يلزمه من العمل الصالح . هو المثمر الثابت ، وان النفاق وما يستلزمه من العمل الفاسد ، هو الباطل الزاهق ، وهذا المعنى يوافق قول علماء الكون إنه لا يتنازع شيئان في الوجود إلا ويكون الغالب هو الاصلح منهما . ويسمون هذه السنة (ناموس الانتخاب الطبيعي وبقاء الامثل) وسبق بيانها في هذا التفسير (١)

صدق الله العظيم ، فقد ثبت الله المؤمنين بالقول الثابت ، وهداهم بايمانهم إلى العمل الصالح ، ففتحوا البلاد ، وأقاموا الحق والعدل في العباد ، وأهلك الله المنافقين ، فلم يكن لهم من أثر صالح في العالمين ، هكذا كان وهكذا يكون ، ولكن المنافقين لا يفتقرون ولا يعتبرون ، وشر النفاق وأضره نفاق العلماء ، الملوك والامراء (٢)

﴿ والله لا يهدي القوم الظالمين ﴾ أي مضت سنته في ارتباط العقائد والاخلاق بالاعمال ، بان الظالم لا يكون مهتدياً في أعماله إلى الحق والعدل ، فضلاً عن الرحمة والفضل . ولا أظلم في الناس من المنافقين (٣ : ٨٦ كيف يهدي الله قوما كفروا بعد ايمانهم وشهدوا ان الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين)

﴿ لا يزال بنياهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم ﴾ الريبة اسم من الريب وهو ما

(١) تجده في مواضع من اجزائه اولها آخر صفحة من الجزء الثاني

(٢) راجع ص ٥١٧ و ٥٢٩ ج ١٠ تفسير

تضطرب فيه النفس ، ويتردد الوهم ويسوء الظن ، فيكون صاحبه منه في شك وحيرة إن لم يكن مثاره الشك . قال قوم صالح عليه السلام له ، منكرين دعوة إياهم إلى عبادة الله وحده (١١ : ٦٢) وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب . ولهذا الاستعمال أمثال في التنزيل ، وهو صريح في أن الشك مشار للريب وموقع فيه لا أنه عينه ، وقد يفسر به باعتبار لزومه له وإيقاعه فيه . قال الشاعر :

وكنت إذا ماجئت ليلى تبرقت وقد رايتني منها الغداة سفورها

والظاهر أن ارتياهم فيه كان منذ بنوه إلى أن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بهدمه فيدم ، وذلك أنهم أسوء نيتهم في بنائه كانوا يخافون أن يطلع الله رسوله على مقاصدهم السوءى فيه ، وكان ذلك شأن سائر اخوانهم كما تقدم في قوله تعالى (٦٤) يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تبشئهم بما في قلوبهم) وذكرنا في تفسيرها قوله تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) (ص ٥٢٥ - ٥٢٨ ج ١٠) وأجدر بهم أن يكونوا بعد هدمه أشد ارتياها ، وأكثر اضطرابا ، بما يحذرون من عقابهم في الدنيا كما أنذرتهم هذه السورة مرارا ، وأن يستمر ذلك

ملازمهم ﴿ إلا أن تقطع قلوبهم ﴾ قرأ ابن عمر وحفص عن نافع وحزمة (تقطع) بفتح التاء وتشديد الطاء من التقطع ، وقرأ الباقر بنضم التاء من التقطع ، أي إلا أن تقطع الريبة قلوبهم أفلاذًا ، فنتقطع بها وتكون جذاذًا ، وقرأ يعقوب (إلى) بدل (إلا) ، وفسر ذلك بالموت والهلاك وبالחסرة والتدم المقتضي للتوبة ، وقال الزمخشري وتبعه معتادو الأخذ عنه : لا يزال هدمه سبب شك ونفاق زائد على شكهم ونفاقهم ، لا يزال وسمه عن قلوبهم ، ولا يضمحل أثره (إلا أن تقطع قلوبهم) قطعًا ، وتفرق أجزاء ، فحينئذ يسلمون عنه ، وأما ما دامت سالمة مجتمعة ، فالريبة باقية فيها متمكنة ، فيجوز أن يكون ذكر التقطع تصويرًا لحال زوال الريبة عنهم ، ويجوز أن يراد حقيقة تقطيعها وما هو كائن منه بقتلهم ، أو في القبور أو في النار . وقيل معناه إلا

أن يتوبوا توبة تقطع بها قلوبهم ندما وأسفا على تفريطهم اه ﴿ والله عليم حكيم ﴾ فحكم في أمرهم وبين من حلهم ما اقتضته الحكمة والعلم المحيط بكل شيء .

(١١١) إِنْ لَّهِ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ، وَعَدَا عَلَيْهِمْ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ؟ فَاسْتَبَشِرُوا بْبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٢) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِلُونَ السَّيِّئَاتِ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ لِلْآلَاءِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

هاتان الآيتان في بيان حال المؤمنين حق الايمان ، البالغين فيه ما هو غاية الله من الكمال ، وضعتا بعد بيان حال المنافقين ، وأسنان المؤمنين المقصرين ، ومنهما تعرف جميع درجات المسلمين ، ولا سيما المتخلفين عن الجهاد في سبيل الله

﴿ ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ﴾ هذا تمثيل لآثابة الله المؤمنين على بذل أنفسهم وأموالهم في سبيله بتمليكهم الجنة دار النعيم الابدي ، والرضوان السرمدي ، تفضل جل جلاله وعم نواله بجعلها من قبيل من باع شيئاً هوله لاخر ، لطفاً منه تعالى وكرماً وتكريماً لعباده المؤمنين بجعلهم كالتعاقدين معه كما يتعاقد البيعان على المنافع المتبادلة وهو عز وجل المالك لانفسهم اذ هو الذي خلقها ، والمالك لاموالهم اذ هو الذي رزقها ، وهو غني عن انفسهم وأموالهم ، وانما المبيع

والثمن له وقد جعلها بكرمه لهم ، وقوله ﴿ يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ﴾ بيان لصفة تسليم المبيع وهو انهم يقاتلون في سبيل الحق والعدل الموصله إلى مرضاته تعالى فيبذلون انفسهم وأموالهم فيكونون اما قاتلين لاعدائه الصادين عن سبيله ، وإما مقتولين شهداء في هذه السبيل - قرأ الجمهور بتقديم (يقاتلون) المبني للفاعل ، وحزرة والنكسائي بتقديم المبني للمفعول ، فدللت القراءتان على أن الواقع هو أن

يقتل بعضهم ويسلم بعض ، وانه لا فرق بين القاتل والمقتول في الفضل ، والمثوبة عند الله عز وجل ، إذ كل منهما في سبيله لاحقاً في سفك الدماء ، ولا رغبة في اغتنام الاموال ، ولا توسلاً الى ظلم العباد ، كما يفعل عباد الدنيا من الملوك ورؤساء الاجناد

﴿ وعداً عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ﴾ أي وعدمه بذلك وعداً أوجبه لهم على نفسه ، وجعله حقا عليه أثبتته في الكتب الثلاثة المنزلة على أشهر رسله ، ولا تتوقف صحة هذا الوعد على وجوده في التوراة والانجيل اللذين في أيدي أهل الكتاب بنصه لما أثبتناه من ضياع كثير منهما ، وتحريف بعض ما بقي لفظاً ومعنى ، بل يكفي اثبات القرآن لذلك وهو مهيم علىهما . (راجع ص ٣٤٢ ج ١٠)

﴿ ومن أوفى بعهده من الله ؟ ﴾ أي لا أحد أوفى بعهده وأصدق في انجاز وعده من الله عز وجل ، إذ لا يمنعه من ذلك عجز عن الوفاء ، ولا يمكن أن يتعرض له فيه التردد او البداء ، (١) ﴿ فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به ﴾ الاستبشار الشعور بفرح البشرية أو استشعارها ، الذي تنبسط به بشرة الوجه

فيألق نورها ، والجملة تقرير التام صفقة البيع من الجانبين ﴿ وذلك هو الفوز العظيم ﴾ الذي لا يتعاطاه فوز ، دون ما يتقدمه من النصر والسيادة والملك ، الذي لا يعد فوزاً إلا بجملة وسيلة لاقامة الحق والعدل . أعلى الله تعالى مقام المؤمنين المجاهدين في سبيله فجعلهم بفضلهم مالدين معه ، ومبايعين له ، ومستحقين الثمن الذي بايعهم به ، وأكد لهم أمر الوفاء به وانجازه ، ويروي عن جدنا الامام جعفر الصادق عليه السلام في معنى الآية

أثامن بالنفس النفيسة ربهما فليس لها في الخلق كلهم ثمن
بها اشتري الجنات ، إن أنا بعثتها بشيء سواها إن ذلكم غيب (٢)
إذا ذهبت نفسي بدنيا أصبتها فقد ذهبت مني وقد ذهب الثمن

« ١ » البداء بالفتح أن يدولك في الامر ما لم يكن في علمك ولا حشاك فترجع عما كنت تريد امضاء فيه (٢) الثمن بالتحريك وبفتح فسكون واحد من غيبه في البيع إذا غلبه بغش أو خديعة

ويروى عنه انه قال : ايس لا بدأنكم ثمن إلا الجنة فلا تبيعوها إلا بها -
ومعناه ان الذى يقتل أو يموت في سبيل الله كان باذلاً لبدنه الغائى لالروحه الباقية،
وايس معناه أن يبيع لربه جسده دون نفسه الناطقة كما توهم بعض المتفلسفين -
أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال نزلت هذه الآية
على رسول الله ﷺ وهو في المسجد فكبر الناس في المسجد فأقبل رجل من
الانصار ثانياً طرفي رداً على عاتقه فقال يا رسول الله أنزلت فينا هذه الآية ؟ قال
« نعم » فقال الانصاري بيع ربيع ، لا تقيل ولا نستقيل - يعنى البيع -

وأخرج ابن جرير ان عبد الله بن رواحة قال لرسول الله ﷺ اشترط لنفسك
ولربك فقل « أشترط لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، واشترط لنفسى
أن تمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأموالكم » قالوا فإذا فعلنا ذلك فما لنا ؟ قال
« الجنة » قال : ربح البيع لا تقيل ولا نستقيل . فنزلت الآية . وظاهر هذا انها
نزلت في مبايعة الانصار للنبي ﷺ وتفصيله فيما يلي وان لم يصرح بانه سبب النزول
وأخرج ابن سعد عن عباد بن الوليد بن عباد بن الصامت ان سعد بن
زرارة أخذ بيد رسول الله ﷺ ليلة العقبة فقال : يا أيها الناس هل تدرون علام
تبايعون محمداً ؟ انكم تبايعونه على أن تحاربوا العرب والعجم والجن والانس كافة .
فقالوا نحن حرب لمن حارب ، وسلم لمن سالم . فقال سعد بن زرارة يا رسول الله
اشترط علي فقال « تبايعوني على أن تشهدوا أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله
ﷺ ، وتقيموا الصلاة وتؤتوا الزكاة ، والسمع والطاعة ، ولا تنازعوا الامر أهله
وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأهليكم » قالوا نعم ، قال قائل الانصار : نعم هذا لك
يا رسول الله فما لنا ؟ قال « الجنة والنصر »

وأخرج ابن سعد عن الشعبي قال : انطلق النبي ﷺ بالعباس بن عبد المطلب
وكان ذا رأي إلى السبعين من الانصار عند العقبة فقال العباس ليتكلم متكلمكم
ولا يطيل الخطبة فان عليكم للمشركين عينا ، وان يملعوا بكم يفضحوكم . فقال
قالهم : وهو ابو امامة أسعد - يا محمد سل لربك ما شئت ثم سل لنفسك ولاصحابك
معاشة ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله وعليكم إذا فعلنا ذلك ، فقال « أسألكم

لربي أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً، وأسألكم لِنَفْسِي وَأَصْحَابِي أَنْ تُؤُونَا وَتَنْصُرُونَا وَتَمْنَعُونَا مِمَّا نَمْنَعُونَ مِنْهُ أَنْفُسَكُمْ» (١) قال فإلنا إذا فعلنا ذلك؟ قال الجنة» فكان الشيعي إذا حدث هذا الحديث قال ما سمع الشيب والشباب بخطبة أقصر ولا أبلغ منها ومعنى نزولها في مبايعة الانصار انها تدخل في عموم الآية دخولاً أولياً لانها خاصة بها . وقد روى ابن مردويه من حديث أبي هريرة مرفوعاً « من سل سيفه في سبيل الله فقد بايع الله » وروى ابن أبي حاتم وابوالشيخ عن الحسن قال : ما على ظهر الأرض مؤمن إلا وقد دخل في هذه البيعة . وفي لفظ : اسعوا إلى بيعة بايع الله بها كل مؤمن (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم) ولكن العجب ممن يدعون الايمان وهم ينكثون ببيعة الله عز وجل فهم لا يبذلون أنفسهم ولا شيئاً من أموالهم في سبيل الله ، وانما يطلبون الجنة بغير ثمنها كما يطلبون سعادة الدنيا وسيادتها من غير طريقها ، ولا طريق لها إلا الجهاد بالمال والنفس . والقرآن حجة عليهم وهو حجة الله البالغة التي لا يدحضها شيء وهي تدحض كل شيء . ثم وصف الله تعالى هؤلاء المؤمنين البائعين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بجنته ودار

كرامته ، فقال ﴿ التائبون ﴾ أي هم التائبون الكاملون في توبتهم وهي الرجوع إلى الله تعالى عن كل ما يبعد عن مرضاته ، وتختلف باختلاف احوال أهلها ، فتوبة الكفار الذين يدخلون في الاسلام هي الرجوع عن الكفر الذي كانوا عليه من شرك وغيره كما تقدم في قوله تعالى (١١) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) وتوبة المنافق من النفاق وتقدم ذكرها في هذه السورة أيضاً ، وتوبة العاصي من المعصية ، ومنه توبة من تخلف عن غزوة تبوك من المؤمنين ، وتقدم قريباً ذكر من تاب منهم ومن أرجيء أمره ، - وتوبة المقصر في شيء من البر وعمل الخير انما تكون في التشمير فيه والاستزادة منه - وتوبة من يغفل عن ربه ، انما تكون في الاكثار من ذكره وشكره ، وسيأتي ذكر توبة الله تعالى على الجميع في الآيتين (١١٧ و ١١٨)

﴿العابدون﴾ لله ربهم وحده مخلصين له الدين في جميع عباداتهم في عامة أوقاتهم ، لا يتوجهون إلى غيره بدعاء ولا استعانة ، ولا يتقربون إلى سواه بعمل مما يقصد به القربة ومشوبة الآخرة

﴿الحامدون﴾ لله ربهم في السراء والضراء بالثناء عليه بلفظ الحمد وغيره من الذكر المشروع الدال على الرضاء منه تعالى . ومما يصب الانسان من مصائب الدنيا فانه يبقى له من النعم فيها وفي الدين بل يبقى له من اللطف الالهي في نفس المصائب ما يجب عليه أن يحمد الله ويشكره عليه (وتقدم بيان الحمد والعبادة في تفسير سورة الفاتحة وغيرها)

﴿السائحون﴾ في الارض محبوبون الاقطار لغرض صحيح من علم أو عمل كالجهاد في سبيل الله ، وروي عن عطاء ، او للهجرة حيث تشرع الهجرة وروى عن عبد الرحمن بن زيد ، قال السائحون هم المهاجرون ليس في أمة محمد سياحة إلا الهجرة . او لطلب العلم النافع للسائح في دينه أو دنياه او النافع لقومه وأمته وروي عن عكرمة وخصه بعضهم بطلب الحديث (لانهم كانوا يسافرون من مصر إلى أخرى للرواية) او للنظر في خلق الله وأحوال الشعوب والامم للاعتبار والاستبصار ومعرفة سنن الله تعالى وحكمه وآياته ، وهذا ما تدل عليه الآيات المتعددة في الحث على السير في الارض كما بيناه في الاصلين (١٣ و ١٤) من الاصول العلمية التي استنبطناها من سورة الانعام (ص ٢٨٩ ج ٨)

وروي عن عبد الله بن مسعود ان المراد بالسائحين الصائمون وقاله في تفسير (سائحات) من سورة التحريم ، وتعلق به مصنفو التفاسير لاستبعادهم مدح الله تعالى النساء بالسياحة في الارض ، وانما يحظر في الاسلام سفر المرأة منفردة دون زوجها أو أحد محارمها ، واما إذا كانت تسيح مع الزوج والمحرم حيث يسيح لغرض صحيح من علم نافع او عمل صالح او طلب الصحة او الرزق فلا اشكال في مدحها بالسياحة . بل ينبغي اشتراك الرجال والنساء في جميع أعمال الحياة النافعة ، وأزيد على ذلك السياحة والسفر لطلب الرزق الحلال من تجارة وغيرها .

وإذا صح ان النبي ﷺ وأصحابه كانوا يصحبون نساءهم في غزواتهم عند الامكان ، وهن غير مكلفات بالقتال ، بل يساعدن عليه بتهيئة الطعام والشراب ، وتضميد الجراح وغير ذلك كما تقدم في تفسير (٧١- والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) (٥٤١ ج ١٠) فلأن يصحبهم في سائر الاسفار أولى ، وفي سفر المرأة مع زوجها احصان له ولها ، فهو مانع المسلم من التطلع في السفر إلى غيرها وعلل سفيان بن عيينة تفسير السائحين بالصائمين بان الصائم يترك اللذات كلها كالسائح للتعبد، ومثله أومنه قول الازهري: يسمى الصائم سائحاً لأن الذي يسيح في الارض متعبداً لا يحمل زاداً فكان ممسكاً عن الاكل. ولهذا التعليل خص بعضهم اطلاق وصف السائحين على الصائمين بالذين يديمون الصيام ، وأخذ بعضهم بظاهر اللفظ ، فقال يكفي في صحة لوصف صيام الفرض ، وكل ذلك ضعيف والصوفية يخصون السائحين المدوحين بالذين يهيمون في الارض لثريية إرادتهم، وتهذيب أنفسهم باحتمال المشاق ، والبعد عن مظان السمعة والرياء ، لجمع القلب على الرب عز وجل بالاخلاص في عبادته، والتكفل في منازل معرفته، كالسائحين من الامم قبلهم ، وقد كان اطلاق السياحة بهذا المعنى ذائعاً من قبل الاسلام حتى قال صاحب القاموس: السياحة الذهاب في الارض للعبادة ومنه سمي المسيح الخ واعترضوه فيه فانما هو عرف ليس من أصل اللغة ، وتقدم معنى السياحة اللغوي في تفسير قوله تعالى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر) وهو أول آية من هذه السورة (ص ١٥٢ ج ١٠)

وقد حدث للمتصوفة بدع في السياحة كقصد مشاهد القبور المنسوبة إلى الانبياء والصالحين للتبرك بها ، والاستمداد من ارواح من دفنوا فيها ، وكثير منهم يكون له هوى في التنقل من بلد إلى آخر فيظل هائماً في الاسفار ، وينقطع بذلك عن الاعمال التي تنفع الناس وعن الزواج ، ويرتكب بعضهم فيها كثيراً من المنكرات ، ويكون لهم طمع في استجداء الناس ، والسؤال حرام إلا لضرورة ، والفقهاء ينكرون عليهم سياحتهم هذه

قال ابن الجوزي: السياحة في الارض لا المقصود ولا إلى مكان معروف

منهي عنها . وقد روينا ان النبي ﷺ قال « لا رهبانية في الاسلام ولا تبتل ولا سياحة في الاسلام » وقال الامام احمد ما للسياحة من الاسلام في شيء ولا من فعل النبيين والصالحين ، ولان السفر يشقت القلب فلا ينبغي للمريد أن يسافر إلا في طلب علم أو مشاهدة شيخ يقتدي به اه

وأقول روى ابن جرير من حديث أبي هريرة مرفوعا وموقوفا حديث «السانحون هم الصائمون» ولا يصح رفعه وروى عن عائشة وابن عباس وبجاهد وغيرهم من أقوالهم ، ومن مرسل عمرو بن دينار عن عبيد بن عمير وروى ابو داود من طريق القاسم أبي عبد الرحمن عن ابي امامة ان رجلا قال يا رسول الله انشدني لي بالسياحة قال النبي ﷺ « إن سياحة أمتي الجهاد في سبيل الله عز وجل » قال الحافظ المنذري: القاسم هذا تكلم فيه غير واحد. إه أقول منهم الامام احمد كان يقول فيما يروى عنه من المناكير. إنها من قبله ، ويقول بعضهم إنها من روى عنه من الضعفاء ، لأمه ، وقال ابن حبان : كان يروي عن الصحابة المعضلات . وللإمام الغزالي في كتاب السفر من الاحياء كلام نفيس في فوائد السياحة والاعتبار بآيات الله تعالى فيها لا يوجد في غيره مثله

﴿الراكون الساجدون﴾ لله تعالى في صلواتهم . والصلاة تذكر تارة بلفظها وتارة ببعض أركانها كالقيام والركوع والسجود . وهذا الوصف يفيد التذكير بهذه الهيئة وتمثيلها للقاريء والسامع

﴿الأمرون بالمعروف والناهون عن المنكر﴾ تقدم معنى هذا الامر والنهي ومكانته من صفات المؤمنين في تفسير الآية (٧١) من هذه السورة (ص ٥٤١ ج ١٠) وهذه الصفة وما بعدها من الصفات المتعلقة بجماعة المؤمنين فيما يجب على بعضهم لبعض وكل ما قبلهما من صفات الافراد

﴿والحافظون لحدود الله﴾ أي شرائعه وأحكامه التي حدد فيها ما يجب وما يحظر على المؤمنين من العمل بها وما يجب على أئمة المسلمين وأولي الامر وأهل الحل والعقد منهم إقامتها وتنفيذها بالعمل في أفراد المسلمين وجماعتهم إذا أخلوا بما يجب عليهم من

الحفظ لها ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ أي وبشر أيها الرسول المؤمنين الموصوفين بهذه
 البضع الصفات. ولم يذكر ما يبشرهم به لتعظيم شأنه وشموله لخير الدنيا وسعادة الآخرة
 ومن مباحث الامة ان المعدودات تسرد بغير عطف وانما عطف النهي عن
 المنكر على الامر بالمعروف للابتنان بانهما فريضة واحدة اتلازمهما في الغالب .
 واما عطف « الحافظون لحدود الله » على جملة ما تقدم فقيل لان التعداد قد تم
 بالوصف السابع من حيث إن السبعة هو العدد التام والثامن ابتداء عدد آخر
 معطوف عليه وان هذه الواو تسمى واو الثمانية . وأنكر هذه الواو والنحاة المحققون ،
 وقيل لأنه اجمل لما تقدم من التفصيل قبله ، فلا يصح أن يجعل فرداً من أفرادها فيسرد
 معه . وأقوى منه عندي أنه وصف جامع للتكاليف عامة ، والمنهيات خاصة ،
 والسبعة المسرودة قبله من الأمور ، ولا يحصل الكمال للمؤمن بها إلا مع اجتناب
 المنهيات ، وهو اول ما يلاحظ في حفظ حدود الله قال تعالى (تلك حدود الله
 فلا تقربوها * تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم
 الظالمون *) وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه) وعلى هذا يكون
 معنى نظم الآية ان المؤمنين الكاملين الذين باعوا أنفسهم لله تعالى هم المتصفون
 بالصقات السبع ، والحافظون مع ذلك لجميع حدود الله في كل أمر ونهي ، ويعبر
 عن هذا في عرف هذا العصر بقولهم : « المثل الاعلى » ويطلقونه على الافراد
 النابغين في بعض الفضائل العامة ، وعلى الجماعات والامم الراقية ، ويكنى ان يقال
 فيه « المثل » في كذا . كما قال تعالى (ولما ضرب ابن مريم مثلاً) وقال (وجعلناه
 مثلاً لذي اسرائيل) او يقال : مثل عال ، او مثل شريف . واما الاعلى فهو الله عز
 وجل كما قال عن نفسه (والله المثل الاعلى) وقال (وله المثل الاعلى في السموات
 والارض وهو العزيز الحكيم)

وجملة القول فيهم أنهم الحافظون لجميع حدود الله تعالى . وخصت تلك الخلال
 السبع بالذكر لانها هي التي تمثل في نفس القاريء أكل ما يكون المؤمن به
 محافظاً على حدود الله تعالى

(١١٣) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ
 وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ
 (١١٤) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ ،
 فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ، إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ
 (١١٥) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُمْ
 مَا يَتَّقُونَ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١١٦) إِنْ أَلَّكَ اللَّهُ لَهْ مَلِكُ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ يُحِبِّي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَاوِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

تقدم في الآية الثمانين من هذه السورة ان الله تعالى لا يغفر للمنافقين لانهم
 كفروا بالله ورسوله الخ ، فاستغفار الرسول لهم وعدمه بيان . وتقدم في سورة النساء
 (إن الله لا يغفر أن يشرك به (٤ : ٤٨ و ١١٦) وقد شرع الله للمؤمنين في
 أوائل سورة الممتحنة التماسي براهيم صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه في البراءة من
 قومهم المشركين ومن معبوداتهم واستثنى من هذه الاسوة استغفار ابراهيم
صلى الله عليه وسلم لأبيه فقال (إلا قول ابراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله
 من شيء) وقد بين هنا حكم الاستغفار لمن ذكر وقف عليه بقاعدة التشرع العامة
 التي ينبي عليها الجزاء فقال عز وجل

﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ هذا نفي بمعنى
 النهي ، فهو أبلغ من النهي المجرد ، وهذا التعبير فيه يسمي نفي الشأن ، وهو أبلغ
 من نفي الشيء نفسه ، لانه نفي معطل بالسبب المقتضي له . والمعنى : ما كان من شأن
 النبي ولا مما يصح أن يصدر عنه . من حيث هو نبي — ولا من شأن المؤمنين
 ولا مما يجوز أن يقع منهم من حيث هم مؤمنون — أن يدعوا الله طالين منه المغفرة
 للمشركين (ولو كانوا أولي قربى) لهم في الاصل حق البر وصلة الرحم . وكانت عاطفة

القرابة تقتضي الغيرة عليهم وحب المغفرة لهم «ولو» هذه تقييداً عاماً لمعطوف عليه يحذف حذفاً مطرداً لا علم به ، والمراد أنه ليس مما تبديحه النبوة ولا الايمان ولا مما يصح وقوعه من أهلها : الاستغفار للمشر كين في حال من الاحوال ، حتى لو كانوا أولي قربي ، فان لم يكونوا كذلك فعدم جوازه أولى . ثم قيد الحكم بقوله تعالى

﴿ من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم ﴾ أي من بعد ما ظهر لهم بالدليل أنهم من أهل النار الخالدين فيها بأن ماتوا على شركهم وكفرهم ولو بحسب الظاهر كاستصحاب حالة الكفر الى الموت ، أو نزل وحى يسجل عليهم ذلك كاخباره تعالى عن أناس من الجاحدين لعاندين من أصحاب النار خالدين فيها ، أو أنهم طمع قلوبهم وختم عليها . وقوله لرسوله ﷺ (سواء عليهم أن نذرتهم ام لم تنذرهم لا يؤمنون) ومثله في المنافقين (سواء عليهم استغفرت لهم) الخ

وقد ورد في الصحيحين وغيرهما ان هذه الآية نزلت في أبي طالب ، اذ دعاه صلى الله عليه وسلم عند ما حضره الموت الى قول (لا إله إلا الله) فامتنع وأبى طالب مات بمكة قبل الهجرة ، فهل نزلت الآية عقب موته ثم الحقت به منه السورة المدنية لمناسبتها لاحكامها ، أم نزلت مع غيرها من براءة مدينة لحكم استغفار الرسول صلى الله عليه وسلم له ؟ وروي من طرق أنها نزلت حين زار ﷺ قبر أمه واستغفر لها (١) والله أعلم والآية نص في تحريم الدعاء لمن مات على كفره بالمغفرة والرحمة وكذا وصفه بذلك كقوله المغفور له المرحوم فلان ، كما يفعله بعض المسلمين الجفرايين الآن ، اعدم تحقيقهم بمقتضى الايمان ، وتقيدهم بأحكام الاسلام ، ومنهم بعض المعتمدين والحااملين لدرجة العالمية من الازهر أخرج أحمد والبخاري ومسلم والنسائي وغيرهم من حديث سعيد بن المسيب عن أبيه قال : لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ فوجد عنده أبا جهل وعبدالله بن أبي أمية بن المغيرة فقال « أي عم ! قل لا اله إلا الله ، كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبدالله بن أبي أمية : أتربغ عن ملأ

(١) راجع هذا البحث في تفسير (٦ : ٣٥) واذا قال ابراهيم لايه آزر) ص

عبد المطلب ؛ فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرضها عليه ويبيدانه بتلك المغالبة حتى قال ابو طالب آخر ما كلمهم : على ملة عبد المطلب . وأبي ان يقول لا اله الا الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والله لأستغفرن لك ما لم أنة عنك » فأنزل الله (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) وأنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) هذا لفظ البخاري في تفسير الآية الاخيرة من سورة القصص وأخرجه في تفسير آية براءة وفي الجناز أيضا .

قال الحافظ في شرحه للحديث : ووقع في رواية مجاهد قال : يا ابن أخي ملة الاشياخ . ووقع في حديث أبي حازم عند مسلم والترمذي والطبري قال : لولا ان تعيرني بها قريش يقولون ما حمل على ذلك إلا جزع الموت لأقررت به عينك . ثم قال الحافظ . وروى الطبري من طريق شبل عن عمرو بن دينار قال قال النبي صلى الله عليه وسلم « استغفر ابراهيم لابيه وهو مشرك فلا ازال أستغفر لابي طالب حتى ينهاني عنه ربي » فقال أصحابه لستغفرون لابائنا كما استغفر نبينا لعمه ، فنزلت

(قل) وهذا فيه إشكال لان وفاة ابي طالب كانت بمكة قبل الهجرة اتفاقا ، وقد ثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم أتى قبر امه لما اعتمر فاستأذن ربه ان يستغفر لها فنزلت هذه الآية - والاصل عدم تكرار النزول وقد أخرج الحاكم وابن أبي حاتم من طريق أيوب بن هاني عن مسروق عن ابن مسعود قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما إلى المقابر فابعدناه فجاء حتى جلس الى قبر منها فواجه طويلا ثم بكى فبكينا ليكناه فقال « ان القبر الذي جلست عنده قبر امي واني استأذنت ربي في الدعاء لها فلم يأذن لي فأنزل علي (ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين) » وأخرج أحمد من حديث ابن بريدة عن ابيه نحوه ، وفيه نزل بنا ونحن معه قريب من ألف راكب ولم يذكر نزول الآية ، وفي رواية الطبري من هذا الوجه لما قدم مكة أتى رسم قبر ومن طريق فضيل بن مرزوق عن عطية لما قدم مكة . وقف على قبر أمه حتى سخنت عليه الشمس وجاء ان يؤذن له فيستغفر لها ، فنزلت . وللطبري من طريق عبد الله بن كيسان عن عكرمة عن ابن عباس نحو حديث ابن

مسعود وفيه : لما هبط من ثنية عسقان . وفيه نزول الآية في ذلك — فهذه طرق
 بعضها بعضها وفيها دلالة على تأخير نزول الآية عن وفاة ابي طالب . ويؤيده
 ايضا انه صلى الله عليه وسلم قال يوم احد بعد ان شج وجهه «رب اغفر لقومي فانهم لا يعلمون»
 لكن يحتمل في هذا أن يكون الاستغفار خاصاً بالاحياء وليس البحث فيه - ويحتمل
 أن يكون نزول الآية تأخر وان كان سببها تقدم ويكون لغزوها سببان متقدم وهو
 امر ابي طالب ومتأخر وهو امر آمنة، ويؤيد تأخير النزول ما تقدم في تفسير برادة
 من استغفاره صلى الله عليه وسلم للمناققين حتى نزل النهي عن ذلك، فان ذلك يقتضي تأخير
 النزول وان تقدم السبب ، ويشير الى ذلك أيضا قوله في حديث الباب «وأنزل
 الله في ابي طالب (انك لا تهدي من أحببت)» لانه يشعر بأن الآية الاولى نزلت
 في ابي طالب وفي غيره ، والثانية نزلت فيه وحده ، ويؤيد تعدد السبب ما أخرج
 أحمد من طريق ابي اسحاق بن ابي الخليل عن علي قال سمعت رجلا يستغفر
 لوالديه وهما مشركان فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (ما كان للنبي) الآية
 وروى الطبري من طريق ابن ابي نجيح عن مجاهد قال قال المؤمنون ألا نستغفر
 إلا بآئتنا كما استغفر ابراهيم لآبيه ؟ فنزلت . ومن طريق قتادة قل ذكرنا له ان
 رجلا فذكر نحوه . وفي الحديث ان من لم يعمل خيراً قط اذا ختم عمره بشهادة
 أن لا إله الا الله حكم بإسلامه ، وأجريت عليه احكام المسلمين ، فان قارن نطق
 السانه عقد قلبه نفعه ذلك عند الله تعالى بشرط أن لا يكون وصل الى حد انقطاع
 الامل من الحياة وعجز عن فهم الخطاب ، ورد الجواب ، وهو وقت المعاناة ، واليه
 الاشارة بقوله تعالى (وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى اذا حضر
 أحدهم الموت قل اني تبت الآن) والله أعلم اه كلام الحافظ وقد تعددت الروايات
 في استغفار بعض الصحابة لآبائهم وأولي قرباهم من المشركين تأسيا به صلى الله عليه وسلم
 حين استغفر لعمه حتى نزل النهي فكفوا

﴿ وما كان استغفار ابراهيم لآبيه ﴾ مما يدخل في عموم تأسيكم به على إطلاقه ،

فانه ما كان وما وقع السبب ولا علة ﴿ إلا عن موعده وعدها إياه ﴾ في حياته

إذ كان برجو إيمانه فقال له (٤: ٦٠) لا مستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء) أي لأملك لك هداية ولا نجاة وإنما أملك دعاء الله تعالى: وقد وفي بوعده وما كان إلا وفياً كما شهد له تعالى بقوله (و ابراهيم الذي وقى) فكان من دعائه (٢٦ : ٨٦) واغفر لابي انه كان من الضالين ٨٧ ولا تخزني يوم يبعثون ٨٨ يوم لا ينفع مال ولا بنون ٨٩ إلا من أتى الله بقلب سليم) اي من الشرك والسكفر والشك المقتضي للنفاق ، فمن استغفر لحي برجو إيمانه يقصد سؤال الله ان يهديه لما يكون به أهلاً للمغفرة فلا بأس

﴿ فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ﴾ قال ابن عباس: لم يزل ابراهيم يستغفر لأبيه حتى مات فلما مات تبين له أنه عدو لله ففترأ منه . وفي رواية عنه: فلما تبين له انه عدو لله يقول لما مات على كفره . وقال قتادة تبين له حين مات وعلم أن التوبة انقطعت عنه . وقيل انه تبين له ذلك بوحي من الله تعالى ، فحينئذ تبرأ منه ومن قرابته ، وترك الاستغفار له كما هو مقتضى الايمان الاتحدقوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم) الآية ورد أن ابراهيم بعد من الخزي له يوم القيامة أن يكون أبوه في النار كما رواه البخاري من حديث رؤيته في النار وأنه يقول « يارب انك وعدتني أن لا تخزني يوم يبعثون ، فأني خزي أخزي من أبي الأبعد » فيمسخ الله أباه ذيحلاً وهو ذكر الضباع الكثير الشعر - حتى لا يخزي ابراهيم ابنه برؤيته في النار على صورته المعروفة له ولقومه . وقد تقدم لفظ الحديث في قصة ابراهيم مع أبيه من تفسير سورة الانعام (ص ٥٣٩ ج ٧)

﴿ ان ابراهيم لأواه حليم ﴾ هذه الجملة المؤكدة بوصف ابراهيم عليه السلام بالمبالغة في خشية الله والخشوع له ، وبالعلم والشباب في أموره كلها ، تمليل لامتناعه عن الاستغفار لابييه بعد العلم برسوخه في الشرك وعداوة الله عز وجل . الأواه الكثير التأوه والتحسر وإنما يتأوه ابراهيم من خشية الله ويتحسر على المشركين من قومه ولا سيما أبيه ، ويصاق الأواه على الخاشع الكثير الدعاء والتضرع لله - وأصل التأوه قول « أوّه » أو آه (بالكسر متوناً وغير متون) أو واه ، أو اوه ، وفي

حديث مرفوع في التفسير المأثور « الأواه الخاشع المتضرع » وعن ابن عباس فيه روايات منها أنه المؤمن أو الموقن بلسان الحبشة ، والحليم الذي لا يستغزاه الغضب ولا يعيث به الغيظ ، ولا يستخفه الجبل أو هوى النفس ، ومن لوازمه الصبر والثبات والصفح والتأني في الأمور واتقاء المعجلة في كل من الرغب والرهب . وذهب الزمخشري الى ان الجملة تعليل لما كان من استغفاره لابيّه ، قال بعد تفسير الاواه بالذي يكثر التأثره : ومعناه أنه لفرط ترحمه ورقته وحله كان يتعطف على ابيه الكافر ويستغفر له مع شكاسته عليه وقوله (لا رجعتك) اه

﴿ وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم ﴾ أي وما كان من شأن الله تعالى في حلمه ورحمته ، ولا من سذنه في خلقه التي هي مظهر عدله وحكمته ، أن يصف قوما بالضلال ، ويجري عليهم أحكامه بالذم والعقاب ، بعد إذ هداهم الى الايمان ، وشرح صدرهم بالاسلام ، بمجرد قول أو عمل صدر عنهم بخطأ الاجتهاد ﴿ حتى يبين لهم ما يتقون ﴾ من الاقوال والافعال ، بيانا جليا واضحا لا شبهة فيه ولا إشكال ﴿ ان الله بكل شيء عليم ﴾ فهو يشرع لهم من الاحكام ما تكمل به فطرتهم ، ويستقيم به رأيتهم وفهمهم ، فيبين لهم مهمات الدين بالنص المقاطع حتى لا يضل فيه اجتهادهم باهواء نفوسهم ، ويترك لهم مجالا للاجتهاد فيما دون ذلك من مصالحهم ، فهو لهذا لم يؤخذ ابراهيم في استغفاره لابيّه قبل أن يتبين له حاله ، وكذلك لا يؤخذ النبي والذين آمنوا بما سبق لهم من الاستغفار لوالديهم وأولي القربى منهم قبل هذا التبيين لحكم الله في ذلك ، وان كان من شأنه أن يعلم أنه من لوازم الايمان ، قال مجاهد في تفسير الجملة : بيان الله للمؤمنين في الاستغفار المشركين خاصة ، وفي بيان طاعته ومبصيته عامة ، ما فعلوا أو تركوا . اه يعني ان الآية عامة وان نزلت في مسألة استغفارهم المشركين . وعن ابن عباس انها نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الاسارى قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتى يؤذن لكم . ولكن ما كان الله ليعذب قوما بذنب أذنبوه حتى يبين لهم ما يتقون ، قال حتى ينهاهم قبل ذلك اه

وأقول الآية منأخرة النزول عن غزوة بدر ولكنها شاملة لحكمها فقد تقدم أن أخذ الفداء من الأسرى هو في معنى الاستغفار للمشركين هنا من حيث انه خلاف ما يقتضيه شأن النبوة والايان لقوله تعالى (ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الارض) فهذا نبي للشأن كنفني الاستغفار هنا. ثم قل تعالى هنالك بعد عتابهم الشديد (لولا كتاب من الله سبق مسكم فيما أخذتم عذاب أليم). فابن عباس يفسر هذا الكتاب بحكمه تعالى في هذه الآية بأنه لا يحكم بضلال قوم في شيء فيعاقبهم عليه إلا بعد أن يبين لهم ما يتقون بيانا واضحا تاما لا مجال معه للاجتهد الذي يكون عذراً في المخالفة، سواء كانت هذه الآية نزلت وقتئذ أم لا - فهذا حكم الله تعالى .

أخرج ابن المنذر أن عبد الله بن مسعود (رض) كان يخاطب أصحابه كل عشية خميس ثم يقول : فمن استطاع منكم أن يغدو عالماً أو متعلماً فليفعل ولا يغدو لسوى ذلك ، فان العالم والمتعلم شريكان في الخير . أيها الناس : إني والله ما أخاف عليكم أن تؤخذوا بما لم يبين لكم وقد قال الله تعالى (وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون) فقد بين لكم ما تتقون .

ويؤخذ من هذا كله قاعدة أن أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء في الآخرة ، ويكاف العمل به كل من بلغه إن كان من الاحكام الشخصية وتؤخذ بها الامة كلها وينفذه أئمتها وأمرؤها فيها هو ما كان قطعي الدلالة ببيان الله تعالى ورسوله لا حجة معه لأحد في تركه . وان ماعداها منوطة بالاجتهاد ، فن ظهر له من نص ظني الدلالة حكم واعتقد أنه مراد الله من الآية وجب عليه اتباعه ، ومن لا فلا . كما وقع عند نزول آية البقرة في الحجر واليسر إذ فهم بعض الصحابة من قوله تعالى (وإيهما أكبر من نفعهما) تحريمهما قترك ، وبقي من لم يفهم هذا يشرب الحجر حتى بين الله تحريمهما مع اليسر بيانا قطعياً بآيات المائدة . وأصل مذهب الحنفية أن الفرائض والتحريم الديني لا يثبتان إلا بالنص القطعي أو بنص القرآن القطعي بل هذا ما كان عليه علماء السلف . وتقدم تحقيق المسألة (في ص ٣٧١ ج ١٠ تفسير) والآية تدل على بطلان قول بعض المتبدعة بالمؤاخذة على ما يجب بحكم

العقل كالصدق والأمانة صرح به مفسرهم الزمخشري واستثناه من حكم الآية بأنه غير وقوف على التوقيف « نعم ان حسنه يعلم بالعقل ، ولكن التكليف الذي يبني عليه جزاء الآخرة لا يصح إلا بالشرع ، كما تدل عليه الآية وغيرها ، وقد أمر الله بالصدق والأمانة وأوجبهما وحرم الكذب والخيانة . كما بين كل ما أراد جملة ديناً للناس . وقد أخبرنا رسول الله ﷺ ان ما سكت عنه فلم يبينه لنا فهو عفو منه تعالى غير نسيان ، فليس لنا ان نسأل عنه ولا أن نضع له احكاماً بأراء عقولنا . وقد بسطنا هذه المسألة في تفسير (٥ : ١٠٤) يا أيها الذين امنوا لا تسألوا الخ (راجع ص ١٣٠ ج ٧) مع الفصل الملحق به (١٣٨) الخ

﴿ ان الله له ملك السموات والارض ﴾ لا شريك له في خلقهما ولا في تدبير شؤونهما ولا في التشريع الديني للمكلفين فيهما ﴿ بحجي ويميت ﴾ أي يهب الحياة الحيوانية والحياة المعنوية الروحية بمحض قدرته ومشيئته ومقتضى سننه في التكوين والهداية الفعلية ويميت ما شاء من الابدان بانقضاء آجلها المقدر في علمه ، ومن الانفس بنكوبها عن صراط هدايته ﴿ وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير ﴾ أي وليس لكم أيها المؤمنون أحد غير الله يتولى أمركم ، ولا نصير ينصركم على عدوك ، فلا تحيدوا عن هدايته فيما نهاكم عنه من الاستغفار لأولي القربى الذين هم أهل الولاية والنصرة من عصبائكم في الانساب . ولا في غير ذلك من أوامره ونواهيها

(١١٧) لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ

الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ، إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١١٨) وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ، ثُمَّ تَابَ

عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا ، إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٩) يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ

هذه الآيات تنمة ما تقدم من موضوع توبة المتخلفين عن غزوة توبك،
أخرت على سنة القرآن في تفريق الآيات في الموضوع الواحد لانه أدى أن لا يسأم
التالي لها في الصلاة وغيرها ، وأقوى في تجديد الذكرى والتأثير في النفس كما بيناه
مراراً ، وهو مناسب لما قبله من النهي عن الاستغفار للمشركين وهو ما يتاب منه

﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار ﴾ هذا خبر مؤكد بلام
القسم على حرف التحقيق بين به تعالى فضل عطفه على نبيه وأصحابه المؤمنين
الصادقين من المهاجرين والانصار وتجاوزه عن هفواتهم في هذه الغزوة وفي
غيرها ، لاستغراقها في حسناتهم الكثيرة على كونهم لا يصرون على شيء منها ،
وانما كانت هفواتهم هذه مقتضى الطباع البشرية واجتهاد الرأي فيما لم يدينه الله
تعالى لهم بياناً قطعياً يعد مخالفه عاصياً . وقد بينا في تفسير الآية (١٠٤) أن للتوبة
درجات تختلف باختلاف طبقات التوابين الرجاعين الى الله من كل اعراض عنه .
وتوبته تعالى على عبادها معنيين عطفه عليهم وهذا أعلاهما - وتوفيقهم للتوبة
وقبولها منهم ، وانما يتوبون من ذنب ، وما كل ذنب معصية لله عز وجل ، وقد
فسر ابن عباس التوبة على النبي صلى الله عليه وسلم هنا بقوله تعالى في سياق هذه الغزوة (٤٣) عفا
الله عنك لم أذنت لهم ؟) الآية وحققنا في تفسيرها مسألة ذنوب الانبياء وكونها
من الاجتهاد الذي لم يقرهم الله عليه لان غيره خير منه ^١ وأما المهاجرون والانصار
(رض) وهم خالص المؤمنين ﴿ الذين اتبعوه في ساعة العسرة ﴾ فمنهم من كان
خزبه التناقل في الخروج حتى ورد الامر الحتم فيه والتوبيخ على التناقل الى الارض ،
ومنهم من كان ذنبهم السماع للمنافقين فيما كانوا يبغون من فتنة المؤمنين بالقوة
والاستدراك ، وبالفعل

فأما العسرة فهي الشدة والضيق . وكانت عسرة في الزاد اذ كانت عند انتهاء فصل الصيف الذي نفذت فيه مؤنتهم من التمر ، وأول فصل الخريف الذي بدأ فيه ارباط الموسم الجديد ولا يمكن حمل شيء منه ، فكان يكتفي الواحد منهم او الاثنان بالتمر الواحدة من التمر القديم ومنه المدود واليابس ، وقد تزود بعضهم أيضا بالشعير المسوس والاهالة الزنخة - وعسرة في الماء حتى كانوا ينحرون البعير على قلة الرواحل ليعتصروا الفرث الذي في كرشه ويبلوا به ألسنتهم - وعسرة في الظاهر حتى كان العشرة يعقبون بعيراً واحداً - وعسرة في الزمن اذ كان في حمارة القيظ وشدة الحر ، ولعل التعبير بساعة العسرة للتذكير بذلك الوقت العصيب ، قال جابر بن عبد الله (رض) في ساعة العسرة: عسرة الظاهر وعسرة الزاد وعسرة الماء ، وقال ابن عباس لعمر (رضي الله عنهم) حدثنا من شأن ساعة العسرة ، فقال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى تبوك في قيظ شديد فبزلنا منزلاً فأصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا ان رقابنا ستقطع حتى ان كان الرجل لينحدر بعيره فيعصر فرثه فيشربه ويجعل ما بقي على كنبه فقال ابو بكر الصديق (رض) يا رسول الله ان الله قد عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فلم يرجعها حتى قالت السماء ، فأهطلت ثم سكبت فملأوا ما معهم ، ثم ذهبنا ننظر فلم نجد لها جاوزت العسكر ، أخرجه ابن جرير وابن خزيمة وابن حبان والحاكم وصححه وابن مردويه وأبو نعيم والبيهقي في دلائلهم والضياء في المختارة

﴿ من بعد ما كاد يزيد قلوب فريق منهم ﴾ أي اتبعوه من بعد ما قرب أن يزيد قلوب فريق منهم عن صراط الاسلام ، بمصيان الرسول حين أمر بالنفير العام ، إذ تناقل بعضهم عن النفر ووبخهم الله تعالى في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤٠* ﴿ أو المعنى انه تاب على المؤمنين كافة من بعد ما كاد يزيد بعضهم عن الايمان ، والمراد بهم الذين تخلفوا بالفعل منهم لغير علة النفاق ، وهم الذين خلطوا عملاً

(*) راجع تفسيرها في ٤٢٣ - ٤٣٤ ج ١٠

صالحاً وآخر سيئاً واعترفوا بذنوبهم تائبين فقبل الله توبتهم كما تقدم ، وقال هنا فيهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ وهو الظاهر من العطف بهم ، وأما على التوجيه الآخر فهو تأكيد لما في أول الآية من التوبة على الجميع ﴿ انه بهم رءوف رحيم ﴾ وهذا تعليل لقبول توبتهم فالرأفة العناية بالضعيف والرفق به والعطف عليه . والرحمة أعم وأوسع وتقدم تحقيق معناها في تفسير الغامحة . قرأ (كاد يزيغ) بالياء التحتانية حمزة وحفص ، وقرأها الباقر (تزيغ) بالفوقانية ، والمعنى واحد فيها الا ان في هذه من احتمال الاعراب النحوي ما ليس في تلك

﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا ﴾ أي وتاب أيضا على الثلاثة الذين خلفوا عن الخروج الي تبوك معه ﷺ وهم المرجون لأمر الله في الآية (١٠٦) او خلفوا بمعنى أرجئوا حتى ينزل فيهم امر الله ، وهم كعب بن مالك من بني سلمة وهلال ابن أمية من بني واقف ومرارة بن الربيع من بني عمرو بن عوف ﴿ حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت ﴾ اي خلفوا وأبهم الله أمرهم الى ان شعروا بأن الارض قد ضاقت عليهم برحبها أي بما وسعت من الخلق خوفا من العاقبة وتألما وامتعضا من إعراض النبي ﷺ والمؤمنين عنهم وهجرهم ايهم في المجالسة والمحادثة والتحية ﴿ وضائق عليهم أنفسهم ﴾ اي وضائق أنفسهم على انفسهم ، وانما كان ذلك بما كانوا يشعرون به من ضيق صدورهم بامتلاء قلوبهم من الهم والغم حتى لا تمتنع فيها لشيء من البسط والسرور ، فكأنهم لا يجدون لأنفسهم مكانا تراح اليه وتطمئن به ﴿ وظنوا ان لا ملجأ من الله الا اليه ﴾ واعتقدوا انه لا ملجأ لهم من سخط الله ياجئون اليه الا اليه تعالى بان يتوبوا اليه ويستغفروه ويرجون رحمته فان الرسول البر الرؤف الرحيم باصحابه ما عاد ينظر اليهم ولا يكلمهم حتى يطلبوا دعاءه واستغفاره ، وهو ﷺ لا يشفع في الدنيا ولا في الآخرة إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم ﴿ ثم تاب عليهم ﴾ اي بعد ذلك كله عطف تعالى ورجع عليهم وأنزل قبول توبتهم

أو وفقهم للتوبة المقبولة عنده ﴿ ليتوبوا ﴾ ورجعوا إليه بعد إعراضهم عن هدايته
واتباع رسوله ﷺ ﴿ ان الله هو التواب الرحيم ﴾ انه تعالى هو كثير القبول
لتوبة التائبين، الواسع الرحمة للمحسنين، وتقدم مثله قريباً

وان العبرة بهذه القصة لا تتم إلا بذكر اصح الروايات وأوسعها في شرح ما بين
الله من حالهم فيها وهو حديث كعب بن مالك (رض)

أخرج أحمد والبخاري ومسلم وأشهر مدوني التفسير المأثور من طريق الزهري
قال أخبرني عبدالرحمن بن عبدالله بن كعب بن مالك أن عبد الله بن كعب بن
مالك - وكان قائد كعب من بنيه حين عمي - قال : سمعت كعب بن مالك يحدث
حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك قال كعب لم أخلف عن
رسول الله ﷺ في غزوة غزاها قط إلا في غزوة تبوك غير أني تخلفت في غزوة
بدر ولم يعاتب أحداً تخلف عنها إنما أخرج رسول الله ﷺ والمسلمون يريدون
عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد . ولقد شهدت مع رسول
الله ﷺ ليلة العقبة حين تواتقنا على الاسلام وما أحب أن لي بها مشهد بدر ،
وإن كانت بدر أذكر في الناس منها وأشهر ، وكان من خبري حين تخلفت عن
رسول الله ﷺ في غزوة تبوك اني لم أكن قط أقوى ولا أيسر مني حين
تخلفت عنه في تلك الغزوة ، والله ما جمعت قبلها راحلتين قط حتى جمعتهما في
تلك الغزوة ، وكان رسول الله ﷺ قلما يريد غزوة إلا ورى بغيرها حتى كانت
تلك الغزوة ، فغزاها رسول الله ﷺ في حر شديد واستقبل سفراً بعيداً ومفازاً ،
واستقبل عدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم فأخبرهم بوجههم
الذي يريد والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير لا يجمعهم كتاب حافظ -
يريد الديوان

قال كعب رضي الله عنه : قتل رجل يريد أن يتعيب إلا ظن أن ذلك سيخفي
فهالم ينزل فيه وحي من الله عز وجل . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين

طابت الثمار والظلال ، وانا اليها أصعر ، فتجهز اليها رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، وطفقت أغدو لكي تجهز معهم فأرجع ولا أفضي شيئاً ، فأقول لنفسي أنا قادر على ذلك إن أردت ، فلم يزل ذلك يتأدى بي حتى استمر بالناس الجدد فأصبح رسول الله ﷺ غادياً والمسلمون معه ، ولم أفض من جهازي شيئاً ، وقلت الجهاز بعد يوم أو يومين ثم ألقته ، فعدوت بعد ما فصلوا لا تجهز فرجعت ولم أفض من جهازي شيئاً ، ثم غدوت فرجعت ولم أفض شيئاً ، فلم يزل يتأدى بي حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، ففهممت ان أرتحل فأدر كهم ، وابت أني فقلت ، ثم لم يقدر لي ذلك فطفقت إذا خرجت في اللاس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزنني اني لا أرى لي أسوة إلا رجلاً مغموصاً عليه في النفاق ، أو رجلاً ممن عذر الله (١) ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك فقال وهو جالس في القوم بتبوك « ما فعل كعب ابن مالك ؟ » فقال رجل من بني سلمة : يا رسول الله حبسه برداه والنظر في عطفه . فقال له معاذ بن جبل ، بثما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ

قال كعب بن مالك : فلما بلغني أن رسول الله ﷺ قد توجه قافلاً من تبوك حضرني بني فطفقت أتذكر الكذب وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً وأستعين على ذلك بكل ذي رأي من أهلي ، فلما قيل ان رسول الله ﷺ قد أظل قادمًا زاح عني الباطل حتى عرفت أني لم أنج منه بشيء أبداً ، فأجمعت صدقه ، وأصبح رسول الله ﷺ قادمًا ، وكان اذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فركع ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون فطفقوا يمتدرون اليه ويحلفون له وكانوا بضعا وثمانين رجلاً ، فقبل رسول الله ﷺ منهم علايتهم ، وبايعهم واستغفرهم ، ووكل سائرهم إلى الله ، حتى جئت فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ثم قال لي « تعال » فجئت أمشي حتى جالست بين يديه فقال لي « ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟ » فقلت يا رسول الله ، والله لو جالست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت اني سأخرج من سخطه بعذر ، لقد أعطيت جدلاً ، ولكنني والله لقد

(١) يعني الضعفاء والمرضى والذين لا يجدون ما ينفعون

علمت لئن حدثتكم اليوم حديث كذب ترضى عني به ليوشكن الله يسخطك علي ،
 واثن حدثتكم بحديث صدق تجد علي فيه ، اني لأرجو فيه عتبي من الله ، والله ما كان
 لي عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر مني حين تخلفت عنك . فقال صلى الله عليه وسلم : «أما
 هذا فقد صدق ، نعم حتى يرضي الله فيك » فقامت وبادرتني رجال من بني سلمة
 واتبعوني فقالوا لي والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، لقد عجزت أن
 لا تكون اعتذرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بما اعتذر به المتخلفون فلقد كان كافيك
 من ذنبك استغفار رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فوالله ما زالوا يؤنبونني حتى أردت
 أن أرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكذب نفسي ، ثم قلت لهم هل لقي هذا معي أحد؟
 قالوا نعم لقيه معك رجلان قال ما قلت ، وقيل لهما مثل ما قيل لك فقلت من هما؟
 قالوا مرارة بن الربيع وهلال بن أمية الواقفي ، فذكروا لي رجلين صالحين قد
 شهدا بدر لي فيهما أسوة ، فمضيت حين ذكروهما لي

قال ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من
 تخلف عنه فاجتنبنا الناس - او قال تغيروا لنا - حتى تذكرت لي في نفسي الارض
 فما هي بالارض التي كنت أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباي
 فاستكانا وقعدا في بيوتهما . وأما أنا فكنت اشد القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج
 فاشهد الصلاة مع المسلمين وأطوف بالاسواق فلا يكلمني أحد ، وأتي رسول
 الله صلى الله عليه وسلم فأسلم عليه وهو في مجلسه بعد الصلاة وأقول في نفسي هل حرك شفثيه
 برد السلام أم لا؟ ثم أصلي قريبا منه وأسارقه النظر ، فاذا أقبلت على صلاتي نظر
 إلي فاذا التفت نحوه اعرض عني ، حتى اذا طال علي ذلك من هجر المسلمين مشيت
 حتى تسورت حائط أبي قتادة - وهو ابن عمي واحب الناس إلي - فدلمت عليه ،
 فوالله ما رد علي السلام . فقلت له يا ابا قتادة انشدك الله تعالى هل تعلم اني احب
 الله ورسوله ؟ قال فسكت ، قال فعدت فنشدته فسكت ، فعدت فنشدته . قال الله

ورسوله اعلم . ففاضت عيناي وتوليت حتى تسورت الجدار .
 وبينما أنا امشي بسوق المدينة اذا نبطي من أنباط الشام بمن قدم بطعام
 يبيعه بالمدينة يقول من يدل على كعب بن مالك ؟ فظفقت الناس يشيرون له إلي

حتى جاءني فدفع إلي كتابا من ملك غسان وكنت كاتباً فقرأته فإذا فيه :
أما بعد فإنه قد بلغنا أن صاحبك قد جفك ، ولم يجملك الله بدار هوان ولا
مضيعة ، فالحق بنا نواسك . فقلت حين قرأتها وهذه أيضاً من البلاء فتيممت بها
التنور فسجرت بها

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الحسين إذا برسول رسول الله ﷺ
يأتيني فقال ان رسول الله ﷺ يأمرك أن تعزل امرأتك ، فقلت : أطلقتها أم
ماذا أفعل ؟ قال بل اعزلها ولا تقرينها ، وأرسل الي صاحبي مثل ذلك ، فقلت
لامرأتي الحق باهلك فكوفي عندهم حتى يقضي الله في هذا الامر ، فجاءت امرأة
هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله إن هلالا شيخ ضامع وليس
له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال « لا ولكن لا يقر بنك » فقالت انه والله مابه
من حركة الي شيء ، والله ما زال يبكي من لدن ان كان من أمرك ما كان الي يومه
هذا ، فقال لي بمض أهلي : لو استأذنت رسول الله ﷺ في امرأتك فقد أذن
لامرأة هلال أن تخدمه . فقلت والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ وما أدري
ما يقول اذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ،

قال فلبثنا عشر ليال فكمل لنا خمسون ليلة . من حين نهى عن كلامنا ، قال
ثم صليت الفجر صباح خمسين ليلة على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينما أنا جالس على
الحال التي ذكر الله منا قد ضاقت علي نفسي وضاقت علي الارض بما رحبت سمعت
صارخا أوفى على جبل سلع يقول بأعلى صوته يا كعب بن مالك ابشر ، فخررت
ساجدا وعرفت أن قد جاء الفرج ، فأذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين
صلى الفجر . فذهب الناس يبشروننا وذهب قبل صاحبي مبشرون ، وركض إلي
رجل فرسا وسعى ساع من اسلم قبلي وأوفى على الجبل فكان الصوت اسرع من
الفرس ، فلما جاء الذي سمعت صوته يبشري نزعته له ثوبي فكسوتهما إياه ببشارته ،
والله ما ملك غيرهما يومئذ ؟ فاستعرت ثوبين فلبستهما فانطلقت أوم رسول الله
ﷺ يتلقاني الناس فوجا بعد فوج يهنئوني بالتوبة ويقولون لهنك توبة الله عليك .
حتى دخلت المسجد فاذا رسول الله ﷺ جالس في المسجد وحواله الناس ، فقام

إلى طلحة بن عبيد يهرول حتى صاخفي وهنأني، والله ما قام إلي رجل من المهاجرين غيره ، قال فكان كعب رضي الله عنه لا ينساها طلحة .

قال كعب رضي الله عنه: فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال وهو يبرق وجهه من السرور «ابشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك» قلت أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال « لا بل من عند الله» وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه ، فلما جلست بين يديه قلت يا رسول الله ان من توبتي أن انخلع من مالي صدقة إلى الله وإلى رسوله ﷺ قال «أمسك عليك بعض مالك فهو خير لك» فقلت اني أمسك سهمي الذي بخيبر، وقلت يا رسول الله انما أجباني الله بالصدق، وان من توبتي أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت، قال فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله من الصدق في الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ أحسن مما أبلاني الله تعالى، والله ما عمدت كلمة منذ قلت ذلك لرسول الله ﷺ الى يومي هذا كذبا وانى لا رجوان يحفظني الله فيما بقي، وأنزل الله (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار -- الى قوله -- وكونوا مع الصادقين) قال كعب فوالله ما أنعم الله علي من نعمة قط بعد أن هداني الله للاسلام أعظم في نفسي من صدقي رسول الله ﷺ يومئذ أن لا أكون كذبتة فأهلك كما هلك الذين كذبوه، فان الله قال للذين كذبوه حين أنزل الوحي شر ما قال لاحد فقال (سيحلون بالله لكم إذا اتقلبتم اليهم لترضوا عنهم فأعرضوا عنهم انهم رجس -- إلى قوله -- الفاسقين)

قال كعب وكنا خلفنا أيها الثلاثة عن أمر اولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فبايعهم واستغفر لهم ، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه فلذلك قال الله (وعلى الثلاثة الذين خلفوا) وليس الذي ذكر مما خلفنا تخلفنا عن الغزو وانما هو تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا عن حلف له واعتذر اليه فقبل منه اه (أقول) ان في هذه القصة لا كبر عبرة تفيض لها عبرات المؤمنين، وتخضع لها قلوب المتقين ، وكان الامام احمد لا يبكيه شيء من القرآن كما تبكيه هذه الآيات وحديث كعب في تفصيل خبرهم فيها . وأي مؤمن يملك عينيه أن تفيض من الدمع ، وقلبه

أن يحف ويرجف من الخوف إذا قرأ أو سمع هذا الخبر ، وتأمل ما فيه من العبر ، التي لا يمكن بسطها إلا في كتاب مستقل ، ولا ادري ما عسى أن ينال من قسوة قلوب المقلدين ، وجهل المعرورين ، الذين يقتفون الفواحش والمنكرات ، ويتركون الفرائض والواجبات ، ويصرون على ما فعلوا وهم يعلمون . فلا يتوبون ولا هم يذكرون ، وإذا وعظهم واعظ أو ذكرهم مذكر ، وجد اللابسين لباس الاسلام منهم بين جازم بالمغفرة والعفو عنه ، وبين متشكل على شفاعة الشافعين له ، ومنهم من يحفظ من أخبار المكفرات للذنوب ما لا يصح له سند ، ولا يستقيم له على أصول الدين متن ، وما له أصل من هذه الاخبار يراد به تكفير الصغائر ، بشرط اجتناب الكبائر ، لقوله تعالى (إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وما كان العمل الصالح فيه مقرونا بالثوبة أخذاً من قوله تعالى (١٦ : ١١٩) ثم ان ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا . ان ربك من بعدها لغفور رحيم) وتقدم بيان هذه المسألة في مواضع (آخرها ص ١٧٥ ج ١٠)

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ﴾ بانباغ ما أمر به بقدر الاستطاعة ، وترك

مانهى عنه وبين تحريمه مطلقاً ﴿ وكونوا مع الصادقين ﴾ أي مع جماعة الصادقين او منهم (وفقاً لقراءة ابن مسعود وقد تكون تفسيراً) دون المنافقين الذين يتصلون من ذنوبهم بالكذب ويؤيدونه بالخلف . والصادقون هم المعتصمون بالصدق والاخلاص في جهادهم إذا جاهدوا ، وفي عهودهم إذا عاهدوا ، وفي أقوالهم ووعودهم إذا حدثوا ووعدوا ، وفي توبتهم إذا ذنبوا أو قصرُوا والمنافقون ضدهم في ذلك وغيره

تقدم في آخر حديث كعب بن مالك المتفق عليه ان هذه الآية نزلت فيه وفي أصحابه بما صدقوا رسول الله ﷺ ولم ينتحلوا لأنفسهم عذراً كاذباً في التخلف عن النفر معه . وبه قال نافع والسدي . وقال عبد الله بن عمر [رض] (وكونوا مع الصادقين) مع محمد ﷺ وأصحابه . وقال سعيد بن جبير والضحاك : مع أبي بكر وعمر وسائر عباس وأبو جعفر : مع علي . والحق انها عامة كما قال ابن عمر في عهده ، ومثله

يُقال في الصادقين من بعده ، وان الثلاثة الذين نزلت في قصتهم يدخلون في عمومها دخولا أولياً . وان أبا بكر وعمر وعلياً أفضل من هؤلاء الثلاثة وأعرق في الصدق وأكمل . ولكنني أشتم من الروایتين رائحة وضع النواصب والروافض ، وقيل ان المراد بالصادقين المهاجرون وان أبا بكر احتج بالآية على الانصار يوم السقيفة . وهذا القول لا وجه له والاحتجاج به لا يصح ، ووجه القائلون به بانه جعل الصادقين هما الصادقين في آية سورة الحشر (٨٩ : ٩) للفقراء المهاجرين - الى قوله - اولئك هم الصادقون) ومقتضاه أن يكون هذا الوصف خاصاً بالمهاجرين . حيث وجد في القرآن معرّفًا كآية (٤٩ : ١٥) إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله - إلى قوله - اولئك هم الصادقون) وقوله (ليسأل الصادقين - ليجزي الله الصادقين) وغيرهن - وهو باطل ولم يقل به أحد ، ومع هذا لا يدل على وجوب اتباع الانصار وغيرهم لهم في الامامة كما قال الطوفي

أخرج سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وأشهر رواية التفسير والبيهقي في الشعب عن عبد الله بن مسعود (رض) لا يصلح الكتاب في جد ولا هزل ، ولا يعود أحدكم صبيه شيئاً ثم لا ينجزه ، اقرؤا إن شئتم (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين) فهل تجدون لأحد رخصة في الكذب ؟ وأخرجه عنه الحاكم وصححه ، والبيهقي مرفوعاً الى النبي ﷺ ، بلهظ « ان الكذب لا يصلح منه جد ولا هزل ، ولا يمد الرجل ابنه ثم لا ينجز له ، ان الصدق يهدي الى البر ، وان البر يهدي الى الجنة ، وان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الفجور يهدي الى النار ، انه يقال للصادق : صدق وبر ، ويقال للكاذب : كذب وخجر . وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقاً ، ويكذب حتى يكتب عند الله كذاباً » وأخرج البخاري ومسلم وغيرهما قال قال رسول الله ﷺ « عليكم بالصدق فان الصدق يهدي الى البر وان الرجل ليصدق - الخ ما تقدم آنفاً - وإياكم والكذب فان الكذب يهدي الى الفجور ، وان الرجل ليكذب - الخ ما تقدم فيما قبله - والاحاديث في فضيلة الصدق ورذيلة الكذب وكونها من صفات المنافقين كثيرة تقدم بعضها ، وفي روايات عديدة « ان المؤمن قد يطبع على كل

خلق إلا الكذب والحيانة» وأنه لا رخصة في الكذب إلا لضرورة من خدمة حرب أو إصلاح بين اثنين أو رجل يحدث امرأته ليرضها — يعني في مثل التعجب اليها بوصف محاسنها ورضاه عنها، لا في مصالح الدار والعيال وغيرها ، والرواية في هذا على علاتها تقيد بحديث « إن في المعاريض لمندوحة عن الكذب — وفي رواية — ما يعني الرجل العاقل عن الكذب » روى ابن عدي الأول عن عمران ابن حصين والثاني عن علي رضي الله عنهما

(١٢٠) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَّوْنُ مِنْ مَوَاطِنَ الْكَفَّارِ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ *

(١٢١) وَلَا يَنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ

هاتان الآيتان في تأكيد وجوب الغزو مع رسول الله ﷺ وما فيه من الأجر العظيم، وحظر تخلف أحد عنه إلا بأذنه، بما فيه من تفضيل أنفسهم على نفسه

﴿ ما كان لاهل المدينة ﴾ ما كان بالذي يصح لاهل المدينة عاصمة الاسلام ومقر الرسول ﷺ ولا بالذي يستقيم او يحل لهم ﴿ ومن حولهم من الاعراب ﴾ كمنزلة وجهينة وأشجع وأسلم وغفار ﴿ أن يتخلفوا عن رسول الله ﴾ إذا خرج غازيا في سبيل الله كما فعل بعضهم في غزوة تبوك ولا في غير هذا من أمور الملة ومصالح الامة ﴿ ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ﴾ أي ولا ان يفضلوا أنفسهم على نفسه فيصونوها ، ويترغبوا بإثارة راحتها وسلامتها عن بذلها فيما يبذل فيه نفسه الشريفة القدسية

من احتمال الجهد والمشقة في سبيل الله عز وجل . يقال رغب في الشيء إذا أحبه جوآثره ، ورغب عنه إذا كرهه وأعرض عنه ، وقد جمع هنا بينهما بهذه العبارة المؤثرة للدالة على أن المتخلف يفضل نفسه ويؤثرها على نفس رسول الله ﷺ التي لا يكمل إيمان أحد حتى يحبه أكثر من حبه لنفسه ، وهذا يصح بعده ﷺ في كل راغب عن سنته والتأسي به ، كالملاحدة الذين يقولون لا يجب اتباعه بعد موته ، والمتبدعة والمقلدة الذين يؤثرون بدعهم ومذاهبهم على سنته

قال الزمخشري - ونعم مقال : أسروا أن يصحبوه على البأساء والضراء ، وأن يكابدوا معه الأهوال برغبة ونشاط واغترباط ، وان يلقوا أنفسهم من الشدائد ماتلقاه نفسه ، علما بأنها أعز نفس على الله وأكرمها . فإذا تعرضت مع كرامتها وعزتها للخوض في شدة وهول وجب على سائر الانفس أن تنهات فيما تعرضت له ولا يكثر لها أصحابها ولا يقيمون لها وزنا ، وتكون أخف شيء عليهم وأهونه ، فضلا عن أن يربوا بأنفسهم عن متابعتها ومصاحبتها ، ويضنوا بها على ما سمح بنفسه عليه . وهذا نهى بليغ مع تقييح لاسرهم ، وتوبيخ لهم عليه ، وتهيبج لمتابعتها بألفة وحمية اه

❖ ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ❖ أي ذلك الذي دل عليه النبي من النهي عن التخلف عنه ، ووجوب الاتباع له ، بسبب أن كل ما يصيبهم في جهادهم من أذى وان قل ، ومن إبداء للمدو وان صغر ، فهو عمل صالح لهم به أكبر الاجر ، فلا يصيبهم ظمأ لقلة الماء أو نصب لبعدا الشقة أو قلة لظهر - أو مجاعة لقلة الزاد -

في سبيل إعلاء كلمة الله وإعزاز دينه ❖ ولا يطأون موطناً يغيظ الكفار ❖ وطؤهم إياه لانه من دارهم ، ويعدون وطأه اعتداء عليهم واستهانة بقوتهم ، فيغيظهم أن تمسه أقدام المؤمنين او حوافر خيولهم وأخفاف واحلهم ، فكيف إذا يسر الله فتحه لهم

❖ ولا ينالون من عدو نيلا ❖ أي ولا يبلغون من أي عدو من أعداء الله ورسوله

شيئاً ما أرادوا من جرح أو قتل أو أمر أو هزيمة أو غنيمة ❖ إلا كتب لهم به عمل صالح ❖ أي كتب لهم بكل واحد مما ذكر عمل صالح مرضي لله تعالى مجزي عليه بالثواب العظيم ، فما أكثر هذه الاعمال الصالحات التي تعم الامور العارضة كالجوع

والعطش ، وتشمل كل حركة من بطشة يد أو وطئة قدم ؟ ﴿ ان الله لا يضيع أجر المحسنين ﴾ هذا تامل لهذا الاجر العظيم يدل على عموم الحكم ، وإن كان من المعلوم بالضرورة ان هذا الجهاد مع رسول الله ﷺ أعظم أجراً ، وأنفس ذخراً ، قال قتادة : ان حكم الآية خاص به ﷺ وبين جاهد معه ، وقال الاوزاعي وعبد الله بن المبارك وغيرهما من علماء التابعين : هذه الآية للمسلمين الى ان تقوم الساعة . وهذا القول اصح ، على ما لا يخفى من التفاوت في الاجر ، فالجهاد في سبيل الله احسان ، و (هل جزاء الاحسان إلا الاحسان) ؟ في كل زمان ومكان

﴿ ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ﴾ أي كذلك شأنهم فيما ينفقون في سبيل الله صغر أم كبر ، قل أم كثر ، وفي كل واد يقطعونه في سيرهم غادين أو راكبين (وهو مسيل الماء في منفرجات الجبال وأغوار الاكام ، خصه بالذكر لما فيه من المشقة) لا يترك شيء منه أو ينسى بل يكتب لهم ﴿ ليجزيهم الله ﴾ بكتابته في صحف أعمالهم ﴿ احسن ما كانوا يعملون ﴾ وهو الجهاد ، فانه عند وجوبه وفرضيته بالاستنفار له يكون احسن الاعمال ، اذ يتوقف عليه حفظ الايمان ، ومالك الاسلام ، وجميع ما يتبعهما من فضائل الاعمال ، يقال جزاء العمل وجزاه به . كما قال (ثم يجزاه الجزاء الأوفى) والنص على جزائهم احسن ما كانوا يعملون لا ينافي جزاءهم بما دونه وقد قال آنفا (ان الله لا يضيع أجر المحسنين) وهو فيه ، وانما المراد النص على أن هذا العمل احسن أعمالهم أو من أحسنها لانه جمع بين الجهاد بالمال والجهاد بالنفس وما قبله من الثاني فقط ، والجزاء على الاحسن يكون احسن منه على قاعدة (من جاء بالحسنة فله خير منها) وبيان ذلك بقاعدة (من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها) وقال بعضهم إن معنى الجملة أنه تعالى يجزيهم بكل عمل مما ذكر احسن جزاء على أعمالهم الحسنة ، أي في غير الجهاد بالمال والنفس ، بأن تكون النفقة الصغيرة فيه كالنفقة الكبيرة في غيره من البرات ، والمشقة القليلة فيه كالمشقة الكثيرة فيما عداه من الاعمال الصالحات .

(١٢٢) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ، فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ

هذه الآية من تنمة أحكام الجهاد بالقتال، مع زيادة حكم طالب العلم والتفقه في الدين وهو آلة الجهاد بالحجة والبرهان، الذي عليه مدار الدعوة الى الايمان، وإقامة دعائم الاسلام، وانما جهاد السيف حماية وضياع . وسببها أن ما ورد في فضل الجهاد وثوابه وفي ذم القاعدين عنه وكونه من شأن النافقين دون المؤمنين الصادقين ، قوى رغبة المؤمنين فيه حتى كانوا إذا أراد الرسول ﷺ ارسال سرية للقاء بعض المشركين وان قلوبا ينتدب لها جميع المؤمنين ويتساقون إلى الخروج فيها، ويدعون الرسول ﷺ وحده أو مع نفر قليل كما ورد، وانما يجب هذا في النفر العام اذا وجد سببه بقدر الحاجة لا في كل استنفار لمقاومة الكفار ، على ان النفر العام قد يتعذر او تكثر فيه الاعذار ، وقيل انه لم يكن واجبا على عمومه إلا في عهده ﷺ او على الانصار بمقتضى مبايعتهم له (راجع ص ٣٠٨ ج ١٠)

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ﴾ أي ما كان شأن المؤمنين ولا مما يجب عليهم ويطلب منهم ، أن ينفروا جميعاً في كل سرية تخرج للجهاد، فان هذه السيرايا من فروض الكفاية لا من فروض الاعيان ، وانما يجب ذلك إذا خرج الرسول واستنفرهم للخروج ﴿ فلولا نفر من كل فرقة ﴾ لولا حرف تجضيض وحث على ما تدخل عليه ، أي فهلا نفر للقتال من كل فرقة كبيرة ﴿ منهم ﴾ كالتفيلة

أو أهل المدينة ﴿ طائفة ﴾ أي جماعة بقدر الحاجة ﴿ ليتفقهوا في الدين ﴾ أي ليتأتى لهم أي المؤمنين في جملتهم التفقه في الدين بأن يتكلف الباقون في المدينة الفقاهة في الدين بما يتجدد نزوله على الرسول ﷺ من الآيات، وما يجري عليه ﷺ

من بيانها بالقول والعمل ، فيعرف الحكم مع حكمته ، ويفصل العلم الجمل بالعمل به .
 ﴿ ولينذروا قومهم ﴾ الذين نفروا للقاء العدو ﴿ اذا رجموا اليهم ﴾ أي يجعلوا
 جل همهم من الفقاهاة بأنفسهم ارشاد هؤلاء وتعليمهم ما علموا ، وانذارهم عاقبة
 الجهل ، وترك العمل بالعلم ﴿ لعلمهم يحذرون ﴾ أي رجاء أن يخافوا الله ويحذروا
 عاقبة عصيانه . ويكون جميع المؤمنين علماء بدينهم قادرين على نشر دعوته ، وإقامة
 حجته ، وتعميم هدايته ، فهذا ما يجب أن يكون غاية العلم والتفقه في الدين والقرض
 منه ، لا الرياسة والعلو بالمناصب ، والتكبر على الناس وطلب المنافع الشخصية منهم
 والآية تدل على وجوب تعميم العلم والتفقه في الدين والاستعداد لتعليمه في
 مواطن الإقامة وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم ، ويكونون به هداة
 لغيرهم ، وان التخصصين لهذا التفقه بهذه النية ، لا يقولون في الدرجة عند الله عن
 المجاهدين بالمال والنفس لاعلاء كلمة الله والدفاع عن الملة والامة . بل هم أفضل منهم في
 غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضا عينيا والدلائل على هذا كثيرة ، وما قاله
 بعض الاصوليين من دلالة الآية على الاحتجاج بخبر الواحد متكاف بعيد عن
 معنى النظم الكريم ، ومبني على أن لفظ طائفة يطلق على الواحد كاقيل وهو باطل
 كنت أطلب العلم في طرابلس وكان حاكمها الاداري (المتصرف) فيها
 مصطفى باشا بابان من سروات السکرد ، وكان من اهل العلم والفقه في مذهب
 الشافعية ، وقد قال لي مرة في دارنا بالقلمون : لماذا تستثني الدولة العلماء وطلاب
 العلوم الدينية من خدمة العسكرية وهي واجبة شرعا وهم أولى الناس بالقيام بهذا
 الواجب ؟ - يعرض بي - أليس هذا خطأ لأصل له في الشرع ؟ فقلت له على
 البدهاهة بل لهذا أصل في نص القرآن الكريم وتلوت الآية ، فاستكثر الجواب
 على مبتدئي مني لم يقرأ التفسير وأثنى ودعا . وقد تعارضت الروايات المأثورة في
 هذه الآية فاختلغت الأقوال في تفسيرها والحق فيها ما قلنا وعليه الجمهور
 أخرج أبو داود في ناسخه ، وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن
 عباس (رض) قال نسخ هؤلاء الآيات (انفروا خفافا وثقالا - وإلا تنفروا

يمذبكم عذاباً أليماً) قوله (وما كان المؤمنون لينفروا كافة) يقول لتنفّر طائفة
ولم تك طائفة مع رسول الله ﷺ فلما كثروا مع رسول الله ﷺ هم الذين
يتقّهون في الدين وينذرون اخوانهم اذا رجعوا اليهم من الغزو لعلمهم يحذرون
ما نزل من بعدهم من قضاء الله في كتابه وحدوده .

واخرج ابن المنذر وابن ابي حاتم وابن مردويه والبيهقي في المدخل عنه
في الآية : يعني ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده - فلولا
نفر من كل فرقة منهم طائفة يعني عصابة يعني السرايا فلا يسرون الا باذنه . فاذا
رجعت السرايا وقد نزل قرآن تعلمه القاعدون من النبي ﷺ قالوا ان الله انزل
على نبيكم بعدكم قرآناً وقد تعلمناه فتمكث السرايا يتعاضون ما أنزل الله على نبيهم
ﷺ بعدهم ، ويعت سرايا آخر ، فذلك قوله (ليتفقهوا في الدين) يقول يتعلمون
ما أنزل الله على نبيهم ويعلمونه السرايا اذا رجعت اليهم (لعلمهم يحذرون)

فاما قوله في الرواية الأولى بان هذه الآية نسخت آيات النفي العام فموقد
يوافق إطلاق السلف في النسخ ومنه عندهم تخصيص العام وتقبيد المطلق ، ولا
يصح هنا النسخ المصطلح عليه في اصول الفقه ، لان موضع النفي الخاص غير موضع
النفي العام ، فلا تنافي بين الاحكام . وبهذا يقول جمهور العلماء

وأخرج ابن جرير عن الحسن البصري انه جعل الضمير في قوله تعالى
(ليتفقهوا في الدين) للطائفة التي تنفر للغزو لا التي تبقى مع النبي ﷺ في المدينة
وذلك قوله : ليتفقه الذين خرجوا بما يريهم الله من الظهور على المشركين والنصرة
وينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم . وزعم الظهري ان هذا القول أولى بالصواب ،
واوضح ذلك بأن هذه الطائفة النافرة تتفقه بما تعانين من نصر الله اهل دينه وأصحاب
رسوله على أهل عداوته والكفر به فيفقه بذلك من معاينة حقيقة علم أمر الاسلام
وظهوره على الاديان من لم يكن فقهه (ولينذروا قومهم) فيحذروهم أن ينزل بهم من
بأس الله مثل الذي نزل بمن شاهدوا ممن ظفروا بهم المسلمون من اهل الشرك (إذا)
هم (رجعوا اليهم) من غزومهم (لعلمهم يحذرون) يقول لعلم قومهم إذا هم حذروهم
ما عاينوا من ذلك يحذرون فيؤمنون بالله ورسوله حذراً ان ينزل بهم ما نزل

بالذين أخبروهم خبرهم اه وهذا تاويل متكلف ينبو عنه النظم الكريم فان اعتبار طائفة السرية بما قد يحصل لها من النصر - وهو غير مضمون ولا مطرد - لا يسمى تفقهها في الدين وإن كان يدخل في عموم معنى الفقه ، فان التفقه هو التعلم الذي يكون بالتكلف والتدرج والمتبادر من الدين علمه . ولا يصح هذا المعنى في ذلك العهد إلا في الذين يبقون مع النبي ﷺ فيزدادون كل يوم علما وفقها بنزول القرآن كما تقدم آنفا في تفسير (وأجدر أن لا يعلموا حدود ما انزل الله) وما يأتي قريبا فيما ينزل من السور فيزداد به الذين آمنوا إيمانا . واخذ بعضهم من قول الحسن أنه يشمل السفر لاجل طلب العلم لما في الرحلة من اسباب زيادة الاستفادة بالانقطاع للعلم ولقاء اساطينه ، وعلل بعضهم فضيلة السياحة بذلك كما تقدم قريبا وقد بينا معنى الفقه في عرف اللغة واستعمال القرآن ، وانه اخص من العلم بفروع الاحكام ، وحققناه بشواهد الآيات في تفسير (٧ : ١٧٩ لهم قلوب لا يفقهون بها) - (صفحة ٤٢٠ ج ٩ تفسير)

(١٢٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ
وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ

اعلم أن هذه الآية قاعدة من قواعد القتال الذي نزلت أهم قواعده وأحكامه في هذه السورة والتي قبلها ، وانما وضعت ههنا على سنة القرآن في تفريق الموضوع الواحد الكثير الاحكام في مواضع متفرقة وبيننا حكته آنفا عوداً على بدء

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ ﴾ اي الذين يدنون عنكم وتتصل بالادهم ببلادكم ، وذلك ان القتال شرع لتأمين الدعوة إلى الاسلام وحرية الدين والدفاع عن أهله ، وقد كانت الدعوة موجهة الى الاقرب فالاقرب من الكفار كما قال تعالى لرسوله (لتندرام القرى ومن حولها) وقال لاهل مكة (واوحى هذا القرآن لاندركم به ومن بلغ) اي وكل من بلغته دعوته . بل أمره أن يخص

الاقرب اليه في النسب من اهل بلده ام القرى فقال (وانذر عشيرتک الاقربين)
 أخرج ابن أبي حاتم عن ابن زيد في الآية قال : كان الذين يلونه من الكفار
 العرب فقاتلهم حتى فرغ منهم - وعن قتادة قال : الادنى فالادنى - وأخرج
 ابن مردويه عن ابن عمر انه سئل عن غزو الديلم فقال سمعت رسول الله ﷺ
 يقول (قاتلوا الذين يلونكم من الكفار) قال « الروم » اه يعني ان الروم هم
 المراد بالكفار في الآية لانهم كانوا عند نزولها في هذه السورة بعد الفراغ من أمر
 يهود المدينة وخيبر هم الذين يلونهم في تبوك وسائر بلاد الشام

وترجيح البدء بالاقرب فالاقرب معقول من وجوه كثيرة كالحاجة والامكان
 والسهولة والنفقة ، ولذلك كانت القاعدة فيه عامة في الدعوة والقتال والنفقات
 والصدقات ، وكذا ما يدار في المجلس من شراب ونحوه فكان ﷺ يعطي من
 على يمينه وإن لم يكن افضل الجالسين ثم الذي يليه فالذي يليه ، وأمر بان يأكل الانسان
 ما يليه . وانما تطرد القاعدة في الحالة العادية . وأما ما يعرض من ضرورة في كل
 ذلك فله حكمه فاحكام الضرورات مستثناة في الواجبات والمحرمات والآداب .

﴿ وليجدوا فيكم غلظة ﴾ أي وليجدوا فيكم شدة وخشونة في القتال ومعلقاته كما
 تقدم في تفسير آية (٧٣) يا ايها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغظ عليهم (ص
 ٥٤٩ ج ١٠) والغلظة على القاتلين في زمن الحرب من مقتضيات الطبيعة والمصلحة
 وتمكيرها في الآية يدل على ان لأولي الامر أن يحددوها في كل زمن وكل حال
 بما يتفق مع المصلحة ، وانما أمروا بها على كونها طبيعية لتقييد أمروا به في الاحوال
 العامة من الرفق والعدل والبر في معاملة الكفار حتى صار ذلك من أخلاق الاسلام .
 وامر القتال مبني على الشدة والغلظة في كل الامم وقد حرم فظانها الاسلام
 كما تقدم في تفسير سورة الانفال . وقد بلغت فظانها عند الافرنج في هذا العصر

ما يخشى ان يفضي الى تدمير العمران كله ﴿ واعلموا ان الله مع المتقين ﴾ له في
 مراعاة أحكامه وسننه بالمعونة والنصر ، وأهمها ما يجب اتقاؤه في الحرب ، من
 التقصير في أسباب النصر والغلب ، التي بينها في كتابه ، والتي تعرف بالعلم
 والتجارب ، كأعداد ما يستطاع من قوة ، والصبر والثبات ، والطاعة والنظام ،

وترك التنازع والاختلاف، وكثرة ذكر الله، والتوكل عليه فيما وراء الاسباب .
وقد بينا حقيقة معنى التموى وانواعها واختلاف المراد منها باختلاف مواضعها في
تفسير (٨ : ٢٩ ص ٦٤٨ ج ٩)

(١٢٤) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ أَيْسُرُكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ
إِيمَانًا؟ فَمَا الَّذِينَ آمَنُوا فزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٥) وَأَمَّا
الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ
كَافِرُونَ (١٢٦) أُولَئِكَ يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ
ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَكَّرُونَ (١٢٧) وَإِذَا مَا أَنْزَلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ
بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ : هَلْ يَرَىٰ لَكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا، صَرَفَ اللَّهُ
قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ

هذه الآيات الاربع آخر ما نزل في المنافقين، وتأثير نزول القرآن فيهم وفي
المؤمنين، ومن قام الدليل على اليأس من ايمانهم، واخبار الله بوثهم على كفرهم
﴿ واذا ما أنزلت سورة ﴾ كلمة «ما» بعد «اذا» تفيد التأكيد لمضمون

شرطها، يعني واذا تحقق انزال الله تعالى على رسوله سورة من القرآن ﴿ فمنهم من
يقول أيسر أيسركم زادته هذه إيماناً ﴾ أي فمن المنافقين من يتساءل مع اخوانه الاختبار،
او مع من يلقاه من المسلمين كافة للتشكيك، قائلاً أيسر أيسركم زادته هذه السورة إيماناً ؟
أي يقيناً بحقيقة القرآن والاسلام، وصدق الرسول ﷺ فان في كل سورة من
القرآن آيات على صدقه ﷺ بما فيها من ضروب الاعجاز العامة الدالة على انها
من عند الله تعالى، وكون محمد ﷺ لا يستطيع ان يأتي بمثلها من تلقاء نفسه،
فالسؤال عن الايمان باصل الاسلام وصدق الرسول (ص) في تبليغه عن الله عز وجل .
وهو التصديق الحازم المقترن باذعان النفس وخضوع الوجدان الذي يستلزم العمل،

لا مجرد اعتقاد صدق الخبر ، الذي يقابله اعتقاد كذبه ، فان أشد الناس كفراً أولئك
المصدقون الجاحدون الذين قال الله لرسوله فيهم (فانهم لا يكذبونك ولكن الظالمين
بآيات الله يجحدون) ومثله قوله (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) ولا
شك ان الايمان بمعناه الذي قلناه يزيد بنزول القرآن في عهد الرسول وناهيك بمن
يحضر نزوله عليه ويسمعه منه ، وكذا يزيد بتلاوته وبسماعه من غيره أيضاً ثباتاً في
قلب المؤمن وقوة اذعان ، وصدق وجدان ، ورغبة في العمل والقرب من الله . قال
الله تعالى في جواب هذا السؤال وهو العليم الخبير ﴿ فاما الذين آمنوا فزادهم ايماناً ﴾
فأثبت تعالى المؤمن زيادة الايمان بزياة نزول القرآن وهو يشمل الزيادة في
حقيقته وصفته من اليقين والاذعان واطمئنان القلب ، وفي متعلقه وهو ما في السورة من
مسائل العلم ، وفي أثره من العمل والتقرب إلى الرب . وانما يتساءل المنافقون
عن الاول وهو الذي يفقدونه ، وإنما غيره تابع له . ﴿ وهم يستبشرون ﴾ أي والحال
انهم يسرون بنزولها وتستدعي زيادة الايمان في قلوبهم البشري والارتياح بما
يرجون من خير هذه الزيادة بتزكية أنفسهم ، وأثر ذلك في أعمالهم في الدنيا والآخرة
﴿ وأما الذين في قلوبهم مرض ﴾ أي شك وارتياب ، يدعو إلى النفاق بأسرار
الكفر واظهار الاسلام ﴿ فزادتهم رجساً إلى رجسهم ﴾ أي كفراً ونفاقاً مضموماً
إلى كفرهم ونفاقهم السابق الذي هو اقدر الرجس النفسي وشر انواعه
﴿ وماتوا وهم كافرون ﴾ أي واستحوذ ذلك عليهم ورسخ فيهم ، فكان مقتضى سنة
الله تعالى في تأثير الاعمال في صفات النفس ان من مات منهم مات على كفره ،
وسيموت من بقي منهم وهم متلبسون بالكفر . وهاك الدليل على ذلك :

﴿ أولايرون انهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ﴾ الاستفهام لتقرير
مضمون الحكم عليهم والحجة عليه وهو داخل على فعل محذوف للعلم به من النقام ، والمعنى
أيجهلون هذا ويفعلون عن حالهم فيما يعرض لهم عاماً بعد عام من تكرار الفتون والاختبار ،
الذي يظهر به استعداد النفس للايمان او الكفر ، والتمييز بين الحق والباطل ،

كلا آيات الدالة على صدق الرسول ﷺ في كل ما أخبر به من نصر الله ولمن اتبعه ،
 وخذلان أعدائه من الكفار والمنافقين ووقوع ما أنذرهم ، ومن إنباء الله رسوله
 بما في قلوبهم ، وفضيحتهم بما يسرون من أعمالهم ، كما فصل في هذه السورة وذكر بعضه في
 غيرها — وقرأ حمزة ويعقوب (او لانرون) على ان الخطاب المؤمنين الذين قد
 يرو عنهم الخبر المؤكد وقوعه بموتهم على كفرهم ، كأنه يقول أتعجبون من الحكم
 عليهم بهذه العقوبة السوءى ولا ترون الدلائل الدالة عليها من فتنهم وابتلائهم
 المرة بعد المرة سنة بعد سنة ، بما من شأنه ان يذهب بشكهم ويشفي مرض قلوبهم ،
 من آيات الله فيهم وفي غيرهم ﴿ ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون ﴾ أي ثم تم
 الاعوام على ذلك ولا يتوبون من نفاقهم ، ولا يتعظون بما حل بهم مما أنذرهم
 الله تعالى به ، وهل بعد هذا من برهان على انقطاع نور الفطرة والاستعداد
 الايمان أقوى من هذا ؟ ان كان وراءه برهان أقوى منه فهو أنهم يفرون من
 العلاج الذي من شأنه أن يشفيهم من مرض قلوبهم وهو ما أكد به ما قبله بقوله :

﴿ واذا ما انزلت سورة نظر بعضهم الى بعض ﴾ هذا بيان لحال المنافقين
 الذين كانوا يكونون في مجلس الرسول (ص) عند نزول سورة وما يكون من فعلهم
 وقولهم عند تلاوته لها ، وما قبلها في بيان حالهم اذا بلغهم نزول سورة من حيث
 البحث عن تأثيرها ، وقد يقال ان الاولى تشمل من سمع منه ومن بلغ عنه ،
 والعبارة بموضوعها ، لا بطريقة العلم بها ، وان هذه أدل على رسوخهم في الكفر
 وعدم الطمع في رجوعهم عنه ، باثباتها أنهم يكرهون سماع القرآن من الرسول
 ﷺ وهو اشد تأثيراً من سماعه من غيره في الهداية ، ولذلك كان المشركون
 يمنعون من تلاوته على الناس لئلا يهتدوا بسماعه منه ، فان لم يتمكنوا من اسكاته
 اعرضوا عن سماعه ولغوا فيه . ومنعوا صاحبه الصديق أيضاً من الصلاة في المسجد
 الحرام ثم من مسجده الخاص لا رأوا النساء والصبيان يجتمعون لسماع القرآن منه
 ويتأثرون بمخشوعه فيه : يقول : وانما انزلت سورة وهم في المجلس تسارقوا النظر ،
 وتغامزوا بالعيون ، على حين تخشيم ابصار المؤمنين ، وتنحني رؤوسهم ، وتجب

التوبة: ص ٩ سبب صرف القلوب عن هداية القرآن ، اثبات زيادة الايمان ٨٥

قلوبهم ، وترامقوا بالعيون يتشاورون في الانسلاخ من المجلس خفية للثلايفة تضحوا بما يظهر عليهم من الانكار والسخرية بالوحي ، قائل بعضهم لبعض بالاشارة والعبارة :
﴿ هل يراكم من احد ﴾ أي من الرسول والمؤمنين اذا نحن انصرفنا كارهين

لسماعها ﴿ ثم انصرفوا ﴾ يتسللون لو اذا الى مجامعهم الخاصة بهم ، والتعبير بتم لبيان تراخي فعلهم عن وقت قولهم ، الى سئوح فرصة الغفلة عنهم ولو افراداً ،

فكلما لمح احد منهم غفلة من المؤمنين عنه انصرف ﴿ صرف الله قلوبهم ﴾ هذه الجملة تحتمل الدعاء والخبر ومضمونها النهائي في كلام الله واحد كما تقدم نظيره قريباً . والمعنى صرف الله قلوبهم عن صدق الايمان ، والاهتداء بآيات الله في القرآن ،

المرشدة الى آياته في لا كون ﴿ بانهم قوم لا يفقهون ﴾ اي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقاها الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال ، لعدم استعمال عقولهم فيها ، فهم لا يفقهون ما يسمعون من هذه الآيات لعدم تدبرها ، والاعراض عن النظر والتأمل في معانيها ، وموانعتها للعقل ، وهدايتها الى الحق والعدل ، ذلك بانهم اتخذوا انفسهم اعداء وخصوما للرسول ، فوظنوا انفسهم على الاعراض عن كل ما جاء به من غير بحث ولا تأمل فيه أمعقول ام غير معقول ؟ احق ام باءل ؟ اخير ام شر ؟ اهدى ام

ضلال ، انافع ام ضار ؟ فأتى يرجى لهم وهذه حالهم ان يهتدوا بتمدد نزول الآيات والسور ، انما مثاهم كمثل اعداء الاسلام من اهل الملل التي جروا على نظام تعليمي وتربيه وجدانية عملية في عصبيتهم الدينية والقومية وارتباط منافهم الاجتماعية والسياسية بها : لقنهم رؤساؤهم انه يوجد دين اسمه الاسلام بني أساسه على عداوتكم لذاتكم ، فيجب عليكم أن لا تنظروا فيه إلا أن يكون للبحث عن مطعن ولو متكلف تلزونه به ، ولا تفكروا في شيء من حال أهله في دينهم ودنياهم إلا للعداوة والتحقير لهم ، وتدبير المكائد للعدوان عليهم ، واذا ظهر لكم شيء حسن من دينهم فوجهوا كل قواكم العقلية وبلاغتكم الكلامية الى تشويهه وذمه والصد عنه ، وهذا ما يفعله رجال الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبهم كما بيناه في غير هذا الموضوع ومن المباحث الكلامية في الآيات الخلاف في زيادة الايمان ونقصه ،

على مذهبين في اثبات ذلك ونفيه، وجمهور السلف من الصحابة والتابعين وحفاظ السنة على الاثبات . وهذه المسألة من اغرب مسائل عصبية المذاهب عند النظار الجدليين ومقلديهم ، وما كان ينبغي لمسلم أن يجعل هذا موضع خلاف لبحث بعض من ينتسب اليهم في مفهوم لفظ الايمان الذي يتحقق باعتقاده الدخول في الملة هل يقبل الزيادة والنقصان في ذاته؟ أم المراد من هذه الآية وما في معناها متعلق الايمان من العقائد والاحكام التي كانت تشتمل عليها السورة؟ واستبعاد ان يكون التصديق الذي يكون به الكافر مؤمناً قابلاً للزيادة والنقصان ، وهي نظرية باطلة، وقد نبينا معنى الآية بما يدل على ان قصر زيادة الايمان فيها على التصديق بزيادة العلم بما تضمنته باطل، لأن هذا بديهي لا يمكن ان يكون هو الذي سال عنه المنافقون ، ونصوص القرآن الكثيرة صريحة في زيادة الايمان ونقصه، وكذلك الاحاديث الصحيحة التي صرح فيها الرسول ﷺ بأن اقل الايمان وهو المنجي من الخلود في النار كالذرة او الخردلة من الايمان الكامل الذي لا يمسه اهله من عذاب النار شي، كالذين وصفهم الله بقوله (انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم) الخ وقوله (انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا) الخ والتحقيق ان اليقين في الايمان وغيره له درجات متفاوتة في القوة والضعف. واليقين الذي يصح به الايمان هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الجازم في غير الحسيات والضروريات كما بيناه في مواضع اولها تفسير (٢ : ٣ وبالآخرة هم يوقنون) وهو درجات ، منها التقليد الجازم ومنها المعلوم بالنظر والاستدلال ، وقد يطرأ عليهم الشك والزوال، ولولا ذلك ما تصور ارتداد مؤمن عن دينه، ومنها ما يصير وجدانا ضروريا بشرح الصدر، والنور الالهي بكثرة الذكر والفكر والعبادة، وأما اليقين المنطقي العلم القطعي بانبرهان بأن هذا الشيء كذا مع العلم القطعي باستحالة ان يكون غير كذا ، فهو الذي قالوا انه لا يقبل الزيادة والنقصان، ولكنه نادر الوقوع في غير الضروريات ولا تتوقف عليه صحة الايمان ، ومع هذا يمكن ان يقال انه قابل للزيادة في وصفه وطأينة القلب به ، وفي ترتب آثاره عليه . ومثال الاول أن ترى شبحاً في سدفة الفجر فتعلم انه انسان في انتصاب قامته ثم

تزداد علما به كلما انتشر الضياء حتى يكون العلم به تفصيليا. والبرهان المنطقي المفيد لهذا اليقين عندهم لا تكون مقدماته النظرية في درجة الضروريات قوة وثباتا. وقد قسم بعضهم اليقين الى ثلاث درجات علم اليقين وهو ما يعلم بالدليل ، وعين اليقين وهو ما يكون بالمشاهدة والكشف، وحق اليقين وهو ما يكون بالذوق والوجدان. ومثلها بعضهم بالفناء عند الصوفية، وبعضهم بالموت، فكل أحد عنده علم اليقين بأنه يموت فاذا عين ملائكة الموت عند الحشيرة وقبل قبض الروح كان عين اليقين، فاذا مات بالفعل وصل الى درجة حق اليقين، لكن هذه الدرجة وما قبلها لا يتعلق بهما التكليف.

(١٢٨) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٩) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ
حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ

ختم الله تعالى هذه السورة بهاتين الآيتين اللتين قال أبي بن كعب (رض) لهما آخر ما نزل وبيننا في الكلام على السورة قبل الشروع في تفسيرها ما يعارضه وسنحقق المسألة بعد الفراغ من تفسير الآيتين

﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ﴾ جمهور المفسرين على ان الخطاب هنا للعرب فهو في معنى قوله (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم) فإمته به (ص) على قومه أعظم ، والحجة عليهم به وبكتابه أنهض ، وأخص قومه به قبيلته قريش فمشيرته الاقربون بنو هاشم وبنو المطلب ، ولو لم يؤمن به وبكتابه العرب لما آمن العجم ، وهو مبعوث إلى جميع الناس كما تقدم في قوله (٧:٥٨) قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعا) ولكنه وجه دعوته الى الاقرب فالاقرب على القاعدة التي بينها أنفا في قتال الاقرب فالاقرب ، فالعرب آمنوا بدعوته مباشرة والعجم آمنوا بدعوة العرب ، العرب آمنوا بفهم القرآن وبيانه ﷺ له بالتبليغ والعمل ، وبما شاهدوا من آيات الله تعالى في شخصه ، والعجم آمنوا بدعوة العرب وما

شاهدوا من عدلهم وفضائلهم ، ثم بدعوة بعضهم لبعض بعد انتشار الإسلام فيهم ، وقال الزجاج : إن الخطاب للعالم كله اعموم بعثته فيكون بمعنى ما يأتي في أول السورة التالية (أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم) الخ ولكن آية أول سورة يونس هذه في الرد على منكري كون البشر رسولا من الله وهو المخكي عن جميع كفار الامم ، وآية آخر سورة براءة في امتنان الله عز وجل على من أرسل اليهم الرسول من أنفسهم وصميم قومهم ، لتأييد الحجج بالمنة ، والترغيب في اجابة الدعوة ، فان من طبع كل قوم حب الاختصاص بالفضل والشرف على غيرهم ، كما قال تعالى في امتنانه عليه بالقرآن المجيد (وانه لذكر لك ولقومك) أي شرف لك ولهم ، تذكرون به في العالم ، ويدون لكم في التواريخ ، وانما قومه وعانده أكبر قومه حتى من بني هاشم انفة واستكباراً عن اتباعه وهم يرونه دونهم ، ولما يتضمن اتباعه من الاقرار بكفرهم وكفر آبائهم وأجدادهم الذين يفاخرون بهم ، مع عدم ثقتهم بفوزه وبأنهم ينالون باتباعه من مجد الدنيا فوق ما كانوا عليه بمسافات تطاول السماء رفعة وشرفاً ، دع ما هو فوق مجد الدنيا من سعادة الآخرة ، ثم انهم صاروا يفتخرون بكونه صلى الله عليه وسلم منهم ، بأكثر مما يبديحه دينه لهم ، حتى صار أقربهم يتكلم على نسبه فيقصر في العلم والعمل ، وقد أكد تعالى هذه المنة الخاصة بوصفه هذا

الرسول بقوله ﴿ عزيز عليه ما عنتم ﴾ الخ العنت المشقة و لقاء السكر وه الشديديد وقيد
الراغب بما يخاف منه الهلاك ، وعز على فلان الأمر : ثقل واشتد عليه ، وقالوا هو
كناية عن الأتفة عنه ، وما مصدرية - أي شديد على طبعه وشعوره القومي عنتم
لانه منكم ، وهذا يشمل ما يكون في الدنيا وما يكون في الآخرة ، فلا يهون عليه
أن يكونوا في دنياهم أمة ضعيفة ذليلة يعنتها أعداؤها بسيادتهم عليها وتحكمهم فيها ،
ولا أن يكونوا في الآخرة من أصحاب النار ﴿ حريص عليكم ﴾ الحرص شدة
الرغبة في الحصول على المفقود ، وشدة العناية بحفظ الموجود ، وكان (ص) حريصاً
على اهتداء قومه به بإيمان كفرهم وثبات مؤمنهم في دينه كما قال تعالى له (١٦ : ٣٧) إن
تحريص على هداهم) الآية وقال (١٢ : ١٠٣) وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين)

﴿ بالمؤمنين رؤوف رحيم ﴾ أي شديد الرأفة والرحمة بالمؤمنين فكل ما يدعوها اليه من العمل بشرائع الله تعالى فهو دلائل على ثبوت هذه الصفات الكاملة والعواطف السامية له ﷺ ينص الله تعالى وهو أرحم بالمؤمنين وأرف ، وكل شاق منها كالجهاد فهو منجاة مما هو أشق منه ، ولا شيء من الشاق منها يبالغ حد العنت ، لقطع في هذا الدين بنفي العسر والحرج .

وصف الله تعالى رسوله بصفيتين من صفاته العلى ، وسماه باسمين من أسمائه الحسنى ، بعد وصفه بوصفين هما أفضل نعمت الرؤساء والزعماء المدبرين لأمر الأمم بالحق والعدل والفضل ، وفي الصحاح والقاموس ان الرأفة أشد الرحمة . وجعلهما بعض اللغويين والمفسرين بمعنى واحد . وقال بعضهم ان الرأفة أنخص لانكاد تقع في الكراهية ، والرحمة تد تقع في الكراهية المصاحبة ، واختار الرازي انها مبالغة في رحمة مخصوصة من دفع المكروه وإزالة الضرر . وقال أستاذنا انها لا تستعمل إلا في حق من وقع في بلاء ، اختياراً لقول الرازي (ص ١٢ ج ٢ تفسير) وأصح منه انها تستعمل في مكان الضعف والشفقة والرقّة كقولهم رأف بولده وترأف به . وتقديمه على الرحيم هو الواجب كأنه قول رؤوف بضعفاء المؤمنين وأولي القربى منهم ، ورحيم بهم كلهم وتخصيص رأفته ورحمته (ص بالمؤمنين) في مقابلة ما أمر به من الغلظة على الكفار والمنافقين ، لا يعارض كون رسالته رحمة للعالمين ، كما هو ظاهر ، فان هذه الرحمة مبذولة لجميع الأمم لعموم بعثته (ص) ولكن منهم من قبلها ومنهم من ردها ، وقد بينا في تفسير (واغلظ عليهم) انه إنما أمر بذلك صلوات الله تعالى عليه لان الغالب على طبعه الشريف الرقة والرحمة والادب في المقابلة والمعاشرة . وقد قال تعالى (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك)

وفي التفسير المأثور عن ابن عباس (رض) في الآية (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) قال ليس من العرب قبيلة إلا وقد ولدت النبي (ص) مضرية وربيعية . ويمانيها . يعني ان نسبه من مشعب في جميع قبائل العرب وبطونها . وعنه في (عزيز عليه ما عنتم) قال شديد عليه ماشق عليكم (حريص عليكم) أن يؤمن كفاركم .

ومن القراءة الشاذة في الآية قراءة (أنفسكم) بفتح الفاء من النفاسة رواها ابن مردويه من حديث علي مرفوعاً وقرأ بها ابن عباس والزهري وابن محيصة ورويت عن الامام جعفر الصادق عن ابيه الامام محمد الباقر ، وهي خبر واحد لا يثبت بها القرآن ، وفيها ان المعبود في فصيح الكلام ان النفيس والانفس مما يوصف به الاشياء لا الاشخاص

﴿فان تولوا فقل حسبي الله﴾ هذا التفات عن خطاب أمة الرسول او قومه الذين آمن بالله تعالى عليهم بجهته رسولا اليهم من انفسهم وبفضائله العائدة عليهم ، إلى خطابه ﷺ وبيان ما يجب عليه في حال إعراضهم عن الاهتداء والاتضاع بما خاطبهم به ربهم في شأنه . يقول : فان تولوا وانصرفوا عن الايمان بك والاهتداء بما جئتهم به ، فقل حسبي الله أي هو محسبي الذي يكفيني أمر توليهم وإعراضهم ،

وما يعقبه من عداوتهم لي وصددهم عن سبيله وقد بلغت وما قصرت ﴿لا اله الا هو﴾ أي لا معبود غيره ألجأ اليه بالدعاء والاستعانة كما يلجئون إلى آلهتهم المنتحلة

﴿عليه توكلت﴾ وحده ، فلا أكل أمري فيما اعجز عنه إلى غيره ، وكيف لا اخصه

بالتوكل ﴿وهو رب العرش العظيم﴾ الذي هو مركز تدبير أمور الخلق كلها كما قال الآية الثالثة من السورة التالية (ثم استوى على العرش يدبر الامر) قرأ جمهور القراء العظيم بالخفض على انه صفة للعرش . وقرئ بالرفع على انه صفة لرب ، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير . وعظمة العرش بعظمة الرب الذي استوى عليه ، وعظمة الملك الكبير الذي هو مركز تدبيره ووحدة النظام فيه ، وعظمتها في الملأ الأعلى وفيما دونه هي المظهر الوجودي لعظمة هذا الرب التي لا تحد ، ولا يدرك كنهها احد ، ودليل على انه الاله الحق الذي لا يصح أن يعبد غيره ولا يتوكل على سواه ، وكيف يعبد غيره بالدعاء أو غيره أو يتوكل على سواه من يعلم انه هو الرب المالك للعالم كله والمدير لاموره . ويراجع هنا تفسير (٨ : ٦٤ يا أيها النبي حسبك الله) [في ص ٧٤ ج ١٠] وفسر بعضهم العرش هنا

بالملك (بالضم) لانه يطلق عليه تجوزا ، وهو خطأ منهم لان هذا التجوز لا مسوغ له ، ولا يصح في كل الآيات التي ورد فيها اللفظ ، والمعنى الحقيقي أبلغ منه وأعم ، فانه يدل على المعنى المجازي وزيادة إذ ليس لكل ملك في الارض عرش حقيقي هو المركز الوحيد لتدبير كل شيء فيه . فالعرش العظيم يدل على الملك العظيم وعلى وحدة النظام والتدبير فيه ، ولفظ: الملك العظيم لا يدل على هذا ، لاحتمال وجود الخلل فيه وكون تدبيره ليس له مرجع وحدة تكفل النظام ، وتمنع الخلل والفساد ، ونظار المتكلمين ومفسروهم يتأولون العرش والاستواء عليه فراراً من التشبيه الذي يستلزمه بزعمهم المبني على قياس عالم الغيب على عالم الشهادة ، وقياس الخالق على المخلوق ، وهو قياس باطل باجماعهم ، وقال ابن عباس سمي العرش عرشا لارتفاعه ، وفي الدر المنثور روايات في وصف العرش ومادته هي من الاسرائيليات لا يصح فيها شيء مرفوع .

ونحنم تفسير الآيتين بتجقيق مسألتين ذكرنا في تفسيرهما المأثور ولم نرا احدا حققهما:

﴿ الاولى ماورد في كتابة الآيتين عن النبي ﷺ وكونهما آخر ما نزل ﴾

إن معنى هاتين الآيتين لا يظهر إلا في دعوته ﷺ الى الاسلام بمكة في أول زمن البعثة . وقد ذكرت في الكلام على هذه السورة قبل البدء بتفسيرها ان ابن أبي الفرس قال انها مكيتان ، وأنه يرد قوله ماورد من انها آخر ما نزل من القرآن ، ثم ذكرت هنالك أصح ماورد في آخر ما نزل من القرآن وهو غير هاتين الآيتين . وأقول الآن إن قول ابن أبي الفرس هو الوجه من جانب المعنى فهو يؤيد الرواية وأما القول بأنها آخر ما نزل فقد أخرج في بعض المسانيد والتفاسير المأثورة عن أبي بن كعب بألفاظ متقاربة (منها) عن ابن عباس عنه : ان آخر آية أنزلت على النبي صلى الله عليه وسلم وفي لفظ ان آخر ما انزل من القرآن (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ الآية (ومنها) عن الحسن عنه انه كان يقول : إن أحدث القرآن عهداً بالله - وفي لفظ بالسما - هاتان الآيتان (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الخ السورة (ومنها) من طريق أبي العالية عنه انهم جمعوا القرآن في مصحف في

خليفة أبي بكر فكان رجال يكتبون ويميل عليهم أبي بن كعب حتى انتهوا الى هذه الآية من سورة براءة (ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) فظنوا ان هذا آخر ما نزل من القرآن فقال أبي بن كعب ان النبي ﷺ قد أقراني بعد هذا آيتين (لقد جاءكم - الى - رب العرش العظيم) قال فحتم الامر بما فتح به: بلا إله الا الله. اه وهو صريح في انها آخر ما نزل من هذه السورة، لان القرآن مطلقا الا اذا صح أن سورة براءة آخر سورة نزلت والصحيح في الرواية أن آخر ما نزل من السور سورة النصر ومن الآيات (٢: ٢٨١) واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله) كما تقدم في محله وفي حديث زيد بن ثابت في جمع القرآن المكتوب الذي كان متفرقا في عهد أبي بكر عند ابن سعد وأحمد والبخاري والترمذي والنسائي وغيرهم - انه قل : حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمه بن ثابت الانصاري لم أجدهما مع احد غيره (لقد جاءكم رسول من أنفسكم) الى آخرهما اه والمراد انه لم يجدهما مكتوبتين عندما جمع المكتوب في الرقاع والاكتاف والعسب في هذه السورة إلا عند خزيمه ، وفي رواية في البخاري وغيره عند أبي خزيمه وهي أرجح كما سيأتي ، الا ان تكونا وجدنا عند كل منهما - وكاتبا محفوظتين معروفتين للكثيرين كما صرح به في الروايات الأخرى. فقد أخرج ابن اسحاق واحمد وابن أبي داود في المصاحف عن عباد بن عبد الله بن الزبير قال : أتى الحارث بن خزيمه بهاتين الآيتين من آخر براءة (لقد جاءكم رسول - الى قوله - وهو رب العظيم) الى عمر فقال من معك على هذا ؟ فقال : لا أدري والله الا اني اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ ووعيتهما وحفظهما ، فقال عمر وأنا اشهد لسمعتهما من رسول الله ﷺ لو كانت ثلاث آيات لجمعتها سورة على حدة ، فانظروا سورة من القرآن فألحقوها بها ، فألحقت في آخر براءة . وأخرج ابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ ان رجلا من الانصار جاء بهما عمر فقال عمر لا أسألك عليها بينة أبداً كذلك كان رسول الله ﷺ يقرأها وأخرج ابن أبي داود في المصاحف ان خزيمه بن ثابت جاء عثمان حين تصدى لكتابة القرآن بعد مقتل عمر فقال اني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما ، فقالوا ما هما ؟ قال تلقيت من رسول الله ﷺ (لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز

عليه ما عنتم) الخ السورة . فقال عثمان : وأنا أشهد انهما من عند الله فأين ترى ان نجعلهما؟ قال اختم بهما آخر ما نزلت من القرآن فحتمت بهما براءة فيؤخذ من مجموع الروايات ان الآيتين كانتا محفوظتين مشهورتين الا انهم اختلفوا في موضعهما ، ففي بعضها انهما آخر سورة براءة بالتوقيف من النبي ﷺ ، وفي بعضها انهما وضعتا بالرأي والاجتهاد ، والمعتمد الاول قطعاً لان من حفظ التوقيف حجة على من لم يحفظ . والظاهر ان سبب الاختلاف في موضعهما ان موضوعهما يدل على انهما مكيتان ، ولم تصح لجماعة جامعي المصحف رواية بكتابتيهما في إحدى السور المسكية ، ولكن وجدنا عند أبي خزيمة مكتوبتين في آخر براءة . وفي الصحيح ان زيد بن ثابت - الذي كان يكتب الوحي لرسول الله ﷺ وهو الذي امره أبو بكر بجمع القرآن مع آخرين وكان عمره يحضرم وهم يكتبون . قال : فوجدت آخر براءة مع خزيمة بن ثابت او ابى خزيمة بالشك وهو من الراوي لا من زيد ، وفي رواية عنه مع خزيمة ، والتحقيق الذي قرره الحافظ ابن حجر ان آخر التوبة وجد عند ابى خزيمة ، وأما الذي وجد مع خزيمة فهو آية الاحزاب . وذلك ما رواه البخاري في تفسير سورتها عن زيد بن ثابت قال : لما نسخنا المصحف في المصاحف فقدت آية من سورة الاحزاب كنت اسمع رسول الله ﷺ يقرأها لم اجدها مع احد الا مع خزيمة الانصاري الذي جعل رسول الله ﷺ شهادته شهادة رجلين من المؤمنين (رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه) قال الحافظ في شرحه : هذا يدل على أن زيدا لم يكن يعتمد في جمع القرآن على علمه ولا يقتصر على حفظه . لكن فيه إشكال لان ظاهره انه اكتفى مع ذلك بخزيمة وحده والقرآن انما يثبت بالتواتر . والذي يظهر في الجواب ان الذي اشار اليه انه فقد فقد وجودها مكتوبة لا فقد وجودها محفوظة ، بل كانت محفوظة عنده وعند غيره ، ويدل على هذا قوله في حديث جمع القرآن « فجعلت أتدبعه من الرقاع والعسب كاسياتي مبسوطا في فضائل القرآن اه

وأقول انني قد ذكرت آنفا ان هذا هو المراد منه وهو ما كنت افهمه دون غيره وأجيب به من سألتني عنه مستشكلا . فتقول الحافظ : والذي يظهر الخ

كان يجب أن يكون : والذي يتعين القطع به كذا ، وحسبك دليلا على هذا انه قال انهم كانوا يسمعون رسول الله ﷺ يقرأها فهو صريح في أن البحث كان عن كتبها فقط . وجملته القول ان الآيتين كانتا محفوظتين ومكتوبتين ومعروفتين لكثير من الصحابة وانما اختلفوا عند الجمع في موضع كتابتهما حتى شهد من شهد ان النبي ﷺ هو الذي وضعهما في آخر سورة براءة وفاقا لقول أبي بن كعب الذي ثبت في الصحيح أنه أحد الذين تلقوا القرآن كله مرتباً عن النبي ﷺ وكذا زيد بن ثابت . وكان عدد المختلفين في موضعهما قليلا فلما كتبنا في المصاحف وافق الجميع على وضعهما ههنا ، ولم يرو أي اعتراض على ذلك عن كتبوا لانفسهم مصاحف اعتمدوا فيها على حفظهم كابن مسعود (رض)

بقي البحث في حكمة وضعهما في آخر هذه السورة المدنية وموضوعهما مكي يؤيده كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ على ما جزم به جماهير المفسرين ، وما هما بأول ما وضع من الآيات المكية في السور المدنية لمناسبة اقتضت ذلك . وامل الحكمة في ذلك ان يفيدا بموضوعهما صحة الخطاب بهما لكل من تباهه الدعوة من أمة الاجابة ، وهو ما ذهب إليه الخطابي ، كما دل موضوعهما ونزولهما بمكة - كما قال ابن أبي الفرس - على كون الخطاب فيهما لقومه ﷺ وهو ما جزم به الجماهير . ويكون ما قلناه جامعا بين الاقوال كلها

(طهارة نسبة ﷺ وفضل قومه واصطفاءؤه من خيارهم)

من المأثور في تفسير الآيتين ما ذكروا في قوله تعالى (رسول من أنفسكم) من الاحاديث المرفوعة في طهارة نسبة ﷺ من سفاح الجاهلية ومن فضل قومه وعشيرته وعترته واهل بيته على غيرهم . وأصح ما ورد في هذا ما رواه مسلم والترمذي من حديث واثلة (رض) مرفوعا « ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل ، واصطفى قريشاً من كنانة ، واصطفى من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم » ولم أر لاحد من العلماء بيانا لمعنى هذا الاصطفاء بم كان ؟ وقد وفقني الله لاستنباطه من التاريخ العام ، وبينته في المنار وفي خلاصة السيرة المحمدية في

جواب السؤال عن حكمة بعثة خاتم النبيين، بالرسالة العامة للناس أجمعين، بالدين العام للبدو والحضر - من العرب الذين غلبت عليهم جمالة البدو، وبعد عهدهم بما سبق لامتهم من الحضارة والعلم، ولم يبعث من بعض شعوب الحضارة القريبة كالفرس والروم والهند والصين، ويليه السؤال عن مزية كنانة في العرب من آل اسماعيل، الذين امتازوا على سائر العرب بانهم ممن اصطفى الله من آل ابراهيم، ثم عن مزية قريش في بني كنانة وفضل بني هاشم على سائر قريش؟

خلاصة ما بينته في فضل العرب على سائر الامم، الذي أعدهم به الله لبعثته سيد البشر من العرب والمعجم، بالدين العام الباقي هي ان جميع شعوب الحضارة المشار اليها وغيرها كانت قد فسدت غرائزها وأخلاقها الفطرية، وعقائدها الدينية، وآدابها التقليدية، بفساد رؤساء الدين والدنيا فيها، وتعاون الفريقتين على استعبادها واستئلالها لها، وتسخيرها لتوفير لذاتها وتشديد صروح عظمتها، بسلب حريتهم العقلية بالتقاليد الدينية التي يفرض عليهم الكهنة والاحبار والقسوس الخضوع لها، بدون أن يكون لهم أدنى رأي أو اختيار او فهم فيها، وسلب حرية ارادتهم في حياتهم الشخصية والاجتماعية، بما يضع لهم الملوك والحكام من القوانين والنظم الادارية والعسكرية الاستبدادية، وبتحكمهم فيهم بدون قانون ولا نظام ايضا، فجميع الامم والشعوب كانت مرهقة مستعبدة في دينها ودينها الا العرب ولاسيما عرب الحجاز واما العرب فلم يكن عندهم رياسة حكم استبدادية تستذلهم وتفسد بأسهم وتقهر ارادتهم على مالا يريدون، ولا رياسة دينية تقهرهم على اتباع تقاليد تمبديلة لا يعقلونها، بل كانوا على أتم الحرية العقلية واستقلال الارادة في دينهم وديناهم، وفي أعلى ذروة من عزة النفس، وشدة البأس، وبحرية عقولهم كانوا على أتم الاستعداد لفهم دين العقل والفطرة، وباستقلال ارادتهم كانوا على أكل الاستعداد للنهوض بما اعتقدوا حقيقته وصلاحه وخيريته، ولاقامته في قومهم، ونشره في غيرهم، والدفاع عنه باختيارهم، وتصرفهم في كل ذلك بتمتضى الوازع النفسي، دون تحكم زئيمس ديني ولا دينوي، فان هذا الدين انما أوجب طاعة الأئمة والقواد بالمعروف والاذعان للشرع، وما تضعه الامة لنفسها من النظام بالشورى بين تمثيلها من اهل الحل

والعقد ، حتى فرض الله على الرسول ﷺ مشاورتها في أمورها ، وقال له ربه في صيغة مبايعة نساؤها له (ولا يمصينك في معروف) وبها كان يبايع الرجال كالنساء . ولذلك قال ﷺ « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق إنما الطاعة في المعروف »
رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي من حديث علي كرم الله وجهه
وأما كنانة فقد كان أشهر ذرية اسماعيل في العلم والحكمة ، والكرم والنبل ، حتى كانت العرب تخرج إليه ، وينقلون عنه حكماً رائعة ، وكفى بهذا اصطفاء عليهم ، وامتيازاً فيهم ،

وأما امتياز قريش على سائر العرب فهو معروف متواتر وأهمه أن ما ذكرناه من عزة النفس ، واستقلال الإرادة والعقل ، كان أكمل فيهم ، فإن بعض العرب في أطراف جزيرتهم خضعوا لسيادة الفرس والروم خضوعاً مائلاً ، وجملة أنهم كانوا أصرح وولد اسماعيل أنساباً ، وأشرفهم احساباً ، وأعلامهم آداباً ، وأفضحهم أسنة ، وهم الممهدون لجمع الحكمة العامة ، بعد أن جمع قصي جميع قبائلهم بمكة ، واستقلوا بخدمة المسجد الحرام من الحجابة وسقاية الحاج والرفادة وهي اسعاف الفقراء والمساكين من الحاج وغيرهم ، وأسسوا دار الندوة لاجل الشورى في الامور المهمة ، وكانوا أعرف العرب ببطون العرب في جميع جزيرتهم بما كانوا يتداولونه من رحلة الشتاء والصيف ، وبذلك كانوا أغنى العرب أيضاً وأشرفهم بلا منازع ، وناهيك بما عقدوا من حلف الفضول في حادثة سن الرسول وهو انهم تعاهدوا وتعاهدوا أن لا يجردوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه ، وكانوا عوناً له على من ظلمه . إلى أن ترد مظالمه ، وفي حديث الزبير بن العوام وأم هانيء عن الطبراني وتاريخ البخاري « فضل الله قريشاً بسبع خصال : فضلتهم بانهم عبدوا الله عشرين سنين لا يعبد الله إلا قرشي (أي لا يعبدوه وحده من العرب إلا قرشي) وفضلهم بأنه نصرهم يوم الفيل وهم مشركون (أي نصرهم على قوة تفوق قوتهم كثيراً بما يشبه نصره لرسلة في كونه بدون استعداد كسبي يقرب من استعداد عدوهم) وفضلهم بأنه نزل فيهم سورة من القرآن لم يدخل فيها أحد من العالمين وهي (لا يلاف قريش) وفضلهم بأن فيهم النبوة والخلافة والحجابة والسقاية »

وأما اصطفاؤه تعالى لبني هاشم على قريش فقد كان بما امتازوا به من الفضائل
والمكارم فقد كان جددهم هاشم هو صاحب إيلاف قريش الذي أخذ لهم العهد من
تقيصر الروم على حمايتهم في رحلة الصيف إلى الشام، ومن حكومة اليمن في رحلة الشتاء،
وهو أول من هشم الثريد للفقراء من قومه ولاهل موسم الحج كافة، وقد أربى
عليه في السخاء والكرم ولده عبد المطلب، وجملة القول ان بني هاشم كانوا أكرم
قريش أخلاقاً وأبعدهم عن الكبر والاثرة، لا ينازعهم أحد في ذلك، وقد قال
أبو جهل في حسده إياهم على كون الرسول ﷺ منهم: تنازعنا نحن وبنو عبد مناف
الشرف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، واعطوا فاعطينا... حتى إذا زاحمناهم
بالمناكب قالوا منا نبي يأتيه الوحي من السماء. فتى ندرك هذه؟ ويؤخذ منه أنهم كانوا
يعلمون ان النبوة لا يمكن أن تكون بالاجتهاد والمباراة الكسبية في الفضائل، وان القرآن
لا يمكن أن يعارضه أحد في بلاغته ولا هدايته، لانه من الله لا من علم محمد ﷺ
وقصاحته وبلاغته، ولولا ذلك لعارضه من كانوا أشهر العرب في ذلك ولم يكن محمد منهم
وقد ورد في فضل هذه الخاتمة لهذه السورة المباركة ما رواه أبو داود عن
أبي الدرداء موقوفاً وابن السني عن أبي الدرداء مرفوعاً قال قال رسول الله ﷺ
«من قال حين يصبح وحين يمسي: حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب
العرش العظيم - سبع مرات - كفاه الله ما أهمه من أمر الدنيا والآخرة» كذا في
الدر المنثور ويراجع ما قاله ابن كثير آخر في تفسير السورة فيه، وهو لا يمنع
العمل به، وحسبنا الله ونعم الوكيل، والحمد لله رب العالمين

(تم تفسير سورة براءة بفضل الله وتوقيه في شهر صفر سنة خمسين
وثلاثمائة والف وبقي تلخيص ما فيها من أصول الدين وأحكامه
وحكمه وسياسته وآدابه وسنن الله في ذلك، فبئسأله تعالى
توفيقنا فيه للحق الذي يرضاه وينفع عباده)

خلاصة سورة براءة (التوبة)

(وهي خمسة أبواب وفيها فصول)

(هذه السورة آخر السور المدنية الطول نزولا فيقل فيها ذكر أصول الدين وما يناسبها من الحجج العقلية والسنن الكونية وكذا أحكام العبادات البدنية . - راجع مقدمة خلاصة سورة الانفال في ص ١١٨ والتناسب بين السورتين في ص ١٤٧ ج ١٠)

الباب الاول

(في صفات الله تعالى وأفعاله وشؤونه في خلقه وأحكامه وسننه فيها)

وفيه أربعة فصول

(الفصل الاول في الاسماء والصفات الالهية والاضافات اليه تعالى)

(١ - الاسماء والصفات)

في هذه السورة من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى : الغفور الرحيم ، الرؤف الرحيم ، العليم الحكيم ، العزيز الحكيم ، السميع العليم ، عالم الغيب والشهادة . ومنها المكرر مرتين وثلاثاً أو أكثر، وكل منها موضوع في موضعه المناسب للمعناد في السياق أو الآية . وأما الفائدة العامة لذكر أسماء الله تعالى وصفاته وتكرارها في المواضع المختلفة فهي تذكير تالي القرآن وسامعه المرة بعد المرة بربّه وخالقه وما هو متصف به من صفات الكمال الذي يشمر له زيادة تعظيمه وحبّه ، والرجاء في رحمته وإحسانه ، والخوف من عقابه ، لمن أعرض عن هداية كتابه ، أو خالف حكمته وسننه في خالقه ، وهذا أعلام مقاصد القرآن ، في إكمال الايمان ، وإعلاء شأن الانسان (فراجع في ص ١١٩ ج ١٠)

ومما ورد فيها في العلم الالهي قوله تعالى (٧٨ ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم ، وأن الله علام الغيوب) وقوله (١٦ أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم - الى قوله - والله خبير بما تعملون) وهما أعظم ما يجدد في القلوب مراقبته عز وجل عند كل قول وعمل ، وحسدك بهما وازعاً ورافعاً

(٢ - المعية الالهية)

في هذه السورة من المعية العليا قوله تعالى في آية الغار عن رسوله ﷺ (٤٠) إذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا) وهي معية النصر والمعونة ، والحفظ والعصمة ، والتأييد والرحمة ، كما يقتضيه المقام في حال الهجرة ، وهذه المعية أفضل من كل ما ورد في معناها ، ومن أعظمه قوله تعالى لكليمه موسى وأخيه هارون عليهما السلام (لا تخافا اني معكما أسمع وأرى) فراجع (ص ٤٢٧ ج ١٠) وفي الآية ١٢٣ (واعلموا أن الله مع المتقين) وهذه معية النصر لانها معطوفة على الامر بالقتال ويقال في كل منها مع العلم بمعناها انها معية تليق به تعالى

(٣ - الدرجة والعندية الالهية وسكينة تعالى)

قال تعالى (٢٠) الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله أعظم درجة عند الله) الآية . وقد قلنا في تفسير هذه العندية [ص ٢٢٠ ج ١٠] انها حكيمية [بضم الحاء] شرعية ، ومكانية جزائية ، أي هم أعظم درجة في الفضل والكمال في حكم الله ، وأكبر مشوبة في جوار الله

وقال بعد بشارتهم بالرحمة والرضوان والجنات والنعيم المقيم والخلود فيها من الآية (٢٢) ان الله عنده أجر عظيم) وهو . ا. تشاف بياني فالعندية فيه مفسرة لما قبلها . وقال (٣٦) ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السموات والارض) فالعندية هنا يفسرها ما بعدها وهو كتاب الله الذي كتب فيه مقادير السموات والارض ونظام الايام والليالي والشهور والسنين . وقيل كتابه المنزل الذي فيه حكمه التشريعي في الشهور وهو قوله بعد ما ذكر [منها أربعة حرم] الخ وفي الآية (٥٢) ونحن نبرص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا) فعندية العذاب عبارة عن كونه بفعله تعالى دون كسب للمؤمنين وهو ما يسمى بالمصائب السماوية بدليل مقابته بقوله [أو بأيدينا] والاضافة في العندية الحكيمية للتوقيف والتعريف ، وفي العندية للمكانية للتشريف ، ومثلها إضافة السكينة اليه تعالى

٤ - حب الله ورضاه وكرهه وسخطه وغضبه

قال تعالى (٧ ان الله يحب المتقين) وقال في المهاجرين والانصار [١٠٠ رضي الله عنهم ورضوا عنه] وقال في جزاء المهاجرين المجاهدين [٧٢ ورضوان من الله] ويدخل في معناه ما صح في الاحاديث من مقام الرؤية كما بيناه في تفسيرها وقال في شأن المنافقين [٩٦ فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين] أسند الله تعالى الى نفسه الحب والرضى في هذه الآيات وفي سور أخرى ، كما أثبت لنفسه السكوه في قوله من هذه السورة [٤٧ ولكن كره الله انبعاثهم] والسخط والغضب في سور أخرى . والمتكلمون يتأولون هذه الصفات بالانابة والاحسان من لوازم الحب والرضى ، وبالعقاب من لوازم السخط والكره والغضب ، قراراً من تشبيه الخالق بعبيده الذين تعد هذه الصفات انفعالات نفسية لهم يتنزّه الله عنها . ومذهب السلف الصالح إثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه وأثبتته له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تأويل ، فيقولون ان حب الله تعالى وكرهه ورضاه وغضبه صفات تليق به تترتب عليها آثارها ، وهي لا تماثل ما سمي باسمها من صفات البشر ، كما ان ذاته ونفسه وعلمه وقدرته لا تماثل ذوات البشر وعلمهم وقدرتهم بلا فرق . بل نقول ان من خلق الله في عالم الغيب من الجن والملائكة لا تماثل في إدراكه ولا في غيرها ما في عالم الشهادة ، بل روي في نمر الجنة أنه يشبه نمر الدنيا وليس مثله وعن ابن عباس [رض] انه ليس في الجنة من أطعمة الدنيا الا الاسماء . وقال تعالى في نعيم الآخرة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وقال النبي صلى الله عليه وسلم في تفسيره له « قال الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » وأمر بقراءة الآية متفق عليه

وأما الكلام مع أهل التأويل من ناحية الأدلة العقلية التي يزعمون الانفراد بها دون علماء السلف فهو أن حب الحق والخير كالإيمان والعدل وأهلها ، وكرهة الباطل كالشكر ، والشر كالظلم ومجتزئتها ، كلاهما من صفات الكمال المحض ، وكل ما كان كالا محضاً فالعقل بوجبه لواجب الوجود بأعلا مما يكون

التوبة : س ٩ أفعاله وتصرفه تعالى لا يقتضي الجبر ولا ينافي الاختيار في الكسب (١٠١)

منه للوجود الممكن - فقد اتفق العقل مع النقل على إثبات هذه الصفات لله بمعنى أكمل مما هي في خيار الناس ، ولكن لا يمكن وضع أسماء لها من كلام الناس تدل على الفرق بين مسمياتها في الخالق والمخلوق ، فوجب الرجوع في ذلك إلى الوحي الفاضل وهو قوله تعالى [ليس كمثل شيء وهو السميع البصير] فالتمتزه في الجملة الأولى السالبة أزال ما يستلزمه التشبيه في الجملة الثانية الموجبة ، بل قال الشيخ محيي الدين بن عربي في تفسير هذه الآية ان الايمان الصحيح هو الجمع بين التتمتزه والتشبيه

(الفصل الثاني)

﴿ أفعال الله في تصرفه وتدبيره لامور خلقه بمقتضى سنته ، لا يجعلهم مجبرين بقدرته ﴾

قال تعالى (١٤) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية . يتوهم أهل الجبر انها تدل على نحلتهم ، ويرده انه تعالى أمرهم بقتال المشركين ، ولو كانوا مجبرين لكان أمرهم لغواً وعبثاً . وقوله (يعذبهم الله بأيديكم) معناه يعذبهم بتمكين أيديكم من رقابهم قتلاً ، ومن صدورهم ونحوهم طعناً ، ويؤكده الوعد بعده بنصرهم وفي معناه قوله (٥٢) ونحن نبرص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا)

وقال تعالى في آية (١٩) والله لا يهدي القوم الظالمين * وقال في آيتي ٢٤ و ٨٠ والله لا يهدي القوم الفاسقين * وقال (٣٧) والله لا يهدي القوم الكافرين) وليس معنى هذه الآيات ان الله تعالى منهم من الهداية بقدرته فصاروا عاجزين عنها ومجبرين على الفسق والظلم والكفر إجباراً ، وإنما معناها ما بيناه في تفسيرها وهو ان هذه الصفات التي رسخت في انفسهم بكسبهم متافية لهدى الله تعالى الذي بعث به رسله بحسب سنته تعالى في الاسباب والمسببات (راجع ص ٢١٩ و ٢٣٦ و ٤١٩ و ٥٦٧ ج ١٠) ويقابله قوله تعالى قبل الآية الأولى من هذه الآيات فيمن ترجى لهم الهداية بحسب سنن الله تعالى (١٨) إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ومُ يخش الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)

ويدخل في هذا الباب من بيان السنن وطبائع البشر قوله في خوالف المنافقين (٨٧ وطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) ثم قوله فيهم (٩٣ وطبع الله على قلوبهم فهم لا يعلمون) فهو بيان لسنة الله في تأثير أعمالهم التي منها رضاهم بنخطة الخسف والذل وهو التخلف عن الجهاد ان قلوبهم كالمطبوع عليها التي لا تفقه كنه حالها ولا تعلم سوء مآلها (ص ٥٩٠ ج ١٠) وفي معناه قوله في الذين ينصرفون منهم متسللين من مجلس القرآن (١٢٧) ثم انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنهم قوم لا يفقهون) أي بسبب انهم قوم فقدوا صفة الفقاهاة الفطرية وفهم الحقائق وما يترتب عليها من الاعمال لعدم استعمال عقولهم فيها الخ ما فصلناه في تفسيرها (ص ٨٥ ج ١١) وبهذه المرآة ترى حقيقة المراد من قوله تعالى فيهم (٤٦) ولكن كره الله انبعاثهم فنبطهم) وراجعته في ص ٤٧١ ج ١٠ وقوله (٦٧) نسوا الله فذسيهم) وراجعته في ص ٥٣٤ ج ١٠

﴿ الفصل الثالث ﴾

في تعليل أفعال الله تعالى وأحكامه وسننه فيهما

- ١- ترى تعليل الامر بآتمام العهود الموقته بقوله تعالى (ان الله يحب المتقين)
 - ٢- » » » بتخليية سبيل التائبين من المشركين بقوله تعالى (ان الله غفور رحيم)
 - ٣- » » » باجارة المشرك المستجير لسماح كلام الله بقوله (ذلك بأنهم قوم لا يعلمون)
 - ٤- » » » بقتال المشركين الناكثين للعهد بقوله (اعلمهم ينتهون)
 - ٥- » » » عدم قبول صدقات المنافقين بفسقهم ثم بكفرهم في آيتي ٥٣ و ٥٤
 - ٦- » » » المغفرة لهم بكفرهم بالله ورسوله وفسقهم في الآية ٧٩
 - ٧- » » » النهي عن الصلاة على موتاهم بكفرهم بالله ورسوله في الآية ٨٤
 - ٨- » » » الامر بأخذ الصدقة من المؤمنين بتطهيرهم وتزكيتهم بها [١٠٣]
 - ٩- » » » فتنة المنافقين في كل عام بأمل التوبة والتذكر [١٢٦]
- فيعلم من كل تعليل ان حكيمته تعالى في أفعاله وأحكامه منفعه عباده ومصالحتهم وخيرهم

سنه تعالى في أفراد البشر وأقوامهم وأممهم

بيننا سنن الله تعالى في تأثير العقائد والصفات النفسية في الاعمال وترتب الاعمال عليها في مواضع [منها] إجزاء الكافرين في الآية الاولى [ومنها] نفي هداية الله تعالى للظالمين والفاسقين والكافرين في الآيات ١٩ و ٢٤ و ٣٧ و ٨٠ [ومنها] كراهته تعالى انبعث المنافقين للقتال وتثبيطهم وقوله [اقعدوا مع القاعدن] في الآية ٤٦ [ومنها] طمعه على قلوبهم في الآيتين ٨٧ و ٩٣ وفي معناه صرف قلوبهم عن الايمان بالقرآن في الآية ١٢٧ وتقدم بيان هذا في الفصل الذي قبل هذا

ومن بيان سننه تعالى في الامم قوله تعالى (٣٩) لا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) فبقاء الامم وعزتها يتوقفان على قوة الدفاع الحربية [راجع تفسيرها في ص ٤٢٥] ومنها قوله [٤٧] لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا [راجع تفسيرها في ص ٧٢] ومنها قوله (١١٥) وما كان الله ليضل قوما بعد اذ هدام حتى يتبين لهم ما يتقون

﴿ الفصل الرابع ﴾

في قضاء الله وقدره وولايته للمؤمنين وتوكلهم عليه

هذه عدة عقائد من أصول الايمان ، وكال التوحيد والايقان ، جمعت كلها في آية واحدة من هذه السورة أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يرد بها على المنافقين الذين أخبره عنهم بأنهم تسوءهم كل حسنة تصيبه كالنصر والغنيمة في غزوة بدر ، وتفرحهم كل مصيبة تصيبه كالنكبة التي وقعت في غزوة أحد وهي (٥١ قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) فتصور حال مؤمن يوقن أنه لن يصيبه الا ما كتبه الله له - وأنه ان لم يكن يعرف هذا المكتوب له بعينه فهو يمتقد أنه لا يعدو في جملته وعده تعالى له من حيث هو مؤمن من الخير والنصر والشهادة في شبييل الله المعبر عنهما بالحسينين في الآية التي بعد هذه [أي آية ٥٢] ويمتقد أن الله تعالى هو مولاه الذي يتولى نصره ونوقيقه ، فهو بمقتضى إيمانه يتوكل عليه ويفوض أمره اليه ، تصور حال مؤمن تمكنت هذه العقائد من نفسه ، وملكت عليه وجدانه ، هل يخاف من غير الله ؟ هل يأس من روح الله ؟

هل يمنعه أي خطب من الخطوب عن الجهاد لاعلاء كلمة الله ، وإقامة دين الله ، وبذل الجهد ، في إقامة الحق والعدل ، ومد بساط البر والفضل ؟؟ وتصور حال أمة يغلب على أفرادها ما ذكر ألا تكون أعز الامم نفساً وأشدّها بأساً ؟

ويؤيد هذه العقائد ويزيدها رسوخاً في قلب تالي هذه السورة ختمها بقوله عز وجل (١٢٩) فان تولوا فقل حسبي الله لا إله الا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم) فينبغي للمؤمن أن يتأمل معناها ويطالب نفسه بالتحقق به ، فانه يجذب به من حلاوة الايمان وعزة النفس ما يحققر به خسائس المادة التي يتكالب الماديون عليها ، وينخعون أنفسهم انتحاراً اذا فاتهم أو أعيابهم شيء منها ، وقد ورد في ذلك عن أم الدرداء عن أبي الدرداء [رض] من قال إذا أصبح وإذا أمسى « حسبي الله لا إله الا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم سبع مرات كفاه الله ما أهمه » وقد تقدم هذا في تفسير الآية (ص ٩٧)

الباب الثاني

(في مكانة محمد رسول الله وخاتم النبيين عند ربه وفي هداية دينه وحقوقه على أمته)

وفيه ثلاثة فصول

﴿ الفصل الاول في اقتران اسمه باسم ربه وحقه صلى الله عليه وسلم بحقه عز وجل ﴾

وفيه أربعة عشر شاهداً

(١ و ٢) افتتحت هذه السورة بقوله تعالى (براءة من الله ورسوله الى الذين عاهدتم من المشركين) وعطف عليها قوله تعالى (وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الاكبر) الخ فقرن تعالى اسم نبيه باسمه في تبليغ أحكامه وتنفيذها (٣) قل تعالى في وصف كلمة المؤمنين من الآية (١٦) — ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) أي دخيلة وبطانة من غيرهم يطاعونهم على الاسرار ، ولهذا أشرك المؤمنين في هذا لانه يتعلق بحقوقهم في ولاية بعضهم لبعض دون أعدائهم ، ويضرهم أن يكون بينهم ولائج ودخائل من غيرهم . دون

ما قبله الذي هو تشريع هو حق الله تعالى وتبليغ وتنفيذ : هما حق رسوله ﷺ في عهدته ، وورثته من بعده

(٤) قوله تعالى (٢٤) قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وأخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) فجعل كمال الايمان مشروطا بتفضيل حب الله تعالى ورسوله على كل ما يحب في هذا العالم من الناس والمصالح والمنافع ، وانكته جمل الجهاد في سبيل الله وحده دون رسوله لانه عبادة يتقرب بها الى الله وحده وليس الرسول ﷺ أدنى حق ولا شراكة مع الله عز وجل في عبادته (٥) قوله تعالى في صفات أهل الكتاب الذين شرع قتالهم من الآية (٢٩) — ولا يجرمون ما حرم الله ورسوله) على القول بأن « رسوله » في الآية هو الفرد الاكمل خاتم النبيين وهو قول للمفسرين بقاله أن المراد به رسوله تعالى اليهم وهو موسى (ع . م) لليهود وعيسى (ع . م) للنصارى

وهل العطف في الآية يدل على أن الرسول قد أعطاه الله حق التحريم من تلقاء نفسه أم حظها منه التبليغ عن الله تعالى نصاً ولو في غير القرآن أو استنباطاً ؟
اختلف علماءنا في التشريع الديني في هذه المسألة دون الديني المحض فذهب بعضهم الى الاول وجعلوا منه تحريمه ﷺ للمدينة كما أن يصاد صيدها أو يحتلها خلاها الخ وذهب آخرون الى الثاني ومنهم الامام الشافعي وقد بينا هذه المسألة في موضع آخر بالتفصيل

(٦) قوله تعالى في سبب منع المنافقين أن تقبل منهم نفقاتهم من الآية ٥٤ (انهم كفروا بالله ورسوله) ومثله في سبب عدم انتفاعهم باستغفار النبي ﷺ من الآية (٧٩) — ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) وهذا ظاهر فان الدين انما يكون بالجمع بين الايمان بالله والايان برسوله وما جاء به ، وأتى يعرف الله وما يرضيه من عبادته إلا من طريق رسله وما أوحاه اليهم ؟

(٧) قوله تعالى في الذين لمزوا النبي ﷺ أي عابوه في قسمة الصدقات وكانوا يرضون اذا أعطوا ويسخطون اذا منعوا (٥٩) ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله

ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله ، إنا إلى الله راغبون (والجمع فيها بين اسم الله واسم رسوله في موضعين أحدهما الرضاء بما آتيا وأعطيا بالفعل ، والثاني الرجاء فيما يؤتيان من بعد ، فأما العطاء من الله تعالى فهو انه هو الذي أنعم وينعم بالنعائم في الحرب وهو الذي شرع قسمتها بين الغانمين ، وجعل خمسها فيما تقدم في أول الجزء العاشر في مصالح المسلمين ، ومنها مواساة الفقراء والمساكين ، وهو المنعم بسائر الاموال ، والذي فرض فيها ما تقدم تفصيله من الصدقات ، وأما الرسول صلوات الله عليه وآله فهو القاسم للنعائم والصدقات باعطائها لمستحقها بالحق والعدل ، ولذلك خص الله تعالى في الآية بالفضل ، وفيها من أصول التوحيد ، والتمييز بين ما لله وحده وما لله وللرسول أمران (أحدهما) أن المحسب الكافي للعباد هو الله وحده ، ولهذا أرشدهم أن يقولوا « حسبنا الله » ولم يقل ورسوله كما قال في الايتاء (وثانيهما) ان توجه المؤمن فيما يرغب ويرجوه من البرزق وغيره يجب أن ينتهي إلى الله تعالى وحده وهو نص قوله (إنا إلى الله راغبون) ومنه (والى ربك فارغب) أي دون غيره (راجع ص ٤٨٨ ج ١٠)

(٨) قوله تعالى (٦٢) يخلفون بالله لكم ليرضوكم ، والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) فمقتضى الايمان الذي لا يصح بدونه تحري المؤمن لإرضاء الله ورسوله في المرتبة الاولى ، وإرضاء المؤمنين بما يتعلق بمعاملتهم في المرتبة الثانية التابعة للاولى ، ذلك بأن كل ما يرضي الله عز وجل يرضي رسوله ، وكل ما يرضي رسوله صلوات الله عليه وآله يرضيه ، فهما متلازمان ، وأما المؤمنون فقد يرضي بعضهم ما لا يرضي الله ورسوله لجهله بما يرضيهما أو غفلته عنه أو اتباعه لهواه فيه . ومنه في موضوع الآية ان بعض المؤمنين من الصحابة الكرام ربما كانوا يصدقون أو لئلك المناقذين الذين يخلفون لهم بأنهم صادقون في اعتذارهم عما اتهموا به في غزوة تبوك ، لانهم لا يعلمون ما يعلمه الله تعالى من باطن أمرهم وما أعلم به رسوله منه ، ولذلك قال في آية أخرى (يخلفون لكم لترضوا عنهم فان ترضوا عنهم فان الله لا يرضى عن القوم الفاسقين)

(٩) قوله تعالى (٦٣) ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فان له نار جهنم

الآية وهذه مقابلة لما قبلها فان من يجادد الله أي يعاديه يعادي رسوله كما أن من يرضي أحدهما يرضي الآخر ، ومن ثم كان الجزاء واحداً

(١٠) قوله تعالى في المنافقين الذين كانوا يخوضون في مسألة غزوة تبوك ويهزؤون بمحاولة غزو الروم ورجاء الرسول ﷺ النصر عليهم وبما كان وعد به أصحابه من الظفر بملحهم (٦٥ ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب . قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) ؟ فحكم الاستهزاء بالله وآياته الكفر ، وهو حكم الاستهزاء برسوله ، لان الله تعالى هو الذي وعد رسوله بالنصر وأمره بالغزو ، ورسوله إنما بلغ عنه آياته ووعدته في ذلك .

(١١) قوله تعالى (٩٠ وجاء المعتذرون من الاعراب ليؤذن لهم وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) الآية . معنى كذبهم إياها إظهار الايمان بها كذباً وخداعاً ومن كذب الرسول في دعوى الايمان فقد كذب الله - وان لم يشعر بذلك - واستحق الجزاء الذي في الآية

(١٢) قوله تعالى في أصحاب الاعذار الصادقة في التخلف عن الجهاد الواجب (٩١ ليس على الضمفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا انصحوا لله ورسوله) فاشترط لقبول عذرهم في القعود عن القتال النصح لله ورسوله في كل قول وعمل يقدرون عليها في مقاومة الاعداء ومساعدة المؤمنين وغير ذلك فالنصح من أعظم شعب الايمان ، وراجع تفسير الآية

(١٣) قوله تعالى في المعتذرين من المنافقين عن الخروج إلى تبوك (٩٤) يعتذرون اليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن تؤمن لكم قد بناؤنا الله من أخباركم ، وسيرى الله عملكم ورسوله) الآية . والمراد من ذكر رؤية الرسول لها إعلامهم انه هو الذي سيعاملهم بمقتضاها في الدنيا ، دون أقوالهم في الاعتذار عن تخلفهم وغيره من سماتهم . وأما رؤية الله تعالى لها فهي التي عليها مدار الجزاء في الآخرة كما صرح به في تنمة الآية (ص ٣ ج ١١) وفي معناها قوله تعالى (١٠٥) وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون) هذه الآية حث على العمل النافع للدنيا والآخرة وإنما ذكر المؤمنون هنا بعد ذكر الله ورسوله للتذكير العاملين

بأن الله يرى أعمالهم وهو الذي يجازيهم عليها فيجب عليهم الاحسان والاخلاص له والوقوف عند حدود شرعه فيها. وبأن رسوله يراها ويعاملهم بمقتضاها. وهذا خاص بحال حياته ﷺ - وهو الشهيد عليهم فيها عند الله تعالى ليتحروا أن يشهد لهم لا عليهم. ثم لتذكيرهم بأن المؤمنين يرونها فينبغي لهم أن يتبعوا فيها سبيلهم ويتحروا فيها ما يوافق المصلحة العامة التي يشتركون فيها وجماعة المؤمنين شهداء بعضهم على بعض وشهادتهم مقبولة عند الله تعالى (راجع تفسير الآية في ص ٣٣ ج ١١)

(١٤) قوله تعالى (٩٩) ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما ينفق قربات عند الله وصلوات الرسول) فهذا ضرب من اقتران اسم الرسول ﷺ باسم الله تعالى في موضوع واحد مع الفصل فيه بين ماله تعالى وملا رسوله. فالذي لله عز وجل من هذه العبادة هو قصد القرابة وابتغاء المرصاة والمثوبة، والذي للرسول ﷺ هو طلب صلواته أي أدعيته إذ كان يدعو المتصدقين كما بيناه في تفسير الآية (ص ١١ ج ١١)

وكل هذه الآيات مما يفتد دعوى بعض الملاحدة ان دين الاسلام هو القرآن وحده دون سنة رسوله، وكذلك ما ترى في الفصلين التاليين بعده

﴿ الفصل الثاني ﴾

﴿ في علو مكانته وعناية الله تعالى به وتكريمه وتأديبه وتكمله إياه ﴾

(وفيه ١١ منقبة بالاجمال وأضعاف ذلك بالتفصيل)

(المنقبة الاولى) جعل الايمان به وطاعته وحبه وارضائه مقرونة في المرتبة والثناء والشواب بماله عز وجل من ذلك على عباده — وجعل ما يقابل ذلك من الكفر به وعصيانه وبغضه واغضابه وإيذائه مقرونة في الحظر والكفر والوعيد واستحقاق العذاب الاليم بالكفر بالله وعصيانه الخ وتجدها في السورة من الامرين مفصلا في الفصل الاول الذي قبل هذا، فهي بضع عشرة لامنقبة واحدة (الثانية) إنزال الله سكينته عليه وتأيينه بجنوده من الملائكة في يوم حنين.

حين انهزم المؤمنون وولوا مدبرين كما هو مبين في الآيتين ٢٥ و ٢٦ (ويراجع تفسيرهما في ص ٢٤٣ - ٢٤٨ ج ١٠)

(الثالثة) نصر الله له عند خروجه للهجرة مع صاحبه الصديق ومعيته الخاصة لها وانزال سكينته عليهما وتأبيدهما بجنوده من الملائكة، وفيها عدة مناقب كما تراه في آية الغار (٤٠) وتفسيرها البديع من ص ٤٢٦ - ٤٥٩

(الرابعة) إتمام الله تعالى نوره به كما تراه في الآية ٣٢ وقال بعض المفسرين إنه هو صلوات الله عليه نور الله المراد من الآية فانظر تفسيرها في ٣٨٣ ج ١٠

(الخامسة) قوله تعالى بعدها (٣٣) هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله (الآية وهي مشتملة على عدة مناقب فانظر تفسيرها في ص ٣٨٨ - ٣٩٤ ج ١٠

(السادسة) قوله تعالى له (٤٣) عما الله عنك لم أذنت لهم (الآية وفيها من لطفه تعالى به وتكريمه إياه ان أعلمه بعفوہ عنه قبل اعلامه بخطا الاجتهاد في اذنه لبعض المنافقين بالتخلف عن الخروج معه الى تبوك . وتجد في تفسيرها تحقيق الكلام في ذنوب الانبياء عليهم السلام [ص ٤٦٤]

[السابعة] إعلامه تعالى إياه بأن استغفاره للمشركين وعدمه سيان في جانب حكم الله فيهم وهو أنه لا يغفر للمصرين على نفاقهم . وذلك في الآية [٧٠] وهذا تقييد لنفع الدعاء والشفاعة

(الثامنة) إعلامه تعالى بأنه ليس من شأن النبي من حيث هو نبي ولا من شأن المؤمنين أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى بعد العلم بموتهم على كفرهم بعد ان فعلوا ذلك . وهذا نص الآية ١١٣ وهي ارشاد من الله لهم فيما يجب أن يقفوا عنده من مودة القرابة والنسب (راجع ص ٥٦ ج ١١)

(التاسعة) نهيه تعالى إياه عن الصلاة على المنافقين أو القيام على قبورهم عند الدفن بعد صلاته على زعيمهم الاكبر الأَكْفَر عبد الله بن أبي بن سلول والقيام على قبره عند دفنه تكريماً لنجدة المؤمن الصادق وتأليفاً لقومه وكان أكثر المنافقين منهم، وهذا النهي يتضمن الانكار والتأديب والحد الذي يجب الوقوف عنده في معاملۃ المنافقین ، وسيأتي تفصيله

[العاشرة] نهي عن الاعجاب بأموالهم وأولادهم وإعلامه بأن الله يعذبهم في الدنيا قبل الآخرة، وهو في الآيتين ٥٥ و ٨٥ على القول بأن الخطاب فيهما له صلوات الله وسلامه عليه ويجوز أن يكون عاما لكل من يسمع القرآن أو يقرؤه، وهو على كل تقدير تأديب من الله تعالى وتكميل للنبي والمؤمنين بالسمو بانفسهم عن تعظيم شأن قوة الاموال وعزة الاولاد وزينتهما يكونان للمحرومين من قوة الايمان وعزته وهما اللتان لا يملوهما شيئا، وتعليمهم ما لم يكونوا يعلمون من أن النعم الصورية الدنيوية لا تتم لاهلها النعمة بها الا باطمئنان القلوب بنعمة الايمان، وتزكي الانفس باعمال الاسلام، وان السعادة الحقيقية انما هي سعادة النفس بالعلم والعرفان وعلو الاخلاق، ومن ممتانها الدنيوية كثرة الاموال والاولاد، وان هؤلاء المناققين بتقديم هذه النعم الباطنة، لاسعادة لهم بتلك النعم الظاهرة، وانما هي منفصات لهم في الدنيا نفسها بما بيناه في تفسير الآيتين [في ص ٤٨٤ و ٥٧٤ ج ١٠]

(الحادية عشرة) توبته تعالى عليه وعلى خيار أصحابه المؤمنين وهذا منتهى التطهير والتزكية لهم من ربهم عز وجل في اثر غزوة تبوك التي ارضوا فيه أشد العسر، وقاسوا أعظم الجهد، من الجوع والظأ والنصب، ومفارقة موسم الرطب، في شدة الحر، وقلة الزاد والظهور، [الرواحل] فكان لا بد أن يعرض لهم بعض الهفوات الجديرة برأفة الله ورحمته في جانب تلك الحسنات، التي أشير الى مضاعفة أجرها فيما يلي الخيار بالتوبة عليهم من الآيات، وهو قوله عز وجل [١١٧ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والانصار الذين اتبعوه في ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم ثم تاب عليهم انه بهم رؤوف رحيم] ثم ذكر فيما يليها توبته على الذين خلفوا من هؤلاء الصادقين عن تموك بغير عذر [حتى اذا ضاقت عليهم الارض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم] الخ

والتوبة من العبد إلى ربه هي رجوعه اليه عن كل ما لا يرضيه وتحريره ما يرضيه وهي تختلف باختلاف حال التائبين فيما يتوبون عنه حتى أن منهم من يتوب اليه ويستغفره من الغفلة، ومن التقصير في استكمال الجهد في الطاعة، وأما التوبة من الرب على عبده فهي قبول توبته، والتجاوز عن ذنبه أو هفوته،

أو عن تقصيره في عبادته والخطأ في الاجتهاد في إقامة سنته، وتنفيذ شريعته، وعطفه عليه بما يكون مزيد كمال في إعلاء درجته ، ولذلك قال بعض المحققين : ان التوبة هي أول درجات الطاعة والمعرفة وهي آخر درجات الكمال في الايمان وثمراته ، وانها كالطهارة في الصلاة لا بد من استمرارها من اول سن التكليف إلى آخرها [راجع ص ٦٤ - ٧٢ ج ١١]

(الفصل الثالث)

﴿ في فضله صلى الله عليه وسلم على أمته ، وحقوقه الواجبة عليها ، وحكم إخلالها بها وتقصيرها فيها ﴾
﴿ وهي ثلاثة أقسام ﴾

(القسم الاول في صفاته الخاصة وفيه بضع مزايا وفضائل)

(الاولى) وصف الله تعالى إياه بأنه صلوات الله وسلامه عليه في الاية ٦١ - (أذن خير) في الرد الحكيم على قول بعض المنافقين (هو أذن) يعنون انه يصدق كل ما يقال له فيسهل عليهم خداعه ، وقد فسر وصفه بأنه أذن خير بقوله تعالى [يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين] ووجه الرد عليهم بهذا انه صلى الله عليه وسلم انما يؤمن بالله ويصدق ما يوحيه اليه في شأن المنافقين وغيرهم ، وهو التصديق القطعي اليقيني ، ويأيه انه يصدق المؤمنين بالله تعالى وبرسالته تصديق ثقة بهم واثمان لهم فيما هو خير في نفسه ، وخير للناس حتى المنافقين منهم ، لانه لا يسمع سماع قبول الا ما كان حقاً وخيراً ، دون الكذب والغيبة والهميمة - راجع تفسيرها في ص ٥١٦ ج ١٠

[الثانية] وصفه تعالى إياه بعد ما ذكر بقوله [ورحمة للذين آمنوا منكم] أي بما كان سبباً لهدايتهم وإسباغ الله عليهم سعادة الدنيا والآخرة بايمانهم به وعملهم بما دعاهم اليه من أسبابها ، دون المنافقين المكذبين أو المرتابين فيها ، وأما قوله تعالى في سورة الانبياء [وما أرسلناك الا رحمة للعالمين] فهو في معنى إرساله للناس كافة بما هو سبب الرحمة والسعادة . وما يأتي قريباً من وصفه بأنه رحيم بالمؤمنين فهو معنى آخر وستعرف الفرق بينها

[الثالثة] وصفه في آية ١٠٣ بتطهير المؤمنين وتزكيتهم بما يأخذهم من الصدقات. وذلك انه صلوات الله وسلامه عليه لم يكن مثله في تلبيةه لفرض الصدقات والنفقات ، وفي أخذه لها وقسمتها على مستحقيها كمثل الملوك والحكام الذين يجعلون المفروض على الناس من الاموال اناوات وضرائب قهرية يؤدونها كما يؤدون سائر المغارم، ويمتقدون انها تنفق بحسب أهواء الملوك والحكام، ويكون لهم منها أكبر نصيب بغير استحقاق ، وإنما كان صلى الله عليه وسلم يبين للمؤمنين حكمة ما فرضه الله تعالى عليهم ، وان فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة لهم في أفرادهم وجماعتهم ، وكان يقسمه بين مستحقيه بالعدل ، ويحرم باذن الله على نفسه وعلى أهل بيته أخذ شيء منه ، فهذا وذلك أسند الله تعالى اليه فعل التطهير والتزكية لهم ، وهو داخل في حكمة بعثته في قوله [يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة] وتجسد التفصيل في تفسير الآية [ص ٢٤ ج ١١]

[الرابعة] وصف دعائه للمتصدقين بعد ما ذكر بأنه سكن لهم تطمئن به قلوبهم ، وترتاح إليه أنفسهم ، ويشقون بقبول الله لصدقاتهم ، وتقول ان كل مؤمن متصدق مخلص بناله حظ من دعائه صلى الله عليه وسلم للمتصدقين الى يوم القيامة، ولكن لم يرد في القرآن ولا في السنة ولا في سيرة الصحابة والتابعين ان النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه بعد وفاته الدعاء لأحد.

[الخامسة] وصفه تعالى إياه بما امتن به على قومه من قوله في خاتمة السورة [١٢٨] لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم [فاثبت له شدة الحب لهم والحرص على هدايتهم وسعادتهم، وانه يمز ويشق عليه أن يصيبهم العنت والارهاق في دينهم أو دنياهم]

[السادسة] وصفه بعد ما تقدم بقوله [بالمؤمنين رؤوف رحيم] وهاتان الصفتان من أعظم صفات الربوبية غير الخاصة بالله عز وجل الا في كمالها، ورأفته ورحمته صلى الله عليه وسلم بالمؤمنين غير ارسال الله تعالى إياه رحمة لهم خاصة ، وغير ارساله رحمة للناس كافة، فان رحمته بهم من صفات نفسه الشريفة القدسية التي ظهر أثرها في سياسته ومعاشرته لهم ، وتأديبه إياهم، وتنفيذ حكم الله تعالى فيهم، كما ترى في هذه

السورة كثيرها، وشواهد سيرته صلى الله عليه وسلم في تفسيرها، فتأمل خطبته صلى الله عليه وسلم في الانصار في أثر إنكار بعض شبانهم وعواهم حرمانه إياهم من غنائم حنين [ص ٢٥٨ - ٢٦٠ ج ١٠] فهي العجب العجيب، والكمال، الذي لم يتم لبشر كما تم له عليه الصلاة والسلام. وأما ارساله رحمة للعالمين والمؤمنين فهو بيان لحكمة رسالته وفوائدها فيما اشتملت عليه من الحق والعدل والخير التي هي أسباب رحمة الله ومثوبته ورضوانه لمن اهتدى بها كما تقدم بيانه في محله

﴿ القسم الثاني فيما يجب له على أمته وفيه خمس واجبات ﴾

[الاول] وجوب حبه صلى الله عليه وسلم بالتبع لحب الله تعالى وفي الدرجة التي تلي درجته في ثمرة الايمان، وتفضيل نوع حبهما على كل ما يجب بمقتضى الفطرة ومصالح الدنيا، فراجع بيان ذلك في تفسير الآية (٢٥) تجد فيه مالا تجد مثله في تفسير آخر [ص ٢٢٥ ج ١٠]

[الثاني] وجوب تحري مرضاته بالتبع لمرضاة الله عز وجل في الآية ٦٢
[الثالث] وجوب طاعته بالتبع لطاعة الله في صفات المؤمنين من الآية ٧١
[الرابع] وجوب النصيح له بالتبع للنصح لله عز وجل في صفات المعذورين في التخلف عن القتال من الآية (٩١)

وهذه الواجبات له قد ذكرت في الفصل الاول من هذا الباب في سياق آخر

[الخامس] وجوب نصره كما يؤخذ من آية [٤٠] إلا تنصروه فقد نصره الله [ويؤيدها ما يأتي في القسم الثالث من حظر التخلف عنه

﴿ القسم الثالث فيما يحظر عليهم من ايذاء وتقصير في حقه وهو خمسة محظورات ﴾

[الاول] حظر إيذائه فداؤه أبي وأمي ونفسي والوعيد عليه في الآية [٦١]

[الثاني] حظر محاداته أي معاداته والوعيد عليها في الآية [٦٣]

[الثالث] الكفر الصريح بالاستهزاء به في الآية [٦٥]

[الرابع] حظر القعود عن الخروج معه للجهاد في الآيتين [٨١ و ٩٠]

« تفسير القرآن الحكيم » « ١٥ » « الجزء الحادي عشر »

[الخامس] حطر تخلفهم عنه والرغبة بانفسهم عن نفسه في الآية [١٢٠] وهذا تعبير ببلغ جدا يتضمن ان كل من يصون نفسه عن جهاد وعمل بذل الرسول ﷺ نفسه فيه فهو مفضل لنفسه على نفسه الكريمة في عهده ، ويمكن أن يقال ذلك فيمن بعده وان كان الفرق بين الخالين ظاهراً من ناحية ملاحظة ذلك وعدمها ، ومن ناحية قيام الحججة على من كان معه بما لا تقوم به على من لم يكن معه فضلاً عن بعده . وإنما تعني بالامكان انه ينبغي لكل مؤمن أن يتأسى به ﷺ في بذله ماله ونفسه لله والجهاد في سبيل الله بقدر إمكانه [لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً] فراجع تفسير الآية [ص ٢٤ ج ١١]

الباب الثالث

في دين الاسلام وما في السورة من حججه وأصوله وصفات أهله وفيه ٣٣ فصول

الفصل الاول في حجج الاسلام من البشارات والندرو والاخبار بالغيب وهي عشر

(الاولى) قوله تعالى المشركين في الآية الاولى (واعلموا انكم غير معجزي

الله وان الله مخزي الكافرين)

(الثانية) قوله (١٤) فاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزى وينصركم عليهم)

(الثالثة) قوله للمؤمنين (٢٨) وان ختم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله)

(الرابعة) بشارته بخذل اليهود والنصارى فيما يحاولون من اطفاء نوره تعالى

(الاسلام) ووعده بتمامه واظهار دينه على الدين كله وذلك في الآيتين (٣٢ و ٣٣)

يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم - إلى قوله - ولو كره المشركون)

(الخامسة) قوله تعالى (٦٤) يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم)

(السادسة) قوله (٦٥) وان سألتم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) الآية ولذلك

كلمه ولما سألني قول (٧٨) ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب)

(السابعة) الثامنة والتاسعة) قوله (٩٤) يقتدرون اليكم إذا رجعت اليهم قل

لا تعتدوا ان مؤمن لكم قد نبأنا الله من أخباركم) الآية وقوله (٩٥) سيحلون

بالله لكم اذا انقلبتم اليهم لتعرضوا عنهم.. وقوله- (٩٦) يجلفون لكم اترضوا عنهم) الآيات وهي أظهر في خبر الغيب من قوله (٥٦) ويجلفون بالله انهم لتكنم) وقوله (٦٢) يجلفون بالله لكم ليرضوكم) لاحتمال أن يكون الاخبار بهذين الحلفين بمد وقوعهما لبيان غرضهم وما في باطنهم وهو عين تعليل حلفهم في الآية ٩٦ (العاشرة) قوله (١٠١) ومن حولكم من الاعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لانعلمهم نحن نعلمهم سنعلمهم مرتين) أي في الدنيا وقد تم كل ذلك وصدق وعد الله ووعدته وخيره وفي السورة أخبار أخرى بالغيب يحتمل أن تكون من باب طبيعة العمران وسنن الله في البشر وترى مثاله في الفصل الثالث من الباب الأول

(الفصل الثاني)

﴿ في صفة الاسلام ومدخله واهم أصول التشريع فيه - وفيه عشرة أصول ﴾
 (الاصل الاول) أن دين الاسلام هو نور الله تعالى العام ، وهداه الكمال التام ، الذي نسخ به ما تقدمه من الاديان ، ووعد الله عز وجل بآتمامه ، وخذلان مردي إطفائه ، وذلك نص الآيتين (٣٢ و ٣٣) وتجد في تفسيرهما [من ص ٣٨٣ - ٣٩٤ ج ١٠] ما لا تجد مثله في شيء من كتب التفسير الاخرى من إظهاره على جميع الاديان ، بالحجة والبرهان ، والهداية والرفان ، واللم والعمران ، والسيادة والسلطان ، (الاصل الثاني) مدخل الاسلام ومفتاحه وما يتحقق به وهو قوله تعالى في المشركين (٥) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم) ويؤكددها قوله (١١) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) والمراد التوبة من الشرك وتحصل بالاقرار بالشهادتين ، وتجد في تفسيرهما خلاف العلماء في كفر تارك الصلاة ومانع الزكاة من أفراد المسلمين (ص ١٦٨ و ١٨٧ ج ١٠)
 (الاصل الثالث) بناء الاسلام على العلم الصحيح دون التقليد الذي ذمه القرآن في آيات كثيرة وشنع به على المشركين . ودليله في هذه السورة قوله تعالى في تعليل الامر باجارة المشرك الحر في دار الاسلام ليسمع القرآن (٦) ذلك بأنهم

قوم لا يعلمون) وقوله في الآية (١١) ونفصل الآيات لقوم يعلمون) وأصرح منها قوله في مقالة أهل الكتاب (٣١) اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله مع تفسير النبي ﷺ بذلك باتباعهم إياهم فيما يحملون لهم ويحرمون عليهم [ص ٣٦٣ ج ١٠].

[الاصل الرابع] ان التكليف العام من العبادات والحلال والحرام الديني لا يثبت الا بنص قطعي وهو ما كان عليه السلف الصالح وأصل مذهب الخنافية وشاهده في هذه السورة قوله تعالى [١١٥] وما كان الله ليضل قوما بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون [وبيانه في تفسيرها [ص ٦١ ج ١١]

(الاصل الخامس) جهاد المشركين في سبيل الله وعدم السماح لهم بالاقامة في بلاد العرب أو يدخلوا في الاسلام وهو في آيات منها الآية التي سموها آية السيف وهي الخامسة (فاذا انسلخ الاشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وهي غير ناسخة لآيات العفو والصفح والاعراض عن المشركين كما قيل وترى في تفسيرها تحقيقتي الآيات الناسخة والمذسوخة (ص ١٦٦ ج ١٠) وستأتي أحكام القتال وقواعده في الباب الرابع الآتي

(الاصل السادس) جعل الغاية من قتال أهل الكتاب أداء الجزية لنا بشرطها إلا ان يدخلوا في الاسلام . وهو في الآية ٢٩ وستذكر في أحكام القتال.

[الاصل السابع) المساواة بين الرجال والنساء في ولاية الايمان المطلقة وصفاته الشخصية والعامّة المشتركة في قوله (٧١) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقومون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) ويدخل في إطلاق الولاية ولاية النصر والدفاع عن الامة والبلاد ، إلا انه لا يجب على النساء القتال الا في حال النفير العام (ص ٥٤١ ج ١٠)

(الاصل الثامن) المساواة بين الرجال والنساء في جميع نعيم الآخرة تبعاً للمساواة في التكليف ، وهو نص قوله تعالى (٧٢) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات الخ (الاصلان التاسع والعاشر) وجوب طلب العلم والتفقه في الدين - ووجوب بث العلم مقرونا بالوعظ والانذار الذي يرجى تأثيره النافع - وهما في الآية ١١٦ وفي السورة من أصول الايمان عقيدة البعث وجزاء المؤمنين والكافرين والمناقضين

في آيات كثيرة كسائر القرآن (تراجع الآيات ٣ و ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢١ و ٢٢ و ٣١ و ٤٤ و ٤٥ و ٤٩ و ٦١ و ٦٣ و ٦٨ و ٦٩ و ٧٤ و ٨١ و ٩٥)
 وفائدة هذا التكرار أن ترسخ هذه العقيدة في قلوب المتعبدين بتلاوة القرآن
 بكثرة تذكورها في المواضع المختلفة من ذكر الاعمال التي يترتب عليها ذلك الجزاء
 وان من ضروب إعجاز القرآن أن يرد فيه المعنى الواحد في العشرات أو المئات من
 المواضع ، ولا يمل تكراره القاريء ولا السامع

(الفصل الثالث)

(في آيات الايمان الصادق وصفات أهله وطبقاتهم وفيه ٣٢ شاهداً)

(الشاهد الاول) آية صدق الايمان المميزة بين الصادقين والمنافقين ومرضى
 القلوب التي تظهر بالامتحان وهو الجهاد وحفظ أسرار الملة والدولة أن يفضى بها إلى
 وليجة أو بطانة من دون المؤمنين ومنهم جواسيس الاعداء . وهو نص الآية ١٦
 (ص ٢٠٢ ج ١٠)

(٢) آية صدق الايمان وما ينافيه من ولاية الآباء والاخوان الذين يستحبون
 الكفر على الايمان في الآية ٢٣ (ص ٢٢٣ ج ١٠)

(٣) آية صدق الايمان تفضيل حب الله ورسوله والجهاد في سبيله على حب
 الآباء والابناء والاخوان والعشيرة والمال والتجارة والمساكن المرضية . وذلك
 مفصل في الآية ٢٤ وتجد من بيان معانيها في تفسيرها مالا تجد مثله في شيء من
 كتب التفسير (ص ٢٢٥ - ٢٤٢ منه)

(٤) أخوة الاسلام الدينية في الآية ١١ وتفسيرها في (ص ١٨٧ و ١٩٠)

(٥) عمارة مساجد الله حسا ومعنى وعدم خشية أحد إلا الله في الآية ١٨

(٧) ولاية بعض المؤمنين لبعض ذكوراً وإناثاً (٨) الامر بالمعروف والنهي

عن المنكر (٩) طاعة الله ورسوله - في الآية ٧١*

(* وفي هذه الآية إقامة الصلوات وإيتاء الزكاة وهما أهم أركان الاسلام العملية كما تقدم في ذكر أصوله .

- (١٠) صفات المؤمنين الميزة لهم من المنافقين في المناقبة بين الآيتين ٤٤ و ٤٥ (ص ٤٦٨ و ٤٦٩) وبين الآية ٦٨ وما بعدها (ص ٥٣٣) والآية ٧١ وما بعدها (ص ٥٤١) والآية ٨٦ وما بعدها (ص ٥٨١) والآية ٨٨ وما بعدها (ص ٥٨٢) وبين الآيتين ٩٨ و ٩٩ (ص ٩٩-١٠٢ ج ١١) وبين الآيات ١٢٤-١٢٧ (ص ٨٢ منه)
- (١١) طبقات خيار المؤمنين الثلاث: المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان في الآية المتممة للمائة (ص ١٣ منه) وفي الآية ١١٧ (ص ٦٤ منه)
- (١٢) المؤمنون الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا في الآية ١٠٢ (ص ٢٠ منه) والمؤمنون الذين أرجأ الله قبول توبتهم في الآية ١٠٦ (ص ٣٥ منه)
- (١٣) الاخلاص في الانفاق في سبيل الله ابتغاء القربات عند الله ، وصلوات الرسول أي أدعيته - الآية ٩٩
- (١٤) العمل النافع للدنيا والدين الذي يرضي الله ورسوله والمؤمنين - الآية ١٠٥
- (١٥) حب التطهر من الادران الحسية والارجاس المعنوية - الآية ١٠٨
- (١٦) بيع المؤمنين أنفسهم وأموالهم لله تعالى بالجنة في الآية ١١١
- (١٧-٢٥) صفات هؤلاء المؤمنين : التوبة. العبادة الخاصة . الحمد لله على كل حال . السياحة . ركوع الخضوع . سجود الخشوع . الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والحفظ لحدود الله في الآية ١١٢
- (٢٦) آية المؤمنين عدم الاستغفار للمشركين ولو كانوا أولي قربى - الآية ١١٣
- (٢٧) تقوى الله عزوجل (٢٨) ملازمة الصادقين - الآية ١١٩
- (٢٩) التفقه في الدين (٣٠) إنذار الناس وتعليمهم - الآية ١٢٢
- (٣١) الغلظة في القتال على الكفار المحاربين - الآية ١٢٣
- (٣٢) زيادة الايمان بنزول القرآن في الآيتين ١٢٤ و ١٢٥

الباب الرابع

(في المسائل المالية والعسكرية والسياسية ، وما فيها من احكام القتال والمهود . وفيه ٣ فصول)

﴿ الفصل الاول في احكام الاموال ﴾

(تقدم في سورة الانفال احكام الغنائم وما في معناها من أموال الحرب وفرض الخمس فيها ومصارفه وحق آل الرسول ﷺ فيه وحكمته وما للامة فيه من المصلحة ، وبيان أنواع الاموال الشرعية في الاسلام وامهات مقاصدها في الدولة الاسلامية . فما في هذه السورة متمم لما قبله في الاموال كما انها متممة لما فيها من احكام القتال وشؤون المنافقين والكفار

والكلام في هذا الموضوع ثلاثة أقسام (١) المسائل الدينية والاجتماعية في الاموال

(٢) أنواع الاموال ومصارفها (٣) فوائد اصلاح الاسلام المالي للبشر

(القسم الاول)

﴿ في مكان اتفاق المال من الايمان، والبخل به من النفاق، وفيه ١٠ مسائل ﴾

(المسألة الاولى) كون الزكاة المعينة أحد أركان الاسلام لا تقبل دعواه

من الكفار بدون التزامها، ولا تحصل اخوته الدينية الا بأدائها، واعتبار ما نفعها من الجماعات مرتدين يجب مقاتلتهم . وفي الافراد خلاف تقدم تحقيق الكلام فيه .

ونص ذلك في قوله تعالى (٥ - فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)

وقوله (١١ - فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين) ويؤكد عد

الزكاة كالصلاة من صفات المؤمنين الراسخة في آية (٧١) والمؤمنون والمؤمنات

بعضهم أولياء بعض) الخ

(م ٢) كون بذل الاموال في سبيل الله آية الايمان الصحيح وقوام الدين ،

ومن شواهد الايتان المشار اليهما آنفا في فريضة الزكاة ، ومنها الآية (٢٠) الذين

آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند

الله) إلى قوله في الآية (٢٢) إن الله عنده أجر عظيم * ومنها الوعيد الشديد لمن

أمواله وتجارته وسائر حظوظه أحب إليه من الله ورسوله وجهاد في سبيله، وهو في

الآية (٢٤) ومنها قوله تعالى في آية النفي العام (٤١ انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله) وقوله (٤٤ لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) ويتم معناها الآيتان بعدها. ومنها قوله تعالى (٥٥ فلا تمجكب أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا) (م ٣) كون البخل والامتناع عن الانفاق في سبيل الله آية الكفر والنفاق فمن شاهده عدم قبول نفقة المنافقين وكون أموالهم بلاء ووبالا عليهم في الدنيا والاخرة في الآيات ٥٣ و٥٤ و٥٥ (ومنها) لمز المنافقين للنبي ﷺ في قسمة الصدقات للطمع في المال في الآية ٥٨ (ومنها) وصف المنافقين بالبخل وقبض الايدي عن الانفاق في قوله (٦٨ المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض إلى قوله -ويقبضون أيديهم) ويؤكددها ضرب المثل لهم في الآية ٧٠ بعدها بالذين من قبلهم من الغرورين بالقوة والمال، ووصف المؤمنين بعدها بصفات منها (إيتاء الزكاة)

(ومنها) قوله تعالى (٧٥ ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن) الآية والوعيد الشديد على البخل في الايات التي بعدها (ومنها) لمز المنافقين للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات في الآية ٧٦ (ومنها) (٨١ فرح الخائفون بتمتعهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله) الآية

(م ٤) وصف كثير من رؤساء الدين من أهل الكتاب بأكل أموال الناس بالباطل تحديراً من فعلتهم، ورفع القدر كل مسلم أن يسف ويسفل الى دركته (م ٥) الوعيد على كثر الاموال وعدم انفاقها في سبيل الله في الآيتين (٣٤ و ٣٥) يأيها الذين آمنوا ان كثيرا من الاجبار والرهبان لياكلون أموال الناس بالباطل — الى قوله — فذوقوا ما كنتم تكفرون)

(م ٦) آية (٩٨) ومن الاعراب من يتخذ ما ينفق مغرماً) وهم منافقوهم كفي أسد وغطفان كانوا يمطون الصدقات رياء وخوفا لا يرجون منها نفعا بتأييد الاسلام ولا ثوابا في الآخرة لعدم ايمانهم، فهي في نظرهم مغارم يلتزمونها ليصدقوا بما يظهرون من اسلامهم، وهكذا شأن المنافقين في الدين وفي القومية والوطنية لا يبذلون شيئا من مالهم لاجل المصلحة العامة ، بل للرياء والسمعة ، وهو في نظرهم غرامة

- (٧ م) آية (٩٩) ومن الاعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتخذ ما يفتق قربات عند الله وصلوات الرسول) وهم بنو أسلم وغفار وجهينة وحسبك شهادة الله تعالى لهم بصدق إيمانهم وحسن نيّتهم في نفاقهم ، وحكمها عام
- (٨ م) الترغيب في الصدقات بالتعبير عن قبولها والاثابة عليها باخذ الله عز وجل لها كما في الآية (١٠٤)
- (٩ م) الترغيب فيها بقوله تعالى (١١) إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واهوالهم بان لهم الجنة) الآية
- (١٠ م) فضل النفقة في الجهاد قلت او كثرت وكون الجزاء عليها احسن الجزاء وهو نص الآية (١٢١) وتفسيرها في ص ٧٦ ج ١١

(القسم الثاني)

(أنواع الاموال الشرعية وأحكامها بالاجمال ومصارفها وفيه ١٤ مسألة)

- (١) مال الجزية — وقد بينا معناها وتاريخها وأحكامها وشروطها في تفسير آية الجزية (٢٩) وهو في ص ٢٨١ — ٣٠٦ ج ١٠
- (٢) أنواع الصدقات الواجبة المقدرة الموقوتة وهي النقدان من الذهب والفضة والتجارة في استغلالها والأنعام والزرع الذي عليه مدار الاقوات والركاز وهو المدفون في الارض يعثر عليه والمعدن (ص ٤٨٩ و ٥٠٨ ج ١٠)
- (٣) سهم الفقراء والمساكين وهل هما صنفان أو صنف واحد ينقسم بالوصف الى قسمين ؟ (راجع ص ٤٩٠ ج ١٠)
- (٤) سهم العاملين على الصدقات من جباة وخزنة وكتيبة (ص ٤٩٣)
- (٥) سهم المؤلفين لطلبهم وهم ستة أصناف (ص ٤٩٤)
- (٦) سهم الرقاب أي تحرير الرقيق باعائه على شرائه لنفسه المعبر عنه بالكتابة أو شرائه من مالكه وعمقه (ص ٤٩٧)
- (٧) سهم الغارمين الذين ركبتهم ديون تعذر عليهم أدائها، والذين يعرّمون

عمدا ما يتفقونه لاصلاح ذات البين ومنع الفتن الذريرة (ص ٤٩٨)

(٨) سهم الانفاق في سبيل الله على الغزاة والمرابطين الذين لا نفقة لهم من بيت المال ، وما يدخل في عموم ذلك من المصالح العامة (ص ٤٩٩ — ٥٠٤)

(٩) سهم ابن السبيل وهو المنقطع عن بلده في سفر لا يتيسر له فيه الوصول الى ماله ان كان له مال فيعطى لفقره العارض ما يستعين به على اتمام سياحته والعود الى بلده وأهله (ص ٥٠٤)

(١٠) الدليل على كون عروض التجارة مما تجب فيه الزكاة (ص ٥٠٨)

(١١) توزيع الصدقات على الاصناف كلهم أو بعضهم (ص ٥٠٩)

(١٢) الزكاة المطلقة والمعينة ومكاتبها في الدين وحكم دار الاسلام ودار الكفر فيها والبلاد المذبذبة بين الدارين (ص ٥١١)

(١٣) لا تعطى الزكاة للمرتدين ولا للاباحيين والملاحدة (ص ٥١٣)

(١٤) التزام أداء الزكاة كافي لاعادة مجد الاسلام (ص ٥١٤)

﴿ فصل في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات واصلاح الاسلام المالي للبشر ﴾

(وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان)

وفيه مقدمة في منافع المال وارتباط جميع مصالح البشر الدنيوية والدينية به وشأنهم في حبه وكسبه وانفاقه وامساكه ، وارشاد الدين فيه ، وكون الاسلام وسطا بين اليهودية والمادية فيه ، وغلو عباده من اليهود والافرنج في جمعه واستغلاله - وبين بدعة البلشفية الاشتراكية في مقاومة الشعوب والدول المالية وغلوها في ذلك وفي هدم الاديان - وتلخيص الاصلاح الاسلامي المالي في أربعة عشر أصلا (قراجم في ص ٢٧ - ٣١ ج ١١)

(الفصل الثاني في أحكام القتال والمعاهدات والصلح وهي ٢٠ حكماً)

(الحكم الاول) البراءة من المشركين ونبذ عهود المعاهدين منهم، ذلك أن مشركي مكة قد ناصبوا النبي ﷺ العداوة منذ دعا الى التوحيد وتبهم سائر العرب فكانوا حرباً له ولئن آمن به يقتلون كل من ظفروا به منهم أو يذبونه اذا لم يكن له من يحميه من المشركين، ولما هاجروا من مكة صاروا يقاتلونهم في دار هجرتهم وكان الله ينصر رسوله والمؤمنين عليهم كما وعده . حتى اذا ما كثروا وصارت لهم شوكة اضطر المشركون الى عقد أول صلح معهم في الحديبية فعاهدوهم سنة ست للهجرة على السلم والامان مدة عشر سنين ولم تلبث قريش مع أحلافها من بني بكر أن غدروا ونقضوا العهد، فكان ذلك سبباً لفتح النبي ﷺ مكة سنة ثمان ، ثم جمع المشركون جموعهم لقتاله في حنين والطائف فنصره الله عليهم ، وأمره في السنة التالية بأن يذب للمشركين عهودهم ويتبرأ منهم في موسم الحج (ص ١٩ ج ١٠)

(الثاني) أذان المشركين (إعلامهم) بذلك أذانا عاما في يوم الحج الأكبر وهو عيد النحر الذي يجتمع به وفود الحاج من جميع القبائل في منى بحيث يعم هذا البلاغ جميع قبائل العرب في اقرب وقت ، لان الاسلام يحرم الغدر وأخذ المعاهدين على غرة . فكان لا بد من اعلامهم بذلك بما ينتشر في جميع قبائلهم ، وكانت تلك الوسيلة الوحيدة لتعلم كل فرد منهم بعدو حالة الحرب بينهم وبين المسامحين ، وهذا من عدل الاسلام ورحمته لان المشركين لم تكن لهم دولة ولا رئيس عام يبلغهم ما يتعلق بشؤونهم ومصالحهم العامة فيكتفى بابلاغه مثل هذا كما هو المعهود في الدول الملكية أو الجمهورية المدنية، ولم يكن في عصرهم صحف منشرة عامة ولا آلات للاخبار البرقية تنشر مثل هذا البلاغ

(الثالث) منحهم هدنة اربعة اشهر يسمحون في الارض حيث شاؤوا آمنين مطمئنين أحراراً في سيرهم وإقامتهم وسائر اعمالهم الدينية والدينية ليتروا في امرهم، ويتشاوروا في عاقبتهم . وفي هذا من رحمة القادر بعدوه ما يفخر به المسلمون بحق . وهذه الاحكام صريحة في الآيات الثلاث الاولى من السورة (ص ١٤٩ ج ١٠)

(الرابع) وعظهم بأنهم إن تابوا من شركهم وما يغريهم به من عداوة المؤمنين

وقتلهم والغدر بهم فهو خير لهم ، لانهم ان يعجزوا الله في الارض وان يعجزوه هربا منها ، وقد وعد بنصر رسوله عليهم من قبل ان يكشر أتباعه ويبيعه انصاره ، وأنجز له وعده في جملة غزواته معهم ، وسبب هذا الوعد ان الايمان امر اختياري طريقه الموصل اليه الدعوة ودلائل الاقناع ، وذلك قوله في بقية الآية الثالثة (فان تبتم فهو خير لكم) الخ وفيها من الاخبار عن المستقبل ما صدقه الواقع

(الخامس) استثناء بعض المشركين من نبد عهدهم وهم الذين عاهدهم المؤمنون عند المسجد الحرام في الحديبية سنة ست ولم يتصوههم من شروط العهد ومواده شيئا ، ولم يظاهروا ويعاونوا عليهم احداً من أعدائهم المشركين ولا اهل الكتاب ، كما نقض اهل مكة العهد بمظاهرة أحلافهم بني بكر على أحلاف النبي ﷺ بني خزاعة ، والامر باتمام عهدهم إلى نهاية مدته ، وتعليله بأنه من التقوى التي يحبها الله تعالى . وهذا نص الآية الرابعة بشرط ان يظنوا مستقيمين عليه كما بينه في الآية السابعة (السادس) الامر في الآية الثامنة باستعمال جميع اسباب القتال معهم بعد

انسلاخ أشهر الهدنة التي ضربت له وحرم فيها ، وهي القتل والاسر والحصر والعبود لهم في جميع المراد مراقتهم ومنعهم من التجوال والتقلب في البلاد ، وهو يدل على شرعية استعمال ما يتجدد بين البشر من وسائل القتال الموافقة لاصول الاسلام العادلة الرحيمة - فان استعمل العدو ما هو مخالف لها قابلناه بالمثل لعموم قوله تعالى (ومن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله) (السابع) تخفية سبيل من يتوبون من الشرك بالنطق بالشهادتين ويقومون الصلاة ويؤتون الزكاة ، لانهم بهذا يدخلون في الاسلام ، ومن قبل الصلاة والزكاة والتزهمه فلا بد ان يلتزم غيرها . وهذا نص الآية الخامسة

(الثامن) ايجاب اجارة من يستجير النبي ﷺ منهم - وفي حكمه الامام الاعظم ونايبه والقائد العام في حال الحرب - لاجل ان يسمع كلام الله ويقف على دعوة الاسلام وإبلاغه بعد ذلك المسكن الذي يأمن فيه على نفسه من سلطان المسلمين (التاسع) تعلييل نبد عهد المشركين السابق وعدم استثنائهم معهم بالاسباب الآتية (ا) انهم نقضوا عهد الحديبية بالغدر فلم يخبروا المؤمنين بذلك لياخذوا هبتهم

(ب) ان من دأبهم وشأنهم انهم إذا ظهروا على المؤمنين برجحان قوتهم لا يقربون فيهم عهداً ولا ذمة ولا قرابة، بل يفتكون بهم بدون رحمة
(ج) انهم ينافقون ويكذبون عليهم في حال الضعف فيرضونهم بأفواههم، ويقولون بألسنتهم لهم ما ليس في قلوبهم، وأكثرهم ابي السواد الاعظم منهم فاسقون ابي خارجون من قيود العهود والمواثيق والصدق والوفاء.

(د) انهم يصدون عن سبيل الله ويعادون الاسلام وأهله لاجل منفعة قليلة يتمتعون بها ويخافون ان تسلب منهم بالتزام شريعته التي تحرم اكل اموال الناس بالباطل كالربا والقمار والغصب والغزو لاجل الكسب وكانوا يستبيحون كل ذلك
(هـ) انهم - على كونهم لا يقربون في مؤمن إلا ولا ذمة في حال القوة ولا في حال الضعف - هم المعتدون على المسلمين بالقتال، فلا يمكن أن يظفوا معهم كذلك في كل حال
(و) انهم نكثوا عهودهم السابقة، فكذلك ينكثون غيرها فلا ثقة بها فتراعى
(ز) انهم هموا باخراج الرسول من وطنه، بل هم الذين اضطروه الى الخروج هو وسائر من آمن معه، وذلك بعد ان تواطوا على قتله

(ح) انهم هم الذين بدؤوا المؤمنين بالقتال أول مرة، وبقيت الحرب مستمرة، فلما أنهت معاهدة الحديبية حالة القتال أعادوها بغدرهم فيها ونقضهم لها، وهذه الاسباب الثمانية صريحة في الآيات ٧ - ١٠

(الحكم العاشر) وجوب قتال مشركي العرب كافة الا أن يسلموا وهو نص الاية الخامسة المعروفة بآية السيف، وقوله في الاية ٢٦ (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ووجهه ما علم من جملة الايات في قتال مشركي العرب وهو عدم قبول الجزية منهم وعدم إقرارهم على السكينة والمجاورة للمسلمين في بلادهم مع بقائهم على شركهم لانهم لا أمان لهم ولا عهود فيمكن ان يعيش المؤمنون معهم بسلام (الحكم ١١) تحريم ولاية الكفار من الآباء والاخوان كفرهم على

للؤمنين وكونها من الظلم العظيم في الآية ٢٣

(الحكم ١٢) حكم قتال أهل الكتاب بشرطه حتى يعطوا الجزية في الآية (٢٩)

ومن فروع هذه المسألة الفرق في القتال بين مشركي العرب وسائر الوثنيين. ومنها أن ما في هذه السورة من قتالهم وقاتل أهل الكتاب إنما هو في بيان غاية لا في بدايته ، وإن أول ما نزل من التشريع في القتال آيات سورة الحج (٢٢ : ٣٩) ثم آيات سورة البقرة التي أولها ٢ : ١٩٠ (راجع آخر ص ٢٧٩ ج ١٠ وما بعدها) وص (٢٨٩) وبها آيات سورة الانفال فسورة آل عمران فسورة محمد فهذه السورة (الحكم ١٣) وصف أهل الكتاب الذين بين حكم قتالهم هنا بأربع صفات سلبية هي علة عداوتهم للإسلام ووجوب خضوعهم لحكمه ليأمن اهل على أنفسهم وحرية دينهم معهم (فراجع تفسير آية الجزية في ص ٢٨١ وما بعدها)

(فصل في حقيقة الجزية لغة وشرعا وتاريخها وشروطها وأحكامها وسيرة الصحابة

فيها) ص ٢٩٠ - ٣٠٦ ج ١٠

﴿ استطراد في حقيقة معنى الجهاد والحرب والغزو وإصلاح الإسلام فيه ﴾

ص ٣٠٦ - ٣١٢ ج ١٠

﴿ فصل في دار الإسلام والعدل . ودار الحرب والبعث ، وحقوق

الاديان والإقوام في هذا العصر ﴾ ص ٣١٣ - ٣٢١ ج ١٠

(الحكم ١٤) ابطال النسيء في الأشهر لاجل القتال وكونه تشريعا جاهليا

وهو نص الآية ٣٧

(الحكم ١٥) النفي العام ، وهو ما يكون القتال به واجبا بشرطه على الاعيان

كما فصل في الآيات ٣٨ و ٣٩ و ٤١ وأما النفي الخاص فهو في الآية ١٢٢

(الحكم ١٦) الاستئذان في التخلف عن الجهاد بأمال والنفس من علامات

النفاق ومنافيات الايمان بالله واليوم الآخر كما ترى في الآيتين ٤٤ و ٤٥ وما

قبلهما وبعدهما من أحول المنافقين وتتمة ذلك في الآيات ٨٦ - ٩٣

(الحكم ١٧) وجوب مجاهدة الكفار والمنافقين في العائلات المدنية والادبية

وهم الخاضعون لأحكام الإسلام كما في الآية (٧٣)

(الحكم ١٨) الاعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد في قواه تعالى (٩١ ليس على

الضعفاء ولا على الرضى) الى آخر الآية ٩٣

(الحكم ١٩) وجوب بذل النفس والاموال في القتال المشروع لاعلاء

كلمة الله وهي الحق والعدل باشتراك الله إياها من المؤمنين بأن لهم الجنة ، وهو

نص الآية ١١١ وتقدم تحريم الفرار من الزحف في سورة الانفال

(الحكم ٢٠) قتال الاقرب فالاقرب من الكفار الحربيين وهو نص الآية ١١٣

الفصل الثالث

في القواعد والاصول السياسية والحربية المأخوذة من المسائل والاحكام السابقة

وهي ١٣ أصلاً

(١) جواز البراءة من اليهود ونبذها للمعاهدين لدفع الفاسد المترتبة على

بقائها . وهو في الآيتين الأولى والثانية من السورة

(٢) فقد المعاهدات مع الدول والأمم من حقوق الامة لأن لها غنها

وعليها غرمها ، وإنما يعقدها الامام أو نائبه من حيث إنه هو الممثل لوحدة

الامة . وهو منطوق إسنادها الى المؤمنين في قوله في الآية الأولى (عاهدتم

من المشركين) مع العلم بأن الذي تولى العقد وكتب باسمه في الحديدية هو النبي ﷺ

(٣) نبذ المعاهدات يجب أن يذاع وينشر بحيث يعرفه المخاطبون بالعمل به

كما أمر الله بالاذان به يوم الحج الأكبر ، والاذاعة تختلف باختلاف الازمنة

والامكنة وأحوال البشر في حضارتهم وبدواتهم

(٤) وجوب الوفاء بالمعاهدة ما دام الطرف الآخر من الاعضاء يفي بها ولا

ينقص منها شيئاً كما ترى في الآيات ٤ و٧ و١٢ و٣ إجمالاً لتقدم في سورة الانفال

(٥) المعاهدة الموقوتة تنتهي بانتهاء مدتها بنص قوله تعالى (فآتموا اليهم

عهدهم الى مدتهم) وقوله — (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم)

(٦) ان القبائل والشعوب التي ليس لها دين ولا شرع يحرم عليها نقض العهود وجرب عليها نكثها للايمان لا يجب التزام معاهداتها السابقة ولا تجديد ما انتهت مدته منها كما تراه مفصلا في الآيات الثلاث عشرة الأولى من السورة ، ودول الافرنج تعمل بهذه القاعدة فلا تعقد المعاهدات الا مع الدول المنظمة التي تلتزم الشرائع والقوانين الدولية

(٧) الهدنة بين المحاربين مشروعة والمسلمين أن يبدأوا بها اذا اقتضت ذلك المصلحة ومنها الرحمة بالمشركين فيما لا يضر المؤمنين ، وهو نص قوله تعالى في الآية الأولى (فسيحوا في الارض أربعة أشهر)

(٨) تأمين الحربى بالاذن له بدخول دار الاسلام جائز للمصلحة فاذا استأمن لأجل سماع كلام الله أو الوقوف على حقيقة الاسلام وجبت إجارته ثم إبلاغه مأمنه عند الخروج من دار الاسلام ، وهو في الآية السادسة

(٩) انتهاء قتال مشركي العرب منوط بالدخول في الاسلام ومفتاحه التوبة من الشرك والتزام أحكام الاسلام وأهمها ركنا الصلاة والزكاة

(١٠) انتهاء قتال أهل الكتاب ومن في معناهم يناط بالاسلام أو باعطاء الجزية مع الخضوع لأحكام شرعنا كما ترى في آية الجزية ٢٩ وفي تفسيرها بيان حكم سائر الملل (١١) النفي العام الذي يكون به الجهاد فرضاً على الاعيان في الآية ٤١ وترى في تفسيرها ما تكون به فرضيته ، وما يكون به فرض كفاية

(١٢) امتناع نفر المؤمنين كلهم للجهاد في غير حال النفي العام في الآية ١١٦

(١٣) العجز عن القتال أو عن الخروج اليه عذر في التخلف عنه وتجد بيان أنواعه

الشخصية والمالية في الآيات الثلاث ٩١ — ٩٣ وهي تختلف باختلاف أحوال

الزمان والمكان والامتداد للقتال

الباب الخامس

(في شؤون الكفار والمنافقين وحكم الاسلام عليهم وسياسته فيهم وفيه فصول)

الفصل الاول في ذم القرآن للكفار والمنافقين ونزاهته فيه عن السب والشتم

(تنبيه وتمهيد)

الذم الوصف بالقبيح ، والسب والشتم ما يقصد به التعبير والتشفي من الذم سواء كان مناه صحيحاً واقماً أو افكاً ممتري ، والقرآن منزّه عن ذلك ، قال تعالى (٨ : ١٠٨) ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم) فنهي عن سب آلهة الكفار ومعبوداتهم ومنها الاصنام ، وقال النبي ﷺ « المستبان شيطانان يتهاوران ويتكاذبان » رواه أحمد والبخاري في الادب المفرد من حديث عياض بن حمار بسند صحيح . فثاني القرآن من ذم الكفار والمنافقين بيان لحقيقة حالهم وقبح أعمالهم ، وما يعقبها من الفساد والضرر بهم وسخط الله تعالى عليهم ، واستحقاقهم لعقابه ، وبعدهم من رحمته وثوابه ، بقصد الانذار والوعظ ، لاجل التنفير والزجر ، ولذلك تراها موجهة اليهم بوصفهم أو الى وصفهم العام : المشركين ، الكافرين ، المنافقين ، الفاسقين ، الظالمين ، الجرمين ، المفسدين . أو الخاص بطائفة منهم كعض الاحبار والرهبان لا كلهم دون الاشخاص المعينين باسمائهم وألقابهم ، مهما يكن من شدة كفرهم وايدائهم للنبي ﷺ والمؤمنين كعبد الله ابن أبي بن ملول رئيس المنافقين الذي كان شرهم وأجرأهم على الضرر ، فقد كان ضرره في المدينة أشد من ضرر أئمة الكفر والشرك في مكة (كابي جهل)

ومن اطلع على شيء من هجم العرب وسبابهم البذي وقذعهم الفاحش أدرك نزاهة القرآن ، وعلوه عن مثل بذائهم في الكلام

ويستثنى من هذه القضية الكلية في ذم الشخص المعين من أعداء الاسلام والرسول (ص) ما نزل في ذم أبي لهب وامرأته في ضورة وجيزة لما بيناه من حكمة ذلك في قصة ابراهيم مع أبيه آزر والاستطراد إلى آباء الانبياء وأولي قرباهم « تفسير القرآن الحكيم » « ١٧ » « الجزء الحادي عشر »

وما صح في الأحاديث في أبي النبي ﷺ وعيه أبي طالب وأبي لُهب ، لا ثبات قاعدة عظيمة في الفرق بين دين الله تعالى على السنة أنبيائه ورسوله والاديان الوثنية ، وهي أن دين الله تعالى مبني على أن مدار السعادة والنجاة من عذاب الآخرة والفوز بنعيمها إنما هو الإيمان الصحيح والأعمال الصالحة التي تتركز بها الأنفس وتمكون بصفاتها العالية أهلاً لجوار الله تعالى ومرضاته . وأن الاديان الوثنية مبنية على أن السعادة والنجاة والفوز إنما تكون بوساطة بعض المخلوقات التي توصف بالولاية والقداسة أو النبوة ويدعى لها التأثير في النفع والضرر بأنفسها أو بالشفاعة عند الله تعالى وكونها تحابي بشفاعتها ووساطتها أولى القرابة منها والمتقرين إليها بالمدح لها والاستغاثة بها ودعاتها من دون الله أو مع الله عز وجل

وقد كان أبو لُهب أغنى بني هاشم ومن أكثر المشركين غروراً بما له وثورته ونشبهه ونسبه وكان بهذا الغرور أول من جاهر بعداوة ابن أخيه (محمد رسول الله صلوات الله وسلامه عليه) محترماً له لأنه كان هو وأبوه الذي لم يدركه وعمه الذي كفله بمدجده أقر بني هاشم ، وقال له حين جمع عشيرته وبلغهم دعوة ربه أمثالاً لامره (وانذر عشيرتک الاقربين) : تبا لك سائر اليوم لهذا جمعتنا ؟ وكان يقول لقريش : خذوا على يدي ، قبل أن تجتمع العرب عليه . وكان أشد المشركين صداً للناس عنه وتكديباً له كما دعا أحداً منهم إلى الاسلام ، وكان كلامه مقبولاً عندهم أكثر من كلام سائر رؤساء الذين جاوروا بعداوته كابي جهل وعقبة بن أبي معيط وأبي صفيان بن حرب لقرايته ، وكذلك كانت امرأته أم جميل أخت أبي صفيان مسرفة في عداوته وذمه والصد عن دعوته بالنيمة ونقل الاخبار الكاذبة عنه لتبغيضه للناس ، وهو المراد من كنيته « حاملة الحطب » كما هو معروف عند العرب . وروي أنها كانت تجمع الحطب الشائك وتلقيه في طريقه بالفعل ، ومع هذا كله لم تكن السورة التي نزلت فيه الادعاء عليه بالتباط وهو الخسار المفضي إلى الهلاك أو اخباراً به ، وبكونه لا يعني عنه ماله الكثير وما كسبه من الجاه والولد شيئاً - في مقابلة قوله للرسول ﷺ تبا لك سائر اليوم - فهو إخبار بعاقبة أمرها زموها على كفرها ، وخسرها سعادة الدنيا والآخرة ، وقد صدق

خبر الله ووعيده له، فهو قد مات بمذوقمة بدر التي ساعد عليها بماله، أسفاً لعجزه عن الخروج اليها بنفسه، فذاق وبال امره بخذلان اقرانه من صناديد قريش وروس الشرك، وخسران ماله الذي أنفقه فيها مصداقاً لقوله تعالى (ان الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغفلون) ورأى بمصداقها مبادئ عز الاسلام ونصره . مات بعدها بأيام قليلة بالعدسة شرميئة، وترك ميتاً حتى أتت، ثم استؤجر بهض السودان حتى دفنوه . وكان فجع بعد نزول السورة بولده عتبة الذي كان يعتز به، اقتصره أسد في طريق الشام، ولو أسلم كما أسلم أخوه وثانيه في جمع المال (العباس رضي الله عنه) لرأى مثل ما رأى هو وذريته من عز الاسلام، وصدق ابن أخيه عليه أفضل الصلاة والسلام، في وعده لهم بأن كلمة « لا إله إلا الله » تجمع عليهم العرب، وتدين لهم بها العجم . ذكرت هذا التنبيه الطويل لبيان غلط بعض العلماء في قوهم إن القرآن اشتمل على صميم وحب آهنتهم، وتفنيداً لما بهندي به بعض ملاحدة الكتاب في المقارنة بين أدبه والأدب الجاهلي . وما روي من قول رروس المشركين للذي ﷺ لقد صيبت الآباء وعبت الدين وسفقت الاحلام وشتمت الآلهة - فذكر السب والشتم فيه مبالغة في الانكار على أنه مرسل ضعيف السند وفيه رجل مبهم . وهاك ما وصف الله تعالى به أعداءه وأعداء رسوله والمؤمنين من هؤلاء المناقين والكافرين في هذه السورة وهو أشده .

﴿ شواهد ذم القرآن النزيه للكفار والمنافقين ﴾

(٤-١) وصف المشركين في الآيات (١٠ و ٩ و ٨) بأنهم لا يرقبون ولا يراعون في أحد من المؤمنين إلا . ولا وذمة، حتى قطعوا أرحامهم بهم خلافاً لما دأبوا فيه في عصبية النسب، وانهم يصدون عن سبيل الله، وأن أكثرهم قاسقون وأنهم هم المعتدون . (٥) قوله تعالى في منعهم عن عمارة المسجد الحرام وغيره ومن التعبد فيه (١٧) ما كان المشركين أن يعبروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر، أولئك حبطت أعمالهم وفي النار هم خالدون)

(٦) قوله تعالى (٢٨) إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وكانت نجاستهم معنوية وهي الشرك وخرافاتة ، وحسية اذ كانوا يأكلون الميتة ولا يدينون بالطهارة من النجاسة ولا الحيض والجنابة (٧- ١٠) وصف كفار أهل الكتاب في الآية (٣٠) بأنهم يأخذوا بنور الله سبحانه يظاهرون قول الذين كفروا من قبلهم كوثني قدماء الهند والمصريين وقوله (قاتلهم الله أنى يؤفكون) ووصفهم في الآية (٣١) بأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وفي الآية (٣٢) بأنهم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم أي بكلامهم الباطل في الصدق عن الاسلام - وفي الآية (٣٤) بأن كثيرًا من أحبارهم ورهبانهم يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله . وكل هذه الصفات ظاهرة معروفة في تاريخهم الماضي وسيرتهم في هذا الزمان ، ومن دقائق الصدق في القرآن الحكيم في مثل هذا على الكثير منهم دون الجميع كما قال في المشركين (وأكثرهم فاسقون) ولم يمد مثل هذا التحريم في كلام البشر وأما وصفه لشُرور المنافقين وضمهم فيها فلخصه فيما يأتي تابعاً في العدد لما قبله (١١) ذكر في استئذان المنافقين واعتذارهم عن الخروج إلى غزوة تبوك وبيان ما يكون شأنهم لو خرجوا من ابتغاء الفتنة والافساد بين المؤمنين بالثبوت وغيره ولم يزد فيها على قوله فيهم (والله عليم بالظالمين) وقوله (إن جهنم محيطة بالكافرين) (راجع الآيات ٤٢ - ٤٩)

(١٢ و ١٣) تعليل عدم قبول نفقاتهم في الآية ٥٣ بنسبهم وقوله بعده (٥٤) وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله ولا يأتون الصلاة الا وهم كسالى ولا يتفقون الا وهم كارهون)

(١٤ و ١٥) وصفهم بعد اثبات استهزائهم فيما يمتهم بالله وآياته ورسله واعتذارهم عنه بقولهم « إنما كنا نحوض ونلعب » بأنهم كفروا بعد إيمانهم وأنهم كانوا مجرمين ثم قال بعد ذكر صفاتهم العامة من الآية ٦٧) نسوا الله فَنَسِيهِمْ إِنْ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) أي الخارجون من محيط هداية الدين وسلامة الفطرة

(١٦) قوله في لزمهم وعيبيهم للمتطوعين من المؤمنين في الصدقات وسخرتهم

منهم في الآية ٧٩ (سخر الله منهم ولهم عذاب اليم) وهذا التعبير يسمى بالمشاكلة اي عاقبهم بمثل جرمهم فجعلهم سخرية للمؤمنين بما فصح به نفاقهم الذي كانوا يخفونه (١٧) قوله في تعليل عدم غفران الله لهم (٨٠) ذلك بانهم كفروا بالله ورسوله والله لا يهدي القوم الفاسقين) وقوله في هذا المعنى (٨٤) ولا تصل على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وقد نزل هذا في زعيمهم عبد الله بن أبي بن سلول ولكن جعل حكم النهي عاما (١٨ و١٩) أشد ما وصفهم به في الآية (٩٥) أنهم رجس وانه كلما نزلت سورة من القرآن زادتهم رجسا إلى رجسهم، حتى ماتوا على كفرهم كما في الآية ٢٥ وانهم عند نزولها ينصرفون من مجلس النبي ﷺ عند غفلة المؤمنين عنهم ثم قال (صرف الله قلوبهم بانهم قوم لا يفقهون) أي صرف الله قلوبهم عن الاهتداء بها بسبب انهم لا يفقهون ما فيها من البينات والهدى بمقتضى سنته في ارتباط الاسباب بسببياتها وهذا آخر ما ذكروا به في هذه السورة من الآية ١٢٧

فانت ترى ان كل ما وصفوا به بيان لحقيقة حالهم بانزله تعبير يدل عليه مقرونا بتلك الاعمال القبيحة والاخلاق السافلة والسرائر التي هي شر منها - وأن المراد بوصفهم التنفير منه لاعداد من فيه استعداد لقبول الحق بالرجوع اليه وقد تاب أكثرهم ولله الحمد

﴿الفصل الثاني﴾

(في المنافقين وصفاتهم واعمالهم وسياسة الاسلام فيهم)

النفاق خلق رديء ووصف خبيث تلوث به الانفس الدنيئة الفاسدة الفطرة فلا يرى اهلها وسيلة الى مظالمهم في المال ومطامحهم الى الجاه الا الكذب والرياء، ولقاء الناس بالوجوه المختلفة، والتصنع والخداع ولين القول، كما قال تعالى فيهم (واذا رأيتهم تعجبك اجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم) وهم يوجدون في كل شعب وكل قبيلة، لا تخلو منهم بادية ولا حاضرة. والنفاق قسمان: خاص وعام، فالخاص هو الشخصي الذي يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه

عنه ويحبيه اليه ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه والمناصب والثراء الذين يرجى الاتعاف منهم او يخشى ضررهم . فهو يلبس للصالحين منهم لباس التقوى والصلاح ، ويخلم للفساق جلباب الحياء ، ويفرغ على المستكبرين حلل الاطراء ، وهو اهون النفاقين واما النفاق العام فهو ما يكون في الدين والدولة ، وخيانة الامة والملة ، وما وجد النفاق في عهد الرسول ﷺ الا بعد الهجرة ، لما صار للاسلام قوة ودولة ، اذ اسلم اكثر الانصار بظهور نور هذا الدين القويم لهم ، ولم يكن لهم مصلحة دنيوية تجب هذا النور عن بصائرهم ، او تحملههم على مكابرة الحق وجحوده ، ككبراء قريش المقرورين بثروتهم الواسعة ، وجاههم في العرب يسدانة البيت الحرام ، واستكبارهم على سائر الناس ، واسرافهم في التمتع بالسكر والزنا واكل الربا والشهوات ، فكانوا يرون أن الاسلام يساوى بينهم وبين سائر الناس في جميع الحقوق ، ويفضل الفقير المتقي لله تعالى على الغنى المسرف في الفسوق ، ويقتص للسوقة من الامراء والملوك ، ويحقر المتكبرين ، ويكرم المتواضعين ، ويزدري الظالمين والفاستقين ، فيساوهم بهذا جميع ما يمتازون به على دهماء الناس . ولهذا كان اكثر من اهدى به في مكة الفقراء وبعض اصحاب الفطرة السليمة والعقول الحرة من الطبقة الوسطى وكان اعلام فطرة وأزكاهم نفسا أبو بكر الصديق وسائر العشرة الكرام المبشرين بالجنة

آمن بعض الارس والخزرج أولا بلقاء النبي ﷺ في موسم الحج ودعوا قومهم الى الاسلام بعد عودتهم الى المدينة فصادفت دعوتهم رواجاً لقوة المقتضي وهو التوحيد وفضائل الاسلام ، فلما كثروا هاجر الرسول ﷺ اليهم اذ عاهده تقبأؤهم في منى على نصره ومنعه (اي حمايته والذب عنه) مما يمنعون انفسهم وأهليهم ، ومن العقول ان يكون نور الاسلام لم يظهر لكل فرد منهم على سواء ، وان يكون منهم من اضطر الى الدخول فيما دخل فيه قومهم مواتاة لهم ، مع عدم وجود نظام لديانتهم الوثنية يرتبط به بعضهم ببعض فيقيمونه ويدبون عنه ، فكان منافقو المدينة من هؤلاء ومن حولهم من قبائل الاعراب الذين لم يعقلوا الاسلام ، كاسد وغطفان .

وكان هنالك يهود كثيرون يقيم اكثرهم في حصون لهم بالقرب من المدينة كني قريظة وبني النضير ، وقد عاهدهم النبي ﷺ على حريتهم في دينهم وأنفسهم وأموالهم ، ولكنهم كانوا ينتقضون عهده ويظاهرون عليه المشركين كلما جاؤا لقتاله ، بل كانوا يغرونهم ويحرضونهم عليه ، فكانوا في اظهار الوفاء بعهده منافقين ، وكان لهم احواف من عرب المدينة لحفاظ على مودتهم مناققوها بالسر كما بيدنا ذلك كله في محله

فكانت سياسة الاسلام في الفريقين أن من اظهر الاسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين ، لان قاعدة الاسلام ان الحكم على الظواهر ، وان الله تعالى وحده هو الذي يحاسب ويعاقب على السرائر ، وأن من حافظ على الوفاء بعهده من اهل الكتاب يوفي له ، وكان اليهود ينتقضون عهدهم مع النبي ﷺ سرا ، فاذا ظهر شيء من خيانتهم وغدرهم اعتذروا عنه ، حتى اذا ما اقتضح امرهم حاربهم ﷺ وأجلاهم عن البلاد ، كما ترى في تفسير الآيات ٥٥ - ٥٨ من سورة الانفال (ص ٤٨ - ٦٠ ج ١٠)

وقد قص الله علينا في سورة الحشر ما كان بين اليهود والمنافقين من الاخاء والولاء وانه لاخير فيه لاحد منهما على ان اليهود ظاهروا المشركين على النبي ﷺ ولكن المنافقين لم يفوا لليهود بما وعدوهم به من نصرهم اذا هم اظهروا عداوتهم لان المنافق القج دون المتدين الكافر همة وشرفا وخلقاً . قال تعالى (١١:٥٩) ألم تر الى الذين نافقوا يقولون لآخوانهم الذين كفروا من اهل الكتاب : لئن اخرجتم للخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا ، وإن قوتكم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون ١٢ لئن اخرجوا لا يخرجون معهم ، واثن قوتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الادبار تم لا ينصرون)

كان سبب معاهدة النبي ﷺ لليهود واقاراره إياهم على دينهم ان الاسلام دين حرية وعدل ، ودعوته قائمة على البرهان والحجة ، ولذلك منع المسلمين من أخذ أولادهم الذين تهودوا وانضموا الى اليهود بالقوة ، وأمرهم بأن يخيروهم اذ نزل فيهم قوله تعالى (لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

وقد تقدم ان سبب معاملة المنافقين بظاهر اسلامهم هو ان امر السرائر لله وحده ، فهو الذي يعلمها ، وهو الذي يجازي عليها ، ولا يباح لحاكم ولا لني ان يحكم على انسان بأنه يسر الكفر في نفسه ولا أن يتهمه بذلك ويعاقبه عليه . ولا يثبت الكفر على من ظاهره الاسلام الا باقرار صريح منه أو صدور قول أو فعل يدل عليه دلالة قطعية لا تحتمل التأويل كتكذيب القرآن أو النبي ﷺ أو جحود كونه خاتم النبيين لا نبي بعده ، والشرك بالله بدعاء غيره ، وغير ذلك مما هو جمع عليه معلوم من الدين بالضرورة لا يقبل فيه تأويل ، كجحود فرضية الصلاة والزكاة والصيام والحج ، أو استحلال الزنا والربا وشرب الخمر وأما حكمة ذلك وفائدته فهي أن من يلتزم شعائر الاسلام وأحكامه ولو بغير ايمان يقيني فإنه يرجى له بطول العمل أن ينشرح صدره للايمان ويطمئن به قلبه ، ويوقن به عقله ، وإلا كانت استفادته وافادته للامة دنيوية فقط

(فان قيل) إن مقتضى حرية الدين التي امتاز بها الاسلام في معاملة أهل الكتاب - إذ أقرهم على العمل بدينهم حتى فيما بين لهم أنهم خالفوا فيه ما جاء به رسالهم - ان يسمح للمنافقين بان يظهر واكفرهم (قلنا) ان الجمع بين اظهار كفرهم وحسبانهم من المسلمين لهم ما لهم من الحقوق وليس عليهم ما عليهم من الواجبات ، تناقض لا يقول به عاقل ، ولا يحكم به عادل ، ومثلهم فيه كمثل من يسمح له بمقوق الجنسية السياسية الوطنية ولا يطالب بالخضوع لها وانينها ، ولا يعاقب على انتهاكها ومخالفة أحكامها ، وانما تكون حرية الدين المعقولة لاهله في دائرة محيطه بأن لا يحاسب أحدهم أحد على عقيدته ووجدانه فيه ، ولا اجتهاده في فهمه ، الا من طريق البحث العلمي ، وليس منها ان يخالف اصوله القطعية التي لا يكون المسلم مسلما بدونها ويعد مع ذلك مسلما ، وإذا ليس لاحد أن يطالب حكومته المتبدينة بالسماح له بالخروج على دينها ، كما لا يصح له أن يطالبها بالسماح له بالخروج على قوانينها ، فتكون حريته هنا متعارضة مع حريتها هي وحرية أمتها

(فان قيل) ان القرآن قد فضح بعض المنافقين في هذه السورة وحكم بكفرهم ولم ينفذ النبي ﷺ عليهم أحكام المرتدين عن الاسلام ، بل بقي يعاملهم هو وأصحابه

معاملة المسلمين (قلنا) ان ما بينه الله تعالى من حال المنافقين انما كان وصفاً لأناس غير معينين بأشخاصهم، انذاراً وزجراً لهم ليعرفوا حقيقة حالهم، ويخشوا سوء ما لهم، عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم، وقد تاب الكثيرون منهم، بما ظهر لهم من إخبار القرآن عنهم، بما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم

وكان الذين عرف النبي ﷺ بعض أصحابه أشخاصهم قليلين جداً كالذين هموا باغتياله ﷺ بتشريد راحلته في عقبة في الطريق منصرفهم من تبوك ليطرحوه منها، وقال بعضهم لبعض: لئن كان محمد صادقاً لنحن شر من الحير. وفيهم نزل (٧٤) يحلفون بالله ما قالوا. ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد اسلامهم وهووا بما لم ينالوا) ولما استأمره أصحابه بقتلهم قال « اكره أن يتحدث الناس ويقولوا ان محمداً قد وضع يده في أصحابه » أي في رقابهم بقتلهم، وهذا أكبر منفر عن الايمان، فان كثيراً من الناس كان يستحسن هذا الدين ويفضله على ما كانوا عليه من الشرك في أحكامه وآدابه لذاتها، قبل أن تقوم عندهم الحجة على اليقين بكونه وحياً من الله تعالى، فيدخلون فيه، ثم بعد زمن قليل أو كثير من معرفته التفصيلية تطمئن قلوبهم بالايان اليقيني، ومنهم من كان يدخل فيه تبعاً لأكثر قومه من غير نظر الى تفضيله لقلته علمه بدعوته، وكل هؤلاء يقبل إسلامهم ويعتد به شرعاً، وفيهم نزل قوله تعالى من سورة الحجرات (قالت الاعراب آمنا. قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم . وان تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) ولو سمع أمثال هؤلاء ان النبي ﷺ يقتل بعض من اتبعه وصحبه لظهور شيء يدل على عدم ايمانهم في الباطن، أو لاعلام الله تعالى إياه بما في قلوبهم، لفرغوا من الاسلام وخافوا عاقبة الدخول فيه

وتم مفسدة أخرى في هذه الاشاعة وهي أن المنافقين والكفار يذيعون فيها ماشاؤا من التهم الباطلة والافك المقتري، كزعمهم أنه انما قتل من ظهر لهم منه مادهم على بطلان دينه بعد أن صدقوه وجاهدوا معه

على أن الله تعالى قال فيهم بعد وصفهم بالكفر بالقول وبالهم بشر نتائجه من الفعل (فان يتوبوا يك خيراً لهم وان يتولوا يعذبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة)

الآية ، فليراجع تفسير الآية وما قبلها من الامر بجهاد الكفار والمنافقين في (ص ٥٤٨ - ٥٥٨ ج ١٠)

وبلي هذا في السورة خبر الذي عاهد الله لئن آناه من فضله ليصدقن (في الآيات ٧٤ - ٧٧) وما رووا في سبب نزولها خاصة وانه شخص بقال له ثعلبية ، وانه بعد أن نزلت فيه الآيات تاب وأراد أن يؤدي زكاة ماله فلم يقبلها منه النبي ﷺ ثم لم يقبلها منه أبوبكر ولا عمر ولا عثمان بعده ، وانه هلك في خلافة عثمان . وقد بينا في تفسيرها أن في حديث سبب نزولها اشكالات في سندده وفي متنه فانه مخالف للاصل الشريعة القطعي المجمع عليه من العمل بالظاهر فهو باطل قطعاً بما فصلوه به تفصيلاً (راجع ٥٥٨ - ٥٦١)

ويقرب منه في المعنى ماروي في الصحاح من نزول قوله تعالى (٨٤) ولا تقص على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره انهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) وأنه في عبد الله بن أبي بن سلول زعيم المنافقين الاكبر وقدينا في تفسيرها ما في الحديث من التعارض مع القرآن فراجع (في ص ٥٧٣ - ٥٨١)

ومن المشكل في هذا الباب قصة مسجد الضرار في الآيات (١٠٧ - ١١٠) فقد بين الله تعالى فيها انهم اتخذوه لأربعة أغراض منها الكفر وسائرهما أقبح مقاصد أعداء الله ورسوله والمؤمنين . وقد أمر النبي ﷺ بهدمه فهدم ولم يأمر بقتلهم ، وقد شهد الله بكذبهم فيما حلفوا عليه من حسن نيتهم . وسبب ذلك ان الذين بنوه للمقاصد الاربعة المذكورة في الآيات كانوا كإقال المفسرون اثني عشر رجلاً من منافقي الاوس والخزرج أنباع أبي عامر الراهب الذي وعدهم بان يتوسل بنصرانيته الى قيصر الروم في الشام فيرسل معه جنداً يكفبهم أمر الرسول ومن اتبعه من المؤمنين ، ولكن صدقهم في ظاهر عملهم وما زعموه من حسن النية فيه كثير من المؤمنين وشاركوهم وصلوا معهم فيه ، وكان التمييز بينهم متعذراً ، فصح أن يأتي في الفريقين قوله تعالى في المسلمين المستخفين من المشركين في مكة عام الحديبية (لوتزبلوا لعذبننا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً)

والسبب الخاص لعدم عقاب أصحاب مسجد الضرار على الكفر الذي أثبتته

النص الصريح أمران [أحدهما] أن الآيات في قصتهم قد بدئت بما يحتمل أن يكون ذكرهم فيها معطوفاً على الذين أرجأ الله البت في أمرهم وجعل التوبة عليهم مرجوة وهو قوله تعالى (وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم) والثاني ختم قصتهم بقوله تعالى (لا يزال بنياهم الذي بنوا ربية في قلوبهم الا أن تقطع قلوبهم والله عليهم حكيم) فيظهر في معنى تقطع قلوبهم احتمال هو أحد الأقوال في تفسيره، وهو تقطعها من الاسف والحزن على ما فرط منهم، ووقوع هذا الاستثناء محتمل، وإذاً يكون أقوى الأدلة على توبتهم وأصدقها، ويكفي الاحتمال لمنع الحكم عليهم بالكفر وجملة القول في هذا الباب ان سياسة الاسلام في المنافقين أن يعاملوا بحسب ظواهرهم وما يبدو من أعمالهم، وان للامام الاعظم أو عليه — ومثله نوابه من اولياء الامور — أن يعرض في الخطب العامة والتصريحات الرسمية بتقبيح ما يعلم من سوء أعمالهم والانداء بسوء عواقبها ليعدهم للتوبة منها، أو الحذر من إظهار ما يضر ونه من الشر الذي يترتب عليه العقاب. وتتضمن هذه السياسة الاصول الآتية

(الاصول الثلاثة في حرية الدين ، ومعاملة المنافقين)

- ١ - ان حرية الاعتماد والوجدان مرعية لاسيطرة عليها للرؤساء الحكيم، ولا للمعلمين والمرشدين، وانما لهؤلاء حق في التربية والتعليم، فليس لأحد أن يتهم إنساناً بإضمار الكفر ولا بنية الخيانة لملته أو دولته، ولا بإرادة السوء لقومه وأمة، ولا أن يعاقبه على ذلك بعقاب بدني ولا مالي، ولا بجرمانه من الحقوق التي يتمتع بها غيره من أفراد الامة
- ٢ - انه ليس لمن يضمن الكفر بالله أو بما جاءت به رسله أن يكون فتنه للناس بإظهار ذلك لهم ودعوتهم اليه، أو الطعن في عقائدهم، أو إظهار ما يناقضها من قول أو عمل، وان لم يكن دعوة ولا طعناً، فان فعل ذلك وكان يدعي الاسلام يحكم بإرتداده وخروجه من الملة، إن كان ما أظهره من الكفر صريحاً قطعياً مجمماً عليه لا يحتمل التأويل، ويترتب عليه ما هو مقرر في الشرع من استنابته وعقابه إن لم يتب (ومنه منع التوارث بينه وبين المسلمين وفسخ نكاحه بالمسلمات، وعدم تشييع جنازته والصلاة عليه ودفنه في مقابر المسلمين) لان حرية كل احد في اعتقاده تقف

عند حد حرية غيره ، ولا سيما احترام عقائد الملة التي يعيش في ظل شريعتهما ، وسائر شعائرها وعباداتها

وليعلم القاريء أن كثيراً من الفقهاء قد أسرفوا في أبواب الردة في المسائل التي يحكم فيها بالكفر المخرج من الملة ، وبنوا كثيراً منه على اللوازم البعيدة ، والمحتملة للتأويلات القريبة ، وما ورد في صفات المناققين في هذه السورة حجة عليهم ، وإن قال بعض العلماء المتقدمين : إن ما كان في زمن النبي ﷺ نفاقاً لا ينافي ظاهر الإسلام ، هو الآن كفر محض لا تقبل معه دعوى الايمان ، فهذا قول باطل ، فيكتاب الله وسنة رسوله ﷺ هما الحججة في الدين ، والاهتداء بها هو الواجب الى يوم الدين ، فيجب قبول قول كل من أظهر الإسلام ولم يصرح بما ينافيه بما لا يحتمل التأويل ، وما يحتمل التأويل احتمالاً ظاهراً جميع المباحث العلمية المخالفة لظواهر النصوص كما هو مقرر في الاصول .

٣ - أن من ظهر منه شيء من أمارات النفاق العملي في الدين ، او الخيانة للامة والملة بما هو غير صريح ، مما لا يعاقب عليه في الشرع بحمد ولا تعزير ، فلولي الامر أن يعظه بالتعريض ، ثم بالتصریح والتكشيف ، وله أن يعاقبه بما يرجى أن يزرعه عن غيبه من التأديب ، كالحرمان من مظاهر التشريف ، او الازورار والتقطيع ، او التأنيب والتعنيف ، كما بيناه في تفسير (٧٣) جاهد الكفار والمنافقين واغلاظ عليهم) ومنه حرمان النبي ﷺ للذين تخلفوا عن غزوة تبوك من الخروج معه الى غزوة أخرى بقول الله تعالى (٨٣) فان رجعت الله الى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معي أبداً) الآية . ولكن الملوك المستبدين يقربون اليهم المناققين فيزيدونهم فساداً ، ويجرؤون غيرهم بل يرغبونه في النفاق وخيانة الامة جباراً ، حتى إن المناصب الدينية المحضة صارت تمنال بالنفاق ، ويزداد عنها أهل الصدق والاخلاص ، وإلى الله المشتكى ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

(انتهى بيان ما فتح الله به علينا من خلاصة هذه السورة)

(وكتب في أوقات متقطعة في سنة عسرة شديدة)

(وتم في ذي الحجة سنة ١٣٥٠)

١٠ - سورة يونس

(السورة العاشرة في المصحف وآياتها ١٠٩ عند الجمهور وعند الشامي ١١٠)

هي مكية نزلت بعد سورة الاسراء (بني اسرائيل) وقبل سورة هود . وما رواه ابن مردويه من طريق عثمان بن عطاء عن أبيه عن ابن عباس من كونها مدنية غلط يخالف الروايات الكثيرة عنه وعن غيره بل للاجماع الذي يؤيده موضوع السورة من أولها إلى آخرها فهو يدور على اثبات اصول التوحيد وهدم الشرك واثبات الرسالة والبعث والجزاء ودفع الشبهات عنها وما يتعلق بذلك من مقاصد الدين الاصلية التي هي موضوع السور المكية ، وعثمان بن عطاء ضعيف متروك لا يحتج بروايته فيما يحتمل الصواب فكيف ينظر اليها في مثل هذه المسألة ، ولكن الرواة لم يتركوا متردما وقال السيوطي في الاتقان : استثنى منها (فان كنت في شك) الآيتين ٩٤ و ٩٥ - وقوله (٤٠) ومنهم من يؤمن به) الآية قيل نزلت في اليهود ، وقيل من أولها إلى رأس أربعين مكي والباقي مدني حكاه ابن الفرس والسخاوي في جمال القراء اه وأقول ان موضوع السورة لا يقبل هذا من جهة الدراية ، وهو مما لم تثبت به رواية . وكون المراد بالذين يقرؤون الكتاب (في الآية ٩٤) اليهود لا يقتضي أن تكون نزلت في المدينة . وبيانه من وجهين (أحدهما) أن المراد بالشرطية فيها الفرض لا وقوع الشك حقيقة ولذلك قال ﷺ « لا أشك ولا أسأل » وهو مرسل يؤيده قول ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن البصري كما سيأتي في تفسيرها (وثانيهما) ان هذا المعنى نزل في سور مكية أخرى كقوله تعالى في سورة الاسراء (فاسأل بني اسرائيل إذ جاءهم)

وقوله في سورتي النحل والانبياء (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون) ووجه مناسبتها لما قبلها أن تلك ختمت بذكر رسالة النبي ﷺ وهذه افتتحت بها ، وان جل تلك في بيان أحوال المنافقين ومنه ما كانوا يقولونه وما كانوا يفعلونه عند نزول القرآن كآيات ١٢٤ - ١٢٧ وهذه في أحوال الكفار ومنها ما كانوا يقولونه في القرآن كآيات ١٥ و١٦ و١٧ و٣٧ - ٤٠ .

واعلم أن التناسب الذي يوجد بين السور ليس سببا في هذا الترتيب الذي بينها ، قرب سورتين بينهما أقوى التناسب في موضوع الآيات ومسائلها يفصل بينهما تارة ويجمع بينهما أخرى فن الأول الفصل بين سورتي الهمزة واللب وموضوعهما واحد . والفصل بين السور المبدوءة بالتسبيح بسورة المنافقين . ويقابلها من الوجه الثاني الوصل بين سور الطواسين وسور آل حميم وبين سورتي المرسلات والنبأ وسورتي التكويد والانفطار ، وربما يقال ان التناسب بين أكثر السور المكية أقوى منه بينها وبين السور المدنية ومن حكمة الفصل بين القوية والتناسب في المعاني كالمكية التي موضوع أكثرها العقائد والاصول العامة والزواج والصادقة والمدنية التي موضوع أكثرها الاحكام العملية أنه أدنى إلى تنشيط تالي القرآن بالترتيب وأناهي به عن المال ، وأدعى له إلى التدبر ، فهذه الحكمة تشبه حكمة تفريق مقاصد القرآن في السورة الواحدة من عقائد وقواعد ، وأحكام عملية ، وحكم أدبية ، وترغيب وترهيب ، وبشارات ونذير ، وأمثال وقصص ، والعمدة في كل ذلك التوقيف والاتباع وهاءنذا أشرع في تفسير السورة ملتزما فيها القصد والاختصار في كل ما سبق له بيان مفصل في تفسير السور السابقة ولأسيما السورتين المكييتين من السور الطول : الإنعام والاعراف : وإنما أبسط القول فيما لم أبسطه فيه تمام البسط من قبل ، وأهمه في هذه السورة مسألة الوحي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) الرَّاءُ، تِلْكَ آيَةُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ (٢) أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا،
أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ
لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ، قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَجْرٌ مُبِينٌ

﴿الر﴾ تقرأ هذه الحروف الثلاث بأسمائها ساكنة غير معربة هكذا: ألف، لام، راء، والحرف الأخير غير مهموز. وفائدة النطق بها وبأمثالها هكذا تنبيه الذين تتلى عليهم السورة لما بعدها لاجل العناية بفهمه حتى لا يفوتهم من سماعه شيء. وهي أقوى في هذا التنبيه من حرف الهاء الموضوع له في اسم الإشارة، ومن كلمة «ألا» الافتتاحية، وقد فصلنا هذه المسألة في أول تفسير سورة الاعراف.

﴿تلك آيات الكتاب الحكيم﴾ أي تلك الآيات البعيدة الشأو، الرفيعة الشأن، التي تألفت منها هذه السورة، أو القرآن كله، هي آيات الكتاب الموصوف بالحكمة في معانيه، والاحكام في مبانيه، الحقيق بهداية متدبره وواعيه.

﴿أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم﴾ الاستفهام للتعجب من عجب الكفار واستنكار إنكارهم للوحي إلى رجل من جنسهم، والوحي الاعلام الخفي.

(١) زعم بعض ملاحدة مصر ان هذه الاحرف كانت تكتب في بعض مصاحف الصحابة رمزاً لاصحابها فادخلت في القرآن عند كتابة المصاحف الرسمية ظناً انها من السور. وفي هذا الزعم أكبر جرأة على الافتراء والافتحاز ورد النقل المتواتر بدون ادنى شبهة غير وسوسة الشيطان، وعداوة الرحمن،

الخاص لا مريء بما يخفى على غيره - اي أكلان إبحاؤنا إلى رجل من الناس أمراً
 نكرًا اتخذوه أعجوبة بينهم يتفكرون باستغرابها؟ كأن مشاركتهم له في البشرية يمنع
 اختصاص الله إياه بما شاء من العلم . والمراد بالناس كفار مكة ومن تبعهم في إنكار
 نبوة محمد ﷺ ، وعبر عنهم بالناس لأن هذه الشبهة على الرسالة قد سبقتهم اليها
 أقوام الانبياء قبله كما تقدم في قصة نوح وهود من سورة الاعراف (٧: ٦٢ و ٦٨
 أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟) وهذا المعنى مكرر في القرآن
 وقد دحضنا هذه الشبهة في آخر تفسير سورة الانعام ﴿ أن أنذر الناس ﴾
 «أن» هذه مفسرة لما قبلها ، والانذار الاعلام بالتوحيد والبعث وسائر مقاصد
 الدين المقترن بالتحذير من عاقبة الكفر والمعاصي، أي أوحينا اليه بأن أنذر الناس كافة
 ﴿ وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم ﴾ التبشير مقابل الانذار ،
 أي الاعلام المقترن بالبشارة بحسن الجزاء على الايمان والعمل الصالح . والمعنى
 وبشر الذين آمنوا منهم خاصة بأن لهم قدم صدق عند ربهم يحزيهم به في الآخرة -
 والصدق في اصل اللغة ضد الكذب تم أطلق على الايمان وصدق النية والوفاء
 وسائر مواقف الفضائل ، ومنه في التنزيل : مقصد صدق ، ومدخل صدق ، ومخرج
 صدق ، وقدم صدق . والتقدم ههنا السابقة والتقدم . قال البيضاوي : ما بقية
 ومنزلة رفيعة سميت قدماً لان السبق بها كما سميت النعمة يداً لانها تعطى باليد ،
 وإضافتها إلى الصدق لتحققها ، والتنبيه على انهم انما ينالونها بصدق القول والنية
 ﴿ قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ﴾ قرأ ابن كثير والكوفيون (لساحر)
 يعنون النبي ﷺ ، والباقون (لسحر) ويعنون به القرآن ، وكلا من القولين
 قد قالوا ، وكل من القولين يشير الى إثبات رسالته ﷺ فان قولهم ان القرآن سحر
 جاء به ساحر يتضمن اعترافهم بانها فوق المعهود والمعلوم للبشر في عالم الاسباب
 المقدورة لهم . وتأكيد قولهم بالجملة الاسمية وإن واللام وبوصف السحر أو الساحر

بالمبين الظاهر يفيد الحصر كقول أونيد (إن هذا الإسحـر يؤثر) يعني القرآن .
 وسموه سحراً لأنه خارق للعادة بقوة تأثيره في القلوب وجذبه للنفوس الى الايمان
 وحماها على احتقار الحياة ولذاتها في سبيل الله ، حتى انه يفرق بين المرء وأخيه ،
 وأمه وأبيه ، وزوجه وبنيه ، وفصيلته التي تؤويه ، ومنعه وتحميه . وانما السحر
 ما كان باسباب خفية خاصة ببعض الناس يتعلمها بعضهم من بعض ، وهي إما حيل
 وشعوذة ، وإما خواص طبيعية علمية مجهولة للجواهر ، واما تأثير قوى النفس
 وتوجيه الارادة . وكلها من الامور المشتركة بين الكثيرين من العارفين بها (١)
 وقد استبان لعامة العرب ثم لغيرهم من شعوب العجم أن القرآن ليس بسحر يؤثر
 بالتعليم والصناعة ، بل هو مجموعة علوم عالية في العقائد والآداب والتشريع والاجتماع
 مرقية للعقول ، مزكية للانفس ، مصلحة للناس ، وانه معجز للبشر في اسلوبه
 ونظمه ومعانيه وهداياته وتشريعه وإخباره بالغيب (٢) وأن محمداً ﷺ مبلغ له ،
 ولم يكن ليقدر على شيء منه ، وقد عجز عنه غيره ، فثبت انه نبي الله ورسوله ،
 وان ما جاء به وحي منه تعالى .

وقد بينا حقيقة الوحي لغة وشرعاً وإثباته لنبينا ﷺ في مواضع منها ما في بحث
 دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ وهو في (ص ٢١٦ - ٢٢٤ ج ١ تفسير) ومنها
 تفسير (إنا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح) الآية وهو في (ص ٦٧ ج ٦ تفسير)
 ومنها رد شبهات الكفار عليه في سورة الانعام (ص ٣٠٩ - ٣٢٠ ج ٧ تفسير)
 ومنها في خلاصتها (ص ٢٧٤ - ٢٨٠ ج ٨) ومنها تحقيق القول في مسألة الكلام
 الالهي بمناسبة تكليم الله لموسى عليه السلام (ص ١٧٨ - ١٩١ ج ٩) وبقي علينا
 بسط القول في نبوة محمد مع مثبتي الوحي ونفاته ، وشبهة النفاة لعالم الغيب عليها
 وتصويرهم للوحي اليه بغير صورته ، فنعقد له الفصل التالي :

(١) راجع حقيقة السحر في ص ٣٩٩-٤٠٥ ج ١ تفسير

(٢) راجع إعجاز القرآن ص ١٩٠ - ٢١٥ ج ١ تفسير

فصل في اقامة الحجج على مشبئي الوحي ونفاته

(في إثبات نبوة محمد ﷺ)

الكلام في الوحي لمحمد ﷺ مع مشبئي الوحي

أما الفريق الاول فهم أهل الكتاب ، وان من اطلع على كتبهم المقدسة المعبر عنها بكتب العهدين العتيق والجديد وعلى القرآن وكتب السنة والسيرة المحمدية علم علماء عقلياً وجدانياً انه لا يستطيع أحد أن يؤمن إيماناً علمياً بأن تلك كتب وحي من الله ، وان الذين كتبوها أنبياء معصومون فيما كتبوه ، ثم لا يؤمن بأن القرآن وحي من الله وان محمداً نبي معصوم فيما بلغه عن الله تعالى ، كما لا يستطيع فقيه أن ينكر فقه أبي حنيفة والشافعي ، ولا نحوي أن يجحد نحو سيديويه وابن جني ، ولا شاعر أن ينفي شاعرية الرضي والبحترى ، بل كما لا يستطيع بصير أن يكابر حسه فيفضل نور القمر والكوكب على ضوء الشمس ، أو نور السراج على نور النهار ، والله در البوصيري حيث قال :

الله أكبر ان دين محمد وكتابه اقوى وأقوم قيدا

لا تذكروا الكتب السوائف عنده طلع الصباح فاطفيء القندبلا

وقد صرح بهذا المعنى علماء الافرنج الذين نشؤوا في النصرانية وأحاطوا بها علماً وخبراً ثم عرفوا الاسلام معرفة صحيحة ولو غير تامة . وهاك شهادة حديثة لعالم مستشرق منهم

كتب الاستاذ أدوار مونتيه المستشرق مدرس اللغات الشرقية في مدرسة جنيف الجامعة في مقدمة ترجمته الفرنسية للقرآن ما ترجمته بالعربية :

« كان محمد نبيا صادقا كما كان انبياء بني اسرائيل في القديم ، كان مثلهم يؤتى رؤيا ويوحى اليه ، وكانت العقيدة الدينية وفكرة وجود الالهية متمكنتين فيه كما كانتا متمكنتين في أولئك الانبياء أسلافه فتحدث فيه كما كانت تحدث فيهم

ذلك الالهام النفسي، وهذا التضاعف في الشخصية للذين يحدثن في العقل البشري المرآئي والتجليات والوحي والاحوال الروحية التي من بابها « اه

فهذا العالم الاوربي المستقل الفكر يقول ان كل ما كان به انبياء بني اسرائيل انبياء كان ثابتا لمحمد . ونحن نقول ان جميع خصائص النبوة التي كانت فيه هي اكمل شكلا وموضوعا وأصح رواية وأبعد عن الشبهات كما سنوضحه ، وأما ما فسر به هذه الخصائص فهو التعليل الذي يعلل به الماديون الوحي المطلق، وسنتكلم عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

وقد لخص هذا العالم خبير نزول الوحي على محمد ﷺ من كتب إسلامية مدعنا الصحة روايتها . وفصلها بعهده العالم المستشرق الفرنسي أميل درمنغام^(١) في كتابه (حياة محمد) مدعنا الصحة الرواية ولموضوعها مفصلا لتأثير نبوته في إصلاح البشر متمنيا الاتفاق بين المسلمين والنصارى أسفا للشقاق بينهم

واننا نقل هنا تعريف الوحي والنبوة والآيات (المعجائب) عن احد علماء الافرنج الجامعين بين العلوم العصرية والدينية والتواريخ وهو الدكتور جورج بوست الشهير مؤلف كتاب (قاموس الكتاب المقدس) بالعربية ليبي عليها الباحث المستقل العقل حكمه في نبوة انبياء بني اسرائيل ووحيتهم ونبوة محمد رسول الله وخاتم النبيين والوحي الذي انزل عليه

تعريف الوحي عندهم

جاء في تفسير كلمة «وحي» من قاموس الكتاب المقدس ما نصه مع حذف رموز الشواهد: «تستعمل هذه اللفظة للدلالة على نبوة خاصة بمدينة أوشعب . وجاء في (حز ١٢ : ١) « هذا الوحي هو الرئيس » اي انه آية للشعب . وعلى العموم يراد بالوحي الالهام . وعلى ذلك يقال « ان كل الكتاب هو موحي به من الله » والوحي بهذا المعنى هو حلول روح

(١) يكتب هذا الاسم في مجلة السياسة (درمنجم) بالحجم المصرية حيث يشتر فيها كتابه (حياة محمد) مترجما بالعربية . وانما اخترنا كتابه بالعربية لكتاب جاءنا من المؤلف بالعربية كتب فيه امضاءه (أميل درمنغام) ونشرناه في الجزء الاول من مجلد المنار الثلاثين

الله في روح الكتاب الملهمين وذلك على أنواع (١) إفاذتهم بحقائق روحية او حوادث مستقبلة لم يكن يمكنهم التوصل اليها إلا به (٢) ارشادهم الى تأليف حوادث معروفة أو حقائق مقررة والتفوه بها شفاها او تدوينها كتابة بحيث يعصمون من الخطأ. فيقال «تكلم اناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس» وهنا لا يفقد المتكلم او الكاتب شيئاً من شخصيته وانما يؤثر فيه الروح الالهي بحيث يستعمل ما عنده من القوى والصفات وفق إرشاده تعالى . ولهذا نرى في كل مؤلف من الكتاب الكرام ما امتاز به من المواهب الطبيعية ونمط التأليف وماشابه ذلك وفي شرح هذا التعليم دقة. وقد اختلف العلماء فيما اوردوه من شرحه ، غير ان جميع المسيحيين يتفقون على ان الله قد اوحى لأولئك الكتاب ليدونوا إرادته ويفيدوا الانسان ما يجب عليه من الايمان والعمل لكي ينال الخلاص الابدي» اه

تعريف النبوة والانبياء عندهم

وجاء في تفسير «نبي انبياء نبوة» منه ما نصه:

«النبوة لفظة تفيد معنى الاخبار عن الله وعن الامور الدينية ولا سيما عما سيحدث فيما بعد . وسمي هارون نبيا لانه كان الخبير والمتكلم عن موسى نظرا لفصاحته . أما انبياء العهد القديم فكانوا يفاذون بالشريعة الموسوية ، وينبئون بمجيء المسيح . ولما قلت رغبة الكهنة وقل اهتمامهم بالتعليم والعلم في ايام صموئيل أقام مدرسة في الرامة وأطلق على تلامذتها اسم بني الانبياء فاشتهر من ثم صموئيل بإحياء الشريعة وقرن اسمه باسم موسى وهارون في مواضع كثيرة من الكتاب وتأسست أيضا مدارس أخرى للانبياء في بيت ايل وأريحا والجلجال وأماكن أخرى . وكان رئيس المدرسة النبوية يدعى ابا اوسيدا ، وكان يعلم في هذه المدارس تفسير التوراة والموسيقى والشعر ، ولذلك كان الانبياء شعراء وأغلبهم كانوا يرتمون ويلهبون على آلات الطرب . وكانت الغاية من هذه المدارس أن يرشح الطلبة فيها لتعليم الشعب . أما معيشة الانبياء وبني الانبياء فكانت ساذجة للغاية ، وكثير منهم كانوا متنسكين او طوافين يضافون عند الاتقياء

« ويظهر ان كثيرين من الذين تعلموا في تلك المدارس لم يعطوا قوة على الانباء بما سيأتي ، انما اخص بهذه الخصوصية اناس منهم كان الله يقيمهم وقتنا دون آخر حسب مشيئته ، وبعدمهم بتربية فوق العادة لواجباتهم الخطيرة . على ان بعض الانبياء الملهمين كان يختصهم الله بوحيه ولم يتعلموا من قبل ولا دخلوا تلك المدارس كما موسى مثلاً فانه كان راعياً و جاني جيز . اما النبوة فكانت على انواع مختلفة كالا حلام والرؤى والتبليغ . وأحياناً كثيرة كان الانبياء يرون الامور المستقبلية بدون تمييز ازمتهها فكانت تقترن في رؤاهم الحوادث القريبة العهد مع البعيدة كاقتران نجاة اليهود من الاشوريين بخلاص العالم بواسطة المسيح ، وكانتصار اسكندر ذي القرنين باتيان المسيح ، وكاقتران انسكاب الروح القدس يوم الخميس بيوم الحشر . ومن هذا القبيل اقتران خراب اورشليم بحوادث يوم الدينونة

« وقد ارسل الله الانبياء الملهمين ليمانوا مشيئته وليصالحوا الشؤون الدينية وعلى الاخص ليخبروا بالمسيح الآتي لتخليص العالم : وكانوا القوة العظيمة الفعالة في تعليم الشعب وتنبئهم وارشادهم الى سبيل الحق . وكان لهم دخل عظيم في الامور السياسية اه بنصه

مايرد على نبوتهم من تعريفها

أما تفسيره الإلهام بحلول روح الله في روح الملهم فهو تحكم للنصارى لا يعرفه ولا يعترف به أنبياء بني اسرائيل ولا علماءهم . ولا يمكنهم إثباته ولا دفع ما يرد عليه من وقوع التعارض والتناقض والخلاف فيما كتبه أو أمرك الملهمون وما خالفوا فيه الواقع ، وقد أشار الى ذلك بقوله : ان في شرح ذلك التعليم دقة وان العلماء اختلفوا في شرحه الخ ، ومن حل فيه روح الله صار الها اذ المسيح لم يكن الها عند النصارى الا بهذا الحلول فكيف يقع في مثل ما ذكره ويتخلف وحيه او يخالف الواقع ؟ وأما كلامه في النبوة والانبياء فيؤخذ منه ما يأتي :

« ١ » ان أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا يتخرجون في مدارس خاصة بهم يتعلمون فيها تفسير شريعتهم التوراة والموسيقى والشعر وأنهم كانوا شعراء ومغنين وعزافين على آلات الطرب وبارعين في كل ما يؤثر في الانفس ويحرك الشعوب

والوجدان ، وبثير روا كد الخيال ، فلا غرو أن يكون عزرا ونحميا من أعظم أنبيائهم ساقين من سقاة الحجر الملك بابل (ارتحششتا) ومغنين له ، وان يكونا قد استعانا بتأثير غذائهما في نفسه على سماحه لها بالعودة بقومها الى وطنها واقامة دينها فيه فالنبوة على هذا كانت صناعة تعلم موادها في المدارس ويستعان على الاقناع بها بالتحخييلات الشعرية والاطامات الكلامية ، وللاثرات الغنائية والموسيقية . والمعلومات المكتسبة . فأين هي من نبوة محمد الأبي الذي لم يتعلم شيئاً ولم يقل شعراً ، وقد جاء بأعظم مما جاءوا به كلهم ؟

« ٢ » ان كثيراً من هؤلاء الانبياء وأولادهم كانوا متنسكين أو طوافين على الناس يعيشون ضيوفاً عند الاتقياء المحيين لرجال الدين كما هو اليهود من دراويش المتصوفة أهل الطرق في المسلمين ، ومن المعلوم أن هؤلاء هم الذين يقبلون من رجال التنسك كل ما يقوتون ، ويسلمون لهم ما يدعون ، ويذيعون عنهم كل ما يقبلون منهم ، ومن غير هؤلاء الكثرين من الانبياء من نقلت عنهم كتبهم المقدسة بعض كبار المعاصي ، وان من أخبار الصوفية والنسك والسياح عند المسلمين من تفضل سيرتهم سيرة هؤلاء الانبياء في كتبهم ، فكيف يصح أن يرتفع أحد منهم الى درجة محمد ﷺ في نشأته الفطرية ومعيشته من كسبه ، وكونه لم يكن عالة على الناس في شيء قبل النبوة ولا بعدها

« ٣ » أشهر أنواع نبوتهم الاحلام والرؤى المنامية والتخيلات المبهمة وكلها تقع لغيرهم ، وقد كانت الرؤيا الصادقة مبدأ نبوة محمد ﷺ قبل وحي التشريع الذي كان له صور أعلى منها سببها بعد . والرؤى صور حسية في الخيال تذهب الآراء والافكار في تعبيرها مذاهب شتى قلما يعرف تأويل الصادق منها غير الانبياء كرويا غلك مصر التي عبرها يوسف عليه السلام ، ورؤياه هو في صغره

« ٤ » ان نبوة الاخبار عن الامور المستقبلية وهي التي يستدلون بها على كونهم مخبرين عن الله تعالى كانت أحياناً كثيرة بدون تمييز أزمنتها ولا حوادثها فكان بعضها يختلط ببعض فلا يكاد يظهر المراد منها إلا بعد حملها على شيء واضح بعد وقوعه كما يهد في كل عصر من أخبار العرافين والذنجمين ، بله الروحانيين المكشفين ،

فمنها ما ظهر خلافه كما أشار إليه ولم يشرحه ولكن التاريخ شرحه . وكان أعظم نبوات هؤلاء الانبياء إخبارهم عن المسيح (مسيا) ومثلك اسرائيل ثم اخبار المسيح نفسه عن خراب العالم ومجيء الملكوت لاجل دينونية العالم وانه لا ينقضي الجيل الذي خاطبه حتى يكون ذلك كله . وقد مر أجيال كثيرة ولم يكن من ذلك شيء

امتياز نبوة محمد على نبوة من قبله

فأني تضاهي هذه الاخبار (النبوات) وهي كما علمت أنباء القرآن الكثيرة بالمقبيات كالذي بيناه في خلاصة تفسير السورة السابقة مما وقع من المنافقين وما هو في سورة الفتح . وقوله تعالى في أول سورة الروم (غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيفعلون في بضع سنين) الآية ، وقوله (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) وأين هي من إنباء النبي ﷺ أصحابه بأنهم سيبتحون بعلمه بلاد الشام وبلاد الفرس ومصر وسيتولون على ملك كسرى وقيصر حتى انه سمي كسرى عصره باسمه كإرواء البخاري عن عدي بن حاتم الخ ؟ هذا ما يقال بالاجمال في أحد موضوعي النبوة وهو الاخبار عما سيكون في مستقبل الزمان ، فما جاء به محمد ﷺ منها في وحي القرآن وغيره أظهر وأوضح وأبعد عن احتمال التأويل ، وأعصى على إنكار المرتابين ، ويزيد عليه ما جاء به من أنباء الغيب الماضية ، وما ذكر ما يتأوله به الجاحدون للنبوة والوحي في بيان بطلان شبهتهم وأما الموضوع الثاني للنبوة وهو الأهم الاعظم أي عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فالنظر فيه من وجهين (أحدهما) ما ذكره من كونه لا يمكن أن يصل إليه عقل من جاء به وفكره ولا علومه ومعارفه الكسبية فيتمين أن يكون بوحي من الله (وثانيهما) أن يكون ما فيه من هداية الناس وصلاح أمورهم في دينهم ودنياهم أعلى في نفسه من معارف البشر في عصره ، فيتمين أن يكون وحياً

فأما الاول الخاص بشخص الرسول فان العاقل المستقل المفكر إذا عرف تاريخ محمد ﷺ وتاريخ انبياء بني اسرائيل عليهم السلام فانه يرى أن محمداً ﷺ قد نشأ أمياً لم يتعلم القراءة ولا الكتابة ، وان قومه الذين نشأ فيهم كانوا أميين وثنيين جاهلين بعقائد الملل وتواريخ الامم وعلوم التشريع والفلسفة ، حتى إن مكة عاصمة بلادهم وقاعدتهم

دينهم، ومثوى كبراهم ورؤسائهم، ومثابة الشعوب والقبائل للحج والتجارة فيها، والمفاخرة بالفصاحة والبلاغة في أسواقها التابعة لها، لم يكن يوجد فيها مدرسة ولا كتاب مدون قط، فما جاء به من الدين التام الكامل، والشرع العام العادل، لا يمكن ان يكون مكتسباً ولا ان يكون مستنبطاً بعقله وفكره كما بيناه من قبل، وسندفح ما يرد من الشبهة عليه في القسم الثاني من هذا الفصل

ويرى تجاه هذا أن موسى أعظم اولئك الانبياء في عمله وفي شريعته وفي هدايته قد نشأ في اعظم بيوت الملك لأعظم شعب في الارض وأرقاه تشرعاً وعلماً وحكمة وفناً وصناعة، وهو بيت فرعون مصر، ورأى قومه في حكم هذا الملك القوي القاهر مستعبدين مستذابين، تدبج أبناؤهم وتستحيا نساؤهم، تمهداً لغنائمهم ومخوهم من الارض، ثم انه مكث بضع سنين عند حيه في مدين وكان نبياً - او كاهناً كما يقولون - فمن ثم يرى منكرو الوحي ان ماجاء به موسى من الشريعة الخاصة بشعبه ليس بكثير على رجل كبير العقل عظيم الهمة، ناشئ في بيت الملك والتشريع والحكمة الخ ثم ظهر في أوائل هذا القرن الميلادي ان شريعة التوراة موافقة في اكثر أحكامها لشريعة حورابي العربي ملك الكلدان الذي كان قبل موسى وقد قال الذين غثروا على هذه الشريعة من علماء الالمان في حقائر العراق انه قد تبين أن شريعة موسى مستمدة منها لا وحي من الله تعالى كما شرحنا ذلك في مجلد المنار السادس وذكرنا خلاصته في تفسير سورة التوبة (٩: ٣٠) وهو في [ص ٣٤٨ ج ١٠] وأقل ما يقوله مستقل الفكر في ذلك انه ان لم تكن التوراة مستمدة منها فلا تعد أحق منها بأن تكون وحيًا من الله تعالى، ولم ينقل ان حورابي ادعى ان شريعته وحي من الله تعالى ثم يري الناظر سائر انبياء العهد القديم كانوا تابعين للتوراة متعبدين بها، وانهم كانوا يتدارسون تفسيرها في مدارس خاصة بهم وبأبنائهم مع علوم أخرى، فلا يصح أن يذكر أحدهم مع محمد، ويرى أيضا أن يوحنا المعمدان الذي شهد المسيح بتفضيله عليهم كلهم لم يأت بشرع ولا بنبأ غيبي - بل يرى ان عيسى عليه السلام وهو أعظمهم قدراً وأعلامهم ذكراً، وأجلهم أثراً، لم يأت بشريعة جديدة بل كان تابعاً لشريعة التوراة مع نسخ قليل من أحكامها، وإصلاح روحي أدبي لوجود اليهود المادي على ظواهر ألفاظها، فأمكن لجاحدي الوحي أن يقولوا انه لا يكتر على رجل مثله زكي

الغطرة ذكي العقل نائيء في حجر الشريعة اليهودية، والمدنية الرومانية، والحكمة اليونانية، غلب عليه الزهد والروحانية، أن يأتي بتلك الوصايا الادبية، ونحن المسلمين لا نقول هذا وإنما يقوله الماديون والملحدون والعقلون وألوف منهم ينسبون إلى المذاهب النصرانية

وأما الوجه الثاني وهو عقائد الدين وعباداته وآدابه وأحكامه فلا يرتاب العقل المستقل المفكر غير المقلد لدين من الاديان أن عقائد الاسلام من توحيد الله وتزبيبه عن كل نقص، ووصفه بصفات الكمال، والاستدلال عليها بالدلائل العقلية والعلمية الكونية، ومن بيان هداية رسله، ومن عباداته وآدابه التزكية للنفس المرقية للعقل، ومن تشريعه العادل وحكمه الشوري المرقى للاجتماع البشري - كل ذلك أرقى مما في التوراة والاناجيل وسائر كتب العهد القديم والجديد، بل هو الاصلاح الذي بلغ به دين الله أعلى الكمال، ويشهد بهذا علماء الافرنج وقد شرحناه من وجهة نظرنا وجهة نظرهم في مواضع من المنار والتفسير [آخرها ص ٣٥٩ ج ١٠ تفسير]

ومن نظر في قصة آدم ونوح و ابراهيم ولوط واسحاق ويعقوب ويوسف من سفر التكوين وسيرة موسى وداود وسليمان وغيرهم من الانبياء في سائر أسفار العهد القديم، ثم قرأ هذه القصص في القرآن يرى الفرق العظيم في الاهتداء بسيرة هؤلاء الانبياء العظام، ففي أسفار العهد القديم يرى وصف الله تعالى بما لا يليق به من الجبل والندم على خاق البشر والانتقام منهم، ووصف الانبياء ايضاً بما لا يليق بهم من المعاصي مما هو قدوة سوءى، من حيث يجحد في قصص القرآن من حكمة الله تعالى ورحمته وعدله وفضله وسننه في خلقه، ومن وصف انبيائه ورسله بالكمال وأحسن الاعمال، ما هو قدوة صالحة وأسوة حسنة تزيد قارتها ايماناً وهدى، فأخبار الانبياء في كتب المهدين تشبه بستانا فيه كثير من الشجر والعشب والشوك، والثمار والازهار والحشرات، وأخبارهم في القرآن تشبه العطر المستخرج من تلك الازهار، والعسل المشتار من تلك الثمار، ويرى فيه رياضاً أخرى جمعت جمال الكون كله وندع هنا ذكر ما كتبه علماء الافرنج الاحرار في نقد هذه الكتب والطعن فيها، ومن أخصرها وأغربها كتاب (أضرار تعليم التوراة والانجيل) لاحد علماء الانكليز، وما فيها من مخالفة العلم والعقل والتاريخ، والقرآن خال من مثل ذلك

(صد الكنيسة عن الاسلام وبنيه عوجا)

ان رجال الكنيسة لم يجدوا ما يصدون به اتباعها عن الاسلام بعد ان رأوه قد قضى على الوثنية والمجوسية وكاد يقضي على النصرانية في الشرق ثم امتد نوره إلى الغرب الا تأليف الكتب ونظم الاشعار والاغاني في ذم الاسلام ونبيه وكتابه بالافك والبهتان وغش الكلام الذي يدل على أن هؤلاء المتدينين اكذب البشر واشدم عداوة للحق والفضيلة في سبيل رياستهم التي يتبرأ منها المسيح عليه صلوات الله وسلامه وقد كان أتباعهم يصدقون ما يقولون ويكتبون ، وبهم يحجون بما ينظمون وينشدون ، حتى اذا ما اطلع بعضهم على كتب الاسلام ورأوا المسلمين وعاشروهم فضحواهم اقبح الفضائح ، كما ترى في كتاب (الاسلام خواطر وسوانح) للكونت دي كاستري وكما ترى في الكتاب الفرنسي الذي ظهر في هذا العهد باسم (حياة محمد) للموسيو درمنغام وهذا الكتابان افرنسيان من طائفة الكاثوليك اللاتين ، وقد صرحا كغيرهما بان كنيستهم هي البادية بالظلم والعدوان ، والافك والبهتان ، وبأدب المسلمين في الدفاع (*)

(*) قال موسيو درمنغام ما ترجمته العربية بقلم الدكتور محمد بك حسين هيكل : لما نشبت الحرب بين الاسلام والمسيحية اتسعت هوة الخائف وسوء الفهم بطبيعة الحال وازدادت حدة ويجب أن يعترف الانسان بأن الغربيين كانوا السابقين الى أكبر الخلاف . فن الجادين البيزنطيون الذين أوقروا الاسلام احتقاراً من غير أن يكفوا أنفسهم فيما خلا جان داماسين مؤنة دراسته ولم يجارب الكتاب والنظامون (بعض الشعراء) مسلمي الاندلس الا بأسخف المناب . فقد زعموا محمداً لس نياق (؟) وزعموه متها كعالي الله وزعموه ساحراً وزعموه رئيس عصاة من قطاع الطرق بل زعموه قسا رومانياً مغيباً ان لم ينتخب لكنسي البابوية . . وحسبه بعضهم لها زائماً «لـقرب له عباد الضحايا البشرية» وان جبير دنونج نفسه وهو رجل جد ليدكر ان محمداً مات في نوبة سكر بين (كذا) وان جسده وجد ملقى على كوم من الروث وقد أكلت منه الحنازير وذلك ليقسر السبب الذي من أجله حرم الخمر وحرم لحم ذلك الحيوان . . . وذهبت الاغنيات الى حدان جعلت محمداً صنمان ذهب وجعلت المساجد الاسلامية براقي (معاً بد أبنام) ملاي بالثاميل والصور . وقد تحدث واضع اغنية أنطاكية حديث من رأى صنم «ماحوم» مصنوعاً من ذهب ومن فضة خالصين وقد جلس فوق قبيل على مقعد من النسيبساء وأما اغنية رولان التي تصور فرسان شارلمان يحطمون الاوثان الاسلامية فتزعم ان مسلمي الاندلس يعبدون ثالوثاً مكوناً من ترفاجان وماهوم (هو ماحوم ويعنون به محمد) وابولون . وتحسب «قصة محمد» ان الاسلام يبيح للمرأة تعدد الأزواج . وقد ظلت حياة الاقباد والخرافات قوية متشبثة بالحياة . فنند رودلف دلوهيم الى وقتنا الحاضر . قام نيكولا دكين وفيفس ومراتشي وهو تنجر وبيليا نلاز وبريدوغيرهم فوصفوا محمداً بأنه نهجال والاسلام بأنه مجموعة من الهطقات (الكفر) كلها وأنه من عمل الشيطان والمسلمين بأنهم وحوش والقرآن بأنه نسيح من السخافات . اه المراد منه على كثرته واهتمامي ترجمته ، وهو قليل من اسرافهم .

ولما ظهرت طائفة البروتستان وغلب مذهبها في شعوب الأنجلوسكسون والجرمان، وكان الفضل في دعوتهم الإصلاحية لما انعكس على أوربة من نور الاسلام، لم يتعفف قسوسهم ودعاتهم (المبشرون) عن افتراء الكذب، ولا تجملوا فيه بشيء من انزاهة والادب، والذي نراه في هذا العصر من مطاعنهم وافتراءهم وسوء أدبهم أشد مما نراه من غيرهم، ولكن الذين أنصفوا الاسلام من أحرار علماءهم اصرح قولا، واعلمهم أكثر من الالابن عدداً، وكذلك الذين اهدوا به، وسبب ذلك أن الحرية والاستقلال في تربيتهم أقوى، وسيكونون هم الذين ينشرون الاسلام في أوربة والولايات المتحدة الاميركانية ثم في سائر العالم كما جزم العلامة برناردشو الانكليزي في كتابه الحياة الزوجية

مسألة الآيات والعجائب أي الخوارق

بقي الكلام في مسألة العجائب التي بنيت على أساسها الكنائس النصرانية على اختلاف مذاهبها، وفيما يدعونه من مجرد محمد ﷺ من لباسها، وهي قد أصبحت في هذا العصر حجة على دينهم لاله، وصادة للعلماء والعقلاء عنه لا مقنعة به، ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي ايد بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الافرنج عليه أكثر، واهتدأؤهم به أعم وأسرع، لأن أساسه قديني على العقل والعلم وموافقة الفطرة البشرية، وتزكية أنفس الافراد، وترقية مصالح الاجتماع، وأما آيته التي احتج بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن، وأمية محمد عليه الصلاة والسلام، فهي آية علمية تدرك بالعقل والحس والوجدان

كفناك بالعلم في الامي معجزة في الجاهلية والتأديب في اليم

واما تلك العجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها. وأمثال هذه الامور تقع من اناس كثيرين في كل زمان والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين العتيق والجديد وعن مناقب القديسين وهي من منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر، وسندين ما جاء به الاسلام فيها من الفصل

العجائب وما للمسيح منها

جاء في تعريف العجائب وأنواعها من قاموس الكتاب المقدس ما نصه :

«عجبة: حادثة تحدث بقوة الهبة خارقة مجرى العادة الطبيعية لإثبات إرسالية من جرت على يده أوفيه. والعجبة الحقيقية هي فوق الطبيعة لاضدها تحدث بتوقيف نواميس الطبيعة لا بما كستها، وهي اظهار نظام اعلى من الطبيعة يخضع له النظام الطبيعي، ولنا في فعل الارادة مثال يظهر لنا حقيقة امر العجائب اذ بها نرفع اليد وبذلك نوقف ناموس الثقل ويتسلط الله على قوى الطبيعة ويرشدها ويمد مدارها او يحصره لانها عوامل لمشيئته. ويناط فعل العجائب بالله وحده وبمن سمح له بذلك «واذا آمننا بالاله القادر على كل شيء لم يعسر علينا التسليم بإمكان العجائب وكانت العجبة الاولى خليقة الكون من العدم بإرادته تعالى. اما المسيح فاقنومه عجبية ادبية عظيمة، وعجائبه لم تكن الا اظهار هذا الاقنوم واعماله، واذا آمننا بالمسيح ابن الله العديم الخطية لم يعسر علينا تصديق عجائبه. اما الشيطان فعجائبه كذابه «ولا بد من العجائب لتعزيز الديانة فكثيرا ما يستشهد المسيح بعجائبه لإثبات لاهوته وكونه المسيح، وكان يفعلها لتجديد الله ولتمنعة نفوس الناس وابدانهم، وكان يفعلها ظاهراً امام جماهير اصحابه واعدائه ولم ينكرها اعداؤه غير انهم نسبوها لبعازبول (١) وسواء امتحنها بالشهادة من الخارج وبمناسبتها الى إرساليته الإلهية ظهرت لكل من كان خالياً من الغرض صحيحة. فاذا لم نعلم بصحتها التزمنا ان نقول بان مقررها كذابون الامر الذي لا يسوغ ظنه بالمسيح والرسول

«وبقيت قوة العجائب في عصر الرسل ولما امتدت الديانة المسيحية زال الاضطراب اليها (٢) ولا يلزمنا الآن سوى العجائب الادبية الحاصلة من هذه الديانة. مع الشواهد الداخلية على صحتها غير انه يمكن لله تعالى ان يجددها في أي وقت شاء» اهـ

ثم وضع المؤلف جدولاً احصى فيه عجائب العهد القديم من خراب سدوم

١) اي الى الشيطان والاناجيل تثبت العجائب للشيطان كما صرح به آتفا
 ٢) هذا مذهب البروتستانت واما الكاثوليك فيدعون وجودها في كل عصر

وعمورة على قوم لوط الى «خلاص يونان (يونس) بواسطة حوت» فبلغت ٦٧ عجيبة
 ووقفى عليه بجدول العجائب المقرورة بحياة المسيح من الحبل به «بفعل الروح القدس»
 الى «الصعود إلى السماء» فبلغت ٣٧. وعزز الجدولين بثالث في «العجائب التي
 جرت في عصر الرسل» اي الذين بشوا دعوة المسيح من تلاميذه وغيرهم من
 «انسكاب الروح القدس يوم الخمسين» الى «شفاء أي بوبليوس وغيره» فكانت
 عشرين. وقد صرح بان يوحنا المعمدان لم يرد في الكتاب انه صنع عجائب

بحث في عجائب المسيح عليه السلام

اقول: ان ٢٧ من عجائب المسيح المذكورة شفاء مرضى ومجانين لا يستهم
 الشياطين وثلاث منها إقامة موتى عقب موتهم وما بقي فمسألة الحبل به وتحويله الماء الى
 خمر وسحب الشبكة في بحر الجليل، واشباع خمسة آلاف مرة واربعه آلاف مرة أخرى،
 وضرب التينة العقيمة بما أبيضها، وقيامه المسيح وصيد السمك والصعود. واننا
 نلخص رواية الاناجيل لأهمها وهو إحياء الموتي ونذكر ما يقوله فيها منكرو العجائب
 الميت الاول شاب من مدينة نابين كان محمولا في جنازة وأمه تبكي فاستوقف
 النعش وقال له: أيها الشاب لك أقول قم. فجلس وابتدأ يتكلم فدفعه إلى أمه فأخذ
 الجميع خوف ومجدوا الله قائلين قد قام فينا نبي عظيم وافتقد الله شعبه (لوقا: ١١: ١٦)
 الثاني صببية ماتت فقال له أبوها وكان رئيساً: ابنتي الآن ماتت لكن تعال
 فضع يدك عليها فتحيها. فجاء بيت الرئيس ووجد اللزميرين والجمع يضعجون فقال
 لهم «تنحوا فان الصبية لم تمت لكنها نائمة» فضحكوا عليه فلما أخرج الجمع دخل
 برأسك بيدها فقامت الصبية (مت ٩: ١٨ - ٢٤)

فمنكرو العجائب يقولون ان كلا من الشاب والشابة لم يكونا قد ماتا بالفعل
 وان كثيراً من الناس في كل زمان قد قاموا من نعوشهم بل من قبورهم بعد أن
 ظن الناس انهم ماتوا. ولذلك تمنع الحكومات المدنية دفن الميت إلا بعد أن يكتب
 أحد الاطباء شهادة بموته. وللمؤمنين بالآيات أن يجزموا أيضاً بأن الصبية لم تكن
 ميتة أخذنا بظاهر قوله عليه السلام

وأما الثالث فهو « ليعازر » حبيبه وأخو مرثا ومريم حبيبتيه : مرض في قريتهم « بيت عنيا » فأرسلنا إلى المسيح قائليتين « هو ذا الذي تجبه مريض » فكث يومين وحضر فوجد أنه مات منذ أربعة أيام فلاقته مرثا وقالت : يا سيد لو كنت هنا لم يمت أخي ، ثم دعت أختها مريم فلما رآته خرت عند رجله قائلة كما قالت مرثا وكانوا قد ذهبوا إلى عند القبر للكبكاه ، فلما رأها تبكي واليهود الذين جاءوا معها يبكون . « انزعج بالروح واضطرب » وقال « أين وضعتموه ؟ » فدلوه عليه فبكى وانزعج في نفسه وجاء إلى القبر وكان مغارة وقد وضع عليه حجر ، فأمر برفم الحجر فرفعه . « ورفع يسوع عينيه إلى فوق وقال : أيها الأب أشكرك لأنك سمعت لي ، وأنا علمت أنك في كل حين تسمع لي ، ولكن لاجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتني » ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم « لعازر ! هلم خارجا » فخرج الميت ويده ورجلاه مربوطتان بأقطة ووجهه ملفوف بمنديل ، فقال لهم يسوع : حلوه ودعوه يذهب . اهـ ماخصاً من الفصل ١١ من الإنجيل يوحنا

أندري أيها القارىء ما يقول منكرو العجائب والآيات في هذه القصة على تقدير صحة الرواية ؟ اني سمعت طبيباً سوريا بروتستنتياً يقول انها كانت بتواطؤ بينه وبين حبيبتيه وحبيبه لاقتناع اليهود بنبوته . وحاشاه عليه السلام . وانما نبتل هذا لنين أن النصرى لا يستطيعون إقامة البرهان في هذا العصر على نبوة المسيح فضلا عن ألوهيته بهذه الروايات التي تدل على النبوة وتنفي الألوهية ، كما فهم الذين شاهدوها ، لانه ليس لها أسانيد متصلة إلى كاتبها ، ولا دليل على عصمتهم من الخطأ في روايتها ، دع قول المنكرين باحتمال الاحتمال والتلبس أو المصادفة فيها ، أو عدمها ايها على تقدير ثبوتها من فلتات الطبيعة

وإذا كان اعظمها وهو احياء الميت يحتمل ما ذكرنا من التأويل فما القول في شفاء المرضى واخراج الشياطين الذي يكثُر وقوع مثله في كل زمان والاطباء كلهم يقولون ان ما يدعي العوام من دخول الشياطين في اجساد الناس ما هو الامراض عصبية تشفى بالمعالجة أو بالوهم والاعتقاد . ودونها مسألة الحجر والسماك ويبس التينة

آية نبوة محمد عقلية علمية وسائر آياته الكونية

هذا وان مارواه المحدثون بالاسانيد المتصلة تارة وبالرسالة اخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمدًا ﷺ هي اكثر من كل مارواه الانجيليون وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين ولا أمر بتلقيها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها وفي موضوعها، لان البشر قد بدأوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في سنن الكون، بل لا يكفل ارتقاؤهم واستعدادهم بذلك بل هو من مواضعه فجعل حجة نبوة خاتم النبيين عين موضوع نبوته وهو كتابه المعجز للبشر بهديته وعلومه وإعجازه اللفظي والمعنوي (كما بيناه في تفسير سورة البقرة) ليربي البشر على الترقى في هذا الاستقلال ، إلى ما هم مستعدون له من الكمال

هذا الفصل بين النبوات الخاصة الماضية ، والنبوة العامة الباقية ، قد عبر عنه النبي ﷺ بقوله « ما من الانبياء من نبي إلا وقد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر . وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » متفق عليه من حديث أبي هريرة (رض)

وقص الله تعالى علينا في كتابه ان المشركين اقترحوا الآيات الكونية (العجائب) على رسوله فاحتج عليهم بالقرآن في جملته وبما فيه من أخبار الرسل والكتب السابقة التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وبهدياته وعلومه وإعجازه، وعدم استطاعة احد ولا جماعة ولا العالم كله على الاتيان بمثله (١٧: ٨٨) فلئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً) وأما ما أكرمه الله تعالى به من الآيات الكونية فلم يكن لاقامه الحجة على نبوته ورسالته بل كان من رحمة الله تعالى وعنايته به وبأصحابه في الشدائد كنصرهم على المعتدين عليهم من الكفار الذين يفوقونهم عدداً وعدداً واستعداداً بالسلاح والطعام وناهيك بغزوة بدر والنصر فيها، ثم بغزوة الاحزاب إذ تألب المشركون واليهود

على المسلمين وأحاطوا بمد يديهم فردهم الله بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال من تلك الآيات شفاء المرضى وابصار الاعمى وإشباع العدد الكثير من الطعام القليل في هذه الغزوة وفي غزوة تبوك كما وقع للمسيح عليه السلام . ومنه تسخير الله السحاب لاسقاء المسلمين وتثبيت أقدامهم التي كانت تسيخ في الرمل بيدرو لم يصب المشركين من غيظها شيء . ومثل ذلك في غزوة تبوك إذ نفذ ماء الجيش في الصحراء والحر شديد حتى كانوا يذبحون البعير ويخرجون الفرث من كرشه فيمتصروه ويبلوا به ألسنتهم على قلة الرواحل معهم ، وكان يقل من يجد من عصارته ما يشربه شرباً ، فقال أبو بكر يا رسول الله إن الله عودك في الدعاء خيراً فادع لنا ، فرفع يديه فدعا فلم يرجعها حتى كانت السماء قد سكبت لهم مأملاً واممهم من الروايا ولم تتجاوز عسكرهم

تأثير العجائب في الافراد والامم

لقد كانت آيات المرسلين حجة على الجاحدين المعاندين استحقوا بيجودها عذاب الله في الدنيا والآخرة ، ولم يؤمن بها من شاهدها إلا المستعدون للايمان بها : ان فرعون وقومه لم يؤمنوا بآيات موسى ، وإن أكثر بني اسرائيل لم يعقلوها ، وقد اتخذوا العجل وعبدوه بعد رؤيتها . وقال اليهود في المسيح لولا انه رئيس الشياطين لما اخرج الشيطان من الانسان . وقالوا ان ابليس أو بعازبول يفعل اكبر من فعله ، وما كان أكثرهم مؤمنين . وقال المنافقون وقد رأوا بأعينهم سحابة واحدة في ابان القيظ قد مطرت عسكر المؤمنين وحده عند دعاء النبي ﷺ : اننا مطرنا بتأثير النوء لا بدعائه .

وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات انما خضعت أعناقهم واستخذت انفسهم لما لا يعقلون له سبباً وقد انطوت الفطرة على أن كل ما لا يعرف له سبب فلا يبي به مظهر للخالق سبحانه ان لم يكن هو الخالق نفسه ، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه لاسحرة والمشعوذين والدجالين ولا يزالون كذلك وقد نقلوا عن المسيح عليه السلام انه سيأتي بعده مسحاء كذبة وأنبياء كذبة

يونس :س ١٠ .الاسلام هو الدين الوحيد الذي ثبت كتابه وتاريخه بالتواتر ١٦٦

ويمطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضاً (متى ٢٤ : ٢٤)
وقد ذكر في قاموس الكتاب المقدس عدداً كثيراً منهم وأسماء بعضهم . وأقول :
ان منهم القادياني الذي ظهر من مسلمي الهند ، وتذكر صحف الأخبار ظهور هندي
آخر يريد اظهار عجائبه في أمريكا في هذا العام ونقلوا عن المسيح أنه قال : « الحق
اقول لكم ليس كل نبي مقبول في وطنه » وجعل القاعدة لمعرفة النبي الصادق تأثير
هدايته في الناس لا الآيات والعجائب فقال « من ثارهم تعرفونهم » ولم يظهر
بعده - ولا قبله - نبي كانت ثماره الطيبة في هداية البشر كثار محمد ﷺ
ولا احد يصدق عليه قوله في انجيل يوحنا (١٦ : ١٢) ان لي أموراً كثيرة ايضاً
ولكن لا تستطيعون ان تحملوها الآن وأمامتي جاء ذاك (أي البارقليط) روح الحق
فهو يرشدكم الى جميع الحق) الخ وما جاء بعده نبي أرشد الناس الى جميع الحق في
الدين من توحيد وتشريع وحكمة وتأديب غير محمد رسول الله وخاتم النبيين

ومن استقرأ تواريخ الامم علم ان أهل الملل الوثنية اكثر اعتماداً على العجائب
من أهل الاديان السماوية ، ورأى الجميع ينقلون منها عن معتقديهم من الاولياء
والقديسين ، اكثر مما نقلوا عن الانبياء المرسلين ، وان اكثر المصدقين بها من الخرافيين

ثبوت نبوة محمد بنفسها واثباتها لغيرها

وجملة القول ان نبوة محمد ﷺ قد ثبتت بنفسها ، أي بالبرهان العلمي والعقلي
الذي لا ريب فيه لا بالآيات والعجائب الكونية ، وان هذا البرهان قائم مائل للعقول
والحواس في كل زمان ، وانه لا يمكن اثبات آيات النبيين السابقين إلا بثبوت نبوته ﷺ
وهذا القرآن الذي جاء به ، فالحجة الوحيدة عليها في هذا الطور العلمي الاستقلالي من
اطوار النوع البشري هو شهادته لها . فان الكتب التي نقلتها لا يمكن اثبات عزوها الى
من عزيت اليهم ، اذ لا يوجد نسخ منها منقولة عنهم باللغات التي كتبوها بها لا تواتر
ولا آحاداً ، ولا يمكن إثبات عصمتهم من الخطأ فيما كتبوه على اختلافه وتناقضه ،
وتعارضه ، ولا اثبات صحة التراجم التي نقلت منها ، كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل مراراً
الكتاب الالهي الوحيد الذي نقل بنصه الحرفي تواتراً عن جاء به بطريقتي

الحفظ والكتابة معا هو القرآن ، والنبي الوحيد الذي نقل تاريخه بالروايات المتصلة الاسانيد حفظا وكتابة هو محمد (ص) فالدين الوحيد الذي يمكن للعلماء المستقلين في الفهم والرأي ان يعقلوه ويبنوا عليه حكمهم هو الاسلام . وأما خلاصة ما يمكن الاعتراف به من الاديان السابقة لثبوت قضاياء الاجمالية بالتواتر المعنوي ، فهو انه وجد في جميع امم الحضارة القديمة دعاة الى عبادة الله تعالى والى العمل الصالح والى ترك الشرور والذائل منهم انبياء مبلغون عن الله تعالى بمبشرين ومنذرين ، كما انه وجد فيهم حكماء يبنون ارشادهم على الاحتجاج بما ينفع الناس ويضرهم بحكم العقل والتجربة - ووجد في جميع ما نقل عن الفريقين أمور مخالفة للعقل ولما ينفع الناس ، وأمر خاصة بأهلها وزمانهم ، وخرافات ينكرها العقل وينقضها العلم واذا كان الاسلام ونبيه هو الدين الوحيد الذي عرفت حقيقته وتاريخه بالتفصيل فاننا نذكر هنا شبهة علماء الافرنج الماديين ومقلداتهم عليه ، بدمقدمة في شهادتهم الاجمالية له ، تمهيداً لدحض الشبهة ، ونهوض الحجة ، فنقول :

(درس علماء الافرنج للسيرة المحمدية وشهادتهم بصدقه ﷺ)

درس علماء الافرنج تاريخ العرب قبل الاسلام وبعده على طريقتهم في النقد والتحليل ، ودرسوا السيرة النبوية المحمدية وفلأوها فلأيا ونقشوها بالمناديش ، وقرؤا القرآن بلغته وقرؤا ما ترجمه به أقوامهم ، وكانوا على علم محيط بكتب العهدين القديم والجديد ، وتاريخ الأديان ولا سيما الديانتين اليهودية والنصرانية ، وبما كتبه المتعصبون للكنيسة من الافتراء على الاسلام والنبي والقرآن مما أشرنا إلى بعضه آنفاً ، فخرجوا من هذه الدروس كلها بالنتيجة الآتية :

- ﴿ ان محمداً كان سليم الفطرة ، كامل العقل ، كريم الاخلاق ، صادق ﴾
- ﴿ الحديث ، عفيف النفس ، قنوعاً بالقليل من الرزق ، غير طموع بالمال ولا ﴾
- ﴿ جنوح الى الملك ، ولم يعن بما كان يعنى به قومه من الفخر ، والمباراة في تحبير ﴾
- ﴿ الخطب وقرض الشعر ، وكان يمت ما كانوا عليه من الشرك وخرافات ﴾
- ﴿ الوثنية ، ويحتقر ما يتنافسون فيه من الشهوات البهيمية ، كالخمر والميسر ﴾

- ﴿ وأكل أموال الناس بالباطل ، وبهذا كله وبما ثبت من سيرته وبقينه بعد ﴾
- ﴿ النبوة جزموا بأنه كأن صادقا فيما ادعاه بعد استكمال الأربعين من سنه من ﴾
- ﴿ رؤية ملك الوحي ، واقراءه آياه هذا القرآن ، وإنبائه بأنه رسول من الله ﴾
- ﴿ هداية قومه فسائر الناس ﴾

وزادهم ثقة بصدقه ان كان أول الناس ايمانا به واهتداء بنبوته أعلمهم بدخيلة أمره ، وأولهم زوجه خديجة المشهورة بالعقل والنبيل والفضيلة ، ومولاه زيد بن حارثة الذي اختار أن يكون عبدا له على أن يلحق بوالده وأهل بيته ويكون معهم حرا، ثم أن كان الذين آمنوا به من اعظم العرب حرية واستقلالاً في الرأي ولا سيما أبي بكر وعمر فاما المؤمنون بالله وملائكته وبأن للبشر أرواحا خالدة من هؤلاء الا فرنج فقد آمنوا بنبوته محمد ﷺ على علم وبرهان ، وهم يزيدون عاما بعد عام ، بقدر ما يتاح لهم من العلم بالاسلام ، وأما الماديون فلم يكن لهم بد من تفسير لهذه الحادثة أو الظاهرة التي لا ريب في صحتها وثبوتها ، وبتصويرها بالصورة العلمية التي يقبلها العقل ، الذي لا يؤمن بما وراء المادة أو الطبيعية من عالم الغيب

قدحوا زناد الفسك ، واستوروا به نظريات الفلاسفة ، فلاح لهم منه سقط أبصروا في ضوئه الضئيل الصورة الخيالية التي أجملها الاستاذ مونتيه في عبارته التي نقلناها عنه آنفاً وفصلها أميل درمنغام وغيره بما نشره ههنا .

(شبهة منكري عالم الغيب على الوحي الالهي)

(وتصويرهم لنبوته محمد ﷺ)

خلاصة رأي هؤلاء الماديين أن الوحي إلهام يفيض من نفس النبي الموحى اليه لا من الخارج ، ذلك أن نفسه العالية ، وسريره الطاهرة ، وقوة إيمانه بالله وبوجوب عبادته وترك ما سواها من عبادة وثنية ، وتقاليد وراثية ، يكون لها من التأثير ما يتجلى في ذهنه ويحدث في عقله الرؤى والأحوال الروحية ، فيتصور ما يمتد وجوبه إرشاداً إلهياً نازلاً عليه من السماء بدون واسطة ، أو يتمثل له رجل يلقنه ذلك يعتقد أنه ملك من عالم الغيب وقد يسمعه يقول ذلك ، وإنما يرى ويسمع ما يمتدده في اليقظة

كما يرى ويسمع مثل ذلك في المنام الذي هو مظهر من مظاهر الوحي عند جميع الانبياء ، فـكل ما يخبر به النبي من كلام ألتي في روعه أو ملك ألقاه على سمعه فهو خبر صادق عنده

يقول هؤلاء الماديون: نحن لانشك في صدق محمد في خبره عما رأى وسمع ، وإنما نقول ان منبع ذلك من نفسه ، وليس فيه شيء جاء من عالم الغيب الذي وراء عالم المادة والطبيعة الذي يعرفه جميع الناس ، فان هذا شيء لم يثبت عندنا وجوده كما أنه لم يثبت عندنا ما ينبغي ويحققه بالمحال ، وإنما نفسر الظواهر غير المعتادة بما عرفنا وثبت عندنا دون ما لم يثبت

ويضربون مثلاً لهذا الوحي قصة جان دارك الفتاة الافرنسية التي قررت الكنيسة الكاثوليكية قداستها بعد موتها بزمن ، وهذا التصوير الذي يصورون به ظاهرة الوحي قدسرت شبهته الى كثير من المسلمين المرثابين الذين يقتلون هؤلاء الماديين في نظرياتهم المادية أو يقتنعون بها. وانني أفتتح الكلام في ابطال هذه الصورة الخيالية بالكلام على جان دارك فقد ألتي الي سؤال عنها نشرته مع الجواب عنه في صفحة ٧٨٨ من المجلد السادس من المنار (سنة ١٣٢١) وهذا نصه

(شبهة على الوحي)

حضرة الاستاذ الرشيد

عرضت لي شبهات في وقوع الوحي (وهو أساس الدين) فعمدت الى رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده - حيث وقع اختياري عليها - وقرأت في بابي (حاجة البشر الى الوحي) و (إمكان الوحي) فوجدت الكلام وجيباً معقولاً ، غير ان الحاجة الى الشيء لا تستلزم وقوعه ، وكذا إمكانه وعدم استحالة عقلا لا يقتضي حصوله . ثم ما ذكر بعد من أن حالة النبي وسلوكه بين قومه وقيامه بجلال الاعمال وبوقوع الخير للناس على يديه هو دليل نبوته وتأيد بعثته ، فليس شيئاً ، فانه قد يكون (كون) النبي حميد السيرة في عشيرته صادقا في دعوته - اعني معتقدا في نفسه - سببا في نهوض أمته ، ولا يكون كل ذلك مدعاة الى الاعتقاد به والتسليم له

ولقد حدث بفرنسا في القرن الخامس عشر الميلادي اذ كانت مقهورة للانكليز

ان بنتا تدعى (جان دارك) من اجل النساء سيرة واسلمهن نية اعتقدت وهي في بيت اهلها بعيدة عن التكاليف السياسية انها مرسله من عند الله لانقاذ وطنها ودفع العدو عنه، وصارت تسمع صوت الوحي فأخلصت في الدعوة للقتال، وتوصلت بصدق إرادتها الى رئاسة جيش صغير وغلبت به العدو فعلا، ثم ماتت غب نصرتها موته الابطال من الرجال، إذخذها قومها، ووقعت في يدعدوها فألقوها في النارحية، فذهبت تاركة في صحائف التاريخ اسما يعبق نشره وتضوع رياه. وهي الآن موضع إجلال القوم وإعظامهم، فلقد تيسرت لهم النهضة بعدها وجروا في العلم والرفي بعيداً. فهل يحجزم لذلك ان تلك البنت نبية مرسله ?? ربما تذهبون الى ان عملها لا يذكر مقارنا بما اتت به الرسل وما وصل للناس من الخير بسببهم، فأقول هل هناك من ميزان تزن به الاعمال النافعة لتعلم ان كانت وصلت الى الدرجة التي يجب معها ان تصدق دعوة صاحبها؟ وهل لو ساعدت الصدف (كنا) رجلا على ان يكون اكبر الناس فعلا وأبقاهم أثرا واعتقد برسالة نفسه لوهم قام (عنده) يفضي بنا ذلك الى التيقن من رسالته ؟ اظن أن هذا كله مضافا لغيره يدعو الى الترجيح ولا يستلزم اليقين ابدا. على اني أنتظر ان تجدوا في قولي هذا خطأ تقنعوني به أو تزيدوني ايضا حينتكشف به الحجاب وتناولوا به الثواب. هذا وأنا اعلم من فئة مسلمة ما أعلمه من نفسي ولكنهم يتحفظون في الكتان، ويسألون الكتب خشية سؤال الانسان، ولكنني لا اجد في السؤال عارا، وكل عقل يخطيء، ويصيب، ويزل ويستقيم . (احد قرائكم)

﴿ جواب المنار ﴾

لقد سرنا من السائل انه على تمكن الشبهة من نفسه لم يدعن لها تمام الاذعان، فيسترسل في تعدي حدود الدين الى فضاء الاهواء والشهوات التي تفسد الارواح والاجسام، بل أطاع شعور الدين الفطري، ولجأ الى البحث في الكتب، ثم السؤال ممن يظن فيهم العلم بما يكشف الشبهة، ويقم الحججة، وان كثيرا من الناس لينصرفون عن طلب الحق عند اول قذعة من الشبه تلوح في فضاء أذهانهم، لانهم شهبوا على حب التمتع والانغماس في اللذة، ويرون الدين صاداً لهم عن

الانهاك والاسترسال فيها ، فهم يحاولون إماتة شعوره الفطري ، كما مات
النشوء في الجهل برهانه الكسبي

ارى السائل نظر من رسالة التوحيد في المقدمات ووعاها ولكنه لم يدقق النظر
في المقاصد والنتائج ، لذلك نراه مسلما بالمقدمات دون النتيجة مع اللزوم بينها ، فاذا
هو عاد الى مبحث (حاجة البشر الى الرسالة) وتدبره وهو مؤمن بالله وانه أقام الكون
على اساس الحكمة البالغة والنظام الكامل فاني ارجو له أن يقتنع . ثم انني آنتست
منه انه لم يقرأ مبحث (وقوع الوحي والرسالة) او لعده قرأه ولم يتدبره ، فانه لم يذكر
البرهان على نفس الرسالة ويبي الشبهة عليه وانما بناها على جزء من أجزاء المقدمات ،
وهي القول في بعض صفات الرسل عليهم السلام . وانني اكشف له شبهته أولا فأبين
انها لم تصب موضعها ثم أعود إلى رأيي في الموضوع

ان [جان درك] التي اشتبه عليه امرها بوحى الانبياء لم تقم بدعوة الى دين
او مذهب تدعي ان فيه سعادة البشر في الحياة وبعد الموت كما هو شأن جميع المرسلين ،
ولم تأت بأية كونية ولا علمية لا يعهد مثلها من كسب البشر تتحدى بها الناس
ليؤمنوا بها . وانما كانت فتاة ذات وجدان شريف هاجه شعور الدين وحركته
مزعجات السياسة ، فتحرك ، فنفر ، فصادف مساعدة من الحكومة ، واستعداداً
من الامة للخروج من الذل الذي كانت فيه ، وكان التحمس الذي حر كته سببا
للحملة الصادقة على العدو وخذلانه . وما اسهل تهبيج حماسة أهل فرنسا بمثل هذه
المؤثرات وبما هو أضعف منها ، فان نابليون الاول كان يسوقهم الى الموت مختارين
بكلمة شعرية يقوها ككلمته المشهورة عند الاهرام

وأذكر السائل الغطن بأنه لم يوافق الصواب في إبعاد الفتاة عن السياسة ومذاهبها
فقد جاء في ترجمتها من دائرة المعارف (العربية للبيستاني) ما نصه :

« كانت متعودة الشغل خارج البيت كرمي المواشي وركوب الخيل الى العين
ومنها الى البيت ، وكان الناس في جوار دورمي [اي بلدها] متمسكين بالخرافات ،
ويعيلون الى حزب اورليان في الانقسامات التي مزقت مملكة فرنسا ، وكانت جان

تشترك في الهياج السياسي والحماسة الدينية، وكانت كثيرة التخيل والورع تحب ان تتأمل في قصص العذراء وعلى الاكثر في نبوة كانت شائعة في ذلك الوقت ،وهي ان احدى العذارى ستخلص فرنسا من أعدائها .ولما كان عمرها ١٣ سنة كانت تعتقد بالظهورات الفائقة الطبيعية وتتكلم عن اصوات كانت تسمعا ورؤى كانت تراها .ثم بعد ذلك ببضع سنين خيل لها انها قد دعيت لتخلص بلادها وتتوج ملكها .ثم أوقع البرغنيور تعديا على القرية التي ولدت فيها فتوى ذلك اعتقادها بصحة ماخيل لها « ثم ذكر بعد ذلك توسلها الى الحكام وتعيينها قائدة لجيش ملكها وهجومها بعشرة آلاف جندي ضباطهم ملكيون على عسكر الانكليز الذين كانوا يحاصرون أورليان ،وانها دفعتهم عنها حتى رفعوا الحصار في مدة اسبوع ، وذلك سنة ١٤٢٩ ثم ذكر انها بعد ذلك زالت خيالاتها الحماسية ، ولذلك هوجمت في السنة التالية سنة ١٤٣٠ فانكسرت وجرحت وأسرت

فن ملخص القصة يعلم ان ما كان منها انما هو تهيج عصبي سببه التألم من تلك الحالة السياسية التي كان يتألم منها من نشأت بينهم مع معونة التحمس الديني والاعتقاد بالخرافات الدينية التي كانت دائمة في زمنها . وهذا شيء عادي معروف السبب وهو من قبيل الذين يقومون باسم المهدي المنتظر كمحمد احمد السوداني والباب (وكذا البهاء والقادياني) بل الشبهة في قصتها ابعد من الشبهة في قصة هذين الرجلين ، وان كانت اسباب النهضة متقاربة فان هذين كانا كأمثالهما يدعوان الى شيء (ملفق) يزعمان انه اصلاح للبشر في الجملة

أين هذه النبوة العصبية القصيرة الزمن ، المعروفة السبب ، التي لادعوة فيها الى علم ولا إصلاح اجتماعي إلا المدافعة عن الوطن عند الضيق التي هي مشتركة بين الانسان والحيوان الاعجم ، التي لاحجة تعمدتها ، ولا معجزة تؤيدها ، التي اشتملت بنفخة وطفئت بنفخة ؟ أين هي من دعوة الانبياء التي بين الاستاذ الامام انها حاجة طبيعية من حاجات الاجتماع البشري ، طلبها هذا النوع بلسان استعداده فوهبها له المديبر الحكيم (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) فسار الانسان بذلك إلى كماله ، فلم يكن أدنى من سائر الخلوقات الحية النامية بل أرقى وأعلى . وأين دليلها من أدلة

النبوة وأين أثرها من أثر النبوة؟ إن الأمم التي ارتقت بما أرشدها إليه تعليم الوحي إنما ارتقت بطبيعة ذلك التعليم وتأثيره، وإن فرنسا لم ترتق بإرشاد (جان درك) وتعليمها، وإنما مثلها مثل قائد انتصر في واقعة فاصلة بشجاعته وبأسباب أخرى ليست من صنعه، واستوت أمته بسبب ذلك على بلاد رقتها بعلمها وعلمائها وحكمة حكمائها وصنع صناعاتها، ولم يكن القائد يعرف من ذلك شيئاً ولم يرشده إليه، فلا يقال إن ذلك القائد هو الذي أصلح تلك البلاد، وعمرها ومدنها، وإن عد سبباً بمرئها فهو شبيهه بالسبب الطبيعي، كهبوب ربح تهيبج البحر فيغرق الاسطول وتمتصر الأمة

أين حال تلك الفتاة التي كانت كبارقة خفت (أي ظهرت وأومضت) ثم خفيت، وصيحة علت ولم تلبث أن خفت، من حال شمس النبوة المحمدية التي أشرقت فأثارت الأرجاء، ولا يزال نورها، وإن يزال متألق السناء، أي يتم قضى سن الصبا وسن الشباب هادئاً ساكناً لا يعرف عنه علم ولا تخيل، ولا وهم ديني، ولا شعر ولا خطابة، ثم صاح على رأس الأربعين بالعالم كله صيحة «انكم على ضلال مبين» فاتبعون أهدمكم العصر المستقيم» فأصاح وهو الأمامي أديان البشر عنانها وآدابها وشرائعها، وقلب نظام الأرض فدخلت بتعليمه في طور جديد؟ لا جرم أن الفرق بين الخالين عظيم إذا أمعن النظر فيه العاقل

لاسعة في جواب سؤال لتقرير الدليل على النبوة وإنما أحيل السائل على التأمل في بقية بحث النبوة في رسالة التوحيد ومراجعة ما كتبناه أيضاً من الامالي الدينية في المنار لاسياً. درس الذي عنوانه (الآيات البينات، على صدق النبوات) وإن كان يصدق على رسالة التوحيد المثل «كل الصيد في جوف الفرا» فإن بقي عنده شبهة فالأولى أن يتفضل بزيارتنا لأجل المذاكرة الشفاهية في الموضوع، فإن المشافهة أقوى بيانا، وأنصع برهاناً، ونحن نعهده بأن نكتم أمره وإن أبي فليكتب إلينا ما يظن له من الشبهة على ما في الرسالة والامالي من الاستدلال على وقوع النبوة بالفعل، وعند ذلك نسهب في الجواب بما نرجو أن يكون مقنعاً، على أن المشافهة أولى كما هو معقول وكما ثبت لنا بالتجربة مع كثير من المشتهين والمرتابين اهـ

هذا وان ما بينه الاستاذ الامام في اثبات وقوع الوحي لا يستطيع أحد فهمه حق الفهم وهو يؤمن بوجود الله العليم الحكيم الفاعل المختار الا أن يقبله ويدعن له ، فانه بين أن الوحي والرسالة بالمعنى الذي قرره لازم عقلي لعلمه تعالى وحكمته وكونه هو (الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى) ولا يفهمه حق الفهم الا من أوتي نصيبا من علم الاجتماع وحكمة الوجود وسننه وأصول العقائد ، ونصيبا آخر من بلاغة اللغة العربية . وان نبوة محمد ﷺ ورسالته يمكن اثباتها بما دون هذه الفلسفة والبلاغة وهو ما قهر عقول علماء الافرنج على تصديق دعوته ، وحل الماديين على تصويرها بما نسبته فيما يأتي ونقفي عليه باثبات بطلانه

تفصيل الشبهة ودحضها بالحجة

قد فصل درمنغام الشبهة التي اجملها مؤنثيه بما لم نر مثله لغيره من كتابد الافرنج حتى اغتر بكلامه كثير من المسلمين ، فان كان حكيمنا السيد جمال الدين قال لبعض مجادلي النصرانية : انكم فصلتم قيصاً من رفاع العهد القديم وأبستموها للمسيح عليه السلام - فنحن نقول لهم انكم فصلتم قيصاً آخر مما فهمتم من تاريخ الاسلام لا من نصوصه وحاولتم خلعها على محمد ﷺ ، وانني أشرح هذه الشبهة بأوضح مما كتبه درمنغام وما بلغني عن كل احد منهم ، ثم أكر عليها بالنقض والدحض فأقول : (١) قالوا ان محمداً قد اتى بحيرا الراهب في مدينة بصرى بالشام ، وقالوا انه كان نسطوريا من أتباع آريوس في التوحيد وينكر أوهية المسيح وعقيدة التثليث . وان محمداً لا بد أن يكون علم منه عقيدته ، وقالوا في بحيرا ايضاً انه كان عالماً فلكلياً ، منتجماً وحاسباً ساحراً ، وانه كان يعتقد أن الله ظهر له وأنبأه بأن سيكون هادياً لآل اسماعيل إلى الدين المسيحي . بل سمعنا من بعض الرهبان انه كان معلماً لمحمد ومصاحباً له بعد رسالته ، وان محمداً ما حرم الخمر إلا لانه قتل أستاذه بحيرا وهو سكران ، وأمثال هذا من الافراء والبهتان ، وكل ما عرفه المسلمون من رواة السيرة النبوية ان النبي ﷺ لما خرج مع غمه أبي طالب الى الشام وهو ابن تسع سنين .

وقيل ١٢ سنة رآه هذا الراهب مع قريش ورأى سحابة تظله من الشمس وذكر
 لعمره انه سيكون له شأن وحذره عليه من اليهود - وفي المسألة روايات أخرى
 بمعناها ضعيفة الاسانيد إلا رواية للترمذي ليس فيها اسم بحيرا وفيها غلط في المتن،
 وليس في شيء منها أنه صلى الله عليه وسلم سمع من بحيرا شيئاً من عقيدته أو دينه

(٢) قالوا ان ورقة بن نوفل كان من متصرة العرب العلماء بالنصرانية وأحد
 أقارب خديجة - يوهون القارى أنه صلى الله عليه وسلم اخذ عنه شيئاً من علم اهل الكتاب -
 والذي صح من خبر ورقة هذا هو مارواه الشيخان في الصحيحين وغيرهما من أن
 خديجة أخذته عقب إخباره إياها برؤية الملك في حراء إلى ورقة هذا وأخبرته خبره
 وكان شيخا قد عمي ولم يلبث بعد ذلك أن توفي ولم يثبت ان النبي صلى الله عليه وسلم رآه قبل ذلك
 (وسأذكر نص الحديث في آخر هذا البحث) وقد استقصى المحدثون والمؤرخون
 كل ما عرف عن ورقة هذا مما صح سنده وبما لم يصح له سند كدأبهم في كل ماله
 علاقة بالنبي صلى الله عليه وسلم والاسلام فلم يذكر احد منهم انه عرف عنه دعوة إلى النصرانية
 او كتابة فيها . وإنما ورد في بعضها انه قال حين علم من خديجة خبر محمد : انه هو النبي
 المنتظر الذي بشر به المسيح عيسى بن مريم . وفي بعضها انه عاش حتى رأى بلالا
 يعذبه المشركون ليرجع عن الاسلام ولكن هذه الرواية شاذة مخالفة لحديث عائشة
 الصحيح انه كان عند بدء الوحي اعشى ولم ينشب أي لم يلبث أن مات ، وقد كان
 تعذيب بلال بعد إظهار دعوة النبوة ودخول الناس فيها وقد كان هذا بعد بدء
 الوحي بثلاث سنين - وأميل درمنغام قد غلط فيما نقله من خبر فترة الوحي لاختلاط
 الروايات عليه فيها وعدم اطلاعه على مادون في كتب الحديث منها . وإنما كان هم
 المحدثين في خبر ورقة أن يعلموا انه كان صحابياً أم لا، فان الصحابي هو من اتى النبي
صلى الله عليه وسلم بعد البعثة مؤمناً به، ولو بلغهم عنه أي شيء من علمه بالتوراة أو الانجيل لمقلوه
 (٣) ذكر واما كان من انتشار اليهودية والنصرانية في بلاد العرب قبل الاسلام وتنصر
 بعض فصحاء العرب وشعراهم كقس بن ساعدة الايادي وأمية بن أبي الصلت
 وإشادة هؤلاء بما كانوا يسمعون من علماء اهل الكتاب عن قرب ظهور النبي الذي
 بشر به موسى وعيسى وغيرهما من الانبياء . وقد نشرنا بعض ما نقل عنهم في

التوراة والانجيل وكتب النبوات في تفسير (١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي
الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) من سورة الاعراف
فأما قس فقد مات قبل البعثة . وروي ان النبي ﷺ رآه قبل البعثة بزمن
طويل يخطب الناس في سوق عكاظ على جهل له اوراق ، بكلام له موق ، قال فيه :
ان الله ديناً خيراً من دينكم الذي أنتم عليه ، ونبياً قد أظلمكم زمانه ، وأدركم اوانه ،
فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه - والروايات في هذا ضعيفة ، وتعددها
يدل على أن لها أصلاً

وأما أمية بن ابي الصلت الثقفى فهو شاعر مشهور . قال ابو عبدة اتفقت
العرب على ان أمية أشعر تميم ، وقال الزبير بن بكار حدثني عمي قل : كان أمية
في الجاهلية نظر الكتب وقرأها ولبس المسوخ تعبداً وكان يذكر ابراهيم واسماعيل
والحنيفية ، وحرم الخمر ونجس الاوثان وطعم في النبوة لانه قرأ في الكتابان نبيا
يبعث بالحجاز فرجا أن يكون هو ، فلما بعث النبي ﷺ حسده فلم يسلم . وهو الذي
رني قتلى بدر (المشركين) بالتصيدة التي اولها

ماذا يبدر والعقد قمل من مرازية ججاجح

وفي المرأة عن ابن هشام انه كان آمن بالنبي ﷺ فقدم الحجاز لياخذ
ماله من الطائف وبهاجر فعلم بغزوة بدر وقتل صناديد قريش فيها فجدع أنف
ناقته وشق ثوبه وبكى لان فيهم ابني خاله وعاد إلى الطائف ومات فيها . وصح
ان النبي ﷺ استنشد الشريد بن عمرو من شعره فأنشده فقال «كاد ان يسلم»
ولكنه كان حنيفياً على ملة ابراهيم ولم يتنصر ومن شعره

كل دين يوم القيامة عند الله الا دين الحنيفة زور

(٤) إسلام سلمان الفارسي (رض) كان فارسياً مجوسياً فتنصر على يد بعض

الرهبان وصحب غير واحد من عبادهم وسمع منهم أو من آخرهم بقرب ظهور النبي
الذي بشر به عيسى والانبياء من العرب فقصد بلاد العرب وبيع لبعض يهود
يثرب ظلاماً وعدواناً ولم ير النبي ﷺ إلا بعد الهجرة فأسلم وكاتب سيده . وفي
قصته روايات متعارضة هذا هو المراد منها لدر منغام وغيره

(٥) ذكروا ما كان من رحلة تجار قریش في الشتاء الى اليمن وفي الصيف الى الشام واجتماعهم بالنصارى في كل منها كلما مروا بدير أو صومعة للرهبان، وكان هؤلاء النصارى يتحدثون بقرب ظهور نبي من العرب

(٦) زعم درمنغام انه كان يوجد بمكة نفسها اناس من اليهود والنصارى ولكنهم كانوا عبيداً وخدماء لان رؤساء قریش لم يكونوا يسمحون لهم أن يسكنوا في مكة حرمهم المقدس الخاص بوثنيهم وأصنامهم . وكان هؤلاء يسكنون في أطراف مكة «في المنازل البعيدة عن الكعبة المشرفة للصحراء»!! وكانوا يتحدثون بقتصص عن دينهم لاتصل الى مسامع رؤساء قریش وعظماهم أو ما كانوا يحفلون بها لسماع أمثالها في رحلاتهم الكثيرة. ولكنه ذكر ان اباسفيان عتب على أمية بن أبي الصلت كثرة تكريره لما يذكره الرهبان من هذا الامر

فهذه مقدمات يذكرها كتاب الافرنج لتعليل ما ظهر به محمد ﷺ من دعوى النبوة على طريقتهم في الاستنباط وما يسمونه النقد التحليلي، ويقرنون بها مقدمات أخرى في وصف حالته النفسية والعقلية وحالة قومه وما استفاد منها من تأثير وعبرة، فلنخصها مضمومة الى ما قبلها مع الامام بنقدها

(٧) قال درمنغام في كفاة أبي طالب ل محمد بعد وفاة جده: انه لم يكن غنياً فلم يتبح له تعليم الصبي الذي بقي أمياً طول حياته (يوم القارىء ان أولاد الموسرين بمكة كانوا يتعلمون كأن هنالك مدارس يعلم فيها النشء بالاجور كمدارس بلاد الحضارة وهذا باطل لأصل له — تم قال)

« ولكنه كان يستصحبه وإياه في التجارة فيسير والقوافل خلال الصحراء يقطع هذه الابعاد المتناثية وتحقق عيناه الجميلتان بمدن ووادي القرى وديار نمود وتستمتع أذناه المرهقتان إلى حديث العرب والبادية عن هذه المنازل وحديثها وماضي نبتها . ويقال انه في إحدى هذه الرحلات الى الشام التقى بالراهب بجيرا في جوار مدينة بصرى وأن الراهب رأى فيه علامات النبوة على ما تدله عليه أنباء كتبه . وفي الشام عرف محمد احبار الروم ونصرانيتهم وكتابهم ومناوأة الفرس من عباد النار لهم وانتظار الواقعة بهم »

كل ما ذكره درمنغام هنا فهو من مخترعات خياله ومبتدعات رأيه الا مسألة بحيرا الراهب فأصلها ما ذكرنا، وكأنه لم يحفل بأبائها لما يعلمه من مفتريات رجال الكنيسة فيها فمحمد ﷺ لم يذهب مع عمه الى التجارة في الشام إلا وهو طفل كما تقدم وقد أعاده إلى مكة قبل إتمام رحلته . ثم سافر اليها في تجارة خديجة وهو شاب مرة واحدة ولم يتجاوز سوق بعصرى في المرتين . والقوافل التي تذهب الى الشام لم تكن تمر بمدين وهي في ارض سيناء . ولم تكن هذه القوافل تضع شيئاً من وقتها للبحث مع العرب او الاعراب في طريقها عن أنبيائها والتاريخ القديم لبلادها ، ولم يعرف عن تجارها انهم كانوا يمنون ببقاء احبار النصارى ومباحثتهم في دينهم وكتبهم ، فن أين جاء لدرمنغام أن محمداً هو الذي كان يشتغل في تلك التجارة بالبحث عن الامم والتواريخ والكتب والاديان ويعني ببقاء رؤسائها والبحث معهم ؟ انما اخترع هذا لانه لا يستطيع تمليل ما جاء في القرآن من قصص الرسل إلا به وكذلك الانبياء يغلب الروم للفرس كما سيأتي . وسرى ما نفد به تعليله وتحليله وتركه على تقدير صحة ما زعمه كاه

(٨) ثم ذكر درمنغام أن العرب ولاسيما أهل مكة كانوا يصرفون معظم أوقاتهم بعد ما يكون من تجارة أو حرب في الاستمتاع باللذات من السكر والتسري وغير ذلك ، وان التاريخ يشهد بان محمداً كان يراهم ولم يكن يشاركهم في ذلك لالفقره وضيق ذات يده قال « لكن نفس محمد كانت شغفة بان ترى وأن تسمع وأن تعرف ، وكان حرمانه من التعليم الذي كان يعلمه أذاده جعله أشد للمعرفة شوقاً وبها تعلقاً ، كما أن النفس العظيمة التي تجلت من بعد آثارها ، وما زال يعمر العالم سلطانها ، كانت في توقها إلى الكمال ترغب عن هذا اللهو الذي يطمح اليه أهل مكة إلى نور الحياة المتجلي من كل مظاهر الحياة لن هداه الحق اليها لاستكناه ماتدل هذه المظاهر عليه وما يحدث الموهوبين به »

هذا الخبر من مخترعات درمنغام فمحمد لم يكن شغوفاً بان يرى ما يفعله فساق قومهم من فسق وفجور ، ولأن يسمع ذلك ، ولا يتحرى أن يعرفه ، وقد ثبت عنه أنه لم يحضر سمرهم ولهوهم إلا مرتين ألقى الله عليه النوم في كل منهما حتى طلعت

الشمس فلم ير ولم يسمع شيئاً ، وقد بطل بهذا ما علل به الخبر على ما فيه من المدح المتضمن لديستين (احدهما) أن أنداده في قریش كانوا متعلمين وكان هو محروماً مما لقنوه من العلم وكان حرمانه هذا يزيد شغفاً بالبحث والاستطلاع (والثانية) أن نفسه كانت بسبب هذا تزداد طموحاً إلى نور الحياة المتجلي في جميع مظاهرها لاستكناه ما تدل عليه هذه المظاهر ، فهذه مدحة غرضه منها لتعميل ما أتبع في نفسه بعد ذلك من الوحي ، وسرى بطلانه

(٩) ثم ذكر درمنقام مسألة أبناء النبي ﷺ والقاسم والطيب والظاهر وهو يشك في وجودهم ويقول إن تكنيته بأبي القاسم لا تدل على وجود ولد له بهذا الاسم وأنه إن صح أنهم ولدوا فقد ماتوا في المهد ، والتحقيق أنه ولده غلام سماه القاسم وكني به وأنه مات طفلاً وقيل عاش إلى أن ركب الدابة وإن الطيب والظاهر لقبان للقاسم . ولكن درمنقام قد كبر مسألة موت هؤلاء الأولاد الذين يشك في وجودهم ، وبنى عليها حكماً ، وأثار وهماً ، قال بعد أن زعم أن محمداً تبنى زيد بن حارثة لأنه لم يطق على الحرمان من البنين صبراً :

«فن حق المؤرخ أن يجعل لهذا الحادث بل الحوادث الثلاثة التي أصابت محمداً في بنيه ماهي جديدة بأن تتركه في حياته وفي تفكيره من أثر . والامر كذلك بنوع خاص أن كان محمد أمياً ، فلم تكن المضاربات الجدلية (كذا) لتصرفه عن التأثير بعبر الحوادث ودروسها ، وحوادث أليلة كوفاة أبنائه جديدة بأن تستوقف تفكيره وأن تلمته في كل واحدة منها لما كانت خديجة تقرب به إلى اصنام الكعبة وتنحرف لهبل واللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى تريد أن تقتدي نفسها من ألم التمثل فلا تغيد القربان ولا تجدي النحور»

« والامر كان كذلك لا ريب أن كانت عبادة الاصنام قد بدأت تنزع في النفوس تحت ضغط النصرانية الآتية من الشام منحدرة اليها من الروم ومن اليمن متخطية اليها من خليج العرب (البحر الاحمر) من بلاد الحبشة»

غرض درمنقام من تكبير المصيبة بموت الأبناء المشكوك في ولادتهم هو أن يجعلها مسوغة لما اختلقه من توسل خديجة الى الاصنام بالقرابين لينقذوها من

مصيبة الشكل، ثم يستنبط من ذلك زعزعة ايمانها وايمان بعلمها بعبادتها الذي كان شبيه
تأثير النصرانية في مكة وغيرها من بلاد العرب، ثم ليجعل ذلك من الاسباب
التحليلية لتعليل الوحي لمحمد ﷺ - والحق أنه ما تبني زيدا الا لانه آثر أن يكون
عبداً له على أن يكون حراماً والده وعمه عندما جاء مكة لافتدائه بالمال فقال لها
« ادعوه فخيروه فان اختاركم فهو لكم بغير فداء » ثم دعاه فسأله عن أبيه وعمه فعرّفهما قال
« فاما من قد علمت وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترها » فقال زيد ما أنا بالذي
أختار عليك أحداً . أنت مني بمكان الاب والعم. فقالوا ويحك يا زيد أتختار العبودية على
الحرية وعلى أبيك وعمك وأهل بيتك؟ قال قد رأيت من هذا الرجل شيئاً ما أنا
بالذي أختار عليه أحداً . فلما رأى رسول الله (ص) ذلك أخرجه إلى الحجر فقال
« اشهدوا أن زيدا ابني يرثني وأرثه » فلما رأى ذلك أبوه وعمه طابت أنفسهما .
فدعي زيد بن محمد حتى جاء الله بالاسلام . رواه ابن سعد ونحوه في سيرة ابن اسحق .
هذا وان محمدا لم يكن جزوعا عند موت ولد ولا غيره بل كان أصبر الصابرين ،
وان خديجة لم تياس بموت القاسم من الله ان يمن عليها بولد آخر ، ولم تنحر للاصنام
شيئاً . وان اللات كانت صخرة في الطائف تعبدها ثقيف ولم تكن من أصنام قريش ،
والعزى كانت شجرة ببطن نخلة تعبدها قريش وكنانة وغطفان ، ومناة كانت
صما في قديد لبني هلال وهذيل وخزاعة . وقد كان ما ذكره من ضعف الوثنية
في ذلك العهد - وزعم انه سببه انتشار النصرانية - جديراً بأن يمنع خديجة
وهي من أعقل العرب وأسلمهم فطرة وأقربهم الى الخليفة ملة ابراهيم أن تهاجر
الى هذه الاصنام لتنحر لها وتتقرب اليها لترزقها غلاما ، فان لم يمنعها عقلها وفطرتها
فأجدر بعلمها المصطفى أن يمنعها من ذلك وهو عدو الوثنية والاصنام من طفولته .
كما يعترف درمنغام - ولكن اتباع الهوى ينسي صاحبه ما لم يكن لينساه لولاه
(١٠) زعم درمنغام أن ما ذكره من تغلغل النصرانية في بلاد العرب اوجد
فيها حالة نفسية أدت الى زيادة إيمانهم فيما كانوا يسمونه في الجاهلية التحنث او
التحنف وفرع على ذلك قوله :

« وكان محمد يجدي في التحنث طائفة لنفسه أن كان له بالوحدة شغف ، وأن

كان يجد فيها الوسيلة الى ما برح شوقه يشد اليه من نشدان المعرفة واستلهاهم مافي الكون من اسماها ، فكان ينقطع كل رمضان طول الشهر في غار حراء بجبل أبي قبيس مكتفياً بالقبيل من الزاد يحمل اليه ليمضي أياما بالغار طويلاً في التأمل والعبادة بعيداً عن ضجة الناس وضوضاء الحياة »

وأقول : ان روايات المحدثين تفيد انه حجب اليه التحنث في غار حراء في العام الذي جاءه فيه الوحي وكان هو يحمل الزاد وما كان أحد يحمله اليه ، وما ذكره ابن اسحاق من تعبه فيه في شهر رمضان كل سنة انما كان في زمن فترة الوحي كما سيأتي وههنا وصل درمنغام إلى آخر المقدمات التي تنصل بالنتيجة المطلوبة له فأرعى لخياله العنان ، ونزع من جواده اللجام ، ونحسه بالهامز ، فعدابه سجعاً ، وجمع به جمعاً ، وقدحت حوافره له قدحا ، وأثارت له نغماً ، وأذن لشاعريته الفرنسية أن تصف محمداً عند ذلك الغار بما تحدثه في نفسه مشاهد نجوم الليل ، وما تسفعه به شمس النهار ، وما تصور أنه كان يراه في تلك القنة من الجبل من صحارى وقفار ، وخيام وآبار ، ورعاة تهش على غنمها حيث لأشجار ، حتى ذكر البحار على بعد البحار وقد أتقن التحليل الشعري ، ولكنه لم يوافق به الوصف الموضوعي ، ثم قال مصوراً لما يبتغيه من مشاهداته صلى الله عليه وسلم

« وهذه النجوم في ليالي صيف الصحراء كثيرة شديدة البريق حتى ليحسب أن الانسان أنه يسمع بصيص ضوئها وكأنه نغم نار موقدة
« حقا ! ان في السماء لشارات للمدركين . وفي العالم غيب بل العالم غيب كله . لكن ! الايكفي أن يفتح الانسان عينيه ليرى ، وأن يرهف أذنه ليسمع ؟ ليرى حقا ، و ليسمع الكلم الخالد ! لكن للناس عيوناً لا ترى وأذاناً لا تسمع .. أما هو فيحسب أنه يسمع ويرى . وهل يحتاج لكي تسمع ما وراء السماء من أصوات إلإالى قلب خالص ونفس مخلصه وفؤاد مليء إيمانا؟

« ومحمد في ريب من حكمة الناس فهو لا يريد أن يعرف إلا الحق الخالص الذي لا يأتية من بين يديه ولا من خلفه باطل ، وهو لا يستطيع العيش إلا بالحق ، والحق ليس فيما يرى حوله ، فحياة القرشيين ليست حقا ، وربما المرابين ونهب البدو وهو

الخلعاء وكل ما إلى ذلك لا شيء من الحق فيه. والاصنام المحيطة بالكعبة ليست حقاً وهبل الاله الطويل الذقن الكثير العطور والملابس ليس آلهها حقاً
« إذن فاين الحق وما هو »

« وظل محمد يتردد على حراء في رمضان من كل عام سنوات متتالية وهناك كان يزداد به التأمل ابتغاء الحقيقة حتى لكان ينسى نفسه، وينسى طعامه، وينسى كل ما في الحياة، لان هذا الذي يرى في الحياة ليس حقاً. وهناك كان يقلب في صحف ذهنه كل ما وعى، ويزداد عما يزاول الناس من ألوان الظن رغبة وأزواراً. وهو لم يكن يطمع في أن يجد في قصص الاحبار وفي كتب الرهبان الحق الذي ينشد، بل في هذا الكون المحيط به: في السماء ونجومها وقمرها وشمسها. وفي الصحراء ساعات لهيبتها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللألاء، وساعات صفوها البديع إذ تنكسوها أشعة القمر أو أضواء النجوم بلباسها الرطب الندي، وفي البحر وموجه وفي كل ما وراء ذلك مما يتصل بالوجود وتشمله وحدة الوجود - في هذا الكون كان يلتمس الحقيقة العليا وابتغاء إدراكها كان يسمو بنفسه ساعات خلوته ليتصل بهذا الكون وليخترق شغاف الحجب الى مكثون سره

قال درمنغام: فلما كانت سنة ٦١٠ او نحوها كانت الحال النفسية التي يعانيها محمد على أشدها فقد أبهت عاتقه العقيدة بأن أمراً جوهرياً ينقصه وينقص قومه، وان الناس نسوا هذا الامر الجوهري وتشبث كل بصنم قومه وقبيلته، وخشي الناس الجن والاشباح والبوارح وأهلوا الحقيقة العليا، ولعلمهم لم يتكروها ولكنهم نسوها نسياناً هو موت الروح. وقد خلصت نفس محمد من كل هذه الآراء التافهة، ومن كل القوى التي تخضع لقوة غيرها ومن كل كائن ليس مظهراً للكائن الواحد

ولقد عرف ان المسيحيين في الشام ومكة لهم دين اوحى به، وان اقواما غيرهم نزلت عليهم كلمة الله وانهم عرفوا الحق ووعوه أن جاءهم علم من انبياء اوحى اليهم به، وكلموا ضل الناس بعثت السماء اليهم نبياً يهديهم الى الصراط المستقيم ويذكرهم
« تفسير القرآن الحكيم » « ٢٣ » « الجزء الحادي عشر »

بالحقيقة الخالدة . وهذا الدين الذي جاء به الانبياء في كل الازمان دين واحد ، وكلما افسده الناس جاءهم رسول من السماء يقوم عوجهم . وقد كان الشعب العربي يومئذ في اشد تيهاء الضلال . أفما آن لرحمة الله أن تظهر فيهم مرة أخرى وأن تهديهم الى الحق ؟ »

« وتزايدت رغبة محمد عن الاجتماع بالناس ، ووجد في وحدة غار حراء مسرة تزداد كل يوم عمقا ، وجعل يقضي الاسابيع ومعه قليل من الزاد وروحه تزداد بالصوم والسهر والادمان على تقليب فكرته صقلا وحدة . ونسي النهار والليل والحلم واليقظة : وجعل يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار ، او مستلقياً في الشمس ، او سائراً بخطى واسعة في طرق الصحراء الحجرية ، وكأنه يسمع الاصوات تخرج من خلال أحجارها تناديه مؤمنة برسالته

« وقضى ستة أشهر في هذه الحال حتى خشي على نفسه عاقبة أمره فأسر بمخاوفه الى خديجة فطأنته وجعلت تحذره بأنه الامين وان الجن لا يمكن أن تقترب منه . وفيما هو يوما نائم بالغار جاءه ملك فقال له اقرأ ، قال « ما أنا بقاريء » وكان هذا أول الوحي وأول النبوة

« وهنا تبدأ حياة وحدة روحية قوية غاية القوة ، حياة تأخذ بالابصار والالباب ولكنها حياة تضحية خالصة لوجه الله والحق والانسانية »

أقول ان كل ما هنا من خبر أو جله فهو غير صحيح ، فمن أين علم هذا الافرنسي أن محمداً نسي الليل والنهار ، والحلم واليقظة ، وانه كان يقضي الساعات الطوال جاثياً في الغار او مستلقياً في الشمس الخ وانه قضى ستة أشهر في هذه الحال — قد افترى في الاختيار ليستنبط منها انه صار صلوات الله عليه مغلوبا على عقله ، غائبا عن حسه . وانا ننقل هنا أصح الاخبار في خبر تحنثه في الغار الليالي ذوات العدد . من شهر رمضان في تلك السنة لا فيما قبلها — لتفنيد مفترياته والاستغناء بها عما نقله من الخاط في صفة الوحي من الفصل الآتي . وهو ما رواه الشيخان البخاري ومسلم في صحيحهما . وهذا نص رواية البخاري رضي الله عنه

باب كيف كان بدء الوحي الى رسول الله ﷺ

افتتح الباب بل الكتاب كله بروايته لحديث « انما الاعمال بالنيات » ثم قال : حدثنا عبد الله بن يوسف قال أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها أن الحارث بن هشام رضي الله عنه سأل رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف يأتيك الوحي^(١) قال رسول الله ﷺ « أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس^(٢) وهو أشده علي فيفصم^(٣) عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا^(٤) فيكلمني فأعي ما يقول » قالت عائشة رضي الله عنها ، ولقد

(١) للوحي معنى عام يطلق على عدة صور من الاعلام الخفي الخاص الموافق لوضع اللغة منها الرؤيا الصادقة والنفث في الروح والالهام وإلقاء الملك ، وله معنى خاص هو أحد الاقسام الثلاثة للتكليم الالهي الوارد في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي باذنه ما يشاء إنه علي حكيم) وهذا الحديث فيه وصف القسم الاول وذ كرناث ، وأما الثاني وهو الكلام الالهي من وراء حجاب بدون واسطة فقد ثبت للنبي (ص) في ليلة الاسراء والمعراج ولموسى عليها الصلاة والسلام. وغير هذه الثلاثة من الوحي العام لا يعد من كلام الله تعالى التشريعي ، والرؤيا الصادقة والالهام مما وقع ويقع غير الانبياء (٢) المراد من التشبيه أنه صوت كصلصلة الحديد المتصلة المتداركة التي تسمع من الجلاجل ونحوها ليس بكلام مؤلف من الحروف والاقرب أن سببه وجود الملائكة وإن لم ير أحدا منهم في حال سماعه . وكانت هذه الحالة أشد الحالتين عليه لأنها كما قال الحكيم ابن خلدون انسلاخ من البشرية الجسمانية واتصال بالملكيسة الروحانية والحالة الاخرى عكسها لانها انتقال الملك من الروحانية المحضة الى البشرية الجسمانية (٣) يفصم وزان يضرب يتفك وينجلي

(٤) أي يظهر بصفة رجل ومثاله ، وذلك أن الملك روح عاقل مريد له قوة التصرف في المادة فهو يأخذ من مادة الكون الصورة التي يريد لها وان علم الكيمياء في هذا العصر يقرب إلى التصور هذا التصرف بما ثبت فيه من تحول كل مادة من الكثافة إلى اللطافة وما بينها بقوة الحرارة وأقواها حرارة الكهر بائية ، والملك يتصرف في الكهر بائية كما يشاء ، وقد شرحنا هذا المعنى في تفسير قوله تعالى (٧: ١٤٣) ولا جاء موسى ليقاتنا وكلمه ربه) — راجع ص ١٦٢ — ١٦٧ ج ٩ تفسير

رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البارد فيفصم عنه وأن جبينه لية تفصد عرقاً (١)
 حدثنا يحيى بن بكير قال حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن عروة
 ابن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت أول ما بدىء به رسول الله ﷺ من
 الوحي الرؤيا الصالحة في النوم (٢) فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح،
 ثم حبيب إليه انخلاء وكان يخلو بغير حرام فيتحنت فيه (٣) - وهو التعمد - الليالي ذوات
 العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى
 جاءه الحق (٤) وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال اقرأ قال ما أنا بقارئ (٥) قال

(١) كان من هذه الشدة عليه ما قاله العلامة ابن القيم في زاد المعاد : حتى ان
 راحلته لتبرك به الي الارض اذا كان را كيبها ولقد جاءه مرة كذلك وفخذه على
 فيخذ زيد بن ثابت فنقلت عليه حتى كادت ترضها اه

(٢) أكثر الرؤى أضعاف أحلام لها أسباب تثيرها في خيال النائم، والرؤيا بالصالحة
 عبارة عن نوع من انكشاف الحقائق للنفس المستعدة لادراكها بما يكون وقت النوم من
 صفائها بعدم اشتغالها بمدركات الحواس وما تثيرها من الخواطر والافكار، ورؤيا
 الانبياء قبل وحي التشرية تمهيد وتأنيس للنفس تقوي استعدادها لتلقي الكلام الالهي
 (٣) أصل التحنت اتقاء الحنث أي الذنب أو مقلوب التحنف وهو اتباع

الحنيفية ملة ابراهيم : وهو رواية ابن هشام . وقوله وهو التعمد ، جملة تفسيرية لراوي
 الحديث وهو ابن شهاب الزهري فهو مدرج في الحديث والليالي ظرف متعلق ببيتحنت
 (٤) وفي رواية فجاءه الحق أي بعثه والمراد به الوحي الصريح الذي هو من كلام

الله تعالى ، وهذه الرواية الثابتة في الصحيحين صريحة في أن هذا كان في اليقظة ،
 وفي سيرة ابن هشام أن جبريل جاءه في المنام ، وهي من مراسيل عمرو بن عبيد وهو
 ثقة وله صحبة ولكن رواية الصحيحين المسندة هي العتمدة ، وجمع بعضهم بين
 الروايتين بأنه رآه أولاً في المنام فاستقرأه ثم رآه في اليقظة ، ولو وقع هذا في المنام لزال
 خوفه ورعبه ﴿ص﴾ بمجرد اليقظة ولم يذهب إلى خديجة يرجف فؤاده

(٥) الظاهر أن الامر بالقراءة أمر تكونين لا تكليف - أي كن قارئاً، ولذلك
 قال له في الثالثة ﴿اقرأ باسم ربك﴾ أين كن قارئاً باسمه ومن قبله وبقدره اياك على
 القراءة لا يجولك وقوتك فهو يعلم أنك أمي لا يتعلق كسبك واستطاعتك بالقراءة
 أما وقد شاء ربك - الذي خلق ، خلق الانسان من علق ، وهو الحيوان المنوي
 أو أول ما تتحول اليه نطفة الزوجين بعد العلق فعمله بشراً سوياً يسمع ويصر
 ويعقل - أن يجعلك قارئاً لما يوجه اليك لتقرأه على الناس فأنت تكون قارئاً

فأخذني فغطني (١) حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت ما أنا بقاري، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال اقرأ، قلت ما أنا بقاري، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني، فقال (اقرأ باسم ربك الذي خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم) (٢) فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال « زملوني زملوني » فزملوه حتى ذهب عنه الروع فقال لخديجة وأخبرها الخبر « لقد خشيت على نفسي » (٣) فقالت خديجة كلا والله ما يخزيك الله أبداً (٤) إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقري

(١) فسروا الغط بالضم الشديد الضاغط فقالوا أي ضمني وعصرتني وفي رواية الطبري للحديث فغطني بالمشاة الفوقية وعليها ابن هشام وهي بمعنى غطني واصل معناها الغمس في الماء وضيق النفس وحكمة هذا الغط تقوية روحانية النبي (ص) حتى يقوى على الاتصال بالملك والفهم منه

(٢) اختصره هنا وزاد في التفسير (الذي علم بالقلم * علم الإنسان ما لم يعلم) (٣) اختلف العلماء في خوفه (ص) على نفسه فقيل خشي الجنون وان يكون مارآه من الجن وقد أنكره ورده القاضي أبو بكر بن العربي ووافق الخافظ ابن حجر ولكن الخافظ قال انه روي من عدة طرق أقول وهو الظاهر مما أجابته به خديجة واستشكل بان الوحي يكون مقترنا بعلم قطعي بأنه من الله وان الملقن له من الملائكة وأجيب بأن هذا العلم الضروري يحصل باستعراف الملك له واعلامه إياه بذلك عند تلقينه الامر بالتبليغ وانما كان ظهور الملك له هي المرة لاجل الايناس والاعداد لتلقي وحي الاحكام ، والامر فيه بالقراءة للتكوين لا للتكليف، والا كان من تكليف ما لا يطاق . وقيل انه خاف على نفسه الموت أو الهلاك وهو قريب ونم اقول اخرى متكفة . وهو على كل حال يدل على انه (ص) لم يفهم من هذه الرؤية انه صار نبيا ولا ان الذي رآه هو ملك الوحي جبريل عليه السلام ويؤيد ذلك مسألة ورقة

(٤) الخزي الذل والهوان واخزاه أذله واهانه . والكل بالفتح المتعب (بفتح العين) ومن هو عالة على غيره ، وحمله اعطائه راحلة يركبها او حمل اثقاله ، وتكسب بفتح التاء وضمها لغة ورواية، والمعدوم المتقود ولا يظهر معناه الا بتكلف وقال الخطابي الصواب المعدم وهو التقير الفاقد لما يكفيه ، والاعانة على نواب الحق كلمة جامعة لكل اعمال البر والنجدة والمروءة فيما عدا الباطل

الضيف وتمين على نواب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل ابن أسد بن عبد العزى ابن عم خديجة وكان امرأ تنصر في الجاهلية وكان يكتب الكتاب العبراني فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ماشاء الله أن يكتب (١) وكان شيخاً كبيراً قديمي، فقالت له خديجة يا ابن عم اسمع من ابن أخيك فقال له ورقة يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ بخبر ما رأى، فقال له ورقة هذا الناموس (٢) الذي نزل الله على موسى، يا ليتني فيها جذعا ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ أو مخرجي هم؟ قال نعم لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصرًا مؤزرًا ثم لم ينشب ورقة أن توفي (٣)

﴿١﴾ وفي رواية التفسير يكتب من الإنجيل بالعربية، وفي معناها رواية مسلم: فكان يكتب الكتاب العربي. ولاتنا في بين الروايات إذ كان يعرف اللغتين وورقة ابن عم خديجة، وأما قولها له اسمع من ابن أخيك فهو من باب التوقير لسنه واستعطف الرحم ﴿٢﴾ الناموس في اللغة صاحب السر والمراد به أمين الوحي جبريل وقوله نزل على موسى ولم يقل وعيسى لأن الشبه بين الوحي إلى موسى ومحمد عليهما السلام اتهم لأن كلا منهما أوتي شريعة تامة مستقلة في عباداتها ومعاملاتها وسياساتها وقوتها العسكرية وعيسى عليه السلام كان تابعاً لشريعة التوراة وناسخاً لبعض الأحكام التي يقتضيها الإصلاح ومبشراً بالنبي الذي يأتي من بعده بالشرع الكامل العام الدائم وهو محمد رسول الله وخاتم النبيين، وفي بعض الروايات الضعيفة أن ورقة قال ناموس عيسى وفي رواية أخرى حسنة الإسناد في دلائل النبوة لآبي نعيم أن خديجة جاءت ورقة وحدها أولاً فذكرت له الخبر فقال لها: لئن كنت صدقتني إنه ليأتيه ناموس عيسى الذي لا يعلمه بنو إسرائيل أبناءهم أه والناموس واحد على كل حال. ولكن رواية الصحيحين « فانطلقت به » تدل على التعقيب أي أنها ذهبت به عقب تحدبها بما رأى (٣) لم ينشب بفتح الشين المعجمة أي لم يلبث بعده هذا أن توفي ولم ينل ما يتمناه من إدراك زمن تبليغ الرسالة لينصر النبي (ص) ولكن في سيرة ابن اسحاق وتبعه غيره أن ورقة كان عمره ببلال وهو يمدب، ومقتضاه أنه أدرك زمن البعثة واضطهاد المشركين للمؤمنين. والمعتمد ما في الصحيح من أنه توفي عقب هذا الحديث بقليل

وفتر الوحي (١)

قال ابن شهاب وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن أن جابر بن عبد الله الانصاري قال وهو يتحدث عن فترة الوحي فقال في حديثه «بيننا أنا ماش إذ سمعت صوتاً من السماء فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فرعبت منه فرجعت فقلت زملوني فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر قم فأذر) إلى قوله (والرجز فاهجر) فحفي الوحي وتابع (٢) اه

(وأقول) اخرج البخاري حديث جابر في تفسير سورة المدثر من طرق في بعضها أن أولها أول ما أنزل مطلقاً وفي البعض الآخر أنها من حديث النبي ﷺ عن فترة الوحي كالتالي هنا وقد عبر ﷺ عن رعبه من رؤية الملك بقوله «فجثت منه

(١) فتر الوحي انقطع موقفاً ليعود- وكانت فترة الوحي ثلاث سنين -وهي ما بين بدئها بأمر جبريل بالقراءة وبين نزول أول سورة المدثر التي أمر فيها بإذاعة الناس (٢) أي الفصل مدة التبليغ كلها وهي عشرون سنة ولكنه كان نجوماً متفرقة حسب الحاجة، فتارة تنزل السورة دفعة واحدة، وتارة تنزل الآيات المنفرقة، وقد يكون بين ذلك فترات قصيرة، كالذي ورد في سبب نزول سورة الضحى . وقد اختلط الأمر في هذا على درمنقام فظن أنها هي التي نزلت بعد فترة الوحي، والمروي أنه نزل قبلها بضع سور: وكان سبب نزولها كما في الصحيحين من حديث جندب بن سفيان أن النبي (ص) اشتكى (أي وجع) فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً (أي إلى هجرته وتلاوته) فقالت امرأة يا محمد اني لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك لم أره قريبك منذ ليلتين أو ثلاث. فأنزل الله عز وجل (والضحى والليل إذا سجى* ما ودعك ربك وما قلى) اه تقرأ ودعك بالتشديد والتخفيف ومعناها واحد وهو الترك، والقلى بالكسر والقصر البغض، أي ما تركك ربك وما أبغضك - وهذه المرأة هي أم جميل امرأة أبي لهب و بنت أبي سفيان كما رواه الحاكم عن زيد بن أرقم . وكان هذا بعد نزول سورة (تبت بدأبي لهب) وروى ابن جرير من طريقين مرسلين أن جبريل أبطأ على النبي (ص) فجزع جزعاً شديداً فقالت خديجة اني أرى ربك قد قلاك بما يرى من جزعك فنزلت - ومعارضة رواية الصحيحين لها به الرواية المرسله تسقط اعتبارها وإن جم الحافظ بينهما بأن خديجة قالت ما قالت توجماً، وحالة الخطب قالته شبهة

رعباً « وفي رواية أخرى « فجمئت منه حتى هويت الى الارض » أي فزعزت وخفت وهو بضم الجيم وكسر الهمزة بالبناء للفعول هذا هو المعتمد عند المحدثين في أول ما نزل من القرآن والمشهور أنه نزل بعد أول المدثر سورة المزمل تامة وبمدها بقية سورة المدثر . وقال مجاهد أول ما نزل سورة (ن والقلم) وهو غلط وروى عن علي كرم الله وجهه أن أول ما نزل سورة الفاتحة واعتمده شيخنا في توجيه كونها فاتحة الكتاب ويمكن أن يراد أنها أول سورة تامة نزلت بعد بدء الوحي بالتمهيد التكويني ثم بالامر بالتبليغ الاجمالي وتلاها فرض الصلاة ونزل سورة المزمل أو نزلتا في وقت واحد

(بسط ما يصورون به الوحي النفسي لمحمد ﷺ)

هنا نذا قد بسطت جميع المقدمات التي استنبطوها من تاريخ محمد ﷺ وحالته النفسية والعقلية، وحالة قومه ووطنه، وما تصوروا أنه استفادته من اسفاره، وما كان من تأثير خلواته وتحنثه وتفكره فيها ، وقفيت عليها بأصح ما رواه المحدثون في الصحاح من صفة الوحي وكيف كان بدؤه وفترته ، ثم كيف أمر ﷺ بتبليغه ودعوة الناس الى الحق وكيف حي وتتابع

وأبين الآن كيف يستنبطون من ذلك أن هذا الوحي قد نبع من نفس محمد وأفكاره بتأثير ذلك كله في وجدانه وعقله ، بما لم أر ولم أسمع مثله في تقريبه الى العقل ، ثم أقفني عليه بما ينقضه من اساسه بادلة العقل والنقل والتاريخ والصحيح من وصف حالته ﷺ فأقول

يقولون ان عقل محمد الهيولاني قد أدرك بنوره الذاتي بظلال ما كان عليه قومه من عبادة الاصنام كما أدرك ذلك أفراد آخرون من قومه — آمنا وصدقنا — وان فطرته الزكية قد احتقرت ما كانوا يتناقسون فيه من جمع الاموال بالربا والقمار — آمنا وصدقنا — وان فقره وفقر عمه (ابي طالب) الذي كفله صغيرا قد حال دون انفاسه فيما كانوا يسرفون فيه من الاستمتاع بالشهوات ، من السكر والتسري وعزف القيان — الصحيح أنه ترك ذلك احتقاراً له لا عجزاً عنه —

وانه طال تفكره في إنقاذهم من ذلك الشرك القبيح وتطهرهم من تلك الفواحش والمنكرات - لاما نغ من ذلك - وانه استفاد من أسفاره وامن لقيه فيها وفي مكة نفسها من النصارى كثيراً من المعلومات عن النبيين والمرسلين الذين بعثهم الله في بني اسرائيل وغيرهم فأخرجوهم من الظلمات الى النور - هذا لم يصح عندنا ولا يضرنا - وان تلك المعلومات لم تكن كلها مقبولة في عقله لما عرض للنصرانية من الوثنية بألوهية المسيح وأمه وغير ذلك وبما حدث فيها من البدع - هذا مبني على ما قبله فهو معقول غير منقول - وانه كان قد سمع ان الله سيبعث نبياً مثل أولئك الانبياء من العرب في الحجاز قد بشر به عيسى المسيح وغيره من الانبياء - وأن هذا علق بنفسه فتملق رجاؤه بان يكون هو ذلك النبي الذي آن وأنه - وهذا استنباط لهم مما قبله وسيأتي ما فيه - ونتيجة ما تقدم أنه توسل الى ذلك بالانقطاع الى عبادة الله تعالى والتوجه اليه في خلوته بغار حراء فقوي هنالك ايمانه ، وسما وجدانه ، فانسج محيط تفكره ، وتضاعف نور بصيرته ، فاهتدي عقله الكبير الى الآيات البينات في ملكوت السموات والارض على وحدانية مبدع الوجود ، وسر النظام الساري في كل موجود ، بما صار به اهالهداية الناس وإخراجهم من الظلمات الى النور ، وما زال يفكر ويتأمل ، وينفعل ويتململ ، ويتقلب بين الآلام والآمال ، حتى أيقن انه هو النبي المنتظر ، الذي يبعثه الله لهداية البشر ، فتجلى له هذا الاعتقاد في الرؤى المزامية ، ثم قوي حتى صار يتمثل له الملك يلقيه الوحي في اليقظة . وأما المعلومات التي جاءت في هذا الوحي فهي مستمدة الاصل من تلك المعلومات التي ذكرناها ، ومما هداه اليه عقله وتفكره في التمييز بين ما يصح منها وما لا يصح ، ولكنها كانت تتجلى له نازلة من السماء ، وأنها خطاب الخالق عزوجل بواسطة الناموس الاكبر ملك الوحي جبريل الذي كان ينزل على موسى بن عمران وعيسى بن مريم وغيرهما من النبيين عليهم السلام

وقال أحد ملاحدة المصريين إن سولون الحكيم اليوناني وضع قانونا وشريعة لقومه فايس بدعا في العقل أن يضع محمد شريعة أيضا ، وسأبين فساد هذا الرأي

(تنفيذ تصويرهم للوحي النفسي وإبطاله من وجوه)

(الوجه الاول) ان اكثر المقدمات التي أخذوا منها هذه النتيجة هي آراء متخيلة ، أو دعاوي باطلة ، لا قضايا تاريخية ثابتة ، كما بيناه عند ذكرها ، وإذا بطلت المقدمات بطل التسليم بالنتيجة

مثال ذلك زعمهم ان محمداً ﷺ سمع من نصارى الشام خبر غلب الفرس وظهرهم على الروم ، ليوهموها الناس ان ما جاء في أول سورة الروم من الانباء بالمسألة وبان الروم سيغلبون الفرس بعد ذلك — هو مستمد مما سمعه ﷺ من نصارى الشام . وهذا مردود بدلائل التاريخ والعقل . فأما التاريخ فانه يحددنا بان ظهور الفرس على الروم كان في سنة ٦١٠ م وذلك بعد رحلة محمد الاخيرة الى الشام باربع عشرة سنة وقبل بدء لوحي بسنة . ثم ان التاريخ أنبأنا ان دولة الروم كانت محتلة معتلة في ذلك العهد بحيث لم يكن أحد يرجو ان تعود لها الكرة والغلب على الفرس . حتى ان أهل مكة أنفسهم هزئوا بالخبر وراهن أبو بكر أحدهم على ذلك وأجازه النبي ﷺ فريح الرهان . وأما العقل فانه يحكم بان مثل محمد في سمو إدراكه المتفق عليه لا يمكن أن يجزم بان الغلب سيعود للروم على الفرس في مدة بضع سنين — لا من قبل الرأي ولا من الوحي النفسي المستمد من الاخبار غير الموثوق بها . وقد صحح أن انتصار الروم حصل سنة ٦٢٢ م وكان وحي التبليغ للنبي ﷺ سنة ٦١٤ فاذا فرضنا أن سورة الروم نزلت في هذه السنة يكون النصر قد حصل بعد ثمانين سنين وان كان في السنة الثانية تكون المدة سبع سنين ، وهو المعتمد في التفسير والبضع يطلق على ما بين الثلاث والتسع . والحكمة في التعبير عن هذا النبأ بقوله تعالى (غلبت الروم في أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين) ولم يقل بعد سبع سنين أو ثمان مثلاً — هي إفادة أن الغلب يكون في الحرب الممتدة في هذه المدة . وأنباء الوحي والعبر لا تكون بأسلوب التاريخ الذي يحدد الوقائع بالسنين ، وليس في وعود القرآن الكثيرة للمسلمين بالنصر وغيره من أنباء الغيب ذكر السنين ولا الشهور فهذه الآية فريدة في بابها

ومثال آخر ما زعموه من مروره ﷺ في رحلته الى الشام بارض مدين وحديثه مع أهلها ، الذي أرادوا به ان يجملوه أصلا لما جاء في القرآن من أخبارها والخبر باطل كما بيناه عند نقلنا إياه في المقدمات ، ولو صح لما كان من المعقول أن يكون ماسمعه في الطريق من أناس مجهولين ومعارفهم لا يوثق بها أصلا للوحي الذي جاءه في قصة موسى وفي قصة شعيب عليهما السلام

(الوجه الثاني) لو كان النبي ﷺ تلقى عن علماء النصارى في الشام شيئا او عاشرهم لنقل ذلك اتباعه الذين لم يتركوا شيئا علم عنه اوقيل فيه ولو لم يثبت الا ودونوه ووكلا أمر صحته أو عدمها الى اسناده

(الوجه الثالث) لو وقع ما ذكر لا نأخذ أعداؤه من كبار المشركين شبهة يحتاجون بها على ان ما يدعيه من الوحي قد تعلمه في الشام من النصارى ، فانهم كانوا يوردون عليه ما هو اضعف واسخف من هذه الشبهة وهو انه كان في مكة قين (حداد) رومي يصنع السيوف وغيرها فكان النبي ﷺ يقف عنده احيانا يشاهد صنعته فاتهموه بانه يتعلم منه ، فرد الله عليهم بقوله (١٦ : ١٠٣) ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر. لسان الذي يلحدون اليه اعجمي وهذا لسان عربي مبين)

(الوجه الرابع) نصوص القرآن صريحة في انه ﷺ لم يكن يعرف شيئا من اخبار الرسل وقصصهم قبل الوحي ، وهم متفقون معنا على انه ﷺ لم يكن يكذب على احد فضلا عن الكذب على الله عز وجل ، كما اعترف بذلك أعدى أعدائه أبو جهل ، كما أنهم متفقون معنا على قوة إيمانه بالله عز وجل وبقيته بكل ما أوحاه اليه

ومن الشواهد على ذلك قوله تعالى عقب قصة موسى في مدين وما بعدها من سورة القصص (٢٨ : ٤٤) وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا الى موسى الامر وما كنت من الشاهدين ٤٥ ولكننا أنشأنا قرونا فتطاول عليهم العمر ، وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلو عليهم آياتنا ، ولكننا كنا مرسلين) وقوله بعد قصة نوح من سورة هود (١١ : ٤٩) تلك من انباء الغيب نوحيها اليك ما كنت تعلمها انت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين) ونحوها في قصة يونس من سورته (الوجه الخامس) انه لم يرد في الاخبار الصحيحة ولا الضعيفة ان محمداً ﷺ

كان يرجو أن يكون هو النبي المنتظر الذي كان يتحدث عنه بعض علماء اليهود والنصارى قبل بعثته ، ولو روي عنه شيء من ذلك لدونه المحدثون لانهم ماتوا كواً شديداً بلغهم عنه إلا ودونوه كما رووا مثله عن أمية بن ابي الصلت

(الوجه السادس) ان حديث بدء الوحي الذي أثبتته الشيخان في الصحيحين وغيرهما من المحدثين صريح في انه صلى الله عليه وسلم خاف على نفسه لما رأى الملك أول مرة ولم يجد زوجه خديجة بنت خويلد العاقلة المفكرة وسيلة يطمئن بها على نفسه وتطمئن هي عليه إلا استفتاء أعلم العرب بهذا الشأن وهو ابن عمها ورقة بن نوفل الذي كان تنصر وقرأ كتب اليهود والنصارى

(الوجه السابع) لو كانت النبوة أمراً كان يرجوه محمد ويتوقعه ، وكان قد تم استعداده له باختلافه وتمعبده في الغار ، وما صوروا به حاله فيه من الفكر المضطرب ، والوجدان الملتهب ، والقلب المتقلب ، حتى إذا كل استعداده تجلى له رجاؤه واعتقاده ، بما تم به مراده ، لظهر عقب ذلك كل ما كانت تنطوي عليه نفسه الوثابة ، وفكرته الوقادة ، في سورة أو سور من أبلغ سور القرآن ، في بيان أصول الايمان ، وتوحيد الديان ، واجتماع شجرة الشرك وعبادة الاوثان ، وإنذار رؤوس الكفر والطغيان ، ما سيلقون في الدنيا من الخزي والنكال ، وفي الآخرة من عذاب النار ، كسور المفصل ولا سيما [ق والقرآن المجيد] والذاريات والطور والنجم والقمر . ثم الحاقة والنبأ — او في سورة من السور الوسطى التي تقرعهم بالحجج ، وتأخذهم بالعبر ، وتضرب لهم المثل بسنن الله في الرسل ، كسور الانبياء والحج والمؤمنون ، ولكنه ظل ثلاث سنين لم يتل فيها على الناس سورة ، ولم يدعهم الى شيء ، ولا تحدث إلى اهل بيته ولا إلى أصدقائه بمسألة من مسائل الاصلاح الديني الذي توجهت اليه نفسه ، ولا من ذم خرافات الشرك الذي ضاق به ذرعه ، اذ لو تحدث بذلك لثقلوه عنه ، وناهيك بألصق الناس به خديجة وعلي وزيد بن حارثة في بيته ، وأبي بكر الصديق الذي عاشه طول عمره — فهذا السكوت وحده برهان قاطع على بطلان ما صوروا به استعداده للوحي الذاتي الذي زعموه ، واستعداده لعلمه من التلقي والاختبار الذي توهموه

(الوجه الثامن) ان ما نقل من ترتيب نزول الوحي بعد ذلك موافقاً لما جريات
الوقائع والحوادث يؤيد ذلك ، فقد نزل ما بعد صدر سورة المدثر عقب قول
الوليد بن المغيرة المخزومي الذي قاله في القرآن — فقد أراده ابوجهل أن يقول
فيه قولاً يبلغ قومه انه منكر له وانه كاره له ، بعد ان علم انه تجرى استماعه من محمد
ﷺ واعجب به . قال له الوليد وماذا اقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر
لا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ،
ووالله إن لقوله للحلاوة ، وان عليه لطلاوة ، وانه لمنير أعلاه ، مشرق اسفله (١) وانه
ليعلم وما يعلمي ، وانه ليحطم ما تحته . قال ابوجهل لا يرضى عنك قومك حتى تقول
فيه . فقال دعني حتى أفكر ، فلما فكر قال : هذا سحر يؤثر بأثره عن غيره ، فنزلت
الآيات (٧٤ : ١١ ذرني ومن خلقت وحيداً) الخ رواه الحاكم عن ابن عباس
باسناد صحيح على شرط البخاري

(الوجه التاسع) ان هذه المعلومات المحمدية التي تصورها هؤلاء المخالون
لسألة الوحي قابلة المواد، ضيقة النطاق عن أن تكون مصدراً لوحي القرآن
وأن القرآن لأعلى وأوسع وأكمل من كل ما كان يعرفه مثل مجبرا ونسطور
وكل نصارى الشام ونصارى الارض ويهودها، دع الاعراب الذين كان يمر بهم
النبي ﷺ بالطريق إلى الشام

وان القرآن نزل مصدقاً لكتب أهل الكتاب من حيث كونها في الاصل
من وحي الله الى موسى وعيسى وداود وسليمان وغيرهم — ونزل أيضاً همينا عليها
أي رقيباً وحاكماً كما نصت عليه الآية (٤٨) من سورة المائدة (٦) ومما حكم به على
أهلها من اليهود والنصارى انهم أوتوا نصيباً من الكتاب (٥١ و٤٤:٥) ونسوا
نصيباً أو حظاً آخر منه وانهم عرفوا وغيروا وبدلوا (١٣ و١٢:٦) وبين كثيراً
من المسائل الكبرى مما خالفوا واختلفوا فيه من العقائد والاحكام والاخبار ،
ومثل هذه الاحكام العليا عليهم لا يمكن أن تكون مستمدة من أفراد من الرهبان
أو غير الرهبان ، فأضوها على محمد في رحلته التجارية الى الشام ، سواء أكان عند

بعضهم بقية من التوحيد الموسوي واليسوي الذي كان يقول به آريوس وأتباعه أم لا، وسواء كان لدى بعضهم بقية من الانجيل التي حكمت الكنيسة الرسمية بعدم قانونيتها (ابو كريف) كأنجيل طفولة المسيح وأنجيل برنابا أم لا، فمحمد لم يعتقد في الشام ولا في مكة مجماً مسيحياً كجامع الكنيسة للترجيح بين الانجيل والمذاهب المسيحية وبحكم بصحة بعضها دون بعض

ان وقوع مثل هذا منه في تلك الرحلة مما يعلم واضعو هذه الاخبار ببداهة العقل مع عدم النقل انه محال، وعلى فرض وقوعه يقال كيف يمكن أن يحكم بين تلك الانجيل وتلك المذاهب برأيه في تلك الخلسة التجارية للنظر فيها ويأمن على حكمه الخطأ؟ وقد صح عنه أنه قال لأصحابه في شأن أهل الكتاب « لا تصدقوهم ولا تكذبوهم » يعني فيما سكت عنه القرآن اثلاً يكون ما كذبوهم فيه مما حفظوا، ويكون ماصدقوهم به مما نسوا حقيقته أو حرفوا أو بدلوا

(العاشر) إن في القرآن ماهو مخالف للمهدين العتيق والجديد وهو مما لا يعلم الى الآن أن احداً من اليهود والنصارى قال به، كخالفة سفر الخروج فيمن تبنت موسى ففنيه أنها ابنة فرعون وفي القرآن أنها امرأته - وفيما قرره من عزو صنم العجل الذي عبده بنو اسرائيل الى هارون عليه السلام بعزوه إياه الى السامري واثباته لانكار هارون عليهم فيه وغير ذلك،

بل ماجاء به محمد أكبر وأعظم من كل ما في الكتب الالهية ماصح منها وما لم يصح كما سنبينه

رويدكم أيها المفتاتون، الذين يقولون مالا يعلمون، إن وحي القرآن أعلى مما تزعمون، وأكبر مما تتصورون وتصورون، وإن محمداً أقل علماً كسبياً مما تدعون، وأكمل استعداداً لتلقي كلام الله عن الروح القدس مما تستكبرون

وإذا كان وحي القرآن أعلى وأكمل من جميع ما حفظ عن أنبياء الله ورسوله لأنه الخاتم لهم المكمل لشرائعهم الخاصة الموقوتة، فأجدد به أن يكون أكل مما وضعه سولون الفيلسوف اليوناني الذي شبه محمداً به احد ملاحدة عصرنا في مصرنا، مع بعد الشبه بين أمي نشأ بين الاميين، وفيلسوف نشأ في أمة حكمة وتشريع ودولة

وسياسة ، ودخل في كل أمور الامة والدولة (١)

القول الحق في استمداد محمد ﴿ص﴾ للنبوة

التحقيق في صفة حال محمد ﷺ من أول نشأته، وإعداد الله تعالى إياه لنبوته ورسالته، هو أنه خلقه كامل الفطرة، ليبعثه بدين الفطرة، وأنه خلقه كامل العقل الاستمدادي الهيولاني، ليبعثه بدين العقل والنظر العلمي، وأنه كمله بمعالي الاخلاق، ليبعثه متممًا لمكارم الاخلاق، وأنه بغض اليه الوثنية وخرافات اهلها وذرائلهم من صفر سنه، وحبب اليه العزلة حتى لا تأنس نفسه بشيء مما يتنافسون فيه من الشهوات والذات البدنية، او منكرات الوحشية، كسفك الدماء والبغي على الناس، او المظالم الدينية كأكل أموال الناس بالباطل - ليبعثه مصلحاً لما فسد من أنفس الناس، ومزكياً لهم بالتأسي به، وجعله المثل البشري الاعلى، لتنفيذ ما يوحيه اليه من الشرع الاعلى، فكان من عفته أن سأل من سني شبابه خمسا وعشرين سنة مع زوجه خديجة كانت في ١٥ منها عجوزا يائسة من النسل، فتوفيت في الخامسة والستين وهي أحب الناس اليه، وظل يذكرها ويفضلها على جميع من تزوج بهن من بعدها، حتى عائشة بنت صاحبه الصديق على جمالها وحدائتها وذكائها وكال استمدادها للتبليغ عنه - وظل طول عمره يكره سفك الدماء ولو بالحق فكان على شجاعته

١) سولون أحد فلاسفة اليونان السبعة في القرن السابع قبل المسيح والدته من انسياء بسترآتوس آخر ملوك اثينا، وكان من رجال المال ورجال الحرب وتولى في بلاده بعض الاعمال الادارية والعسكرية وقيادة الجيش. وقد انتخب في سنة ٥٩٤ ق.م «ارخونا» اي رئيسا على الامة باجماع احزابها كلها وقادته سلطة مطلقة لتغيير ما شاء من نظم البلاد وقانونها الذي وضعه «زرا كوت» من قبله فوضع لهم نظاما جديدا قررت الحكومة والامة اتخاذه دستورا متبعا لمدة عشرين سنة. فسولون كان في قانونه منقحا ومجددا لقانون اعظم امة من امم الحكمة والحضارة نشأ فيها فكان متعلما وفيلسوفاً راحكاً وقائداً ورئيساً، أقياس عليه محمد ﴿ص﴾ الامي الذي لم يقرأ سطرا ولم ير كتباً، ولا تولى عملاً اداريا ولا سياسيا، ثم إن ما جاء به لم يكن قانونا موضحا منقحا لقوانين أخرى قبله، بل كان اصلاحا لجميع البشر في عقائدهم وآدابهم واحكامهم وحرورهم الخ ؟ نأمل ايها القارئ الى شبهات ملاحدة المسلمين على دينهم ونبيهم !!

الكاملة يقود أصحابه لقتال أعداء الله وأعدائه المعتدين عليه وعليهم لاجل صدمهم عن دينهم ، ولكنه لم يقتل بيده إلا رجلا واحدا منهم (هو أبي بن خلف) كان موطنا نفسه على قتله عليه السلام فهجم عليه وهو مدجج بالحديد من مغفر ودرع فلم يجد عليه السلام بدا من قتله قطعتنه في ترقوته من خلال الدرع والمغفر ، وظل طول عمره وبعد ما أفاء الله عليه من غنائم المشركين واليهود يؤثر القشف وشطف العيش على نعمته ، مع إباحة شرعه إلا كل الطيبات ونهيه لمن كان يتركها تدينا ، ويرقع ثوبه ويخصف نعله ، مع إباحة دينه للزينة وأمره بها عند كل مسجد ، وكان يأكل ما وجد لا يعيب طعاما قط ، إلا أنه كان لا يشرب إلا الماء العذب النقي

وأكل الله تعالى استمداده الذاتي « لا الكسبي » للبعثة بكل دين النبيين والمرسلين ، والتشريع الكافي الكافل لإصلاح جميع البشر الى يوم الدين ، وجعله حجة على جميع العالمين ، بأن أنشأه كأكثر قومه أمياً وصرفه في أميته عن اكتساب أي شيء من علوم البشر من قومه العرب الاميين ومن أهل الكتاب ، حتى انه لم يجعل له أدنى عناية بما ينفخر به قومه من فصاحة اللسان ، وقوة البيان ، من شعر وخطابة ، ومفاخرة ومناقرة ، إذ كانوا يؤمون أسواق موسم الحج وأشهرها عكاظ من جميع النواحي لظهار بلاغتهم وبراعتهم ، فكان ذلك أعظم الأسباب لارتقاء لغتهم ، ولوجود الحكمة في شعرهم ، فكان من الغريب أن يزهد في مشاركتهم فيه بنفسه ، وفي روايته لما عساه يسمعه منه ، وقد سمع بعد النبوة زهاء مائة قافية من شعر أمية فقال « ان كاد ليسلم » وقال « آمن شعره وكفر قلبه » وقال « ان من البيان لسحرا ، وان من الشعر حكمة » رواه أحمد وأبو داود من حديث ابن عباس ، وأما قوله « ان من البيان لسحرا » فقد رواه مالك وأحمد والبخاري وأبو داود والترمذي من حديث ابن عمر

قلنا إن استمداد محمد عليه السلام للنبوة والرسالة فطري لم يكن فيه شيء من كسبه بعلم ولا عمل اساني ولا نفسي ، ولم يرو عنه انه كان يرجوها كما روي عن أمية ابن أبي الصلت ، بل روي عن خديجة (رض) انها لما سمعت من غلامها ميسرة أخبار أمانته وفضائله وكراماته وما قاله بحيرا الراهب فيه تعلق أملها بأن يكون

هو النبي الذي يتجدثون عنه ، ولكن هذه الروايات لا يصل شيء منها الى درجة المسند الصحيح كحديث بدء الوحي الذي أوردناه آنفاً ، فان قيل انه يقويه حلفها بالله ان الله تعالى لا يخزيه أبداً ، قلنا انها علت ذلك بما ذكرته من فضائله ، ورأت انها في حاجة الى استفتاء ابن عمها امية في شأنه .

واما اختلاؤه صلى الله عليه وسلم وتعبده في الغار عام الوحي فلا شك في انه كان عملاً كسبياً مقوياً لذلك الاستعداد الفطري ، ولذلك الاستعداد السلبي من العزلة وعدم مشاركة المشركين في شيء من عباداتهم ولا عاداتهم ، وليكن بقصد الاستعداد للنبوة ، لانه لو كان لاجلها لاعتقد حين رأى الملك او عقب رؤيته حصول مأموله وتحقق رجائه ، ولم يخف منه على نفسه ، وانما كان الباعث لهذا الاختلاء والتحنث اشتداد الوحشة من سوء حال الناس والهرب منها الى الانس بالله تعالى ، والرجاء في هدايته الى المخرج منها ، كما بسطه شيخنا الاستاذ الامام في تفسير قوله تعالى من سورة الشورى (٤٢: ٥١) وكذلك اوحينا اليك روحا من امرنا ، ما كنت تدري مال الكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا . وانك لتهدي الى صراط مستقيم * ٥٢ صراط الله الذي له ما في السموات وما في الارض ألا الى الله تصير الامور) وألم به في رسالة التوحيد المأما مختصراً مفيداً ، فقال رحمه الله تعالى : «من السنن المعروفة أن يتما فقيراً أمياً مثله تفتيح نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كمولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخاطبه لاسيما ان كان من ذوي قرابته ، وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينهيه ، ولا عضد إذا عزم يؤيده ، فلو جرى الامر فيه على جاري السنن لنشأ على عقائدهم ، وأخذ بمذاهبهم ، إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخالفتهم ، اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده (١) ولكن الامر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادرت

(١) كامية بن أبي الصلت وعمرو بن قهيل

حسن الخليقة ، وما جاء في الكتاب من قوله (ووجدك ضالاً فهدى) لا يفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم ، حاش لله ان ذلك هو الافك المبين ، وانما هي الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص ، فيما يرجون للناس من الخلاص. وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين ، وارشاد للضالين ، وقد هدى الله نبيه الي ما كانت تنلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته ، واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته اه

(أقول) وجملة القول ان استعداد محمد ﷺ للنبوته والرسالة عبارة عن جعل الله تعالى روحه الكريمه كرامة صفة حيل بينها وبين كل ما في العالم من التقاليد الدينية ، والآداب الوراثية والعادات المكتسبة ، الى ان تجلى فيها الوحي الالهي باكمل معانيه ، وابلغ مبادئه ، لتجديد دين الله المطلق الذي كان يرسل به رسله الى اقوامهم خاصة بما يناسب حالهم واستعدادهم ، وجعل بعثة خاتم النبيين به للبشر عامة دأمة لا يحتاجون بعدها الى وحي آخر، فكان في فطرته السليمة وروحه الشريفة، وما نزل عليها من المعارف العالية، وما أشرق فيها من نور الله عز وجل الذي تلوته عليك من آخر سورة الشورى — هو مضرِب المثل في قوله تعالى في سورة النور (٢٤ : ٣٥) الله نور السموات والارض مثل نوره كشكاة فيها مصباح المصباح في زجاجة، الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة، زيتونة لا شرقية ولا غربية، يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار، نور على نور، يهدي الله لنوره من يشاء ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم)

فزيت مصباح المعارف المحمدية، يوقد من زيتونة لا شرقية ولا غربية، ولا يهودية ، ولا نصرانية ، بل هي الهية علوية

هذا ما نراه كافيا لتفنيد مزاعم مصوري الوحي النفسي من ناحية شخص محمد واستعداده، ويتلوه ما هو أقوى دليلا ، واقوم قبلا ، وهو تفنيده بموضوع الوحي الذي هو آية نبوته الخالدة ، وحجته الناهضة ، وهو القرآن العظيم

آية الله الكبرى - القرآن العظيم

﴿ القرآن الكريم ، القرآن الحكيم ، القرآن المجيد ، الكتاب العزيز ﴾

الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

هو كتاب لا كالكتب ، هو آية لا كالأيات ، هو معجزة لا كالمعجزات ، هو نور لا كالانوار ، هو سر لا كالاسرار ، هو كلام لا كالكلام ، هو كلام الله الحي القيوم الذي ليس لروح القدس جبريل الامين عليه السلام منه إلا نقله بلفظه العربي من سماء الافق الأعلى إلى هذه الارض ، ولا لمحمد رسول الله وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله منه إلا تبليغه للناس ليبتدوا به ، فهو معجز للخلق بلفظه ونظمه وأسلوبه وعلومه وهدايته ، لم يكن في استطاعة محمد ﷺ أن يأتي بسورة من سوره بكسبه ومعارفه ، وفصاحته وبلاغته ، وهو (ص) لم يكن عالماً ولا بليغاً ممتازاً إلا به ، بل فيه آيات صريحة في معانيه على بعض اجتهاده كقضاء امرى بدر (راجع ص ٨٣ و ٩٤ و ٤٦٤ و ٤٧٣ ج ١٠ تفسير)

قد بينت في تفسير آية التحدى بالقرآن من سورة البقرة (٢ : ٢٣) أم وجوه الاعجاز اللفظي والمعنوي بالاجمال والابحار ، وأعود هنا الى الكلام في علوم القرآن المصلحة للبشر بما يحتمله المقام من البسط والتفصيل ، وهو القدر الذي يعلم منه أن هذه العلوم أعلى من كل ما حفظه التاريخ عن جميع الانبياء والحكماء ، وواضحي الشرائع والقوانين ، وساسة الشعوب والامم

فمن كان يؤمن بأن للعالم رباً عالماً حكماً رحماً صريداً فاعلاماً مختاراً فلا مندوحة له ولا مناص من الايمان بأن هذا القرآن وحي من لدنه عز وجل أنزله على خاتم انبيائه المرسلين رحمة بهم ليبتدوا به إلى تكميل فطرتهم ، وتركية أنفسهم ، وإصلاح مجتمعاتهم من المفاصل التي كانت عامة لجميع أممهم ، فيكون اتباع محمد فرضاً إلهياً لازماً عاماً كما قال تعالى (٧ : ١٥٨) قل يا أيها الناس اني رسول الله اليكم

جميعا الذي له ملك السموات والارض لا إله الا هو يحيي ويميت فآمنوا بالله
ورسوله النبي الامي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون)

ومن كان لا يؤمن بوجود هذا الرب العالم الحكيم فلا مندوحة له عن الجزم
بأن محمداً أكمل وأفضل وأعلم وأحكم من كل من عرف في هذا العالم من الحكماء
الهادين المهديين ، ويكون الواجب بمقتضى العقل ان يعترف له هؤلاء بأنه سيد
البشر على الاطلاق وأولاهم بالاتباع بعنوان (سيد البشر وحكيمهم الاعظم)

واننا رأينا بعض المنصفين من الواقفين على السيرة المحمدية الذين يفهمون
القرآن في الجملة يعترفون بهذا قولاً وكتابةً (منهم) الاستاذ مولر الانكليزي
المشهور ، ومنهم ذلك الفيلسوف الطيب السوري السكاكوليكي النشأة الذي رأى في
مجلة المنار بعض المناقب المحمدية فكتب الينا كتاباً يقول في اوله : أنت تنظر الى
محمد كنبي فتراه عظيماً ، وأنا أنظر اليه كرجل فأعده اعظم وذكر آياتاً في وصفه
ووصف القرآن وما فيه من محكم الآيات ، المانعة لمن عقلمها من تقييد العمران
بالعادات ، وإصلاحه للبشر بحكمة بيانه وقوة بنائه ، وختمها بقوله :

بيانه أربي على أهل النهي وبسيفه أبحى على الهامات
من دونه الإبطال في كل الوري من سابق أو حاضر أو آت

والمؤمنون بهذه الحقيقة من أحرار مفكري الشعوب كلها كثيرون ، ولكن
الجاحدين لوجود رب مدبر للعالمين قليلون ، وان محمداً صلى الله عليه وسلم لحجة عليهم في
نشأته وتربيه وما علم بالضرورة من صدقه الفطري المطبوع ، ثم بما جاء به في سن
الكهولة من هذه العلوم المصلحة لجميع شؤون البشر في كل زمان إذا عقلوها واهتدوا
بها ، وإسناده إياها الى الوحي الالهي ، فهو صلى الله عليه وسلم بمزاياه هذه حجة وبرهان على
وجود الرب الخالق الحكيم بل مجموعة حجج عقلية وطبيعية - وهاك أيها القاريء
مأزفه اليك من قواعد تلك العلوم الاصلاحية بعد تمهيد وجيز في أسلوب القرآن
وحكمة جعل تلك العلوم الكلية متفرقة في سوره بأسلوبه الغريب العجيب ، وهذا المعنى
قد بيناه من قبل وإنما نعيده مع زيادة مفيدة وإيضاح اقتداء بأسلوب القرآن نفسه في
تكرار المعنى الواحد في المواقع المتنضية له من إيجاز أو إسهاب ، وتفصيل أو إجمال

(أسلوب القرآن الخاص وحكمته وإعجازه به)

لو أن عقائد الإسلام المنزلة في القرآن من الإيمان بالله وصفاته وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وما فيه من الحساب والجزاء ودائر الثواب ودار العقاب جمعت وحدها مرتبة في ثلاث سور أو أربع أو خمس مثلا ككتيب العقائد المدونة — ولو أن عباداته من الطهارة والصلاة والزكاة والصيام والحج والذكاة والأذكار وضع كل منها في بضع سور أيضا ككتيب الفقه المصنفة — ولو أن آدابه وحكمه وفضائله الواجبة والمدنوية، وما يقابلها من الرذائل والأعمال المحرمة والمكروهة، أفردت هي وما يقتضيه الترغيب والترهيب من المواعظ والنذير والأمثال الباعثة لشعوري الخوف والرجاء في بضع سور أخرى ككتيب الاخلاق والآداب المؤلفة — ولو أن قواعد التشريعية وأحكامه الشخصية والسياسية والحزبية والمدنية وحدوده وعقوباته التأديبية رتبتم في عدة سور خاصة بها كأسفار القوانين الوضعية — ثم لو أن قصص النبيين المرسلين وما فيها من العبر والمواعظ والسنن الالهية سردت في سورها مرتبة كدواوين التاريخ — لو أن كل ما ذكر وما لم يذكر من مقاصد القرآن التي أراد الله بها اصلاح شؤون البشر جمع كل نوع منها وحده كترتيب أسفار التوراة التاريخي الذي لا يعلم احد مرتبه أو كتب العلم والفقه والقوانين لعقد القرآن بذلك اعظم مزايا هدايته المتصودة بالقصد الاول للغاية التي انتهت اليها، وهو التعبد به واستفادة كل حافظ للقايل من سوره كثيرا من مسائل الايمان والفضائل والاحكام والحكم المنبثه في جميع السور لان السورة الواحدة لا يوجد فيها في هذا الترتيب إلا مقصد واحد من تلك المقاصد، وقد يكون أحكام الطلاق أو الخيض فهو يتعبد بها ولا شك انه يعلمها، وأما سوره المنزلة ففي كل منها حتى أقصرها عدة مسائل من الهداية قهرى في سورتي الفيل وقريش (المتعلقة اخداها بالآخرى حتى في الاعراب) ذكر مسألتين تاريخيتين قد جعلنا حجة على مشركي قريش فيما يجب عليهم من توحيد الله وعبادته بما من عليهم من عنايته بحفظ البيت الذي هو مناط عزهم وفخرهم وشرفهم وتأمين تجارتهم وحياتهم — ولقد بهذا الترتيب أخص أنواع إعجازه أيضا

يعلم هذا وذلك مما نبينه من فوائد نظمه وأسلوبه الذي أنزله به رب العالمين،
 العليم الحكيم الرحيم ، وهو مزج تلك المقاصد كلها بعضها ببعض وتفريقها في السور
 الكثيرة ، الطويلة منها والقصيرة ، بالمناسبات المختلفة ، وتكرارها بالعبارات البليغة
 المؤثرة في القلوب ، المحركة للشعور ، النافية للآثمة والملل من المواظبة على ترتيلها
 بنغمات نظمه الخاص به وفواصله المتعددة القابلة لأنواع من التغني الذي يحدث في
 القلب وجدان الخشوع ، وخشية الاجلال للرب المعبود ، والرجاء في رضوانه ورحمته ،
 والخوف من عقوبته ، والاعتبار بسننه في خلقه ، بما لا نظير له في كلام البشر من
 خطابة ولا شعر ولا رجز ولا مسجع ، فهذا الأسلوب الرفيع في النظم البديع ، وبلاغة
 التعبير السنيح ، كان كما ورد في وصفه : لا تبلى جدته ولا تحزنه كثرة التردد . وحكمة
 ذلك وغايته تعلم مما وقع بالفعل وهاك بيانه بالاجمال

الثورة والانقلاب الذي أحدثه القرآن في البشر

القرآن كتاب أنزل على قلب رجل أمي نشأ على الفطرة البشرية سليم العقل
 صقيل النفس طاهر الاخلاق لم تملكه تقاليد دينية ولا أهواء دنيوية ، لأجل إحداث
 ثورة وانقلاب كبير في العرب فسائر الامم يكتسح من العالم الانساني ما دنس
 فطرته من رجس الشرك والوثنية الذي هبط بهذا الانسان من أفقه الاعلى في عالم
 الارض إلى عبادة مثله وما هو دونه من هذه المخلوقات ، وما أفسد عقله وذهب
 باستقلال فكره من البدع الكنسية ، والتقاليد المذهبية ، التي أحالت توحيد
 الانبياء الأولين شركا وحقهم باطلا ، وهدايتهم غواية - وما أفسد بأسه ، وأذل
 نفسه ، وسلبه ارادته ، من استبداد الملوك الظالمين ، والرؤساء القاهرين ، ثورة تحرر
 العقل البشري والارادة الانسانية من رق المتحلين لانفسهم صفة الربوبية أو النياية
 عنها في التحكم في الناس واستدلالهم ، فيكون كل امرئ اهتدى به حرا كريماً
 في نفسه ، عبداً خالصاً لربه واله ، يوجه قواه العقلية والبدنية الى تكميل نفسه وجنسه
 مثل هذه الثورة الانسانية لا يمكن أن تحدث الا على قاعدة القرآن في قوله
 تعالى (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وكيف يكون تغيير الاقوام

لما بأنفسهم من العقائد والاخلاق والصفات ، التي طبعها عليها العبادات الموروثة والعبادات الراسخة ؟

هل يكفي في ذلك قيام مصلح فيهم يضع لهم كتاباً تعليمياً جافاً ككتب الفنون يقول فيه انكم ايها الناس ضالون فاسدون ، ومضلون مفسدون ، فاعملوا بهذا الكتاب تهتدوا وتصلحوا ، أو قاتونا مدنياً يقول في مقدمته نفذوا هذا القانون تحفظ حقوقكم ، وتعز أمتكم وتقو دولتكم ؟ أنى وقد عهد من الناس الفاسدين المفسدين سوء التصرف بكتب أنبياءهم المرسلين ، وإهمال قوانين حكماهم المصلحين ، (كما فعل المسلمون المتأخرون) وإنما توضع القوانين للحكومات المنظمة ذات السلطان والقوة التي تكفل تنفيذها ، وأنى لمحمد فعل هذا في الامة العربية وقد بعث بالحجة والبرهان ، فريداً وحيداً لأعصبة له من قومه ولا سلطان ؟ على انه جاء بأعدل الأصول التي تبني عليها امته قوانينها عند تكوين دولتها في الاحوال الملائمة لها كما يعلم مما يأتي كلاً ان هذه الثورة ما كان يمكن أن تحدث إلا بما حدثت به وهو تأثير هذا القرآن في الامة العربية التي كانت أشد الامم البدوية والمدنية استعداداً فطرياً لظهور الاسلام فيها بالاقناع كما ايناه بالتفصيل في كتابنا (خلاصة السيرة المحمدية) وسنلم به قريباً ذلك بان من طباع البشر في معرفة الحق والباطل والخير والشر ، والعمل بمقتضى المعرفة وان خالف مقتضى الاهواء والشهوات ، والتقاليد والعبادات ، ان مجزداً البيان والاعلام والامر والنهي لا يكفي في الحمل على التزام الحق ونصره على الباطل ، ولا في أداء الواجب من عمل الخير وترك الشر اذا عارض المقتضى العلمي لها ما أشرنا اليه آنفاً من الموانع النفسية والعملية ، إلا في بعض الافراد من الناس دون الجماعات والاقوام . بل مضت سنة الله في تثبيت الحق والخير في النفس وضدور آثارهما عنهما بالعمل ، أنه يتوقف على صيرورة الايمان بهما ادعانا وجدانياً حاكماً على القلب ، راجحاً على ما يخالفه من رعب ورهب وألم وأمل ، وانما يكون هذا في الاحداث بالتربية العلمية والعملية والاسوة الحسنة لهم فيمن ينشؤون بينهم من الوالدين والاقربين والمعاشرين

وأما كبار السن فلا سبيل إلى جعل الايمان بالحق المطلق والخير العام ادعانا

وجدنا نيا لجمهورهم إلا بالاسلوب الذي نزل به القرآن فقلب به طباع الكهول والشبان وأخلاقهم وتقاليدهم وعاداتهم وجولها إلى ضدها علما وعملا بما لم يمهده له نظير في البشر ، فكان القرآن آية خارقة المعهود من سنن الاجتماع البشري في تأثيره ، بالتبع لكونه آية معجزة للبشر في لغته وأسلوبه

واعتبر هذا ببني اسرائيل سلالة النبيين ، فان كل مارأوه بمضمر من آيات موسى عليه السلام ، ثم مارأوه في برية سيناء مدة التيه منها ، ومن عناية الله تعالى بهم ، ومن مطاعهم كلام الله تعالى بأذانهم في هيب النار المشتعلة على ماترويه توراههم ولم يثبت عندنا التكليم الا لنبيهم - لم يتغير به ما كان بانفسهم من تأثير الوثنية المصرية وخرافاتها ومهايتها واخلاقها ، فقد عبدوا موسى عبادة نكرا ، وعادوه في كل ما كان يأمرهم به ، وعبدوا صنم العجل الذهبي في أثناء مناجاته له به ، حتى وصفهم الله في التوراة بالشعب الصلب الرقبة ، وهو كناية عن البلادة والعماد ، وعصل الطباع المانع من الانقياد ، وظل ذلك كذلك إلى أن باد ذلك الجيل الفاسد بعد أربعين سنة ونشأ فيهم جيل جديد ممن كانوا أطفالا عند الخروج من مصر ومن ولد في التيه أمكن أن يعقلوا التوحيد والشريعة ، وأن يعملوا بها ، ويجاهدوا في سبيلها ، وانما كان ذلك بعد موت موسى عليه السلام

فأين بنو اسرائيل من أصحاب محمد ﷺ الذين تربوا بسماع القرآن وترينه وتدبره في رسوخهم في الايمان ، وصبرهم على أذى المشركين واضطهادهم إياهم ليفتنوهم عن دينهم ، ثم في مجاهدتهم لهم عند الامكان بعد الهجرة ، ومجاهدة اعوانهم من أهل الكتاب (اليهود) وتطهيرهم الحجاز وسائر جزيرة العرب من كفر الفريقين في عهده ﷺ وقد كانت مدة البعثة المحمدية كلها عشرين سنة أي نصف مدة التيه ، وكان ذهب نصفها في الدعوة وتبليغ الدين للأفراد بمكة ، والنصف الآخر هو الذي تم فيه الانقلاب العربي من تشريع وتنفيذ وجهاد

ثم تأمل ما كان من تدفقهم هم انفسهم كالسيل الأتي على الاقطار من نواحي الجزيرة كلها ، والظهور على ملكي قيصر وكسرى أعظم ملوك الارض وإزالة الشرك والظلم منها ، ونشر التوحيد والحق والعدل فيها ، ودخول الامم في دين الله

أفواجا مختارين اهداء بهم ، وعنايتهم بتعلم العربية بالتبع لعنايتهم بالدين ، حتى فتحوا هم وتلاميذهم نصف كرة الارض في زهاء نصف قرن ، أو ثلاثة أرباعها في ثلاثة أرباعه وكانوا مضرب انثال في الرحمة والعدل وموضع الحيرة للعلماء الاجتماع وقواد الحرب

وأنى يبلغ الشعب الذي وصفه ربه في كتابه بالشعب الصاب الرقبة رتبة الذين وصفهم رب العالمين بقوله (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا) الآيات ، فكان عمر ابن الخطاب أمير المؤمنين الذي طبع وشب على الشدة والقسوة يطبخ الطعام هو وزوجه ليلا لمرأة فقيرة تلدو وبعالها حاضر لا يساعدهما إذ لم يكن يعلم أنه أمير المؤمنين لاجرم أن سب هذا كاه تأثير القرآن بهذا الاسلوب الذي نراه في المصحف فقد كان النبي ﷺ يجاهد به الكافرين كما أمره الله بقوله (٢٥ : ٥٢ فلا تطع الكافرين وجاهد هم به جهادا كبيرا) ثم كان به يربي المؤمنين ويزكهم ، ويهدايتهم والتأسي بمبلغه ﷺ زبوا الامم وهدبوها ، وقلما يقرؤه احد كما كانوا يقرءون ، إلا ويبتدي به كما كانوا يمتدون ، على تفاوت في الاستعداد النفسي واللغوي واختلاف الزمان لا يخفى . ولو كان القرآن باسلوب الكتب العلمية والقوانين الوضعية لما كان له ذلك التأثير الذي غير ما بأنفس العرب فغيروا به أتم المعجم ، فكانوا كاهم كما وصفهم الله عز وجل بقوله (٣ : ١١٠ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ، ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون)

ولم يكن عندهم شيء من العلم بسياسة الامم وإدارتها إلا هذا القرآن ، والاسوة الحسنة بمبلغه ومنفذة الاول عليه الصلاة والسلام ، ولن يعود للمسلمين مجدهم وعزمهم الا اذا عادوا الى هدايته ، وتجدد ثورته ، واعنة الله على من يصدونهم عنه زاعمين استغناءهم عن العمل به وبسنة مبيته ، بكتب مشايخهم الجافة الخاوية من كل ما يحبي الايمان وينهض الهمم ، ويزكي الانفس ويبعث على العمل

(فعل القرآن في أنفُس العرب المستعدة له نوعان)

بيان ذلك ان فعل القرآن في أنفُس العرب وإحداثه تلك الثورة الكبرى فيهم قد كان على نوعين أولهما جذبُه الناس الى الاسلام، وثانيهما تزكيتهم وتغيير كل ما كان بانفسهم من جهل وفساد الى ضده، حتى اعقب ما اعقب من الاصلاح في العالم كله . وهاك التفصيل الذي يحتمله المقام لذلك

بيننا مرارا ان الله تعالى قد أعد الامة العربية ولا سيما قريش ومن حولها لما اراده من الاصلاح العام للبشر بكونهم كانوا اقرب الامم الى سلامة الفطرة، وأرقام لغة وأقوامهم استقلالاً في العقل والارادة، لعدم وجود ملوك مستبدين ورؤساء دين أولي سلطان روجي يتحكمون في عقائدهم وأفكارهم ويسخرونهم لشهواتهم فلما بعث فيهم محمد ﷺ بهذا القرآن الداعي الى الحق والى صراط مستقيم كانوا على أتم الاستعداد الفطري لقبول دعوته، ولكن رؤساء قريش كانوا على مقربة من ملوك شعوب العجم في التمتع بالثروة الواسعة والعظمة الكاذبة والشهوات الفاتنة والسرف في الترف، وعلى حظ مما كان عليه رؤساء الاديان فيها من المسكاة اللذيذة بسدانتهم . لبیت الله الحرام الذي أودع الله تعظيمه في القلوب من عهد ابراهيم واسماعيل - قرأوا ان هذا الدين يسابهم الانفراد بهذه العظمة الموروثة، وقد يفضل عليهم بعض الفقراء والوالي، وانه يحكم عليهم وعلى من يفاخرون بهم من آباؤهم بالكفر والجهل والظلم والفسوق ويشبههم بسائمة الانعام - فوجهوا كل قواهم ونفوذهم الى صد محمد عن دعوته ولو بتخليكه عليهم، وجعله أغنى رجل فيهم، ولكن تعذر إقناعه بالرجوع عنها بالترغيب، حتى التمويل والتأييد، فقد أجاب عمه ابا طالب لما عرض عليه ما أراده من ذلك بتلك الكلمة العليا « يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله او أهلك فيه ما تركته » حينئذ أجمعوا أمرهم على ضده عن تبليغها بالقوة، والحيلولة بينه وبين جماهير الناس في الاسواق والحجامع والبيوت الحرام، وبصد الناس عنه أن يأتوه ويستمعوا له، وباضطهاد من اتبعه بالدعوة الفردية، الا أن يكون له من يحميه منهم لقرابة او

جوار أو ذمة ، فهؤلاء الرؤساء المترفون المسرفون المتكبرون كانوا أعلم الناس بصدق محمد وفيهم نزل قوله تعالى (فأنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون) فقد كبروا الحق بغيا واستكبارا للحرص على رياستهم وشهواتهم ، وكانوا اجدر العرب بقبول دعوة القرآن (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلواً) كفراعون وقارون وهامان

فعل القرآن في مشركي العرب

قلنا ان فعل القرآن في أنفس العرب كان على نوعين : ففعله في المشركين ، وفعله في المؤمنين ، فالأول تأثير روعة بلاغته ودهشة نظمه وأسلوبه ، الجاذب لفهم دعوته والاعان به ، اذ لا يخفى حسنها على أحد فهمها ، وكانوا يتفاوتون في هذا النوع تفاوتاً كبيراً لاختلاف درجاتهم في بلاغة اللغة وفهم المعاني العالية فهذا التأثير هو الذي أنطق الوليد بن المغيرة المخزومي بكلمته العالية فيه لابي جهل التي اعترف فيها بانه الحق الذي يعلو ولا يعلى ، والذي يحطم ما تحته ، (راجع ص ١٨٩) وكانت كلمة فائضة من نور عقله وصميم وجدانه ، وما استطاع أن يقول كلمة أخرى في الصدع منه بعد إلحاح أبي جهل عليه باقتراحها إلا بتكلف لمكابرة عقله وجدانه. وبعد أن فكر وقدر ، ونظر وعبس وبسر ، وأدبر واستكبر ، كما يعلم من سورة المدثر وسبب نزول قوله تعالى (ذري ومن خلقت وحيداً) الآيات منها وهذا التأثير هو الذي كان يجذب رءوس أولئك الجاحدين المعاندين ليلا لاستماع تلاوة رسول الله ﷺ في بيته ، على ما كان من نهيهم عنه ونأيهم عنه ، وتواصيهم وتقاسمهم لا يسمعون له ، ثم كانوا يتسلاون فرادى مستخفين ، ويتلاقون في الطريق متلاومين ، وهذا التأثير هو الذي حملهم على منع أبي بكر الصديق (رض) من الصلاة والتلاوة في المسجد الحرام ليلا لما كان لتلاوته وبكائه في الصلاة من التأثير الجاذب الى الاسلام ، وعللوا ذلك بانه يفن عليهم نساءهم وأولادهم ، فاتخذ مسجداً له بفناء داره فطلق النساء والاولاد الناشئون ينسلون إلى بيته ليلا لاستماع القرآن ، فنهاه أشرف المشركين بان العلة لا تزال ، وانهم يخشون أن يغلبهم نساؤهم وأولادهم على الاسلام ، وكانوا الجأوه إلى الهجرة فهاجر فاتي في طريفة ابن الدغنة سيد قومه

فسأله سبب هجرته فأخبره الخبر وهو يعرف فضائل أبي بكر من قبل الاسلام فأجابه وأعادته إلى مكة بجواره ، فعاد إلى قراءته ، وعاد النساء والنسب الحديث إلى الاستماع له ، حتى اضطر المشركون ابن الدغنة إلى اقناعه بترك رفع صوته بالقرآن أو يرد عليه جواره ، فرد أبو بكر جواره اكتفاء بجوار الله تعالى ، وخبره هذا رواه البخاري في باب الهجرة وأوردناه بطوله في تفسير آية الغار (ص ٤٣٦ من الجزء العاشر) بل هذا التأثير هو الذي حملهم على صد النبي (ص) بالقوة عن تلاوة القرآن في البيت الحرام وفي أسواق الموسم ومجامعه ، وعلى توأصيهم بما حكاه الله تعالى عنهم في قوله (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) وقد أدرك هذا أحد فلاسفة فرنسة فذكر في كتاب له قول دعاة النصرانية إن محمداً لم يأتي بأية على نبوته كآيات موسى وعيسى وقال في الرد عليهم : إن محمداً كان يقرأ القرآن خاشعاً أوهاها متألها فتفعل قراءته في جذب الناس إلى الايمان ما لم تفعله جميع آيات الانبياء الاولين (أقول) ولو كان القرآن ككتب القوانين المرتبة وكتب الغنون المبوبة ، لما كان لقليله وكثيره من التأثير ما كان لسوره المنزلة .

كان كل ما يطلبه النبي ﷺ من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن على الناس . قال تعالى مخاطباً له (٦ : ١٩ قل أي شيء أكبر شهادة ؟ قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحى إلي هذا القرآن لا أنذركم به ومن باغ) أي وأنذره كل من بلغه من غيركم من الناس . وقال في آخر سورة النحل (٢٧ : ٩١) إنما أمرت أن أعبد رب هذه البسطة الذي حرمها وله كل شيء وأمرت أن أكون من المسلمين (٩٢) وأن أتلو القرآن : فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا نادم المندرين (٩٣) وقل الحمد لله سيرىكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون)

ان رؤساء قريش عرفوا من قوة جذب الناس إلى الاسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم ، وعرفوا أنه ليس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والكابرة ، فقال لهم عمه أبو لهب من أول الامر : خذوا على يدي ، قيل أن تجتمع العرب عليه ، ففعلوا . وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الاذى ما أفضى بهم إلى الاضطهاد وأشد الايذاء له ولبن يؤمن به ، ثم اجماع الرأي على قتله ، حتى

الجؤم الي الهجرة بعد الهجرة . ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته وما حولها ، وينصره الله عليهم ، إلى أن اضطروا إلى عقد الصلح معه في الحديبية سنة ست من الهجرة . وكان أهم شروط الصلح السماح للمؤمنين بمخالطة المشركين الذي كان سبب سماعهم للقرآن ، ودخولهم بتأثيره في دين الله أفواجا ، فكان انتشار الإسلام في أربع سنين بالإسلام والامان ، أضعاف انتشاره في ست عشرة سنة من أول الإسلام

فعل القرآن في أنفس المؤمنين

كان كل من يدخل في الإسلام قبل الهجرة يلحق بمنزل من القرآن - ليعبد الله بتلاوته - ويعلم الصلاة ولم يفرض في مكة من أركان الإسلام غيرها ، فیرتل ما يحفظه في صلاته اقتداء بالنبي ﷺ إذ فرض الله عليه التمجيد بالليل من أول الإسلام قال تعالى في أول سورة الزمل - التي قيل إنها أول ما نزل بعد فترة الوحي وبعدها المدثر وقيل بالعكس - وتقدم الجمع بين الاقوال (يا أيها الزمل قم الليل إلا قليلا * نصفه أو انقص منه قليلا * أوزد عليه ورتل القرآن ترتيلا *) ثم قال في آخرها (إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه وطائفة من الذين معك والله يقدر الليل والنهار علم أن لن نخصوه فتاب عليكم فاقروا ما تيسر من القرآن) أي في صلاة الليل وغيرها ، ثم ذكر الاعذار المانعة من قيام الليل كما كان منها في ذلك العهد كالمرض والسفر ، وما سيكون بعد سنين وهو القتال في سبيل الله ومما ورد في صفة الصحابة (رض) أن الذي كان يمر ببيوتهم ليلا يسمع منها مثل دوي النحل من تلاوة القرآن ، وقد غلب بعضهم فكان يقوم الليل كله حتى شكوا منهم نساءهم فنهاهم النبي (ص) عن ذلك ، وكان هو يصلي في كل ليلة ثلاث عشرة ركعة يوتر بواحدة منهم ، وما قبلها مثني مثني ، وكان هو يطيل فيهن حتى تورمت قدماء من طول القيام فأنزل الله عليه مرقها ومسلها (طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى)

فتربية الصحابة التي غيرت كل ما كان بأنفسهم من مفاسد الجاهلية وزكيتها تلك التزكية التي أشرنا إليها آنفا وأحدثت أعظم ثورة روحية اجتماعية في التاريخ

إنما كانت بكثرة تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة وتدبره ، وربما كان احدهم يقوم الليلة بآية واحدة يكررها متدبراً لها ، وكانوا يقرؤنه مستلقين ومضطجعين كما وصفهم الله بقوله (الذين يذكرون الله قياما وقعوداً وعلى جنوبهم) وأعظم ذكر الله تلاوة كتابه المشتمل على ذكر أسمائه الحسنى وصفاته المقدسة وأحكامه وحكمه ، وسننه في خلقه وأفعاله في تدبير ملكه ، ولو كان القرآن ككتب القوانين والغنون لما كان لتلاوته كل ذلك التأثير في قلب الطباع ، وتغيير الاوضاع ، بل ان كانت تلاوته تمل فتترك ، فأسلوب القرآن الذي وصفناه آنفاً من أعظم أنواع اعجازه اللغوي ، وتأثيره الروحي ، ومن ارتاب في هذا فلينظر في المسائل التي تشتمل عليها السورة منها ويحاول كتابتها نفسها أو مثلها بأسلوب تلك السورة ونظماً أو أسلوب سورة أخرى ، كالسور التي يتكرر فيها الموضوع الواحد بالاجمال الموجز تارة وببعض التفصيل تارة وبالاطناب فيه أخرى ، - كاعتبار بخص الرسل مع أقوامهم في سور المفضل (كالذاريات والقمر والحاقة) وفيها فوقها (كالؤمنون والشعراء والنمل) وفيها هو أطول منها (كالاعراف وهود) - ثم لينظر ما يفيض اليه عجزه من السخرية

وقد بين بعض علماء الاجتماع في هذا العصر ان تكرار الدعوات الدينية والسياسية والاجتماعية هي التي تثير الجماعات وتدعهم إلى الانهماك والتفاني فيها دعاءً ، وما كان محمد ولا أحد من أهل عصره يعلمون هذا ، ولكن الله يعلم من طباع الجماعات والاقوام فوق ما يعلمه حكماء عصرنا وسائر الاعصار ، وإنما القرآن كلامه ، وليس فيه من التكرار ، الا ماله أكبر الشأن في انقلاب الافكار ، وتحويل مافي الانفس من العقائد والاخلاق إلى خير منها ، وهو ما لا يمكن احداث الانقلاب الاصلاحى بدونها كما تعلم من التفصيل الآتي

❖ مقاصد القرآن ، في ترقية نوع الانسان ، وما فيه من التكرار ❖

ان مقاصد القرآن من اصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم وادخالهم في طور الرشده وتحقيق اخوتهم الانسانية ووحدهم وترقية عقولهم وتزكية أنفسهم منها ما يدفى بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مرارا قليلة ، ومنها ما لا تحصل

القائمة منه إلا بتكراره مرارا كثيرة لاجل أن يجتث من أعماق الانفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة ويفرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الفرس بما ينميه حتى يؤتي أكله وينبعث منه، ومنها ما يجب أن يبدأ بها كاملة، ومنها ما لا يمكن كاله إلا بالتدرج، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل فيوضع له بعض القواعد العامة ومنها ما يكفي فيه الفحوى والكنائية والقرآن كتاب تربية عملية وتعليم لا كتاب تعليم فقط فلا يكفي أن يذكر فيه كل مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في كتب الفنون والقوانين، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية (هو الذي بعث في الاميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) واننا نذكر هنا أصول هذه المقاصد كما وعدنا عند قولنا إن ماجاء به محمد (ص) هو أعلى وأكمل مما جاء به من قبله جميع الانبياء والحكام والحكام فهو برهان على أنه من عند الله تعالى لا من فيض استعداده الشخصي، واننا نقسم هذه المقاصد إلى أنواع ونبين حكمة القرآن، وما امتاز به في كل نوع منها بالاجمال لان التفصيل لا يتم الا اذا يسر الله لنا ما وعدنا به من تفسير مقاصد القرآن كما في ابواب نبين في كل باب منها وجه حاجة البشر الى ذلك المقصد وكون القرآن وفي بهذه الحاجة بما تأتي به من جملة آياته فيه

(النوع الاول من مقاصده الاصلاح الديني لاركان الدين الثلاثة)

ان أركان الدين الاساسية التي بعث بها جميع رسل الله تعالى وناط بها سعادة البشر هي الثلاثة الدينية بقوله (٦٢: ٢) ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهاك الكلام على كل منها بالايجاز

(الركن الاول للدين الايمان بالله تعالى)

فالركن الاول الاعظم من هذه الاركان هو الايمان بالله تعالى فقد ضل فيه جميع الافواام والاثم حتى أقربهم عهداً بهداية الرسل ، فاليهود جعلوا الله كالانسان يشعب ويندم على ما فعل كخلقه للانسان لانه لم يكن يعلم أنه سيكون مثله ، « او مثل الآلهة » وزعموا انه كان يظهر في شكل الانسان حتى إنه صارع اسرائيل ولم يقدر على التغلب منه حتى باركه فأطلقه ، وعبدوا بعبادته من الاصنام والنصارى جددوا من عهد قسطنطين الوثنيات القديمة ، فغمر الشرك بالله هذه الارض بطوفانه ، ووطعت الوثنية على أهلها ، حتى صارت كنائس النصارى كلها كل الوثنية الاولى حملوة بالصور والتماثيل المعبودة - على أن عقيدة التثايت والصلب والغداء هي عقيدة الهنود في كرشنة وتالوته في جملتها وتفصيلها ، وهي مدعومة بالسفة خيالية غير معقولة وبنظام يقوم بتنفيذ الملوك والقيصرة ، ويبدل في سبيله القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، ويربى عليه الاحداث من الصغر تربية وجدانية خيالية لا تقبل حجة ولا برهاناً ، فهدم معاقل هذه الوثنية وحصونها المشيدة في الافكار والقلوب ما كان ليم باقامة برهان عقلي أو عدة براهين على توحيد الله عز وجل ، بل لا بد فيه من دحض الشبهات وتفصيل الحجج العقلية والعلمية والخطابية بالمعارات المختلفة وضرب الامثال ، لذلك كان أكثر المسائل تكراراً في القرآن مسألة توحيد الله عز وجل في ألوهيته بعبادته وحده ، واعتقاد أن كل ما سواه من الموجودات سواء في كونهم مدسكا وعبيداً له لا يملكون من دونه نفعاً ولا ضراً لأحد ولا لانفسهم إلا فيما سخره من الاسباب المشتركة بين الخلق كما شرحتاه مرارا .

واما تكرار توحيد الربوبية وهو انفراده تعالى بالخلق والتقدير والتدبير والتشريع الديني فليس سببه كثرة المشركين بربوبيته تعالى ، بل سببه إقامة الحجة به على بطلان شرك العباد ببدعاء غير الله تعالى لأجل التقرب اليه بأولئك الاولياء وابتغاء شفاعتهم عنده ، فشر الشرك وأعرقه في الكفرواً كثره في ضمنا العقول انما هو توجه العبد إلى غير الله تعالى فيما يشعر بالحاجة اليه من كشف ضرر وجلب نفع من غير طريق الاسباب ، فقد ذكر الدعاء في القرآن أكثر من سبعين مرة ،

بل زهاء سبعين بعد سبعين مرة ، لأنه روح العبادة ونحها ، بل هو العبادة التي هي دين الفطرة كله ، وما عداه من العبادات فوضعي تشريعي
 بعض آيات الدعاء أمر بدعائه تعالى ، وبعضها نهي عن دعاء غيره مطلقا ، ومنها حجج على بطلان الشرك أو على إثبات التوحيد ، ومنها أمثال تصور كلا منهما بالصور اللاتئة المؤثرة ، ومنها إخبار بأن دعاء غيره لا ينفع ولا يستجاب ، وأن كل من يدعى من دونه تعالى فهو عبده ، وأن أفضاهم وخيارهم كالملائكة والانبيا يدعونه هو ويبتغون الوسيلة اليه ، ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، وأنهم يوم القيامة يكفرون بشرك الذين يدعونهم من دون الله أو مع الله - وأمثال ذلك مما يطول تلخيصه ونم انواع أخرى من آيات الايمان بالله تعالى تمنذي التوحيد وتصعد بأهله درجات متفاوتة في السمو بمعرفة تعالى والتأله والتوله في حبه من التعزبه والتقدس والتسبيح ، وذكر أسمائه الحسنى مزوجة ببيان الاحكام الشرعية المختلفة حتى أحكام الطهارة والنساء والارث والاموال ، وبحكم الخلق والتدبير لامور العالم ، وسننه في طباع البشر وفي شؤونهم الاجتماعية . ووضع كل اسم منها في الموضع المناسب له من رحمة وعلم وحكمة وقدرة ومشيشة وحلم وعفو ومغفرة وحب ورضا وما يقابل ذلك ، ومن الامر بالتوكل عليه والخوف منه والرجاء في فضله الخونا هيكم بما سرد منها سرداً لجذب الارواح العالمة إلى كماله المطلق وفنائها فيه كما تراه في خامسة سورة الحشر فتأملها ، وفي فاتحة سورة الحديد (سبح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم * هو الاول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم) ومنها استمد الاولياء العارفين والأئمة الربانيون تلك الكتب العالمة في معرفته تعالى وأسرار خلقه ، بعد ان تربوا بكثرة ذكره ، وتلاوة كتابه

بهذا التكرار الذي جعله أسلوب القرآن المعجز مقبولا غير مملول طهر الله عقول العرب وقلوبهم من رجس الشرك وخرافات الوثنية ، وزكاها بالاخلاق العالمة والفضائل السامية ، وكذا غير العرب ممن آمن بالله وأتقن لغة كتابه وصار يرتله في عبادته ويتدبر آياته ، حتى إذا دب في الامة ديب الجهل بلغة القرآن وقل
 « تفسير القرآن الحكيم » « ٢٧ » « الجزء الحادي عشر »

تدبره واعتمد المسلمون في فهم عقيدتهم على الكتب الكلامية المصنفة ضعف التوحيد واتبعوا سنن من قبلهم شهراً بشبر وذراعاً بذراع اعتقاداً وعملاً، وتأولوا وجدلاً، فصار أدياء العلم يتأولون تلك الآيات الكثيرة على التوحيد بشبهاتهم وأهوائهم كما هو مشاهد ومعلوم

على أن بعض المتكلمين والصوفية قد باعوا في التوحيد حتى أنكر بعضهم تأثير الاسباب في مسبباتها، وقال بعضهم بوحدة الوجود، وانتهى بهم ذلك الى بدعة الجبر التي أفسدت على أهلها كل شيء، بيد أن الاولين منهم كانوا يقولون بما يهديهم اليه النظر العقلي، أو رياضة النفس وما تشعره من الشعور الوجداني، ثم خلف من بعدهم خلف من المقلدين لاحظ لهم من القرآن ولا من البرهان ولا من الوجدان، وإنما يتبعون العوام ويتأولون لهم بكلام امثالهم من المصنفين الجاهلين. ولو فقهوا أقصر سورة في التوحيد والتنزيه كما يجب - وهي سورة الاخلاص - لما وجد الشرك الى أنفسهم سبيلاً

قد كان توحيد المسلمين الاولين لله ومعرفتهم به وحبهم له وتوكلهم عليه هو الذي زكى أنفسهم، وأعلى هممهم، وكأهم بعزة النفس، وشدة البأس، وإقامة الحق والعدل، ومكنتهم من فتح البلاد وسياسة الامم، واعتاقها من رق الكفنة والاحبار والرهبان والبوذات والموبدانات الروحي والعقلي، وتحريرهم من ظلم الملوك واستبدادهم، وإقامة دعائم الحضارة، وإحياء العلوم والفنون الميتة وترقيتها فيهم، وقد تم لهم من كل ذلك ما لم يقع مثله ولا ما يقاربه لأمة من امم الارض، وحتى قال الدكتور غوستاف لوبون المؤرخ الاجتماعي الشهير: ان ملكة الفنون لم يتم تكوينها لأمة من الامم الناهضة إلا في ثلاثة أجيال، أولها جيل التقليد وثانيها جيل الخضرمة وثالثها جيل الاستقلال والاجتهاد - قال: إلا العرب وحدهم فقد استحكمت لهم ملكة الفنون في الجيل الاول الذي بدؤا فيه بمزاوتها

وأقول ان سبب ذلك تربية القرآن لهم على استقلال العقل والفكر واحتقار التقليد، وتوطين انفسهم على إمانة البشر وقيادتها في أمور الدين والدنيا معاً، وقد خفي كل هذا على سلاطينهم بعد ذهاب الخلافة الاسلامية وزوال النهضة العربية

وتحول السلطان الى الاعاجم الذين لم يكن لهم من الاسلام الا الظواهر التقليدية المنفصلة عن هداية القرآن

(الركن الثاني من اركان الدين عقيدة البعث والجزاء)

وأما الركن الثاني وهو الايمان باليوم الآخر وما يكون فيه من البعث والحساب والجزاء على الاعمال، فقد كان جل مشركي العرب ينكرونه اشد الانكار، ولا يكمل الايمان بالله تعالى ويكون باعثاً للامة على العمل الصالح وترك الفواحش والمنكرات والبغي والعدوان بدونه، وكان أهل الكتاب وغيرهم من الممال التي كان لها كتب وتشريع ديني ومدني ثم فقدت كتبهم أو حرقوا واستحوذت عليهم الوثنية يؤمنون بحياة بعد الموت وجزاء على الاعمال، ولكن ايمانهم هذا قد شابه الفساد بيدنا على بدع ذهب بجل فائدته في إصلاح الناس، وأساسها عند الهنود وغيرهم من قدماء الوثنيين وخلف النصراني وجود المحاص القادي الذي يخلص الناس من عقوبة الخطايا ويفديهم بنفسه، وهو الاقنوم الثاني من الثالوث الالهي الذي هو عين الاول والثالث، وكل واحد منهما عين الآخر. وكل ما يقوله النصراني في فداء المسيح للبشر وغير ذلك فهو نسخة مطابقة لما يقوله الهنود في كرشنة في اللفظ والفحوى كما تقدم، لا يختلفان إلا في الاسمين كرشنة ويسوع.

وأما اليهود فكل ديانتهم خاصة بشعب اسرائيل ومحابة الله تعالى له على سائر الشعوب في الدنيا والآخرة ويسمون به إله اسرائيل كأنه ربهم وحدهم لا رب العالمين، وديانتهم أقرب إلى المادية منها إلى الروحية، فكان فساد الايمان بهذا الركن من أركان الدين تابعاً لفساد الركن الاول وهو الايمان بالله تعالى ومعرفة محتاجا إلى الاصلاح مثله

جاء القرآن للبشر بهذا الاصلاح، فقد أعاد دين النبيين في الجزاء إلى أصله المعقول وهو ما كرم الله تعالى به الانسان من جعل سعادته وشفاقته منوطين بايمانه

وعمله ، اللذين هما من كسبه وسعيه لا من عمل غيره ، وان الجزاء على الكفر والمعاصي يكون بعامل الله تعالى بين جميع خلقه بدون محاباة شعب على شعب ، والجزاء على الايمان والاعمال الصالحة يكون بمقتضى الفضل ، فالحسنة بمشر أمثالها وقد يضاعفها الله تعالى أضغافا كثيرة

ومدار كل ذلك قاعدة قوله تعالى (ونفس وما سواها * فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) أي إن الله الذي خلق هذه النفس وسواها بما وهبها من المشاعر والعقل ، قد جعلها بالهام الفطرة والقرينة مستعدة للفجور الذي يرد بها ويدسيها ، والتقوى التي تمنجها وتعملها ، وتمكنة من كل منها بإرادتها ، والترجيح بين خواطرها ومطالبها ، ومنحها العقل والدين يرجحان الحق والخير على الباطل والشر ، فبقدر طهارة النفس وأثر تزيينها بالايمان ومكارم الاخلاق ومحاسن الاعمال يكون ارتقاؤها في الدنيا وفي الآخرة ، والضد بالضد ، فالجزاء أثر طبيعي للعمل النفسي والبدني الذي يزي النفس او يدسيها ويدنسها ، وهذا هو الحق الذي يثبتته من عرف حقيقة الانسان ، وحكمة الديان ، وهو مما أصلحه القرآن من تعاليم الاديان

فاذا علمت ما كان من انكار مشركي العرب للبعث والجزاء ، ومن فساد ايمان أهل الكتاب وسائر الملل في هذه العقيدة ، وعلمت أنها مكلمة للايمان بالله تعالى ، وان تذكرها هو الذي يقوي الوازع النفسي الذي يصد الانسان عن الباطل والشر والظلم والبغي ، ويرغبه في التزام الحق والخير وعمل البر - علمت أن ذلك ما كان ليفعل فعله العاجل في شعب كبير الا بتكراره في القرآن بالاساليب العجيبة التي فيه من حسن البيان ، وتقريب البعيد من الازدهان ، تارة بالحجة والبرهان ، وتارة بضرب الامثال ، وقد تكررت في آيات بينات ، علمها تبلغ المثات ، ومن اعجازه انها لا تمل ولا تسأم الايمان بالبعث والجزاء وهو الركن الثاني في جميع الاديان ، من لوازم الركن الأول وهو الايمان بالله المتصف بجميع صفات الكمال ، المنزه عن العيب في أفعاله وأحكامه ، ولهذا كان من أظهر أدلة القرآن عليه قوله (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً

وأنكم إلينا لا ترجعون) وقوله (أيحسب الإنسان أن يترك سدى * ألم يك نطفة من مني بمني * ثم كان علقة مخلوق فسوى * فجعل منه الزوجين الذكر والانثى * أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) فكفر الإنسان بهذا الركن من أركان الايمان يستلزم كفره بحكمة ربه وعدله في خلقه ، وكفره بنعمته بخلقه في أحسن تقويم ، وتفضيله على أهل عالمه (الارض) حيث سخرها وكل ما فيها لمنافعه ، وعلى كثير من خلق في عالم الغيب الذي وعده بمصيره اليه ، وجهله بما وهبه من المشاعر والقوى والعقل ، وجهوله بحكمته في خلقه مستعداً لما ليس له حد ونهاية من العلم ، الدال على انه خلق حياة لا حدها ولانهاية ، - ومن لوازم هذا الكفر والجهل كله ، احتقاره لنفسه باعتقاده انه خلق عبثاً لا لحكمة بالغة ، وأن وجوده في الارض موقوت محدود بهذا العمر القصير المنقوص بالهموم والمصائب والظلم والبتي والآثام ، وانه يترك سدى لايجزى كل ظالم من افراده بظلمه ، وكل عادل بعدله وفضله ، واذ كان هذا الجزاء غير مطرد في الدنيا لجميع الافراد ، تعين ان يكون جزاء الآخرة هو المظهر الاكبر للعادل العام

ومما جاء في القرآن مخالفاً لما عند النصارى من عقيدة البعث والجزاء ان الانسان في الحياة الآخرة يكون انساناً كما كان في الدنيا إلا أن أصحاب الأنفس الزكية والارواح العالية يكونون أكمل ارواحاً وأجساداً مما كانوا بتزكية أنفسهم في الدنيا ، وأصحاب الانفس الخبيثة والارواح السافلة يكونون ناقص وأخبث مما كانوا بتدسية أنفسهم في الدنيا ، ويعلم مما ثبت عن قدماء المصريين وغيرهم من الأقدمين أن الاديان القديمة كانت تعلم الناس عقيدة البعث بالروح والجسد

ولو كان البعث للارواح وحدها لنقص من ملكوت الله تعالى هذا النوع الكريم المكرم من الخلق المؤلف من روح وجسد ، فهو يدرك اللذات الروحية واللذات الجثمانية ويتحقق بحكم الله (جمع حكمة) وأسرار صنعه فيها معاً ، من حيث حرم الحيوان والنبات من الاولى والملائكة من الثانية ، وما جنح من جنح من أصحاب النظريات الفلسفية إلى البعث الروحاني المجرد إلا لاحتقارهم للذات الجسدية

وتسميتها بالحيوانية مع شفاء أكثرهم بها ، وإنما تكون نقصاً في الانسان إذا سخر عقله وقواه لها وحدها حتى يصرفه اشتغالها عن اللذات العقلية والروحية بالعلم والعرفان - وأصل هذا الافراط والتفريط غلو الهنود في احتقار الجسد وتربية النفس بالرياضة وتمذيب الجسد وتبعهم فيه نساك النصارى كما تبعوهم في عقيدة الصاب والقداء والتثليث على أنهم نقلوا ان المسيح عليه السلام شرب الخمر مع تلاميذه لما ودعهم في الفصح وقال لهم : اني من الآن لا أشرب من نتاج الكرمة هذا الى ذلك اليوم حينما أشرب به معكم جديدا في ملكوت أبي . (متى ٢٦ : ٢٩) وجرى اليهود على عكس ذلك . وجاء الاسلام بالاعتدال فاعطى الانسان جميع حقوقه ، وطالبه بما يكون بها كاملا في انسانيته . وقد بينا كل ما يتعلق بهذه المسألة من جميع اطرافها العامة والدينية وكشف شبهاتها في تفسير سورة الانعام التي هي اجمع سور القرآن لمسائل الايمان بالله وتوحيده والبعث والرسالة ودحض شبهات المشركين عليها (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨ تفسير) ويؤخذ مما ورد من الآيات والاحاديث النبوية من صفة حياة الآخرة ان القوى الروحية تكون هي الغالبة والمتصرفة في الاجساد فتكون قادرة على التشكل بالصور اللطيفة وقطع المسافات البعيدة في المدة القريبة ، والتخاطب بالكلام بين اهل الجنة وأهل النار - وان ترقى البشر في علم الكيمياء وخواص الكهرباء والصناعات والآلات في عصرنا قد قرب كل هذا من حس الانسان بعد أن كان الماديون للمحدون يعدون مثل قوله تعالى (٧ : ٤٤) ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ قالوا نعم فأذن مؤذن بينهم : ان لعنة الله على الظالمين) من تحييات محمد صلوات الله وسلامه عليه -

وها نحن أولاء نخاطب من مصر اهل عواصم اوربة بالة اتلفون ، ونسمع خطبهم ومعازفهم بالة الراديو ، وسنراهم ويروننا بالة التليفزيون مع التخاطب حينما يعم انتشارها وأما علماء الروح من الافرنج وغيرهم فقد قرروا ان الارواح البشرية قادرة على التشكل في اجساد تأخذها من مادة الكون كما يقول الصوفية . وهذه مسألة او مسائل قد شرحتها من قبل في هذا التفسير وإنما نذكرها هنا بالاجمال رداً على من زعموا ان القرآن مستمد من كتب اليهود والنصارى ومن عقل محمد ﷺ وإلهاماته الروحية

ويناسب هذا ماجاء في القرآن من نبأ خراب العالم وقيام الساعة التي هي بدء ما يجب الايمان به من عقيدة البعث والجزاء ولم يوجد له اصل عند اهل الكتاب ولا غيرهم ولا هو مما يمكن أن يكون قد عرفه محمد ﷺ بذلكه او نظرياته العقلية. وجملة ان قارعة... والظاهر انها كوكب - تفرع الارض وتصحها صحاوترجها رجا فتكون هباء (غباراً رقيقاً) منبثاً في الفضاء . وحينئذ يختل مايسمى في عرف العلماء بالجازبية العامة فتتناثر الكواكب الخ وهذا المعنى لم يكن يختر بالاحد من علماء الكون ولا من علماء الدين فلا يمكن أن يقال أن محمداً ﷺ سمعه من احد في بلده او في سفره ، ولا يعقل أن يكون قاله برأيه وفكره، فهو من أنباء القرآن الكثيرة التي تدحض زعم القائلين بالوحي النفسي. وقد صرح غير واحد من علماء الهيئة الفلكية المعاصرين بأن خراب العالم بهذا السبب هو أقرب النظريات العلمية لخرابه

(الركن الثالث للدين العمل الصالح)

وأما الركن الثالث من مقاصد بعثة الرسل وهو العمل الصالح فهو مكرر في القرآن في سور كثيرة لاصلاح ماأفسده البشر فيه بجعله تقليدياً غير مزك للنفوس ولا مصلح لشؤون الاجتماع ، ولكن دون تكرار توحيد الله وتقديسه الذي هو الاصل الذي يتبعه غيره، ولولا الحاجة الى هذا التكرار في التذكير والتأثير لكانت سورة العصر كافية في الاصلاح العلمي العملي على قصرها ، كسورة الاخلاص في الركن الاول الاعتقادي ، وكل منهما تكتب في سطر واحد فهما من معجزات اعجاز القرآن وهدايته

ثم ان العمل الصالح من لوازم الايمان بالله في الدرجة الاولى لأن من عرف الله عرف استحقاقه للحمد والشكر والعبادة والحب والتعظيم ، وهو من لوازم الايمان بالجزاء على الاعمال في الدرجة الثانية خوفاً من العقاب ورجاء في الثواب ويدخل في الاعمال الصالحة العبادات التي يتقرب بها إلى الله تعالى ، وسائر أعمال البر التي ترضيه بما لها من التأثير في صلاح البشر كبر الوالدين وصلة الرحم واكرام اليتامى والساكين. ومن أصوله الوصايا الجامعة في آيات سورة الاسراء

(١٧ : ٢٣ وقضى ربك - إلى قوله - ٣٩ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) الخ وهي اجمع واعظم من الوصايا العشر التي في التوراة. وآيات سورة الانعام (١٥١:٦) قل تعالوا آتوا محرم ربكم عليكم) الخ - وغير ذلك مما ينفع الناس من الحث على الفضائل والزجر عن الرذائل والمعاصي الضارة بالابدان والاموال والاعراض والعقول والاديان ، وثمارها الاكبر اتباع الهوى وطاعة وسوسة الشيطان. ويضادها ملكة التقوى فهي اسم جامع لما بقي النفس من كل ما يدنسها وتسوء به عاقبتها في الدنيا او الآخرة، ولهذا تذكر في المسائل الدينية والزوجية والحربية وغيرها، وقد فصلنا هذا في (ص ٦٤٨ ج ٩ تفسير) ولا حاجة الى التطويل بالشواهد على ما في القرآن منها وسنة القرآن في الارشاد إلى الاعمال الصالحة بيان أصولها ومجملها وتكرار التذكير بها بالاجمال ، وأكثر ما يبحث عليه من العبادات الصلاة التي هي العبادة الروحية العليا والاجتماعية المثلى ، والزكاة التي هي العبادة المالية الاجتماعية الكبرى، كمر الامر بهما في آيات كثيرة وبين أهم منافعهما بقوله (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) وقوله (ان الانسان خلق هلوعا * إذا مسه الشر جزوعا * وإذا مسه الخير منوعا * إلا المصابين الذين هم على صلاتهم دائمون * والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم * والذين يصدقون بيوم الدين) الآيات وقوله (خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكهم بها)

ولم يكرر ما يحفظ بالعمل والافتداء بالرسول من أحكام الصلاة والزكاة والصيام والحج بل لم يذكر منها إلا لما لذكره فائدة خاصة . وذكرت فيه احكام الصيام في موضع واحد ، ولم يذكر فيه عدد الركعات في كل صلاة ولا عدد الركوع والسجود، ولا نصاب الزكاة في كل نوع مما تجب فيه . لان كل هذا يؤخذ من بيان الرسول ويحفظ بالعمل وليس في ذكره تزكية للنفس ولا تغذية للايمان

ترجيح فضائل القرآن على فضائل الانجيل

واذكر فضيلتين من فضائله يزعم النصارى أن ماهو ماثور عندهم فيها أكمل وأفضل مما جاء به الاسلام (الاولى) قول المسيح عليه السلام : أحبوا أعداءكم ياركوا لاعنيكم . أحسنوا إلى من أساء اليكم . ومن ضربك على خدك الايمن

فأدوله الايسر » ومن المعلوم بالبداهة أن امتثال هذه الاوامر يتعذر على غير الاذلة المستعبدين من الناس، وأنه قد يكون من أكبر المفاسد باغراء الاقوياء بالضعفاء الخاضعين ، وانك لتجد أعصى الناس لها من يسمون أنفسهم بالمسيحيين أمثال هذه الاوامر لا تأتي في دين الفطرة العام لان امتثالها من غير استطاع، والله تعالى يقول (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وإنما قرر القرآن في موضوعها الجمع بين العدل والفضل والمصلحة . قال تعالى (٤٢ . ٤٠) وجزاء سيئة سيئة مثلها . فمن عفا وأصلح فأجره على الله انه لا يجب الظالمين (٤١) ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل (٤٢) إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبيغون في الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم (٤٣) ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الامور) ولا يخفى ان العفو والمغفرة للمسيء انما تكون من القادر على الانتصار لنفسه ، وبذلك يظهر فضله على من عفا عنه ، فيكون سبباً لاستبدال المودة بالعداوة ، فيمكن الاغراء بالتعدي ودوام الظلم ، ولذلك قال (٤١ : ٣٤) ولا تستوي الحسنة ولا السيئة . ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم (٢٥) وما يلغهاها إلا الذين صبروا وما يلغهاها الاذو حظ عظيم) فانظر كيف بين مراتب التكامل ودرجاته من العدل والفضل ، وكيف استدل عليه بما فيه من المصلحة وحكم العقل ، أفليس هذا الاصلاح الاعلى على لسان أفضل النبيين والمرشدين ، دليل على أنه وحي من الله تعالى قد أكمل به الدين ؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين ، ولا يجحده إلا من سغه نفسه فمكان من الجاهلين

(الثانية) مباغاة المسيح عليه السلام في التزهيد في الدنيا والامر بتركها واذم الغنى حتى جعل دخول الجمل في ثقب الابرة أيسر من دخول الغني ملكوت السموات . ونقول ان هذه المسألة وسابقتها انما كانتا اصلاحاً موقفاً لاسراف اليهود وغلوهم في عبادة المال حتى أفسد أخلاقهم وآثروا دنياهم على دينهم . والغلو يقاوم موقفاً بضده ، وكذلك كانت دولة الرومان السالبة لاستقلال اليهود وغيرهم دولة مسرفة في الظلم والعدوان . وأما الاسلام فهو دين البشر العام الدائم فلا يقرر فيه إلا ما هو لمصلحة الناس . كلهم في دينهم ودنياهم . وهو في هذه المسألة ذم استعمال المال فيما يضر من الاسراف .

والظنيان ، ووذم أكله بالباطل ومنع الحقوق المفروضة فيه والبخل به عن الفقراء والضعفاء - ومدح أخذه بحقه وبذله في حقه ، وانفاقه في سبيل الله بما ينفع الناس ويعزز الملة ويقوي الامة ، ويكون عوناً لها على حفظ حقيقتها واستقلالها - فهذه المسألة وما قبلها مما أكل الله تعالى به الدين ، نياً أو حاف من كتابه إلى محمد رسول الله وخاتم النبيين ، وما كان لرجل أمي ولا متعلم أن يصل بمقله إلى أمثل هذا الاصلاح لتعاليم الكتب السماوية التي يتعبد بها الملايين من البشر ، ولكتب الحكماء والفلاسفة أيضاً ، فمثل الاقرب إلى العقل أن يكون يوحي من الله عز وجل أم من نفس محمد (ص) وعلى ذكر الفلاسفة أذكر شبهة لمقلدتهم على الفضائل وعمل الخير الدينية

يلوكونها بالسنتهم ولا يعقلون فسادها ، وهي أن الكمال البشري أن يعمل الانسان الخير لذاته أو لانه خير لا لعله ، ويعدون من أكبر العاقل أن يعمله رجاء في ثواب الآخرة أو خوفاً من عقابها ، ومعنى هذا أن كانوا يفتنون ان من يقصد بعمل الخير والبر بما أرشد اليه الاسلام من تزكية نفسه وترقية روحه بحيث تكون راضية مرضية عند رب العالمين ذي الكمال المطلق الاعلى - وأهلا لجوارفه دار كرامته يكون ناقصاً ، وأما يكون كاملاً اذا خرج عن طبعه ، وقصد النفع بعمله لغيره دون نفسه ، ودون ارضاء ربه ، ومن ذا الذي يحذ حقيقة هذا الخير للبشر ويحماهم عليه ؟

وجملة القول أن أركان الدين الثلاثة مأثورة عن جميع الامم القديمة وذلك دليل على أن اصلها واحد وهو الوحي وهداية الرسل ، وأنه كان قد دب اليها الفساد بتعاليم الوثنية وبدعها ، فجاء محمد النبي الامي بهذا القرآن من عند الله تعالى فأصنح ما كان من فسادها الذي جعلها غير كفلة اسعادة البشر الآخذين بها ، من شوب الايمان بالله بالشرك والتشبيه بالخلق ، وجعل الجزاء بالمحاباة والفضاء ، لا بالحق والعدل ، وجعل العبادات تقاليد كاللعب واللهو ، غير مشمرة لتزكية النفس ، ولا راجحة في ميزان العقل ، وعبادات الاسلام وآدابه كلها معقولة مكلة لفظرة الانسان

وانما نقفي على هذا ببيان القرآن لما جهله البشر من أمر النبوة ووظائف الرسل . ثم نعود إلى بيان ما في وحي القرآن من قواعد الاصلاح العام الدائم للبشر الدال على كونه من عند الله لا من معارف محمد (ص) النابعة من نفسه

المقصد الثاني من مقاصد القرآن

﴿ بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل ﴾

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة إلا أفراداً من بقايا الخنفاء في الحجاز وغيره ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها وقليل مأمم ، وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم ، ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص تعالى بهذه الرحمة والمنة من يشاء من عباده وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب اسرائيل وحده ، كأن بقية البشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما اعطاه لليهود من هداية النبوة . على أنهم وصفوا الانبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله ومصارعته وارتكاب كبائر المعاصي كما تقدم في القسم الاول من هذا البحث ، ووافقتهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الانبياء من رسل المسيح وغيرهم وعبودهم أيضاً ، على أنهم نقلوا عن بعض خواص تلاميذه إنكاره إياه في وقت الشدة ، وعن بعضهم أنه أسلمه لأعدائه ، وأنه قال لهم « كلكم تشكون فيّ في هذه الليلة » واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهبانهم وقسوسهم أرباباً من دون الله تعالى بأن نحلوم حق التشريع الديني من وضع العبادات والتحليل والتحرير (١) وكل ذلك من الكفر بالله وانكار عدله ، وعموم رحمته وفضله ، ومفسدات نوع الانسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه ، فأبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ، وأثبت بعثة الرسل والمنذرين لجميع شعوبه بقوله (١٦ : ٣٦) ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة) وقوله (٣٥ : ٢٤) إنا أرسلناك بشيراً وناذيراً وان من أمة إلا خلا فيها نذير) وكرم الانسان بجعل التشريع الديني

من حقوق الله وحده ، وانما النبيون والرسل مبلغون عنه وليسوا بمسيطرين على الاقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته فقد أبتل ما نحلهم الناس من ربوبية التشريع كما أبتل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين ، وبذلك تحرر الانسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الامم المتدينة ولا سيما النصارى

واضلال جميع أهل الملل والنحل في ذلك كرر هذا الاصلاح في كثير من السور بالنصريح بان الرسل بشر مثل سائر البشر يوحى اليهم ، وبانهم ليسوا بالإمبلين لدين الله تعالى الموحى اليهم ، قال تعالى نخاتمهم المكمل لدينهم في خاتمة سورة الكهف (١٨ : ١١٠) قل انما انا بشر مثلكم يوحى الي انما الهكم (الواحد) لا آية وقال في جهنم من وسطها (٥٦) وما نرسل المرسلين الا مبشرين ومنذرين (ومثلها في سورة الانعام (٦ : ٤٨) وفي معناها آيات أخرى - بعثهم مبشرين ومنذرين بالقول والعمل والتنفيذ ، وبانهم لا يملكون للناس ولا لانفسهم نفعا ولا ضرا ولا هداية ولا نجاة من العقاب على مخالفة شرع الله وسننه في خلقه في الدنيا ولا في الآخرة . وقد شرحنا ذلك في تفسير قوله تعالى (١٨٧ : ٧) قل لا املك لنفسي نفعا ولا ضرا الا ماشاء الله ولو كنت اعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء . إن انما الانذار وبشير لقوم يؤمنون) وسيأتي نظيرها في الآية ٤٩ من هذه السورة التي نفسرها ، وقد بين ذلك النبي ﷺ باقواله وأعماله وأخلاقه في العبودية والتواضع بما لا يدع لنا ويل الآيات سبيلا . حتى فطن لذلك بعض علماء الافرنج الاحرار فقال ان محمداً لما رأى خزري النصارى بتأليه نبيهم وعبادته لم يكتف بتلقيب نفسه برسول الله حتى أمرهم بان يقولوا « أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله »

وأما مسألة الشفاة التي كان مشركو العرب يثبتونها لمعبوداتهم في الدنيا وأهل الكتاب يثبتونها لأنبيائهم وقديسيهم في الدنيا والآخرة فقد نفاها القرآن وأبطلها وأثبت أن الشفاة لله جميعا وأنه لا يشفع عنده أحد إلا باذنه (٢٨ : ٢١) يعلم

مايين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون (٢٩) ومن يقل منهم أي إله من دونه فذلك نجزه به جهنم ، كذلك يجزي الظالمين) وقد فصلنا ذلك في تفسير سورة البقرة وغيره مرارا (ومنه ان الشفاعة الثابتة في الاحاديث غير الشفاعة الوثنية المنقبة في القرآن) . وقد كرر هذه المسألة دون تكرار ما قبلها لانها فرع لها فالاقناع بها أسهل

فأنت ترى ان القرآن قد بين حقيقة هذه المسألة التي ضل فيها الملايين من البشر فأشركوا بالله ما لا يضرهم ولا ينفعهم، فهل كان هذا مما استمده محمد ﷺ من علماء اهل الكتاب فجادوا به عليه وبخلوا به على اقوامهم ؟ أم هو تابع من نفسه وهو يقتضي ان ما ينبع منها اعلى من وحي الله لغيره على حسب دعوى أتباع هؤلاء الرسل ؟ كلا إنما هي من وحي الله تعالى له

الايمان بجميع الرسل وعدم التفرقة بينهم

ومما يبينه القرآن في مسألة الانبياء والرسل أنه يجب الايمان بجميع رسل الله تعالى وعدم التفرقة بينهم في الايمان، وان الايمان ببعضهم والكفر ببعض كالكفر بهم كلهم، لان اضافتهم الى الله تعالى وحده ووظيفتهم في ارشاد المكلفين تبليغ رسالته وشريعته واحدة . قال تعالى في خواتيم سورة البقرة (آمن الرسول بما انزل اليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله . لانفرق بين احد من رسله) وبين في سورة النساء أن التفرقة بينهم في الايمان هو الكفر حق الكفر ، وأن الايمان بالجميع بغير تفرقة هو الايمان حق الايمان وهو في الآيات (٤ : ١٥٠ - ١٥٢) وهذا مبني على الايمان بان دين الله تعالى الذي ارسل به جميع رسله واحد في مقاصده من هداية البشر واصلاحهم وإعدادهم لسعادة الدنيا والاخرة، وانما تختلف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الاقوام ومقتضيات الزمان والمكان . فالايان بعضهم دون بعض اتباع للهوى في الايمان وجهل بحقيقة الدين فلا يمتد به لانه عين الكفر

وقد انفرد بهذه الحقيقة العادلة المسلمون دون اهل الكتاب الذين لا يؤمنون إلا بالانبياء بني اسرائيل وابيهم وجدهم على ما يذكرون في كتبهم من عيوب ومنكرات وفواحش يرمونهم بها

واما المسلمون فيؤمنون بان رب العالمين ارسل في كل الامم رسلا هادين مهديين يؤمنون بهم اجمالا وبما قصه القرآن عن بعضهم تفصيلا، فقد كرم الاسلام بهذا نوع الانسان، ومهد به السبيل للالفة والاخوة الانسانية العامة التي نينها بعد ومن المعلوم ببداهة العقل وبنص القرآن ان بعض الانبياء افضل من بعض بتخصيص الله تعالى وبما كان لكل من نفع العباد وهدايتهم وهي متفاوتة جدا . قال الله تعالى (٢: ٢٥٢) تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه برح القدس) ومن المعلوم بالدلائل العقلية والنقلية ان محمدا خاتم النبيين الذي اكمل الله به الدين، وارسله رحمة للعالمين، هو الذي رفعه الله عليهم درجات كما بيناه في تفسير تلك الآية بالاجمال وفضلناه في هذا البحث أقصد التفصيل

وانك لتجد مع هذا انه ﷺ قال لا يتابعه « لا تفضلوا بين انبياء الله » قاله انكارا على رجل من المسلمين لطم يهوديا لانه قال : لا والذي اصطفى موسى على البشر . فشكاه الى النبي ﷺ فغضب غضبا شديدا على صاحبه المسلم وقاله - وبين مزية لموسى عليهما الصلاة والسلام في الآخرة ثم قال « ولا اقول ان احدا افضل من يونس ابن متى » والحديث رواه الشيخان في الصحيحين . وفي روايات أخرى للبخاري . « لا تخيروا بين الانبياء » وفي بعضها « لا تخيروني على موسى » والغرض من ذلك كله منع المسلمين من تنقيص احد من الانبياء عليهم السلام ومن التعادي بين الناس ومن الغلو فيه ﷺ والافوه قد قال في تعليقه نهيه عن سؤال اهل الكتاب عن شيء « والله لو كان موسى حيا بين اظهر كم ما حل له الا أن يتبعني » رواه ابو يعلى من حديث جابر

فصل في الآيات الكونية التي ايد الله بها رسوله

(وما يشبه بعضها من الكرامات، وما يشتمه بها من خوارق العادات،

وضلال الماديين والخرافيين فيها)

تكلمنا في القسم الأول من هذا البحث في آيات الانبياء التي تسميها
النصارى بالمعجائب ويسميها علماء الكلام منا بالمعجزات ، ويعدهونها قسما من
خوارق العادات التي جعلوها عدة أقسام ، وتقول هنا كلمة وجيزة في إصلاح
الاسلام لضلال البشر فيها ، والصعود بهم أعلى مراتق الايمان، اللائق بطور الرشد
العقلي لنوع الانسان ، والعالم الواسع بسنن الاكون ، الذي منحوه برسالة محمد
خاتم النبيين عليه الصلاة والسلام ، فنقول :

آيات الله نوحان

آيات الله تعالى في خلقه نوعان : (النوع الأول) الآيات الجارية على سننه
تعالى في نظام الخلق والتسكين وهي أكثرها وأظهرها وأدلها على كمال قدرته
وارادته ، وإحاطة علمه وحكمته ، وسعة فضله ورحمته ، (والنوع الثاني) الآيات
الجارية على خلاف السنن المعروفة للبشر وهي أقلها وربما كانت أدلها عند أكثر
الناس على اختياره عز وجل في جميع ما خلق وما خلق ، وكون قدرته ومشيشته غير
مقيدتين بسنن الخلق التي قام بها نظام الكون ، فالسنن مقتضون حكمته واتقانه لكل
شيء خلقه ، وقدياتي بما يخالفها لحكمة أخرى من حكمه البالغة ، ولولا هذا الاختيار لكان
العالم كآلات التي تتحرك بنظام دقيق لاعلمها ولا إرادة ولا اختيار فيه ، كآلة
الساعة الصغيرة التي تعرف بها أوقات الليل والنهار ، وآلات البواخر والمعامل
الكبيرة ، والماديون المنكرون لوجود الخالق والفلاسفة الذين يسمونه العلة الفاعلة
لاوجود يعبرون عن هذا النظام بنظرية (الميكانيكية) وهم يتكلفون اختراع العليل

والاسباب لكل ما يرونه مخالفا لسننه المعروفة ، ويسمون هذه الامور المخالفة لها بفئات الطبيعة ، ويقسمون ما لم يظهر لهم تعليله على ما اقتنعوا بتعليل له وان لم يقم عليه دليل يثبتته ، ويقولون ان ما لم يظهر لنا اليوم فلا بد أن يظهر لنا أول من بعدنا غداً
سنن الله في عالم الشهادة وعالم الغيب

ونحن معشر المؤمنين بعالم الغيب وما فيه من الملائكة وهم جند الله الاكبر ، وما لهم من التأثير والتدبير في عالم الشهادة المادي باذن الله تعالى وتسخيره ، نعتقد أن الله تعالى سننا في نظام ذلك العالم غير سننه الخاصة بعالم المادة ، وان الانسان هو حائقة الاتصال بين العالمين فجسده ووظائفه الحيوية من عالم الشهادة وروحه من عالم الغيب ، وأنه مادام في عالم الجسد المادي فان جميع مداركه تكون مشغولة من المادة وسننها وحاجاته الشخصية والنوعية منها بما يحجبه عن عالم الروح الغيبي حتى روحه المتم لحقيقته ، وانما يكون الظهور والساكنان للروح على الجسد في الحياة الآخرة ، الا من اصطفى الله تعالى من رسله وانبيائه فاعدهم بفضلهم ورحمته الاتصال بملائكته والتلقي عنهم ، وأظهرهم على ما شاء من غيبه ليباعوا عبادته عنه مأمراً به
الغيب قسمان حقيقي وإضافي

الغيب ما غاب علمه عن الناس وهو قسمان : غيب حقيقي لا يعلمه الا الله ، وغيب إضافي يعلمه بعض الخلق دون بعض لاسباب تختلف باختلاف الاستعداد الفطري والعمل الكسبي ، ومن أظهره الله على بعض الغيب الحقيقي من رسله فليس لهم في ذلك كسب لانه من خصائص النبوة غير المكتسبة (١)

ومن دونهم أفراد من خواص أتباعهم أو توابيناً من الاشراف على ذلك العالم بانكشاف ما لا يحجاب ، وإدراك ما لم يشيء من تلك الانوار ، كان بها ايمانهم يرسلهم فوق ايمان أهل البرهان ، وقد روي عن أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه بأنه قال : لو كشف الحجاب ما زدنا يقيناً

(١) يراجع تحقيق هذا الموضوع بالتفصيل في الصفحة ٤٢١ و٤٥٦-٤٦٩ من جزء التفسير السابع وملخصه في ص ٥١٣ من الجزء التاسع

ومن دون هؤلاء أفراد آخرون قد يكون لهم من سلامة الفطرة ، أو معالجة النفس بأنواع من الرياضة ، أو من طروء مرض يصرف قوى النفس عن الاهتمام بشهوات الجسد ، أو من سلطان ارادة قوية على ارادة ضعيفة ، تصرفها عن حسها ، وتوجه قواها النفسية الى ماشاءت أن تدركه لقوتها الخاصة بها — قد يكون هؤلاء الافراد في بعض الاحوال من قوة الروح ما يلحقون به بعض الاشياء أو الاشخاص البعيدة عنهم ، وتتمثل لهم بعض الأمور قبل وقوعها مرتسمة في خيالهم ، فيخبرون بها فتقع كما أخبروا

الخوارق الحقيقية والصورية عند الامم

ان الامور التي تأتي في الظاهر على غير السنن المعروفة ، أو الخارقة للعادات المألوفة ، منقولة عن جميع الامم في جميع العصور تقلا متواتراً في جنسه دون افراد وقائمه ، وليست كلها خوارق حقيقية ، فان منها ماله أسباب مجهولة للجعبور ، وان منها لما هو صناعي يستفاد بتعليم خاص ، وان منها لما هو من خصائص قوى النفس وتأثير أقوياء الارادة في ضعفائها ، ويدخل في هذين المكاشفة في بعض الامور والتنويم المغناطيسي ، وشفاء بعض المرضى ولا سيما المصابين بالأمراض العصبية التي يؤثر فيها الاعتقاد والوهم ، ومنها بعض أنواع العمى والفالج ، فان من الناس من يفقد بصره بمرض يطرأ على أعصاب عينيه وهما صحيحتان تلعمان في وجهه ، أو يعيشها بياض عارض مع بقاء طبقاتها صحيحة ، وليس منه الكمه والعمى الذي يقع بطمس العينين وغوؤرها كالذي أبراهة المسيح عليه السلام باذن الله تعالى . وقد بينا هذه الانواع من الخوارق الصورية في بحث السحر من تفسير سورة الاعراف (١) . وفي المقالات التي عقدناها للكرامات وأنواعها وتعليقها في المجلد الثاني من المنار وأتمناها في المجلد السادس منه

ان عوام الشعوب الذين يجهلون تواريخ الامم وما وجد عند كل منها من هذه الغرائب وما كشفه العلماء من حيل فيها وعلل يفترون بما عندهم منها ، ويخضعون

للدجالين والمحتالين الذين ينتحلونها، ويمكنونهم من أموالهم فيسلمونها، ويأتمنونهم على أعراضهم فينتهكونها، ولا سيما إذا كانوا يأتون ما يأتون منها على أنه من كرامات الاولياء وعجائب القديسين، ويقل تصديق هذا والانقياد لأهله حيث ينتشر تعليم التوارخ وما عند جميع الامم من ذلك، على أنه لا يزال كثيراً في جميع بلاد أوربة وأمريكا وبعده دون ما في بلاد الشرق ولاسيا القري وهيج الزوج وغيرهم بيد أن آيات الله الحقيقية التي نسميها المعجزات هي فوق هذه الاعمال الصناعية الغربية لا كسب لأحد من البشر ولا صنع لهم فيها، وإن ما أيد به رسله منها لم يكن بكسبهم ولا عملهم ولا تأثيرهم، حتى ما يكون بدؤه بحركة إرادية يأمرهم الله تعالى بها. ألم يهد لك كيف خاف موسى عليه السلام حين تحولت عصاه حية تسعى، فولى مدبراً ولم يعقب لشدة خوفه منها، حتى هدأ الله روعه وأمن خوفه؟ ألم تقرأ قوله لمحمد ﷺ (وما رميت أذريت ولكن الله رمى؟) ألم تفهم ما أمره الله تعالى أن يجيب مقترحي الآيات عليه من قومه بقوله (قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً) وقوله (قل إنما الآيات عند الله) وما في معناهما

جهل هذا الاصل المحكم من عقائد الاسلام أدعياء العلم من سدنة القبور المعبودة وغيرهم فظنوا أن المعجزات والكرامات أمور كسبية كالصناعات العادية، وإن الانبياء والصالحين يفعلونها باختيارهم في حياتهم وبعد مماتهم متى شاؤا، ويفرون الناس باتيان قبورهم ولو بشد الرجال اليها لدعائهم والاستغاثة بهم عند نزول البلاء والشدائد التي يعجزون عن دفعها بكسبهم وكسب أمثالهم من البشر بالاسباب العادية كالأطباء مثلاً، وبالتقرب اليهم بالنذور والقرابين كما كان المشركون يتقربون الى آلهتهم من الاصنام وغيرها، وهم يأكلونها سحتاً حراماً، ويخبرونهم بان دين الله تعالى يأمرهم أن يعتقدوا أنهم يقضون حوائجهم، حتى قال بعضهم انهم يخرجون من قبورهم باجسادهم ويقولون قضاء الحاجات، وكشف الكريات، ولو كانت كذلك لما كانت من خوارق العادات. وقال بعضهم في كتاب مطبوع ان فلاناً من الاقطاب يميت ويحيى، ويسعد ويشقى، ويقهر وينفي

الفرق بين المعجزة والكرامة

ان الله تعالى لم يؤيد رسله بما أيدهم به من المعجزات الا لتكون حجة لهم على أقوامهم يهدي بها المستعد للهداية ، وتحق بها الكلمة على الجاحدين المعاندين فتقع عليهم العقوبة ، وذلك لا يكون إلا باظهارها فهو واجب لأتمام تبليغ الدعوة التي أرسلوا التبليغها ، وما كان الانبياء يدعون الله تعالى بشيء من خوارق العادات غير حجة الرسالة إلا لضرورة كالاستسقاء ، وكان خاتمهم وأكرمهم على الله تعالى يصير هو وأهل بيته وأصحابه على المرض والجوع والعطش ولا يدعو لهم ﷺ بما يزيل ذلك الا نادراً ، وقد سأله المرأة التي كانت تصرع أن يدعو الله لها بالشفاء فأرشدتها إلى أن الصبر على مصيبتها خير لها . فشكت اليه أنها تتكشف عند النبوة وأن يدعو لها ألا تتكشف فدعا لها واستجاب الله دعاه

والأصل في الكرامة الاخفاء والكمائن ، وكثيراً ما يكون ظهورها فتنة للناس ، وما كان أهلها يظهرون ما لهم كسب فيه منها كالكاشفة إلا لضرورة ، وقد صرح بهذا العلماء والصوفية فهو متفق عليه بينهم خلافاً للمشهور بين العامة

قال التاج السبكي في سياق حجج منكري جواز وقوع الكرامات من طبقات انشافية (الحجة الثانية) قالوا لو جازت الكرامة لاشتبهت بالمعجزة ، فلا تدل المعجزة على ثبوت النبوة . والجواب منع الاشتباه بقرن المعجزة بدعوى النبوة دون الكرامة فهي إنما تقتزن بكمال اتباع النبي من الولي - وأيضاً فالمعجزة يجب على صاحبها الاشتهار ، والكرامة مبناه على الاخفاء ، ولا تظهر إلا على الندرة والخصوص ، لإعلى الكثرة والعموم ، وأيضاً فالمعجزة يجوز أن تقع بجميع خوارق العادات ، والكرامة تختص ببعضها كما بيناه من كلام التشيرى وهو الصحيح اه ثم قال (الحجة الرابعة) قالوا لو جاز ظهور خوارق العادات على أيدي الصالحين

لما أمكن أن يستدل على نبوة الانبياء بظهورها على أيديهم لجواز أن تظهر على يد الولي سرّاً فان من أصول معظم جماعتكم أن الاولياء لا يظهرون الكرامات ولا يدعون بها ، وإنما تظهر سرّاً وراء ستور ، ويتخصص بالاطلاع عليها آحاد الناس ،

ويكون ظهورها سرّاً مستمراً بحيث لا يتحقق بحكم المعتاد ، فإذا ظهر نبي وتحدى بمعجزة جاز أن تكون مما اعتاده أولياء عصره من الكرامات فلا يتحقق في حقه خرق العادة ، فكيف السبيل إلى تصديقه مع عدم تحقق خرق العوائد في حقه ؟ وأيضاً تكرر الكرامة بإلحاقها بالمعتاد في حق الأولياء وذلك يصدّم عن تصحيح النظر في المعجزة إذا ظهر نبي في زمنهم »

وقال في الجواب : لا نؤمننا وجهان الاول منع توالي الكرامات واستمرارها حتى تصير في حكم العوائد وإنما يجوز ظهورها على وجه لا تصير عادة فلا يلزم ما ذكره . والثاني - وهو لمعظم أئمتنا - قالوا انه يجوز توالي الكرامات على وجه الاختفاء بحيث لا يظهر ولا يشيع ولا يعتاد لئلا يخرج الكرامات عن كونها كرامات اه من مجلد المنار الثاني

وأقول إن المحققين من الصوفية يوافقون علماء الكلام والاصول على منع توالي الكرامات وتكرارها ، ومنع اظهارها ، وقال الشيخ محيي الدين بن عربي أن ما يتكرر لا يكون كرامة لانه يكون عادة وإنما الكرامة من خوارق العادات ، وقال الشيخ أحمد الرفاعي ان الاولياء يستترون من الكرامة كما تستتر المرأة من دم الحيض ، فأين هذه الاقوال مما عليه الدجالون الخرافيون وسدنة القبور للمعتدة من زعمهم أن الكرامة الواحدة تتكرر لاولياء كثيرين من الاحياء والاموات مراراً كثيرة وكأها ظاهرة ذائعة شائعة ، بل صناعة ذات بضاعة رابحة ؟

الكافرون بالآيات صنعان: مكذبون ومشركون وعلاج كل منها

الكافرون بآيات الله تعالى صنعان : صنف يكذبها كلها ولا يؤمنون بشيء منها ، وصنف يشرك بالله غيره فيها ، فينحلله ما هو خاص به عز وجل لا يقدر عليه سواه ، ويشرع للناس أن يعبدوا هؤلاء الاغيار بدعائهم من دونه واستغاثتهم فيما لا يقدر عليه غيره ، بدعوى أن الله تعالى هو الذي أعطاهم القدرة الغيبية على ذلك لمحبتة لهم وجاههم عنده ، ومعناه انه سبحانه هو الذي أمرهم معه فأعطاهم هذا التصرف في عباده ، وإنما يتحامون ألقاظ العبادة والشرك والخلق دون معانيها ، فيكذبون على الله تعالى وعليهم بما يكذبهم به كتابه المنزل ، ونبيه المرسل ، ولكنهم يحرفون

آيات الكتاب فيحتجون بها على جهلهم ، فيذكرون ان الله كان يرزق مريم عليها السلام بغير حساب ، وما كان رزقها من فعلها ، ولا يدري أحد كيف سخره الله لها ، وروي انه كان يتسخير بعض الناس لها ، ووحيه إلى أم موسى وما هو من فعلها . وقد قيل بذوتها

وان افساد هؤلاء الخرافيين للبشر في دينهم ودنياهم لاشد من افساد المنكرين بالآيات المكذبين بها ، بأنهم أكبر أسباب هذا الانكار والتكذيب بزعمهم أن الانبياء ومن دونهم من الصالحين يتصرفون في الخلق بما يخالف سنن الله تعالى فيه أو يبدلها بغيرها ويحوّلها عما وضعت له ، وزعمهم أن الله هو الذي دعا الناس إلى هذا الاعتقاد وجعله أساس دينه ، فكذبوا بالدين من أساسه ، فتكون فتنتهم شاملة لفريقي الكفار بالآيات - فريق المكذبين وفريق المشركين ، وهو مع هذا قول على الله بغير علم ، وافتراء على الله بكونه شرعاً لم يأذن به الله ، وهو أشد أنواع الكفر بالله ، لان ضرره متعد بما فيه من اضرار الناس باعتقاد باطل يتبعه عبادة باطلة غير مشروعة (١)

علاج خرافة تصرف الاولياء في الكون

أما الذين يشركون بالله في عبادته بحبلهم لا ياتوه وتقليد أمثالهم من الجاهلين في خرافاتهم ، فلا علاج لهم إلا تعليمهم توحيد الله الخالص في ربوبيته وألوهيته بآيات القرآن ، دون نظريات كتب الكلام ، وتعليمهم وظائف الرسل وكوّنهم بشراً اختصاصهم لله تعالى بوحيه لتبليغ عباده ما ارتضاه لهم من الدين بالقول والعمل ، وحصر اختصاصهم بالتعليم والارشاد تبشيراً وانذاراً ، وتنفيذ أحكام شرعه فيهم بالعدل والمساواة ، ولم يؤت منهم من التصرف الفعلي في خلقه ما يقدرون به على هداية أقرب الناس وأحبهم اليهم بالطبع كالوالد والولد والزوجة ومن دونهم من أولي القربى ، فوالد ابراهيم الخليل عاش كافراً ومات كافراً عدواً لله ورسوله وخليله ، وولد نوح أول الرسل إلى الاعم مات كافراً ولم يأذن الله تعالى له بحمله في السفينة فكان من الكافرين المفرقين ، وكان ابوه لوط عم محمد حبيب الله ورسوله أشد أعدائه الصادقين عنه المؤذنين له ، وأنزل الله في ذمه ووعيده سورة من القرآن يتعبد بها

(١) راجع تحقيق هذا المعنى في ص ٣٩٧-٤٠١ ج ٩ من التفسير

للمؤمنون إلى يوم القيامة لم ينزل مثلها في أحد من أعدائه وأعداء رسوله صلى الله عليه وسلم بل كان من كمال حكمة الله تعالى أن عمه الذي كفله ورباه وكف عنه أذى المشركين ما استطاع لم يؤمن به وقد عرض عليه أن ينطق بكلمة « لا إله إلا الله » ليشهد له بها يوم القيامة فامتنع فأنزل الله تعالى فيه (انك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) رراه مسلم في صحيحه ، وقد شرحنا هذا الموضوع في تفسير قوله تعالى (٦ : ٧٤) وإذ قال ابراهيم لأبيه آزر (الآيات (١) ثم بينا في خلاصة هذه السورة (الانعام) وظائف الرسل عليهم السلام بما يحسن أن يراجعه من يحب استيفاء هذا الموضوع (٢) وإذا كان الانبياء المرسلون لم يؤثروا القدرة على التصرف في الكون فكيف يؤثروا الاولياء وغيرهم

المنكرون للمعجزات وشبهة الخوارق الكسبية عليها

وأما المنكرون لها فلا يمكن أن تقوم عليهم الحجة إلا بالقرآن كما تقدم ، فهم لا يصدقون ما ينقله اليهود والنصارى من آيات موسى وعيسى وغيرها من النبيين (ع - م) ولا يسمعون صحة تواترها ، إذ يقيسون نقلهم لها على ما ينقله العوام في كل عصر عن بعض المعتقدين في بلادهم من الخوارق الخادعة التي مثارها الوهم والتخيل ، ويحتجون على ذلك بان يوسيفوس المؤرخ اليهودي المعاصر للمسيح (ع . م) لم ينقل للناس أخبار عجايبه التي تقصها الاناجيل التي ألفت بعده ، ويعللونها على تقدير صحة النقل بما يعللون به الخوارق الصورية التي يشاهدونها في كل عصر ، فان لم يستطيعوا تعليلها قالوا انه لا بد لها من سبب كسبي يظهر لنا أو يعترف به فاعلوا كما وقع في أمثالها من صوفية الهندوس (الفقراء) كالارتفاع في الهواء وغير ذلك مما هو أغرب منه

روت إحدى الجرائد المصرية في هذه الايام (٣) من أخبار سانجي الافرنج في الهند حادثة فقير من هؤلاء الفقراء اسمه سارجو هاردياس وقعت في سنة ١٨٠٧ خلاصتها أن هذا الفقير جاء قصر المهرابا رانجيت سنجا أمير بنجاب وعرض

(١) ص ٥٣٤ - ٥٦٥ ج ٧ تفسير (٢) ص ٢٧٥ - ٥٧٨ ج ٨ تفسير

(٣) هي جريدة الاتحاد

عليه أن يريه بعض كراماته، وكان المهراجا لا يصدق ما ينقل من خوارق هؤلاء الفقراء فسأله عما يريد اظهاره فقال انه يدفن أربعين يوماً ثم يعود اليهم حياً ، فاحضر المهراجا نفرًا من أطباء الانكليز والفرنسيين وأمرء بنجاب فجلس الفقير القرفصاء أمامهم فكفّفنوه بعد أن وضعوا القطن والشمع على أذنيه وأنفه - كما أوصاهم - وخطّوا عليه الكفن ووضعوه في صندوق من الخشب السميك وسمّروا غطاءه ووضع المهراجا عليه ختمه ، ودفنوه في قبو داخل حجرة صغيرة في حديقة القصر وأقفلوا بابها ووضع المهراجا ختمه بالشمع على قفلها ، وأمر اثنين من رجال حرسه الامناء بحراستها وطائفة من جنده بمعاونتتهما، وكان ذلك كله بمشهد من حضر من الاوربيين والبنجابيين وحاشية المهراجا .

ولما تمت الاربعون حضر هؤلاء كلهم قصر المهراجا وشاهدوا ختم الحجره كما كان ، والعشب أمامها في الحديقة لم تطأه قدم أحد ، ثم فتحوا باب الحجره وامتحنوا أختام القبو ثم أخرجوا الصندوق وامتحنوا أختامه فوجدوها كلها على حالها ففتحوه وأخرجوا الفقير منه فاذا هو كما وصفه أحد أوائلك من الانجليز . قال : لما فتحوا الصندوق وأخرجوا الفقير منه وجدت الذراعين والساقين صلبة والرأس مائلا على إحدى الكتفين فحلتني أمام جثته لمدة فارقتها الحياة منذ امد بعيد، فطلبت من طبيبي أن يفحصها فانحنى عليها وجس القلب والصدغين والذراعين وقال انه لم يجد أثراً للنبض البتة ولكنه شعر بحرارة في منطقة الدماغ الخ

ثم نفذ ما أوصى الفقير أن يعمل بعد اخراجه فغسل الجسم بالماء الحار فرد على الاوصال لينها السابق بالتدرج، وأزيل القطن والشمع عن الاذنين والانف ووضعت أكياس دافئة على الرأس فدبت الحياة في الجسد المسجى، وتقلصت الاعصاب والاطراف ثم اضطربت فسال منها عرق غزير وعادت الاعضاء إلى حالتها الاولى، وبعد دقائق اتسعت حدقتا العينين وعاد اليهما لونهما الطبيعي، فلما رأى الفقير المهراجا شاخصاً اليه دهشاً متحيراً قال له « رأيت يامولاي صدق قولتي وفعلتي ؟ وبعد نصف ساعة خرج من التابوت وأنشأ يحدث الحاضرين أحسن حديث وبطرفهم بما يحير العقول . اه

إن هذه الحادثة من آيات الله التي أظهرتها الرياضة المكتسبة ، وهي أعجب من رواية الانجيل لموت ايعازر ثم حياته بدعاء المسيح بعد أربعة أيام كما تقدم في بحث عجائبه (ع . م) . وأغرب من حادثة أصحاب الكهف أيضا من بعض الوجوه فان الفقير الهندي قد سد أنفه ولف في كفن ووضع في تابوت دفن تحت الارض فحبل بينه وبين الهواء الذي لا يعيش أحد بدونه عادة ، وأهل الكهف ناموا في فجوة واسعة من كهف باب به إلى الشمال مهب الهواء اللطيف وكانت الشمس تصيب مدخله من جانبيه عند شروقها وعند غروبها مائلة متزاورة عنهم ، فتلطف هواءه من حيث لا تصيبهم ، وإنما كان أكبر الغرابة في نومهم طول مدة لبثتهم فيه ، وكانت طويلة جداً حتى على نقل البيضاوي وغيره من المفسرين ان قوله تعالى (ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين) الآية - حكاية عن بعض المختلفين في أمرهم فان كان خلاف ظاهر السياق فقد يقويه قوله تعالى في الآية بعدها (قل الله أعلم بما لبثوا) والله أعلم بكل حال على كل حال ، وإن خفي سر آياته على خلقه . ولا شيء من الامرين بمحال . وقد نام بعض أهل العصر بمرض النوم عدة أشهر .

ولكن ماجرى للفقير الهندي مخالف لسنة الحياة العامة في الناس فإذا ثبت أنه وقع بطريقة كسبية من طرائق رياضة هؤلاء الصوفية لا بدانهم وأنفسهم بما تبقى به الحياة كاملة في أجسادهم مثل هذه المدة الطويلة مع انتفاء أسبابها العامة في أحوال الناس الاعتيادية من دورة الدم والنفس وغير ذلك ، فلا وجه لاتخاذ أحد من العقلاء انكار كل ما يخالف السنن العامة قاعدة عامة ، ولا سبباً فعمل الخالق عز وجل لها وهو خالق كل شيء بقدرته ، ووضع نظام السنن والاسباب بمشيئته ، وأكثر منكركي الخوارق يؤمنون به ، وإنما ينكرون وقوع شيء مخالف لسنة بانه مناف لحكمته ، ومن ذا الذي أحاط بحكمه أو بسننه علماً ؟ وإنما الذي يقضي به العقل أن لا نصدق بوقوع شيء على خلاف السنن الثابتة المطردة في نظام الاسباب العامة إلا اذا ثبت ثبوتاً قطعياً لا يحتمل التأويل ؛ وهذا هو المتمد عند المحققين من المسلمين وعلماء المادة وعلماء النفس وغيرهم ، وقد ثبت في هذا العصر من خواص

الكهرباء وغيرها ما لو قيل لعقلاء الناس وحكياهم قبل ثبوته بالفعل إنه من الممكنات ،
لحكموا على مدعي امكانه بالجنون لا بتصديق الخرافات ، كما قلنا من قبل

الفرق بين الخوارق الكسبية والحقيقية

وجملة القول ان أسرار هذا الكون لا يحيط بها إلا خالقه عز وجل - وإنه قد
وجد في كل عصر وقائع غريبة تعاد من هذه الامرار الجارية على غير نظام السنن
الالهية في الخلق ، بحسب ما يترأى للجمهور بادي الرأي ، وان ما يقنأه الجهور
المولع بالغرائب منها ما هو كذب محض ، ومنه ماله أسباب علمية او صناعية
خفية يجعلها الاكثرون ، ومنه ما يظن انه من خوارق العادات وليس منها ، ومنه
ما سببه الوهم ككشفاء بعض الامراض ، أو الخداع البصر بالتخييل الذي يحدقه
المشعوذون ، ومنه ما فعله سحرة فرعون للبين بقوله تعالى (فاذا حياهم وعصمهم
يخيل اليه من سحرهم انها تسمى) ومنه الخداع السمع كالذي يفعله الذين يدعون
استخدام الجن إذ يتكلمون ليلا بأصوات غريبة غير أصواتهم المعتادة فيظن مصدقهم
ان ذلك صوت الجن ، وقد يتكلمون نهاراً من بطونهم من غير أن يجر كواشفاهم ،
فلا يوثق بشيء من أخبارهم ولا من قلمهم - ومن الدلائل على كذب المتحيلين
لهذه الغرائب انهم جعلوها وسيلة لعائشهم الدنيئة ، وانهم لو كانوا صادقين فيها
لتنافس الملوك وكبار علماء الكون في محبتهم والاهتداء بهم

المعجزات قسمان : تكوينية وروحانية تشبه الكسبية

المعجزات كلها من الله تعالى لا من كسب الانبياء كما نطق به القرآن ولكنها
بحسب مظهرها قسمان : قسم لا يعرف له سنة إلهية يجري عليها فهو يشبه الاحكام
الاستثنائية في قوانين الحكومات أو ما يكون بارادة سنية من الملوك لمصلحة خاصة
- والله المثل الاعلى - وقسم يقع بسنة إلهية روحانية لا مادية .

أما الماثور من آيات الله التي أيد بها موسى (ع.م) وأثبتها القرآن له كآيات
السمع بمصر فهي من القسم الاول ، ولم يكن شيء منها بكسب له حقيقي ولا صوري ،
وكذلك الآيات الاخرى التي ظهرت في أثناء خروجه ببني اسرائيل ومدة التيه ،

يدل كل ذلك كان بفعل الله تعالى بدون سبب كسبي لموسى (ع . م) إلا ما يأمره
 الله تعالى به من ضرب البحر أو الحجر بمصاه التي هي آيته الكبرى . ولم يرد
 لاحد من الانبياء آية كهذه الآيات فضلا عن دونهم ، ولا هي مما يحتمل أن يكون
 بسبب من الاسباب التي تكون لاحد من الناس بالرياضة الروحية أو خواص المادة وقواها
 وأما المسيح (ع . م) فالآيات التي أيده الله تعالى بها - على كونها خارقة للعادات
 الكسبية وعلى خلاف السنن المعروفة للناس - قد يظهر فيها انها كلها او جلها حدث
 على سنة الله في عالم الارواح كما كان خلقه كذلك ، فقد حملت أمه به بنفخة من
 روح الله عز وجل فيها - وهو الملك جبريل عليه السلام - كانت سبب علوقها به
 بفعلها في الرحم ما يفعل تلقيح الرجل بقدرة الله عز وجل . فلا غرو أن كانت مظاهر
 آياته أعظم من مظاهر سائر الروحيين من الانبياء والاولياء كالكشف وشفاء بعض
 المرضى وغير ذلك من التأثير في المادة الذي اشتهر عن كثير منهم . والفرق بينه
 وبين الروحانيين من صوفية الهنود والمسلمين أن روحانيته عليه السلام أقوى وأكمل ،
 وانها لم تكن يعمل كسبي منه بل من اصل خالق الله عز وجل له بآية منه كما قال
 (١١: ٢١) والتي أحصنت فرجها فننخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين *
 ٢٣ : ٥٠ وجعلنا ابن مريم وأمه آية (أي آيتها هي الحمل به وخلقته بنفخ الروح الالهي ،
 لا بسبب التلقيح البشري ولا بما قيل من احتمال وجود مادتي الذكورة والانوثة في رحمها
 وأعظم آياته الروحانية التي أثبتتها له التنزيل ولم ينقلها مؤلفو الانجيل الاربعة
 (وروي أنها منصوصة في انجيل الطفولية الذي نبذته الجامعات الكنسية قبل البعثة المحمدية
 ففقد من العالم) هي أنه كان يأخذ قطعة من الطين فيجعلها بهيئة طير فينفخ فيه أي من
 روحه فيكون طيرا يأذن الله تعالى ومشيئته . والمروي أنه كان يطير قليلا ويقع ميتا .
 ودرن هذا إحياء الميت الصحيح الجسم القريب العهد بالحياة فان توجيه سيال روحه
 القوي إلى جثة الميت مع توجيه قلبه إلى الله عز وجل ودعائه كان يكون سببا روحانيا
 لاعادة روحه إليه يأذن الله ومشيئته ، كما يس النور ذبال السراج المنطفي فتشعل
 أو كما يتصل السلك الحامل للكهربائية الايجابية بالسلك الحامل للكهربائية السلبية
 بعد انقطاعها فيتألق النور منها . وقد ثبت عن بعض اطباء هذا العصر إعادة الحياة

الحيوانية الى فقدتها عقب فقدتها بعملية جراحية أو معالجة للقلب
ومن دون هذا وذلك شفاء بعض الامراض ولا سيما العصبية سواء
كان سببها مس الشيطان وتلبسه بالمجنون كما في الاناجيل أم غيره ، فان الشيطان
روح خبيث لا يستطيع البقاء مع توجه الروح الطاهر الذي هو شعلة من روح
القدس جبريل عليه السلام وانصاه بمن تلبس به، وقد وقع مثل هذا الشيخ الاسلام
ابن تيمية وغيره من الروحانيين وما من مرض عصبي أو غيره إلا وهو ضعف في
الحياة حقيق بأن يزول بانصال هذا الروح بالمصاب به لأنه أعظم أسباب الحياة والقوة
ومن دون هذا وذلك المكاشفات المعبر عنها فيما حكاه تعالى عنه بقوله (وأنبئكم
بما تآكلون وما تدخرون في بيوتكم) وقد أنبا غيره من أنبياء بني اسرائيل
وغيرهم بما هو أعظم من هذا من الامور المستقبلية ، وكذا غيرهم من الروحانيين
ولاسيا صالحى أمة محمد ﷺ ولكنها درجات متفاوتة في القوة والضعف ، وطول
المدة وقصرها ، والثقة بالمرئي وعدمها ، وإدراك الحاضر الموجود ، والغائب المفقود ، وما
كان في الازمنة الماضية ، وما يأتي في الازمنة المستقبلية ، فأعلاها خاص بالانبياء إذ لم
يوجد ولن يوجد بشر يعلم بالكشف ما وقع منذ القرون الاولى كأخبار القرآن
عن الرسل الاولين مع أقوامهم ، أو ما يقع بمدسنين في المستقبل كأخباره عن عود الكرة
الى الروم على الفرس ، وأخباره ﷺ بفتح الامصار واتباع الامم لامته ، ثم بتدعيمهم عليها
ومن المكاشفات الثابتة في هذا العصر ما يسمونه قراءة الافكار وقد شاهدنا من
فعله ، ومنها مراسلة الافكار

فتبين بهذا وذلك أن آيات الله تعالى المشهورة لموسى (ع م) بمحض قدرته
تعالى دون سنة من سنته الظاهرة في قواه الروحية ، وأن آياته لعيسى (ع م) بخلاف
ذلك . والنوع الاول أدل على قدرة الله تعالى ومشيتته واختياره في أفعاله في نظر
البشر لبعدها عن نظام الاسباب والمسببات التي تجري عليها أفعالهم
عبادة بعض الناس للمسيح وللانبياء دون موسى

وانما عبد بعض البشر عيسى واتخذوه إلهاً ولم يعبدوا موسى كذلك وآياته أعظم
لأنهم جهلوا أن آيات عيسى جارية على سنن روحية عامة قد يشاركه فيها غيره فظنوا

أنه يفعلها بمحض قدرته التي هي عين قدرة الخالق سبحانه لخلوله فيه وأتحاده به بزعمهم، وآيات موسى بمحض قدرة الله وحده، ولم يفظنوا لاتباع عيسى لموسى في شرعه (التوراة) إلا قليلاً مما نسخه الله على لسانه من إحلال بعض ما حرم عليهم بظاهم عقوبة لهم، ومن تحريم ما كانوا عليه من الغلو في عبادة المال والشهوات

ومثل النصراني في هذا من يقتنون من المسلمين بعبادة الصالحين بدعائهم في الشدائد لاعتقادهم أنهم يدفعون عنهم الضرر ويجلبون لهم النفع بالتصرف الغيبي الخارج عن سنن الله في الاسباب والمسببات الداخلة عندهم في باب الكرامات، وهو خاص بالرب تعالى، ولكنهم لا يطلقون على أحد منهم اسم الرب ولا الاله ولا الخالق، إذ الاسماء اصطلاحية، وإنما الفرقان بين الخالق والخلق والرب والمربوب أن الرب الخالق هو القادر على النفع والضرر لمن شاء وصر فها عن شاء بما يسخره من الاسباب وبدونها ان شاء — وان الخلق المربوب هو المقيد في أفعاله الكسبية الاختيارية في النفع والضرر بسنن الله تعالى في الاسباب والمسببات التي سخرها تعالى لجميع خلقه، ولكنهم يتفاوتون في العلم والعمل بها كما يتفاوتون في الاستعداد لها بقوى العقل والحواس والاعضاء وفي وسائلها، وقد بلغ البشر بالعلم والعمل الكسبيين من المنافع ودفع المضار ما لم يعهد مثله لاحد من خالق الله قبلهم لا الانبياء ولا غيرهم، لان الانبياء المرسلين لم يبعثوا لهذا وإنما بعثوا لهداية الناس الى معرفة الله وعبادته وتهذيب أخلاقهم بها. فمنافع الدنيا لا تطلب منهم أحياء ولا أمواتاً، وإنما تطلب من أسبابها. وما وراء الاسباب لا يقدر عليه إلا الله عز وجل. وقد قتل الظالمون بعض الانبياء والاولياء، وآذوا بعضهم بضرور من الايذاء، ولم يستطيعوا أن يدفعوا عن أنفسهم. ولذلك تكرر في القرآن الحكيم نفي هذا النفع والضرر عن كل ماعبد ومن عبد من دون الله بالذات أو بالشفاعاة عند الله تعالى كما قال (١٠: ١٨) ويعبدون من دون ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون: هؤلاء شفعاؤنا عند الله) الآية ومثلها آيات، وأمر خاتم رسله أن يعلم الناس ذلك كما فعل من قبله من الرسل فقال (٧: ١٨٨) قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) وقال

﴿ قل اني لا املك لكم ضرراً ولا رشداً ﴾ الآيات . وقد فصلنا هذه المسألة مراراً
ونلخص الموضوع هنا في المسائل الآتية :

(١) ان الله تعالى قد أنقن كل شيء خلقه فجعله بإحكام ونظام لا تفاوت
فيه ولا اختلال ، وسنن مطردة ربط فيها الاسباب بالمسببات . فمخلوقاته العليا
والسفلى ، هي مظهر أسمائه وصفاته العلى . ولهذا قال حجة الاسلام الغزالي : ليس
في الامكان أبدع مما كان . وهذا النظام المطرد في الاكوان ، الثابت بالحس
والعقل ونصوص القرآن - هو البرهان الاعظم على وحدانية خالق السموات والارض
(لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا)

(٢) ان سنن الله تعالى في إبداع خلقه ونظام الحركة والسكون والتحليل
والتركيب فيه لا يحيط بها علماً غيره عز وجل . وكما ازداد البشر فيها نظراً وتفكيراً
واختباراً وتدبراً وتجربة وتصرفاً ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا
يعلمون ولا يظنون ، ومن مناقعها ما لم يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون ، وها نحن
أولاء نرى مراكبهم الهوائية من تجارية وحريرية تتحرك في الجواء ، حتى تكاد
تتجاوز محيط الهواء ، ومراكبهم البحرية تغوص في لجج البحار ، وترام يتخاطبون
من مختلف الاقطار ، كما نطق الوحي بتخاطب أهل الجنة مع أهل النار ، فيسمع
أهل المشرق أصوات أهل المغرب ، وأهل الجنوب حديث أهل الشمال وخطبهم
وأغانيمهم ، قبل أن يسمعا بعض أهل البلد أو المكان الذي يصدر عنه الكلام (*) وقد
يتمز أحدهم زراً كهربائياً في قارة أوربة فتتحرك بعمزته آلات عظيمة في قارة
أخرى في طرفه عين ، وبينهما المهامه الفصح ، والجبال الشاهقة ، ومن دونهما
البحار الواسعة ، والجاهلون بهذه السنن الالهية ، والعلوم العملية ، لا يزالون يلجئون
في طلب المنافع ودفع المضار من غير طريق الاسباب - التي ضيق الجهل عليهم
سبلها - إلى قبور الموتى من الصالحين المعروفين والمجهولين ، ليقتضوا لهم حاجتهم ، ويشفوا

(*) روي لنا ان آلة الراديو الناقلة للاصوات من أوربة يصل الكلام الذي
تحمله إلى مصر وغيرها فتمكسه الآلات التي فيها ويسمعه أهلها قبل أن يسمعه
من في الصفوف الخلفية من المكان الذي ألقى فيه

٢٣٨ خضوع كل حادث انظام العالم وانقطاع المعجزات بختم النبوة التفسير: ج ١١

مرضاهم ، ويعينونهم على أعدادهم من زوج وقريب وجار ووطي ، وأعداؤهم من الاجانب قد سادوا واحكومتهم ، واستذلوا أمتهم ، واستأثروا بجمل ثروتهم ، ولا يتصرف فيهم هؤلاء الاولياء بما يدفع عن المسلمين ضررهم ويحكمهم

(٣) ان الاصل في كل ما يحدث في العالم ان يكون جاريا على نظام الاسباب والمسببات ، وسنن الله التي دل عليها العلم ، وأخبرنا الوحي بأنه لا تغيير فيها ولا تبدل لها ولا تحويل ، فكل خبر عن حادث يقع مخالفا لهذا النظام والسنن فالاصل فيه ان يكون كذبا اختلقه المخبر الذي ادعى شهوده أو خدع به ولبس عليه فيه ، فان كان قد وقع فلا بد أن يكون له سبب من الاسباب الخفية التي يجهلها المخبر ، كما حققه علماء الاصول في بحث الخبر وما يقطع بكذبه منه

(٤) ان آيات الله التي تجري على غير سننه الحكيمه في خلقه لا يمكن العلم بها إلا بدليل قطعي وقد كان من حكمته ان أيد بعض النبيين المرسلين بشيء منها لاقامة حججهم ونحويف الماندين لهم ، وقد انقطعت هذه الآيات بختم النبوة والرسالة بمحمد ﷺ وسبب ذلك أو حكمته ختم النبوة برسائله ، وجعل ما أوحاه اليه آية دائمة وهداية عامة لجميع البشر مدة بقاؤهم في هذه الدنيا وأنزل عليه (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) لعلمه تعالى بأنهم لا يحتاجون بعد هذا الوحي إلى وحي آخر ، ولا إلى آية على كونه من عند الله تعالى إلا هذا القرآن نفسه ، وقد تقدم بيان دلالة العقلية العلمية على كونه من عند الله تعالى ختم النبوة وانقطاع الخوارق بها ومعنى الكرامات

(٥) لو كان للبشر حاجة بعد القرآن ومحمد ﷺ إلى الآيات كما يدعي المفتونون بالكرامات ومخترعو الاديات والنحل الجديدة لما كان ختم النبوة معنى ولذلك ينكر البهائية والقاديانية ختم النبوة وانقطاع الوحي ، ويدعونهما للباب والبهاء ، ولغلام احمد القادياني وخلفائه بلا انقطاع ، حتى سامها المترزقة منهم والرعاع

وقد بين شيخنا الاستاذ الامام في رسالة التوحيد كيف ارتقى التشريع الديني في الامم بارتقاء نوع الانسان في الادراك والعقل كارتقاء الافراد من طفولة إلى شباب إلى كهولة بلغ فيها رشده واستوى ، وصار يدرك بعقله هذه الهداية العقلية

العليا (هداية القرآن) بعد ان كان لاسبيل إلى إذعانه لتعلم الوحي، إلا ما يدعش حسه ويمي عقله من آيات الكون

بين في الكلام على وجه الحاجة إلى الرسالة ان سمو عقل الانسان وسلطانه على قوى الكون الاعظم بما هي مسخرة له تنافي خضوعه واستكانته لشيء منها، إلا ما عجز عن إدراك سببه ومنشأه فاعتقد انه من قبيل السلطان الغيبي الأعلى لمدير الكون ومسخر الاسباب فيه ، فكان من رحمة الله تعالى به « انه أتاه من أضعف الجهات فيه وهي جهة الخضوع والاستكانة فأقام له من بين أفراد مرشدين ، هادين ، وميزم من بينها بخصائص في أنفسهم لا يشر لهم فيها سواهم ، وأيد ذلك زيادة في الاقناع بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطريق على سوابق العقول ، فيستخذي الطامح ، وينذل الجاهل ، ويصطدم بها عقل العاقل فيرجع إلى رشده ، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه »

ثم قال في رسالة محمد ﷺ : نبي صدق الانبياء ولكنه لم يأت في الاقناع برسالته بما يليهي الابصار ، أو يحير الخواس ، أو يدعش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحام اليه الخطأ والصواب ، وجعل في قوة الكلام ، وسلطان البلاغة ، وصحة الدليل ، مبلغ الحجية وآية الحق الذي (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد)

لا يمكن اثبات معجزات الانبياء إلا بالقرآن

(٦) انه لا يمكن اثبات معجزات الانبياء في هذا العصر بحجة لا يمكن لمن عقلها ردها إلا هذا القرآن العظيم ، وما ثبت فيه بالنص الصريح منها ، بناء على إنكار العلماء الواقفين على كتب الاديان التي قبل الاسلام - حتى كتب اليهود والنصارى - وعلى توارخها لتواتر ما ذكر فيها من الآيات والاشتباه في كونها خوارق حقيقية ، وحجتهم ان التواتر الذي يفيد العلم القطعي غير متحقق في نقل شيء منها ، وهو نقل الجمع الكثير الذين يؤمن تواطؤهم على الكذب لخبر أدر كوه بالحس وحمله عنهم مثلهم قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل بدون انقطاع ، وإنما يكون استحالة تواطؤهم على

الكذب بأمور أهمها عدم التحيز والتشيع لمضمون الخبر وعدم تقليد بعضهم ببعض فيه . وآية صحة هذا التواتر حصول العلم القطعي به وإذعان النفس له ، وعدم إمكان رده اعتقاداً ووجداناً ، وهذا غير حاصل في آيات الانبياء الاولين عندهم .

وأما آية القرآن فهي باقية ببقائه إلى يوم القيامة ، وكل واقف على تاريخ الاسلام يعلم علماً قطعياً أنه متواتر تواتراً متصلاً في كل عصر ، من عصر الرسول الذي جاء به إلى الآن ، وأما الذي يخفى على كثير منهم فهو وجوه إعجازه وقد شرحنا شبهتهم عليه وبيننا بطلانها في هذا البحث ، وإذ قد ثبت بذلك كونه وحياً من الله تعالى فقد وجب الايمان بكل ما أثبتته من آياته في خلقه سواء أكانت لتأييد رساله وإقامة حجتهم أم لا ، وكلما يجب على كل مؤمن به أن يؤمن بها ، يجب أن يؤمن بانقطاع معجزات الرسل بعد ختم النبوة بمحمد ﷺ

وإذ كان لا يجب على مسلم أن يعتقد بوقوع كرامة كونية خارقة للعادة بعد محمد خاتم النبيين ﷺ فلا يضر مسلماً في دينه أن يعتقد كما يعتقد أكثر عقلاء العلماء والحكماء من أن ما يدعيه الناس من الخوارق في جميع الامم أكثره كذب وبعضه صناعة علم ، أو شعوذة سحر ، وأقله من خواص الارواح البشرية العالية (٧) إن الثابت بنصوص القرآن من آيات الانبياء المرسلين المعينة قليل جداً .

فما كانت دلالاته قطعية من هذه النصوص فصرفه عنها بالتحكم في التأويل الذي تأباه مدلولات اللغة العربية ، وينقض شيئاً من قواعد الشرع القطعية ارتداداً عن الاسلام ، وما كانت دلالاته ظاهرة غير قطعية وجب حملها على ظاهره إن لم يمارضه خص مثله أو أقوى منه ، فإن عارضه فينبذ ينظر في الترجيح بين المتعارضين بالادلة المعروفة ، والخروج عن ذلك ابتداع

﴿ خلاصة الخلاصة لهذا الفصل ﴾

اننا نؤمن بان الله تعالى هو خالق كل شيء بقدرته و ارادته ، و اختياره و حكيمته ، و انه « أحسن كل شيء خلقه » كما قال في سورة الم السجدة ، فهو « صنع الله الذي أتقن كل شيء » كما قال في سورة النمل ، و انه ليس في خلقه تفاوت ولا فطور ، كما قال في سورة الملك ، و انه خلقه بنظام و تقدير لا جزافاً ولا انفاً^(١) كما قال في سورة القمر (إنا كل شيء خلقناه بقدر) و قال في سورة الفرقان (و خالق كل شيء فقدره تقديراً) و قال في سورة الحجر (و أنبتنا فيها من كل شيء موزوناً^(٢) و ان من شيء إلا عندنا خزائنه و ما ننزله إلا بقدر معلوم)

و ان له تعالى في نظام التكوين و الابداع ، و فيما هدى اليه البشر من نظام الاجتماع ، سبباً مطردة تتصل فيها الاسباب بالمسببات ، لا تتبدل ولا تتحول محابة لأحد من الناس ، و انها عامة في عالم الاجسام و عالم الارواح ، و قد ورد ذكر هذه السنن باللفظ في عدة سور

و نؤمن بان له تعالى في خلقه آيات بينات ، و ان له في آياته حكماً جلية أو خفية ، و ان ما منحنا إياه من العقل و الشرع يأيدان علينا أن نثبت و قوع شيء في الخلق على خلاف ما تقدم بيانه من نظام التقدير و سنن التدبير ، إلا ببرهان قطعي يشترك العقل و الحس في أثباته و تمحيصه ، و انه لا بد ان يكون وقوعه لحكمة بالغة لا عن خلل ولا عبث ، و ان ما خفي علينا من حكمه كسائر ما يخفي علينا من أمور خلقه ، نبحث عنها لنزاد علماً بكأله و نكمل به أنفسنا بقدر استطاعتنا ، و لا نتخذها حجة ولا عذراً على المكفر به لجهلنا ، و قد ثبت لا علم العلماء منا أن ما نجهد من هذا الكون أكثر مما نعلم ، و يستحيل أن يحيط البشر به علماً .

(١) الاتق بضمتين هو الذي يفعل ابتداء من غير سبق تقدير و لا نظام فهو ضد المقدر (٢) و صف النبات بالموزون من عجائب تعبير القرآن التي اظهرتها العلوم الحديثة بشكل نوع منه مؤلف من عناصر بمقادير معينة يمكن ضبطها بالوزن الدقيق في النسبة المثوية (تفسير القرآن الحكيم) (٣١) (الجزء الحادي عشر)

ونؤمن بان الله تعالى قد منحنا رسلا هدوننا بآياته إلى الخروج من مضيق مدارك الحس ، وما يستتبطه الفكر منها بادي الرأي ، إلى ما وراءها من سعة عالم الغيب ، ولولا هدايتهم لظل البشر ألوف الألوف من السنين ينكرون وجود ما لم يكونوا يدركونه بحواسهم من الاجسام وأعراضها ، وبقياسهم ما جهلوا على ما علموا منها .

وقد علمنا من التاريخ ان الايمان بالله وبآياته لرسله وباليوم الآخر وبما يكون فيه من الحساب والجزاء على الاعمال هو الذي وجه عقول البشر إلى البحث في أسرار الوجود حتى وصلوا إلى ما وصلوا اليه من الارتقاء في العلوم والفنون والصناعات في الاجيال المختلفة ، ولم يكن لغير المؤمنين بالغيب نصيب في ذلك — فهذا الايمان بالاركان الثلاثة من الغيب هو الذي أوصل البشر إلى علوم وأعمال كان يعدها غير المؤمنين بالغيب من محالات العقول كالغيب الذي أنكروه ، حتى لم يعد شيء من أخبار الغيب بعيداً عن العقل بعد ثبوتها

فتبين لنا بهذا وبما قبله انه كان للبشر بآيات الانبياء ثلاث فوائد هي من حكم نصبه تعالى لتلك الآيات (الاولى) جعلها دليلاً حسيماً على اختياره تعالى في جميع أفعاله وكون سنن النظام في الخلق خاضعة له لا حاكمة عليه ولا مقيدة لارادته وقدرته (الثانية) جعلها دليلاً على صدق رسله فيما يخبرون عنه بوجبه ونذراً للعماندين لهم من الكفر ، ولو كانت مما يقدر عليه البشر بكسبهم أو تقع منهم باستعداد روعي لما كانت آية على صدقهم (الثالثة) هداية عقول البشر برؤيتها إلى سعة دائرة الممكنات ، وضيق نطاق المحال في المعقولات ، وإلى أن كون انشيء بعيداً عن الاسباب المعتادة والامور المعهودة والسنن المعروفة ، لا يقتضي أن يكون محالاً يجزم بعدم وقوعه ، وبكذب المخبر به ، مع قيام الدليل على صدقه ، وإنما غاية أن يكون الاصل فيه عدم الثبوت فيتوقف ثبوتة على الدلائل الصحيحة وهذه قاعدة كبار علماء الكون في هذا العصر ، فلا يتقصم لتكميل علمهم إلا بثبوت آية الله تعالى لا يمكن أن يكون لها علة من سنن الكون

ولكن الامر قد انقلب إلى ضده فان كثيراً من الذين وصلوا إلى هذه العلوم

والاعمال اقربة لآيات الرسل وما دعوا اليه من الايمان بالغيب من العقول قد
صارت هذه العلوم نفسها سبباً لانكارهم ما كان سبباً لها وموصلاً اليها (وهو الآيات
والايمان بالغيب) — لا إنكار امكانه بل إنكار ثبوته بالفعل ، فهم ينكرون أن
يكون الخالق قد فعل ما صاروا يفعلون باقداره وتوفيقه نظيراً له في الغرابة ، وكان
ينبغي لهم أن يجعلوه دليلاً عليه مبيناً لحقيقته كما قال تعالى (سنريهم آياتنا في الآفاق
وفي أنفسهم حتى يتبين لهم انه الحق) ولكنهم كما أراهم آية من آياته الروحية
في أنفسهم او من آياته الكونية في الآفاق التمسوا لها سنة بقياس ما لم يعرفوا على
ما عرفوا ، فأخرجوها عن كونها بمحض قدرته وإبداعه ، وظلوا على لبسهم ، كالذين
طلبوا ان ينزل عليهم ملكاً رسولا فقال فيهم (٦ : ٩) ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً
وللبسنا عليهم ما يلبسون) أي لما كانوا لا يمكن لهم أن يدركوا الملك ويثقلوا عنه إلا
إذا كان بصورة رجل مثاهم وهو ما استنكروه من كون الرسل بشراً مثاهم ، ولو
جعل الله الملك رجلاً مثاهم لالتبس عليهم أمره بما يلبسونه على أنفسهم من استنكار
كون الرسول بشراً مثاهم وهكذا يفعلون الآن : ظهرت لهم في عصرنا عدة آيات
روحية من المكاشفات والتأثير في المادة فشبها بما عرفوا من نقل الكلام بالسيال
الكهربائي وغير ذلك ، حتى لا يعترفوا بآية إبداعية من الخالق لا تخضع لعلمهم

الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين

ان حرمان هؤلاء العلماء من الايمان بآية الله تعالى من هذا النوع قد جعل
حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب في العلم انهم ازدادوا به شقاء حتى صارت حضارتهم
مهتدة بالتدمير العلمي الصناعي في كل يوم ، وجميع علماءهم المصلحين وساستهم
الدهاقين في حيرة من تلافى هذا الخطر وان يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين ،
وهذا ما جاء به محمد خاتم النبيين ، ولأجله أثبت الآيات بكتابه وفي كتابه
المبين ، إذ لا يمكن ان يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم ، بقيام الدليل على
انه من السلطان الغيبي الالهي الذي فوق استعدادهم ، وسنبين هذا الجمع فيما يأتي
من هذا البحث المثبت لا عجز القرآن

المقصد الثالث من مقاصد القرآن

﴿ بيان أن الاسلام دين الفطرة السليمة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ﴾

قد أتى على البشر حين من الدهر لا يعرفون من الدين إلا أنه تعاليم خارجة عن محيط العقل كلف البشر بها^(١) مقاومة فطرتهم ، وتعذيب أنفسهم ، ومكابرة عقولهم وبصائرهم ، خضوعاً للرؤساء الذين يلقنونهم إياها ، فإن اتقادوا لسيطرتهم عليهم بها كانوا من الغائرين ، وإن خالفوهم سرّاً أو جهرّاً كانوا من الهالكين حتى إذا بعث الله محمداً خاتم النبيين ، يتلو عليهم آياته ويعلمهم الكتاب والحكمة ويذكهم مما كانوا فيه من الضلال المبين — بين لهم أن دين الله الاسلام هو دين الفطرة ، والعقل والفكر ، والعلم والحكمة ، والبرهان والحجة ، والضمير والوجدان ، والحرية والاستقلال ، وأن لا سيطرة على روح الانسان وعقله وضميره لأحد من خلق الله ، وإنما رسل الله هداة مرشدون ، مبشرون ومنذرون ، كما تقدم بيانه في المقصد الذي قبل هذا ، ونبين هذه الزايات بالشواهد المختصرة من القرآن فنقول :

(١) الاسلام دين الفطرة

قال الله تعالى (٣٠ : ٣٠) فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله — ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون) الحنيف صفة من الحنف (بالتحريك) وهو الميل عن العوج إلى الاستقامة ، وعن الضلالة إلى الهدى ، وعن الباطل إلى الحق ، ويقابله الزيف وهو الميل عن الحق إلى الباطل الخ وفطرة الله التي فطر الناس عليها هي الجبلة الانسانية ، الجامعة بين الحياتين : الجسمانية الحيوانية ، والروحية الملكية ، والاستعداد لمعرفة عالم الشهادة وعالم الغيب فيهما ، وما أودع فيها من غريزة الدين المطلق الذي هو الشعور الوجداني بسلطان عبي (١) الظرف متعلق بالمصدر الذي بعده وفعل التكليف يتعدى بنفسه وعلماء الاصول والفقه يعدونه بالباء

فوق قوى الكون والسنن والاسباب التي قام بهما نظام كل شيء في العالم ، قرب هذا السلطان هو فاطر السموات والارض وما فيها ، والمصدر الذاتي للنعيم والنصر المحركين لشعور التعبد الفطري ، وطلب العرفان الغيبي ، فالعبادة الفطرية هي التوجه الوجداني إلى هذا الرب الغيبي في كل ما يعجز الانسان عنه من نعيم يحتاج اليه ويعجز عنه بكسبه ، ودفع ضرر يمسه أو يخافه ويرى أنه يعجز عن دفعه بجوهر وقوته ، وفي كل ما تشعر فطرته باستعدادها للمعرفة والوصول اليه مما لانهاية له . وأعني بالانسان جنسه فما يعجز عنه المرء بنفسه دون أبناء جنسه فإنه يعده من مقدوره ، ويمد مساعدة غيره له من جنس كسبه ، فطلبه للمساعدة من أمثاله ليس فيها معنى التعبد عند أحد من البشر — فتعظيم الفقير للغني بوسائل استجدائه ، وخضوع الضعيف للقوي لاستنجاهه واستعدائه على أعدائه ، وخضوع السوقة للملك أو الامير لحوفه منه أو رجائه — لا يسمى شيء من ذلك عبادة في عرف أمة من الامم ولا ملة من الملل ، وإنما روح العبادة الفطرية ونحوها هو دعاء ذي السلطان العلوي والقدرة الغيبية التي هي فوق ما يعرفه الانسان ويعقله في عالم الاسباب ، ولا سيما الدعاء عند العجز والشدائد قال صلى الله عليه وسلم « الدعاء هو العبادة » ^١ هكذا بصيغة الحصر أي هو الركن المعنوي الاعظم فيها لانه روحها المفسر برواية « الدعاء مخ العبادة » ^٢ وكل تعظيم وتقرب قولي أو عملي لصاحب هذه القدرة والسلطان فهو عبادة له — هذا أصل دين الفطرة الغريزي في البشر

وعلى هذا الاصل يبني الدين التعاليمي التشريعي الذي هو وضع إلهي يوحيه الله الى رسله لئلا يضل عباده بضعف اجتهادهم واختلافهم في العمل بمقتضى غريزة الدين كما وقع بالفعل ، ولا يقبله البشر بالاذعان والموازع النفسي إلا إذا كان الملحق لهم إياه مؤيداً في تبايقه وتعليمه من صاحب ذلك السلطان الغيبي الأعلى والتصرف الذاتي المطابق في جميع العالم ، الذي تخضع له الاسباب والسنن فيه وهو لا يخضع لها ، وهو الله رب العالمين ، وقد شرحنا هذه الحقيقة مراراً وبيننا في مواضع من

(١) رواه أحمد وأحمد وابن أبي شيبة والبخاري في الادب المفرد وأصحاب السنن الاربعة وغيرهم عن النعمان بن بشير (٢) رواه الترمذي عن انس

التفسير والمناظر معني كون الاسلام دين الفطرة، وانه شرع لتكميل استعداد البشر للبرقي في العلم والحكمة، ومعرفة الله عز وجل المعدة اياهم لسعادة الاخرة، فليس فيه شيء يصادمها فهذا الدين التعليمي حاجة من حاج الفطرة البشرية لا يتم كمالها النوعي بدونها، فهو لنوع الانسان كالعقل لأفراده كما حققه شيخنا الاستاذ الامام (٢) الاسلام دين العقل والفكر.

تقرأ قاموس الكتاب المقدس فلا تجد فيه كلمة « العقل » ولا ما في معناها من أسماء هذه القرينة البشرية التي فضل الانسان بها جميع أنواع هذا الجنس الحي كلاب والنهي ، ولا أسماء التفكير والتدبر والنظر في العالم التي هي أعظم وظائف العقل ، ولا ان الدين موجه اليه ، وقائم به وعليه . اما ذكر العقل باسمه وأفعاله في القرآن الحكيم فيبلغ زهاء خمسين مرة ، وأما ذكر أولي الالباب ففي بضع عشرة مرة ، وأما كلمة أولي النهي اي العقول فقد جاءت مرة واحدة من آخر سورة طه أكثر ما ذكر فعل العقل في لقرآن قد جاء في الكلام على آيات الله وكون مخاطبين بها والذين يفهمونها ويهتدون بها هم العقلاء ، ويراد بهذه الآيات في الغالب آيات السكون الدالة على علم الله ومشيتته وحكمته ورحمته ، كقوله تعالى (٢ : ١٦٤) إن في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون) وبلي ذلك في الكثرة آيات كتابه التشريعية ووصاياه كقوله في تفصيل الوصايا الجامعة من أواخر سورة الانعام (٦ : ١٥١) ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون) وكرر قوله (أفلا تعقلون) أكثر من عشر حمرار كأمره لرسوله أن يحتج على قومه بكون القرآن من عند الله لا من عنده بقوله (١٦ : ١٠) فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون) وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة بقوله في أهل النار من سورة المللك (٦٧ : ١٠) وقالوا لو كنا نسمع او نعقل ما كنا في أصحاب السعير) وفي معناه قوله تعالى من سورة الاعراف (١٧٩ : ٧) ولقد ذرأنا لجنهم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم

آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون) وقوله في سورة الحج (٢٢ : ٤٦) أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها) الآية كذلك آيات النظر العقلي والتفكر والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم ان أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكر والعقل والتدبر، وان الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا حظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تزكي الانفس ولا تصعد بها في معارج الكمال، بعرفان ذي الجلال والجمال ، ومنها قوله تعالى (قل إنما أعظكم بواحدة ان تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) وقوله (٨ : ٣٠) أو لم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والارض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) وقوله في صفات العقلاء أولي الالباب (٣ : ١٩١) ويتفكرون في خلق السموات والارض) وقوله بعد نفي علم الغيب والتصرف في خزان الارض عن الرسول ﷺ ووحصر وظيفته في اتباع الوحي (٦ : ٧) قل هل يستوي الاعمى والبصير أفلا تتفكرون) وقد صرح بعض حكماء الغرب، بما لا يختلف فيه عاقلان في الارض، من أن التفكر هو مبدأ ارتقاء البشر، وبمقدوره يكون تفاضلهم فيه . اه وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكر واستقلال العقل على البشر حتى جاء الاسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر ، وأعتقهم من هذا الرق ، وقد تعلم هذه الحرية ائم الغرب من المسلمين ثم نكس هؤلاء المسلمون على رؤوسهم فحرموها على أنفسهم ، حتى عاد بعضهم يقلدون فيها من أخذوها عن أجدادهم

(٣) الاسلام دين العلم والحكمة

ذكر اسم العلم معرفة ونكرة في عشرات من آيات القرآن الحكيم، وذكرت مشتقاته أضعاف ذلك، وهو يطلق على علوم الدين والدنيا بأنواعها فمن العلم المطلق قوله تعالى في وصايا سورة الامراء (١٧ : ٣٦) ولا تقف ما ليس لك به علم) قال الراغب : اي لا تحكم بالقيافة والظن . وقال البيضاوي ما ملخصه : ولا تتبع عالم يتعاق به علمك تقليداً او رجاء بالغيب، ومنه قوله في العلم المأثور في التاريخ (اثتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين) ومنه قوله تعالى في علوم

البشر المادية (٣٠ : ٦) ولكن أكثر الناس لا يعلمون ٧ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا) الخ وقوله فيها دون العلم الروحي (١٧ : ٨٥) ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً)

وقوله في العلم العقلي (٢٢ : ٨) ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منين) الظاهر أن المراد بالعلم فيه العلم النظري بدليل مقابله بالهدى والكتاب المنير وهو هدى الدين. وقوله في العلم الطبيعي (٣٠ : ٢٢) ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم أن في ذلك لآيات للعالمين) بكسر اللام أي علماء الكون ومثله قوله بعد ذكر أخراج الثمرات المختلف ألوانها من ماء المطر واختلاف ألوان الطرائق في الجبال وألوان الناس والدواب (٣٥ : ٢٨) إنما يخشى الله من عباده العلماء) الآية فالمراد بالعلماء هنا الذين يعلمون أسرار الكون وأسباب اختلاف أجناسه وأنواعه وألوانها وآيات الله وحكمه فيها

عظم القرآن شأن العلم تعظيماً لا تملوه عظمة أخرى بقوله تعالى (٣ : ١٨) شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط) الآية ، فبدأ عز وجل بنفسه. وثمى بملائكته ، وجعل أولي العلم في المرتبة الثالثة، ويدخل فيها الأنبياء والحكماء ومن دونهم من أهل الدرجات في قوله (٥٨ : ١١) يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات) وأمر أكرم رسله وأعلمهم بأن يدعوه بقوله (وقل رب زدني علماً) ويؤيد الآيات المنزلة في مدح العلم والحث عليه ماورد في ذم اتباع الظن كقوله تعالى (١٠ : ٣٦) وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ، أن الظن لا يغني من الحق شيئاً) وثلثه (٥٣ : ٢٧) وما لهم به علم أن يتبعوا إلا الظن وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً) وقوله في قول النصارى بصلب المسيح (٤ : ١٥٦) ما لهم به من علم إلا اتباع الظن) وبلغ من تعظيمه لشأن العلم والبرهان أن قيد به الحكم بمنع الشرك بالله تعالى والنهي عنه وهو أكبر الكبائر وأقصى الكفر فقال (٧ : ٣٢) قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والآنم والبغي بغير الحق وأن تشر كوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون) السلطان البرهان : وقال في بر الوالدين الكافرين (٢٩ : ٨) ووصينا الإنسان بوالديه حسناً ،

وإن جاهدك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما) ومعلوم من الدين بالضرورة أن الشرك بالله لا يكون بعلم ولا بهرمان، لأنه ضروري البطلان. وترى تفصيل هذا فيما بعده من تعظيم أمر الحجية والدلائل وما يليه من ذم التقليد

وأما الحكمة فقد قال تعالى في تعظيم شأنها المطلق (٢: ٢٦٩) يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الألباب) وقال تعالى في بيان مراده من بعثة محمد خاتم النبيين (٦٣: ٢) هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين) وفي معناها آيتان في سورتي البقرة وآل عمران. وقال لرسوله ممتناً عليه (٤: ١١٢) وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً) وقال له (١٦: ١٢٥) ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة) وقال له في خاتمة الوصايا بأهميات الفضائل والنهي عن كبائر الرذائل، مع بيان عللها وما لها من العواقب (١٧: ٣٩) ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) وقال لسانه رضي الله عنهن (٢٣: ٣٤) واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة) وقد آتى الله جميع أنبيائه ورسوله الحكمة، ولكن أضعافاً أقوامهم من بعدهم

بالتقليد والرياسة الدينية، ونسخها بولس من النصرانية بنص صريح. قال الله تعالى في اليهود (٤: ٥٤) هم يمسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم مناكفاً عظيماً) فالكتاب أعلى ما يؤت به تعالى لعباده من نعمه ويليه الحكمة ويليه الملك. وقال في نبيه داود عليه السلام (٢: ٢٥١) وآتاه الله العلم والحكمة وعلمه مما يشاء) وقال لنبيه عيسى عليه السلام (٦: ١١٣) وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) وقال (٣١: ١٢) ولقد آتينا لقمان الحكمة) وذكر من حكمته وصاياه لابنه بالفضائل ومنافعها ونهيه عن الرذائل معللة بمضارها. فالحكمة أخص من العلم، هي العلم بالشيء على حقيقته وبما فيه من الفائدة والمنفعة الباعثة على العمل، فهي بمعنى الفلسفة العمالية كعلم النفس والأخلاق وأسرار الخلق، ويبدل عليه قوله تعالى بعد وصايا سورة الإسراء (ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة) ولولا اقتتران تلك الوصايا بحكمها وعللها ومنافعها لما سميت حكمة. ألا ترى أنه سعى

فيها المبذرين للمال « إخوان الشياطين » لانهم يفسدون نظام المعيشة بامسرافهم ، ويكفرون النعمة بعدم حفظها ووضعها في مواضعها بالاعتدال ، ولذلك قال عقبه (وكان الشيطان لربه كفوراً) ثم قال (٢٩) ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتتعد ملوماً محسوراً) فعمل الاسراف في الانفاق بأن عاقبة فاعله أن يكون ملوماً من الناس ومحسوراً في نفسه ، والمحسور من حسر عنه ستره فانكشف منه المنطى ويطلق على من انحسرت قوته وانكشفت عن عجزه ، والمحسور المغموم أيضاً . وكل هذه المعاني تصح في وصف المسرف في النفقة بوقوعه إسرافه في العدم والفقر الخ وحسير البصر كلياً وقصيره

ويكثر في القرآن ذكر الفقه وهو الفهم الدقيق لاحتماق الذي يكون به العالم حكيمًا

(٤) الاسلام دين الحجة والبرهان

قال تعالى (٤ : ٧٣) يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نوراً مبيناً) وقال (٢٣ : ١١٧) ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به عند ربه فإنا حسابه عند ربه انه لا يفلح الكافرون) قيد الوعيد على الشرك بكونه لا برهان لصاحبه يحتاج به عند ربه مع العلم بأنه لا يكون إلا كذلك تعظيماً لشأن البرهان ، وذلك انه تعالى يبعث الامم مع رسالهم وورثتهم الذين يشهدون عليهم ويطالبهم بحضورتهم بالبرهان على ما خالفوهم فيه كما قال (٢٨ : ٧٥) ونزعنا من كل أمة شهيداً فقلنا هااتوا برهانكم ، فاعلموا ان الحق لله وضل عنهم ما كانوا يفترون)

وأقام البرهان العقلي على بطلان الشرك بقوله بعد ذكر السموات والارض من سورة الانبياء (٢١ : ٢٢) لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا .) ثم قفى عليه عطفية المشركين بالبرهان على ما اتخذوه من الآلهة من دونه مطالبة تعجيز فقال (٢٤) أم اتخذوا من دونه آلهة قل هااتوا برهانكم) الآية ، ومثله في سورة النمل (٢٧ : ٦٤) أم من يبدؤ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض ؟ إله مع الله ؟ قل هااتوا برهانكم إن كنتم صادقين)

وقال في سياق محاجة ابراهيم لقومه وإقامة البراهين العالمية لهم على بطلان

شركهم (٦ : ٨١) وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون انكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون) ثم قل في آخره (٨٣) وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه ترفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم) فالدرجات هنا درجات الحججة والبرهان العقلي على العلم ولذلك قدم فيه ذكر الحكمة على العلم ، وتقدم في الكلام على العلم آية رفع الدرجات فيه

ومما جاء فيه البرهان بلغظ السلطان قوله تعالى (٤٠ : ٣٥) الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم كبر مقتاً عند الله وعند الذين آمنوا) الآية ، وفي معناها من هذه السورة (٥٦) ان الذين يجادلون في آيات الله بغير سلطان اتاهم ان في صدورهم إلا كبر ما هم ببالغيه) الآية ، وفي عدة سور انه تعالى أرسل موسى إلى فرعون بآياته (وسلطان مبين)

(٥) الاسلام دين القلب والوجدان والضمير

قال الفيومي في المصباح : ضمير الإنسان قلبه وباطنه والجمع ضمائر ، وقال والقلب من الفؤاد معروف - يعني انه ضميره ووجدانه الباطن (قال) ويطلق على العقل . اه وقد شرحنا معناه هذا وطرق استعماله في تفسير آية الاعراف (١) وقد ذكر في القرآن الكريم في مائة آية وبضع عشرة آية

منها قوله تعالى في سورة ق (ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) وقوله في سورة الشعراء (يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم) ومدحه لخليفة ابراهيم عليه السلام بقوله (إذ جاء به بقلب سليم) وقوله حكاية عنه (ولكن ليطمئن قلبي) وقوله في صفة المؤمنين (الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم ، يذكر الله ألا يذكر الله تطمئن القلوب) وقوله في صفات الذين اتبعوا عيسى عليه السلام (وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة ورحمة ورهبانية ابتدعوها) ووصف قلوب المؤمنين بالخشوع والاخبات لله وتمحيصها من الشوائب وقلوب الكفار والمنافقين بالرجس والمرض والقسوة والزيغ ، وعبر عن فقدانها للاستعداد للحق والخير بالطعم والحتم والرين عليها اي انها كالتحتم عليه فلا يدخله شيء جديد

وإذ كان الاسلام دين العقل والبرهان، وحرية الضمير والوجدان، منع ما كان عليه النصرارى وغيرهم من الاكراه في الدين والاجبار عليه والافتنة والاضطهاد لخاصة الفهم فيه، والآيات في ذلك كثيرة بينها في محملها، ومن دلالتها ذم القرآن للتقليد وتضليل أهله

(٦) منع التقليد والجمود على اتباع الآباء والجدود

كل ما نزل من الآيات في مدح العلم وفضله واستقلال العقل والفكر وحرية الوجدان يدل على ذم التقليد، وقد ورد في ذمه والنهي على أهله آيات كثيرة كقوله (٢: ١٧٠) وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) وقوله تعالى (١٠٤: ٥) وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا، أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون) ذمهم من ناحيتين (إحداهما) الجمود على ما كان عليه آباؤهم والاكتفاء به عن الترقى في العلم والعمل، وليس هذا من شأن الانسان الحي العاقل فان الحياة تقتضي النمو والتوليد، والعقل يطلب المزيد والتجديد (والثانية) انهم باتباعهم لا بائتهم قد فقدوا مزية البشر في التمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، والحسن والقبيح، بطريق العقل والعلم، وطريق الاهتداء في العمل ويؤيده قوله (٧: ٢٨) وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها، قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون) وقال تعالى في عبادة العرب للملائكة (٤٣: ٢٠) وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم، ما لهم بذلك من علم ان هم الا يخرون ٢١ أم آتيناهم كتاباً من قبله فهم به مستمسكون ٢٢ بل قالوا انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون ٢٣ وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون) وقد وردت الشواهد على هذا في قصة ابراهيم مع قومه في سور الانبياء والشعراء والصفافات..

فالقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والاديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمايرهم للوصول الى العلم والهدى في الدين، وألا يكتفوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من ذلك، فان هذا جنائية على الفطرة البشرية والعقل والفكر

والقلب التي امتاز بها البشر ، وبهذا العلم والهدى امتاز الاسلام ودخل فيه العقلاء من جميع الامم أفواجا ، ثم نكس المسلمون على رؤوسهم ، واتبعوا سنن من قبلهم . من أهل الكتاب وغيرهم في التقليد لا بأرائهم ومشايخهم المنسوبين إلى بعض أئمة علماءهم ، الذين نهوهم عن التقليد ولم يأمرهم به ، فأبطلوا بذلك حجة الله تعالى على الأمم وصاروا حجة على دينهم ، حتى ان أعداء العلم الرسمي فيهم ينكرون أشد الانكار على من يدعونهم الى اتباع كتاب الله وهدى رسوله وسيرة السلف الصالح من أهله ، ونحن معهم في بلاء وعناء ، نقاسي منهم ما شاء الجهل والجور من استهزاء ، ووطن وبذاء ، وتهم بلبق « المجتهد » الذي احتكره الجهل لبعض المتقدمين من العلماء ولو كان فينا علماء كثيرون يظهرون الاسلام في صورته الحقيقية العلمية العقلية لدخل الناس المستقلون في العقل والعلم أفواجا حتى يعم الدنيا . لان التعليم المصري في جميع مدارس الارض يجري على طريقة الاستقلال في الفهم واتباع الدليل في جميع بلاد الافرنج والبلاد الغلبة لهم . ولكن أكثر هؤلاء يرون جميع الاديان تقليدية يريدونها نظما أدبية واجتماعية للأمم ، فلها يرون الاولى بحفظ نظامهم اتباع دينهم التقليدي ، وبهذا يعسر علينا أن نقنعهم بامتياز الاسلام على دينهم ، لانه يقل فينا من يقدر على إظهار الاسلام في صورته التي خصه بها القرآن ، وما بينه من سنة خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم وسيرة خلفائه الراشدين والسلف الصالحين ، رضوان الله عليهم أجمعين

دحض شبهة ، وإقامة حجة

يتوهم بعض المقلدين ان دعوة المسلمين إلى الاهتداء بالكتاب والسنة والاستقلال بحي فهمها التي اشتهر المنار في عصرنا بها ، هي التي جرات بعض الجاهلين على دعوى الاجتهاد في الشريعة والاستغناء عن تقليد الأئمة والانتقاد عليهم وعلى اتباعهم بما هو ابتداع جديد ، واستبدال للفوضى بالتقليد . وهو وهم سببه الجهل بالدين والتاريخ ، فهذا هو الابتداع والاحاد قديمة ، قد نجمت قرونها في خير القرون وعهد أكبر الأئمة ، وكان أشدها إفسادا للدين الدعوة الى اتباع الأئمة المعصومين ، الذين لا يستلون عن الدليل ، على خلاف ما كان عليه أئمة السنة من تحريم اتباع أحد لذاته في الدين بمد

محمد المعصوم الذي لامعصوم بعده صلى الله عليه وآله ولكن المقلدين لهؤلاء المحرمين للتقليد قد اتبعوا القائلين بعصمة أئمتهم حتى ملاحظة الباطنية منهم، فهم يردون نصوص الكتاب والسنة بأقوال أئمتهم بل بأقوال كل من ينتمي اليهم من أدعياء العلم . وإنما تروج البدع في سوق التقليد الذي يتبع أهله كل ناعق ، لا في سوق الاستقلال والأخذ بالدلائل . ومن باب التقليد دخل أكثر الخرافات على المسلمين لا تقاسب جميع الدجائين من أهل الطرائق وغيرهم إلى أئمة المذاهب المجتهدين ، وهم في دعوى اتباعهم من الكاذبين ، ونحن دعاة العلم الصحيح والاهتداء بالكتاب والسنة أحق منهم باتباع الأئمة

ان في كتب التفسير والفقهاء والتصوف وشروح الاحاديث لعلماء المنسويين إلى الأئمة كثيراً من البدع والخرافات التي يتبرأ منها أئمة الهدى ، وترى علماء الرسوم الجامدين يحتجون بذكرها في هذه الكتب على شرعيتها وعلى رد نصوص الكتاب والسنة الصحيحة بها ، وصاحب المنازق انفرد دون علماء مصر بالرد على هؤلاء ، وعلى البابية والبهاية والقاديانية والتيجانية والقبوريين وسائر مبتدعة عصرنا ، والله الحمد والمنة

(٧) الحرية الشخصية في الدين بمنع الاكراه والاضطهاد ورياسة السيطرة

هذه الزية من مزايا الاسلام هي نتيجة المزايا التي بينا بها كونه دين الفطرة فأما منع الاكراه فيه وعليه فالاصل فيه قوله تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله بمكة (١٠ : ٩٩) ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ، أفأنت تكفره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ١٠٠ قل انظروا ماذا في السموات والارض ، وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون) علم الله تعالى رسوله بهذه الآيات أن من سننه في البشر أن تختلف عقولهم وأفكارهم في فهم الدين وتتفاوت أنظارهم في الآيات الدالة عليه فيؤمن بعض ويكفر بعض ، فما كان يتمناه صلى الله عليه وآله من إيمان جميع الناس مخالف لمقتضى مشيئته تعالى في اختلاف استعداد الناس للإيمان وهو منوط باستعمال عقولهم وأنظارهم في آيات الله في خلقه ، والتمييز بين هداية الدين وضلالة الكفر

ثم قوله تعالى له عندما أراد أصحابه أخذ من كان عند بني النضير من أولادهم

عند إجلائهم عن الحجاز وكان قد تهود بعضهم (٢: ٢٥٦) لا إكراه في الدين وقد تبين الرشد من الغي (الآية — فأمرهم ﷺ أن يخبروهم فمن اختار اليهودية أجلي مع اليهود ولا يكره على الاسلام ، ومن اختار الاسلام بقي مع المسلمين كما بيناه في تفسير الآية

وأما منع الفتنة وهي اضطهاد الناس لاجل دينهم حتى يتركوه فهو السبب الاول لشرعية القتال في الاسلام كما بيناه في تفسير قوله تعالى (٢: ١٩١) وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله) من سورة البقرة . ثم في تفسير آية ٣٩ من سورة الانفال التي بلفظها مع زيادة (٤٨) فراجع تفسير هذه الآية في ص ٦٦٥ ج ٩ تفسير . وأما منع رياضة السيطرة الدينية كالمهود عند النصارى ففيها آيات مبينة في القرآن ، وهي معلومة بالضرورة من سيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين وقد بيناها في الكلام على وظائف الرسل عليهم السلام ، وحسبك منها قوله عز وجل لرسوله ﷺ خاتم النبيين (ص) ، ٨٨ : ٢١ فذكر إنما أنت مذكر ٢٢ لست عليهم بمسيطر)

المقصد الرابع من مقاصد القرآن

(الاصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي الذي يتحقق بالوحدات الثمان)

وحدة الامة - وحدة الجنس البشري - وحدة الدين - وحدة التشريع
بالمساواة في العدل - وحدة الاخوة الروحية والمساواة في التعبد - وحدة الجنسية
السياسية الدولية - وحدة القضاء - وحدة اللغة

جاء الاسلام والبشر أجناس متفرقون، يتعادون في الانساب والالوان،
واللغات والاطوان والاديان، والمذاهب والمشارب، والشعوب والقبائل، والحكومات
والسياسات، يقاتل كل فريق منهم مخالفه في شيء من هذه الروابط البشرية وإن
وافقه في البعض الآخر ، فصاح الاسلام بهم صيحة واحدة دعاهم بها إلى الوحدة.
الانسانية العامة الجامعة وفرضها عليهم ، ونهاهم عن التفرق والتعادي وحرمه عليهم ،
وبيان هذا التفرق ومضاره بالشواهد التاريخية، وبيان أصول الكتاب الالهي وسنة

خاتم النبيين في الجامعة الانسانية ، لا يمكن بسطحها إلا بمصنف كبير ، فنكتفي في هذه الخلاصة الاستطراذية في اثبات الوحي الحمدي ، بسررد الاصول الجامعة في هذا الاصلاح الانساني الداعي إلى جعل الناس ملة واحدة ، ودين واحد، وشرع واحد ، وحكم واحد ، ولسان واحد ، كما ان جنسهم واحد ، وربه واحد ونبدأ بالاصل الجامع في هذا ونقفي عليه بالاصول والشواهد المفصلة له

﴿ الاصل الاول للجامعة الاسلامية الانسانية ووحدة الامة ﴾

قال الله تعالى في سورة الانبياء مخاطباً أمة الاسلام (٢١ : ٩٢) إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون)

ثم بين لها في سورة المؤمنين أنه خاطب جميع النبيين بهذه الوحدة للامة فقال (٢٣ : ٥١) يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إني بما تعملون عليم (٥٢) وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون) ولكن كان لكل نبي أمة من الناس هم قومه ، وأما خاتم النبيين فأتمته جميع الناس ، وقد فرض الله عليهم الايمان بجميع رسله وعدم التفرقة بينهم كما تقدم ، فالايان بخاتمهم كالايان باولهم وبمن بينهما ، فتلهم كمثل الملوك أو الولاة في الدولة الواحدة ، ومثل اختلاف شرائعهم يذسخ المتأخر منها لما قبله كمثل تعديل القوانين في الدولة الواحدة أيضاً إلى ان كل الدين (الاصل الثاني) الوحدة الانسانية بالمساواة بين أجناس البشر وشعوبهم وقبائلهم وشاهده العام قوله تعالى (٤٩ : ١٣) يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) وقد بلغ النبي ذلك التامة يوم العيد الاكبر بمنى في حجة الوداع . وهذه الوحدة الانسانية تتضمن الدعوة إلى التآلف بالتعارف ، وإلى ترك التعادي بالتخالف .

(الاصل الثالث) وحدة الدين باتباع رسول واحد جاء باصول الدين الفطري الذي جاء به غيره من الرسل وأكل تشريعه بما يوافق جميع البشر ، وشاهده الاعم قوله تعالى (٧ : ١٦٨) قل يا أيها الناس إني رسول الله اليكم جميعاً) ولما كان الاسلام دين الفطرة وحرية الاعتقاد والوجدان جعل الدين اختيارياً بقوله تعالى (٢ : ٢٥٦) لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي)

(الاصل الرابع) وحدة التشريع بالمساواة بين الخاضعين لأحكام الاسلام في الحقوق المدنية والتأديبية بالعدل المطلق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، والملك والسوقة ، والغني والفقير ، والقوى والضعيف ، وسنذكر بعض شواهد في اصلاح التشريع فيه

(الاصل الخامس) الوحدة الدينية بالمساواة بين المؤمنين بهذا الدين في اخوته الروحية وعباداته وفي الاجتماع الاجتماعي منها كالصلاة ومناسك الحج ، فلوك المسلمين وأمرؤهم وكبار علمائهم يختلطون بالفقراء والعوام في صفوف الصلاة والطواف بالكعبة المشرفة والوقوف بعرفات وسائر مواطن الحج ، ولا تجرد شعوب الاقربح المنسبين إلى النصرانية يرضون بمثل هذه المساواة المعلومة من دين الاسلام بالضرورة للعمل بها من أول الاسلام الى اليوم قال تعالى (١٠: ٤٩) انما المؤمنون اخوة) وقال في سياق الكلام عن المشركين المحاربين (١١: ٩) فان تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فاخوانكم في الدين)

(الاصل السادس) وحدة الجنسية السياسية الدولية بان تكون جميع البلاد الخاضعة للحكم الاسلامي متساوية في الحقوق العامة إلا حق الاقامة في جزيرة العرب أو الحجاز فانه خاص بالمسلمين لان للحرمين وسياجهما من الجزيرة حكم المعابد والمساجد ، وحكم الاسلام في معابد الملل كلها أنها خاصة بأهلها ولها حرمتها لا يجوز تغير أهلها دخولها بتغير إذن منهم ، المسلمون وغيرهم في هذا سواء

(الاصل السابع) وحدة القضاء واستقلاله ومساواة الناس فيها أمام الشريعة العادلة إلا أنه يستثنى منه الاحكام الشخصية الدينية فان الاسلام يراعي فيها حرية العقيدة والوجدان بناء على أساسه في ذلك . فهو يسمح لتغير المسلمين في أمور الزوجية ونحوها أن يتحاكوا إلى علماء ملتهم ، وإذا تحاكوا اليها فاننا نحكم بينهم بعدل شريعتنا الماسخة لشرائعهم ، والاصل فيه قوله تعالى (٤٢: ٥) فان جاؤك فاحكم بينهم أو أعرض عنهم وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) وقوله بعد آيات (٤٩) وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق) (تفسير القرآن الحكيم) (٣٣) (الجزء الحادي عشر)

(الاصل الثامن) وحدة اللغة ولا يمكن أن يتم الاتحاد والاخاء بين الناس وصيرورة الشعوب الكثيرة أمة واحدة إلا بوحدة اللغة . وما زال الحكماء الباحثون في مصالح البشر العامة يتمنون لو يكون لهم لغة واحدة مشتركة يتعاونون بها على التعارف والتآلف ومناهج التعليم والآداب والاشتراك في العلوم والفنون والمعاملات الدنيوية ، وهذه الامنية قد حقتها الاسلام بحمل لغة الدين والنشر والحكم لغة لجميع المؤمنين به والخاضعين لشرعته ، إذ يكون المؤمنون مسوقين باعتقادهم ووجدانهم الى معرفة لغة كتاب الله وسنة رسوله لفهمها والتعبد بهما والاتحاد باختواتم فيهما ، وهما مناط سيادتهم وسعادتهم في الدنيا والآخرة ، ولذلك كرر في القرآن بيان كونه كتابا عربيا وحكما عربيا وكرر الامر بتدبره والتفقه فيه والاتعاظ والتأدب به ، وأما غير المؤمنين فيتعلمون لغة الشرع الذي يخضعون للحكمه ، والحكومة التي يتبعونها لمصالحهم الدنيوية كما هي عادة البشر في ذلك ، وكذلك كان الامر في الفتوحات الاسلامية العربية كلها

وقد بينت من قبل وجوب تعلم اللغة العربية في دين الاسلام وكونه مجمعا عليه بين المسلمين كما قرره الامام الشافعي (رض) في رسالته وقد جرى عليه العمل في عهد الرسول ﷺ وخلفائه الراشدين ثم خلفاء الامويين والعباسيين الى أن كثر الاعاجم وقل العلم وغلب الجهل فصاروا يكتبون من لغة لدين بما فرضه في العبادات من القرآن والاذكار (فراجع ذلك في ص ٣١٠ من جزء التفسير التاسع)

وتقد كان النبي ﷺ ينكر على المسلمين كل نوع من أنواع التفرق الذي ينافي وحدتهم وجماعتهم أمة واحدة كالجسد الواحد كما شبههم بقوله « مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتماطفهم مثل الجسد إذا اشتكى له عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » رواه الامام أحمد ومسلم من حديث النعمان بن بشير (رض) وكان يخص بمقتته وإنكاره التفرق في الجنس النسبي أو اللغة ، أما الاول فمشهور وأما الثاني فيجمعه مع الاول الشاهد الآتي

روى الحافظ ابن عساكر بسنده إلى مالك عن الزهري عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال جاء قيس بن مطاطية الى حلقة فيها سلمان الفارسي وصهيب الرومي وبلال

الحبشي قتل : هذا الاوس والخزرج قد قاموا بنصرة هذا الرجل فما بال هذا؟
 (يعني هذا المنافق بالرجل النبي ﷺ وان الاوس والخزرج من قومه العرب
 ينصرونه لانهم من قومه ، فما الذي يدعو الفارسي والرومي والحبشي إلى نصره ؟)
 فقام اليه معاذ بن جبل (رض) فأخذ بتلبيبه (أي بما على لبيه ونحره من الثياب)
 ثم أتى النبي ﷺ فأخبره بمقاتله ، فقام النبي ﷺ مغضباً يجر رداءه حتى أتى
 المسجد ثم نودي : ان الصلاة جامعة — وقال ﷺ

« يا أيها الناس ان الرب واحد ، والاب واحد ، وان الدين واحد ،
 وليست العربية بأحدكم من أب ولا أم ، وإنما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية
 فهو عربي » فقام معاذ ، فقال فما تأمرني بهذا المنافق يا رسول الله ؟ قال «دعه إلى
 النار » فكان قيس ممن ارتد في الردة فقتل

أرأيت لو ظل المسلمون على هذه التربية المحمدية أكان وقع بينهم من الشقاق
 والحروب باختلاف الجنس واللغة كل ما وقع وأدى بهم إلى هذا الضعف العام ؟
 أرأيت لو حافظوا على هذه الاخوة الاسلامية أكانت هذه الفتنة من ملاحظة الترك
 تجد سبباً لاجتثاث هذه الدوحة الباسقة من جنة حكم الاسلام ، وامتلاخ هذا
 السيف الصارم من غمده ، والحيلولة بينه وبين كتاب الله المعصوم المنزل من عند الله
 باللغة العربية ، وسنة رسوله المصلح لشعوب البشر وهي بالعربية ، لاجل تكوين
 هذا الشعب وما أدغم ويدغم فيه من الشعوب تكويناً جديداً ، برابطة لغة تخلق خلقاً
 جديداً ، لاجل أن يلحق بالشعوب الاوربية دعياً ، كما يلصق الولد بغير أبيه إصافاً قريباً ،
 فيقال ان رجلاً عظيماً جدد أو أوجد شعباً ولغة ودولة وديناً ؟ هيئات هيئات لما يبغون
 لقد كان هذا الشعب (الترك) قائماً باسم الاسلام على رياسة وحوية يدين لها
 أوبها زهاء اربعمائة مليون من البشر ، ولو أوتي من العلم والحكمة ما يحسن به القيامة ،
 ومن الحزم والعزم ما يعزز به القيادة ، ومن النظام ما يحكم به السياسة ، لا يمكنه أن يسوس
 بها الشرق ، ثم يسود بنفوذها العرب ، كما كان يقصدنا باليونان الكبير لوتتم له البقاء في مصر
 يعترض بعض أولي النظر التصير والبصر الكليل على توحيد اللغة في الشعوب المختلفة
 بأنه خلاف طبيعة البشر ، ويرد عليهم بان توحيد الدين أبعد من توحيد اللغة عن طبيعة

البشر، ان اريد بالبشر جميع افرادهم، وان الحكماء ما زالوا يسعون لجمع البشر على امة واحدة مشتركة مع علمهم أن ترقى بعض اللغات بترقى أهلها في العلوم والفنون والسياسة والقوة يستحيل معه أن يرغبوا عنها إلى غيرها، ولم يسع أحد منهم لجمعهم على دين واحد، وان القرآن الذي شرع توحيد الدين مع شرعه ولغته لجميع البشر قد علمنا أن حكمة الله تعالى في خلق الانسان تأتي أن يكون الناس كلهم أمة واحدة تدين بدين واحد (١١: ١١) ولو شاء ربك لجلد الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم) وإنما دعاهم إلى هذه الرحمة ليقل الشقاء الذي يثيره الخلاف فيهم — هذا الخلاف الذي جعل أعلم شعوب الارض وأرقاهم في العمران يبذلون في هذا العهد أكثر مما تستغله شعوبهم من ثروة العالم في سبيل الحروب التي تنذر عمرانهم الخراب والدمار دعا الاسلام البشر كلهم الى دين واحد يتضمن توحيد اللغة وغيرها من مقومات الامم فكانوا يدخلون فيه أفواجا حتى امتد في قرن واحد ما بين المحيط الغربي إلى الهند ولولا ما طرأ عليه من الابتداع ، وعلى حكوماته من الظلم والاستبداد ، وعلى شعوبه من الجهل والفساد ، والتفرق بالاختلاف، لدخل فيه أكثر البشر، ولصارت لغته لغة لكل من دخل في حظيرته من الامم ، فن غرائزهم اختيار الافضل إذا عرفوه

قال أحد كبار علماء الالمان في الاستانة لبعض المسلمين وفيهم أحد شرفاء مكة : انه ينبغي لنا أن نقيم تمثالا من الذهب لمعاوية بن أبي سفيان في ميدان كذا من عاصمتنا (برلين) قيل له لماذا؟ قال لانه هو الذي حول نظام الحكم الاسلامي عن قاعدته الديمقراطية إلى عصبية الغلب ، ولولا ذلك لعلم الاسلام العالم كله ولكننا نحن الالمان وسائر شعوب أوروبا عربا مسلمين

فهل يعقل أن يكون تقرير هذه الاصول التي توحد الامم والشعوب وتؤلف بينها بما يجمع كلهم عليها بالوازع النفسي من الوحي النفسي الذي ينبع من نفس محمد ﷺ الا في سن الكهولة ففاق بها جميع الانبياء والحكماء أم الاقرب إلى العقل ان تكون بوحى الله تعالى أفاضه عليه ??

المقصد الخامس من مقاصد القرآن

(تقرير مزايا الاسلام العامة في التكاليف الشخصية من العبادات والمحظورات)
(ونلخص اهمها بالاجمال في عشر جمل)

- (١) كونه وسطا جامعاً لحقوق الروح والجسد ومصالح الدنيا والآخرة قال تعالى (١٤٣:٢) وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس) الآية وقد بينا في تفسيرها ان المسلمين وسط بين الذين تغلب عليهم الحظوظ الجسدية والمنافع المادية كاليهود، والذين تغلب عليهم التعاليم الروحية، وتعذيب الجسد وإذلال النفس والزهد كالهندوس والنصارى وإن خالف هذه التعاليم أكثرهم.
- (٢) كون غايته الوصول إلى سعادة الدنيا والآخرة بتزكية النفس بالايان الصحيح ومعرفة الله والعمل الصالح ومكارم الاخلاق، ومحاسن الاعمال، لا بمجرد الاعتقاد والاتكال، ولا بالشفاعات وخوارق العادات، وتقدم بيانه
- (٣) كون الغرض منه التعارف والتأليف بين البشر لا زيادة التفريق والاختلاف وتقدمت شواهد في كونه عاما مكثلا ومتما لدين الله على السنة رسوله في الكلام على آية القرآن وعموم بعثة محمد ﷺ وفي الكلام على الرسل من المقصد الثاني. وإنما تفصيل أصوله في تلك الوحدات الثمان التي بينهاها في المقصد الرابع
- (٤) كونه يسراً لا حرج فيه ولا عسر ولا إرهاق ولا إعتات، قال الله عز وجل (٢٨٦:٢) لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) وقال بلغت حكمته (٢:٢٢٠) ولو شاء الله لا عنتكم) وقال عظمت رأفته (٢: ١٨٥) يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) وقال جلت منته (٢٧:٢٢) وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) وقال عمت رحمته (٥:٧) ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج) ومن فروع هذا الاصل ان الواجب الذي يشق على المكلف أدائه ويخرجه يسقط عنه إلى بدل أو مطلقا كالمريض الذي يرجى برؤه والذي لا يرجى برؤه ومثله الشيخ الهرم — الاول يسقط عنه الصيام ويقضيه كالمسافر، والثاني لا يقضي

بل يكفر باطعام مسكينين إذا قدر . وأما المحرم فيباح للضرورة بنص القرآن ، وإن كان تجرعه أو النهي عنه لسد ذرمة الفساد فيباح للحاجة كما بيناه في تفسير آيات الربا وآيات الصيام ، وآية محرمات الطعام

وقد بينا مسألة يسر الاسلام العام بالتفصيل في تفسير (١٠٤ : ٥) يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم من الجزء السابع وجمع في رسالة خاصة . (٥) منع الغلوف في الدين وإبطال جعله تعديباً للنفس بإباحة الطيبات والزينة بدون إسراف ولا كبرياء وقد فصلنا ذلك في تفسير الآيات الواردة في الأمر بالأكل من الطيبات في سورة البقرة وسورة المائدة وفي تفسير (٣١ : ٧) يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين ٣٢ قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفضل الآيات لقوم يعلمون وقال تعالى (يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم) وهو في (٥ : ١٧١) و (٦ : ٧٧) وفي هذا النهي اعتبار المسلمين لأنهم أولى بالانتباه عن الغلوف بأن دينهم دين الرحمة واليسر : والاحاديث الصحيحة في نهى المسلمين عن الغلوف في العبادة وعن ترك الطيبات وعن الرهبانية والخصاء مبينة لهذه الآيات وهي مصداق تسمية النبي ﷺ له بالحنيفية السمحة

(٦) قلة تكاليفه وسهولة فهمها وقد كان الاعرابي يجيئ النبي ﷺ من البادية فيسلم فيعلمه ما أوجب الله وما حرم عليه في جاس واحد فيعاهده على العمل به فيقول « أفلح الاعرابي إن صدق » وكان هذا أعظم أسباب قبول الناس له . ولكن الفقهاء أكثروا بالتكاليف بأرائهم الاجتهادية حتى صار العلم بهامتعسراً ، والعمل بها متعذراً . (٧) انقسام التكليف إلى عزائم ورخص ، وكان ابن عباس يرجح جانب الرخص وابن عمر يرجح العزائم . والناس درجات في التقصير والتشمير

والاعتدال ، فيوافق البدوي الساذج والفيلسوف الحكيم وما بينهما من الطبقات ، قال الله تعالى (٢٣: ٣٥) ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا : فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك هو الفضل الكبير)

(٨) نصوص الكتاب وهدي السنة مراعى فيهما درجات البشر في العقل والفهم وعلو الهمة وضعفها ، فالقطعي منها هو العام ، وغير القطعي تتفاوت فيه الافهام ، فيأخذ كل أحد منه بما أداه اليه اجتهاده ، ولذلك كان ﷺ يقر كل أحد من أصحابه فيه على اجتهاده كما فعل عند ما نزلت آية البقرة في الحجر والميسر الدالة على تحريمها دلالة ظنية فتركها بعضهم دون بعض ، وأقر كلا على اجتهاده الى أن نزلت آيتنا المائدة بالتحريم القطعي . قال تعالى (٢٩: ٤٣) وتلك الامثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وبيان ذلك أن الفرائض الدينية العامة فيه والمحرمات الدينية العامة لا يثبتان إلا بنص قطعي يفهمه كل أحد ، والاول مذهب الحنفية وأما الثاني وهو التحريم فهو مذهب جمهور السلف أيضاً ، وأما الآيات الظنية الدلالة والاحاديث الآحادية الظنية الرواية أو الدلالة فهي موكولة إلى اجتهاد من تثبت عنده في العبادات والاعمال الشخصية ، وإلى اجتهاد أولي الامر في الاحكام القضائية والمسائل السياسية . وقد بينا هذا في مواضع من التفسير والمنار

(٩) معاملة الناس بظواهرهم وجعل البواطن موكولة إلى الله تعالى فليس لاحد من الحكام ولا الرؤساء الرسميين ولا الخليفة المسلمين أن يعاقب أحداً ولا أن يحاسبه على ما يمتد أو يضر في قلبه وإنما العقوبات على المخالفات العملية للأحكام العامة المتعلقة بحقوق الناس ومصالحهم ، وقد فصلنا هذا في خلاصة تفسير سورة براءة - التوبة (١٠) مدار العبادات كلها على اتباع ما جاء به النبي ﷺ في الظاهر فليس لاحد فيها رأي شخصي ولا رياسة ، ومدارها في الباطن على الاخلاص لله تعالى وصحة النية ، والآيات والاحاديث في الامرين كثيرة

المفصل السادس من مقاصد القرآن

(بيان حكم الاسلام السياسي الدولي : نوعه وأساسه وأصوله العامة)

الاسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم لان مجاء به من إصلاح البشر في جميع شؤونهم الدينية ومصالحهم الاجتماعية والقضائية يتوقف على السيادة والقوة والحكم بالعدل ، وإقامة الحق ، والاستعداد لحماية الدين والدولة ، وفيه أصول وقواعد

(القاعدة الأساسية الاولى للحكم الاسلامي)

الحكم في الاسلام للامة ، وشكله شورى ، ورئيسه الامام الاعظم أو (الخليفة) منفذ لشعره ، والامة هي التي تملك نصبه وعزله ، قال الله تعالى في صفات المؤمنين (٤٢ : ٣٨ وأمرهم شورى بينهم) وقال رسوله ﷺ (٣ : ١٥٩ وشاورهم في الامر) وكان ﷺ يشاور أصحابه في المصالح العامة من سياسية وحرية ومالية مما لا نص فيه في كتاب الله تعالى وقد بينت في تفسيرها حكمة ترك الشورى لاجتهاد الامة (١) وقال تعالى (٤ : ٥٨ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم فان تنازعتن في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) وأولوا الامر هم أهل الحل والعقد والرأي الحصيف في مصالحها الذين تثق بهم الامة وتتبعهم فيما يقررونه بدليل قوله تعالى بعد تلك الآية من سورتها (٨٣) وإذا جاءهم أمر من الامن أو الخوف أذاعوا به . ولو ردوه الى الرسول وإلى أولي الامر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم) فأولو الامر الذين كانوا مع الرسول وكان الامر يرد اليه واليه في الشؤون العامة الامة من الامن والخوف وغيرهما من الذين كان ﷺ يستشيرهم في الامور الدقيقة والسرية المهمة . وكان يستشير جمهور المسلمين فيما لهم به علاقة عامة ويعمل برأي الاكثر وإن خالف رأيه كاستشارتهم في غزوة أحد في أحد الامرين : الحصار في المدينة أو

الخروج إلى أحد اللقاء المشركين فيه . وكان رأيه ورأي بعض كبار الامة الاول ورأي الجمهور الثاني فنفذ رأي الاكثر ، ولكنه استشار في مسألة أسرى بدر خواص أولي الامر وعمل برأي أبي بكر ، كما فصلناه في تفسير سورة الانفال

وقد بينت في تفسير الآية الاولى (٥٨:٥) ما تدل عليه من قواعد الحكم الاسلامي وكونه أفضل من الحكم النيابي الذي عليه دول هذا العصر (١)

ومن الدلائل الكثيرة على أن التشريع القضائي والسياسي هو حق الامة المعبر عنها في الحديث بالجماعة أن القرآن يخاطب بها جماعة المؤمنين في هاتين الآيتين الخاصتين بالحكم العام والدولة وفي سائر الاحكام العامة كقوله (براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) وما يليها من الآيات المتعلقة بالمعاهدات والحرب والصلح ، وما في معناها من سورة الانفال والبقرة وآل عمران ومثل قوله تعالى (٤٩:٩) وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فان بغت إحداهما على الاخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فان فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين) وكذلك خطابه لهم في أحكام الاموال كالغنائم وتخميمها وقسمتها وأحكام النساء وغيرها (وقد بينا هذا كله في مواضعه من التفسير)

وقد صرح كبار النظار من علماء الاصول بان السلطة في الاسلام للامة يتولاها أهل الحل والعقد الذين ينصبون عليها الخلفاء والأئمة ويعزلونهم اذا اقتضت المصلحة عزلهم ، قال الامام الرازي في تعريف الخلافة : هي رئاسة عامة في الدين والدنيا لشخص واحد من الاشخاص . وقال في القيد الاخير (الذي زاده على من قبله) هو احتراز عن كل الامة اذا عزلوا الامام لنفسه . قل العلامة السعد المتقناني في شرح المقاصد عند ذكر هذا التعريف وما علل به القيد الاخير : وكأنه أراد بكل الامة أهل الحل والعقد واعتبر رئاستهم على من عداهم أو على كل من آحاد الامة اه وقد فصلنا مسألة سلطة لامة في كتابنا (الخلافة أو الامامة العظمى) فهذه القاعدة الاساسية لدولة الاسلام أعظم إصلاح سياسي للبشر قررهما

القرآن في عصر كانت فيه جميع الامم مرهقة بحكومات استبدادية استعبدتها في أمور دينها ودنياها ، وكان أول منفذ لها رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم يكن يقطع بأمر من أمور السياسة والادارة العامة للأمة إلا باستشارة أهل الرأي والمكاتب في الامة ، ليكون قدوة لمن بعده

وتم جرى على ذلك الخلفاء الراشدون فقال الخليفة الاول أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) في أول خطبة خطبها على منبر رسول الله ﷺ عقب مبايعته: أما بعد فقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فإذا استقمتم فأعينوني ، واذا زغت فقوموني . وقال الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) من رأى منكم في عوجا فليقوم به . فقال له اعرابي لو رأينا فيك عوجا قومناه بسيفونا ، فقال الحمد لله الذي جعل في المسلمين من يقوم عوج عمر بسيفه . وكان يجمع أهل العلم والرأي من الصحابة ويستشيرهم في كل مسألة ليس فيها نص من كتاب الله ولا سنة أوقضا من رسوله ﷺ وقال الثالث عثمان (رض) أمري لأمركم تبع . وكذلك كان عمل الخليفة الرابع علي المرتضى رضي الله عنه وكرم وجهه ولا أذكر له كلمة مختصرة مثل هذه الكلمات على المنبر .

وإذا أوجب الله المشاورة على رسوله فغيره أولى ، ولا يصح أن يكون حكم الاسلام أدنى من حكم ملكة سبأ العربية فقد كانت مقيدة بالشورى ، ووجد ذلك في أمم أخرى ، وان جهل ذلك من جهله من الفقهاء

ولكن ملوك المسلمين زاعوا بعد ذلك عن هذا الصراط المستقيم إلا قليلا منهم ، وشايعهم علماء الرسوم المنافقون ، وخطباء الفتنة الجاهلون ، حتى صار المسلمون يجهلون هذه القاعدة الاساسية لحكومة دينهم ، وكان من حسن حظ الافرنج في حربهم الصليبية أن كان سلطان المسلمين الذي نصره الله عليهم يقيني في حكمه آثار الخلفاء الراشدين وعمر بن عبدالعزيز وهو صلاح الدين الايوبي (رح) الذي قال لأحد رجاله المتميزين عنده وقد استعداه على رجل غشه « ما عسى ان أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة وأوامره ونواهيها ممثلة ، وإنما انا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضي لك او عليك » ومعنى عبارة السلطان انه ليس إلا

منفذاً لحكم الشرع - كالشحنة وهو صاحب الشرطة - وأن القضاة مستعملون بالحكم لأنهم يحكمون بالشرع العادل المساوي بين الناس. وقد اقتبس الصليبيون منه طريقة حكمه ثم درسوا تاريخ الاسلام فعرفوا منه ما جهله أكثر المسلمين المتأخرين حتى أسسوا حكم دولهم على قاعدة سلطة الامة التي جاء بها الاسلام ، وصاروا يدعونها لانفسهم ، ويعيبون الحكومات الاسلامية باستبدالها ، ثم يجعل الاسلام نفسه سبب هذا الاستبدال والحكم الشخصي ، وصار المسلمون يصدقونهم ويرى المشتغلون بالسياسة وعلم الحقوق منهم انه لا صلاح لحكوماتهم إلا بتقليدهم ، فكان هذا من أسباب ضياع اعظم مزايا الاسلام السياسية التشريعية وذهاب أكثر ملكه

(أصول التشريع في الاسلام)

المعروف عند جمهور أهل السنة ان أصول التشريع الاساسية أربعة (١) القرآن المجيد ، والمشهور عند علماء الاصول ان آيات الاحكام العملية فيه من دينية وقضائية وسياسية لا تبلغ عشر آياته ، وعدها بعضهم خمسمائة آية للعبادات والمعاملات ، والظاهر أنهم يعنون الصريح منها وأكثرها في الامور الدينية لان أكثر أمور الدنيا موكولة إلى عرف الناس واجتهادهم (٢) ما سنه رسول الله ﷺ للعمل والقضاء به من بيان لكتاب الله تعالى وقالوا أيضاً ان أحاديث الاحكام الاصول خمسمائة حديث تمدها أربعة آلاف فيما أذكر (٣) إجماع الامة واتفق الأئمة على الاحتجاج باجماع الصحابة في الدينيات ، وفي إجماع المجتهدين بعدهم تفصيل (٤) اجتهاد الأئمة والامراء والقضاة والقواد في الامور القضائية والسياسية والادارية والحربية ، وخصه بعض الفقهاء بالقياس وأنكر بعضهم القياس وقيدوا آخرون كما فصلنا ذلك في تفسير آية (١٠١:٥) وورد في هذا الترتيب أحاديث وآثار تدل على العمل به في عهد النبي ﷺ والخلفاء الراشدين (منها) حديث معاذ أن النبي ﷺ لما أرسله إلى اليمن قال له « كيف تصنع إذا عرض لك قضاء ؟ » قال أقضي بما في كتاب الله ، قال « فان لم يكن في كتاب الله ؟ » قال فبسنة رسول الله ﷺ قال « فان لم يكن في سنة رسول الله ﷺ » قال أجتهد رأياً لا آلو . قال معاذ : فضرب رسول الله ﷺ صدره ثم

قال « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله (ص) رواه أبو داود والترمذي من طريق الحارث بن عمرو وفيه مقال وله شواهد ، وأما العمل بهذا الترتيب فهو معروف عن الخلفاء الراشدين وقد بيناه في محله وبه أمر عمر (رض) قاضيه شرح في كتابه المشهور في القضاء ولكن الفقهاء يقدمون الاجماع حتى العرفي عند علماء الاصول - وهو مختلف فيه - على النص .

والاصل في شرعية اجتهاد الرأي للحكام حديث « إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران ، وإذا حكم فاجتهد ثم أخطأ فله أجر واحد » رواه الجماعة كلهم . بل كان النبي ﷺ يعطي أمراء الجيوش والسرايا حق الحكم بما يرون فيه المصلحة بقوله للواحد منهم « وإذا حاصرت أهل حصن فارادوك على أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك فانك لا تدري أنصيب فيهم حكم الله أم لا » رواه أحمد ومسلم والترمذي وابن ماجه من حديث بريدة . وقال مثل ذلك في إنزالهم على ذمة الاميردون ذمة الله ورسوله لئلا يخفروها .

(قواعد الاجتهاد من النصوص)

أحكام الكتاب والسنة منها أحكام خاصة بالاعمال والوقائع ومنها قواعد عامة للتشريع ، والأحكام الخاصة منها ما هو قطعي الرواية والدلالة لاجمال للاجتهاد فيه ولا معدل عن الحكم به إلا مانع شرعي من فوات شرط كدرء حدبشبهة أو عذر ضرورة ، وقد أمر عمر (رض) في الجماعة ألا يجحدسارق . ومنها ما هو غير قطعي يعمل فيه باجتهاد من يناط به الحكم والتنفيذ من أمير أو قاض أو قائد جيش كما تقدم قريبا في العبادات والمحرمات .

وأما القواعد العامة فهي ما يجب مراعاته في الاحكام المختلفة ، وأهمها في الاسلام تحري الحق والعدل المطلق العام ، والمساواة في الحقوق والشهادات والاحكام ، وتقرير المصالح ، ودرء المفاسد ، ومراعاة العرف بشرطه ، ودرء الحدود بالشبهات وكون الضرورات تبيح المحظورات ، وتقدير الضرورة بقدرها . ودوران المعاملات على اكتساب الفضائل ، واجتناب الرذائل ، ونسكتفي بالشواهد في العدل والظلم

(نصوص القرآن في ايجاب العدل المطلق والمساواة فيه وحظر الظلم)
لما كان العدل أساس الاحكام وميزان التشريع وقسطاسه المستقيم أكد الله تعالى الامر به والمساواة فيه بين الناس في السور المكية والمدنية . قال تعالى (١٦ : ٩٠ ان الله يأمر بالعدل والاحسان) وقال (٤ : ٥٧ ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل) وقال (٥ : ١٣٥ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والاقربين إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وان تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً)

أمر تعالى المؤمنين بالمباغة في القيام بالقسط وهو العدل فان القوام (بتشديد الواو) صيغة مباغة للفاعل بالقيام بالامر وعدم التهاون والتقصير فيه ، وبأن تكون شهادتهم في المحاكم وغيرها لله عز وجل لا لهوى ولا مصلحة احد ، ولو كانت على انفسهم أو والديهم والاقربين منهم ، وأن لا يجابوا فيها غنياً لغناه تفرقاً اليه أو تكريماً له ، ولا فقيراً لفقره رحمة به وشفقة عليه ، ونهاهم عن اتباع الهوى في الحكم او الشهادة كراهة ان لا يعدلوا فيها لمراعاة من ذكر من الناس ، وأنذرهم عقابه إن لووا ومالوا عن الحق أو عرضوا عنه

وقال تعالى (٥ : ٨ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ان لا تعدلوا ، عدلوا هو اقرب للتقوى واتقوا الله ان الله خبير بما تعملون) فهذه الآية متممة لما قبلها فهناك يأمر بالمساواة في العدل والشهادة بين النفس وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، وبين الغني والفقير ، وههنا يأمر بالمساواة فيها بين الانسان وأعدائه مها يكن سبب عداوتهم لافرق فيها بين ديني وديني ، فالشنآن البغض والعداوة وقيل مع الاحتقار وقد قال (ولا يجرمنكم

شأن قوم على أن لا تعدلوا) لا يحملنكم بعضهم وعداوتهم لكم او بغضكم وعداوتكم لهم على ترك العدل فيهم ، فالعدل بالمساواة اقرب الى تقوى الله ، وأنذر تارك العدل للشأن يمثل ما أنذر به تاركة للمحاربة ، أنذر كلامها بأن الله خير بما يعمله لا يخفى عليه منه شيء ، فهو يحاسبه على عمله وعلى نيته وقصده منه ، فيثيبه او يعاقبه على ما يعلم من امره . فالعدل هو الميزان في قوله تعالى (٤٢ : ١٧) الذي انزل الكتاب بالحق والميزان) وقوله (٥٧ : ٢٥) لقد ارسلنا رسالنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ، وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) الآية : فخير الناس من يصد عن الظلم والعدوان هداية القرآن ، ويلهم من يصد عن العدل الذي يقيمه السلطان ، وشرهم من لا علاج له إلا السيف والسنان ، وهو المراد بالحديد فقوام صلاح العالم بالايمان بالكتاب الذي يحرم الظلم وسائر المناسد فيجتنبها المؤمن خوفا من عذاب الله في الدنيا والآخرة ورجاء في ثوابه فيهما ، وبالعدل في الاحكام الذي يردع الناس عن الظلم بعقاب السلطان

ويؤيد قاعدة إقامة العدل ماورد في تحريم الظلم والوعيد الشديد عليه . فقد ذكر الظلم في مئات من آيات القرآن اسوأ الذكر ، وقرن في بعضها بأسوأ العواقب في الدنيا والآخرة ، وان الجزاء عليه فيها اثر لازم له لزوم العمل للعللة والمسبب للسبب ، ون الناس هم الذين يظلمون أنفسهم (ولا يظلم ربك احداً) ومن اثره وعاقبته في الدنيا انه مهلك الامم ومخرب العمران . قال تعالى (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها ماصحون) اي ما كان من شأننا ولا من سنته في نظام الاجتماع ان يهلك الامم بظلم منه لهم ، او بشرك به يقع منهم ، وهم مصاحون في سيرتهم وأعمالهم ، وإنما يهلكهم بظلمهم وإفسادهم ، كما قال (وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) وقال في الاحكام (ومن لم يحكم بما انزل الله فأولئك هم الظالمون) ورد هذا في حكم القصاص ،

(قواعد مراعاة الفضائل في الاحكام والمعاملات)

من استقرأ الاحكام الشرعية في الكتاب والسنة بأنواعها من شخصية ومدنية وسياسية وحربية يرى أن الغرض منها كلها قاعدة مراعاة الفضائل فيها من الحق والعدل والوفاء بالعهود والمعقود ، والرحمة والمحبة والمواساة والبر والاحسان ، واجتناب الرذائل من الظلم والعدو ونقض العهود والمعقود والسكذب والخيانة والقسوة والغش والخداع وأكل أموال الناس بالباطل كالربا والرشوة والسحت وشراء التجارة بالدين والخرافات . وسيأتي الكلام في الإصلاح الحربي والمعبرة في كل هذه القواعد التي فضل بها الاسلام جميع شرائع الانبياء وقوانين الحكماء والعلماء أنها قد جاءت على لسان نبي أمي نشأ بين أميين ، فهل كانت بوحى نبع بعد الكهولة من نفسه ، أم هو كما بلغنا وحي من ربه ؟

المقصد السابع من فقه القرآن

(الارشاد إلى الإصلاح المالي)

(تمهيد) بينا مقاصد القرآن أو أصول فقهه في إصلاح البشر من طريق الدين والايثار والعمل والاذعان ، ومن طريق العقل والبرهان والفكر والوجدان ، ومن طريق الحكم العادل والسلطان ، وما يتعلق منه بالافراد ، وما يتعلق منه بوحدة الانسانية والاجناس ، وبقي ما يتعلق بفقهه في إصلاح المفاصل الاجتماعية الكبرى الذي يتوقف كاله على ما تقدم كاه وهي : — (١) طغيان الثروة ودُّوتها (٢) عدوان الحرب وقسوتها (٣) ظلم المرأة واستباحتها (٤) ظلم الضعفة والاسرى وسلب حريتهما ، وهو الرق المطلق — ذلك بان جميع حظوظ الدنيا منوطة بها ، ولا يتم الإصلاح فيها إلا بتعاون الدين والعقل ، والعلم والحكمة والحكم ، وإننا نتكلم عليها بالاجمال ، مبتدئين بالمال ، والآيات فيه تدور على سبعة أقطاب ، فنقول :

(١ - القاعدة العامة في المال كونه فتنه واختباراً في الخير والشر)

القاعدة الاساسية للقرآن في المال انه فتنه أي اختبار وامتحان للبشر في حياتهم الدنيوية من معاش ومصالح إذ هو الوسيلة إلى الاصلاح والافساد، والخير والشر، والبر والفجور، وهو مثار التنازع والتنافس في كسبه وإنفاقه، وكنزه واحتكاره، وجعله دولة بين الاغنياء، وتداوله في المصالح والمنافع بين الناس قال الله عز وجل (٣ : ١٨٦) اتيلون في أموالكم وأنفسكم) وقال حكاية عن نبيه سليمان عليه السلام حين رأى عرش ملكة سبأ مستقراً عنده (٢٧ : ٤٠) هذا من فضل ربي ليبلوني أشكر أم أكفر) الآية. وقال (٣٤ : ٣٧) وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقر بكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا) الآية وقال [٣٠ : ٣٩] وما آتيتم من ربا ليربو في اموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون [٣ : ١٤] زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المنقطرة من الذهب والفضة الآية وقال تعالى [٨ : ٢٨] واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنه وأن الله عنده أجر عظيم [ومثلها في سورة التغابن [٦٤ : ١٥] ويليتها الترغيب في الانفاق وقصر الفلاح على الوفاية من شح النفس . وقال تعالى [١٨ : ٤٦] المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخيراً أملاً] انظر هذا مع قوله تعالى في اول هذه السورة وهي الكهف [٧] إننا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم أيهم احسن عملاً] والمراد من العمل ما يتعلق بما على الارض من العمران وأحسنه أنفعه للناس وأرضاه الله بشكره، ثم ما ضربه من المثل بصاحبي الجنيتين، والمثل للحياة الدنيا بنبات الارض . وقال تعالى في تعليل قسمة النعم بين مستحقيه [٥٩ : ٧] كي لا يكون دولة بين الاغنياء منكم] والدولة بضم الدال المال المتداول أي لثلا يكون المال محصوراً

في الاغنياء متداولاً بينهم وحدم . وقال تعالى [٣٤:٩] والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم (الخ الكنز هو المنع من التداول الذي يكون به المال نافعاً للناس

والشواهد في فتنة المال في القرآن كثيرة تجدد الكلام عليها في مواضع من هذا التفسير ولا سيما الجزء العاشر منه^(١) فن الآيات في ارتباط السعادة والفلاح بانفاق المال والشقاء بمنعه ما هو للترهيب وما هو للترغيب ، وجمع بين الترغيب والترهيب في قوله [٢ ، ١٩٥] وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة [الآية (٢)] أي ان منع انفاق المال في سبيل الله من أسباب التهلكة . ثم قال في الترغيب (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) وكذا قوله تعالى من سورة الليل [٦٤:١١ - ١١] ويؤيد ذلك شواهد القطب الثاني من آيات المال وهي :

(٢ - الآيات في ذم طغيان المال وغروره وصدده عن الحق والخير)

قال تعالى في سورة الملق [كلا إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى] أي حقاً ان الانسان ليتجاوز حدود الحق والعدل والفضيلة برؤية نفسه غنياً بالمال . وقد نزلت هذه وما بعدها في أبي جهل أشد أعداء النبي ﷺ والاسلام في أول ظهوره وهي أول ما نزل في ذلك . ومثلها سورة [تبت يدا أبي لهب وتب * ما أغنى عنه ماله وما كسب] الخ ومثلها سورة الهمزة [الذي جمع ما لا وعدده * يحسب أن ماله أخلده] الخ وفي منها آيات من سورتي المدثر والقلم وغيرها

(٣ - ذم البخل بالمال والكبرياء به والرياء في انفاقه .)

قال تعالى (٣ : ١٨٠) ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوفون ما بخلوا به يوم القيامة) وقال (٢ : ٢٦٠) الشيطان يمدك العقر ويأمرك بالفحشاء) الآية . فسروا الفحشاء بالبخل أي الشيطان

(١) راجع في فهرسه كلمة المال فتنته (٢) ص ١٣ ج ٢ تفسير . طبعة ثانية

٢٧٤ مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الايمان والعمل التفسير : ج ١٩

يصدكم عن الاتفاق في سبيل الله بتخويفكم من الفقر ويأمركم بالبخل الذي فحش شره وضرره . وقال بعد الامر بالاحسان بالوالدين وبذي القربى واليتامى والمساكين والجيران (٤ : ٣٥) والله لا يحب كل مختال فخور ٣٦ الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل) ومن الشواهد آيات ٩ : ٧٧ و ٧٨ وآية ٤٧ ، ٣٨ وآية ٤ : ١٩ وآية ٢ : ١٨٨ وآية ٤ : ١٦١ وآية ٤ : ١٩ وآية ٤٩ : ٣٥ و ٣٥

(٤ - مدح المال والغنى بكونه من نعم الله وجزائه على الايمان والعمل الصالح)

قال تعالى في سورة نوح عليه السلام حكاية عنه [فقلت استغفروا ربكم انه كان غفاراً * يرسل السماء عليكم مدراراً * ويمددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهاراً] وفي معناه ما حكاه عن هود عليه السلام في سوره [٥٢ : ١١] وفي معناه قوله تعالى من سورة الجن [٧٢ : ١٣ - ١٧] والاصل في ذلك كله بيان نعمته على آدم وحواء وذريتهما بهداية الدين في آخر قصته من سورة طه [٢٠ : ١٢٢ و ١٢٣] الآيات .

ومن الشواهد على هذه الحقيقة التي غفل عنها المفسرون وغيرهم قوله تعالى عطفاً على الامر بمنع المشركين من دخول المسجد الحرام (٩ : ٢٨) وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أي وإن خفتم فقراً يعرض لكم بحرمان مكة مما كان يفتقه فيها المشركون في موسم الحج وغيره فسوف يغنيكم الله تعالى بالاسلام وفتوحه وغنايته ^١ وكذا قوله للذين أعطوا الفداء من أسرى بدر [٨ : ١٠٠] إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً مما أخذ منكم [وكذلك كان فقد أعنى الله العرب الفقراء عامة ومن أسلم من أولئك الأسرى بالاسلام ، فجعلهم أغنى الأمم والاقوام ^٢ وقد امتن الله تعالى على نبيه الاعظم بقوله (ووجدك عائلاً فأغنى) وامتن على قومه بتوفيقهم للتجارة الواسعة برحلة الشتاء والصيف في سورة خاصة بذلك ، وسمى المال الكثير خيراً بقوله في صفات الانسان (وانه لحب الخير لشديد) وقال (٢ : ١٨٠) إن ترك خيراً الوصية للوالدين والاقربين) الآية

(١) راجع تفسير الآية في ص ٢٧٧ ج ١٠ تفسير (٢) راجع ص ١٠٠ منه

﴿ ٥ — ما أوجب الله من حفظ المال من الضياع والاقتصاد فيه ﴾

قال تعالى (٥: ٤) ولا توتوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياماً (قيام الشيء وقوامه) بالنكسر والفتح) ما يستقيم به ويحفظ ويثبت ، أي جعلها قوام معاشكم ومصالحكم ، والسفهاء هم المسرفون المبدرون لها الصغر سنهم دون الرشد أو لفساد أخلاقهم وضعف عقولهم وقال تعالى في صفات المؤمنين (٦٧: ٢٥) والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً) الاسراف التبذير والافراط والقتور والقتور والافتقار الاقلال والتصديق في المنفعة

﴿ ٦ — إتفاق المال آية الايمان والوسيلة لحياة الامة وعزة الدولة ﴾

هذا هو القطب الاعظم من أقطاب الآيات المنزلة في المال وأكثرها فيه، وما ذكر قبله وسائل له ، وما بعده بيان للعمل به ، وأظهر الشواهد فيه ان الله تعالى جعله هو الفصل بين الاسلام الصحيح المقترون بالاذعان ، المبني على اساس الايمان ، وأن دعوى الايمان بدون شهادته باطلة ، وإن كانت دعوى الاسلام تقبل مطلقاً لأن احكامه العملية تنبئ على الظواهر ، والله تعالى هو الذي يحاسب على السرار ، والاصل في هذه المسألة قوله تعالى (٤٩ : ١٤ و ١٥) قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا) الآيتين فقدم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في تحقيق صحة الايمان . وبلي هذا الشاهد آية البر الناطقة بان بذل المال على حبه بالاختيار ، أول آيات الايمان ، (١٧٧ : ٢) ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) الخ ومن الآيات في تفضيل المؤمنين المنفقين على غيرهم وتفاوتهم في ذلك قوله تعالى (٤ : ٩٥) لا يستوي القاعدون من المؤمنين غير أولي الضرر والمجاهدون في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ، فضل الله المجاهدين بأموالهم وأنفسهم على القاعدين درجة وكلاً وعد الله الحسنى) اقرأ تنمة الآية وما بعدها . وقال تعالى (٥٧ : ١٠) وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله والله ميراث السموات والارض ، لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل ، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد

وقائلوا ، وكلاً وعد الله الحسنى) والآيات في هذا الموضوع كثيرة ، ويراجع تفصيلها في تفسير الجزء الثاني والجزء العاشر وهذا الجزء [١١] من التفسير ومن الآيات البليغة في الترغيب فيه ومضاعفة ثوابه ، وبيان آدابه ، عشرون آية من أواخر سورة البقرة هي من أواخر ما نزل من القرآن يتخللها الوعيد الشديد على أكل الربا فراجعها من آية ٢٦١-٢٨١ مع تفسيرها من جزء التفسير الثالث ثم راجع في فهرس الجزء العاشر كلمة (المال: الجهاد به اقوى آيات الايمان وقوام الدين والدولة) يرشدك الى عشر صفحات متفرقة فصلنا فيها هذه المسألة

٧ الحقوق المفروضة والمندوبة في المال والاصلاح المالي في الاسلام

قد عقدت لتفسير قوله تعالى (٩ : ١٠٣ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيتهم بها) فصلا « في فوائد الزكاة المفروضة والصدقات والاصلاح المالي للبشر وامتياز الاسلام بذلك على جميع الاديان » ولخصت أصول هذا الاصلاح في أربعة عشر أصلا ، فراجعها فما هي منك ببعيد (ص ٢٧) وموضوع بحثنا في هذا الاستطراد وهو دلائل الوحي المحمدي انه لا يعقل أن يكون محمد النبي الامي الذي عرفنا خلاصة تاريخه قد اهتدى بعقله أو بوحى من نفسه فنفسه إلى هذه الحقائق التي قاقت وعلت جميع الكتب الالهية والبشرية في أرقى عصور العلم والحكمة والقوانين ، وإنما المعقول أن يكون هذا بوحى منه عز وجل . أخاض على خاتم النبيين فلا يحتاجون بعده إلى وحي آخر

المقصد الثامن من فقه القرآن

اصلاح نظام الحرب ودفع مفسادها وقصرها على ما فيه الخير للبشر

التنازع بين الاحياء في مرافق المعيشة ووسائل المال والجاه غريزة من غرائز الحياة ، وإفضاء التنازع الى التعادي والاقتيال بين الجماعات والاقوام ، سنة من سنن الاجتماع ، وضرورة من ضروراته ، قد تكون وسيلة من وسائل العمران ، فإن كان

التنازع بين الحق والباطل كان الفلج للحق ، وإن كان بين العلم والجهل كان الظفر للعلم ، وإن كان بين النظام والاختلال كان النصر للنظام ، وإن كان بين الصالح والفساد كان الغلب للصالح ، كما قال تعالى في الحق والباطل (٢١ : ١٨) بل تنذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق) وقال في بيان نتيجة المثل الذي ضربه لها (١٣ : ١٧) فأما الزيد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

وأما التنازع والتعادي والتماثل على الشبهات الباطلة ، والسيادة الظالمة ، واستعباد القوي للضعيف ، والاستكبار والعلو في الأرض ، فإن ضرره كبير ، وشره مستطير ، يزيد ضراوة البشر بسفك الدماء ، وبورثهم الحقد ويورث بينهم العداوة والبغضاء ، وقد اشتدت هذه المفاصد في هذا الزمان ، حتى خيف أن تقضي على هذا العمران العظيم في وقت قصير ، بما استحدثه العلم الواسع من وسائل التخريب والتدمير ، كالمغازات السامة ومواد الهدم والتحريق تنذفها الطائرات المحلقة في جو السماء ، على المدائن المكتظة بالالوف من الرجال والنساء والأطفال ، فتقتلهم في ساعة واحدة أو ساعات معدودة

وقد حارت الدول الحربية في تلافي هذا الخطر ، وترى دهاقين السياسة في كل منها يتفاوضون مع أقرانهم لوضع نظام لتقرير السلام ، ودرء مفاسد الخصام ، بمعاهدات يعقدونها ، وأيمان يتقاسمونها ، ثم ينفضون خائبين ، أو ينفضون ما أبرموا متأولين ، ويعودون إلى مثله مخادعين

وقد بين الله تعالى في كتابه سبب هذه الخيبة بما وجدنا مصداقه في هذه الدول بأظهر مما كان في عرب الجاهلية الذين نزل هذا البيان في عيدهم ، كأنه نزل في هؤلاء الأفرنج دون غيرهم ، وهو من عجائب القرآن في لفظه ومعناه. وذلك قوله تعالى بعد الأمر بالإيفاء بهيئته ، والنهي عن نقضه (١٦ : ٩٢) ولا تكونوا كآلتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هي أربى من أمة) والمعنى لا تكونوا في نقض عهودكم والعود إلى تجديدها كآلرة الخفاء التي تنقض غزلها من بعد قوة إبرامه نقض أنكاث (وهو جمع نكث بالكسر ما نقض ليغزل مرة أخرى) حال كونكم تتخذون عهودكم دخلا بينكم

(والدخل بالتحريك الفساد والغش الخفي الذي يدخل في الشيء وما هو منه) لاجل ان تكون أمة أربي من أمة أخرى رجلا ، وأكثر رجحا ومالا ، وأقوى اسنة ونصالا والمراد ان معاهدات الصلح والاتفاق بين الامم يجب أن يقصدها الاصلاح والعدل والمساواة فتبنى على الاخلاص دون الدخل والدغل الذي يقصد به ما ذكر ولو طلبوا الخرج والسلامة من هذا الخطر لوجدوهما في دين الاسلام ، فهو هودين الحق والعدل والسلام ، وهك بعض الشواهد على هذا من قواعد الحرب والسلم في آيات القرآن .

(أعم قواعد الحرب والسلام في دين الاسلام والشواهد عليها من آيات القرآن)

قد استنبطنا من آيات سورة الانفال ٢٨ قاعدة من القواعد الحربية العسكرية والسياسية في القتال والصلح والمعاهدات أجملناها في الباب السابع من خلاصة تفسير السورة (ص ١٣٤ - ١٤٤ من جزء التفسير العاشر) وأحلنا في تفصيلها على تفسير الآيات المستنبطة منها ، ثم استنبطنا من آيات سورة التوبة ١٣ قاعدة حربية أكثرها في المعاهدات ووجوب الوفاء بها وشرط نبذها وفي الهدنة وتأمين الحربي للدخول في دار الاسلام - ٢٠ حكما من أحكام الحرب والجزية سردناها في خلاصة تفسير هذه السورة (**) ثم أتينا بوضع قواعد منهما ومن غيرها من السور فيما ألفردناه من هذا البحث ، لان المقام مقام إيراد الشواهد المجمة على أنواع الاصلاح الاسلامي من القرآن للاستدلال بها على ان جملة هذه العلوم لا يعقل أن تكون كلها من آراء محمد النبي الامي الذي عاش قبل النبوة عيشة العزلة والانفراد ، إلا قليلا من رعي الغنم في الصبا والتجارة في الشباب . وقد قصرت عن كل نوع منها كتب الاديان الالهية ، وكتب الحكمة والقوانين البشرية

(القاعدة الاولى في الحرب المفروضة شرعا)

ورد الامر بقتال المعتدين لما سياتي من درء المفسد وتوطيد الصالح مقترنا بالنهي عن قتال الاعتداء والبغي والظلم ، والشاهد عليه قوله تعالى (٢ : ١٩٠) وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تمتدوا ان الله لا يحب المعتدين) وتعليل النهي عن قتال الاعتداء بأن الله تعالى لا يحب المعتدين مطلقا دليل على أن هذا النهي محكم غير قابل للمسح ، ومن ثم بينا في تفسير هذه الآية من جزء التفسير الثاني أن حروب النبي ﷺ للكفار كانت كلها دفاعا ليس فيها شيء من العدوان ،

(القاعدة الثانية في الغرض من الحرب وتقييدها)

وهي أن تكون الغاية الايجابية من القتال - بعد دفع الاعتداء والظلم واستتباب الأمن - حماية الاديان كلها ، وعبادة المسلمين لله وحده ، ومصالحة البشر ، وإسداء الخير اليهم ، لا الاستعلاء عليهم والظلم لهم ، والشاهد الاول عليه قوله تعالى بعد الاذن الاول بالقتال الدفاعي المظلومين الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق لاجل عبادة الله وحده (٢٢ : ٤٠) ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز ٤١ الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر والله عاقبة الامور)

ذكر في تعليل اذنه لهم بالقتال المذكور ثلاثة أمور (أولها) كونهم مظلومين معتدى عليهم في أنفسهم ، ومخرجين نفيًا من أوطانهم وأمواهم لاجل دينهم وإيمانهم ، وهذا سبب خاص بهم بقسميه الشخصي والوطني ، أو الديني والدينيوي (ثانيها) انه نولا إذن الله للناس بمثل هذا الدفاع لهدمت جميع المعابد التي يذكر فيها اسم الله تعالى أتباع الانبياء كصوامع العباد وبيع النصراني وصلوات اليهود

٢٨٠ قاعدة ايشار السلم على الحرب ، وقاعدة التسامح السلمي (التفسير : ج ١١)

(كنائسهما) ومساجد المسلمين بظلم عباد الاصنام ومنكري البعث والجزاء، وهذا سبب ديني عام صريح في حرية الدين في الاسلام وحماية المسلمين لها ولمعابد أهلها وكذلك كان (ثالثها) أن يكون غرضهم من التمكن في الارض والحكم فيها إقامة الصلاة المزكية للانفس بنهبها عن الفحشاء والمنكر كما وصفها تعالى، والمرية للانفس على مراقبة الله وخشيته ومحبهه - وإيتاء الزكاة المصاحبة الامور الاجتماعية والاقتصادية - والامر بالمعروف الشامل لكل خير ونفع للناس - والنهي عن المنكر الشامل لكل شر وضرر ياحق صاحبه او غيره من الناس

(القاعدة الثالثة — ايشار السلم على الحرب)

هذه القاعدة مبنيّة على القاعدتين اللتين قبّاهما اذ علم بهما أن الحرب ضرورة يقتضيهما ما ذكر فيهما من المصالح ودفع المفاسد ، وان السلم هي الاعل التي يجب أن يكون عنيتها الناس ، فلهدا أمرنا الله بايثارها على الحرب اذا جنح العدو لها ، ورضي بها ، والشاهد عليه قوله تعالى (٨ : ٦١) وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) فراجع تفسيرها في ص ٦٩ و ٦٤٠ من جزء التفسير المباشر

(القاعدة الرابعة الاستعداد التام للحرب لأجل الارهاب المانع منها)

إن الذي يجب أن تكون عليه الدولة قبل الحرب هو إعداد الامة كل ما تستطيع من أنواع القوة الحربية ورباط الخيل في كل زمان يحسبه على أن يكون القصد الاول من ذلك إرهاب الاعداء وإخافتهم من عاقبة التعدي على بلاد الامة أو مصالحها ، أو على أفراد منها أو متاع لها حتى في غير بلادها ، لاجل أن تكون أمنة في عقر دارها ، مطمئنة على أهلها ومصالحها وأموالها ، وهذا ما يسمى في

عرف هذا العصر بالسلم المساحة أو التسليح السلمي ، وتدعيه الدول العسكرية فيه زوراً وخداعاً فتكذبها أعمالها ، ولكن الاسلام امتاز على الشرائع كلها بأن جعله ديناً مفروضاً ، فقيده به الامر باعداد القوى والمرايطة للقتال ، وذلك قوله عز وجل (٨ : ٦٠) وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم)

(القاعدة الخامسة الوحيدة في الحرب)

إذا كان الغلب والرجحان في القتال للمسلمين المعبر بالاثخان في الاعداء وأمنوا على أنفسهم ظهور العدو عليهم فإله تعالى يأمرهم أن يكفوا عن القتل ، ويكتفوا بالاسر ، ثم يخيرهم في الاسارى إما بالن عايهم باطلاقهم بغير مقابل ، وإما بأخذ الفداء عنهم ، وذلك نص قوله تعالى في سورة محمد ﷺ (٤٧ : ٤) فإذا لقيتم الذين كفروا فاضرب الرقاب ، حتى إذا اخذتموهم فشدوا الوثاق فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) الآية وقد أوردناها وبيننا معناها (في تفسير ٨ ، ٦٧ ما كان لني أن يكون له أسرى حتى يشخن في الارض الآية) راجع تفسيرها في الجزء العاشر

(القاعدة السادسة الوفاء بالعهودات وتحريم الخيانة فيها)

وجوب الوفاء بالعهود في الحرب والسلم وتحريم الخيانة فيهما سرا او جهرا ، كتحریم الخيانة في كل أمانة مادية أو معنوية ، كلاهما من أحكام الاسلام القطعية ، والآيات في ذلك متعددة محكمة لاتدع مجالاً لاياحة نقض العهد بالخيانة فيه وقت القوة ، وعده قصاصة ورق عند إمكان نقضه بالحيلة (منها) والآيات فيها كثيرة تقدم أهمها في الجزء العاشر من التفسير^(١)

﴿ القاعدة السابعة الجزية وكونها غاية للقتال لاعلة ﴾

قلت في تفسير قوله تعالى في قتال أهل الكتاب من آية الجزية (٢٩:٩) حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون (مانصه :

هذه غاية الأمر بقتال أهل الكتاب ينتهي بها اذا كان الغلب لنا ، أي قاتلوا من ذكر عند وجود ما يقتضي وجوب القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل الروم فكان سبباً لغزوة تبوك ، حتى تأمنوا عدوانهم باعطائكم الجزية في الحالين اللذين قيدت بهما (ثم قلت)

هذا - وان الجزية في الاسلام لم تكن كالضرائب التي يضعها الفاتحون على من يتغلبون عليهم فضلا عن المغارم التي يرهقونهم بها ، وإنما هي جزاء قليل على ما تلزمه الحكومة الاسلامية من الدفاع عن أهل الذمة وإعانة للجند الذي يمنهم أي يحميهم ممن يعتدي عليهم كما يعلم من سيرة أصحاب رسول الله ﷺ وهم أعلم الناس بمقاصد الشريعة وأعدلهم في تنفيذها . والشواهد على ذلك كثيرة أوردنا طائفة منها في تفسير الآية بعد ما تقدم آنفاً (١)

ومن تأمل هذه القواعد رأى انه لم يسبق الاسلام إلى مثلها دين من الاديان ، ولا قانون دولي ، ولا إرشاد فلسفي أو أدبي ، ولا تبعته بها أمة بتشريع ولا عمل . أفليس هذا وحده دليلاً واضحاً لدى من يؤمن بوجود رب للبشر علم حكيم ، بأن محمداً العربي الامي قد استمدّها بوحى منه عز وجل ، وان عقله وذكاه لم يكن ليبلغ هذه الدرجة من العلم والحكمة في هذه المعضلات الاجتماعية بدون هذا الوحي ؟ فكيف إذا أضفنا إليها ما تقدم وما يأتي من المعارف الالهية والادبية والاجتماعية والانباء الغيبية وغير ذلك من دلائل نبوته ﷺ ؟

المقصد التاسع من فقه القرآن

﴿ إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية ﴾

كان النساء قبل الاسلام مظلومات ممتحنات مستعبدات عند جميع الامم وفي جميع شرائعها وقوانينها ، حتى عند أهل الكتاب ، حتى جاء الاسلام ، وأكمل الله دينه ببعثة خاتم النبيين محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، فأعطى الله النساء بكتابه الذي أنزله عليه ، وبسننه التي بين بها كتاب الله تعالى بالقول والعمل ، جميع الحقوق التي اعطاها للرجال ، إلا ما يتضيه اختلاف طبيعة المرأة ووظائفها النسوية من الاحكام ، مع مراعاة تسكرهما والرحمة بهما والعطف عليهما ، حتى كان النبي ﷺ يقول « ما أكرم النساء إلا أكرمهم ، ولا أهانهن إلا لثيم » رواه ابن عساکر من حديث علي (ع.م) واني أشير هنا الى أهم أصول الاصلاح النسوي التي بسطتها بكتاب وسيط في حقوق النساء في الاسلام بينت في مقدمته جاهن قبل البعثة المحمدية عند أم الارض اجمالاً بقولي :

« كانت المرأة تشتري وتباع ، كالمهيممة والمتاع ، وكانت تسكره على الزواج وعلى البغاء ، وكانت تورث ولا ترث ، وكانت تملك ولا تملك ، وكان اكثر الذين يملكونها يحجرون عليها التصرف فيما تملكه بدون إذن الرجل ، وكانوا يرون للزوج الحق في التصرف بما لها من دونها ، وقد اختلف الرجال في بعض البلاد في كونها انساناً ذات نفس وروح خالدة كالرجل ام لا ؟ وفي كونها تلقن الدين وتصح منها العبادة أم لا ؟ وفي كونها تدخل الجنة أو الملكوت في الآخرة ام لا ؟ فقرر أحد المجامع في رومية أنها حيوان نجس لاروحه ولا خلود ، ولكن يجب عليها العبادة والخدمة ، وأن يكتم فيها كالبعير والكلب العمور لمنعهما من الضحك والكلام ، لأنها احيولة الشيطان ، وكانت اعظم الشرائع تبيح للوالد بيع ابنته ، وكان بعض العرب يزون ان للاب الحق في قتل بنته بل في وأدها « دفنها حية » ايضاً . وكان منهم من يرى انه لا قصاص على الرجل في قتل المرأة ولا دية »

وكتبت في مقدمة الكلام على حقوق النساء المالية في الإسلام ما مختصره
 «قد أبطل الإسلام كل ما كان عليه العرب والعجم من حرمان النساء من التملك
 أو التضييق عليهن في التصرف بما يملكن ، واستبدال أزواج المتزوجات منهن
 بأموالهن ، فأثبت لهن حق الملك بأنواعه والتصرف بأنواعه المشروعة ، فشرع الوصية
 والارث لهن كالرجال ، وزادهن ما فرض لهن على الرجال من مهر الزوجية والنفقة
 على المرأة وأولادها وإن كانت غنية ، وأعطاهن حق البيع والشراء والاجارة والهبة
 والصدقة وغير ذلك . ويتبع ذلك حقوق الدفاع عن مالها كالدفاع عن نفسها
 بالتقاضي وغيره من الاعمال المشروعة ، وان المرأة الفرنسية لاتزال إلى اليوم مقيدة
 بإرادة زوجها في جميع التصرفات المالية ، والعقود القضائية»

وانني ألخص من ذلك الكتاب المسائل الآتية بالابحاز

(١) كان بعض البشر من الافرنج وغيرهم يعدون المرأة من الحيوان الاعجم أو
 من الشياطين لا من نوع الانسان وبعضهم يشك في ذلك فجاء محمد ﷺ يتلو عليهم
 قول الله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) الآية وقوله (خلقكم من
 نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء) وما في معناها

(٢) كان بعض البشر في أوربة وغيرها يرون أن المرأة لا يصح أن يكون
 لها دين حتى كانوا يحرمون عليها قراءة الكتب المقدسة رسمياً فجاء الاسلام يخاطب
 بالتكاليف الدينية الرجال والنساء معا بلقب المؤمنين والمؤمنات، والمسلمين والمسلمات
 كان أول من آمن بمحمد خاتم النبيين ﷺ امرأة وهي زوجته خديجة بنت
 خويلد (رض) وقد ذكر الله تعالى مبايعته ﷺ للنساء في نص انقرآن ثم بايع الرجال
 بما جاء فيها - ولما جمع القرآن في مصحف واحد جمعاً رسمياً وضع عند امرأة هي
 حفصة أم المؤمنين وظل عندها من عهد الخليفة الاول أبي بكر الصديق الى عهد
 الخليفة الثالث عثمان (رضي الله عنهم) فأخذ من عندها واعتمدوا عليه في نسخ
 المصاحف الرسمية التي كتبت وأرسلت إلى الامصار لاجل النسخ عنها والاعتماد عليها

(٣) كان بعض البشر يزعمون ان المرأة ليس لها روح خالدة فتكون مع
 الرجال المؤمنين في جنة النعيم في الآخرة - وهذا الزعم أصل لعدم تدنيها -

فنزّل القرآن يقول (ايس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب : من يعمل سوءاً يجز به ولا يجده من دون الله وائياً ولا نصيراً) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيراً) ويقول (فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضهم من بعض) الآية وفيها الوعد الصريح بدخول الفريقين جنات تجري من تحتها الأنهار

(٤) كان بعض البشر يحتقرون المرأة فلا يعدونها أهلاً للاشتراك مع الرجال في المعابد الدينية والمحافل الادبية ، ولا في غيرهما من الامور الاجتماعية والسياسية والارشادات الاصلاحية، فنزل القرآن يصارحهم بقوله تعالى (٧١:٦) والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الآية ثم قال (٧٢) وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومسكن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر ، ذلك هو الفوز العظيم) فراجع تفسيرهما في ص ٥٤١ من جزء التفسير العاشر

(٥) كان بعض البشر يحرمون النساء من حق الميراث وغيره من التملك وبعضهم يضيّق عليهن حق التصرف فيما يملكن ، فأبطل الاسلام هذا الظلم وأثبت لمن حق التملك والتصرف بأنفسهن في دائرة الشرع ، قال الله تعالى (الرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضاً) وقال (الرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن) ونحن نرى أن دولة الولايات المتحدة الاميريكية لم تمنح النساء حق التملك والتصرف إلا من عهد قريب في عصرنا هذا ، وأن المرأة الفرنسية لا تزال مقيدة بإرادة زوجها في التصرفات المالية والعقود القضائية، وقد منحت المرأة المسلمة هذه الحقوق منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن

(٦) كان الزواج في قبائل البدو وشعوب الحضارة ضرباً من استرقاق الرجال للنساء فجعله الاسلام عقداً دينياً مدنياً اقضاء حق الفطرة بسكون النفس من اضطرابها الجنسي بالحلب بين الزوجين وتوسيع دائرة المودة والالفة بين العشيرتين واكتمال عاطفة الرحمة الانسانية وانتشارها من الوالدين إلى الاولاد ، على ما أرشد

اليه قوله تعالى (ومن آياته ان خلق لكم من انفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون)

(٧) القرآن ساوى بين المرأة والرجل باقتسام الواجبات والحقوق بالمعروف مع جعل حق رياسة الشركة الزوجية للرجل لانه أقدر على النفقة والحماية بقول الله عز وجل في الزوجات (وهن مثل الذي عليهن بالمعروف وبالرجال عليهن درجة) وقد بين هذه الدرجة بقوله تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم) فجعل من واجبات هذه القيامة على الزوج نفقة الزوجة والاولاد لا تكلف الزوجة منه شيئا ولو كانت أغنى منه ، وزادها المهر فالمسلم يدفع لامرأته مهراً عاجلاً مفروضاً عليه بمقتضى العقد حتى اذا لم يذكر فيه لزمه فيه مهر مثلها في الهيئة الاجتماعية ، ولها أن يؤجلا بعضه بالتراضي ، على حين نرى بقية الامم حتى اليوم تكلف المرأة دفع المهر للرجل

وكان أولياء المرأة يجبرونها على الزوج بمن تكره او يعضلونها بالمنع منه مطلقا وإن كان زوجها وطلقها فحرم الاسلام ذلك ، والنصوص في هذا معروفة في كلام الله وكلام رسوله وسنته وتقدم بيانها في الجزء الثاني من التفسير

(٨) كان الرجال من العرب وبني اسرائيل وغيرهم من الامم يتخذون من الأزواج ماشاءوا غير مقيدين بعدد ، ولا مشترط عليهم فيه العدل ، فقيدهم الاسلام بان لا يزيدوا على أربع ، وان من خاف على نفسه ان لا يعدل بين اثنتين وجب عليه الاقتصار على واحدة ، وانما أباح الزيادة لمحتاجها القادر على النفقة والاحصان لانها قد تكون ضرورة من ضرورات الاجتماع ولا سيما حيث يقل الرجال ويكثر النساء وقد فصلنا ذلك في تفسير آية التعدد من سورة النساء ثم زدنا عليه في كتاب (حقوق النساء في الاسلام) ما هو مقنع لكل عاقل منصف بان ما شرعه الاسلام في التعدد هو عين الحق والعدل ومصلحة البشر

(٩) الطلاق قد يكون ضرورة من ضروريات الحياة الزوجية اذا تعذر على الزوجين القيام بحقوق الزوجية من إقامة حدود الله وحقوق الاحصان والنفقة

والمعاشرة بالمعروف، وكان مشروعا عند اهل الكتاب والوثنيين من العرب وغيرهم، وكان يقع على النساء منه وفيه ظلم كثير وغبن يشق احتماله فجاء الاسلام فيه بالاصلاح الذي لم يسبقه اليه شرع ولم يلحقه بمثله قانون ، وكان الافرنج يجرمونه ويعيبون الاسلام به، ثم اضطروا إلى إباحته، فاسرفوا فيه اسرافا منذراً بفوضى الحياة الزوجية والمحلل روابط الاسرة والعشيرة

جعل الاسلام عقدة النكاح بيد الرجل ويتبعه حق الطلاق لانهم احرص على بقاء الزوجية بما تكافهم من النفقات في عقدها وحلها وكونهم اثبت من النساء جأشا واشد صبرا على ما يكرهون ، وقد أوصاهم الله تعالى على هذا بما يزيدهم قوة على ضبط النفس وحبسها على ما يكرهون من نسايتهم فقال (وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) على ان الشريعة تعطي المرأة حق اشتراط جعل عصمتها بيدها لتطلق نفسها اذا شاءت واعطتها حق طلب فسخ عقد الزواج من القاضي اذا وجد سببه من العيوب الخلقية او المرضية كالرجل وكذا اذا عجز الزوج عن النفقة . وجعلت للمطلقة عليه حق النفقة مدة العدة التي لا يحل لها فيها الزواج ، وذم النبي ﷺ الطلاق بأن الله يبغضه للتنفير عنه — إلى غير ذلك من الاحكام التي بينها في تفسير الآيات المغزلة فيها وفي كتابنا الجديد في حقوق النساء في الاسلام

(١٠) بالغ الاسلام في الوصية ببر الوالدين فقرنه بعبادة الله تعالى، واكد النبي ﷺ فيه حق الأم فجعل برها مقدما على بر الأب ، ثم بالغ في الوصية بتربية البنات وكفالة الاخوات ، بأخص مما وصى به من صلة الارحام ، بل جعل لكل امرأة قما شرعيا يتولى كفايتها والعناية بها ، ومن ليس لها ولي من اقربها وجب على أولي الأمر من حكام المسلمين أن يتولوا أمرها

وجملة القول انه ما وجد دين ولا شرع ولا قانون في أمة من الامم اعطى النساء ما أعطاهن الاسلام من الحقوق والعناية والكرامة ، أفليس هذا كله من دلائل كونه من وحي الله العظيم الحكيم الرحيم لمحمد النبي الامي المبعوث في الاميين؟ بلى وانا على ذلك من الشاهدين المبرهنين ، واخذ الله رب العالمين

المقصد العاشر من فقه القرآن تحرير الرقبة

ان استرقاق الاقوياء للضعفاء قديم في شعوب البشر ، بل هو معهود في الحشرات التي تعيش عيشة الاجتماع والتعاون أيضا كالنمل ، فاذا حاربت قرية منه أخرى فظفرت بها وانتصرت عليها فاتمها تأسر ماسلم من القتال وتستعبده في خدمة الظافر من البناء وجمع المؤونة وخرنها في مخازنها وغير ذلك

كانت شعوب الحضارة القديمة من المصريين والبابليين والفرس والهنود واليونان والروم والعرب وغيرها تتخذ الرقيق وتستخدمه في أشق الاعمال ، وتعامله بمتعمى القسوة والظلم ، وقد أقرته الديانتان اليهودية والنصرانية ، وظل الرقيق مشروعا عند الافرنج إلى أن حررت الولايات الاميريكية المتحدة رقيقها في أواخر القرن الثامن عشر الميلادي ، وتلتها انكلترة بأخذ الوسائل لمنع من العالم كله في أواخر القرن التاسع عشر ، ولم يكن عمل كل منهما خالصا لمصلحة البشر وجنوحا للمساواة بينهم ، فان الاولى لاتزال تفضل الجنس الابيض الاوربي المتعالي على الجنس الاحمر الوطني لاصلي بما يترتب من الاستعباد السياسي المباح عند جميع الافرنج للشعوب ، كما ان انكلترة تحتقر الهنود وتستعدهم ، والسكن النهضة الهندية في هذا العهد قد خفضت من غلوائهم ، وطأمنت من اشتاق كبير ياشم .

فلما ظهر الاسلام ، وأشرق نوره الماحي لكل ظلام ، كان مما أصلحه من الفساد الامم إبطال ظلم الرقيق وإرهاقه ، ووضع الاحكام لابطال الرق بالتدريج السريع ، إذ كان ابطاله دفعة واحدة متعذرا في نظام الاجتماع البشري من الناحيتين :

ناحية مصالح السادة المسترقين ، وناحية معيشة الارقاء المستعبدين . فان الولايات المتحدة لما حررت رقيقها كان بعضهم يضرب في الارض بالتمس وسيلة الرزق فلا يجدها فيجوز الى سادته يرجو منهم العود إلى خدمتهم كما كان وكذلك جرى في السودان المصري ، فتمد جرب الحكام من الانكليزان يجدوا لهم رزقا بعمل يعملونه مستغنين فيه مكتملين به فلم يمكن ، فاضطروا إلى الاذن لهم بالرجوع إلى خدمة الرق السابقة ، بيد انها أن لاتسمح للمخدومين ببيعهم والاتجار بهم

هداية الاسلام في تحرير الرقيق وأعطاه

قد شرع الله تعالى لابطال الرق طريقتين: عدم تجديده الاسترقاق في المستقبل،
وتحرير الرقيق القديم بالتدريج الذي لا ضرر ولا ضرار فيه
(الطريقة الأولى) منع الاسلام جميع ما كان عليه الناس من استرقاق الاقوياء
بالمضغفاء إلا استرقاق الاسرى والسبايا في الحرب التي اشترط فيها ما تقدم بيانه
من دفع المغاسد وتقرير المصالح ومنع الاعتداء ومراعاة العدل والرحمة^(١) وهي
شروط لم تكن قبله مشروعة عند المسلمين، ولا عند أهل الحضارة فضلا عن المشركين
الذين لا شرع لهم ولا قانون، ولست أعني بالاستثناء أن الله تعالى شرع لنا من هذا
النوع من الاسترقاق كل ما كانت الامم تفعله معاملة لهم بالمثل، بل شرع لأولي
الامر من المسلمين مراعاة المصلحة للبشر في امضائه أو ابطاله بأن خيرهم في أسرى
الحرب الشرعية بين المن عليهم بالحرية والقتل بهم، وهو نوعان فداء المأل وفداء
الانفس، اذا كان لنا أسارى أو سبي عند قومهم، وذلك قوله تعالى الذي أوردناه
في قواعد الحرب (فشدوا الوثاق فاما منا بعدا وإما فداء)^(٢) ولما كنا نخبرين
فيهم بين اطلاقهم بغير مقابل وفداء بهم، جاز أن يعد هذا أصلا شرعيا لابطال
استئناف الاسترقاق في الاسلام، فان ظاهر التخيير بين هذين الامرين ان الامر
الثالث الذي هو الاسترقاق غير جائز، لو لم يعارضه أنه هو الاصل المتبع عند جميع
الامم، فمن أكبر المغاسد والضرر أن يسترقوا أسرانا ونطلق أسراهم ونحن ارحم
بهم واعدل كما يعلم مما يأتي. ولكن الآية ليست نصا في الحصر، ولا صريحة في
النهي عن الاصل، فكانت دلالتها على تحريم الاسترقاق مطلقا غير قطعية، فبقي
حكمه محل اجتهاد أولى الامر، اذا وجدوا المصلحة في إبقائه أبقوه، واذا وجدوا
المصلحة في ترجيح المن عليهم بالحرية وهو ابطال اختياري له أو الفداء بهم عملوا به

(١) راجع المقصد الثامن من فقه القرآن ص ٢٧٦ (٢) ص ١٥٣

﴿ الطريقة الثانية ما شرع لتحرير الرقيق الموجود وجوباً وندباً وهو أربعة أنواع ﴾

(النوع الاول من أحكام الرق ووسائل تحريره اللازمة وفيه عشر مسائل)

(١) إن الاصل في الانسان هو الحرية ويترتب عليه أحكام (٢) تحريم الاسترقاق وبطلانه غير ما تقدم بشرطه (٣) الكتابة وهي شراء المملوك نفسه من سيده بمال يكسبه وقد أمر الله بها لمن يبتغيها وأمر بمساعدته عليه بالمال من المالك نفسه (٤) اذا خرج الارقاء من دار الكفر إلى دار الاسلام يصيرون أحراراً . (٥) من أعتق بعض عبده عتق كله عليه وإن كان البعض الآخر لغيره . فله أحكام (٦) من عذب مملوكه أو مثله به كأن خصاه أو جبهه عتق عليه وزال ملكه عنه (٧) من آذى مملوكه بما دون التمثيل والعذاب الشديد فكفارة ذنبه أن يعتقه (٨) التدبير عتق لازم وهو أن يعتق مملوكه بعد موته فله أن يستخدمه مدة حياته ولكن ليس له أن يبيعه لأنه صار حراً بعد موته (٩) اذا ولدت الجارية لسيدها ولداً منه حرم عليه بيعها وهبتها لغيره وتصير حرة بموته لا تورث عنه (١٠) من ملك أحد أقاربه عتق عليه وقد بينا الآيات والاحاديث الدالة على هذه الاحكام في كتاب (الوحي المحمدي) الذي بسطنا به هذا البحث من التفسير

﴿ النوع الثاني من وسائل تحرير الرقيق الموجود الكفارات ﴾

والمراد بها القربات التي تمحو الذنوب وأعظمها عتق الرقاب وهي ثلاثة أقسام (أحدها) واجب حتم على القادر على العتق بملك الرقبة أو ثمنها ككفارة قتل النفس خطأ ، وكفارة الظهار وهو تشبيه الرجل زوجته بأمه وكان طلاقاً في الجاهلية ، وكفارة إفساد الصيام عمداً بشرطه وقيده المعروفين في الفقه

(ثانيها) واجب مخير فيه وهو كفارة اليمين فمن حلف بيمينا وحنث فيها فكفارته اطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة كما قال الله تعالى وحكمة التخيير ظاهرة (ثالثها) مندوب وهو العتق لتكفير الذنوب غير المعينة وهو من أعظم مكفراتها

﴿ النوع الثالث من وسائل إلغاء الرق الموجود ﴾

جعل سهم من مصارف الزكاة الشرعية المفروضة (في الرقاب) بنص القرآن ، هو يشمل العتق والاعانة على شراء المملوك نفسه (ان الكتابة) ومن المعلوم ان زكاة الامة الاسلامية قد تبلغ مئات الالوف وأتوف الالوف من الدراهم والدنانير ، فلونفذت أحكام الاسلام فيها وحدها لا يمكن تحرير جميع الرقيق في دار الاسلام

﴿ النوع الرابع منها العتق الاختياري نوجه الله تعالى أي ابتغاء مرضاته ﴾

قد ورد في الكتاب والسنة وآثار السلف من الترغيب في العتق ما يدخل تدوينه في سفر كبير ، ومما يدل على انه من أعظم العبادات وأصول البر الآتية البر من سورة البقرة (٢ : ١٧٦)

ومن أشهر أحاديث الترغيب في العتق قوله صلى الله عليه وسلم « أيما رجل أعتق امرأ مسلماً ^(١) استغفد الله بكل عضو منه عضواً من النار » متفق عليه من حديث أبي هريرة ، وفي رواية « عضواً من أعضائه من النار حتى فرجه بفرجه » وحديث أبي ذر قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل ؟ قال « إيمان بالله وجهاد في سبيله » قلت فأبي الرقاب أفضل ؟ قال « اغلاها ثمناً وأنفسها عند أهلها » الحديث . ومنها حديث أبي موسى الأشعري الذي رواه الجماعة كلهم الا مالك « أيما رجل كانت له جارية أدبها فأحسن تأديبها وعلمها فأحسن تعامها وأعتقها وتزوجها فله أجران » وفي الصحيح ان أبا هريرة قال روى قوله صلى الله عليه وسلم « للمملوك الصالح أجران » قال والذي نفسي بيده لولا الجهاد والحج وبر أبي لأحببت ان أموت وانا مملوك

﴿ الوصية بالماليك ﴾

أضف الى هذا وصايا الله ورسوله بالماليك ومنها تخفيف انواعيات عليهم وجعل حد المملوك في العقوبات نصف حد الحر ، وقد قرن الله الوصية بهم بالوصية بالوالدين والاقربين ، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قول السيد « عبدي وأمتي » وأمره ان (١) اتفق العلماء على شرعية عتق الكافر وانه مقرر بقواتنا اختلفوا في عتقه في الكفارة

يقول «فتاي وفتاي وغلامي» وأمر بأن يطعموهم مما يأكلون ولبدسوهم مما يلبسون، ويعينوهم على خدمتهم ان كفوهم ما يغلبهم كما في حديث ابي ذر في الصحيحين وغيرهما وكان يوصي بالنساء وما ملكت الايمان حتى في مرض موته الى أن التحق بالرفيق الاعلى عليه السلام وسأله ابن عمر كم أعفوا عن الخادم؟ قال « اعف عنه كل يوم سبعين مرة » وهذا مبالغة أي كلما أذنب

ولهذا كان المسلمون في الصدر الاول يباعدون في تكريم الرفيق ومعاملتهم بالحلم حتى صاروا يقصرون في الخدمة. ولعمر الحق ان العبد المملوك في حكم الاسلام الاول كان أعز نفساً وأطيب غيثاً من جميع الاحرار الذين ابتلوا في هذه العصور بحكم دول الافرنج من غيرهم أو نفوذهم، وان حكومة الولايات المتحدة لتعامل الجنس الاحمر من سكان البلاد الاصليين الذين تمن عليهم بالحرية بغير الاحكام التي تعامل بها الجنس الابيض حتى ان من اعتدى منهم على امرأة بيضاء يقتل شر قتلة — ان لم تقتله الحكومة قتله الشعب — بخلاف العكس، ولا يتسع هذا المقام لتفصيل ذلك والشواهد عليه

خلاصة البحث

راجع ما تقدم من الكلام على الوحي والنبوة وآيات الانبياء عندنا وعند الفصاري ومن الكلام في تفنيد شبهة الوحي النفسي، والكلام في اعجاز القرآن اللغوي والعلمي. وما أحدثه من الانقلاب البشري من كل وجه، ثم أضف اليها هذه العشرة الانواع من مقاصد القرآن، في إصلاح البشر وتكميل نوع الانسان، من جميع نواحي التشريع الروحي والادبي والاجتماعي والمالي والسياسي، وهي التي اشتدت حاجة الشعوب والدول في هذا العصر اليها موضحة بأصول وقواعد هي أصح وأكمل وأكفل المصالح العامة، ودفع المفاسد القديمة والطارئة، من كل ما سبقها من تعاليم الانبياء، وفلسفة الحكماء، وقوانين الملوك والحكام، على اختلاف الاعصار، مع العلم القطعي من تاريخ محمد عليه السلام انه كان أمياً يؤثر بطبعه عيشة العزلة فلم يتفقد له الاطلاع على كتب الانبياء ولا غيرها من الكتب والقوانين،

وانه لم يعرف عنه انه كان يبحث في شيء من العلوم ، ولا انه نطق بشيء من مسألتها . والعلم بأنه انا جاء بها في هذا القرآن بعد استكمال سن الاربعين — وهي سن لم يعرف في استعداد أنفس البشر ومدرجات عقولهم ولا في تاريخهم ان صاحبها يأتيه مثلها انتفاها لم يسبق له البدء بشيء منه في أنف عمره ، وآنفة شبابه وشرخه ، راجع هذا كله وتأمله جملة واحدة تجد عتاك مضطراً الى الجزم بأن هذا كله فوق استعداد بشر أي أو متعلم وانه وحي من الله تعالى

فإذا فرضنا انه يمتثل أن يكون قد تسرب الى ذهنه بعض مسألتها من أفواه عقلاء قومه أو غيرهم ممن لقي في أسفاره القليلة ، أو انه فكير في حاجة البشر الى مثلها مما أدركه بذكائه الفطري من سوء حالهم ، فهل يعقل أن تكون تلك الغلطات الشاردة ، وهذه الخطرات الواردة ، تبلغ هذا الحد من التحقيق والوفاء بحاجة الامم كلها ، وان تظل كلها مكتومة من سن الصبا وعهد حب الظهور الى أن تظهر في سن الكهولة ، بهذه الروعة من البيان ، وسلطان البلاغة على القلوب ، وقوة البرهان في العقول ، فتحدث هذه الثورة في الامة العربية المغيرة لطباعتها ، المبدلة لأوضاعها ، بحيث تسود بها شعوب المدنية كلها ، ويتلو ذلك ما قصه التاريخ من الانقلاب في العالم كله ؟ وأعجب من هذا كله ان يظهر في هذا العصر أن أمم العلم والحضارة العجيبة أشد حاجة اليها ممن قبلهم ؟ كلا ان هذا لم يعرف مثله في البشر وإذ قد ثبت هذا فلو اوجب على كل من بلغه من البشر ان يتبعه ويهتدي به لتكميل انسانيته واعادها لسعادة الدنيا والاخرة . فان اعترضته شبهة عليه فامحج عنها أو ليذبها ، فما كان لما قبل ثبت دنده نفع علم الطب أن يترك مراعاته في حفظ صحته أو مداواة مرضه لشبهية في بعض مسائله أو خيبة الاطباء في بعض معالجاتهم للمرضى وان حاجة البشر الى طب الارواح والاجتماع ، لاشد من حاجتهم الى طب الابدان

قُلْ قَلِيلًا الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ فَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ (الانعام : ٦ : ١٤٩)

« رضيت بالله ربا ، وبالإسلام دينا ، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا »

﴿ ونعود الى نسق التفسير باسم الله وحده ﴾

(٣) إِنَّ رَبَّكُمْ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ
 أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَيْعٍ إِلَّا مِنْ
 بَعْدِ إِذْنِهِ ، ذَلِكُمْ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟

افتتح السورة بذكر آيات الكتاب ، الناطق بالحكمة وفصل الخطاب ،
 وأتكر على الناس عجبهم أن يوحى ربهم الى رجل منهم أن يعلمهم به ما لا يعلمون من
 الدين الذي فيه سعادتهم ، منذرا من كفر بالعقاب ، ومبشرا من آمن بالثواب ،
 وحكى عن الكافرين وصفهم لهذا الكتاب الحكيم والرسول الذي جاء به بالسحر ،
 إذ كان كل منهما من خوارق العادات ، وقد وجد في البشر مشعوذون ودجالون
 يأتون بعض الخوارق التي لا يعرف الجماهير أسبابها ، فرأوا أن هذا الكتاب
 المعجز للبشر بأساؤه وبلاغته ، وبعلمه وحكمته ، وبثأثيره في العقول والقلوب ،
 يصحح أن يكون أو يوصف بأنه من هذا السحر المعهود وجوده ، المجهول سببه ،
 وأن هذا الرجل الذي جاء به ولم يعرف عنه قبله شيء من بلاغة القول ، ولا من حكمة
 التشريع والعلم ، يصح أن يعد منتحلا للسحر ، ولكن السحر لم يكن في يوم من
 الايام حقائق علمية ولا هداية نافعة كما تقدم ، والسحرة لم يكونوا إلا اناسا من
 السكتسين باطلاع الناس على غرائبهم المجهولة لهم ، فأين هذا وذلك من القرآن ومن
 جاء به ، من حقائق ساطعة وهو لا يسأل عليها أجرا ، ولا يبتغي بها لنفسه نفعا هي
 باقية بنفسها وبأثارها النافعة ، والسحر باطل لا بقاء له ، فالمتعين عند العقل أن يكون
 ما فيها من العلو على كلام البشر ، والاعجاز الذي قامت به الحجة بالتحدي ، وحيا
 من رب العالمين ، ونعمة منه عليهم بهداية الدين ، الذي هو لجللتهم ، كالعقل لافرادهم ،
 ووجب على كل من يؤمن بهذا الرب العليم الحكيم ، البر الرحيم ، أن يؤمن بأن هذا
 من حكمة ربو بيته ورحمته بالعالمين ، وإلا كانت صفاته ناقصة بحرمان هذا الانسان ،
 من هذا النوع الأعلى من العرفان ، والبيئات من الهدى والفرقان ، ولذلك ففى حكاية
 عجبهم وما علوه به ، من التذكير بالحجة التي تنقضه من أساسه ، فقال عز وجل

﴿ إن ربكم الله الذي خلق السموات والارض في ستة أيام ثم استوى على

العرش يدبر الامر ﴾ هذه الآية دليل على تفنيدهم في عجبهم من وحي القرآن ،
 وبيان للرؤية التي يقتضي كمالها ثبوته وبطلان الشرك ، والخطاب فيها للناس الذين
 عجبوا أن يوحى الى رجل منهم ما فيه هدايتهم بأسلوب الالتفات المنبه للذهن ،
 يقول لهم إن ربكم هو الله الذي خلق العوالم السماوية التي فوقكم وهذه الارض
 التي تمشون عليها في ستة أزمنة تم في كل يوم منها طور من أطوارها ، فان اليوم
 في اللغة هو الوقت الذي يحده حدث يحدث فيه ، وان كان ألوف السنين من أيام
 هذه الارض الفلكية التي وجدت بعد خلقها ، أي أوجدها كلها بمقادير قدرها فان
 الخالق في اللغة التقدير ، ثم استوى على عرشه الذي جعله مركز التدبير ، لهذا الملك
 الكبير ، استواء يليق بعظمته وجلاله ، وتزويه وكاله ، يدبر أمر ملكه ، بما اقتضاه
 علمه من النظام ، وحكمته من الاحكام ، فالاستواء على العرش بعد خلقهما ، وهو
 مخلوق له من قبلهما ، شأن من شؤونه فيما لانعلم كنهه ولا صفته من تدبير هذا الملك ،
 وكل يوم هو في شأن ، لا يدرك كنهه شأنه إنس ولا جان ،

والتدبير في أصل اللغة التوفيق بين أوائل الامور ومبادئها ، وأدبارها وعواقبها ،
 بحيث تكون المبادي مؤدية الى ما يريد من غاياتها ، كما أن تدبر الامر أو القول
 هو التفكير في دبره وهو ما وراءه وما يراد منه وينتهي اليه . ووجه دلالة هذه الجملة
 على ما ذكر أن الرب الخالق المدبر لجميع أمور الخلق لا يستنكر من تربيته لعباده وتدييره
 لا مؤرم أن يفرض ما شاء من علمه على من اصطفى من خلقه ، ما يهديهم به لما فيه كالمهم
 وسعادتهم من عبادته وشكره وصلاح أنفسهم ، بل يجب على العاقل العالم بهذا
 التدبير والتقدير الذي تشهد به آياته تعالى في السموات والارض ، أن يؤمن بأن
 هذا الوحي منه عز وجل ، إذ هو من كمال تقديره وتدييره ، ولا يقدر عليه غيره .
 وقد ذكرنا في تفسير آية الاعراف التي بمعنى هذه الآية (٧ : ٤٤) الاختلاف بين
 علماء الكلام المتدع وأئمة السلف وأتباعهم من علماء الاثر في مسألة الاستواء على
 العرش وأشباهاها من آيات علو الخالق تعالى فوق خلقه وسائر صفاته وحققتنا أن
 مذهب السلف هو الحق الجامع بين النقل والعقل

ثم قال ﴿ ما من شفيع إلا من بعد إذنه ﴾ وهذه الجملة حجة ثانية على منكري الوحي ، في ضمن حقيقة ناقضة لعقيدة الشرك ، ذلك ان مشركي العرب وغيرهم ومقلداتهم من أهل الكتاب كانوا يعتقدون ان معبوداتهم من أولياء الله تعالى وعباده المقربين من الملائكة والبشر يشفعون لهم عند الله تعالى بما يدفع عنهم الضر ويحلب لهم النفع في الدنيا ، والذين يؤمنون بالآخرة من الفريقين يثبتون لهم الشفاعة في الآخرة بالأولى ، ويسمون الاصنام التي وضعت للذكرى أولئك الاولياء شفعاء أيضا بالتبع ، وسيأتي في (الآية ١٨) من هذه السورة حكاية ما يقولونه في هذه الشفاعة . ويقال في بيان وجه الحجج عليهم فيبأ : إنكم اذا كنتم تؤمنون بأن الله شفعاء من أوليائه وعباده المقربين يشفعون لكم عنده بما يقربكم اليه زافى ويدفع عنكم الضر ويحلب لكم النفع ، وهو قول منكم على الله تعالى بغير علم ، فما لكم تنكرون وتمعجبون أن يوحى تعالى الى من يشاء ويصطفي من هؤلاء العباد من يعلمكم من العلم ما يهديكم الى العمل الموصل الى كل ما تطالبونه من هؤلاء الشفعاء باستحقاق بدون عمل منكم ولا استحقاق لما تطالبون منهم ؟ وأما الحقيقة الناقضة لعقيدة الشرك في الشفاعة فهي انه لا يمكن أن يوجد شفيع يشفع لأحد عنده تعالى الا من بدأه ، كما قال في سورة البقرة (٢٥٥:٢) من ذا الذي يشفع عنده إلا بآذنه ؟) وليس لاحد حق في الاخبار عنه تعالى بمن يشفع عنده ومن يقبل شفاعته الا باعلام منه ، وذلك لا يكون إلا بوحي منه . وقد ثبت في وحي هذا القرآن أنه لا يشفع أحد عنده بآذنه الا من ارتضاه للشفاعة (١٠٩:٢٠) يومئذ لا تنفع الشفاعة الا من أذن له الرحمن ورضي له قولا) وان هؤلاء المأذون لهم بالشفاعة لا يشفعون الا لمن كان الله تعالى راضيا عنه بإيمانه وعمله الصالح كما قال (٢٨:٢١) ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) مصداقا لقوله (قل لله الشفاعة جميعا)

﴿ ذلكم الله ربكم فاعبدوه ﴾ احتجاج بما يؤمنون به من وحدانية الربوبية ، على شركهم في وحدانية الألوهية ، أي ذلك الموصوف بالخلق والتقدير ، والحكمة والتدبير ، والتصرف في أمر الشفاعة يأذن بها لمن شاء فيما شاء هو الله ربكم ، ومتولي أمور العالم ومنها أموركم ، فاعبدوه وحده ولا تشرکوا به شيئا ، ولا معه

أحدا ، لا لأجل الشفاعة ولا لأجل مطالب آخر من مطالبكم ، فالشفعاء لا يمكنون
لكم من دونه نفعاً ولا ضراً ، وإنما يملك ذلك ربكم وحده ، وقد هداكم الى أسباب
الضر والنفع الكسبية بمقولاتكم ومشاعركم وسخرها لكم ، وهداكم الى أسباب
النفع والضر الغيبية بوحيه وأقدركم عليها ، وكل ما يطلب من المنافع والمضار فإتما
يطلب من أسبابها التي سخرها تعالى وبينها لكم ، وما عجز عنه العبد أوجهه من ذلك
فلا واجب عليه أن يدعو الله تعالى وحده فيه ، وهذا هو الركن الاول للدين
الالهي . ﴿ أفلا تدكرون ؟ ﴾ أي تجهلون هذا الحق المبين فلا تتذكرون ان الذي
خلق السموات والارض وحده ، واستوى على عرش الملك يدبر الامر وحده ، ولا
يمكن أن يشفع أحد عنده إلا بأذنه ، هو ربكم الذي يجب أن تعبدوه ولا تعبدوا غيره ؟
وهو مقتضى الفطرة ، وما انكاره الا ضرب من الغفلة علاجها التذكير

هذا الاستفهام التعجبي من غفلة المشركين منكري الوحي عن هذه الحقيقة
وهي انه لا يستحق العبادة من الخلق أحد إلا ربهم وخالقهم ومدبر أمورهم بوجه بالاولى
الى المؤمنين بالقرآن من القبوريين وعباد الصالحين كيف لا يتذكرون هذه الآيات
وأمثالها كلما شعروا بالحاجة الى ما عجزوا عنه بكسبهم من دفع ضر أو جلب نفع ؟
اذ تراهم يوجهون وجوههم الى قبور المشهورين من الصالحين في بلادهم ، ويشدون
الرجال الى ما بعد منها عنهم ، ويقربون اليها بالنذور ويطوفون بها كما يطوف الحجاج
ببيت الله عز وجل ، داعين متضرعين مستغيثين خاشعين ، وهذا مخ العبادة
وروحها وأجلى مظاهرها ، ولا ترى مثله من أحد ممن يصلي منهم في صلاة الجماعة
ولا صلواته منفردا في بيته ، على أن أكثرهم لا يصلون ولا يمتدنون أن الصلاة
تنفعهم كهذه القبور ، ذلك بأن أكثرهم يجهلون هذه الآيات وأمثالها من القرآن
وإنما يتلقون عقائد دينهم بالعمل والقول من آباؤهم وأمهاتهم ومعاشرتهم ، وهم
قبوريون لا يعرفون ماجأ ولا ملتجدا عند الشدائد والشعور بالحاجة الى السلطان
الرباني الغيبي الا هذه القبور ، وأقلهم يتلقون بعض كتب العقائد الكلامية الجافة
ممن ألفوا عبادة القبور قبل أن يقرئوها ، وأكثرهم يتأولون لانفسهم وللعوام تلك
العبادة ويسمونها بغير اسمها كالتوسل والاستشفاع ، وحيثهم علمها نفس حجة
المشركين وأهل السكتاب ، لا فرق الا في بعض الالفاظ وأسماء الاشخاص

(٤) إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآية بيان للركن الثاني من أركان الدين وهو البعث بعد الموت والجزاء

على الاعمال يقول تعالى ﴿إليه مرجعكم جميعا﴾ أي الى ربكم دون غيره من معبوداتكم وشفعاتكم وأولياتكم ترجعون جميعا بعد الموت وفناء هذا العالم الذي

أنتم فيه لا يتخلف منكم أحد ﴿وعد الله حقا﴾ أي وعد الله هذا وعدا حقا

لا يخالف ﴿انه يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ هذا بيان لتعلق الوعد المؤكد مرتين بتدليده،

أي ان شأنه تعالى ان يبدأ الخلق وينشأه عند التكوين ثم يعيده في نشأة أخرى بعد

الحلاله وفنائه فالتعبير بفعل المستقبل (يبدأ) لتصور الشان وهو يشمل الماضي

والمستقبل ، ولعظ الخلق عام يراد به الخاص أولا وبالذات ، بدليل ما قبله وما بعده

من السياق ، وقد أجمع علماء الكون الماديون منهم الروحيون على أن الارض وجميع

الاجرام السماوية ما يرى منها بالابصار والآلات المقربة للابعاد وما لا يرى كلها

قد وجدت بعد أن لم تكن ، وان كانوا لا يزالون يبحثون في نشأة تكوينها والقوة

الازلية لتتصرف في أصل مادتها ، كأنهم متفقون على توقع خراب هذه الارض

والكواكب المر تبطة معها في هذا النظام الشمسي الجامع لها ، وعلى ان أقرب الاسباب

الموافقة لاصول العلم الثابتة ان تصيب الارض قارعة من الاجرام السماوية فتبسها

بسا ، حتى تكون هباء منبثا ، كما تشير اليه سورة القارعة والواقعة وغيرها

فأما بدؤه فقد حصل بالفعل وأما اعادته فدليلها ان القادر على البدء يكون قادرا

على الاعادة بالطريق الاولى ، كما قال في سورة الروم (٣٠ : ٢٧) وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) الآية ومن المسائل المتفق عليها عند علماء الكون في

هذا العصر - وهي تقرب الى العقول عقيدة البعث - ان هذه الاجساد الحية

ينحل منها في كل وقت ما يتبخر في الهواء وما يموت في داخل الجسم ثم يخرج منه، ويحل محل كل ما يزول ويندثر مواد حية جديدة حتى يبقى جسد كل حيوان، فهو يزول في سنين قليلة ويتجدد غيره، فالبدن والاعادة في كل جسد دأمان مادام حيا، وقد فصلنا مسألة البعث بالبيان العلمي في تفسير سورة الانعام (ص ٤٧٠ - ٤٨١ ج ٨)

﴿ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات بالقسط﴾ هذا تعليل للاعادة أي يعيده لاجل جزائهم، والقسط العدل وقال الراغب النصيب من العدل أي ليجزىهم بعدله وهو عبارة عن إعطاء كل عامل حقه من الثواب الذي جعله الله لعمله بمعنى انه لا يظلم منه شيئا كما قال في سورة الانبياء (ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا) الآية . ولا يمنع ذلك أن يزيدهم ويضاعف لهم كما وعد في آيات أخرى منها قوله (٤: ١٧٢ فيوفيههم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقوله في هذه السورة (٢٦ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) فالحسنى هي الجزاء بالقسط المضاد للجرور والظلم . والزيادة فضل منه عز وجل . وسيأتي فيها أيضا قوله (٤٧ و ٥٤ وقضي بينهم بالقسط) وقيل ان المراد بجزئهم بما كانوا عليه من القيام بالقسط وهو الحق والعدل في الأمور كلها الذي هو مقتضى الايمان في قوله تعالى (٥٧: ٢٥ لقد أرسلنا رسالنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط) وقوله (٧: ٢٨ قل امر ربي بالقسط) على أن القسط في الآيتين عام شامل لأموال الدين كلها، وقيل بل المراد منه الايمان أو التوحيد المقابل لظلم الشرك في قوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) والمتبادر الموافق لسائر الآيات الصريحة هو الاول ولا يصح ارادة الثاني الا بالتبع للاول أو الجمع بين المعنيين على القول بأن كل ما يحتمله اللفظ من المعاني المشتركة فيه أو حقيقة ومجازة بمقتضى اللغة من غير مانع من الشرع يكون مرادا منه

﴿والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون﴾
 الحميم الماء الحار أو الشديد الحرارة الذي يستحم به والعرق، يقال استحم الفرس اذا عرق، والحمام الذي هو مكان الاستحمام من الاول أو من الثاني . والجملة بيان لجزاء الكافرين في مقابلة جزاء المؤمنين الصالحين على منهج القرآن في الجمع بينهما . والمعنى ان الكافرين لهم من الجزاء شراب من ماء حميم يقطع أمعاءهم

وعذاب شديد الألم (وهذا من عطف العام على الخاص) ونكتة هذا الخاص ان العرب الذين خوطبوا به أولاً ونزل بلغتهم ولا سيما عرب الحجاز يشعرون بما لا يشعر غيرهم من انوعيد بشرب الماء الحميم والحمران من الماء البارد — وانما كان لهم هذا الجزاء بسبب ما كانوا يعملون من أعمال الكفر المستمرة الى الموت كدعاء غير الله تعالى والنذر تغيره وذبح القرابين لغيره وسائر الاعمال السيئة التي يزينها لهم الكفر ويصد عنها الايمان ، فقوله (والذين كفروا) مقابل لقوله (الذين آمنوا) وقوله (بما كانوا يكفرون) مقابل لقوله (وعملوا الصالحات) لان الذي يتجدد من الكفر أعماله لاعقيدته . على ان العمل بمقتضى العقيدة هو أثرها يزيد بها قوة ورسوخاً واستمراراً ، وسيعاد ذكر جزاء الفريقين بعد آيتين بتفصيل آخر لعمليهما ولعل نكتة اختلاف النظم أو الاسلوب — في جزاء الفريقين وتعليل الرجوع

اليه تعالى هنا — هي إفادة ان القصود بالذات من الرجوع الى الله تعالى هو جزاء المؤمنين الصالحين لانه هو الذي يكون به منتهى كمال الارتقاء البشري الذين زكوا أنفسهم في الدنيا بما يكون لهم في الجنة من غلبة سلطان الارواح على الاجساد ، وجعلها تابعة لها في الجمع بين خصائص المادة والروح الذي هو حقيقة الانسانية ، فيلحق الانسان الكامل هنالك من النعيم المادي الخالي من الشوائب والتنقيص الذي عهده في الدنيا ، ومن النعيم الروحاني المبرر عنه برضوان الله الاكبر كما تقدم في آية سورة التوبة (٧٢) ما يتحقق به فضل الانسانية الجامعة ، على الروحانية الخالصة ، وما أعده تعالى لصاحبها مما لا يعلم كنهه في هذه الحياة أحد كما قال تعالى في سورة ألم السجدة [فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قرة أعين] وما فسرت به في الحديث القدسي « أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » رواه البخاري وأعله مقام رؤية الله عز وجل كما شرحناه في تفسير آية سورة الاعراف (٧ : ١٤٣) وادناه ماسيأتي قريباً في الآية العاشرة

وأما جزاء الكافرين الفاسدين الظالمين لأنفسهم وللناس على تدسيثهم وتدنيسهم لأنفسهم بالكفر والخطايا — وهي لها كأعراض الامراض التي سببها مخالفة سنة الله في حفظ الابدان وصحتها — فليس من المقاصد التي اقتضتها الحكمة

(يونس : ١٠) معنى جعل الضوء والنور وكون الشمس ضياءً وهو جمع ضوء. ٣٠١

الالهية في خلق الانسان، ولكنها مقتضى العدل في المظالم والخطوق، ومقتضى اطراد السنن الحكيمية في ارتباط الاسباب بالمسببات، والعمال بالمولولات، فهو جزء كما صرح به في آيات أخرى ولكنه ليس المقصود بالذات من الرجوع الى الله عز وجل. وقد سألتني رجل من أذكيا، الإنكليز: هل يلبق بعظمة الله أن يعذب هذا الانسان الضعيف على ذنوبه التي هي مقتضى ضعفه؟ قلت ان الشرك بالله والكفر بنعمه واقتراف الخطايا المخالفة لشراعه والوجدان الفطري في الانسان تدنس نفس فاعلمها وتفسدها بما يجعلها غير أهل للنعم الروحاني الخاص بالانفس الزكية، فيكون العقاب في الآخرة أثراً طبيعياً لهذا الفساد، كما يكون المرض أثراً طبيعياً لمخالفة قوانين الصحة ووصايا الطبيب. فقال اذا كان سبب العذاب من الداخل لا من الخارج فهو معقول

(٥) هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ

مَنَازِلَ لِّتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ، مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٦) إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ

في هاتين الآيتين الميزتين إرشاد إلى أنواع كثيرة من آيات الله الكونية الدالة على قدرته على البعث والجزاء وكونه من مقتضى حكمته، واطراد النظام التام في جميع خلقه، وهذه الآيات تفصيل لما أجمل في الآية الثالثة في خلق السموات والارض، واستواء الخالق على عرشه يدبر الامر، ويقوم النظام في الخلق، التي سبقت للاستدلال على التوحيد وحقية الوحي

هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً ﴿ الضياء اسم مصدر من أضاء يضيء، وجمع ضوء، كسياط وسوط وحياض وحوض، وقرأ ابن كثير (ضياء) على القلب بتقديم لام السكامة على عينها. قال في القاموس وشرحه: (الضوء) هو (النور ويضم) وهما مترادفان عند أئمة اللغة، وقيل الضوء أقوى من النور قاله الزمخشري ولذا شبه الله هداه بالنور دون الضوء وإلا لما ضل أحد وتبعه

الطبي واستدل بقوله تعالى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وأنكره صاحب الفلك الدائر وسوى بينهما ابن السكيت، وحقق في الكشف أن الضوء قرع النور وهو الشعاع المنتشر، وجزم القاضي زكريا بترادفهما لغة بحسب الوضع، وأن الضوء أبلغ بحسب الاستعمال، وقيل الضوء لما بالذات كالشمس والنار، والنور لما بالعرض والاكتساب من الغير، هذا حاصل ما قاله شيخنا رحمه الله تعالى. وجمعه أضواء (كالضواء والضياء بكسرهما) لكن في نسخة لسان العرب ضبط الاول بالفتح والثاني بالكسر، وفي التهذيب عن الليث الضوء والضياء ما أضاء لك، ونقل شيخنا عن المحكم أن الضياء يكون جمعاً أيضاً، قلت هو قول الزجاج في تفسيره عند قوله تعالى (كلما أضاء لهم مشوا فيه) اهـ

وأقول: يدل على التفرقة بين الشمس والقمر في نورهما قوله تعالى (٦٦:٧١) وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً وقوله (٦١:٢٥) وجعل فيها سراجاً وقرراً منيراً) والسراج ما كان نوره من ذاته. واستبعد بعض المفسرين قول الزجاج إن الضياء في الآية جمع ضوء لأن المناسب لكون القمر نوراً أن يكون الضياء مفرداً مثله. وجعل هذا المستبعد وأمثاله ما يعلمه الله تعالى من أن شعاع الشمس مركب من ألوان النور السبعة التي يراها الناس في قوس السحاب فهو سبعة أضواء لا ضوء واحد، فهذا التعبير من مفردات القرآن الكثيرة التي كشف لنا ترقى العلوم الطبيعية والفلكية من المعنى فيها ما كان الناس أو العرب مجهولين في عصر التنزيل كتعبيره عن كل نوع من النبات بأنه موزون، وتقدم بيانه في مباحث الوحي.

وقدره منازل ﴿التقدير جعل الشيء أو الأشياء على مقادير مخصوصة في الزمان أو المكان أو الذوات أو الصفات، قال تعالى (والله يقدر الليل والنهار) وقال في القرى التي كانت بين سبأ والشام (وقدرنا فيها السير) وقال في المقادير العامة (وخلق كل شيء بقدره تقديراً) والمنازل أماكن النزول جمع منزل، والضمير للقمر كما قال في سورة يس (والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم) أي قدر له أو قدر سيره في فلكه في منازل ينزل في كل ليلة في واحد منها لا يخطئه ولا يتخطاه وهي ثمانية

(يونس :س ١٠) آيات الله في خلق النيرين والليل والنهار بالحق على البعث ٣٠٢

وعشرون منزلاً معروفه تسميها العرب بأسماء نجومها المحاذية لها وهي: الشرطان .
 البطين . الشريتا . الدبران . الهقمة . الهنعة . الذراع . النثرة . الطرف
 الجبهة . الزهرة . الصرفة . العواء . السماك الاعزل . العقر . الزباني .
 الاكليل . القلب . الشولة . النعائم . البتدة . سعد الذابح . سعد
 بلخ . سعد السعود . سعد الاخبية . فرغ الدلو المقدم . فرغ الدلو
 المؤخر . (ويسميان الفرغ الاول والفرغ الثاني) الرشاء . ويراجع مسميات
 هذه الاسماء في معاجم اللغة وكتب الفلك من شاء . فهذه المنازل هي التي يرى
 فيها القمر بالابصار ، ويبقى من الشهر ليلة إن كان ٢٩ وليلتان إن كان ٣٠ يوماً
 يحتجب فيها فلا يرى . ﴿ لتعلموا عدد السنين والحساب ﴾ أي لأجل أن تعلموا
 بما ذكر من صفة النيرين وتقدير المنازل حساب الاوقات من الاشهر والايام لضبط
 عباداتكم ومعاملاتكم الدينية والمالية والمدنية ، فولا هذا النظام المشاهد لتعذر
 على الاميين من أهل البدو والحضر العلم بذلك . لان حساب السنين والشهور
 الشمسية فن لا يعلم إلا بالدراسة ، ولذلك جعل الشرع الاسلامي العام للبدو والحضر
 شهر الصيام وأشهر الحج وعدة الطلاق ومدة الابلاء وغير ذلك بالحساب القمري
 الذي يعرفه كل أحد بالمشاهدة ، فلا يتوقف على علم في لا يكاد يوجد إلا في بلاد
 الحضارة . ولعبادتي الصيام والحج حكمة أخرى وهي دورانها في جميع الفصول ،
 فيعبد المسلمون ربهم في جميع الاوقات من حارة وباردة ومعتدلة . وهذا لا يمنع
 أهل العلم من الانتفاع بالحساب الشمسي وله فوائد أخرى ، وقد أرشدهم اليه في سورة
 الرحمن (الشمس والقمر بحسبان) وفي سورة الاسراء (١٧ : ١٣) وجعلنا الليل والنهار
 آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا
 عدد السنين والحساب) وفي هذه الآيات ترغيب في علم الهيئة والجغرافية الفلكية .
 وقد برع فيهما أجدادنا بارشادها

نعم قال ﴿ ما خلق الله ذلك إلا بالحق ﴾ أي ما خلق الله الشمس ذات ضياء .

تفيض أشعتها على كواكبها المتابعة لنظامها ، فتبث الحرارة والحياة في جميع الاحياء فيهن ، وجعل لكل ضوء منها من الخواص باليس الآخر ، وببصر الناس فيها جميع المبصرات فيقومون بأمر معاشهم وسائر شؤونهم ، وما خلق القمر ذانور مستمد من الشمس تنتفع به السيارة في سرائهم وغيرهم ، وقدره منازل يعرف بها جميع الناس الستين والشهور - ما خلق ذلك إلا متلبسا ومقترنا بالحق ، الذي تقتضيه الحكمة العامة لحياة الخلق ، ونظام معاشهم ومناقضهم ، فليس فيه عبث ولا خلل بل ظهر للبشر في هذا العصر من أسرار الضوء وحكمه ما صار به علما واسعا تحار العقول في نظمه وحكمه ، من أصغر ذراته الى أعظم مجامع نيراته ، فكيف يعقل من هذا الخالق الحكيم ، أن يخلق هذا الانسان في أحسن تقويم ، ويعلمه البيان ، ويعطيه مالم يعط غيره في عالمه ؛ من الاستعداد لاظهار مالا يحصى من حكمه ، وخواص خلقه ، وسننه في عبادته ، ويجعل مدار سعادته وشقائه على ما أعطاه من علم وإرادة ، ثم يتركه بعد ذلك سدى ، يموت ويفنى ، ثم لا يبعث ولا يعود ، ليجزى المرتقون منه في معارج الكمال من المعارف الالهية والفضائل النفسية والاعمال الصالحة بايمانهم وصفاتهم وأعمالهم ، وليجزى المشركون الخرافيون ، والظالمون المجرمون ، بكفرهم وجرائمهم ومفاسدهم ، وأنتا ترى كثيراً منهم أنعم في الدنيا معيشة من الصالحين المصلحين ؟ (٦٨ : ٣٥ أفجعل المسلمين كالمجرمين ؟ ٣٦ مالكم كيف تحكمون ؟) (٣٨ : ٢٨ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالفاسدين في الارض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟)

﴿ تفصل الآيات لقوم يعلمون ﴾ استئناف لبيان المنتفعين بهذه الحجج أي نبين الدلائل من حكم خلقنا ، على ما أوحيناها إلى رسولنا من أصول العقائد وأحكام الشرائع ، مفصلة متنوعة من كونية وعقلية لقوم يعلمون وجوه دلالة الدلائل ، والفرق بين الحق والباطل ، باستعمال عقولهم في فهم هذه الآيات ، فيجزمون بأن من خلق هذين النيرين وما فيهما من النظام بالحق ، لا يمكن أن يكون خلقه لهذا الانسان العجيب عبثا ، ولا أن يتركه سدى ، وفي الآية تنويه بفضل العلم وكون

الاسلام دينا علميا لا تقليديا ، ولذلك قفي على هذه الآيات السماوية في الشمس والقمر بآية مذكرة بسائر الآيات السماوية والارضية فقال

﴿ إن في اختلاف الليل والنهار ﴾ في حدودهما وتعاقبهما في طولها وقصرهما بحسب اختلاف مواقع الارض من الشمس والنظام الدقيق لها بحر كتبها اليومية والسوية ، وطبيعة كل منهما وما يصاح فيه من نوم وسكون وعمل ديني ودنيوي ﴿ وما خلق الله في السموات والارض ﴾ من أنواع الجاد والنبات والحيوان ﴿ لا يات القوم يتقون ﴾ أي أنواعا من الدلائل والبيئات على سننه في النظام ، وحكمه في الابداع والانتان ، وفي تشريع العقائد والاحكام ، لقوم يتقون عواقب مخالفة سننه في التكوين ، وسننه في التشريع ، فالافراد الذين يخالفون سنن الصحة البدنية يمرضون ، والشعوب التي تخالف سنن الاجتماع والعمران تخرب بلادها ، وتضعف دولها ، ويعير الله تعالى ما بها بتغييرها ما في نفسها ، كذلك الافراد الذين يخالفون هدايته الشرعية في تزكية الانفس فيدنسونها بالشرك والخرافات ، وينسدونها بالفواحش والمنكرات ، يجزون على ذلك كله في الآخرة ، ويجزى بعضهم على بعضها في الدنيا (كما بينا ذلك في مواضع أخرى)

(٧) ﴿ إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غفلون ﴾ (٨) ﴿ أولئك ماؤهم النار بما كانوا يكسبون ﴾ (٩) ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ (١٠) ﴿ دعوهم فيها بسبحتك اللهم وتحيتهم فيها سلم ، وآخر دعوهم أن الحمد لله رب العالمين ﴾

هذه الآيات بيان لحال منكري البعث والغافلين وحال المؤمنين الصالحين

في الدنيا وجزائهما في الآخرة ، فيه تفصيل لما سبق في الآية الرابعة . قال :

﴿إن الذين لا يرجون لقاءنا﴾ قال الفيومي في المصباح : رجوته أرجوه رجوا — على فعول — آملته أو أردته ، قال تعالى (لا يرجون نكاحاً) أي لا يريدونه والاسم الرجاء بالمد ، ورجيته أرجيه من باب رمى لغة ، ويستعمل بمعنى الخوف ، لأن الراجي يخاف أنه لا يدرك ما يترجاه اه وقال الراغب : الرجاء ظن يقضي حصول ما فيه مسرة ، وقوله تعالى (ما لكم لا ترجون لله وقاراً ؟) قيل ما لكم لا تخافون ؟ ومثل الزمخشري في الأساس لحقيقة الرجاء بالمغفرة من الله ، والرشد في الولد . والاحسان من أهل الاحسان ثم قال : ومن المجاز استعمال الرجاء في معنى الخوف والأكثرات يقال : لقيت هولاً ما رجوته وما أرتجيته . ومثله بشعر . والتحقق أن الرجاء الأمل والتوقع لما فيه خير ونفع ، وأن الخوف توقع ما فيه شر وضر ، فهما متقابلان كما قال تعالى (١٧ : ويرجون رحمته ويخافون عذابه) وما في هذه الآية والآيتين ١٩ و ١٥ من هذه السورة والآية ٢١ من سورة الفرقان من رجاء لقاء الله منفياً يحتمل الرجاء والخوف جميعاً لأن لقاء الله تعالى في يوم الحساب مظنة الخوف لقوم والرجاء لآخرين ، ولذلك قال في الكافرين (٧٨ : ٢٧) إنهم كانوا لا يرجون حساباً) وفسر بعض المحققين الرجاء هنا بمجرد التوقع الذي يشمل ما يسر وما يسوء . واللقاء الاستقبال والمواجهة

والعنى أن الذين لا يتوقعون لقاءنا في الآخرة للحساب ، وما يتلوه من الجزاء على الأعمال ، لا نكارهم للبعث ، ويلزمه أنهم لا يؤمنون لقاءه الخاص بالمتقين في دار الكرامة ، وخصه بعضهم بلقاء الرؤية ﴿ورضوا بالحياة الدنيا﴾ بدلا من الآخرة فصار كل همهم من الحياة محصوراً فيها وكل عملهم لها كما قال في المتثاقين عن النفي للجهاد (١٠ : ٣٨) أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ الآية ﴿واطمأننوا﴾ يسكون نفوسهم وارتياح قلوبهم بشهواتها ولذاتها وزينتها لياسمهم من غيرها ﴿والذين هم عن آياتنا غافلون﴾ فلا يتدبرون المنزلة منها على رسولنا وما فيها من المواعظ والعبر ، والمعارف والحكم ، ولا يتفكرون في الكونية وما تدل عليه

(يونس : ١٠) هداية الله للمؤمنين الصالحين بإيمانهم وجزاؤه لهم ٣٠٧

من حكمته وسنته في خلقه ، وما يقتضيه كل منهما من الجهاد وصالح الاعمال ، فكانوا بهذه الغفلة كالفریق الاول الذي لا يرجو لقاءنا ، في أن كلا منها تشغله دنياه عن آخرته فلا يستمد لحسابنا له وما يتلوه من نعيم مقیم أو عذاب أليم ﴿ أولئك ما أوام النار بما كانوا يكسبون ﴾ الاشارة باولئك إلى الفريقين أي ما أوام في الآخرة دار العذاب (النار) بما كانوا يكسبون مدة حياتهم الدنيا من الخطايا والذنوب المدنسة لأنفسهم بحرافات الوثنية ، وأعمال الشهوات الحيوانية ، وظلمات المظالم الوحشية ، واستمرارهم عليها الذي دنس أنفسهم وأحاط بها ، فلم يعد لنور الحق والخير مكان فيها . والمأوى في أصل اللغة الملاجئ الذي يأوي اليه المتعب أو الخائف أو المحتاج من مكان آمن أو انسان نافع ، كما ترى في استعمال أفعاله في جميع الآيات كقوله تعالى (ألم يجدك يتيما فآوى * إذ آوى الفتية إلى الكهف * والذين آووا ونصروا * آوى اليه أخاه * أو آوى إلى ركن شديد) الخ إلا لفظ المأوى فانه أطلق على الجنة في ثلاث آيات وعلى النار في بضع عشرة آية منها آية يونس هذه ، وفي تسمية دار العذاب مأوى معنى دقيق في البلاغة دخیل في أعماقها ، فأنص من جميع أرجائها ، يشعرك بأن أولئك المظتمنين بالشهوات ، والغافلين عن الآيات ، ليس لهم مصير يلجؤون اليه بعد هول الحساب ، إلا جهنم دار العذاب ، فويل لمن كانت هذه الدار له كالملاجئ والموتل ، إذ لا مأوى له يلجأ اليه بعدها . هذا بيان لجزء الفريق الاول من المكلفين بقسميه والقاري . والسامع له تستشرف نفسه لجزء الفريق الآخر والعلم بسببه وقد بينه بقوله ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا

الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم ﴾ أي يهديهم بسبب إيمانهم به صراطه المستقيم في كل عمل من أعمالهم التي تزكي أنفسهم وتهذب أخلاقهم ، وصفهم أولا بالإيمان والعمل الصالح الذي هو لازم الإيمان ومغذيه ومكمله بصيغة الماضي لبيان صفتهم وفريقهم المقابل للفريق الذي ذكر قبلهم ، وأخبر بهداية إيمانهم لهم بصيغة المضارع الدالة على الاستمرار والتجدد ، كما أخبر عن كسب الكفار بهذه الصيغة ، وجعل الإيمان وحده سبب هذه الهداية لأنه هو الباعث النفسي لها ، والمعنى أنه يهديهم الصراط

المستقيم الذي ينتهي بهم إلى دار الجزاء التي قال في بيان حالهم فيها ﴿ تجري من تحتهم الأنهار في جنات النعيم ﴾ أي تجري من تحت مقاعدهم من غرفات تلك الجنات ومن تحت أشجارها ، وتقدم لفظ « جنات النعيم » في سورة المائدة (٦٨٥) ولفظ (تجري من تحتهم الأنهار) في سورة الاعراف (٤٢٧) وأما (تجري من تحتها الأنهار) يعني الجنة فقد تقدم مكرراً في سورة البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والتوبة والآية صريحة في معنى الآيات الكثيرة الناطقة بأن دخول الجنة بالإيمان والعمل الصالح معا ، لأن الإيمان الصحيح بدون الإسلام وهو العمل لا يوجد إلا في حال من يموت عقب إيمانه قبل أن يتمكن من العمل ، ودخول مثل هذا الجنة لا يعارض هذه النصوص العامة للأحوال العادية الغالبة .

﴿ دعواهم فيها سبحانك اللهم ، ومحبتهم فيها سلام ، وآخر دعواهم أن الحمد

لله رب العالمين ﴾ في هذه الآية بيان لكلمات ثلاث تمثل حياة أهل الجنة الروحانية في عامة أحوالهم من مبادي دعاء ربهم وتغزيه ، وما يدعونه أي يطلبونه من فضله وكرامته ، ومن تحيته تعالى ونحية ملائكته لهم ، ومن محبتهم فيما بينهم عند تزاورهم أو تلاقيتهم ، ومن حمدهم له في خواتيم أقوالهم وأفعالهم ، وهي خير الكلام وأخصره وأعذبه . الدعوى في اللغة الدعاء بمعانيه والدعاوة في الشيء والادعاء للشيء ، فالدعاء للناس هو النداء والطلب المعتاد بينهم في دائرة الأسباب المسخرة لهم ، والدعاء التعبدية لله نداؤه وسؤاله والرغبة فيما عنده الصادر عن الشعور بالحاجة اليه والضرارة له فيما لا يقدر عليه أحد من خلقه ، ولا سيما دفع الضرر وجلب النفع مما يعجز عنه العبد من طريق الأسباب ، للإيمان بأنه سبحانه هو المسخر لها والهادي إليها ، والقادر على تصريفها ، وعلى المن بها من غير طريقها ، والدعوى للشيء تشمل في اللغة تمنيه وقوله وطلبه من مالكة ، وادعاء ملكيته ، وهذه المعاني كلها للفظ الدعوى تصح إرادتها من أهل الجنة إلا الأخير منها . وقول بعض المفسرين وغيرهم إن من معاني الدعاء العبادة لا يصح على إطلاقه في العبادة الشرعية التكليفية فإن الصيام لا يسمى دعاء لغة ولا شرعاً ، وإنما الدعاء هو مخ العبادة الفطرية ، وأعظم أركان التكليفية

منها ، كما ورد في الحديث ، فكل دعاء شرعي عبادة وما كل عبادة شرعية دعاء .
والتسبيح تنزيه الله تعالى وتقديسه ، وكلمة (اللهم) نداء له عز وجل أصله يا الله
والعنى أنهم يمدون كل دعاء وثناء يشاجون به الله عز وجل وهو النعيم
الروحاني ، وكل طلب لكرامة أو لذة من لذات الجنة وهو النعيم الجسماني ،
بهذه الكلمة : سبحانك اللهم ، أي تنزيها وتقديسا لك يا الله ، قيل أو بما تدل
عليه وإن كان يلفظ آخر ، وأن تحيتهم فيها كلمة (سلام) الدالة على السلامة من
النقص والآثم ، وهي تحية المؤمنين في الدنيا ، وهذه التحية تكون منه عز وجل
لهم كما قال في سورة الاحزاب (٣٣ : ٤٤) تحيتهم يوم يلقونه سلام) وفي سورة يس
(٣٦ : ٥٨) سلام قولاً من رب رحيم) وتكون من الملائكة لهم عند دخول الجنة
كما قال في سورة الزمر (٣٩ : ٧٣) وقال لهم خزنتها سلام عليكم طمتم فادخلوها
خالدين) ومثله في سورة النحل (١٦ : ٣٢) الذين تتوفاهم الملائكة طيبين ، يقولون
سلام عليكم ادخلوا الجنة بما كنتم تعملون) وفي كل وقت يدخلون فيه عليهم كما
قال في سورة الرعد (١٣ : ٢٣) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب (٢٤) سلام
عليكم بما صبرتم فنعيم عقبي الدار) وتكون منهم بعضهم لبعض وهو المتبادر من
قوله تعالى في سورة مريم (١٩ : ٦٢) لا يسمعون فيها لغواً إلا سلاماً) وفي
سورة الواقعة (٥٦ : ٢٥) لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيماً ٢٦ إلا قبيلاً سلاماً)
فان اللغو والتأثم من شأن كلام البشر فلما نفى وقوعهما منهم في الجنة واستدرك
على نفيه باستثناء كلمة « سلام » استثناء منقطعاً ترجح أن يكون المراد به سلام بعضهم
على بعض أو عاماً يشمله . والحلقة في آيتنا (وتحيتهم فيها سلام) تشمل الانواع
كهاوانه لا يجاز بليغ غفل عنه من نعرف من المفسرين لغفلتهم عن هذه الانواع
وأما قوله (واخر دعواهم أن الحمد لله رب العالمين) فمعناه ان الحمد له جل ثناؤه
هو آخر كل حال من أحوال أهل الجنة من دعاء يناجون به الله تعالى ، ومطلب يطلبونه
من إحسانه وإكرامه ، كما أنه أول ثنائهم عليه عند دخولها كما قال في آخر سورة
الزمر بعد آية السلام عليهم من الملائكة (٧٤) وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده
وأورثنا الأرض تنبؤاً من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين) واخر كلام الملائكة

٣١٠ استعجال الناس الشر وكونه تعالى لا يعجله لهم (التفسير : ج ١١)

أيضا وهو قوله بعده (٧٥) وترى الملائكة حاقين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم ، وقضي بينهم بالحق . وقيل الحمد لله رب العالمين)
فيلي كل قارىء هذه الآية الجامعة وقد فسرناها له هنا بما في معناها من الآيات في السور الأخرى - أن يمثل لنفسه حالة أهل الجنة في هذه الكلمات الثلاث المدينة لتسميمهم الروحاني بقاء الله عز وجل ومناجاته في جميع أطوارهم ، ولما يكون بينهم وبين ملائكته وبين بعضهم مع بعض ، ومنه يعلمون أن معظم نعيم الجنة روحاني فعالمهم أن يستعدوا لها بتزكية أنفسهم ، وترقية أرواحهم ، وأن يعملوا أنهم إن يكونوا أهلا لها بالاتكال على التوسلات بأشخاص الأولياء والتمني لشفاعاتهم (ليس بأمانيتكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يميل سوءاً يجزيه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً *) ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون تقيراً) (ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً)

ومن التفسير المأثور في الآية ما أخرجه ابن مردويه عن أبي بن كعب مرفوعاً عن أهل الجنة « إذا قالوا : سبحانك اللهم - أناهم ما اشتروا من الجنة » وروي مثله عن بعض التابعين فالكلمة علامة بين أهل الجنة وخدمتهم في إحضار الطعام وغيره فإذا أكلوا حمدوا الله تعالى . وهذا مما يدخل في عموم ما تقدم سواء أصبحت الرواية أم لا ؟

(١١) وَلَوْ يَعْجَلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَلْتُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَيْ

إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ ، فَتَكَرُّ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَافِي طَعْنِهِمْ يَعْجَمُونَ (١٢)
وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنَّتِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا ، فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ . كَذَلِكَ زِينٌ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

هاتان الآيتان في بيان شأن من شؤون البشر وغرائزهم فيما يعرض لهم في حياتهم الدنيا من خير وشر ، ونفع وضر ، وشعورهم فيه بالحاجة إلى الله تعالى والاجود إلى دعائه لا أنفسهم وعليها ، واستعجالهم الامور قبل أوانها ، وهو تعريض بالمشر كين وحجة على ما باتون من شرك : وما يتكروون من أمر البعث ، متمم لما قبله ولذلك عطفه عليه

تعجيل الشيء تقديمه على أوانه المضروب أو المقدر له أو الموعد به ، والاستعجال به طلب التعجيل ، والمعجل من غرائز الأنسان القابلة للتأديب والتثقيف كي لا تطغى به فتورده الموارد . قال تعالى (١٧ : ١١) ويدعو الانسان بالشر دعاءه ياخير وكان الانسان عجولا) وقال تعالى (٣٧ : ٢١) خلق الانسان من عجل سأريكم آياتي فلا تستعجلون) فأما استعجاله بالخير والحسنة فلشدّة حرصه على منافعه وقلة صبره عنها ، وأما استعجاله بالضر والسيدة فلا يكون لذاته بل لسبب عارض كالغضب والجهل والعناد والاستهزاء والتعجيز ، وقما يكون مقصوداً بنفسه إلا للنجاة مما هو شر منه ، كما يفعل اليائسون من الحياة ، أو النجاة من ذل وخزي أو ألم لا يطاق إذ يتعجمون المهالك أو يبغضون أنفسهم انتحاراً .

قال تعالى ﴿ ولو يعجل الله للناس الشر الذي يستعجلونه به كاستعجال مشركي مكة رسول الله ﷺ بالعذاب الذي أنذرهم نزوله بهم إجمالاً بما قصه عليهم في هذه السورة وغيرها من سنة الله تعالى في أقوام الرسل المعاندين وهو عذاب الاستئصال ، وفيما دونه من عذاب الدنيا كخزيهم والتكليف بهم ونصره عليهم ، أو قيام الساعة ، وعذاب الآخرة . وقد حكى الله تعالى كل ذلك عنهم كقوله (ويستعجلونك بالسيدة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلاث) الآية (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة) وتقدم قوله (١٣ : ٨) وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) وقال في الساعة (يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق) وفي العذاب (يستعجلونك

بالعذاب وان جهنم لمحيطه بالكافرين) وكل هذه الضروب من الاستعجال كانوا يقصدون بها تعجيز الرسول (ص) مبالغة في التكذيب، واستهزاء بالوعيد، وقوله ﴿ استعجالهم بالخير ﴾ معناه كاستعجالهم بالخير الذي يطلبونه لذاته بدعاء الله تعالى أو بمحاولة الاسباب التي يظنون أنها قد تأتي به قبل أوانه ﴿ لقضى اليهم أجلهم ﴾ قرأ ابن عامر ويعقوب الجملة بالبناء للفاعل أي لقضى الله اليهم أجلهم، وقرأها الجمهور بالبناء للمفعول للعلم بالفاعل. وقضاء الاجل اليهم انتهاء اليهم باهلا كهم قبل وقته الطبيعي^(١) كما هلك الذين كذبوا الرسل واستعجلوهم بالعذاب من قبلهم. ولكن الله تعالى أرحم بهم من أنفسهم، وقد بعث رسوله محمداً خاتم النبيين رحمة للعالمين، بالهداية الدائمة إلى يوم الدين، وقضى بأن يؤمن به قومه من العرب، ويحملوا دينه إلى جميع أمة العجم، وأن يعاقب المعاندين من قومه في الدنيا بما يكون تأديبا لسائرهم، بما بينه بقوله (١٤:٩) قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم) الآية، ويؤخر سائر الكافرين منهم ومن غيرهم إلى يوم القيامة، فهو لا يقضي اليهم أجلهم باهلا كهم واستئصالهم، لان هذا العذاب اذا نزل يكون عاما بل يذرهم وما هم فيه إلى نهاية اجلهم وذلك قوله ﴿ فنذر الذين لا يرجون لقاءنا في طغيانهم يعمهون ﴾ الطغيان مجاوزة الحد في الشر من كفر وظلم وعدوان. هذا هو الاصل و طغيان السيل والبحر والدم مستعار منه والعمه (كالتعب) التردد والتحير في الامر أو في الشر، والمعنى فنترك الذين لا يرجون لقاءنا ممن تقدم ذكرهم فيما هم فيه من طغيان في الكفر والتكذيب، يترددون فيه متحيرين لا يهتدون سبيلا للخروج منه لانعجل لهم العذاب في الدنيا باستئصالهم، حتى يأتي أمر الله تعالى في جماعتهم بنصر رسوله عليهم، وفي أفرادهم بقتل بعضهم وموت بعض، وما واهم النار وبئس المصير، الامن تاب وآمن منهم، أي هذه سنتنا فيهم لانعجل شيئا قبل أوانه المقدر له بمقتضى علمنا وحكمتنا.

(١) راجع تفسير (ثم قضى أجالاً مسمى عنده) في أول سورة الانعام (ج ٧ تفسير

(يونس : ١٠) دعاء الكافر ربه عند الشدة ونسيانه عقب استجابته له ٣١٣

وفي الآية وجه عام غير خاص بالكافرين تقديره: ولو يجعل الله للناس الشر الذي يستعملونه بذنوبهم المنتزعية له من ظلم وفساد في الارض وفسوق لأهلهم كما قال في آية أخرى (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) الآية ويدخل في المعنى هنا دعاؤهم على أنفسهم عند اليأس ودعاء بعضهم على بعض عند النصب، لو يعجله الله لهم لأهلهم أيضاً (وما دعاء الكافرين) برهم أو بنعمه عليهم فيما يخالف شرعه وسنته في خلقه (إلا في ضلال) أي ضياع لا يستجيبه الله لهم ، لحلمه ورحمته بهم .

❦ وإذا مسَّ الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً فهذا بيان لفريضة الانسان العامة وشأته فيما يمس من الضر ، يعلم منه أن استعجال أولئك الناس بالشر تعجزاً لتبليهم ومبالغة في تكذيبه إنما هو من طغيانهم الذي خرجوا فيه عن مقتضى طبيعتهم ، فهو يقول ان الانسان اذا أصابه من الضر ما يشعر بشدة ألمه أو خطره من إشراف على غرق وغيره من أواع التهلكة ، أو شدة مسغبة في أو إعضال داء ، دعانا ملحا في كشفه عنه في كل حال يكون عليه : دعانا مضطجعا لجنبه ، أو قاعداً في كسر بيته ، أو قائماً على قدميه حائراً في أمره ، فهو لا ينسى حاجته إلى رحمة ربه ، مادام يشعر بمس الضر ولذعه له ، ويطلب من نفسه العجز عن النجاة منه ، قدم من هذه الحالات الثلاث ما يكون الانسان فيها أشد عجزاً وأقوى شعوراً بالحاجة إلى ربه فإتي تليها فإتي تليها ، وم حالة الرابعة هي سعيه لدفع الضر من طريق الاسباب فلم تذكر لان الانسان غير المؤمن قلما يتذكر ما أودع في فطرته من الايمان بربه ذي السلطان العيبي الذي هو فوق جميع الاسباب ويشعور بحاجته إلى اللجوء اليه ، ودعائه والاستغاثة به ، إلا عند عجزه عن الاسباب المسخرة له ، والمشركون بالله تعالى أقل الناس تذكراً لذلك ، لانهم عند عجزهم عن الاسباب العامة المعلومة ، يلجؤون إلى مظنة الاسباب الموهومة ، وهي المخلوقات المعبودة التي يعتقدون أن لها سلطاناً غيبياً فوق الاسباب من جنس سلطان الرب الخالق عز وجل ، إما لذاتها وإما بما لها من المكنة عند الله ، والمثل مضروب هنا هؤلاء ❦ فلما كشفنا عنه ضره مرر كأن لم يدعنا إلى ضره ❦ كان الظاهر أن

يقال « فاذا كشفنا عنه ضره » إذ هو المناسب للشرط في أول الآية وهو في جنس الانسان ومقتضى طبعه لاني فرد من أفراده ، ونكتة هذا التعبير أن يتصور القاريء والسامع الآية كشف الضر بعد الدعاء واقعا مشاهداً من شخص معين ويرى ما يفعل بعده لانه أبلغ في العبرة . أي فلما كشفنا عنه ضره الذي دعانا له في حال شعوره بعجزه عن كشفه بنفسه وبغيره من الاسباب ، مرّ ومضى في شؤونه على ما كان من طريقته في الغفلة عن ربه والكفر به ، كأن الحال لم تتغير عليه ، فلم يدعنا إلى ضره ، ولم نكشف عنه ضره ﴿ كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون ﴾ أي كذا النحو من معرفة الله والاخلاص في دعائه ووحده في الشدة ونسيانه والكفر به بعد كشفه من ازين للمسرفين من طاعة مكة وغيرهم ما كانوا يعملون من أعمال الشرك حتى بلغ من عنادهم للرسول واستهزائهم بما أنذرهم من عذاب أن استعجلوه بالعذاب ، والاسراف رديف الطغيان وأخوه ، وسياي مثل هذه الآية بعد عشر آيات ببيان أبلغ. وقد أسند التزيين هنا إلى المفعول لانه المقصود بالعبرة دون فاعله. وسبق مثله في آل عمران (٣: ١٤) والانعام (٦: ٢٣) والتوبة (٩: ٣٨) وقد أسند إلى الشيطان في سورة الانعام والانفال ، وأسند إلى الله تعالى في الانعام أيضاً بقوله (١٠٨ زينا لكل أمة عملهم) وبيننا في تفسير هذه نكتة اختلاف الاسناد في كل موضع (راجع ص ٦٦٨ ج ٨ تفسير الطبعة الثانية)

(١٣) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٤) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ

بين الله تعالى في الآيتين السابقتين شأنه في الناس وشأنهم معه بمقتضى الطبع البشري وطغيان الشرك والمكفر ليعتبر به مشركو مكة وغيرهم ممن يعقله إذ هو من العالم الصحيح المستمد من طبع الانسان وسيرته ، وقفي عليه في هاتين

الآيتين بمصداقه من سيرة الامم الماضية وسنته تعالى فيهم فقال طافوا
 له على ما قبله ولقد اهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا الخطاب لامة الدعوة
 الحمدية ووجه اولها وبالذات إلى قوم النبي ﷺ وأهل وطنه مكة إذ أنزلت السورة
 فيها فهو التفات يفيد مزيد التنبيه وتوجيه أذهان مخاطبين لموضوعه، والقرون الامم
 وهو جمع قرن بالفتح ومعناه القوم المقترنون في زمن واحد، وقد ذكر اهلاك
 القرون في آيات عديدة من السور المسكية، وبدأ هذه بتأكيد القسم المدلول عليه
 باللام (ولقد) وصرح بأن سبب اهلاكهم وقوع الظلم منهم كما قال في سورة
 الكهف (١٧: ٦٠) وتلك القرى اهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعداً (ولما)
 ظلموا على وقوع فعل لوقوع غيره مما هو سبب له، والمراد بالقرى الامم والقرون
 كما تقدم مراراً، وقال في سورة هود (١١: ١٠٢) وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى
 وهي ظالمة إن أخذهم أليم شديد) وقد بعث الله الرسل في أهل الحضارة دون الهمج
 واهلاك الله الامم بالظلم نوعان (أحدهما) هو مقتضى سنته في نظام الاجتماع
 البشري وهي أن الظلم سبب لفساد العمران وضعف الامم، ولاستيلاء القوية منها
 على الضعيفة استيلاءً مؤقتاً إن كان إفساد الظلم لها عارضاً لم يجهز على استعدادها
 للحياة واستعدادتها للاستقلال، كما تقدم في تفسير (فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم)
 من سورة البقرة ^(١) أو دائماً إن كانت غير صالحة للحياة حتى تنقرض أو تدغم
 في الغالبية. كقال في سورة الانبياء (٢١: ١١) وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا
 بعدها قوماً آخرين) الآيات - وهذا النوع أثر طبيعي للظلم بحسب سنن الله في
 البشر، وهو قسمان ظلم الافراد لانفسهم بالفسوق والاسراف في الشهوات المضعفة
 للابدان المفسدة للاخلاق، وظلم الحكام الذي يفسد بأس الامة في جملتها، وهذه
 السنته اتم في الامم، ولها حدود ومواقف تختلف باختلاف أحوالها وأحوال أعدائها
 هي آجالها المشار إليها في الآية (٥٩) الآتية وأمثالها

(ثانيهما) عذاب الاستئصال للاقوام التي بعث الله تعالى فيها رسالاً لهايتها
 بالايمان والعمل الصالح وأعظم أركانها العدل، فماتت الرسل فأندروهم عاقبة

الجحود والعماد بعد مجيء الآيات وهو ما يدينه تعالى بقوله ﴿ وجاءتهم رسالتهم بالبينات ﴾ الدالة على صدقهم فيما جاؤهم به ﴿ وما كانوا يؤمنوا ﴾ أي وما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا لانهم مرتوا على الكفر واطمأنوا به ، وصارت لذاتهم ومصالحهم القومية من الجاه والرياسة والسياسة مقترنة بأعماله الاجرامية من ظلم وفسق وجور ﴿ كذلك نجزي القوم المجرمين ﴾ تذييل لانهذار مشرقي مكة لانهم كانوا مجرمين وتقديره كالذي مر قبله في المسرفين ، وراجع تفسير (٧ : ٣٩) وكذلك نجزي المجرمين) وتفسير (٨٣) فانظر كيف كان عاقبة المجرمين) من سورة الاعراف

﴿ ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعدهم ﴾ الخطاب معطوف على الذي قبله أي ثم جعلناكم خلائف في الارض من بعد أولئك الاقوام كلهم بما آتيناكم في هذا الدين من أسباب الملك والحكم وقد رناه لكم باتباعه ، إذ كان الرسول الذي به جاءكم هو خاتم النبيين فلا يوجد بعد أمته أمة أخرى لنيي آخر ، والخلائف جمع خليفة وهو من يخلف غيره في الشيء أي يكون خلفه فيه ، ولقد كان لتلك الامم دول وحكم في الارض ، تلك النصراني واليهود والمجوس ، والوثنيين من قبلهم كالفرعنة والهنود ، فالله يبشر قوم محمد وأمة محمد بأنها ستخلفهم في الارض إذا آمنت به واتبعت النور الذي أنزل معه ، كما صرح بذلك في قوله (٥٥ : ٢٤) وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم) الآية ، وقد علل هذا الاستخلاف عند الاخبار الاول به هنا بقوله ﴿ لننظر كيف تعملون ﴾ أي لنرى ونشاهد أي عمل تعملون في خلافتكم فنجازيكم به بمقتضى سنتنا فيمن قبلكم ، فان هذه الاخلافة إنما جعلها لكم لافاسة الحق والعدل في الارض ، وتطهيرها من رجس الشرك والفسق ، وللاجرد التمتع بلذة الملك ، كما قال في أول آيات الاذن لهم بالقتال (٤١ : ٢٢) الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمرؤا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فأعلمهم سبحانه بأن أمر بقاء خلافتهم منوط بأعمالهم ، وانه تعالى يكون ناظراً إلى هذه الاعمال لا يغفل عنهم فيها ، حتى لا يغتروا بما سينالونه ويظنوا انه

بماق لهم لذاتهم أو لنسبتهم إلى نبيه صلى الله عليه وسلم وانهم يتفعلون من سنته في الظالمين وقد بينها لهم آتفاً وقال في سورة الاعراف (٧: ١٠٠) أو لم يهد للذين يرثون الارض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم) الآية ، وقد قص علينا فيها ما حذر به قوم موسى عند ما وعدهم على لسانه بآرث الارض التي وعد بها آباءهم في إثر ما شكوا اليه من إيذاء قوم فرعون لهم قبل مجيئه وبعده وذلك قوله تعالى حكاية عنه (١٢٩) قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون) ويراجع القارىء تفسير آية الاعراف في الجزء التاسع ، وتفسير قوله تعالى في استخلاف الامم العام من آخر سورة الانعام (وهو الذي جعلكم خلائف في الارض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم) الآية (ص ٢٤٩ ج ٨) وقد صدق الله وعده ووعده المسلمين كغيرهم بما تبين به إعجاز كتابه وصدق رسوله صلى الله عليه وسلم وكونه ربى آمنه بما علمه ربه من هداية الدين وطبائع العمران وسنين الاجتماع التي لم يكن يعلمها هو ولا قومه الاميون ، بل لم تصر علماً مدوناً إلا من بعد نزول القرآن بعدة قرون ، لعقبة علماء المسلمين عما فيه من أصولها وقواعدها الصريحة كهنه الآيات . وقد كان أول من دونها المؤرخ الفقيه عبد الرحمن بن خلدون في مقدمة تاريخه مؤملاً أن يعنى بها من بعده من العلماء فيأتوا بتوسيع ما بدأ به من مباحثها ، ولكن العلم والحكم في دولة الاسلام ، كان داخلاً في طور الانحطاط والاضمحلال ، ثم ارتقى الافرنج فيهما فترجموا تلك المقدمة بلغاتهم العلمية كلها وأخذوا منها عدة علوم في سنين العمران ، ونحن نأخذها اليوم عنهم غافلين عن هداية القرآن ، لان علماء السوء المقلدين حججونا عن هدايته بل حرموها على المسلمين استغناء عنه بكتب مذاهيمهم ، فأخذهم الله بذنوبهم ، ولن يكشف عنهم انتقامه حتى يعودوا إلى هدايته التي استخلف بها سلفهم في الارض ، واثن عادوا اليها باقامة سنين القرآن ، ليعتمن لهم وعده بخلافة الارض إلى آخر الزمان . فيقدر اقامة هذه السنين بكون الملك والسultan . فمن ذا الذي يقيمها ؟

(١٥) وَإِذَا تُلِيٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّمَا يَبْرَأُ بَعْدَ هَذَا أَوْ يَدَّبُّهُ ، قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَيْتُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَىٰ إِيَّائِي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٦) قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرَأَكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٧) فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ

بدئت السورة بالكتاب الحكيم (القرآن) وانكار المشركين للوحي بشبهتهم المعروفة وسميت بعدها الآيات في إقامة الحجج عليهم من خلق العالم علويه وسفليه ومن طبيعة الانسان وتاريخه منضمه لاثبات أهم أركان الدين وهو الوحي والتوحيد نوالبعث ، وجاءت هذه الآيات الثلاث بعد ذلك في شأن الكتاب نفسه وتعمد ما اقترحه المشركون على الرسول فيه وحجته البالغة عليهم في كونه وحيا من الله تعالى

﴿ وإذا تلى عليهم آياتنا بينات ﴾ في الآية التفات عن خطاب هؤلاء الموعوظين إلى الغيبة عنهم وتوجيه له إلى الرسول ﷺ وأسلوب الالتفات في القرآن كثير جداً وفائدته العامة تلوين الكلام بما يحدد الانتباه له والتأمل فيه ، وفي كل التفات فائدة خاصة لو أردنا بيان ما نفهمه منها لاطال بنا بحث البلاغة الكلامية ، بما يشغل القراء عن الهداية المقصودة بالذات من تفسيرنا . ويظهر في هذه الآية ان نكتة حكاية هذا الاقتراح السخيف بأسلوب الاخبار عن قوم غائبين إعادة أمرين (أحدهما) اظهار الاعراض عنهم كأنهم غير حاضرين لانهم لا يستحقون الخطاب به من الله تعالى (ثانيهما) تلقينه ﷺ الجواب عنه بما ترى من العبارة البليغة التأثير ، والمعنى وإذا تلى على أولئك القوم آياتنا المنزلة حالة كونها بارزة في أعلى عارض البيان ، وأظهره مقدمات الوحي والبرهان ﴿ قال الذين لا يرجون لقاءنا ﴾

وهم من تقدم ذكرهم قريبا - وأعادوا واضعاً إياه موضع الضمير للأشعار بجملة القول - أي قالوا لمن يتلوها عليهم وهو الرسول ﷺ أنت بقرآن غير هذا أو بدله ﴿ الاظهر في سبب قولهم هذا انه ﷺ بانهم أن هذا القرآن من عند الله أوحاه اليه لينذرهم به ، ونحذاهم بالاتيان بمثله أو بسورة من مثله فمجزوا ، وكانوا في ريب من كونه وحياً من الله لبشر مثلهم كما تقدم في أول السورة ، وفي ريب من كونه من عند محمد ﷺ وهو لم يكن يفوقهم في الفصاحة والبلاغة ولا في شيء من العلم ، بل كانوا يرونه دون كبار فصاحتهم من بلغاء الشعراء ومصاقع الخطباء ، فأرادوا أن يمتحنوه بمطالبتهم بالاتيان بقرآن غيره في جملة ما بلغهم من سوره في أسلوبها ونظمها ودعوتها ، أو بالتصرف فيه بالتغيير والتبديل لما يكرهونه منه كتغيير آلهتهم وتكفير آبائهم ، حتى إذا فؤل عدا أو ذلك كانت دعواؤه كلام الله أوحاه اليه منقوضة من أساسها ، وكان قصارى أمره أنه امتاز عليهم بهذا النوع من البيان بقوة نفسية فيه كانت خفية عنهم كأسباب السحر لا وحي الله اليه ، وهو ما يزعجه بعض الافرنج ومقلداتهم في عصرنا وقد فندنا في تفسير الآية الأولى من هذه السورة ﴿ قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي ﴾ أي قل لهم أيها الرسول إنه ليس من شأني ولا مما تبيحه لي رسالتي أن أبدله من تلقاء نفسي أي بمحض رأيي ومقتضى اجتهادي ، وكلمة تلقاء بكسر التاء مصدر من اللقاء كتيان من البيان وكسر التاء فيها ساعي والقياس في هذا المصدر فتحها كالتكرار والتطواف والتجوال ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلي ﴾ أي ما أتبع فيه إلا تبليغ ما يوحى إلي والاهتداء به ، فإن بدل الله تعالى منه شيئاً بنسخه بآفته عنه ، وما علي إلا البلاغ المحض ، وأقول إذا كان الله لم يعط رسوله الحق في تبديل القرآن فما حكمه تعالى فيمن يبدلونه بأعمالهم المنافية لصدق وعده لاهله وهم يدعون أنهم أهله كالذين قال فيهم (٤٨: ٥) يريدون أن يبدلوا كلام الله) أو بتوك أحكامه لمذاهبهم كالذين قال فيهم (من بدله بعد ما سمعه فانما يحم على الذين يبدلونه) ﴿ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ هذا تعليل لمضمون ما قبله ، الذي هو بيان لنفي الشأن الذي قبله أي إني أخاف

إن عصيت ربي أي عصيان كان ، عذاب يوم عظيم الشان ، وهو يوم القيامة ، فكيف اذا عصيته بتبديل كلامه اتباعا لاهوائكم ؟ وقوله (إن عصيت) من باب الغرض ، إذ الشرطية البدوية بان يعبر بها عما شأنه ألا يقع . وهذا جواب عن الشق الثاني من اقتراحهم

ثم لقنه الجواب عن الشق الاول مفصولا لأهميته بقوله ﴿ قل لو شاء الله ما أتوته عليكم ﴾ أي لو شاء الله تعالى أن لا أتلو عليكم هذا القرآن ما أتوته عليكم فانما أتووه بأمره تنفيذاً لمشيئته ﴿ ولا أدراكم به ﴾ أي ولو شاء أن لا يدريكم ويعلمكم به بارسالي اليكم لما ارسلني ولما أدراكم به ، ولكنه شاء أن يمن عليكم بهذا العلم الاعلى لتدروه فتهدوا به وتكونوا بهدايته خلائف الارض ، وقد علم أن هذا انما يكون به لا بقرآن آخر كما قال (٤ : ١٦٦) لكن الله يشهد بما أنزل اليك أنزله بعلمه (وقال (٧١ : ٥٢) واقد جئناكم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون [راجع تفسير هذه وما بعدها في ج ٨ تفسير] فهو قد أنزله علماً بأن فيه كل ما يحتاجون اليه من الهداية وأسباب السعادة ، وأمرني بتبليغه اليكم ولم يكن لي علم بشيء من ذلك قبله ﴿ فقد لبثت فيكم عمراً من قبله ﴾ أي فقد مكثت فيما بين ظهرانيكم عمراً طويلاً من قبله وهو أربعون سنة لم أتل عليكم فيه سورة من مثله ، ولا آية تشبه آياته ، لافي العلم والعرفان ، ولا في البلاغة وروعة البيان ﴿ أفلا تعقلون ؟ ﴾ ان من عاش أربعين سنة لم يقرأ فيها كتاباً ، ولم يلقن من أحد علماً ، ولم يتقلد ديناً ، ولم يعرف تشريعاً ، ولم يمارس أساليب البيان ، في أفانين الكلام ، من شعر ونثر ، ولا خطابة وخطبة ، ولا علم وحكم ، لا يمكنه أن يأتي من تلقاء نفسه بمثل هذا القرآن المعجز لكم بل هو يعجز جميع الخلق حتى الدارسين للكاتب الاديان والحكمة والتاريخ أن يأتوا بمثله ؟ فكيف تقترحون عليّ اذاً أن آتي بقرآن غيره ؟ وسيتجداهم في الآيه ٣٨ بسورة مثله

ومما يمتاز به الوحي الحمدي على ما كان قبله أن أكثر أنبياء بني اسرائيل كانوا قبل نبوتهم على شيء من العلم الكسبي كما يمتاز في مباحث الوحي القرآنية ، وفاتنا فيها

التذكير بما أوتي بعضهم من العلم والحكم الوهبي قبلها أيضاً . قال تعالى في موسى (٣٨ : ١٤) ولما بلغ أشده واستوى آتيناه حكماً وعلماً) وبلغ الأشد يكون في استكمال الثلاثين وذكر بعد هذا خروجه إلى مدين ونزول الوحي عليه في أثناء عودته منها . وكان موسى على علم بشرائع المصريين ومعارفهم أيضاً ، وقال تعالى في يوسف (٣٠ : ١٢) ولما بلغ أشده آتيناه حكماً وعلماً) ولم يقل واستوى فالظاهر انه قبل النبوة أيضاً ، وكان العلم الذي امتاز به يوسف تأويل الاحاديث والرؤى أي الاخبار بما لها . وقال في يحيى (وآتيناه الحكم صبياً) ولم ينقل عن نبينا ﷺ قبل النبوة علم ولا حكم في الامور اللهم إلا حكمه في تنازع زعماء قريش عند بناءهم الكعبة أهم يضع الحجر الاسود في مكانه من الركن وكادوا يقتتلون فطلع عليهم فقالوا هذا الامين نحكمه ونرضى بحكمه أي لأنه أمين صادق لا يخابي . فحكم بوضعه في ثوب يأخذ سيد كل قبيلة ناحية منه ثم ارتقى هو الى موضعه من الركن فرفعه اليه فوضعه فيه . والخبر من مراسيل السير لم يرد مرفوعاً وأخرجه البيهقي عن ابن شهاب الزهري وقد عبر عنه بكلمة غلام وفي السيرة الحلبية ان سنه ﷺ كانت عند بناء الكعبة خمساً وثلاثين سنة هذه حجة عقلية ناهضة ، على بطلان شبهتهم الداحضة ، التي بنوا عليها مطالبة محمد ﷺ بالاتيان بقرآن غير هذا القرآن ، وقد ظهر لعلماء هذا العصر بما أيد دلالتها العلمية فانهم بما حذقوا علم النفس وأخلاق البشر وطباعهم ، وما عرفوا من درجات استعدادهم العقلي والعقلي باستقراء تاريخهم ، قد حققوا أن استعداد الانسان العقلي للعلوم ، واستعداده النفسي للنهوض بالاعمال القومية أو العالمية ، يظهر كل من الاستعدادين فيه من أوائل نشأته ، ويكون في منتهى القوة والظهور بالفعل عند استكمال نموه في العقدین الثاني والثالث من عمره ، فاذا بلغ الخامسة والثلاثين ولم يظهر نبوغه في علم من العلوم التي سبق اشتغاله بها ، ولا النهوض بعمل من الاعمال العامة التي كان استشراف لها ، فإن من المحال أن يظهر منه .

شيء من هذا أو ذلك من بعدها جديداً أنفاً^١ ويكون فيه نابغاً ناجحاً ، وقد قدمنا في مباحث اثبات (الوحي الحمدي) أن هذا القرآن مشتمل على تمحيص الحقائق في جميع العلوم والمعارف الدينية والتشريعية التي يتوقف عليها اصلاح جميع البشر ، وأن الرسول الذي أنزله الله عليه قام بتنفيذ هذا الاصلاح بما غير وجه الارض ، وقلب أحوال اكثر أممها فحولها إلى خير منها ، وأن ذلك كله كان بعد أربعين سنة قضاها في الامية . فهذا العلم الجديد الذي أيد حجة القرآن العقلية في هذا العصر له في علوم القرآن نظائر أشرفنا إلى بعضها آنفاً ، وبيننا كثيراً منها في تفسيرنا هذا ، وهو مما يمتاز به على جميع التفاسير بفضل الله تعالى ، وإن كان أكثر المسلمين غافلين عنه تبعاً لغفلتهم عن القرآن نفسه ، وعدم شعورهم بالحاجة إلى هدايته ، بصددعاة التقليد المعممين إياهم عنه ، ومن الغريب أن ترى أساطين المفسرين لم يفهموا من الآية أن فيها جواباً عن الشق الاول من اقتراح المشركين وهو الاتيان بقرآن آخر ، وقد هدانا الله تعالى إليه مع برهانه بفضلده ، ولم ترك الاول للآخر !!

﴿ فن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته ﴾ هذه تتممة الرد على اقتراح المشركين فانه رد عليهم أولاً ببيان حقيقة الامر لواقع ، وهو أن تبديل القرآن ليس من شأن الرسول في نفسه ، ولا مما أذن الله له به ، بل يماقبه عليه أشد العقاب في الآخرة إن فرض وقوعه منه - لانه كلامه الخاص به - وثانياً باقامة الحجة العقلية على أنه كلام الله وأنه ليس في استطاعته [ص] الاتيان بمثله ، ثم عزز هاتين الحجيتين بثلاثة أدبية وهي ان شر أنواع الظلم والاجرام في البشر شيطان أحدهما ، افتراء الكذب على الله ، وهو ما افترحوه عليه بجهودهم ، وثانيهما التكذيب بآيات الله ، وهو ما اجترحوه باجرامهم ، وقد بين هذا بصيغة الاستفهام الانكاري ، أي لا أحد أظلم عند الله وأجدر بغضبه وعقابه من هذين الفريقين

(١) الالف بضمين من قولهم روضة أنف أي جديدة الثبت لم ترع . وعبر به القدرة عن مذهبهم في خلق الله الاشياء عندما يبدو له كل شيء منها بدون تقدير سابق ، فقالوا الامر أنف ومنه يعلم مرادنا من الكلمة هنا

(يونس: ص ١٠) عبادة المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم وشبهتها ٣٢٣

من الظالمين ، وأنا أنعى عليكم الثاني منها فكيف أرضى لنفسي بالاول وهو شر منه ؟ وأي فائدة لي من هذا الاجرام العظيم وأنا أريد الاصلاح وأدعو اليه وأحتمل المشاق في سبيله ، وأعلم ﴿ انه لا يفلح المجرمون ﴾ أى لا يفوزون بطولهم الذي يتوسلون اليه بالكذب والزور .

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام في ثلاث آيات من سورة الانعام (١١٠:٢١ و ٣٩ و ١٤٤) وفي آية من سورة الاعراف (٣٧:٧) فراجع تفسيرهم في ج ٨ تفسير)

(١٨) وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعُونَا عِنْدَ اللَّهِ ، قُلْ أَتَدْبِثُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ

هذه الآية في دحض شبهتهم على عبادة غير الله تعالى وهي الشفاعة وتقدم في الآية الثالثة بطلانها وإقامة الحجة على وجوب عبادة الرب الخالق المدبر وحده ، وصرح هنا باسناد هذا الشرك اليهم وباحتجاجهم عليه بالشفاعة ثم ثقل رسول الله الحجة على بطلان هذا الاحتجاج فقال

﴿ ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ﴾ الكلام معطوف على ما قبله من بيان شركهم وسخافتهم فيه ، ومكابرهم في جحود الحق الذي دعاهم اليه الوحي ، أي ويعبدون ما لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً من الاصنام وغيرها من دون الله أي غير الله ، والمعنى أنهم يعبدونها حال كونهم متجاوزين لما يجب من عبادته وحده ، لا أنهم يعبدونها وحدها فما معنى كونهم مشركين إلا أنهم يعبدونه ويعبدون غيره (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) وفي وصفها بأنها لا تضرهم ولا تنفعهم إيدان بسبب عبادتها وضلالهم فيه وتذكير بأنه هو القادر على نفع من يعبده وضر من يكفره ويشرك بعبادته غيره في الدنيا والآخرة ، وأصل غريزة العبادة الفطرية في البشر في سداجتهم التي لا تلقين فيها لحن ولا

باطل هي الشعور الباطن بأن في الوجود قوة غيبية وسلطانا علويا على التصرف في الخلق بالنفع لمن شاء وإيقاع الضرر على من شاء ، وكشفه بعد وقوعه عن شاء ، غير مقيد في ذلك بسبب من الاسباب المسخرة للناس ، فمن اطلع على توارخ البشر في كل طور من أطوار حياتهم البدوية والحضرية يظهر له أن هذا هو أصل التدين الغريزي فيهم ، وأما صور التعبد وتسمية المعبودات فمنها ما هو من اجتهادهم ، ومنها ما هو من تلقين دعاة الدين فيهم من الانبياء وغيرهم ، فكل ما عبد من دون الله بالرأي والاجتهاد فانما عبده من عبده لشبهة فهم منها قدرته على النفع والضرر بسلطان له فوق الاسباب ، وقد بينا ذلك في مواضع أخرى أولها تفسير العبادة من سورة الفاتحة وأوسطها وأبسطها تفسير قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر من سورة الانعام ، ومن آخرها في تفسير هذه السورة ما جاء في بيان الركن الاول من أركان الدين وفي الكلام على الخوارق من بحث الوحي الاستطرادي

فليس المراد من كون هذه المعبودات لا تضرهم ولا تنفعهم - هو بيان عجزها عن النفع والضرر لانها إما جمادات مصنوعة كالأوثان المتخذة من الحجارة أو الخشب والاصنام المتخذة من المعادن وكذا الحجارة ، أو غير مصنوعة كاللآل وهي صخرة كانت بالاطراف يات عليها السويق ثم عظمت حتى عبدت ، وإما أشجار كالعزى معبودة قريش والشجرة التي قطعها الشيخ محمد عبد الوهاب في نجد وشجرة المنصورة التي يقصدها النساء في مصر لاجل الحبل ، فإن أكثر الأوثان والاصنام قد وضعت ذكرى لبعض الصالحين من البشر كما رواه البخاري عن ابن عباس (رض) في أصنام قوم نوح ثم انتقلت عبادتهم إلى العرب ، وكانوا يعتقدون أن فيها أرواحا من الجن كما روي في حديث قطع شجرة العزى أو شجراتها الثلاث اذ ظهرت عند قطعها لخلد ابن الوليد امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها ، كانوا يزعمون انها جنية ، فأرادت أن توابه وتخيفه فقتلها ، فهي كالقبور التي تشرف ويحصى ويوضع عليها الستور وتبقى عليها القباب مثل السبب الذي وضعوا له تماثيل الأوثان ، وعبدت هذه القبور يعتقدون أن المدفونين فيها أحياء يقضون حاجات من يدعونهم ويستغيثونهم ، وعلماء الخرافات يقولون لهم ان عملهم هذا شرعي

فعم ليس المراد هنا من نفي ضررها ونفعها أنها جمادات لا عمل لها فقط كما قيل
وإن كانت الحججة على عبادة هذه الاصنام أظهر من الحججة على عبادة الثعابين والبقر
والقروود — ولا يزال لها بقية في الهند — وعلى عبادة البشر التي هي أساس
النصرانية الآرية التي وضعها الامبراطور قسطنطين ، ومن أتبع سنن النصراني
والهنود من جهة المساهين ، وإنما المراد المقصود بالذات بيان بطلان الشرك بالانوية
وهو عبادة غير الله بها يكن المعبود ، وبطلان الشرك بالربوبية وهو قسمان ادعاء
وساطتهم في الخلق والتدبير ، واحتجاجهم عليه بشفاعتهم عند الله ، وهو كذب
في التشريع الذي هو حق الرب وحده ولا يعلم إلا بوحيه . بيان الاول ان كل
ما عبد ومن عبد من دون الله حتى الجن والملائكة لا يملكون لعايديهم النفع
والضرر بالقدرة الذاتية الغيبية التي هي فوق الاسباب التي منحها الخالق للمخلوقات
على اختلاف أنواعها ، لا بدواتهم وكراماتهم ولا بتأثير خاص لهم عند الخالق يحملونه
به على نفع من شاؤا أو ضرر من شاؤا أو كشف الضرر عنه ، كما يعتقد عباد الانبياء
والاولياء من البشر إلى هذا اليوم ، ولهذا أمر الله تعالى رسوله أن يحتج على
النصارى في عبادتهم للمسيح عليه السلام بقوله (٧٦:٥) قل أتعبدون من دون الله
مالا يملك لكم ضرراً ولا نفعاً والله هو السميع العليم) وهذه حجة على عبادة القبور
وعلى أصحاب العمام الذين يتأولون لهم عبادتهم بما يظنون أنه يمدحهم عن عبادة الاصنام ،
بقولهم إن هؤلاء الاواباء أحياء عند ربهم كالثهداء فهم يضررون وينفعون لا كالأصنام ،
ولكن الله تعالى يقول للنصارى إن المسيح لا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً بعبادتهم له
على ما أتاه من المعجزات ، وإن هؤلاء الدجالين من الشيوخ يؤمنون بأن المسيح
أفضل من البدوي والحسين والسيدة زينب وغيرهم ممن يزعمون أنهم يملكون
الضرر والنفع لمن يطلبه منهم ، وحياته لا تزال في اعتقادهم حياة عنصرية وحياتهم
برزخية ، وه معجزاته قطعية وكراماتهم غير قطعية

كذلك أمر الله تعالى رسوله خاتم النبيين وأفضلهم أن يخبر الناس بنفي ملكه
لضرر الناس ونفعهم وهو حي كما يأتي في الآية (٤٩) من هذه السورة. وسبق
مثلها في سورة الاعراف (١٨٨:٧)

﴿ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله﴾ أي ويقولون في سبب عبادتهم لهم مع اعتقادهم أنهم لا يمكن أن يكون الضر والنفع بأنفسهم لايمانهم بأن الرب الخالق هو الله تعالى : هؤلاء شفعاؤنا عند الله ، فنحن نعبدهم بتعظيم هياكلهم وتطعيمها بالمطر والطواف بها ، وتقديم النذور لهم ، والاهلال عند ذبح القرابين بأسمائهم ، وبدعائهم والاستغاثة بهم ، لأنهم شفعاؤنا عند الله يقربوننا إليه زلفي فيدفع بجاههم عنا البلاء ، ويعطينا ما نطلب من النعماء ، هذا ما يقوله منكرو البعث منهم وهم الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآخرة ، على أنهم إذا فرضوا وجودها زعم مجرموهم أنهم يكونون فيها كما كانوا في الدنيا كما حكى الله تعالى عنهم بقوله (وقلوا نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين) وقوله في الانسان الكافر (ولئن أذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لي ، وما أظن الساعة قائمة ، ولئن رددت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) وروي عن عكرمة أن النضر بن الحارث من كبار مجرميهم قال : إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى . وكذلك كل من يؤمن بالآخرة ممن يعبدون غير الله يعتقدون ان معبوديهم يشفعون لهم فيها كما يشفعون لهم في الدنيا ، فان أساس عقيدة الشرك أن جميع ما يطلبونه من الله لا يبد أن يكون بوساطة المقربين عنده ، لأنهم لا يمكنهم القرب من الله والحظوة عنده بأنفسهم لأنها مدنسة بالمعاصي ، بخلاف دين التوحيد فإنه يوجب على العاصي أن يتوجه إلى الله وحده تائباً إليه طالباً مغفرتة ورحمته

﴿قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض﴾ أي قل لهم أيها الرسول منكراً عليهم جهالتهم واقتراءهم على ربهم : أتخبرون الله تعالى وتعلمونه بشي لا يعلمه من أمر هؤلاء الشفعاء في السموات من ملائكته ولا في الارض من خواص خلقه ، فإنه لو كان فيهما شفعاء يشفعون لكم عنده لكان أعلم بهم منكم ، فإنه لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء ، فكيف يخفى عليه من لهم من المكانة عنده أن جعلهم وسطاء بينه وبين خاقه في قضاء حاجهم من نفع وضر وفي تقريرهم إليه زلفي كالوسطاء عند ملوك البشر الجاهلين بأمر ورعيتهم والعاجزين

عن تنفيذ مشيئتهم فيهم بدون وساطة الوزراء والحجاب والقواد ﴿ سبحانه ﴾ هو تعالى عما يشركون ﴿ أي تنزيهاً له وتعالى علواً كبيراً عما يشركون به من الشفعاء والوسطاء . وما يفترونه عليه بمعلمهم هذا ديناً يتقرب به اليه . فهذا تذييل للجواب مبين لما في هذا الشرك من إهانة مقام الربوبية والالوهية ، وتشبيه رب العالمين ، بعميده من الملوك الجاهلين العاجزين ، وقرأ حمزة والكسائي (تشركون) بناء الخطاب ، على انه تنمة للجواب . وحكمة القراءتين تنزيهه تعالى عن شرك الجميع من غائب محكي عنه وحاضر مخاطب .

وفي هذا الجواب من أصول الدين ان شؤون الرب وسائر مافي عالم الغيب توقيفية لا يعلم الا بنجر الوحي ، ومنه اتخاذ الوسطاء عند الله ما ذكر وانه عين الشرك . ولكن من علماء الازهر من يثبتون هذه الوساطة بالرأي . ويحرفون ما ينقضها من الآيات المحكمات والاحاديث المتفق عليها كأنها هي الاصل ، حتى انهم يبيحون دعاء الموتى واستغاثتهم عند قبورهم ، ويحتجون على ذلك بأنهم أحياء فيها ، وبأن الاقربح أثبتوا وجود الارواح وعلاقتها بالناس ، ولكن الذين قالوا بهذا من علماءهم وهم أقامهم ، لم يقولوا انها تنفعهم وتضرهم ، أو تشفع عند الله لهم ، ولو قالوا هذا لما كان لنا ان نتخذ قولهم حجة نمارض بها نصوص ديننا أو نتأولها لتوافقها ، ولمشيخة الازهر الرسمية مجملة تفسر باسمها هذه البدع والخرافات في جميع بلاد المسلمين . وتطمئن على المعتصمين بالسنة وسيرة الساف الصالحين ، وعلى المعتصمين بالقرآن أيضا وهو حبل الله المتين ، لزعمهم ان الواجب عليهم هو أخذ الدين كله عن كتب مقلدة الفقهاء والمتكلمين ، حتى المتأخرين منهم دون الائمة المجتهدين

(١٩) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ، وَلَوْلَا كَلِمَةٌ

سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِّي بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

تقدم في هذا السياق من أول السورة إلى هنا ان أهل مكة لم يكن دأبهم في تكذيبهم للوحي المحمدي إلا كدأب من قبلهم من الاقوام الذين كذبوا رسلم .

ولم يكونوا في استعجال نبيهم العذاب إلا كاذين استهجلوا رسلهم العذاب أيضاً وتقدم فيه بيان بعض طباع البشر ولا سيما الكفار في الرعونة والمجلة ، وفي الضراعة إلى الله والاختلاس له عند الشدة ونسيانه عند الرخاء ، وفي الاشرار بالله بدعوى ان لهم شفعاء عند الله يدفعون عنهم الضرر ويحلبون لهم النفع بوجهتهم عنده ، ثم جاءت هذه الآية في بيان ما كان عليه الناس من الوحدة ، وما صاروا عليه من الاختلاف والفرقة ، فالتناسب بينها وبين ما قبلها في غاية القوة .

﴿ وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلّفوا ﴾ قيل إن المراد بالناس هنا العرب فانهم كانوا حنفاء على ملة ابراهيم إلى أن ظهر فيهم عمرو بن لحي الذي ابتدع لهم عبادة غير الله وصنع لهم الاصنام - كما ثبت في صحيح البخاري - فاختلّفوا بأن أشرك بعضهم وثبت على الحنيفية آخرون . (١)

وقيل وهو المختار ان المراد الجنس البشري في جماته فانهم كانوا أمة واحدة على الفطرة ، إذ كانوا يعيشون عيشة السداجة والوحدة كأسرة واحدة ، حتى كثروا وتفرقوا فصاروا عشائر قبايل فشعوباً تختلف حاجاتها وتتعارض منافمها ، فتتعادى وتتقاتل في التنازع فيها ، فبعث الله فيهم النبيين والمرسلين لهدايتهم ، وإزالة الاختلاف بكتاب الله ووحيه ، ثم اختلفوا في الكتاب نفسه أيضاً بغياً بينهم واتباعاً لاهوائهم ، وتقدم تفصيل هذا في تفسير (٢ : ٢١٣) وأقوال المفسرين في المسألة والترجيح بينها

﴿ ولولا كلمة سبقت من ربك لقضي بينهم فيما فيه يختلفون ﴾ أي ولولا كلمة حق فاصلة سبقت من ربك في جعل جزاء الناس العام في الآخرة لمجمله لهم في الدنيا باهلاك المبطلين الباغين منهم ، فالمراد من الكلمة قوله تعالى في هذه السورة (٩٣) إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) ومثله في سور أخرى والآية تتضمن الوعيد على اختلاف الناس المفضي إلى الشقاق والعدوان ولا سيما الاختلاف في كتاب الله الذي أنزله لازالة الشقاق بحكمه ، وإدالة الوحدة

(١) بينا تاريخ وثنية العرب في فصل عقدناه عقب تفسير الآية ١٤٤ من سورة الانعام ومنه هذه المسألة فراجع في الجزء الثامن من التفسير

(بونس : ١٠) اقتراح المشركين الآيات الكونية على النبي (ص) ٣٢٩

والوفاق منه ، وتقدم بيانه وحكته في تفسير آية البقرة (٢١٣) وفي غيرها وسنعود إلى بيان حكمته وحكمة خالق الانسان مستعمداً للاختلاف في تفسير آية سورة هود (١١٧ : ١١) ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة) الخ

(٢٠) وَيَتَوَلَّوْنَ لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ لَقُلَّ إِنَّمَا

الْغَيْبُ لِلَّهِ فَآتِنْتُمْ وَالْإِنِّي مَسْكُومٌ مِنَ الْمُتَنظِّرِينَ

الكلام في منكري الوحي من المشركين المنكرين للبعث ، حكى عنهم عجبهم من الوحي إلى بشر مثلهم ورد عليهم بأنواع الحجج التقدمية المتضمنة لبطلان شركهم وانكارهم للبعث ، ثم حكى عنهم مطالبة الرسول ﷺ بالاثبات بقرآن غير هذا القرآن للدال بأسلوبه ونظمه وعلومه وهداياته على أنه وحي من كلام الله عز وجل أو تبديله ، ورد عليهم بما علمت . ثم حكى عنهم في هذه الآية الاحتجاج على إنكار نبوته بعدم إنزال ربه عليه آية كونية غير هذا القرآن وما فيه من الآيات العلمية والعقلية على النبوة والرسالة مع الرد عليها . والجملة معطوفة على جملة ما قبلها من حكايات أقوال المشركين واعمالهم في جحود الرسالة ، ومن دعوة الرسول ﷺ إلى التوحيد والايان بالبعث ، لا على آخر ما حكاه عنهم في قوله (ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا) خاصة لقربه وكون كل منها بلفظ المضارع ، فان المحكي هنا غير مشارك للمحكي قبله في خاصة موضوعه أو ما يناسبه ، ولا على ما حكاه عنهم من طلب الاثبات بقرآن غير هذا أو تبديله خاصة وإن كانا في موضوع واحد ، لبعده والاختلاف بينهما في حكاية ذلك بالماضي وهو (قال الذين لا يرجون لقاءنا) وحكاية هذا بالمضارع الخ

وقال الزمخشري في الكشاف في ترجيحه إن المضارع هنا بمعنى الماضي هناك وانما أثر المضارع على الماضي ليدل على استمرار هذه المقالة وانها من دأبهم وعادتهم مع ما في ذلك من استحضار صورتها الشنيعة إه وقد أخطأ في الترجيح وابتعد ، وإن سدد في التعليل وقارب ، والتحقيق ان المعنى الجامع بين الجمل المتماطفة في هذا

٣٣٠ الآيات المنزلة في الآيات الكونية المقترحة على النبي (ص) (التفسير : ج ١١)

السياق حكاية أنواع جحودهم في جملتها ، وان التعبير بالمضارع في هذه وما قبلها . وفيما سيأتي من قوله (أم يقولون افتراه) وقوله (ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) انما هو لما يتكرر من أقوالهم في الجحود ، فان اقتراح نزول آية كونية عليه قد تكرر منهم وذكر في سور منها ما نزل قبل هذه السورة (يونس) ومنها ما نزل بعدها كما سنوضحه بشواهد ، فمضى الآية هكذا :

﴿ ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه ﴾ أي قد قالوا ولا يزالون يقولون هلا أنزل على محمد ﷺ آية كونية كآيات الانبياء الذين يحدثنا عنهم ، حكى سبحانه عنهم هذا الاقتراح هنا مجملا وأجاب عنه جوابا مجملا لان كلا منهما قد سبق مفصلا في سور أخرى ، وقد جهل هذا كفار الافرنج وتلاميذهم من ملاحدة مصر ، فقالوا في مثله ان النبي ﷺ كان في مكة يفر من مناظرة المشركين ﴿ قل إنما الغيب لله ﴾ والآيات من عالم الغيب عند الله تعالى وبيده وحده لانها خوارق فوق قدرة البشر ، وانما أنا بشر والغيب لله لا يعلمه غيره ، فان كان قدر إنزال آية علي فهو يعلم وقتها وينزلها فيه وأنا لا أعلم إلا ما أوحاه إلي ﴿ فانتظروا إني معكم من المنتظرين ﴾ لما يفعله بي وبكم كما قال تعالى بعد حكاية رميه ﷺ بافتراء القرآن (٤٦ : ٩ قل ما كنت بدعا من الرسل وما أدري ما يفعل بي ولا بكم ، إن أنبع إلا ما يوحى إلي وما أنا إلا نذير مبين) ويفسر ما ينتظره وينظرونه منه قوله في أواخر هذه السورة (فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين) وفيه إنذار لهم بالعذاب وهو قسمان : عذاب الاستئصال لمن أوتوا ما اقترحوا على رسلهم من الآيات فأصروا على الجحود والعدا ، وعذاب من لم يؤثروا ذلك وهو خذلانهم ونصر الرسل عليهم في الدنيا وما وراءه من عذاب الآخرة

حكى الله تعالى عنهم اقتراح آية أو آيات مبهمة في بعض السور ، واقتراح آيات معينة في سور أخرى منها ما نزل بعد هذه السورة وهي الحجر (١٥ : ٦ - ٨) فالانعام (٦ : ٨ ، ٩ ، ٣٩ ، ٤١ ، ١٠٩ ، ١١١ فالانبياء (٢١ : ٥) فالعنكبوت

(٢٩ : ٥) فالرعد (١٢ : ٨ و ٢٨) وفيها أجوبة أخرى فأما الانعام ففيها تفصيل لتكون الآيات لا تزيدهم إلا عناداً واصراراً على الجحود فتحق عليهم كلمة عذاب الاستئصال ، وتنافي مراد الله تعالى من بعثة خاتم النبيين ، وتقدم تفسيرها في الجزءين ٧ و ٨ من تفسيرنا هذا فراجع ، ثم أجمل ذلك في سورة الانبياء فقال ﴿ ما آمنت قبلم من قرية أهلكتناها أفهم يؤمنون ﴾ ثم أجاب عنها في سورة العنكبوت بقوله (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ؟)

الكنهه كان قد فصل مقترحاتهم مع الرد عليها في السور التي أنزلت قبل ذلك ككلمه كقوله تعالى في سورة الفرقان (٢٥ : ٧) وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيراً (٨) أو يلقي اليه كنزاً أو تكون له جنة يأكل منها ؟) ثم حكى عنهم في سورة بني اسرائيل (١٧) انهم طالبوه صلى الله عليه وسلم بواحدة من بضع آيات وعلقوا إيمانهم على إجابة طلبهم فقال بعد بيان عجز الانس والجن عن الاتيان بمثل هذا القرآن ، وما صرفه فيه للناس من جميع ضروب الامثل ، (٩٠) وقالوا ان نؤمن لك حتى تفجر لنا من الارض ينبوعاً (الخ الآيات الاربعة) ثم لقن رسوله صلى الله عليه وسلم الرد عليهم بقوله (٩٣) قل سبحان ربي هل كنت الا بشراً رسولاً ٩٤ وما منع الناس أن يؤمنوا اذ جاءهم الهدى الا ان قالوا أبعث الله بشراً رسولاً ٩٥ قل لو كان في الارض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولاً) أي سبح ربك في جواهرهم ، تسبيح التعجب عن قولهم ، وذكرهم بأنك بشر مثلهم ، وليس في قدرة البشر أن يأتوا بالآيات الخارقة لسنن السكون ، وان آفتهم هي آفة من كان قبلم من الاقوام الذين لم يعقلوا ما جاء به الرسل من الهدى وانه متى تبين وجب على العاقل اتباعه لذاته ، فاحتقروا الرسل الذين جاؤهم به لانهم بشر مثلهم ، واقترحوا أن يجيبهم به الملائكة ، وانه لو كان في الارض ملائكة يمشون فيها كالبشر يمكنهم التلقي عنهم انزل عليهم ملكاً ، ثم بين لهم انه اذا نزل الملك فهو لا ينزل إلا بالامذاب ، إلا أن يحمل بشراً ، واداً لاحتجوا عليهم بأنه مثلهم ، كما قال في سورة الحجر حكاية لخطابهم للذي نزل عليه الذكر (١٥ : ٧) لو ماتنا نينا بالملائكة ان كنت من الصادقين ٨ ما نزل الملائكة

الإلحاق . وما كانوا إذاً منظرين) وقال في الانعام (٦ : ٨) وقالوا لولا أنزل عليه ملك ! ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون (٩) ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون)

ولقنه في هذه السورة (بني اسرائيل) حجة أخرى في حكمة عدم نزول الآيات الكونية عليه أو سببه وهي قوله (٦٠) وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون) أي وما صرفنا عن إرسال الآيات إلا أن كذبها قريش إلا تكذيب الأولين الذين هم أمثالهم في الطبع والعادة كعاد وتمود وانها لو أرسلت لكدبوا بها تكذيب أولئك واستوجبوا عذاب الاستئصال على ما مضت به سنتنا . وقد قضينا أن لانستأصلهم لانهم أمة خاتم النبيين الباقية ، وأنه هو رحمة العامة الشاملة ، ولأن فيهم من يؤمن أو يولد لهم من يؤمن . ثم ذكر بعض الأمم المهلكة بتكذيب الآيات المقترحة فنذكره مع عبارة البيضاوي الوجيزة في تفسيره وهو : (وآتينا تمود الناقة) اسؤالهم (مبصرة) بينة ذات إبطار أو بصائر او جعلتهم ذوي بصائر (فظلموا بها) اي فكفروا وظلموا أنفسهم بسبب نكرها (وما نرسل بالآيات) أي المقترحة (إلا تخريفا) . من نزول العذاب المستأصل فان لم يخافوا نزلها . وفي سورة القصص وقد نزلت بعد الفرقان وقبل بني اسرائيل تفصيل لقصة

موسى في مولده ونشأته وفراره من فرعون الى مدين وبعثته في طور سيناء الخ وقد صرح في آخرها انها تدل على رسالته صلى الله عليه وسلم لانه لم يكن يعلم من أمرها شيئا . فهي من علم الغيب كما تراه في الآيات (٢٨ : ٤٤ - ٤٥) منها وقد تقدم نصها (في مباحث الوحي ص ١٨٧ ج ١١ تفسير) ثم قال (٤٧) ولولا ان تصيبهم مصيبة بما قدمت ايديهم فيقولوا ربنا لولا ارسلت الينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ٤٨ فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى ؟ أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل ؟ قالوا سحران تظاهرا . وقالوا إنا بكل كافرون) الخ فجملة ماورد في اقتراح الآيات الكونية من مجمل ومفصل يفسر بمضه بعضا وهو مقرر لما علم بالقطع من دين الاسلام ان الله تعالى جعل حجته على رسالته خاتم النبيين هذا القرآن المشتمل على كثير من الآيات العقلية والعلمية والاصلاحية .

واخبار الغيب واعجاز الاسلوب والنظم والتأثير في الهداية الخ ما فصلناه في الفصل الاستطرادي الذي عقدهناه لاثبات الوحي في أول تفسير السورة (ص ١٩٥ ج ١١) وقد أتى الله رسوله خاتم النبيين آيات اخرى علمية وكونية ولكنه لم يجعلها حجة على رسالته ولا امره بالتحدي بها وإنما كانت تكون لضرورات اشتدت حاجة الامة اليها كاستجابة بعض ادعيته ﷺ وتقدم بيانه (ص ١٥٩ منه)

ويؤيد هذه القاعدة المأخوذة من هذه الآيات كلها ما رواه الشيخان والترمذي والنسائي من حديث ابي هريرة مرفوعاً « ما من نبي من الانبياء إلا أعطي ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو ان أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » وقد يعارضه آية انشقاق القمر مع ما ورد في احاديث الصحيحين وغيرهما من ان قريشاً سألوا النبي ﷺ آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين ، ولكن في الاحاديث الواردة في انشقاقه عللاً في متنها وأسانيدھا واشكالات علمية وعقلية وتاريخية فصلناها في المجلد الثلاثين من المنار ^(١) وبيننا ان ما تدل عليه الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح في حصر معجزة نبوته ﷺ في القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضي إجابة مقترحها عذاب الاستئصال ، هو الحق الذي لا ينهض لمعارضته شيء ، وسنعود اليها في تفسير سورة القمر إن أحيانا الله تعالى ووفقنا لاتمام التفسير بفضله

(٢١) وَإِذَا أَدْقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَاءٍ مَّسْتَهْمٍ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا ، قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا عَمَلْتُمْ (٢٢) هُوَ الَّذِي يُسِيرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ

عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ
 دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنِ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ
 مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٣) فَلَمَّا أَنْجَيْنَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْمُنُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ
 الْحَقِّ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغَيْتُمْ كُفْرًا تَلَى أَنْفُسِكُمْ مَتَّعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا
 ثُمَّ لَأَنصُرَنَّكُمْ فَأَكْفُرُوا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ

لما كان الجواب عن اقتراحهم الآية الكونية للدلالة على النبوة يتضمن بمعونة
 ما يفصله من الآيات ان أولئك المشركين المعاندين لا يقتنعون بالآيات ، وانهم
 اذا رأوها بأعينهم يكفرون حسهم ولا يؤمنون ، ضرب الله تعالى مثلاً له في آياته
 الكونية الدالة على وحدانيته في أفعاله وحكمه فيها وما لهُؤلاء المشركين المعاندين
 من المكور فيها وكونها لا تزيدهم إلا ضلالاً فقال

﴿ واذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضراء مستهم ﴾ هذه الشرطية منتظمة
 مع أختيها في الآيتين ١٥ و ١٢ في نسق واحد ، والذوق في أصل اللغة إدراك الطعم
 بالغم ، والدرك له عصب خاص في اللسان ، واستعمل مجازاً في إدراك غيره من
 اللذات كالرحمة والنعمة ، والمؤلمات كالعذاب والنقمة ، والضراء الحالة من الضر
 المقابل للنعمة ، ويقابلها السراء من السرور ، أي واذا كشفنا ضراء مسّ الناس
 لهم ، برحمة منا أدقناهم لذتها على أمتها ، لان الشعور بها عقب زوال ضدها يكون
 أتم وأكمل ﴿ اذا هم مكر في آياتنا ﴾ اذ هذه تسمى المفجائية والجملة جواب للشرط
 أي ما كان منهم إلا أنهم يبدروا الى المكر ، وأسرعوا بالمفاجأة به في مقام الشكر ،
 فاذا كانت الرحمة مطراً أحيا الارض ، وأنبت الزرع ، ودر به الضرع ، بعد جذب
 وقحط أهلك الحرث والنسل ، قالوا مطرنا بالأنواء ، واذا كانت نجاة من هلكة
 وأعوزتهم أسبابها ، عللوا بالمصادفات ، واذا كان سببها دعاء نبيهم أنكروا

إكرام الله له وتأنيده بها ، كما فعل فرعون وقومه عقب آيات موسى ، وكما فعل مشركو مكة إثر التحط الذي أصابهم بدعاء رسول الله ﷺ عليهم ، ثم رفع عنهم بدعائه فما زادهم ذلك إلا كفراً وجحوداً ، ومكراً وكنوداً .

أخرج الشيخان من حديث عبد الله بن مسعود [رض] أن قريشاً لما استمعوا على رسول الله ﷺ دعا عليهم بسنين كسني يوسف فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام والميتة من الجهد ، حتى جعل أحدهم يرى ما بينه وبين السماء كهيئة الدخان من الجوع ، فأنزله الله تعالى (فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين * يغشي الناس هذا عذاب أليم) فأتى رسول الله ﷺ فقيل له يا رسول الله استق

لمضر فإنها قد هلكت فقال « مضر ؟ » متعجباً ، وفي رواية فجاءه أبو سفيان فقال يا محمد انك جئت تأمرنا بصلاة الرحم وإن قومك قد هلكوا فادع الله ، فدعاهم فكشف الله عنهم العذاب ومظروا ، فعادوا إلى حالهم ومكرهم الأول الذي تقدم فيه قوله تعالى

(٨ : ٣٠) وإذا يكر بك الذين كفروا) الآية ، وقد بين في تفسيرها وتفسير آية (٧ : ٩٨) وآية (٣ : ٥٤) معنى المكر في اللغة وكونه حسناً وسيئاً ومعنى استناده إلى الله تعالى . وخلصته إن المكر عبارة عن التدبير الخفي الذي يفضي بالماكر به إلى ما لا يحتسبه ولا يتوقعه ، وإن مكره تعالى وهو تدبيره الذي يخفي على الناس إنما يكون بإقامة سننه وإتمام حكمه في نظام العالم وكرهه حق وعدل وحسن ، ولكن ما يسوء الناس منه يسمونه مكرًا وسوءًا ، وإن كان جزاء عدلاً ، ويراجع تحقيقه في الجزئين ٣ و ٩ من

التفسير ﴿ قل الله أسرع مكرًا ﴾ أي قل أيها الرسول لهؤلاء الذين يسرعون في المكر كما دلت عليه المفاجأة : إن الله تعالى أسرع مكرًا منكم ، إذ سبق في تدبيره لأموال العالم وتقديره للجزاء على الاعمال قبل وقوعها إن يعاقبكم على مكركم في الدنيا قبل الآخرة ، وهو عالم به لا يخفى عليه شيء منه ، وأكد هذا بقوله ﴿ إن رسلاًنا

يكتبون ما تكرون ﴾ يعني الحفظة من الملائكة الذين وكلهم الله تعالى بإحصاء أعمال الناس وكتبتها لحساب عليها في الآخرة . وكتابة المكر عبارة عن كتابية متعلقة من الأعمال الآتية كان هو الباعث عليها ، ويجوز أن تكتب نيتها وهي العنى

المصدرى العكس . والجملة تنمة الجواب الذي لقنه الله لنبيه ﷺ بناء على أنه يبلغه عنه عز وجل بلغظه الموحى إليه لا بمعناه ، ولذلك يدخل في التبليغ لفظ (قل) وهو خطاب الله له ﷺ مع مقوله الخاص بهم كقوله (قل يا أيها الكافرون) وأمثاله الكثيرة في القرآن ، بل أقول أنه ﷺ بلغنا الآية برمتها: ما حكاه تعالى عنهم وما أمره أن يجيبهم به ، وقد يكون ذلك في ضمن السورة كلها لا وحده ، برمثل هذا يقال في أمثاله .

فلم بهذا أنه ليس المراد أن يقول ﷺ لهم كلمة « الله أسرع مكرراً » من قبل نفسه فيستشكل الالتفات فيها عن الغيبة إلى التكلم في « ان رسلنا » بل هو جار على سنة القرآن فيه ، وهو أبلغ في تصوير تسخير الله تعالى للملائكة في كتابة الأعمال من التعبير بضمير الغيبة (ان رسله يكتبون) الخ لان في ضمير الجمع من تصوير العظمة في هذا التدبير العظيم ، والنظام الدقيق ، ما يشعر به كل من له ذوق في هذه اللغة سيدة اللغات ، التي اعترف علماء اللغات من الافرنج بأنها تفوق جميع لغاتهم ، في التعبير عن صفات الله تعالى وكاله وعظمته ^١ ومثل هذا الالتفات فيها قوله تعالى في آخر سورة المكف (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً) وقرأ نافع ويعقوب [يمكرون] بالثناة التحتية وفائدته الاعلام بأن ذلك شامل للغائبين كالحاضرين

وقد فصلنا القول في كتابة الملائكة الحفظة لأعمال الناس وحكمتها في تفسير (٦١ : ٦) وهو القاهر فوق عباده ويرسل عليكم حفظة) من سورة الانعام وشرحنا قبلها مسألة كتابة مقادير الخلق كلها في تفسير الآية (٥٩) وعنده مفاصيح الغيب منها فيراجع الموضوع كله في جزء التفسير السابع من شاء ، ومن اكتفى بالاجمال فحسبه الايمان بأن الملائكة تكتب الأعمال كتابة غيبية لم يكلفنا الله تعالى معرقة صفتها ، وانما كلفنا أن نؤمن بأن له نظاما حكما في إحصائها ، لاجل مراقبنا له فيها ، نلتزم الحق والعدل والخير ونجتنب تضادها

ومن مباحث اللفظ في الآية ان اسم التفضيل [اسرع] فيها على أصله من الفعل الثلاثي : سرع كضخم وحسن سرعا وسرعة فهو سارع وسريع وسراع . والمستعمل بكثرة الرباعي أسرع ، وفي اللسان ان سينويه فرق بينهما فقال : اسرع طلب ذلك من نفسه وتكافئه كأنه اسرع المشي اي عجله ، واما سارع فكأنها غريزة ، وان ابن جنى استعمل اسرع متعديا ، اه وجوز بعض النحاة كون اسم التفضيل من مثل أسرع مطلقا ، أو إذا لم تكن همزته للتعدية ثم ضرب الله تعالى مثلا لظؤلاء الناس هو من أبانغ أمثال القرآن فقال :

﴿ هو الذي يسيركم في البر والبحر ﴾ السير المضي والانتقال من مكان إلى آخر . والتسيير جعل الشيء أو الشخص يسير بتسخيره أو إعطائه ما يسير عليه من دابة أو مركبة أو سفينة ، اي ان الله تعالى هو الذي يسيركم أيها الناس في البر والبحر بما وهبكم من القدرة على السير ، وما سخر لكم من الابل والدواب والفلك التي تجري في البحر (وزادنا في هذا العصر القطارات والسيارات البخارية والطائرات التي تسير في الجواء) ﴿ حتى اذا كنتم في الفلك ﴾ اي حتى اذا كنتم في إحدى حوادث سيركم البحري راكبين في الفلك التي سخرها لكم ، والفلك بالضم اسم للسفينة المفردة وجمعها وهو السفن والسفائن [مفردة وجمعه واحد] والمراد به هنا الجمع إذ قال ﴿ وجرين بهم برح طيبة ﴾ أي وجرت هذه الفلك بمن فيها بسبب برح طيبة اي رخاء مواتية لهم في جهة سيرهم ، والطيبة من كل شيء ما يوافق الغرض والمنفعة ، يقال رزق طيب ونفس طيبة ، وبلدة طيبة وشجرة طيبة . وفي قوله [بهم] التفات عن الخطاب إلى الغيبة فأيده كما قال الزمخشري المبالغة كأنه يذكر غيرهم حالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الانكار والتقبيح لها ، اي لما وصفهم به بعد ذلك من كفر النعمة ﴿ وفرحوا بها ﴾ لما يكون لهم في هذه الحالة من الراحة والانتعاش والامن من دوران البحر والتمتع بمنظره الجميل ، في ذلك الهواء العليل ﴿ جاءتها ريح عاصف ﴾ « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٣ » « الجزء الحادي عشر »

اي جاءت الفلك أو الريح الطيبة اي لاقتها ربح شديدة قوية يقال عصفت الريح فهي عاصف وعاصفة اي تصف الاشياء وتكسرهما فتكون كعصف النبات وهو الحطام المتكسرة منه ﴿ وجاءم الموج من كل مكان ﴾ اي واضطرب البحر وتموج سطحه كله فتلقاهم موجه من جميع الجوانب والنواحي بتأثير الريح ، فهي أنواع منها ما يهب من ناحية واحدة كالرياح الاربع ، ومنها النكباء وهي المنحرفة التي تقع بين ريحين مختلفتين ، ومنها المتناوذة التي تهب من جميع النواحي ، ومنها الاعصار وهي التي تدور فتكون عمودية فيرتفع بها ما تدور عليه من التراب والحصى من الارض ، و الماء من سطح البحر بما عليه وما فيه من سمك وغيره ثم باقى في مكان آخر ﴿ وظنوا أنهم أحبط بهم ﴾ اي اعتقدوا اعتقاداً راجحاً انهم هلكوا باحاطة الموج من كل جانب ، كما يحيط العدو المحارب بعدوه إذ يظوقه بما يقطع عليه سبل النجاة . ذلك بأن فعل العاصف يهبط بهم في ليج البحر تارة كأنهم سقطوا في هاوية سحيقة ، ولا يابث ان يثب بهم الى أعلى غوارب الموج كأنهم في قبة جبل شاهق اصابه رجفة زلزلة شديدة ﴿ دعوا الله مخلصين له الدين ﴾ هذا جواب لما تضمنه قوله تعالى (حتى اذا استم في الفلك) الخ ، اي حتى اذا ما نزل بهم كل ذلك من نذر العذاب ، وتقطعت بهم دون النجاة جميع الاسباب ، دعوا الله في كشفه عنهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون معه الى ولي ولا شفيع ، ولا ند ولا شريك .

من كانوا يتوسلون بهم اليه في حال الرخاء عازمين على طاعته قائلين ﴿ لئن أنجبتنا من هذه لنكونن من الشاكرين ﴾ اي تقسم لك ياربنا لئن أنجبتنا من هذه التهلكة أو العاصفة لنكونن لك من جماعة المؤمنين الشاكرين لنعانك لانكفر منها شيئاً ، ولا نشرك بك أحداً ، ولا ندعو من دونك ولياً ولا شفيعاً ، ولا نتوجه في تفريج كربنا وقضاء حاجتنا إلى وثن ولا صنم ، ولا الى ولي ولا نبي ولا ملك ، وفي هذه الآية وأمثالها بيان صريح لكون المشركين كانوا لا يدعون في أوقات الشدائد وتقطع الاسباب بهم الا الله ربهم ، ولكن من لا يخصص عددهم من مساوي هذا الزمان يزعمهم لا يدعون عند أشد الضيق الا معبودهم من الميتين كالبديوي والرافعي والسوقوي

والجباري والتبولي وابي سريع وغيرهم ممن لا يحصى عددهم، ومحمد من حملة العمائم الازهرين وغيرهم ولا سيما سدنة المشاهد المعبودة الذين يتمتعون باوقافهم وندورها من يعربهم بشر كمهم ويتأوله لهم بتسميته بغير اسمه في الامة العربية كالتوسل وغيره وقد سمعت من كثير من الناس في مصر وسورية حكاية بقولها ربما تكررت في القطرين لنشابه أهلها وأكثرت مسلمي هذا العصر في خرافاتهم وما خصها ان جماعة ركبوا البحر فهاج بهم حتى أشرفوا على الفرق فصاروا يستغيثون معتقدتهم فبعضهم بقول ياسيد يابدوي وبعضهم يصيح يازفاعي وآخرهم بنف يا عبد القادر يا جباري ... الخ وكان فيهم رجل موحد ضاق بهم ذرعا فقال: يا رب اغرق اغرق به ما بقي أحد يعرفك .

وفي هذا المعنى قول السيد حسن صديق الهندي في الكلام على الآية من تفسيره فتح الرحمن :

« وفي هذا دليل على ان الخلق جبلوا على الرجوع الى الله في الشدائد، وان المضطر يجاب دعاؤه وإن كان كافراً ، وفي هذه الآية بيان ان هؤلاء المشركين كانوا لا يهتمون الى أصنامهم في هذه الحالة وما شابهها ، فباعتبار ما حدث في الاسلام من طوائف يعتقدون في الاموات ، فاذا عرضت لهم في البحر مثل هذه الحالة دعوا الاموات ولم يخلصوا الدعاء لله كما فعله المشركون كما تواتر ذلك بينا تواتراً يحصل به القطع ، فانظر هداك الله ما فعلت هذه الاعتقادات الشيطانية ؟ و أين وصل بها أهلها ؟ والى أين رمى بهم الشيطان ؟ وكيف اقتادهم وتسلمت عليهم حتى اقتادوا له اقتياداً ما كان يطعم في مثله ولا في بعضه من عباد الاصنام ، فانا لله وانا اليه راجعون . »

وقال السيد محمود الالوسي العراقي في تفسيرها من روح المعاني مانصه :

أي دعوه تعالى من غير أشراك لرجوعهم من شدة الخوف الى الفطرة التي جبل عليها كل أحد من التوحيد وأنه لا متصرف إلا الله سبحانه المر كوز في طبائع العالم . وروي ذلك عن ابن عباس ، ومن حديث أخرجه أبو داود والنسائي

وغيرهما عن سعد بن ابي وقاص قال : لما كان يوم الفتح فر عكرمة بن ابي جهل
 فركب البحر فأصابتهم عاصف فقال أصحاب السفينة لاهل السفينة أخلصوا فان
 آلهتكم لاتعني عنكم شيئا ، فقال عكرمة لئن لم ينجني في البحر الا الاخلاص
 ما ينجيني في البر غيره ، اللهم ان لك عهداً ان أنت عاقبتني مما أنا فيه ان آتي
 محمداً حتى أضع يدي في يده فلا أجده عفواً كريماً ، قال فجاء فأسلم ، وفي رواية
 ابن سعد عن ابي مليكة ان عكرمة لما ركب السفينة وأخذتهم الزح فعملوا يدعون
 الله تعالى ويوحّدونه قال ما هذا ؟ فقالوا هذا مكان لا ينفع فيه إلا الله تعالى ، قال
 فهذا إله محمد ﷺ الذي يدعوننا اليه فأرجعوا بنا فرجع وأسلم . وظاهر الآية انه
 ليس المراد تخصيص الدعاء فقط به سبحانه ، بل تخصيص العبادة به تعالى أيضاً (١)
 لانهم بمجرد ذلك لا يكونون مخلصين له الدين ، وأيا ما كان فلاية دالة على ان
 المشركين لا يدعون غيره تعالى في تلك الحال ، وأنت خبير بأن الناس اليوم اذا
 اعترام أمر خطير ، وخطب جسيم ، في بر او بحر ، دعوا من لا يضر ولا ينفع ، ولا
 يرى ولا يسمع ، فمنهم من يدعو الخضر والياس ، ومنهم من ينادي أبا الخليس
 والعباس ، ومنهم من يستغيث بأحد الائمة ، ومنهم من يضرع الى شيخ من
 مشايخ الامة ، ولا ترى فيهم أحداً يخص مولاه ، بتضرعه ودعاه ، ولا يكاد ير
 له ببال ، انه لو دعا الله تعالى وحده ينجو من هاتيك الاهوال ، فبالله تعالى عليك
 قل لي أي الفريقين من هذه الحبشية أهدى سبيلا ، وأي الداعيين أقوم قبلا ، والى
 الله تعالى المشتكى من زمان عصفت فيه ريح الجهالة ، وتلاطمت أمواج الضلالة ،
 وخرقت سفينة الشريعة ، واتخذت الاستغاثة بغير الله تعالى للنجاة ذريعة ، وتعدر
 على العارفين الامر بالمعروف ، وحالت دون النهي عن المنكر صنوف الختوف اه
 أقول يعني الشهاب الآلوسي رحمه الله إن فشو هذا الشرك في الناس عامتهم
 وشيوخ البدع من علمهم ، والمنافقين من حكامهم ، جعل نهى العارفين عنه ،
 وأمرهم بالتوحيد المحض ، من الامور المتعدرة ، التي يخشى على المجاهر بها الختوف
 (١) الدعاء بخ العبادة فكان ينبغي ان يقول : بل تخصيص كل عبادة به ايضا

والملكة . ونحن ما أمكننا هذه المجاهرة في مصر الا بما رسخ فيها من الحرية المطلقة بتفريح الحكومة . ولما جهرت بها أول مرة في درس عام بالمسجد الحسيني سنة ١٣١٦ هاج علي الناس هيجة شؤمى ، وحاول بعضهم أن يقتلني جبراً ، فلما يقول شيخ الازهر ومحردو مجلة المشيخة (نور الاسلام) في السيد الآلوسي وفي السيد حسن صديق ؟ لا يبعد أن تطامن هذه المجلة في دينهما وعقيدتهما كما طمعت على دين الامام الشوكاني في جزئها الذي صدر أثناء كتابتنا لتفسير هذه الآية .

﴿ اهتداء بارح انكليزي بهذه الآية وأمثالها ﴾

ساق الله تعالى نسخة من ترجمة القرآن العظيم باللغة الانكليزية الى بارح من رباين البواخر الكبرى التي تمخر البحار بين انكلترة والهند فرأى فيها ترجمة هذه الآية فراعته بلاغة وصفها لطفيان البحر واصطخابه وما تفعله الرياح الموسمية العاتية بالبواخر والبوارج العظيمة في المحيط الهندي في فصل الصيف ، فطفق يتأمل سائر الآيات في وصف البحر ، والسفائن الكبرى فيه التي وجدت في هذا العصر ولم يكن لها نظير في عصر النبي ﷺ كقوله تعالى (صرح البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لا يبغيان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان * فبأي آلاء ربكما تكذبان * وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) ورأى ان المترجم الانكليزي ينقل عن أشهر تفاسير القرآن لبعض علماء المسلمين التي ألفت بعد افتتاح العرب للمالك واستيلائهم على البحار انهم لم يكونوا يعرفون ما عرفه الانكليز وغيرهم من بعدهم ان اللؤلؤ والمرجان يخرج من البحار الحلوة كما يخرج من البحار المالحة فتأولوا قوله تعالى (يخرج منها اللؤلؤ والمرجان) بأنه يخرج من مجتمعهما الصادق بأحدهما لأنه يزعمهم يخرج من البحر الملح فقط ، غافلين عن قوله تعالى (ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها) ونبه نظره تشبيه الجوارى المنشآت بالأعلام في هذه الآية وفي قوله تعالى (٤٢ : ٣٢) ومن آياته الجوارى في البحر كالأعلام * إن يشأ يسكن الريح فيظللان رواكد على ظهره) والعلم الجبل ، وأصلها أعلام الطريق العالية التي تعرف بها المسالك ، أطال الفكر هذا

الربان الانكليزي في هذه الآيات فتعمد أن يعرف بمض المسلمين في بعض ثغور الهند ، فسألهم أنعلمون ان نبيكم محمداً ﷺ سافر في البحار ؟ قالوا لا انه لم يرو عنه انه سافر في البحر قط ، فاعتقد ان مافي القرآن مما ذكر لم يكن إلا بوحى من الله تعالى لهذا النبي العظيم ، وأعظم منه ما فيه من آيات التوحيد والتشريع والتهديب ، التي هي أكل وأقرب الى العقل والفكرة من كل مافي التوراة والانجيل ، فأسلم عن علم وبصيرة ، وظل زمنا طويلا يتعبد بما يفهمه من ترجمة القرآن ، حتى أتبع له ترك عمله في البحار ، فأقام في مصر وتعلم العربية وعاشر فضلاء المصريين ، وهو مستر عبد الله براون رحمه الله تعالى ، وأنا قد أدر كنه وعرفته ، ولا يزال في مصر من يعرفه ، وقد ضرب الاستاذ الامام به المثل في صلته التي كان يصلها في البحر بقدر ما يفهم من القرآن بكل خشوع وتوجه إلى الله تعالى ، في كلام له في روح الصلاة ومعناها ، وصورتها وأركانها ، قال قد كانت تلك الصلاة أقرب الى مرضاة الله تعالى وقبوله من الصلاة الصورية التقليدية التي يمثلها من لا يخطر في قلوبهم فيها أنهم متوجهون الى الله ومناجرون له مع استشعار عظمتة ووحدانيتة الخ

قال تعالى في وصف أولئك القوم ﴿ فلما أنجاهم اذا هم يبغون في الارض ﴾ أي اذا هم يفاجئون الناس في الارض التي يهبطون اليها بالبغى عليهم وهو الظلم والعدوان والافساد يعنون في ذلك ويضرون عليه ، وأصل البغي طلب ما زاد على القصد والاعتدال ، إلى الافراط المفضي الى الفساد والاختلال ، من بغي الجرح اذا زاد حتى ترمى إلى الفساد ، ومنه قولهم : بغت السماء ، اذا تجاوزت في المطر الحد المحتاج اليه للزرع والشجر وامداد البنابيع ، وبغت المرأة اذا تجاوزت في بضعها الحلق الخاص بالزوج الى الفجور ، والاصل فيه أن يكون كما وصفه ﴿ بغير الحق ﴾ فتكون الصفة كاشفة للواقع للتذكير بقبحه وسوء حال أهله ، وقد يكون البغي وهو تجاوز حد الاعتدال بحق اذا كان عقابا على مثله أو ما هو شر منه كما يقع في الحروب وقتال البغاة من اضطرار أهل الحق والمعتدى عليهم ، الى تجاوز الحدود في أثناء الدفاع عن أنفسهم ، وقد قل تعالى (٤٢ : ٣٧) والذين اذا أصابهم

(يونس : ١٠) عود البغي على الباغي في الدنيا وعقابه في الآخرة ٣٤٣

البغي هم ينتصرون -- الى قوله -- انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون
في الارض بغير الحق) وقال في بيان اصول الجرائم (٧: ٣٢ قل انما حرم ربي
اللفواحش ما ظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق) الخ

﴿ يا أيها الناس انما بغيتكم على أنفسكم ﴾ هذا التفات عن حكاية المثل الى
مخاطبة البغاة أيما كانوا ، وفي أي زمان وجدوا ، مبدوءاً بالنداء الذي يصبح به
الواعظ المنذر بالبعيد في مكانه ، أو العاقل الذي يشبهه الغائب في حاجته الى من
يصبح به لينبهه ، يقول يا أيها الضالون عن رشدكم ، الغافلون عن أنفسكم ، حسبكم
بغياً على المستضعفين منكم ، وغروراً بكبرياتكم وقوتكم ، انما بغيتكم في الحقيقة على
أنفسكم ، لان عاقبة وبالها عائدة عليكم ، أو لان من تبغون عليهم من قومكم أو من
أبناء جنسكم ، كقولهم (ولا تقتلوا أنفسكم) المراد به ولا يقتل بعضهم بعضاً ،
والشر داعية الشر ، ﴿ متاع الحياة الدنيا ﴾ اي حال كون بغيتكم او تتمتعون ببغيتكم متاع
الحياة الدنيا الفانية الزائلة ، فهو ينقضي وعقابيله باقية ، وأقلها توبيخ الوجدان ،
وقرأ الجمهور « متاع » بالرفع على انه خبر لما قبله وفيه وجهان ، أو على تقدير هو متاع
الحياة الدنيا ﴿ ثم انما مرجعكم ﴾ أي ثم انكم بعد هذا التمتع القليل ترجعون الينا وحدنا
﴿ فننبئكم بما كنتم تعملون ﴾ دائماً من الظلم والبغي والتمتع بالباطل مصرين فنجازيكم به
دلت الآية على ان البغي يجازى أصحابه عليه في الدنيا والآخرة ، فاما في
الآخرة فهو مادل عليه انذار أهله الرجوع الى الله وانباؤه إياهم بما كانوا يعملونه ،
إذ المراد به لازمه وهو الجزاء به ، وقد تكرر مثله في التنزيل . واما في الدنيا فهو
قوله تعالى (انما بغيتكم على أنفسكم) ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « ما من ذنب يعجل الله
لمصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم » رواه
احمد والبخاري في الادب المفرد والترمذي وابن ماجه والحاكم من حديث أبي
بكر (رض) وأخرج ابن عدي وابن النجار من حديث علي (رض) مرفوعاً
« احذروا البغي فانه ليس من عقوبة هي أحضر من عقوبة البغي !! » والترمذي

وابن ماجه عن عائشة « أسرع الخير ثوابا البر وصللة الرحم ، وأسرع الشر عقوبة البغي وقطيعة الرحم » وأخرج البخاري في الادب المفرد عن ابن عباس موقوفا « لو بغي جبل على جبل لذلك الباغي » ورواه ابن مردويه مرفوعا وموقوفا والموقوف أصح كما قال ابن ابي حاتم وفي الجامع الصغير عن ابي هريرة بزيادة « لذلك الباغي منها » أخرجه ابن لال بسند ضعيف .

وأخرج أبو الشيخ وابن مردويه وأبو نعيم والخطيب في تاريخه والديلمي في مسند الفردوس عن أنس (رض) قال قال رسول الله ﷺ « ثلاث هن رواجع على أهلها : المنكر والنكث والبغي » ثم تلا رسول الله ﷺ (يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم * ولا يحيق المنكر السيء إلا بأهله * ومن نكث فإني نكث على نفسه) والمراد نكث اليهود مع الله أومع الناس وأخرج الحاكم وصححه والبيهقي في شعب الايمان عن أبي بكره قال قال رسول الله ﷺ « لا تبغ ولا تكن باغيا فان الله يقول (إنما بغيكم على أنفسكم) وأخرج ابن ابي حاتم مثله عن الزهري وأقول أنه يجب علينا ان نرجع في تحقيق الحق في هذا الموضوع الى سنن الله تعالى في العمران وطبائع الأجماع البشري التي تثبتها وقائع التاريخ ، فهي التي تفسر لنا ان البغي - وهو من أخص ضرور الظلم للناس - يرجع على فاعله ، ذلك بأنه سبب من أقوى أسباب العداوة والبغضاء بين الافراد ، وإيقاد نيران القتل والثورات في الاقوام ، فالفرد الذي يبغي على مثله يخاق له بغيه عدواً أو أعداء ممن يبغي عليهم ، ومن يكرهون البغي وأهله ، فوجود الاعداء والمبغضين ضرب من ضرور العقوبة وإن لم يستطيعوا إبداء الباغي لمجزم ، فكيف اذا قدروا وفعّلوا وهو الغالب ؟ وأما بغي الملوك والحكام على الاقوام والشعوب فأهون عاقبته عداوتهم والظلم عليهم ، وقد تفضي الى اغتيال اشخاصهم ، أو الى ثل غر وشهم والقضاء على حكمهم ، إما بشورة من الشعب تستبدل بها عرشاً بعرش ، او نوعا من الحكم بنوع آخر ، وإما باغارة دولة قوية على الدولة التي يضعفها البغي تسلبها استقلالها ، وتستولي على بلادها ، ولا تنس ما تكرر عليك في هذا التفسير من ان ذنوب الافراد من بغي وظلم وغيرهما لا يطرد العقاب عليها في الدنيا بخلاف ذنوب الامم

والدليل ، فان عقابها اترطيمي اظلمها وفسادها . وانما يوفى كل أحد جزاءه في الآخرة
(فان قيل) إن الارض كلها تستغيث ربها من بغي دول أوربة وظلمها ، فما
لنا لانرى بغيها يعود وباله عليها ، وما لنا لانرى وعيده تعالى للظالمين نازل بها ،
ومديلا للشعوب الشرقية المظلومة منها ومن شعوبها المؤيدة لها

(قلنا) ان هذا السؤال ماجاء إلا من الغفلة عن الامر الواقع ، والجهل بسنن
الله في العمران ، فان في بلاد هذه الدول من المصائب والنوائب والجوائح والفقر
ما هو أشد مما في بعض بلاد الشرق ، وانها قد قتلت من رجالها في الحرب الاخيرة
العامة أضعاف من قتلتهم بغياً وعدواناً من أهل الشرق منذ اعتدت عليهم الى
اليوم ، وانها قد خربت من عمراتها أكثر مما خربت في الشرق ، وانها قد خسرت
من أموالها في أربع سنين أضعاف ما ربحت من الشرق في مائة سنة ، وان ما بين
شعوبها بعضها لبعض من الاحقاد والاضغان ، وتربص الدوائر الوثبان ، والمفتك
بالارواح وتدمير العمران ، لأشد مما في قلوب شعوب الشرق لظالمهم ومستدليهم
منهم - فهذا بعض انتقام العدل الالهي المشاهد

فأما الجوائح السابوية فلا يعتبرون بها ، لانهم يسندونها الى أسبابها ما صح
منها وما لم يصح ، ففكرهم في آياته أشد من مكر من قبايلهم . وأما المصائب الكسبية
فيتوخون تخفيئها ، وتلافي شرورها ، بالمفاوضات والمؤتمرات ، وهيبات هيبات .
وأما ما تنمناه من الادالة لشعوبنا منهم فلا تزال غير أهل له لما هي عليه من
الجهل وفساد الاخلاق ، والتقاطع واتخاذ ، وترك كل ما هداها الله اليه في كتابه .
من أسباب السيادة والاستخلاف في الارض كما نهبنا اليه آنفاً ، وشرحناد في تفسيرنا
هذا لايات كتابه مراراً ، ومن السكبرة للحسن ان ننكر ان أكثر ما في بلادنا من
عمران فهو من عملهم ، وإن كان جله لمصلحتهم ، وان من يستخدمون من ملوكنا
وأمرائنا وحكامنا هم شر علينا منهم ، بل لم يسودونا ويغلبونا في قطر من أقطارنا .
إلا بمساعدة سادتنا وكبرائنا إياهم علينا (٥٣ : ٨) ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمته
انعمها على قوم حتى يغيروا ما بآبائهم) فراجع تفسيره في ص ٣٦ - ٤٧ من جزء
التفسير العاشر (تعلم اننا اذا غيرنا ما بآبائنا الان ، بما كان عليه سلفنا من إيمان وأخلاق

تبيها الاعمال ، وأولها الجهاد بالنفس والمال ، فان كل ما سلب منا يرجع الينا ،
ونزاد عليه بالسيادة على غيرنا ، ولو اتبموا هم كتابنا كله لاصلحوا الارض كلها .

ضرب الله هذا المثل هنا للكافرين بنعمه من الباغين في الارض والظالمين
للناس ، فذكر من اخلاصهم في دعائه عند الشدة أنهم يقسمون له اثن انجاءهم
منها ، ليكون من الشاكرين له عليها ، وضر به في اواخر سورة العنكبوت للمشركين في
عبادته ، من المؤمنين برؤيته ، فقال (٢٩ : ٦٥) فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله
مخلصين له الدين فلما نجاهم الى البر اذا هم يشركون (وضر به في اواخر سورة
لقمان لجميع اصناف الناس فقال (٣١ : ٣١) ألم تر ان الفلك تجري في البحر بنعمة
الله ليريك من آياته ان في ذلك لايات لكل صبار شكور ٣٢) واذا غشيهم موج
كالتظان دعوا الله مخلصين له الدين ، فلما نجاهم الى البر فنهم مقتصد ، وما يجحد
بآياته إلا كل ختار كفور) الختار الكفور هنا ضد مقابل للصابر الشكور فيما قبله ،
والختار العذر الذي يحمل عليه ضعف الارادة

والعبرة في هذه الآيات كلها انه تعالى أخبر عن المشركين به . وعن الكافرين
بنعمه ، وعن الختارين الفاقدين للفضيقي الصبر والشكر ، أنهم كاهم يدعونه في شدة
الضيق ومساورة خطر البحر لهم مخلصين له الدين ، لا يتوجهون الى غيره من اتخذهم
شركاء لله تعالى بعبادتهم لهم وتوساهم بهم واتخاذهم وسطاء عنده ، وانهم انما
يقترفون هذا الشرك وما يناسبه من البغي والظلم وكفر النعمة بعدم اسنادها الى
المنعم الحقيقي في اوقات التمتع بها والسلامة من مناصاتها ، وان الذين يثبتون على
التوحيد وشكره هم المقتصدون أي المعتدلون في عقائدهم وأخلاقهم فلا تنظهم
الشدة ، ولا تبطروهم النعمة

ولكن يوجد في زماننا من هم أشد شركا وكفرا بالنعم والمنعم وهم قوم يدعون
غيره من دونه في أشد اوقات الضيق والخطر ، ويدعون مع ذلك أنهم مسلمون
موحيدون لأنهم ينظمون بكلمة التوحيد الموروثة بألسنتهم وهم لا يعقلون معناها
بوالله تعالى يقول (فأعلم انه لا إله إلا الله) ولا حول ولا قوة إلا بالله

(٢٤) إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَنتَبَهْنَا لَمَّا تَنِىَّ أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبِ بِالْأَنْعَامِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

لما كان سبب ما ذكر من البقي في الارض وفساد العمران هو الافراط في حب التمتع بما في الدنيا من الزينة واللذات ضرب لها مثلاً بليغاً يصرف العاقل عن الغرور بها ، ويهديه إلى القصد والاعتدال فيها ، واجتناب التوسل اليها بالبقي والظلم ، وحب العلو والفساد في الارض ، وهو عبارة عن تشبيه زينتها ونعيمها في افتتان الناس بهما وسرعة زوالها بعد تمكنهم من الاستمتاع بها ، بحال الارض يسوق الله اليها المطر فنبتت أنواع النبات الذي يسر الناظرين بهيجته ، فلا يلبث أن تنزل به جامحة تحسه وتستأصله قبيل بدو صلاحه والانتفاع به ، قال عز وجل

﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلْنَا مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أي لاشبه لها في صورتها وما لها بالإلاماء المطر في جملة حاله الآتية ﴿ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ ﴾ أي فأنبئت الارض أزواجاً شتى من النبات تشابكت بسببه واختلط بعضها ببعض في مجاورها وتقاربها ، على كثرتها واختلاف أنواعها ﴿ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ ﴾ بيان لأزواج النبات وكونها شتى كافية للناس في أقواتهم ومرامى انامهم ، وكل مرامي آملهم ﴿ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ ﴾ أي حتى كانت الارض بها في خضرة زروعها السنديسية ، وألوان أزهارها الربيعية ، كالبروس إذا أخذت حليها من الذهب والجواهر ، وحلها من الحرير الملون بالالوان المختلفة ذات البهجة ، فنتحت وازينت بها استعداداً للقاء الزوج - ولا نفعل عن حسن

الاستعارة في أخذ الارض زينتها ، حتى كان استكمال جمالها ، كأنه فعل عاقل حريص علي منتهى الابداع والانتقان فيها (صنع الله الذي أنقن كل شيء) ﴿ وظن أهلها أنهم قادرون عليها ﴾ متمكنون من التمتع بثمراتها ، وادخار غلاتها ، ﴿ أتأها أمرنا ليلاً أو نهاراً ﴾ أي نزل بها في هذا الحال أمرنا لنقدر لاهلاكها بجائحة مساوية ليلاً وهم نائمون ، أو نهاراً وهم غافلون ﴿ فجعلناها حصيداً ﴾ أي كالارض المحصودة التي قطعت واستوصل زرعها ، فالحصيد يشبه به الهالك من الاحياء كما قال في أهل القرية الظالمة المهلكة (فجعلناهم حصيداً خامدين) ويشبه هذا الهلاك في نزوله في وقت لا يتوقعه فيه أهله قوله (أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون * أو أمن أهل القرى ان يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون) ﴿ كأن لم تغن بالامس ﴾ أي هلكت فجأة فلم يبق من زروعها شيء ، حتى كأنها لم تنبت ولم تمت قائمة نضرة بالامس ، يقال غني في المكان اذا أقام به طويلاً كأنه استغنى به عن غيره ، قال تعالى في الاقوام الهالكين في أرضهم (كأن لم يغنوا فيها) والامس الوقت الماضي ، وقال الزمخشري في الكشاف : والامس مثل في الوقت القريب كأنه قيل : كأن لم تغن آنفاً هو وأما أمس غير معرف فهو اسم لليوم الذي قبل يومك ﴿ كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون ﴾ أي كهذا المثل في جلانه وتمثله لحقيقة حال الحياة الدنيا وغرور الناس فيها وسرعة زوالها ، عند تعلق الآمال بنو الهاء ، فنصل الآيات في حقائق التوحيد وأصول التشريع وأمثال الوعظ والتثديب وكل ما فيه صلاح الناس في عقائدهم وأخلاقهم ومعاشهم ، واستعدادهم لمعادهم ، أقوم يستعملون عقولهم وأفكارهم فيها ، ويزنون أعمالهم بموازينها ، فيتدينون ربها وخسرانها

والعبرة لمسلمي عصرنا في هذه الآيات البيئات المنزلة وأمثالها التي اهتدى بها الشعب العربي فخرج من شركه وخرافته وأميته وبدلته الى نور التوحيد والعلم والحكمة والحضارة ، ثم اهتدى بدعوتها اليها الملايين من شعوب المعجم ، فشاركته في هذه السعادة والنعمة ، انه لم يبق لهم حظ منها الا ترتيبها بالنعمة في بعض المواسم

والمآثم، ولا يخطر لهم ببال انه يجب عليهم التفكير فيها للاهتداء بها، ولو تفكروا لاهتدوا
وإذا علموا أن كل ما يشكو منه البشر من الشقاء بالامراض الاجتماعية والروحية ،
والذائل النفسية، والعداوات القومية، والحروب الدولية ، فانما سببه التنافس في متاع
هذه الحياة الدنيا، وان من تفكر في هذا وكان على بصيرة منه، فهو جدير بأن يلتزم
التقصد والاعتدال في حياته الدينية المادية، ويصرف جل ماله وهيمته في اعلاء كلمة الله
وعزة اهل ملته ، وقوة دولته، والاستعداد لآخرته ، فيكون من أهل سعادة الدارين
وما صرف الناس عن هذا الاهتداء بكتاب الله ، وهو أعلى وأكمل ما أنزله
الله، إلا علماء السوء المتلدون الجامدون ، وزعمهم الباطل انه لم يبق في البشر أحد
أهلاً للاهتداء به وبيان الرسول ﷺ له ، لأن هذا يتوقف على ما يسمونه
الاجتهاد ، ويزعمون انه أصبح ضرباً من المحال ، وقد أنشأت مشيخة الازهر في
هذا المهدهي أكبر المعاهد الدينية الاسلامية بمجلة رسمية شهرية باسم (نور الاسلام)
تصرح بهذه الجهالة ، وتظمن على الدعاة الى هذه الهداية ، والى ترك البدع ، واتباع
السنة ، وانها لدراسة من عداوة الله ورسوله لم يبلغوا قعرها إلا بخذلان من الله

(٢٥) وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ
مُسْتَقِيمٍ (٢٦) لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ
غَمٌّ وَلَا ذِلَّةٌ ۗ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧) وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِنِجْمَةٍ ۖ وَمِثْلًا لِّمَا كَسَبَتْ أَلْسِنُهَا ۚ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ
مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا ۗ أُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

لما بين عز وجل غرور المشركين الجاهلين بمتاع الحياة الدنيا ففي عليه ببيان
ما يدعو اليه من سعادة الآخرة ووصف حال المحسنين والمسيئين فيها فقال
﴿والله يدعو الى دار السلام﴾ الجملة عطف على محذوف يدل عليه السياق

وقريئة المقابلة، أي ذاك الأينار لمتاع الدنيا والأسراف والبغي فيه، هو ما يدعو إليه الشيطان، فيسوق متبعيه إلى النار، دار الخزي والنكال، والله يدعو عباده إلى دار السلام وهي الجنة، وفي المراد بالسلام الذي أضيفت إليه الدار وجوه يصح أن تراد كلها (أولها) أنه السلامة من جميع الشوائب والمصائب والمعائب، والنقاص والأكدار، والعداوة والخصام (الثاني) أنه تحية الله وملائكته لاهلها وتحية بعضهم لبعض الدالة على تحابهم وتوادهم وقد تقدم شرحه قريبا (ثالثها) أن السلام من أسماؤه عز وجل وأضيفت دار النعيم إليه تعظيما لشأنها، وهو مصدر وصف به اللبا لغة كالعدل، ويدل على كمال التنزيه والسلامة من كل مالا يليق برب العالمين الرحمن الرحيم، وفي بعض الأحاديث إضافة هذه الدار إلى ضمير الذات (داري).

﴿ ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ عطف على ما قبله أي يدعو كل أحد إلى دخول دار السلام، ويهدي من يشاء إلى الطريق الموصل إليها من غير تعويق لأنه مستقيم لا عوج فيه ولا التواء، وهو الإسلام عقائده وفضائله وعباداته وأحكامه، والهداية في الأصل الدلالة بلطف، وتكون بالتشريع وهو بيانه، وهي عامة، وبالتوفيق للسير عليه والاستقامة الموصلة إلى الغاية وهي خاصة بالمستعدين لذلك، كما فصلناه في تفسير سورة الفاتحة، وهي المرادة هنا ولذلك قيدها بالمشيئة.

﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾ هذا بيان لصفة الذين هداهم إلى صراط الإسلام، فوصلوا بالسير عليه إلى غايته وهي دار السلام، أي للذين أحسنوا أعمالهم في الدنيا المثوبة الحسنى أي التي تزيد في الحسن على إحسانهم وهي مضاعفتها بعشرة أمثالها أو أكثر، كما قال في سورة النجم (ليجزى الذين أسأوا بما عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى) ولهم زيادة على هذه الحسنى، هي فوق ما يستحقونه على أعمالهم بعد مضاعفتها التي هي من جزائهمها تكن حسنة كما قال (٤: ١٧٣) فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفئهم أجورهم ويزيدهم من فضله) وقد ورد في الأحاديث الكثيرة من الطرق العديدة أن هذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله الكريم وهو أعلى مراتب الكمال الروحاني الذي لا يصل إليه المتقون المحسنون العارفون إلا في الآخرة. وقد فصلنا القول فيه في تفسير سورة الأعراف (ص ١٢٨ ج ٩) بما يقربه

من العقل والعلم العصري ، ويدحض شبهات المعتزلة المنكرين له بزعمهم انه محال عقلاً . وما هذا المحال إلا نظريات عقولهم التي تقيس علم الغيب على علم الشهادة ، وقد ظهر في هذا العصر من علوم المادة ما لم يكن يقبله عقل من العقول المقيدة بتلك النظريات المتولدة من الفلسفة اليونانية والكلام الجهمي فكيف يكون علم الغيب الالهي مقيداً بها ؟
وتم وراء العقل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة

﴿ ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة ﴾ رهق الرجل الشيء (كتب) أدركه ورهقه الشيء كالدين والذل غشيه ، وغاب عليه حتى غطاه وحجبه (ولا ترهقني من أمرى عسراً) لا تكلفني ما يفسد علي ، والقتر الدخان الساطع من الشواء والحطاب وكل غيرة فيها سواد . أي لا يغشي وجوههم في الآخرة شيء مما يغشى وجوه الكفرة العجزة من الكسوف والظلمة والذلة ، كما يأتي قريباً في المقابلة بين الفريقين
﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أولئك الموصوفون بما ذكر أصحاب الجنة دار السلام والاكرام ، خالدون مقيمون فيها لا يرحلون

﴿ والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها ﴾ جزاء وفاقاً ، لا يزدون على ما يسئحون بسيتاتهم من العذاب شيئاً ﴿ وترهقهم ذلة ﴾ أي تعشاهم ذلة الفضيحة وكسوف الخزي بما يظهره حسابهم من شرك وظلم وزور وخور ﴿ ما لهم من الله من عاصم ﴾ ما لهم من أحد ولا من شيء يعصمهم ويعنهم من عذاب الله ، كالذين اتخذوهم في الدنيا من الشركاء ، وزعموهم من الاولياء والشفعاء ، واتحلوهم من الوسائل والوسطاء ، لانه اليوم الذي تنقطع فيه الاسباب التي مضت بها سنن الله تعالى في الدنيا ، فإني تفيد فيه المزاعم الشركية الوهمية (يوم لا تلك نفس لنفس شيئاً والامر يومئذ لله) أو ما لهم من عند الله ومن فضله من عاصم يحفظهم من عذابه كعفو ومغفرته ، فإنه لا يعفر إن يشرك به ، كالشفعاء الذين يشعرون بأذنه لمن ارتضى من عباده اظهرا انكر امتيهم ، لان هذه الشفاعة الخاصة لا نصيب فيها لمنتحلي الشفاعة الشركية الذين كانوا يزعمون في الدنيا ان شفعايتهم تأثيراً في مشيئة الله وأفعاله حتى يحملوه على فعل ما لم يكن يفعل . لولا شفاعتهم ، فيجعلون ذاته وصفاته وأفعاله معلولة تابعة لما يطلبونه منه ، وأما

شفاة الايمان الصحيحة فهي تابعة لمشيئته ولرضائته (ولا يشعرون الا لمن ارتضى)

﴿ كأنما أغشيت وجوههم قطعا من الليل مظلماً ﴾ أي كأنما قد لوجوههم قطع من أديم الليل حالة كونه حالكا مظلماء، ليس فيه بصيص من نور قر طالع، ولا نجم ثاقب، فأغشيتها قطعة بعد قطعة، فصارت ظلمات بعضها فوق بعض، وأنه التشبيه عظيم في بلاغة المبالغة في خذلانهم وفضيحتهم التي تكسف نور الفطرة، وانظاها

ان سواد وجوههم حقيقي ومجازي ﴿ أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكرهم أصحاب النار خالدون فيها لا يرحلون عنها لأنه ليس لهم مأوى سواها كما تقدم في آية أخرى، وقد يدخلها بعض عصاة المؤمنين فيعاقبون على ما جترحوا من السيئات ثم يخرجون منها

هذا الوصف لاهل الجنة وأهل النار له نظير في آخر سورة الاعى (وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قبرة * أولئك هم الكفرة الفجرة) وفي سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة * الى ربها ناظرة * ووجوه يومئذ باسرة * تظن أن يفعل بها فاقرة) وهذه المقابلة في سورة القيامة توضح ان الزيادة على الحسنى في آية يونس هي مرتبة النظر الى الرب، فبسأله تعالى أن يجعلنا وأولادنا واهل بيتنا واخواننا الصادقين من أهلها

(٢٨) وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ
 أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ ، فَزَيْلْنَا بَيْنَهُمْ ، وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَارًا
 تَقْبَلُونَ (٢٩) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ، إِنَّ كُنَّا عَنْ
 عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٣٠) هُنَالِكَ تَبْلُغُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا
 إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ

هذا لون آخر من ألوان البيان لمقيدة البعث والجزاء وقد بينا حكمة هذا

التكرار المختلف الاساليب والالوان وأمثاله في الكلام على أسلوب القرآن واعجازه ﴿ ويوم نحشرهم جميعا ﴾ أي واذكر أيها الرسول لغريبي الناس الذين حشر بنا لهم ماسبق من الامثال ، وبيننا ما يعملون من الاعمال ، يوم نحشرهم جميعا في موقف الحساب لا يتخلف منهم أحدهم أو الظرف متعلق بقوله تعالى في الآية التالية (هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت) وفي بعض الآيات (ويوم نحشرهم وما يعبدون)

﴿ ثم نقول للذين أشركوا : مكانكم ﴾ أي ثم نقول للمشركين منهم بعد وقوف طويل لا يخاطب فيه احد بشيء كما تدل عليه بعض الآيات : الزموا مكانكم لا تبرحوه حتى تنظروا ما يفعل بكم ﴿ أنتم وشركاؤكم ﴾ أي الزموا أتم وشركاؤكم أي الذين جعلتموهم شركاء لله لفنصل بينكم فيما كان من سبب عبادتكم لهم وما يقول كل منكم فيها ﴿ فزينا بينهم ﴾ أي فرقنا بين الشركاء ومن أشركوهم مع الله وميزنا بعضهم من بعض كما يميز بين الخصوم عند الحساب ، والتزييل من زاله يزاله كنهاله يناله بمعنى نحاه (وهو يأتي) وزايلته فارقتة وتزيلوا تميزوا بافتراق بعضهم من بعض ، ومنه قوله في أهل مكة واختلاط مؤمنهم بكفارهم قبل الفتح (لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أو المراد من التزييل والتفريق تقطيع ما كان بينهم في الدنيا من الصلات ، وما لا مشركين في الشركاء من الامال ، وكل من للنعنين صحيح ، والعبادة الشركية أنواع ، والعبودات والعبودون أنواع يصح في بعضهم مالا يصح في الآخر ، ولذلك تكرر معنى حشر الغريقين وحسابهم في سور أخرى بعضها في عبادة الملائكة وعبادة الجن ، وبعضها في عبادة البشر ، وما اتخذ لهم من التماثيل والصور ، ومثلها العبور المعظمة وسنشير الى شواهد

﴿ وقال شركاؤهم ما كنتم إيانا تعبدون ﴾ أي ما كنتم تخصصوننا بالعبادة وإنما كنتم تعبدون أهواءكم ونهواتكم وشياطينكم الغوية لكم ، وتتخذون آسمانا وتماثيلنا هياكل ومواسم لمناصركم ومصالحكم ، وليس عندنا شأن العبودية الصادقة للعبود الحق ، الذي يطاع ويعبد لانه صاحب السلطان الاعلى على الخلق ، ويده تدبير الامر ، ومصادر النعم والضر . والمراد انهم يتبرؤن منهم كما صرح به في آيات أخرى

﴿ فكفى بالله شهيداً بيننا وبينكم ﴾ اي فكفى بالله شهيداً وحكماً بيننا وبينكم فهو العليم بحالنا وحالكم ﴿ إن كنا عن عبادتكم لغافلين ﴾ اي انما كنا في غفلة عن عبادتكم لانظر اليها ولا تفكر فيها ، وقيل ان المراد بالغفلة عنها عدم الرضا بها ﴿ هنالك تبلو كل نفس ما أسلفت ﴾ اي في ذلك المسكن وهو موقف الحساب او في ذلك الوقت أو اليوم تختبر كل نفس من عابدة ومعبودة ومؤمنة وجاحدة وشاكرة وكافرة ، ما قدمت في حياتها الدنيا من عمل ، وما كان لكسبها في صفاتها من أثر ، من خير وشر ، ونفع وضر ، بما ترى من الجزاء عليه ، وكونه ثمرة طبيعية له ، لاشأن فيه لولي ولا شفيع ، ولا معبود ولا شريك . وهنالك مواقف وأوقات أخرى لاسؤال فيها ولا جدال ، تغني فيها دلالة الحال عن المقال ، ولكل مقام مقال ﴿ وردوا الى الله مولاهم الحق ﴾ اي أرجعوا الى الله الذي هو مولاهم الحق دون ما اتخذوا من دونه بالباطل من الاولياء والشفعاء والانداد والشركاء ، على اختلاف الاسماء ، كما ثبت في الآيات الكثيرة كقوله (الى الله مرجعكم ، الى ربكم مرجعكم ، الى ربهم مرجعهم ، الى الله المصير ، واليه المصير) ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ اي وضاع ذهب عنهم ما كانوا يفترونه عليه من الشفعاء والاولياء ، فلم يجدوا أحداً ينصرهم ولا ينقذهم (يوم لا تملك نفس لنفس شيئا والامر يومئذ لله) هذه الآيات في موقف المشركين مع الشركاء ، والمرءوسين مع الرؤساء ، والمتكبرين مع الضعفاء ، والمضلين مع الضالين ، والغاوين مع المغوين ، قد تكرر بيانها في سور أخرى مجملا مبها ، وفي بعضها مفصلا ومبيناً ، فمنها ما يسأل الله فيه المأبدين ، ومنها ما يسأل فيه المعبودين ، من غير تعيين ، ومنها ما عين فيه اسم الملائكة والجن والشياطين ، وفي كل منها يتبرأ الضالون من الضالين ، فراجع فيها سورة الفرقان ٢٥ : ١٧ - ١٩ وسورة الانعام ٦ : ٢٢ - ٢٤ وسورة سبأ ٣٤ : ٤٠ - ٤٢ وسورة القصص ٢٨ : ٦٢ - ٦٤ ومنها ما يتناقش فيها الفريقان فراجع سورة ابراهيم ١٤ : ٢١ و ٢٢ وسورة الصافات ٣٧ : ٢٢ - ٢٣ فيمر اجمة هذه الآيات كلها وما في معناها كآيات سورة البقرة (٢ : ١٦٦ و ١٦٧ ومع تفسيرنا لهاين (ج ٢) يمين لك ما يفسر به بعضها بعضاً ، وقد بينا حكمة هذا التكرار في موضعه الذي دللنا عليه آنفاً

(٣١) قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ
وَالْأَبْصَارَ، وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ
الْحَيِّ، وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ؟ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ، فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ *
(٣٢) فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ، فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ، إِلَّا الضَّلَالَةُ؟
فَأَنَّى تُصْرَفُونَ (٣٣) كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا
أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

هذا نوع آخر من أسلوب اقامة الحجج على المشركين في إثبات التوحيد
والبعث وهو أسلوب السؤال والجواب ، ويليه اثبات النبوة والرسالة والقرآن

﴿ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ﴾ اي قل أيها الرسول لهؤلاء
المشركين المعاندين من أهل مكة : من يرزقكم من السماء بما ينزله من المطر ، ومن
الارض بما ينبت فيها من أنواع النبات بحجمه وشجره مما تأكلون وتأكل أنعامكم ؟
﴿ أم من يملك السمع والأبصار ﴾ بل قل لهم أيضاً من يملك ما تمتعون به أنتم
وغيركم من حواس السمع والابصار التي لولاها لم تكونوا تعلمون من أمر العالم
شيئاً ، بل تكون الانعام والحشرات وكذا الشجر خيراً منكم باستغنائها عن
يقوم بضرورات معاشها ، من يملك خلق هذه الحواس وهبتها للناس ، وحفظها
من الآفات ؟ وخص هاتين الحاستين بالذكر لان عليهما مدار الحياة الحيوانية
وكمال البشرية ، ونحصيل العلوم الاولية ، يشعر بذلك المستمولون بمجرد إلقاء السؤال ،
وكما ازدادوا فيه تفكيراً ازدادوا علماً وإعجاباً وإكباراً لانعام الله تعالى بهما ،
وإيماناً بأنه لا يقدر غيره عليهما ، ولا سيما إدراك الكلام بحاسة السمع ، وما يرسمه
صوت المتكلم في الهواء من معلوماته التي يدلي بها الى غيره ، فتتكيف بها كل ذرة
من ذراته (أي الهواء) فتقرع به طبله كل أذن من آذان السامعين وإن كثروا ،

قيمتها العصب المتصل بها الى مركز إدراك الكلام من دماغه ، فيدرك معناها المدلول عليه بها بأقوى مما يدركه من قرأها مخطوطة في كتاب ، لما لجرس الصوت من التأثير الخاص ، فمن ذا الذي خلق هذه الآلات ؟ ومن ذا الذي ألهمها إبداع هذه المعاني في الاصوات ؟ ومن ذا الذي وضع هذا النظام في الهواء ؟

ثم إذا ازداد علماً بإدراك البصر للمبصرات ، وما لها من المقادير والالوان والصفات ، وما للعين الباصرة من الشكل المحدب ، وما لها من الطبقات والرطوبات ، الموافقة لسنن الله في النور الذي تدرك به المرئيات ، مما هو مبسوط في الاسفار وموجز في المختصرات ، ازداد يقيناً بان ذلك من آيات الله الدالة على علمه وحكمته في الكائنات ، وإن غفل عنها المشغولون عن عظمة الصانع بعظمة المصنوعات ، وقد وحد السمع لاین إدراكه الجنس واحد هو الاصوات ، وجمع البصر لتعدد أجناس المبصرات ،

﴿ ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ﴾ أي ومن ذا الذي يملك الحياة والموت في العالم كله فيخرج الأحياء والاموات بعضها من بعض فيما تعرفون من المخلوقات التي تحدث وتتجدد وفيما لا تعرفون ؟ فيما كانوا يعرفون ان النبات يخرج من الارض الميتة بعد إحياء الله تعالى إياها بماء المطر النازل عليها من السماء أو النابع منها بعد ان سلكه الله تعالى فيها كما قال (٣٩ : ٢١) ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيع في الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا ألوانه الآية . بل كانت الحياة المعروفة عندهم قسامين حياة النبات وآيتها النمو ، وحياة الحيوان وآيتها النمو والاحساس والحركة بالارادة ، وكانوا يعدون وصف الارض بالحياة مجازاً ، ولم يكونوا يصنعون أصول الاحياء بالحياة كالحلب والنوى وبيض الحيوان ومنيه ، ولذلك فسر بعض المفسرين اخراج الحي من الميت والميت من الحي بخروج النخلة من النواة والطارئ من البيضة وعكسهما وما يشابههما ، وهو تفسير صحيح عند أهل اللغة غير صحيح عند علماء الحياة النباتية والحيوانية ، وتحصل به الدلالة المقصودة من الآية على قدرة الله وحكمته وتديبره ورحمته عند مخاطبين ، وليس المراد به وضع قواعد فنية للحياة وأنواعها وتحديد وظائفها ، على أنه يمكن تفسيرها بما يتفق وقواعد الفنون وتجارب العلوم التي تزداد عصراً بعد عصر ، فاذا كان أهلها

يثبتون ان في أصول النبات من بزر ونوى وبيض ومني حياة ، فهم يثبتون أيضا أن أصول الاحياء في الارض كلها خرجت من مادة ميتة فان الارض عندهم كانت كتلة نارية ملتهبة انفصلت من الشمس ثم صارت ماء ثم نبتت اليابسة في الماء ثم تكون من الماء النبات والحيوان في أطوار سبق الكلام فيها ، ويثبتون أيضا أن الغذاء من الطعام الميت الذي يحرق بالنار يتولد منه دم ومن هذا الدم يكون البيض والمني المشتملان على مادة الحياة ، ويثبتون أيضا ان بعض مواد البدن الحية تموت وتخرج منه مع البخار والعرق وغيرها مما يفرزه البدن ويلفظه ، ويتجدد فيه مواد حية جديدة تحل محل ما اندثر وخرج منه ، والمراد من الآية إثبات قدرة الخالق وتدبيره ونعمه على عباده ، وهو عام لا يتوقف على الفن ومحددات العلم بل تزيده كمالا للمؤمن المعتبر ، وقد تكون حجبا لغيره بحجبه عن ربه ، فالقاعدة عند علماء الحياة ان الحي لا يخرج إلا من حي ، فتعين أن تكون الحياة الاولى من خلق الله الحي بذاته الحي لغيره

وورد في التفسير المأثور تفسير الحياة والموت في مثل هذه الآية بالمعنويين منهما كخروج المؤمن من سلالة الكافر والعالم من الجاهل والبر من الفاجر وعكسها ، وقد قدمناه في تفسير آية آل عمران (٣: ٢٧) الوارد فيها لانه المناسب لسياقها . وهناك رواه ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الاسماء والصفات وأبو الشيخ في العظمة عن سلمان (رض) وكذا ابن مردويه عنه وعن ابن مسعود (رض) فراجع في تفسيرها من الدر المنثور (*) وسبق هذه الآيات هنا يناسب ما فسرناها به من الحياة والموت في العالم كله ويؤيده قوله تعالى :

﴿ ومن يدبر الامر ﴾ في الخليفة كلها بما أودع في كل منها من السنن وقدره من النظام ، وتقدم تفسير التدبير عند ذكره في أول هذه السورة ﴿ فسيقولون الله أي فسيكون جوابهم عن هذه الاستفهامات الخمس ان فاعل ذلك كله هو الله رب ﴿ انما ذكرت الرواية هنا لان مجلة مشيخة الازهر (نور الاسلام) طمنت في هذا التفسير وعدته من جهل بعض المعاصرين وانما هو جهل مفتيها بالمأثور وغيره

٣٥٨ اختلاف لفظي الرب والاله في المفهوم وجهل عالم ازهرى (التفسير : ج ١١)

كل شيء ومملكته ، إذ لا جواب غيره وهم لا يجيبونه ، فلا يستفهم عنه لحاجهم على الاقرار به ليرتب عليه قوله ﴿ قتل أفتلاتتون ﴾ أي قتل لهم أيها الرسول أتعلمون هذا وتقررون به فلا تتقون سخط الله وعقابه لكم بشركم به وعبادتكم لغيره ممن لا مالك لكم من تلك الامور شيئاً ، وهو المالك لها كلها ؟

﴿ فذلکم الله ربکم الحق ﴾ هذه فذلك ما تقدم ، أي فذلکم الذي يفعل ماذا كر الله ربکم ، أي الربی لکم بنعمه والمدبر لامورکم ، الحق الثابت بذاته ، لانه هو الحي القيوم ، الحي بذاته ، الحي لغيره ، القائم بنفسه ، المقيم لغيره ، واذا كان هو ربکم الحق الذي لا رب فيه ، المستحق للعبادة دون سواه ﴿ فاذا بعد الحق

إلا الضلال ﴾ الاستفهام إنكاري ، وفي الجملة إدماج بما يسمونه الاحتباك ، أي فاذا بعد الحق إلا الباطل ؟ وماذا بعد الهدى إلا الضلال ؟ والواسطة بين الطرفين المتضادين المتناقضين ممنوعة كالعقائد ، فالذي يفعل تلك الامور هو الرب الحق قالقول ربوبية ما سواه باطل ، وهو الاله الذي يعبد بحق ، وعبادته وحده هي الهدى ، فما سواها من عبادة الشركاء والوسطاء ضلال ، فكل من يعبد غيره معه

فهو مشرك مبطل ضال ﴿ فانی تصرفون ﴾ أي فكيف تصرفون وتتحولون عن الحق الى الباطل ، وعن الهدى الى الضلال ، بعد العلم والاقرار بما كان به الله هو الرب الحق ، وانما الاله الحق ، الذي يعبد بالحق ، هو الرب الحق ، فما بالکم تقرون بتوحيد الربوبية دون توحيد الألوهية ؟ فتتخذون مع الله آلهة أخرى ولا تتحقق الألوهية الا بتحقيق الربوبية ؟

فالآية تقرر أن التوحيد لا يصح مع الفصل بين الربوبية والالوهية كما كانوا يفعلون ، وقد جهل هذا بعض علماء الازهر في هذا الزمان ، الذين أخذوا عقيدتهم من بعض الكتب الكلامية المبتدعة وجاهلوا عقائد القرآن ، فلم يترقوا بين مفهومي الرب والاله في اللغة العربية ، وما كان عليه أهلها في الجاهلية ، على ان الاسلام انما وحد بينهما في الماصدق الشرعي ، لا في المفهوم اللغوي ، واحتج بهذا على المشركين هنا وفي آيات كثيرة كما صرح به الحافظ ابن كثير في تفسيره وغيره من قبله ومن بعده ،

وفي الآية من قواعد العقائد الدينية وأصول التشريع والعلم ان الحق والباطل فيهما ضدان لا يجتمعان ، وأن الهدى والضلال ضدان لا يجتمعان ، ولهذا الاصل قروع كثيرة في الدين والعلم العقلي . وفيها من حسنات الایجاز في التعمير ما يسميه علماء البديع بالاحتباك ، وهو ان يحذف من كل من المتقابلين ما يدل عليه مقابله في الآخر ، وهو ظاهر في الآية أمّ الظهور، وان غفل عنه الجمهور

﴿ كذلك حقت كلمة ربك على الذين فسقوا ﴾ أي مثل ذلك الذي حقت به كلمة ربك أيها الرسول في وحدة الربوبية والالوهية ، وكون الحق ليس بعده النار كإلا الباطل، والهدى ليس وراءه للناكب عنه إلا الضلال ، حقت كلمة ربك أي سنته أو وعيده على الذين فسقوا أي خرجوا من حظيرة الحق وهو توحيد الالوهية والربوبية وهداية الدين الحق . ففي كلمة الرب وجهان ، لسكل منهما أصل في القرآن ، أحدهما أنها كلمة التكوين وهي سنته في الفاسقين الخارجين من نور الفطرة واستقلال العقل الذين لا يتوجهون الى التمييز بين الحق والباطل والفرقة بين الهدى والضلال لسوخهم في الكفر واطمئنانهم به بالتقليد والعمل فقوله ﴿ انهم لا يؤمنون ﴾ على هذا بيان للكامة أو بدل منها ، أي اقتضت سنته في غرائز البشر وأخلاقهم أنهم لا يؤمنون بما يدعوهم اليه رسلنا من التوحيد والهدى مهما تكن آياتهم بينة ، وحججهم قوية ظاهرة ، وليس معناه انه تعالى عنهم من الايمان منعا قهريا مستأنفا بمحض قدرته ، بل معناه انهم يمتنعون منه باختيارهم ترجيحاً للكفر عليه . ويؤيد هذا الوجه قوله تعالى في هذه السورة (٩٦ ان الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ٩٧ ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الاليم)

والوجه الثاني انها كلمة خطاب التكليف بوعيد الفاسقين الكافرين بعذاب الآخرة كقوله في سورة ألم السجدة (٣٢ : ٢٠) وأما الذين فسقوا فإوأم النار) وقوله في سورة غافر (٤٠ : ٦) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار) ويكون قوله (أنهم لا يؤمنون) على هذا تعليلاً لما قبله يحذف حرف الجر أي لانهم أو بأنهم لا يؤمنون . وكل من الوجهين حق ظاهر والاول أظهر هنا

وقرأ نافع وابن عامر (كلمة) في آيتي يونس وآية غافر بالجمع (كلمات) ولا أجل ذلك رسمت في المصحف الامام بالتاء المبسوطة (كلمت) ووجه قراءة الجمع ان هذا المعنى بوجهيه قد تعدد وتكرر في آيات الكتاب

(٣٤) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ؟
 قُلِ اللَّهُ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ، فَأَنْتَى تُوَفَّكُونَ (٣٥) قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ؟ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ، أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ؟ أَمْ لَنْ يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ؟ فَمَا آتَاكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ؟ (٣٦) وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا، إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا تَعْمَلُونَ

﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ لم يعطف هذا الامر ولا ما بعده على ما قبله من تلقين النبي ﷺ الاحتجاج على المشركين لان حكم البلاغة فيه الفصل كأمثاله مما يسرد سردا من جنس واحد من المفردات والجلل . أي قل لهم أيها الرسول : هل أحد من شركائكم الذين عبدتموهم مع الله أو من دون الله من له هذا الشأن في السكون وهو بدء الخلق في طور ثم إعادته في طور آخر ، سواء كان من الاصنام المنصوبة ، أو من الارواح التي تزعمون انها حالة فيها ، أو من الكواكب السماوية أو غيرها من الاحياء كالجن والملائكة؟ ولما كان هذا السؤال مما لا يجيبون عنه كما أجابوا عن أسئلة الخطاب الاول لانكارهم البعث والمعاد - لا لاعتقادهم

ان شركاءهم تفعل ذلك - لقن الله رسوله الجواب ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدُوا الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ فأدمج إثبات البعث في توحيد الربوبية لانه يقتضيه ويستلزمه فان الرب القادر على بدء الخلق يكون قادرا على إعادته بالاولى على أن الذي ينكرونه هو إعادته تعالى للاحياء

الحيوانية دون مادونهما من الاحياء النباتية، فهم يشاهدون بدء خلق النبات في الارض عند ما يصيبها ماء المطر في فصل الشتاء وموته بجفافها في فصل الصيف والحريف ثم إعادة عاداته بمثل ما بدأ به مرة بعد أخرى، ويقرون بأن الله هو الذي يفعل هذا البدء والاعادة، لانهم يشاهدون كلا منهما، فهم أسرى الحس والعيان، ثم ينكرون قدرته على إعادة خلق الناس، لانهم لم يشاهدوا أحدا منهم حيي بعد موته وقد فقدوا العلم برهان القياس، واننا لانزال نرى أمثالا لهم في جاهليتهم ممن تعلموا المنطق وطرق الاستدلال، وعرفوا ما لم يكونوا يعرفون من سلطان الارواح في عالم الاجسام، وقد أمر الله رسوله أن يرشدهم الى جهلهم بأنفسهم وينبهم للتفكير في أمرهم بقوله ﴿ فَأَنى تَوَفىكُونَ ﴾ أي فكيف تصرفون عن ذلك وهو من دواعي الفطرة وخاصة العقل في التفكير، للعالم بالحقائق والبحث عن المصير ؟

﴿ قل هل من شركائكم من يهدي الى الحق ؟ ﴾ هذا سؤال عن شأن آخر من شؤون الربوبية، المقتضية لاستحقاق الالوهية، وتوحيد العبادة الاعتقادية والعملية، وهو الهداية التي تتم بها حكمة الخلق كما يدل عليه ذكرها عقبه في آيات أخرى كقوله تعالى (الذي خلقني فهو يهدين * ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى * الذي خلق فسوى * والذي قدر فهدى) وهي أنواع هداية الفطرة والعزيمة، وهداية الحواس، وهداية العقل، وهداية التفكير والاستدلال بكل ذلك، وهداية الدين، وهو للنوع البشري في جملة كالعقل لأفراده، وهداية التوفيق الموصل بالفعل الى الغاية بتوجيه النفس الى طلب الحق وتسهيل سبيله ومنع الصوارف عنه. ولما كان لا يمكنهم أن يدعوا ان أحدا من أولئك الذي أشركوهم في عبادة الله تعالى بادعاء التقرب اليه والشفاعة عنده يهدي الى الحق من ناحية الخلق والتكوين، ولا من ناحية التشريع، لقن الله رسوله الجواب بقوله ﴿ قل الله يهدي للحق ﴾ قل الهدى يهدي بنفسه كقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم * ويهديك صراطا مستقيما * لنهدينهم سبيلا) ويتهدى بالى كقوله (وهديناهم الى صراط مستقيم * ويهدي الى صراط مستقيم * يهدي الى الرشد * واهدنا الى سواء الصراط) وباللام كقوله

(الحمد لله الذي هدانا لهذا * ان هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم * بل الله بمن
عليكم ان هداكم للايمان ..) فتعديته بنفسه تفيد اتصال الهداية بمتعلقها مباشرة ،
وتعديته باللام تفيد التقوية أو العلة والسببية ، وبالي للغاية التي تلتهى إليها الهداية ،
فهي تشمل مقدماتها وأسبابها ، من حيث كونها موصلة إلى المنتهى المقصود بالهداي
السائق إليها ، وقد يكون قصده مجهولاً لمطبعه كقوله تعالى في الشيطان (كتب عليه أنه من
تولاه فإنه يضلّه ويهديه إلى عذاب السعير) وكل من هذه الثلاث مستعمل في التزيل
في موضعه اللائق به ، يعلم ذلك من له ذوق سليم في هذه اللغة الدقيقة العالية . وقد
جمع في هذه الآية بين التعدية بالحرفين وبين ترك التعدية وهو حذف المتعلق الدال
على العموم وكل منها وقع في موقعه الذي تقتضيه البلاغة فهاكده فلم تر أحداً يده
أما الأول فقد عدها بالي في حيز الاستفهام الإنكاري للإيدان بأنه لا أحد
من هؤلاء الشركاء المتخذين بالباطل يدل الناس على الطريق الذي ينتهي سالكه
إلى الحق من علم وعمل وهو التشرع فهو ينفي المقدمات ونتائجها ، والأسباب ومسبباتها ،
ولو عدها بنفسه لما أفاد إلا إنكار هداية الإيصال إلى الحق بالفعل ، دون هداية
التشرع الموصلة إليه ، ولو عدها باللام لكان معنى تعديته بنفسه إن كانت اللام للتقوية ،
أولاً إنكار هداية يقصد بها الحق إن كانت للتعميل ، والأول أعظم وأبلغ كما هو ظاهر
وأما الثاني وهو تعديته باللام فهو يستلزم الأول ، وإذا جرينا على جواز
استعمال اللام بمعنيها على مذهبنا الذي اتبعنا فيه الأمامين الشافعي وابن جرير
يكون معناه قل الله يهدي لما هو الحق لاجل أن يكون المهتدون به على الحق .

وأما الثالث أي حذف المتعلق فهو في الشق الثاني من قوله ﴿ أفن يهدي إلى

الحق أحق أن يتبع أم من لا يهدي إلا أن يهدي ﴾ قرأ (يهدي) يعقوب وحفص
ببكر الهاء وتشديد الدال وأصله يهتدي كما سيأتي في بحث لغة الكلمة ، وقرأها
حمزة والكسائي بالتخفيف كيرمي ، ومعنى القراءتين مع ما قبلهما نصاً واقتضاءً أفن
يهدي إلى الحق ويهدي له ويهديه وهو الله تعالى أحق أن يتبع فيما يشرعه أم من
لا يهدي غيره ولا هو يهتدي بنفسه من عبد من دونه إلا أن يهديه غيره أي الله تعالى

إذ لا هادي غيره ! وهذا استثناء مفرغ من أعم الأحوال ، لأن من نقي عنهم الهداية من اتخذوا شركاء لله تعالى يشمل المسيح عيسى بن مريم وعزير أو الملائكة عليهم السلام وهؤلاء كانوا يهدون إلى الحق بهداية الله ووحيه كما قال تعالى في الانبياء من سورتهم (٢١ : ٧٣) وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا) وقال النحاس الاستثناء منقطع كما تقول : فلان لا يسمع غيره إلا أن يسمع ، أي لكنه يحتاج أن يسمع ، فعنى (إلا أن يهدى) لكنه يحتاج أن يهدى اه فيا لله العجب من هذه البلاغة التي يظهر للمدققين في تعبير القرآن من بدائعها في كل عصر مافات أساطين بلغاء المفسرين فيما قبله

﴿ فما لكم كيف تحكمون ﴾ هذا تعجيب من حالهم في جعلهم من هذه حالهم من العجز المطلق شركاء مع القادر على كل شيء ، أوردته باستفهامين تقرعيين متواليين ، والمعنى : أي شيء أصابكم وماذا حل بكم حتى اتخذتم شركاء هذه حالهم وصفتهم فجعلتموهم وسطاء بينكم وبين ربكم الذي لا خالق ولا رازق ولا مدبر ولا هادي لكم ولا لأحد منهم سواء ؟ كيف تحكمون بجواز عبادتهم ، وبما زعمتم من وساطتهم وشفاعتهم عنده بدون اذنه ؟

ومن القراءات اللفظية التي لا يختلف بها المعنى قراءة يهدي المشددة الدال بفتح الياء والهاء بنقل حركة التاء في أصلها (يهتدى) إلى الهاء وادغامها فيها ، وقراءتها بكسرهما معا فهلاء لا لتقاء الساكنين والياء لمناسبتها لها ، وقراءتها بفتح الياء وكسر الهاء لمناسبة الدال وهي قراءة حفص التي عليها أهل بلادنا

﴿ وما يتبع أكثرهم إلا ظناً ﴾ هذا بيان لحال المشركين الاعتقادية ، في إثر إقامة أنواع الحجج على توحيد الربوبية والالهية ، بأسلوب الاسئلة والاجوبة المفيدة للعالم ، الهادية إلى الحق ، ومعناها أنه ليس في شركائهم من يهدي إلى الحق المطلوب في العقائد الدال على ارتقاء العقل وعلو النفس ، وهو ان أكثرهم لا يتبعون في شركهم وعبادتهم لغير ربهم ، ولا في إنكارهم للبعث ، وتكذيبهم للرسول ﷺ إلا ضرباً عن ضرور الظن قد يكون ضعيفاً كما يشير إليه تنكيره ، وذلك كاستبعاد غير

المألوف ، وقياس الغائب والمجهول ، على الحاضر والمعروف ، وتقليد الآباء ثقة بهم ، وتعظيماً لشأنهم ، أن يكونوا على باطل في اعتقادهم ، وضلال في أعمالهم ، وأما غير الأكثر فكانوا يعلمون ان ماجاءهم به الرسول هو الحق والهدى ، وان أصنامهم وغيرها مما عبدوا لا تنفع ولا تشفع ، ولكنهم يمجدون آيات الله ويكذبون رسوله عناداً واستكباراً في الارض ، وضناً برياستهم وزيادتهم ان يهبطوا منها إلى اتباع من دونهم ثروة وقوة . مكانة في قومهم ، ويجوز أن يكون التعبير بالأكثر جاء على سنة القرآن في الحكم على الأمم والشعوب بالحق والعدل ، فانه تارة يحكم على أكثرهم ، وتارة يستثنى من الاستغراق والاطلاق القليل منهم ، كما تقدم نظائره من قبل . فيكون الحكم على الأكثر للإشارة إلى انه يقل فيهم ذو العلم ، فان قيل : وما حكم الله في الظن ؟ فالجواب

﴿ إن الظن لا يعني من الحق شيئاً ﴾ من الاغناء ولو قليلاً ، أي لا يجعل صاحبه غنياً بعلم اليقين في الحق فيكون أي الظن بدلاً من اليقين في شيء مما يطلب فيه اليقين كالدين ، فان الحق هو الامر الثابت المتحقق الذي لا ريب في ثبوته وتحققه ، والمظنون وإن كان راجحاً عند صاحبه عرضة للشك يتزلزل ويزول اذا عصفت به أي عاصفة من الشبهات ، والاغناء يتعدى بمن كقوله (ما أغنى عنكم جمعكم * ما أغنى عني ماليه * فما أغنت عنهم آهنتهم) وقد عدي هنا بمن ، وفي مثله من سورة النجم ، وفي قوله في ظل دخان النار (لا ظليل ولا يعني من اللهب) وقوله في الضريع من طعام أهلها (لا يسمن ولا يفني من جوع) فعدي بمن لافادة القلة أو لتضمنه معنى البذل ، أي إن ظل دخان النار لا وارف يمنع الحر ولا يعني من اللهب بأن يقله أو يزيله ويكون بدلاً منه ، وإن الضريع الذي هو طعام أهل النار لا يسمن البدن بالتغذية الكافية ولا يملل الجوع أو يزيله فيكون بدلاً من الطعام الردي ، التغذية

واستدل العلماء بهذه الآية هنا وفي سورة النجم على ان العلم اليقيني واجب في الاعتقادات ، وان إيمان القلد غير صحيح ، ويدخل في الاعتقادات الايمان بوجود أركان الاسلام وغيرها من الفرائض والواجبات القطعية والايمان بتحريم المحظورات القطعية كذلك ، وقد بينا من قبل أن اليقين المشروط في صحة الايمان

شرعا هو اليقين اللغوي وهو الاعتقاد الصحيح الذي لا شك معه — لا المصطلح عليه عند نظار الفلاسفة والمنطق المؤلفين من علمين [أحدهما] ان الشيء كذا [والثاني] أنه لا يمكن أن يكون إلا كذا. وأما قولهم إن الاحكام العملية يكفي فيها الدليل الظني ففيه أن الدليل الظني لا يثبت به الايمان بالمظنون ، بل التصديق بالمظنون لا يسمى إيمانا. وإنما يعمل في الاجتهادات خروجا من الحيرة والترجيح بهوى النفس **﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾** هذه قضية ثانية مستأنفة خاصة بالعمل شأنها أن يسئل عنها بعد القضية التي قبلها في الاعتقاد، فهو يقول ان الله عليم بما كانوا يفعلون بمقتضى اعتقادهم الظنية والقطعية ، فهو يحاسبهم ويجازيهم على كل عمل منها بحسبه ، فالجزاء على مخالفة الاعتقاد القطعي بصدق الرسول من تكذيب وجود أشد أنواع الجزاء ، ويليئه التكذيب باتباع الظن كالتقليد ، ومن تلك الافعال الصدد عن الايمان وإيذاء الرسول **ﷺ** والمؤمنين بأنواعه ومنها سائر الشرور والمعاصي الشخصية والاجتماعية كالقتل والفاحشة والسكر والربا الخ

والعبارة للمؤمن بالقرآن في هذه الآية والتي قبلها وهما من آياته المحكمات في أصول الايمان والاسلام أن يكون غرضه من حياته تزكية نفسه وتكميلها باتباع الحق في كل اعتقاد ، والهدى وهو الصلاح في كل عمل ، وبناء وهما على أساس العلم ، دون الظن وما دونه من الخرص والوهم ، فالعلم المنقيد للحق والمبين للهدى في الدين هو ما كان قطعي الرواية والدلالة من الكتاب والسنة الذي قامت به الجماعة الاولى ، وهو الشرع العام الذي لا يجوز للمسلمين التفرق والاختلاف فيه ، فهو مناط وحدتهم ، ورابطة جامعتهم ، وما دونه مما لا يقيد إلا الظن فلا يؤخذ به في الاعتقاد ، وهو مترك للاجتهاد في الاعمال ، اجتهاد الافراد في الاعمال الشخصية ، واجتهاد أولى الامر في القضاء والادارة والسياسة ، مع تقييدهم فيه بالشورى في استبانة العدل والمساواة والمصالح العامة ، كما فصلناه من قبل في مواضعه .

وقد غفل عن هذه القواعد بعض أئمة الفقه فحكم بتحريم بعض العادات المباحة في الاصل كلعب الشطرنج ، وكذا المستحبة كلاعبة الرجل لزوجيه وسماع الغناء بشبهة أنها من الباطل أو من الضلال ، ولا يثبت تحريم شيء من ذلك بدليل ظني

فضلا عن قطعي ، وفقا للقاضي أبي بكر بن العربي المالكي المخالف فيه للرواية عن
 إمامه ، وأما المقلدون من المنتمين في العقته الى كل مذهب فقد حرموا على الناس
 مالا يحصى بالرأي والأقيسة الوهمية ، التي هي دون الأدلة الظنية ، وهدى النبي
 ﷺ في الشبهات الاحتياط كما صرح به في حديث « الحلال بين والحرام بين »
 المتفق عليه واستفتا - (الوجدان) لحديث « استفت نفسك » رواه البخاري في التاريخ
 وإنما الباطل من الاعمال ما ثبت بطلانه بدليل شرعي قطعي ، كما أن الحق
 فيها ما ثبتت حقيقته بدليل قطعي ، وبينها واسطة هي مالا دليل فيه بخلاف الاعتقاد
 فإنه ليس فيه واسطة بين الحق والباطل ، ومن الاشياء العملية ما الاصل فيه الاباحة
 وهو النافع ، ومنه ما سكت الشارع عن فرضه وعن تحريمه وعن قواعد حدوده
 كما قال ﷺ « وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تبحثوا عنها » كما في
 حديث أبي ثعلبة في الاربعين النووية وقد حققنا هذا البحث في تفسير (١٠١٥)
 لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤم) من جزء التفسير السادس

والذي أريد أن أذكر به كل مسلم هنا أنه لا يوجد الآن في الارض دين متبع ،
 ولا قانون دولي منفذ ، ولا نظام حزبي ولا جماعي ملتزم ، يفرض على الناس
 الحق والهدى فرضاً دينياً ، والاعتماد في استبانتها على العلم الصحيح ، وحصر
 الاجتهاد والترجيح فيما سواهما ، والاعتماد فيه على الوجدان في الشخصيات ، والشورى
 في المصالح العامة . ولن يصلح حال البشر الفردي ولا الاجتماعي والدولي إلا بهذه
 الاصول التي فرضها الاسلام ، وجعلها ديناً يدان الله به ليس لاحد تجاوزه ، وقد
 عجزت علوم البشر على اتساعها ، وعقولهم على ارتقاءها ، عن الاستغناء عنها بغيرها ، فهم
 كلما ازدادوا علماً يزدادون باطلاً وضلالاً وبعثاً ، خلافاً لدعاة حضارتهم الكاذبين .
 قال شيخ فلاسفة الاخلاق وعلم الاجتماع في هذا القرن (وهو هربرت سبنسر
 الانكليزي) لحكيم الاسلام ، شيخنا الامتاز الامام ، ان فكرة الحق قد زالت
 من عقول أمم أوربية البتة ، فلا يعرفون حقاً إلا للقوة ، وإن الافكار المادية قد
 أفسدت أخلاقهم ، وانه لا يرى من سبيل إلى علاجهم ، وإنه لا يزال بعضهم
 يحتبض ببعض - ولعله ذكر الحرب - ليتبين أيهم الأقوى ليسود العالم

وقد وقع ما توقعه هذا الحكيم في سنة ١٩٠٣ م بالحرب الكبرى مدة أربع سنين (من ٩١٤ - ٩١٨) فزادات الامم والدول ثقاء وفساداً وطغياناً وإباحة ، حتى جزم كثير من عقلائهم بأنه لا علاج لهذا الفساد في البشر إلا الهداية الروحية الدينية ، وسيعتدون لذلك مؤتمراً عاماً في الولايات المتحدة الاميركانية ، وان يجدوا العلاج المطلوب إلا في هذه الاصول من القرآن ، وما فصلناها به في مباحث (الوحي الحمري) من هذا التفسير ، ثم جمعناه في كتاب مستقل مع زيادة في تفصيله ، فعسى أن يسبقهم المسامون إلى العمل به ونشره .

(٣٧) وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَىٰ مِنْ دُونِ اللَّهِ

وَأَلَكِن تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَتَّصِلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ
مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٣٨) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ
وَأَذْعُوا مِنِ اسْتَعْظَمَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٩) بَلْ
كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَّبَ الَّذِينَ
مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ

بعد ما تقدم من إقامة البرهان على ان القرآن من عند الله وان محمداً ﷺ كان عاجزاً كغيره عن الاتيان بمثله في هدايته ، وفي علمه وواقته - وما تلاه من إقامة الحجج على بطلان شرهم - وما بعده من بيان حلهم في اتباع أكثرهم لأذى الظان وأضعفه في عقائدهم وتكذيبهم - عاد إلى تنفيذ رأيهم الا في في الظان على القرآن بمقتضى الظان الضعيف من الاكثرين ، والجحود العنادي من الاقلين ، كالزعماء المستكبرين ، فقال ﷺ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ﷻ النفي هنا للشأن الذي هو أبلغ وأشد من نفي الشيء مباشرة كما تقدم مراراً ، وان غفل عن ذلك من أعربه اعراباً آخر تقصر نظره على ظاهر اللفظ ، دون ما يقتضيه المقام من البلاغة .

في الرد ، أي وما كان هذا القرآن العظيم في علو شأنه ، المجلي له في أسلوبه ونظمه ، وعلومه العالية ، وحكمته السامية ، ونشره العادل ، وآدابه المثلى ، وتمحيصه للحقائق الالهية والاجتماعية ، وإنبائه بالغيوب الماضية والآتية ، وجعل المقصد من اصلاحه ما بينه آنفاً من اتباع الحق والهدى ، واجتناب الضلال باتباع الهوى ، والاعتماد فيهما على العلم التصحيح — ما كان وما صح ولا يعقل أن يفتره أحد على الله من دونه ويستنده اليه ، إذ لا يقدر غيره عز وجل عليه ، فان فرض أن بشراً يستطيع الايمان بمثله فلن يكون الا بشراً أرقى وأكمل من جميع الحكماء والانبياء وكذا الملائكة ومثله ان يفترى على الله ، بل قال أشد الكفار عنادا وعداوة لمحمد ﷺ وهو أبو جهل لعنه الله : ان محمداً لم يكذب على بشر قط أفيكذب على الله؟

﴿ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴾ أي ولكن كان تصديق الذي سبقه من الوحي لرسول الله تعالى بالاجمال كنبوح و ابراهيم وموسى وعيسى (ص) بدعوته الى أصول دين الله الاسلام التي دعوا اليها من الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، بعد أن نسي بعض ذلك بقايا اتباعهم وضلوا عن بعضه وشوهوه بالتقاليد المبتدعة مما لم يكن يعلمه محمد الامي ﷺ أو تصديق ذلك بكونه جاء وفقاً لما دعا به ابراهيم لاهل حرم الله ، ولما بشر به موسى وعيسى والنبيون كما بيناه بالتفصيل ، في تفسير قوله تعالى (٧ : ١٥٧) الذين يتبعون الرسول النبي الامي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والانجيل) من جزء التفسير التاسع ، ويجوز الجمع بين المعنيين

﴿ وتفصيل الكتاب ﴾ الالهى أي جنسه وهو ما مره الله تعالى ليكتب ويهتدي به جميع البشر من العقائد والشرائع والعباد والمواعظ وشؤون الاجتماع وسنن الله في خلقه ﴿ لاريب فيه ﴾ هو لاريب فيه أو حال كونه لاريب فيه أي ليس فيه مثار للشك ولا موضع للريب ، لانه الحق والهدى ﴿ من رب العالمين ﴾ من وحيه لا يقدر عليه غيره (ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً) ﴿ أم يقولون افتراه ﴾ انتقال من بيان كونه أجل وأعلى من ان يفترى لعجز الخلق عن الايمان بمثله ، إلى حكاية زعم هؤلاء الجاهلين والمعادنين أن محمداً ﷺ افتراه ،

والاستفهام فيه للانكار والتعجب ، أو التمهيد به إلى الرد عليه بتحدي التعجب وهو ﴿ قل فأتوا بسورة مثله ﴾ في أسلوبه ونظمه وتأثيره وهدايته وعلمه مفتراة في

موضوعها ، لا يلتزمون أن تكون حقاً في أخبارها ، ﴿ وادعوا من استطعتم من دون الله ﴾ واطبوا الأظاهرة لكم والاعانة على ذلك من استطعتم دعاءهم من دون الله فإن جميع الخلق معجزون عن ذلك مثلكم ، فهذا كقوله تعالى (١٧ : ٨٨) قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً

وهذه الآية في سورة الاسراء وقد نزلت قبل يونس ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في زعمكم أني افتريته . والجمهور على أن لفظ سورة هنا يصدق بالقصيرة كالطويلة وبيننا وجه في تفسير آية التحدي من سورة البقرة (٢ : ٢٣) وهو المتبادر من تنكير السورة إلا أن يقال إن التنكير للتعظيم أو لنوع من السور يدل عليه دليل كالسور التي فيها قصص الانبياء وأخبار وعيد الدنيا والآخرة لان الافتراء تتعلق مهمته بالأخبار لا بالانشاء من أمر ونهي كما أشرت اليه في تفسير سورة البقرة

﴿ وزجج بعضهم أن المراد السورة الطويلة أي مثل هذه السورة نفسها (يونس) في اشتغالها على أصول الدين والوعد والوعيد كما يطلق لفظ الكتاب أو كتاب أحياناً ويراد به السورة الواحدة التي يذكر فيها ، كقول من قال في أول سورة الاعراف (المص ، كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) أي هذه السورة كتاب الخ ومن تنكير لفظ سورة المراد بها النوع دون الوحدة قوله تعالى (٤٧ : ٢٠) وبقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة (أي يفرض فيها القتال بدليل قوله بعده (فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال) الآية . ومنعود الى هذا البحث في تفسير التحدي بعشر سور مثله مفتريات من سورة هود إن شاء الله تعالى

ومن المعلوم بالبداهة أنه ما كان لما قل مثله ^{كالتشبه} أن يتحداهم هذا التحدي لو لم يكن عالماً موقناً بأنه لا يستطيع الانس والجن الايمان بمثل هذا القرآن في جملته ولا بسورة مثله لا أفراد العلماء والبلغاء منهم ولا جماعتهم ولا جملتهم إن « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٧ » « الجزء الحادي عشر »

فرض إمكان اجتماعهم وتعاونهم ومظاهرة بعضهم لبعض. فلو كان هو الذي أنشأه وألفه لمصلحة الناس برأيه كما ارتأى بعض المعجبين بعقله وذكائه وعلو أفكاره من الفلاسفة المتقدمين ، وعلماء الماديين المتأخرين - لكان عقله وذكائه وعلو فكره ما نعت له من هذا الجزم بمعجز عقلاء الخلق من العوالم الظاهرة (الانس) والخفية (الجن) من الايتان بسورة مثل ما أتى هو به، فإن كل عاقل متوسط الذكاء والفكر يعلم أن كل ما أمكنه من الامر فهو يمكن غيره ، بل لا يأمّن أن يوجد من هو أقدر عليه منه ، فهذه آية بيّنة للعقل على ان النبي ﷺ كان موقناً بأنه من عند الله تعالى وانه هو كغيره لا يقدر على الايتان بسورة مثله ، وهي احدى حجج الذين قالوا انه لا يعقل أن يكون كاذباً مقترياً له (فان قيل) انه يمكن أن يعتقد عجز نفسه وغيره في حال كونه وحياً من نفسه ، معتقداً أنه من ربه (قلنا أولاً) إن دعوى الوحي النفسي باطلة بأدلة كثيرة كما تقدم (وثانياً) ان عجز غيره ممن كانوا أفصح منه دليل على عجزه بطريق الاولى

ثم إن أكثر المتكلمين ومن على مذاهبهم من المفسرين يعتمدون في إقامة الحجة على نبوته ورسالته ﷺ على تحديده للعرب بالقرآن أن يأتوا بمثله إجمالاً أو بحديث مثله فبعشر سور مثله مقتريات فبسورة مثله فبسورة من مثل محمد ﷺ أي في أميته ، وبما ظهر من عجز العرب وغيرهم عن ذلك ، إذ لو قدر أحد على الايتان بسورة مثله أو قريب منه لفعلوا لتوفر الدواعي من أعدائه على تكذيب دعواه ولا سيما بعد استفحال قوته ، واضطرارهم الى بذل أموالهم وأنفسهم في مكابحته ، وبهذا يعلم الفرق الواضح بين تحديده ﷺ بالقرآن وتحديده بعض الدجالين المغرورين ببعض ما هدوا به من نثر ونظم وسموه وحياً كالباب والبهاء والقادياني ، فانه كان سخرية للعلماء والبلغاء ، وقد اخفى البهائيون كتابه (الاقدس) عن الناس

ثم ان أكثرهم على أن تحدي العرب إنما كان بما امتاز به من الفصاحة والبلاغة اللغوية . وقد صنّفوا في بيان إعجاز القرآن بها كتباً مستقلة ، ولم يوفوه حقه من ناحيتها ولا سيما نظمه العجيب بله النواحي المعنوية (وقالوا) ان وجه الدلالة في ذلك على صدقه ﷺ في دعوى النبوة وأنه من عند الله هو انه يتضمن تصديقه

نعالي له كأنه قال « صدق عبيدي فيما يبلغه عني » ولذلك رجحوا ان هذه الدلالة
وضعية كدلالة الكلام الالهي وقيل انها عقلية وتقدم بسط ذلك في تفسير آية البقرة
وهذا الذي قلناه في اعجازه بالبلاغة قد اعترض عليه بعض الناس حتى
المتقدمين الذين كانوا أقرب إلى فهمه وامتيازه بها من أهل عصرنا. قال الفريقان:
إن لكل بليغ من فصحاء كل أمة أسلوباً يمتاز به ، وأنتم أيها المسلمون تقولون
إن محمداً ﷺ كان أفصح قریش وهم أفصح العرب فلا غرو أن يمتاز فيهم بهذا
الاسلوب والنظم القرآني كما امتاز بعض شعراء الجاهلية والاسلام بأسلوب خاص ،
وكما امتاز شكيبير في شعراء الانكليز وفيكتور هيغو في شعراء الفرنسيين ، فمعجز
العرب عن الاتيان بمثل القرآن في بلاغته لا يدل على أنه من الله عز وجل
(ونقول) إن هذا الاعتراض يذوب فيزول اذا عرض على الاشعة التي
اقتبسناها من ضياء شمس القرآن في إعجازه اللفظي والمعنوي في أول تفسير هذه
السورة ثم في تفسير الايتين (١٥ و ١٦) منها . وأما قولهم في إحدى مقدماته
إن محمداً ﷺ كان أفصح قریش وأبلغهم في لغته ، فقد بينا بالنقل الثابت أنه ﷺ
لم يكن قبل نزول القرآن عليه يذكر في فحول فصحاءهم ولا في وسطهم بل لم
يكن يعد منهم ، وإنما صار كلامه ممتازاً بالفصاحة والبلاغة بما استفاد من وحي
القرآن كما استفاد من دونه منه ، على أنه ظل ككلام غيره من البشر في البعد عن
مشابهة نظم القرآن وأسلوبه وتأثيره ، وهذا التفاوت لا نظير له في كلام بلقاء البشر
(فان قيل) ان ما يظهر في السور الطويلة من روعة البلاغة وبراعة النظم لا يظهر
في السور القصيرة (قلنا) لكن الناس عجزوا عن معارضة السور القصار كغيرها ،
ولخفاء وجه الاعجاز فيها على بعضهم قل من قال منهم ان عجزهم كان بصرف
الله تعالى لقد رهم عن المعارضة ، وقال بعضهم ان التحدي إنما كان بسورة طويلة كما نقلناه
أنفا عن الرازي ووجهنا بأظهر مما وجهه به ، وهو أن تكون مما أرادوه من تهمة اقترانه
وبيانه انه اذا كان التحدي بسورة مثله مقترأة خاصا بالسور التي فيها قصص
الرسول مع أقوامهم بالتفصيل فهذه كلها من السور الطويلة كالاعراف ويونس
وهود والحجر وطه والمؤمنين والطواسين والمنكوت . وإن كان يعم السور

المشتملة على نذر أولئك الاقوام المكذبين لرسالهم من غير تفصيل لدعوتهم لهم
 قيدخل في عمومه بعض سور المفصل أيضاً كالذاريات والنجم والقمر والحاقة والفجر
 ولا يدخل فيه على كل من التقديرين شيء من السور القصيرة لانه ليس فيها
 شيء من ذلك. والتحدي في هذه السورة وسورة هود وسورة الطور مبني على تهمة
 الافتراء والتكذيب كما ترى ايضاً حه في آية (بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه) التي تلي هذا
 ومن تأمل ما في هذه السور من المفصل من التعبير عن المعنى الواحد بالعبارات
 العديدة مع تعدد أساليبها ، واختلاف نظمها ، وأنواع فواصلها ، وألوان بيانها ،
 وقوارع نذرها ، ووصواع وعيدها ، وقابليتها للترتيل بالنغمات المؤثرة اللائقة بكل
 منها ، فأجدر به إن كان قد أوتي حظاً من بيان هذه اللغة والشعور الدوقي ببلاغتها
 أن يقتنع بأن اعجازها اللغوي كاعجاز قصص السور الطويلة أو الطور ، بصرف النظر
 عن كون موضوعها حقاً موحى به من الله تعالى أم لا ؟ وأن يشكك في تأثيرها
 العجيب في أولئك المكذبين من بلغاء قريش وغيرهم الذي عبر عنه الوليد بن
 المغيرة المخزومي وهو في الذروة العليا منهم بعبارة المشهورة ومنها قوله : « وانه
 ليعلم ولا يعلم ، وانه ليحطم ما تحته » وغير ذلك مما يناه في مباحث الوحي ، وان
 يعلم صدق الامام عبد القاهر في قوله : « أسأل عليهم الوادي عجزاً ، وأخذ عليهم
 منافذ القول أخذاً » علماً ذوقياً وجدانياً

وأما من لا يعرف من بلاغة هذه اللغة إلا القواعد الفنية وأمثلتها الجزئية
 المدونة في مثل مختصر السعد التقاراني ومطوله من كتب المعاني والبيان ، فأجدر به
 أن يطبقها على كل كلام ، وناهيك به اذا عد منها ما ذكره المتنطون من المتأخرين
 فيما يسمونه المحسنات البدعية ، وشروط الفصاحة وعموسها ، وقد سمعت ان بعضهم
 ميج ذوقه بعض فواصل سورة القمر ، فيكان بعض المستشرقين أصح منه فهما
 وذوقاً إذ قل إنها من أبلغ سور القرآن أو أبلغها كلها بلا استثناء.

(فان قيل) ان التحدي في السور الثلاث (يونس وهود والطور) جاء رداً
 على تهمة الافتراء والتقول كما قلتم ، فيظهر فيه أن يختص بالدور التي تظهر فيها تهمة
 الافتراء كما قررتم ، ولكن التحدي في آية سورة البقرة ليس كذلك (قلنا) لسكنه

جواب للمرتابين فيه وهم المكذبون فهو تأكيد لما قبله ، لأنه نزل بعده ، وهي مدنية وهن مكيات . فإن معناها هذا وقلنا ان التنكير فيها يصدق باصغر سورة وهي الكوثر ، وسلمنا أنه لا يظهر فيها اعجاز النظم والاسلوب (قلنا) انها معجزة بما فيها من الایجاز وخبري الغيب في أولها وآخرها كما شرحناه في تفسير الآية من الجزء الاول . وفي الجلالين ما يؤيد هذا فقد قال في آية البقرة : هي مثله في البلاغة وحسن النظم والاخبار عن الغيب اه . وقال في آية يونس : هي مثله في الفصاحة والبلاغة على وجه الافتراء اه . واعجاز السور الصغيرة المعنوي بالهدى والنور وإصلاح القلوب ، لا يكابر فيه الا الجهول المحجوب .

﴿ بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ﴾ هذا اضراب عن بعض ما يتضمنه قولهم (افتراءه) وما يستلزمه ككونهم يمتدحون أن محمداً ﷺ كان يكذب ، أو ان القرآن في جملته افتراء منه ، وقد ثبت أنهم كانوا يعلمون بحرية الصدق في كل ما يقوله ، وانتقال إلى بيان موضوع تكذيبهم بظنهم أنه محال في نفسه ، وهو ما أنذرهم من عذاب الله لهم في الدنيا والآخرة إن لم يؤمنوا له ويتبعوه ، وقد وصفهم بعدم احاطتهم بعلمه أي لم يعلموه من جميع وجوهه ونواحيه ، وبأنه لما يأتيهم تأويله أي مصداقه إلى ذلك الوقت مع توقع إتيانه ، وبتشبيهه تكذيبهم إياه بتكذيب الذين من قبلهم .
بمثله ، فيبين ما كذبوا به بهذه الصفات الثلاث

قلوصف (الاول) لما كذبوا به أنه ما لم يحيطوا بعلمه فيكون تكذيبهم صحيحا وانما ظنوا ظنا ، والظن لا يعني من الحق شيئاً (والثاني) قوله ﴿ ولما يأتيهم تأويله ﴾ أي ولم يأتيهم إلى الآن ما يؤول اليه ويكون مصداقه بالفعل ، واتيانه متوقع بل آت لا بد منه ، وقد خبط المفسرون الغنيون في معنى هذا التأويل منذ القرون الوسطى ، لانهم لم يفهموا القرآن بلغته الحرة الفصحى ، بل بلغة اصطلاحاتهم الفنية ولا سيما اصول الفقه والكلام . فقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يفهموا معناه ، وقال بعضهم إنهم كذبوا بما لم يظهر لهم وجه الاعجاز فيه ، ولوصح هذا أو ذاك لكنوا معذورين بالتكذيب طبعاً ، وسبب مثل هذا الغلط جعلهم التأويل تارة بمعناه عند بعض المفسرين وهو رديف التفسير ، وتارة بمعناه عند المتكلمين والاصوليين ، وهو صرف اللفظ عن معناه الظاهر إلى معنى

يحتمله في اللغة بشرط موافقته للشرع ، لتخرج تأويلات الباطنية وغلاة الصوفية وقد جمع الرازي كهاتده كل ما رآه محتملا من هذا التكذيب في خمسة وجوه (١) تكذيب قصص القرآن وذكر لها ثلاث صور (٢) حروف التهجى في أوائل بعض السور إذ لم يفهموا منها شيئا ، وزعم أن الله أجاب عنها بآية آل عمران في المحكمات والمتشابهات (٣) ظهور القرآن منجما شيئا فشيئا (٤) أخبار الحشر والنشر (٥) العبادات قالوا ان الله مستغن عن عبادتنا . وكل هذه الوجوه باطلة لا يحتمل ارادة شيء منها إلا الرابع ، وفسر عدم إتيانهم تأويلها بجهاهم حقيقتها وحكمها ، وهو باطل وناهيك بحماها على الحروف المفردة في أول السور وهي ليست بكلام فيكذب أو يصدق . ثم قال : « قال أهل التحقيق قوله (ولما يأتيهم تأويله) يدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات وقع في الكفر والبدعة لان ظواهر النصوص قد يوجد فيها ما تكون متعارضة فاذا لم يعرف الانسان وجه التأويل فيها وقع في قلبه أن هذا الكتاب ليس بحق . أما اذا عرف وجه التأويل طبق التنزيل على التأويل ، فيصير نوراً على نور يهدي الله لنوره من يشاء » اهـ

وهذا القول الذي عزاه إلى أهل التحقيق باطل بعيد عن الحق ، وحكم على كتاب الله بما عابه من اتباع الظن ، وما أهل التحقيق في عرفه إلا بنظر علم الكلام المبتدع وهو ظلمات بعضها على بعض ، ما ولد البدع المضلة إلا الاشتغال به ، وهذا التأويل الذي قال فيه ما قال لا يصح في اللغة ولا أصل له في كتاب الله ولا في سنة رسوله صلى الله عليه وآله ولا في الآثار عن أصحابه [رض] ولا عن أئمة سلف الامة كما ستراه قريبا . واما التأويل في لغة القرآن فله معنى واحد لا معنى له سواه وهو عاقبة الشيء وما له الذي يؤول إليه من بيان مصداقه المراد منه بالفعل كما قلنا آنفاً وبيناه بالتفصيل في تفسير آية المحكمات والمتشابهات من سورة آل عمران التي أطال الرازي في الكلام عليها فأخطأ خطأ محجة الصواب ، وحرم الحكمة وفصل الخطاب ، فكان أجدز بالخطأ هنا وقد اتزم الاختصار ، وأوضح الأدلة على ذلك بعد ما علمت من حملة التأويل على المعنى الاصطلاحى غفلته عن نفي إتيانه بحرف لما الدال على توقعه ، إذ معناه أن تأويله لم يأتيهم إلى الآن وإتيانه متوقع بعده ، وغفلته عن تشبيه تكذيبهم بتكذيب من

قبلهم في الجملة الآتية. والمتبادر منه أنه وعيد الله إياهم على تكذيبهم لرسوله ﷺ بالعذاب في الدنيا قبل الآخرة ونصره عليهم، وهو ما فسر الآية به امام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري قال :

« يقول تعالى ذكره : ما هم هؤلاء المشركين يا محمد تكذيبك ولكن بهم التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه مما أنزل الله عليك في هذا القرآن من وعيدهم على كفرهم بربهم (ولما يأتيهم تأويله) يقول ولما يأتيهم بعد بيان ما يؤول ذلك الوعيد الذي توعدهم الله في هذا القرآن (كذلك كذب الذين من قبلهم) يقول تعالى ذكره كما كذب هؤلاء المشركون يا محمد بوعيد الله ، كذلك كذب الأمم التي خلت قبلهم بوعيد الله إياهم على تكذيبهم رسالهم وكفرهم برههم » اهـ وكذلك قال البهوي في تفسير التأويل لانه محدث فقيه غير متكلم وتبعهما الجلال هنا وفي آية الاعراف الآتي ذكرها

الوصف الثالث التشبيه الذي ذكرناه في الاجمال وهو قوله تعالى ﴿ كذلك كذب

الذين من قبلهم ﴾ شبه تكذيب مشركي مكة لمحمد ﷺ بتكذيب من قبلهم من مشركي الأمم لرسالهم بما لم يحيطوا بعلمه قبل أن يأتيهم تأويله من عذاب الله الذي أوعدهم به ، كما ترى في قصصهم المفسرة في السور العديدة ولا سيما سورة الشعراء المبدوءة فيها بقوله (٢٦ : ١٠٥) كذبت قوم نوح المرسلين * كذبت عاد المرسلين * كذبت ثمود المرسلين) ثم ذكر لفظ التكذيب في وعيدهم كقول هود لقومه (١٣٥ :) إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم - إلى قوله - فكذبوه فأهلكناهم إن في ذلك لآية) الخ وقول صالح لقومه بعدهم إذ أتتهم آية الناقة (١٥٦) ولا تمسوها بسوء فإياخذكم عذاب يوم عظيم ١٥٧ فمقروها فأصبحوا نادمين ١٥٨ فأخذهم العذاب) الخ فهذه آيات أوله المراد من قوله هنا ﴿ فانظر كيف كان عاقبة الظالمين ﴾ أي فانظر أيها الرسول أو العاقل المتبر كيف كان عاقبة الظالمين لانفسهم بتكذيب رسالهم، وهو تأويل وعيدهم لهم ، لتعلم مصير الظالمين من بعدهم، وهذه العاقبة مبينة بالاجمال في قوله (٢٩ : ٤٠) فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الارض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا

أنفسهم يظلمون) وسيأتي ما يؤيد ما قررناه كاه قريبا في الآيات (٤٦ - ٥٥) وقد أنذر الله قوم محمد ﷺ منازل بالامم قبلهم في الدنيا بهذه الآية وغيرها من هذه السورة وفي سور كثيرة كما أنذرهم عذاب الآخرة، وكذبه المماندون المقلدون في كل منها ظانين أنه لا يقع، لا غير فاهمين لمعناه أو لاعجازه، ولكن قضت حكمته تعالى حفظ قومه من تكذيب أكثرهم، وما يقتضيه من أخذ عذاب الاستئصال لهم. وإرجع إلى قوله تعالى في سورة الاعراف (٥٢:٧) هل ينظرون إلا التأويله؟ يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق) الخ تعلم علم اليقين أن ما قررناه هو حق اليقين الذي لا تقبل غيره لغة القرآن، وأنه هو الذي يتفق مع سائر الآيات، وأن ما قرره الرازي هو الباطل والضلال المبين، الذي تدحضه الآية وما في معناها مما ذكرناه بعضه وأشرنا إلى بعض، فعمسى ان يكون قد استجاب الله دعاء شيخنا رحمه الله فينا إذ قال: ويخرج وحى الله للناس عاريا من الرأي والتأويل يهدي ويلاهم

﴿ استطراد في المتكلمين وتفسير امامهم الرازي ﴾

اعلم ان الفخر الرازي كان إمام نظار المتكلمين والاصوليين في عصره، وأن علماء النظر اعترفوا له بهذه الامامة من بعده، ولكن كنهه كان من أنهم حظا من علم السنة وآثار الصحابة والتابعين، وأئمة السلف من المفسرين والمحدثين، بل وصفه الحافظ الذهبي امام علم الرجال في عصره بالجهل بالحديث، فلم يجد التاج السبكي ما يدافع به عنه لأنه من أئمة الاشعرية الشافعية إلا الاعتراف بأنه لم يشتغل بهذا العلم وليس من أهله فلا معنى للطعن عليه بجهله ولا بذكره في رجاله المجروحين ولا المدلول، أما عمله بالكلام فقد قال بعض العارفين في وصف كتابه (محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين، من الفلاسفة والمتكلمين) ما ينبتك بحقيقته عند المحققين، وهو:

محصل في أصول الدين حاصله من بعد تحصيله علم بلا دين
 رأس الغواية في العقل السقيم فما فيه فأكشره وحى الشياطين
 و لشيخ الاسلام ابن تيمية مصنف مستقل في نقض (كتابه أساس التقديس) فيه
 ولولا أن تصدى لحياء شهباته في هذا العهد اثنان من مكثري النشر في

الصحف للمباحث الدينية، أحدهما شيخ أزهري، وثانيها كاتب مندي، لما أبدينا وأعدنا في تفنيد بدعه الكلامية المتخالفة لنصوص الكتاب والسنة التي يجملها، لأن بضاعة الاول نظريات متكاملي القرون الوسطى على قلة من يفهمها منهم اليوم، وبضاعة الثاني نظريات بعض الافرنج، ولما رأينا نظرية الرازي في التأويل تؤيد فهمها الباطل أراد الثأبى أرويجها في سوق العامة بتسميته امام المنسرين، وما كان إلا امام المتكلمين، وأما تفسيره فقد اشتهر قول بعض العلماء فيه: إن فيه كل شيء إلا التفسير كما في كتاب الاتقان. والحق أن هذه مبالغة في الانكار على ماهو الغرض الذي امتاز به تفسيره وهو نقل آراء الفلاسفة والمتكلمين، وحجج الممتزلة والشاعرة.

فلينظر القاري، المستقل الفهم كيف فعل تقليد المسلمين لهؤلاء المتكلمين في دينهم: ينقل لهم متكلم مفسر عن متكلم مجهول زعم أنه من أهل التحقيق أن هذه الآية من القرآن التي لم يعرف لغتها ولا معناها الناقل ولا المنقول عنه «تدل على أن من كان غير عارف بالتأويلات (التي ابتدعوها) وقع في الكفر والبدعة» وعال ذلك بما هو باطل من وجوه نكتفي منها بما لا يخفى على عامي ذكي ولا يلبد، وهو أن المؤمن بالنصوص اذا رأى فيها ماهو متعارض فإنه إما أن يبحث عن وجوه الترجيح بين المتعارضات بمقتضى القواعد التي وضعها علماء الاصول في (كتاب التعارض والترجيح) اذا رأى أنه أهل لذلك وفي حاجة إليه، وإما أن يترك هذا البحث إلى أهل معتقداً أنهم أعرف به، ولا يكون هذا تعارض الصوري سبباً لشك في القرآن أو انه ليس بحق مما يكون به مبتدعاً أو كفرة، ولو صح قول هذا القائل لوجب تحريم قراءة كتاب الله وكتب السنة على كل من لم يأخذ بقاعدتهم هذه ويتعلم علم الكلام وعلم أصول الفقه قبل تلاوته لاجلها، وان كان عالماً بهدي السلف وأقوال أئمتهم، وهذا تقييد لكتاب الله تعالى وصد عنه بتأويلاتهم المبتدعة بعد عصر النور الاول لهذه الامة، ولا يزد به أرب يحكموا على أكثر من يقرءونه بالكفر والبدعة، والحق أن هذه التأويلات التي فتنوا بها هي المثار الاكبر للشكوك والبدع التي هي بريد الكفر، وأن كتاب الله كاهدي ونور، وأصح بيان له سنة النبي صلى الله عليه وسلم وخير المهتدين بها ملة الامة وحفاظ السنة

وجملة القول ان مذهب السلف الصالح وجوب الايمان بكل ما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وما صح من وصف رسوله ﷺ له على ظاهره من غير تعطيل للمعنى اللغوي بجملة كالغوا ، ولا تمثيل بتشبيهه لله بحلقه يعد من النقص ، ولا تأويل يخرج الظاهر المتبادر عن معناه بمحض الرأي .

واعلم أيها القارئ أن الخواطر التي تعرض لبعض الناس مما لا يليق به تعالى لا تنقض إيمان الموقن بكتابه وصدق رسوله المنبوع لها ، كما ورد في الاحاديث الصحيحة تخمين يوسوس له الشيطان : من خاق الله؟ وفيمن اوصى بحرق جنته لثلاث بيعة لله وبيته . قال عبدالله بن مسعود (رض) سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة فقه لولا ان أحدنا ليجد في نفسه ما لأن يحترق حتى يصير حمة (اي حمة) او ينخر من السماء الى الارض احب اليه من ان يتكلم به ؟ قال «ذلك محض الايمان» رواه مسلم ، يعني ان الوسوسة لا يسلم أحد منها وان كراهة المؤمن لها دليل على إيمانه المحض الخالص هذا وان أكثر كبار النظار من المتكلمين قد رجعوا إلى مذهب السلف في

الايمان بظاهر النصوص وفي مقدمتهم امام الحرمين كما نقله عنه الحافظ ابن حجر في شرحه للبخاري (من كتاب التوحيد) ومن قبله والده الامام الجويني الذي نقل السبكي في ترجمته أن علماء عصره قالوا لو بعث الله تعالى نبيا في هذا العصر لكان الجويني ، ومن بعدها أبو حامد الغزالي في آخر عمره ، ونقل مثل هذا عن الفخر الرازي أيضا رحمهم الله ورحمنا ، وعفا عنهم وعنا ، وقد صرح الغزالي من قبل رجوعه الى مذهب السلف أن علم الكلام ليس من علوم الدين وانما هو لحراسة العقيدة كالحرص فلحاج (وأقول) انما راجت كتبه في عصرهم ، لأنها وضعت للرد على ملاحدتهم ومبتدعتهم ، ولا تنفع في الرد على ملاحدة هذا العصر ولا مبتدعته كما بيانه مرارا ، وأما تلقين المسامير أنفسهم المعقائد وقواعد الاسلام فيجب أن يعتمد فيها على آيات القرآن والمأثور في الاحاديث وسيرة الصحابة وعلماء التابعين وأئمة الهدى قبل ظهور البدع ، ومن أكبر الضلال أن يعتمد فيها على أقوال المتكلمين ، فتجعل أصلا ترد إليها آيات القرآن المبين ، إثارا لبياهم على بيانه ،

وإن تعجب فعجب جعلهم عقيدة السنوسية الصغرى الاساس الاول لتعليم

التوحيد في الأزهر وغيره وإنما هي نظريات كلامية غير شرعية وقد أخطأ محشوها
 وشراحها في جعل التوحيد عبارة عن نفي الذم المتصل والذم المنفصل في ذات الله
 وصفاته وأفعاله، أو المنفصل في أفعاله فقط، وهي فلسفة مبتدعة لا يعرفها الشرع
 ولا تدل عليها اللغة. كما أخطأ مؤلفها في تفسير كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » بلازم
 من لوازمها لا يتضمن معناها الذي لأجله جمعت عنوان الدعوة إلى الإسلام، وتحكم
 في صفات الله بالظن الذي ذمه الله بأنه لا يعني من الحق شيئاً، فزعم أن السمع والبصر
 يتبعان لجميع الموجودات، يعني أنه تعالى يسمع ذوات الجواهر وأعراضها كاللوان
 والصفات، ويرى الأصوات ويبصر اللغات. غافلاً عن ذلك وعن قوله (وان تقولوا
 على الله ما لا تعلمون) ومع هذا زعم بعض علماء الأزهر أن إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم
 يقرأ هذه العقيدة في الآخرة لأولاد المسلمين، وهو إمام الموحدين، الذي آناه
 حجته في الدنيا على قومه وهم علماء عصره وعلى سائر العالمين، واطمئنان القلب
 بكيفية أحيائه تعالى للميتين، فكيف يحتاج بعد كشف الحجب في الآخرة إلى
 نظريات السنوسي ومن فوقه من نظار المتكلمين ؟؟

وقد صرح السيد الألوسي تبعاً لغيره من المحققين العارفين، بما حققناه هنا في علم الكلام
 والتكلمين، عند الكلام على آية الظن في باب الإشارة من هذا السياق فقال ما نصه:
 (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) ذم لهم بعدم العلم بما يجب لمولاهم وما يتمتع وما
 يجوز، ولا يكاد يتجو من هذا الذم إلا قليل، ومنهم الذين عرفوه جل شأنه به
 لا بالتفكير، بل يكاد يقصر العلم عليهم، فإن أدلة أهل الرسوم من التكلمين وغيرهم
 متعارضة، وكلماتهم متجاذبة، فلا تكاد ترى دليلاً سالماً من قيل وقال، ونزاع وجدال،
 والوقوف على علم من ذلك مع ذلك أمر أبعد من العيوق، وأعز من بيض الانوق.

لقد طفت في تلك المعاهد كلها وسرحت طرفي بين تلك المعالم
 فلم أر إلا واضعاً كف حائر على ذقن أو قارعا سن نادماً
 فمن أراد النجاة فليفعل ما فعل القوم ليحصل له ما حصل لهم، أو لا فليتبع السلف
 الصالح فيما كانوا عليه في أمر دينهم، غير مكترث بمقالات الفلاسفة ومن حذا
 حذوهم من المتكلمين التي لا تزيد طالب الحق إلا شكاً اه

(٤٠) وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ، وَرَبُّكَ
أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ (٤١) وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ إِنِّي عَمَلِي وَإِلَّاكُمْ عَمَلِكُمْ
أَنْتُمْ بَرِيءُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ

لما بين تعالى في الآيات السابقة حال مشركي قريش في إهام النبي ﷺ باقتراء القرآن وتكذيبهم بوعيده لهم ، بين في هاتين الآيتين أقسام هؤلاء القوم في تكذيبهم ومستقبل أمرهم أو طاهمهم ومستقبلهم في الإيمان ، وفي عمل المكذبين بمقتضى تكذيبهم ، وعمل النبي ﷺ بمقتضى رسالته إلى أن يأتي أمر الله فيهم فقال :

﴿ وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ ﴾ يقول تعالى لرسوله خاتم النبيين ﷺ ان قومك لن يكونوا كأولئك الظالمين من قبلهم الذي كذبوا رسلكم الا قليلا منهم فكان عاقبتهم عذاب الاستئصال بل سيكون قومك قسمين : قسم سيؤمن بهذا القرآن وقسم لا يؤمن به أبدا ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِالْمُفْسِدِينَ ﴾ في الارض بالشرك والظلم والبعثي لفساد فطرتهم وفقدهم الاستعداد للإيمان وهم الذين يعذبهم في الدنيا فيخزيهم وينصرك عليهم ويجزيهم في الآخرة بفسادهم . وقيل ان الآية في بيان حالهم عند نزول هذه السورة وهي ان بعضهم يؤمن به في الباطن وانما يكذبه في الظاهر عنادا واستكبارا ، ومنهم من لا يؤمن به جهلا وتقليدا ، ومن هذا الفريق من فقد الاستعداد للإيمان وهم الاقلون وسيأتي وصف حالهم في الآيات ٤٢ - ٤٤ قريبا وله وجه . وأما الذي ليس له وجه صحيح فهو قول من فسروا التأويل بالمعنى الاصطلاحي الذي بينا فساد : ان هذا بيان لحالهم بعد إتيان التأويل المتوقع أي سيكون منهم حينئذ مؤمن وكافر ، لما بيناه من انه غير مراد ولا معنى لآتيانه ، وانه متى جاء تأويله المراد وهو وقوع العذاب يكون الإيمان به اضطراريا عاما وهو المنصوص في قوله تعالى (٧ : ٥٢) يوم يأتي تأويله يقول

[يونس ١٠] تشبيهه من يستمع الى الرسول ولا يعقل ما يسمع بالاصم ٣٨١

الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق (وتأويله بعذاب الاستئصال أو بقيام الساعة سواء في أنه لا ينفعهم معه لايمان إذ لا يقبل منهم بل يقال لهم حينئذ (الآن وقد كنتم به تستعجلون) كما يأتي في الآية (٥١) وانظر تفصيله في آخر سورة المؤمن (٨٢: ٤٠ - ٨٥) وسنبين في تفسير الآية (٤٦) عدم وقوع عذاب الاستئصال على هذه الأمة. وفي الآية تسليمة له صلى الله عليه وسلم يؤكدها ما بعدها وهو :

﴿ وإن كذبوك فقل لي عملي وإني أعلم عملكم ﴾ أي وإن أصرروا على تكذيبهم فقل لهم لي عملي بمقتضى رسالتي وهو البلاغ المبين. والانذار والتبشير، وما يستلزمه من العبادة والاصلاح، وما أنا عليكم بمسيطر ولا بجبار، وإني أعلم عملكم، بمقتضى تكذيبكم وشركم، وهو الظلم والفساد، الذي تجزون به يوم الحساب، ويقال لكم (هل تجزون الا بما كنتم تكسبون) كما يأتي في الآية (٥٢) من هذا السياق، وهذا كقوله تعالى (١٧: ٨٤) قل كل يعمل على شاكلته، فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً) ﴿ أنتم بريئون مما أعمل وأنا بريء مما تعملون ﴾ فلا يؤاخذ الله أحداً منا بعمل الآخر. وهذا كقوله (١١: ٣٥) أم يقولون افتراه قل ان اقربته فعلي إجرامي وأنا بريء مما تجرمون) وقوله (٢٦: ٢١٦) فان عصوك فقل لي بريء مما تعملون)

(٤٢) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمِعُ الصَّمَّ وَلَوْ

كَانُوا لَا يَعْطُونَ (٤٣) وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْىَ

وَلَوْ كَانَ أُولَا يَبْصُرُونَ (٤٤) إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ الْنَّاسَ شَيْئاً وَلَكِنَّ

النَّاسَ أَنْفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ

لما أنبأ الله رسوله بان من قومه من لا يؤمن بهذا القرآن حلاً ولا استقبالا
يؤذ لا ينفعهم البيان مهما يكن ناصحاً ، ولا يقنعهم البرهان وإن كان قاطعاً ، وان
الذي عليه في المصرين على تكذيبه منهم بعد ما جاءهم به من الآيات ، التي دعتهم

بالحجج البينات ، أن يتبرأ منهم ، وينتظر أمر الله فيهم ، كان من شأن هذا النبأ أن يثير عجبه لغرابته في نفسه ، وأن يسوءه لما يشير إليه من انتقام الله منهم ، بين له مثل الذين فقدوا الاستعداد للإيمان ، وعلمه ما لم يكن يعلمه من سنة الله تعالى فيهم ، وكون مصيبتهم من أنفسهم ، فلا حول له ولا قوة على هدايتهم ، فقال :

﴿ ومنهم من يستمعون إليك ﴾ أي يصيخون بإساعهم مصغين إليك إذا قرأت القرآن ، أو بينت ما فيه من أصول الإيمان والأحكام ، ولكنهم لا يسمعون إذ يستمعون ، إذ لا يتدبرون القول ولا يعقلون ما يراد به ، ولا يفقهون ما يرمى إليه ، لان الاستماع إليك مقصود عندهم لذاته لا لما يراد به ، وهي بلاغته في غراية نظمه ، وجرس الصوت بترتيبه ، كن يستمع الى طائر يفرد على فئته ، ليستمتع بصوته لا ليفهم منه ، كما قال (٢ : ٢١) ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون ٣ لاهية قلوبهم) أو كالبهايم يصبح بها الراعي فترفع رءوسها لاستماع صوته الذي راعها فصرقها عن رعيها ، كما قال (٢ : ١٧١) ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء . صم بكم عمي فهم لا يعقلون) أو كما قال (٦ : ٢٥) ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً) والقاعدة الطبيعية الشرعية ان الامور بمقاصدها . ونحن نرى كثيراً من الناس يقصدون قراء القرآن في ليالي رمضان أو في المآثم ليستمعوا الى فلان القاري . الحسن الصوت لغرض التلذذ بترتيبه وتوقيع صوته ، أو بلاغته ولا أحد منهم ينتفع بشيء من مواعظ القرآن ونذره ، وحكمه وعبره ، ولا عقائده وأحكامه ، ومنهم المسلمون وغير المسلمين ، بل سمعت بأذني من غير المسلمين من يستمع القرآن ويعجب من شدة تأثيره وتعاظه في أعماق القلب وهو لا يؤمن به ، ولهذا قال تعالى

﴿ أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ﴾ هذا الاستفهام للانكار ، يعني ان السماع النافع المستمع هو ما عقل به ما يسمعه وفقهه وعمل بمقتضاه ، فمن فقد هذا كان كالاصم الذي لا يسمع ، وأنت أيها الرسول لم تؤثر القدرة على إسماع الصم أي فاقدى حاسة السمع حقيقة ، فكذلك لا تستطيع الإسماع النافع للصم مجازاً وهم الذين لا يعقلون

ما يسمعون ولا يفقهون معناد فيهدوا به. والبلاغة في ظاهر تعبير الآية ووصفهم بفقد السمع والعقل معاً، وهو مجاز قطعاً، لأن من فقد الحس والعقل حقيقة لا يكون مكلفاً. وإذا كان المراد بالعقل المنفي هنا عقل الكلام وفهمه فهو يقتضي ثبوت السماع ونفي انصم الحقيقيين.

﴿ ومنهم من ينظر إليك ﴾ أي يوجه أشمة بصره إليك عند ما قرأ القرآن ولكنه لا يبصر ما آتاك الله من نور الايمان ، وهيبة الخشوع للديان ، وكل الخلق والخلق ، وأمارات الهدى والحق ، وآيات التزام الصدق ، التي عبر عنها أحد أولي البصيرة بقوله عند ما رأى النبي ﷺ : والله ما هذا بوجه كذاب ، وقال فيه آخر : لو لم تكن فيه آيات منبئة كانت بديهته تفنيك بالخبر

وقال حكيم افرنجي : كان محمد يقرأ القرآن في حالة وله وتأثر وتأثير ، فيجذب به الى الايمان أضعاف من جذبهم آيات موسى وعيسى (عليهم السلام) ومن فقد البصيرة العقلية والعقلية فيما يراه ببصره ، فجمع بين وجود النظر الحسي بالعينين ، وعدم النظر المعنوي بالعقل ، فهو محروم من هداية البصر وهي البصيرة التي يمتاز بها الانسان عن بصر الحيوان ، فكانه أعمى العينين ﴿ أفأنت تهدي

العمى ولو كانوا لا يبصرون ﴾ أي أنك أيها الرسول لست بقادر على هداية العمى بدلائل البصر الحسية ، فكذلك لا تقدر على هدايتهم بدلائل العقلية ، ولو كانوا فاقدين لنعمة البصيرة التي تدر كمها ؟ وقد أسند فعل الاستماع الى الجمع لكثرة تفاوت المستمعين واختلاف أحوالهم فيه وأسند فعل النظر الى المفرد لانه جنس واحد ، ولكنه أفرد السمع وجمع الابصار في بضع آيات منها ٣١ من هذه السورة لما ذكرناه في تفسيرها ، والمراد من الآيتين أن هداية الدين كهداية الحس ، لا تكون الا للمستعد لها بهداية العقل ، بأن هداية العقل لا تحصل الا بتوجه النفس وصحة القصد ، وهذا الصنف من الكفار قد انصرفت أنفسهم عن استعمال عقولهم في الدلائل البصرية والسمعية لادراك مطالب من المطالب مما وراء شهواتهم وتقاليدهم ، وليس المراد أنهم فقدوا نعمة العقل الفرجاني ، ولا نعمة الحواس بل استعمالها النافع - كما قل في سورة الاعراف (٧ : ١٧٩) ولقد فرأنا لجهنم كثيراً من الجن والانس لهم قلوب لا يفقهون بها

ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالانعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) فراجع تفسيرها للاعتبار والاعتناء. وقد بين ذلك بيانا مستأنفا بما يبطل القول بالجبر فقال

﴿إن الله لا يظلم الناس شيئا﴾ أي الله تعالى لم يكن من شأنه ولا من سنته في خلق الناس أن ينقصهم شيئا من الأسباب التي بهتدون باستعمالها الى ما فيه خيرهم ومنفعتهم من الاعمال الاختيارية الموصلة الى سعادة الدنيا والآخرة وهي الخواص والعقل وسائر القوى ، فالظلم هنا بمعناه اللغوي الاصلي وهو نقص ما تقتضي الخلقة الكاملة وجوده كقوله تعالى (كما الجنتين أتت أكلاها ولم تظلم منه شيئا)

﴿ولكن الناس أنفسهم يظلمون﴾ أي يظلمونها وحدها لان عقاب ظلمهم واقع عليهم دون غيرهم ، فهم يحنون عليها بكفرهم بما أنعم الله عليهم من هدايات للمشاعر والعقل والدين ، وهو عدم استعمالها فيما منحهم إياها لأجله من اتباع الحق في الاعتقاد والهدى في الاعمال ، وهو انصراف المستقيم الموصول الى سعادة الدارين ، المدحجي من عقابها وقراً حمزة والكسائي (ولكن) بتخفيف النون و(الناس) بالرفع .

وقد وضع الليم الظاهر موضع الضمير إذ قال «ولكن الناس» ولم يقل «ولكنهم» .
للإشارة الى ان هذا الظلم خاص بهم دون سائر أنواع الحيوان فانها لانعدو في استعمال مشاعرها وقواها ما خلقت لأجله من حفظ حياتها الشخصية والنوعية ، وأما الناس فقد يستعملونها فيما يضرهم في حياتهم الحيوانية الدنيوية ، وفي حياتهم الروحية الآخروية ، كما قال (أم تحسب ان أكثرهم يسمعون أو يعقلون ان هم إلا كالانعام بل هم أضل سبيلا) وقدم المفعول (أنفسهم) على عامله لإفادة قصر هذا الظلم على أنفسهم دون غيرهم أو دون ربهم الذي كفروا بنعمه ، كما قال تعالى في بني اسرائيل من سورة البقرة (٥٤: ٢) وسورة الاعراف (١٥٩: ٧) وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) هذا هو المتبادر في هذا المقام من نفي ظلم الناس عن الله تعالى وقصره على أنفسهم ،

ويحتمل أن يراد به انه تعالى لا يظلمهم بعقابه لهم شيئا بأن يعاقبهم على غير ذنب أو يزيد على قدر الذنب ، ولكن الناس هم الذين يظلمون أنفسهم بذنوبهم دون غيرهم ، على قاعدة (٦: ١٦٤) ولا تكسب كل نفس الا عليها) الآية فراجع

تفسيرها مع ما هنا ، وطسب نفسك ، وذكر غيرك ، ولا تجعلوا هذه الحكم البليغة حكاية للتسليمية بهجو الكفار ، فانما هي حقائق هادية للموعظة والاستبصار

(٤٥) وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبَسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُتَدِينِينَ

هذه الآية للتذكير بمقدار ظلم المشركين لانفسهم وخسارتهم لها في الآخرة بتكذيبهم النبي ﷺ وكفرهم بالقرآن ووعيده لهم وغرورهم بدنياهم الحقيرة مصداقا للآية التي قبلها ، قال

﴿ ويوم يحشرهم ﴾ أي واذكر أنها الرسول لهم أو أنذرهم يوم يحشرهم الله - وهذه قراءة حمزة عن عاصم وقرأها الباقون (يحشرهم) بالنون أي نجمة بهم ببعثهم بعد موتهم ونسوقهم الى مواقف الحساب والجزاء ﴿ كأن لم يلبسوا إلا ساعة من النهار يتعارفون بينهم ﴾ أي كأنهم لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة قليلة من النهار ريثما يعرف فيها بعضهم بعضاً كأولي القربى والجيران ثم زالت ، فان الساعة يضرب بها المثل في قلة المدة . فالتشبيهه بيان لحالهم في تذكرهم في الدنيا . يعني ان هذه الحياة الدنيا التي غرهم بمتاعها الحقير الزائل قصيرة ستزول بعذابهم أو موتهم ، وسيقدرون يوم القيامة قصرها بساعة من النهار لاتسع أكثر من التعارف القليل ، كما قال في آخر سورة الاحقاف (٤٦ : ٣٥) كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبسوا إلا ساعة من نهار) وفي سورة الروم (٣٠ : ٥٥) ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون) وفي معناها قوله تعالى في آخر النازعات (٧٩) عن الساعة) كأنهم يوم يرونها لم يلبسوا إلا عشية أو ضحاها) وفي آيات أخرى أن أهل الموقف يختلفون في هذا التقدير أي بحسب اختلاف أحوالهم في ذلك « تفسير القرآن الحكيم » « ٤٩ » « الجزء الحادي عشر »

اليوم فانه تعالى قال بعد آية سورة الروم (٥٦) وقال الذين أتوا العلم والايان اقد ايتمت في كتاب الله الى يوم البعث . فهذا يوم البعث وانكنتم كنتم لاتعلمون) وفي سورة المؤمنون (٢٣ : ١١٢) قال كم لبثتم في الارض عدد سنين ١١٣؟ قالوا لبثنا يوما أو بعض يوم فاسأل العادين ١١٤ قال إن لبثتم إلا قليلا لو انكم كنتم تعلمون) وفي سورة طه يختلفون بين اليوم والعشر . وقيل إن المعنى انهم يتعارفون بينهم يوم يحشرون كأنهم لم يتعارفوا لقصر مدة الفراق ، وتم أقوال أخرى في التشبيه يبطلها ما أوردنا من الآيات في شواهد

﴿ قد خسر الذين كذبوا بلفاء الله ﴾ اي خسروا السعادة الابدية إذ لم يستعدوا له بالايان وعمل الصالحات الزكية للنفس ، المرقية للروح ، بما تكون أهلا لسكرامته ومثوبته ، ورضوانه الاكبر في جناته ، فأثروا عليها حياة الدنيا القصيرة الحقيرة ، المنصبة بالأكدار ، السريعة الزوال ، التي يقدرونها يوم الحشر بساعة من نهار والجملة بيان مستأنف منه تعالى لخسران الذين كذبوا بلفاء الله من أهل مكة وغيرهم ، ولذلك ذكرهم بصفتهم المقتضية له وهي التكذيب وعطف عليه ﴿ وما كانوا مهتدين ﴾ فيما اختاروه لأنفسهم من إيثار الخسيس الغاني ، على النيس الخالد الباقي ، أو هي معطوفة على جملة « قد خسر » أي خسروا تجارتهم وأنفسهم ، وما كانوا مهتدين الى أسباب النجاة والرجح من الاعمال الصالحة التي هي ثمرات الايمان كما قال (٢ : ١٦) فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) وقد تقدم ذكر الذين لا يرجون لقاء الله تعالى في الآيات ٧ و ١١ و ١٥ من هذه السورة ، وتقدم ذكر خسرانهم في سورة الانعام (٣١ : ٧) ،

(٤٦) وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتُوفِّيَنَّكَ فَلَإِنَّنَا

مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ (٤٧) وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا

جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٤٨) وَيَقُولُونَ

مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤٩) قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا

وَلَا تَقْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا
يَسْتُمْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ (٥٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَيْكُمْ
عَذَابٌ بَيْنَمَا أَوْ تَهَارًا مَاذَا يَسْتَعِجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ (٥١) أَمْ إِذَا
مَآوِعَ آمَنْتُمْ بِهِ؟ أَلَسْنَا وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (٥٢) ثُمَّ قِيلَ
لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنْتُمْ
تَكْسِبُونَ (٥٣) وَيَسْتَدْبِرُونَكَ أَحَقُّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقٌّ
وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ (٥٤) وَأَوَّ أَنْ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ
لَا فِتْنَتَ بِهِ وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ
بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٥٥) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٦) هُوَ يُحْيِي
وَيُمِيتُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

هذه الآيات تنمة الرد على المشركين في تكذيب ما لم يحيطوا بعلمه ولما
يأتهم تأويله من العقاب الذي سبق في الآية ٣٩ وما بعدها

﴿وإما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ هذه جملة شرطية زيدت (ما) في حرف
الشرط (إن) وتون التوكيد في فعله فكان توكيده مزدوجاً . والمراد بالآية
تأكيد وقوع ما وعد الله هؤلاء المشركين من العقاب في الدنيا والآخرة بشرطه
فيها لا يتخلف منها شيء في جملتها ، سواء أرى الله النبي ﷺ بعض القسم
الأول منه وشاهده ، أم توفاه قبل إراءته إياه . فإبهام الله تعالى إياه للحكمة المتضمنة
له في أوائل البعثة من جهة قربه أو بعده ، ورؤيته ﷺ له وعدم رؤيته ،

لا يفيد شئاً ، وسندين هذه الحكمة في إيهامه . فالعنى وإن نرينك أيها الرسول بعض الذي نعدم من العقاب في الدنيا فذاك — وفيه اشارة الى أنه سير به بعضه لا كما ، ﴿ أو نتوفينك ﴾ بقبضك إيلنا قبل إرائتك إياه ﴿ فإلنا مرجعهم ﴾ وعلينا حسابهم ، حيث يكون القسم الثاني منه وهو عقاب الآخرة ، ويجوز ان يجعل هذا جواب الشرط بقسميه ، والمعنى فالينا وحدثنا يرجع أمرهم في الخالين ﴿ نعم الله شهيد على ما يفعلون ﴾ بعدك أو مطلقاً فيجزئهم به على علم وشهادة حق ، والمراد أنه لا فائدة لهم مما حكاه تعالى عنهم في تريضهم موت النبي ﷺ واستراحتهم من دعوته ونذره بموته كما تراه في سورة الطور وآخر سورة طه ، فالعذاب واقع ماله من دافع وقد ورد بمعنى هذه الآية قوله تعالى (٤٠ : ٧٧ فاصبر إن وعد الله حق فاما نرينك بعض الذي نعدم أو نتوفينك فالينا يرجعون) ويليهما آية بمعنى الآية التي تلي هذه ذكر فيها الرسل وكون آياتهم باذن الله لا من كسبهم ، والقضاء على أقوامهم بالهلاك بعدها ، ومنها قوله بعد آية في إرسال الرسل وكون آياتهم انما هي باذن الله ولكل أجل كتاب (١٣ : ٤٠) وإما نرينك بعض الذي نعدم أو نتوفينك فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وما بعدها في معنى السياق الذي هنا . وقوله (٤٣ : ٤١) فاما نذهبن بك فاننا منهن منتقمون ٤٢ أو نرينك الذي وعدناهم فانا عليهم مقتدرون) وقبلها (أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين) وهو بمعنى ما قبل هذه أيضا .

وقد أبهم أمر عذاب الدنيا في كل هذه الآيات وآيات اخرى فلم يصرح بأنه سيقع بهم ما وقع بالأئم التي كذبت الرسل من قبلهم وهو عذاب الاستئصال ولكنه أشار اليه في قوله (٢٣ : ٩٣ قل رب إما تريني ما يوعدون ٩٤ رب فلا تجعلني في اقوم الظالمين) أي كما هي سنتك في رسلك الاولين ، وقد أجاب الله دعاه فقال (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم)

وحكمة هذا الإيهام التخويف من جميع أنواع الوعيد مع علمه تعالى ان عذاب الاستئصال ان يقع على قومه ﷺ لان شرطه أن يجيئهم ما اقترحوا من آية كونية

ويعصروا بعده التكذيب ولن يقع ، ولكن في آية يونس هذه إشارة الى ان الله تعالى سيرى رسوله بعد نزولها بعض الذي يعدم لا كاه ، وقد أنجز له ذلك فأراه منازل بهم من القحط والمجاعة بدعائه عليهم ، ونصره عليهم أعظم النصر في أول معركة هاجمه بها رؤسائهم وصناديدهم وهي غزوة بدر وفي غيرها الى فتح عاصمتهم الكبرى أم القرى وإكمال الدين ودخول الناس فيه أفواجا ، وقد تقدم بيان ذلك كله في مواضعه

﴿ ولكل أمة رسول ﴾ أي انه تعالى جعل لكل أمة من الامم الخالية رسولا بعثه فيها في وقت الحاجة اليه يبين لهم أصول دينه الثلاث : الايمان بالله ، واليوم الآخر ، والعمل الصالح المناسب لحال زمنهم ﴿ فاذا جاء رسولهم ﴾ وقامت الحجة عليهم ﴿ قضى بينهم بالقسط ﴾ أي قضى الله بينهم بالعدل ﴿ وهم لا يظلمون ﴾ في قضاائه تعالى كما تقدم وسيأتي تأكيد قريبا .

﴿ ويقولون متى هذا الوعد ﴾ أي ويقول كفار قريش للنبي ومن اتبعه من المؤمنين : متى يقع هذا الوعد الذي تعدونا به ﴿ إن كنتم صادقين ﴾ في قولكم ان الله تعالى سينتقم لكم منا وينصركم علينا ، أي في مثل قوله (١٩ : ٧٥) حتى اذا رآوا ما يوعدون إما العذاب وإما الساعة فسيعلمون من هو شرمكانا وأضعف جنداً) . وقوله (١٩ : ٧٥) حتى اذا رآوا ما يوعدون فسيعلمون من أضعف ناصرأ وأقل عدداً ﴿ قل إن أدري أقرب ما توعدون أم يجعل له ربي أمداً ﴾ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً) الخ وههنا لقن الله رسوله ﷺ الجواب بقوله ﴿ قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً ﴾ أي اني بشر رسول لا أملك لنفسي فضلا عن غيرها شيئاً من التصرف في الضر فأدفعه عنها ولا النعم فأجلبها ، من غير طريق الاسباب التي يقدر غيري عليهم ، وليس منها إنزال العذاب بالكفار المعاندين ، ولا هبة النصر للمؤمنين ﴿ إلا ما شاء الله ﴾ أي لكن ماشاء الله من ذلك كان متى شاء لاشأن لي فيه لأنه خاص بالربوبية دون الرسالة التي وظيفتها التبليغ لا التكوين . هكذا قال جمهور المفسرين ان الاستثناء هنا منقطع وله أمثال تقدم بعضها كقوله تعالى وهو من أظهرها الصريح في هذا

المقام (٧ : ١٨٨) قل لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون) والاختلاف بين الآيتين في تقديم ذكر الضر على النفع وتأخيره لاختلاف المقام ، فقد قدم الضر في آية يونس لأنها جواب للمشركين عن ميعاد العذاب الذي أنذروا به ، وهو من الضر ، وقدم النفع في آية الاعراف لان المقام بيان الحقيقة في نفسها ، وهو ان الرسول لا يملك لنفسه شيئا من التصرف في الكون بغير الاسباب العامة فضلا عن ملكه لغيره ، والمناسب في هذا تقديم النفع لأنه هو المقصود بالذات من تصرف الانسان وسميه لنفسه . وقيل ان الاستثناء متصل وحينئذ يكون المنفي المستثنى منه عاما لما يملكه الانسان بالاسباب العادية فيكون المعنى إلا ما شاء الله تعالى ان أملكه بما أعطاني من الكسب الاختياري مع تيسير أسبابه لي ، وأما الآيات الخارقة للعادة فهي لله وحده ، لانما يملكه رسوله

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال بقوله ﴿ لكل أمة أجل ﴾ لبقائها واهلاكها

علمه الله وقدرها لا يعلمه ولا يقدر عليه غيره ﴿ إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ﴾ أي فلا يملك رسولهم من دونه تعالى أن يقدمه ولا أن يؤخره ساعة عن الزمان المقدر له وإن قالت ، ولا أن يطلب ذلك منه تعالى ، وهو معني ما تدل عليه السنين والنساء في الاصل - وقد حققنا معنى هذا النص في آية سورة الاعراف (٧ : ٣٤) بإفظاه فاستغرق أربع ورقات من جزء التفسير الثامن فليدراجمه من شاء ، إلا أنه قال هنالك (فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون) النخ وقال هنا (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون) النخ والفرق بينهما ان ما هنا أبلغ في نفي تأخير الوعيد لانه تنفيذ لاستعجالهم به ، وذلك أنه جعل الجملة الشرطية وصفا للأجل مرتبطا به مباشرة لا يتخلف عنه ، وما هنالك إخبار بآجال الامم مبتدأ وما بعده تفرع عليه ، فهو لا يدل على لزومه له بلا مبهمة كالذي هنا . وقد تكرر هذا السؤال من المشركين مع جوابه في سور أخرى ، وأشبهه بما هنا سياق سورة المل وأجيب فيها بقوله

(٢٧ . ٧٢ قل عسى أن يكون ردكم بعض الذي تستهجلون) وهو من ردفه اذا لحقه وتبعه ، وعدي باللام لتأكيد أو تضمينه معنى يناسبه وقد بلغ من جهل الخرافيين من المسلمين بتوحيد الله أن مثل هذه النصوص من آيات التوحيد لم تصد الجاهلين به منهم عن دعوى قدرة الانبياء والصالحين حتى الميتين منهم على كل شيء من التصرف في نفهم وضرهم مما لم يجعله الله تعالى من الكسب المقدر لهم بمقتضى سننه في الاسباب ، بل يعتقدون أن منهم من يتصرفون في الكون كله ، كالذين يسمونهم الاقطاب الاربعة . وان بعض كبار علماء الازهر في هذا العصر يكتب هذا حتى في مجلة الازهر الرسمية (نور الاسلام) فيفتي بجواز دعاء غير الله من الموتي والاستغاثة بهم في كل ما يعجزون عنه من جلب نفع ودفع ضر ، وأف بعضهم كتابا في إثبات ذلك وكون الميتين من الصالحين ينفعون ويضررون بانفسهم ، ويخرجون من قبورهم فيقتضون حوائج من يدعونهم ويستغيثون بهم . قل في فتح البيان بعد نقله القول الاول في الاستثناء عن أئمة المفسرين وترجيحه مانصه :

« وفي هذا أعظم وازع وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المنادة لرسول الله ﷺ أو الاستغاثة به عند نزول النوازل التي لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه . وكذلك من صار يطلب من الرسول ﷺ ما لا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فان هذا مقام رب العالمين ، الذي خلق الانبياء والصالحين وجميع الخلق ، ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الانبياء أو ملك من الملائكة أو صالح من الصالحين ما هو عاجز عنه غير قادر عليه ؟ ويترك الطلب لرب الارباب القادر على كل شيء ، الخالق الرازق المعطي المانع ؟ وحسبك بما في هذه الآية من موعظة فان هذا سيد ولد آدم وخاتم الرسل يأمره الله بان يقول لعباده (لا أم لك لنفسي ضراً ولا نفعاً) فكيف يملكه لغيره ؟ وكيف يملكه غيره - ممن رتبته دون رتبته ومنزلته لا يتابع الى منزلته - لنفسه ، فضلا عن أن يملكه لغيره ؟

« فيا عجباً لقوم يعكفون على قبور الاموات الذين قد صاروا تحت اطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج ما لا يقدر عليه إلا الله عز وجل ؟ كيف لا يتيقظون لما

وقعوا فيه من الشرك ، ولا ينتبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى لا اله الا الله ، ومدلول (قل هو الله أحد) « وأعجب من هذا اطلاع أهل العلم على ما يقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ، ولا يحولون بينهم وبين الرجوع الى الجاهلية الاولى ، بل الى ما هو أشد منها . فان أولئك يعترفون بان الله سبحانه هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، الضار النافع ، وانما يعملون أصنامهم شغاف لهم عند الله ومقربين لهم اليه ، وهؤلاء يعملون لهم قدرة على الضر والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذي الجلال ، وكفالك من شر سماعة ، والله ناصر دينه ، ومظهر شريعته من أوصار الشرك وأدناس الكفر . ولقد توسل الشيطان أخزاه الله بهذه الذريعة الى ما تقربه عينه وينتاج به صدره من كفر كثير من هذه الامة المباركة (وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا) انا لله وانا اليه راجعون » اهـ

﴿ قل أرأيتم إن أناكم عذابه بيانا أو نهارا ﴾ أي قل لهم أيها الرسول أخبروني عن حالكم وما يمكنكم فعله ان أناكم عذابه الذي تستعجلون به في وقت ميئتكم في الليل أو وقت اشتغالكم بلهوكم ولعبكم أو أمور معاشكم بالنهار ، وهو لا يعدوهما (كما تقدم في الآيات ٤ و ٩٧ و ٩٨ من سورة الاعراف ٧)

﴿ ماذا يستعجل منه المجرمون ﴾ أي شيء أو أي نوع يستعجل منه المجرمون المكذبون الآن ؟ أعذاب الدنيا أم قيام الساعة ؟ أيا ما استعجلوا فهو حماقة وجهالة . وقيل ان المعنى ماذا يستعجل منه المجرمون منكم إن أناكم ، أي ان جملة الاستفهام جواب للشرط فيما قبلها ، وفيه بحث للنجاة الذين أوجبوا اقتران مثل هذا الجواب بالغناء وخالفهم غيرهم لا نعرض له ، وقد تقدم في سورة الانعام (٦ : ٤٧) قل أرأيتم ان أناكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ وتقدم في تفسيرها وتفسير ما قبلها ان الاستفهام في (أرأيتم) و (أرأيتم) مستعمل في اللغة بمعنى أخبروني عن حالكم وما يكون من عملكم ان أناكم ذلك ؟

﴿ ثم اذا ما وقع آمنتم به ﴾ قرأ الجمهور (ثم) بالضم وهو حرف عطف يدل على الترتيب والتأخر والتراخي ، وقرئ بالفتح وهو اسم إشارة بمعنى هنالك .

قال ابن جرير الطبري ومعنى قوله (أتم) في هذا الموضع أهنا لك ، وليس « تم » ههنا التي تأتي بمعنى العطف اه ولم يضبطها بفتح الاء فظاهر قوله ان المضمومة تأتي ظرفاً أيضاً وهذا لم يرو عن أحد من العرب ، بل قال ابن هشام في المعنى وقد نقله عنه : وهذا وهم أشد به عليه تم المضمومة الاء بالفتوحتها اه

وأما على قراءة الجمهور فهذا استفهام آخر معطوف على فعل مقدر بعد الهمزة . علم مما قبله من إنكار استعجال مجرميهم بالعذاب ، كما يقدر مثله بعد حرف الاستفهام الداخلي في مثل قوله (أو عجبتم ان جاءكم ذكر من ربكم ؟) وقوله (أخسبتم أملاً خلقناكم عبثاً ؟) وتقدير الكلام ، أيستعجل بالعذاب مجرموكم الذين هم أحق بالخوف منه بدلا من الايمان الذي يدفعه عنهم وعنكم ، ثم اذا وقع بالفعل آمنتم به إذ لا ينفع الايمان ، لانه صار ضرورياً بالمشاهدة والعيان ، لا تصديقا للرسول عليه السلام ، وقيل لكم حينئذ من قبل الله تعالى تقرىعاً وتوبيخاً (آلان) آمنتم به اضطراراً ؟ وقد كنتم به تستعجلون ؟ تم كذبا به واستكباراً ؟ وقرأ نافع (آلان) بحذف الهمزة وإلقاء حركتها على اللام ، والجملة حالية ، والاستعجال يتضمن المبالغة في التكذيب المقابل للايمان ، وسيأتي في هذه السورة إيمان فرعون عند ادراك الفرق إياه وأنه يقال له (آلان) وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)

(ثم قيل للذين ظلموا) (قيل) هذه معطوفة على قيل المقدره قبل (آلان) وقد كنتم به تستعجلون) أي ثم قيل للذين ظلموا أنفسهم بالكفر برسالة الوعد والوعيد ، وما يترتب عليه من الفساد والضلال البعيد (ذوقوا عذاب الخلد) الخلد كالخلود مصدر خلد الشيء اذا بقي على حالة واحدة لا يتغير ، وخلد الشخص في المكان اذا طال مكثه فيه ، لا يرحل ولا هو به دداً التحول عنه . وظاهر اضافة العذاب الى الخلد أن المراد به البقاء على حالة واحدة مؤلمة ، ويعتمل إرادة العذاب الخالد الدائم وهو الموافق للآيات الكثيرة المطلقة في الاكثر والمقيدة بعشيرة الله تعالى في سورة الانعام (٦ : ١٢٨) وقد تقدم تفسيرها ، وفي سورة هود وسيأتي .

﴿ هل تجزون إلا بما كنتم تكسبون ﴾ أي لا تجزون إلا بما كنتم تكسبونه باختياركم من الكفر والظلم والفساد في الارض ، والعزم على اثبات عليه وعدم التحول عنه ، وليس فيه شيء من الظلم ، لانه أثر لازم لتدسية النفس وفسادها بالظلم ، حتى لم تعد أهلاً لجوار الرب عز وجل وليس عذاباً أنفاً من خارجها ، وتقدم بيانه في تفسير قوله تعالى (٦ : ١٣٩ سيجزيهم وصفهم)

﴿ ويستنبؤنك أحق هو ؟ ﴾ النبأ الخبر المهم ذو الفائدة العظيمة والاستنباء طلبه ، وهذا إخبار عن بعض الكفار والمكذبين فأنهم لم يكونوا على يقين من تكذيبهم وإنما كانوا ظانين مستبعدين ، بين معاندين ومقلدين ، وقد تقدم في هذا السياق قوله تعالى (وما يتبع أكثرهم إلا ظناً) والمعنى ويسألونك أيها الرسول أن تنبئهم عن هذا العذاب الذي تعدم به في الدنيا والآخرة أحق هو سيقع بالفعل ؟ أم هو إهاب وتخويف ؟ ﴿ قل إي وربي انه لحق ﴾ إي بكسر الهمزة وسكون الياء الخفيفة بحرف جواب وتصديق بمعنى نعم ، وإنما يستعمل مع القسم ، أي نعم أقسم لكم بربي انه لحق واقع ، كما قال في أول سورة الطور بعد القسم (ان عذاب ربك لواقع

ماله من دافع) وقد أكده هنا بالقسم وبأن مع الجملة الاسمية ﴿ وما أنتم بمعجزين ﴾ .
 الله تعالى عن إنزاله بكم ، ولا بقائتيه هرباً منه ، وقد علم مؤمنوا الجن ما جهلتم إذ قالوا كما حكى الله عنهم (وأنا ظننا ان لن نعجز الله في الارض وان نعجزه هرباً)
 وقد استشكل بعض المفسرين السؤال باستبعاد أن يكون الاستفهام حقيقةً من المكذبين ، والجواب بزعمهم ان تأكيدهم بالقسم وغيره من المؤكيدات اللفظية لا يقع السائلين ، ومن عرف أخلاق العرب في زمن البعثة لم يستشكل السؤال إلا أن يكون السائلون من المعاندين للرسول ﷺ فينبغي أن يكون الاستفهام لنتهم والاستهزاء ، أو كما قيل . إنما سألتوا أهو جد أم هزل ، فأرادوا من الحق لازمه وهو الجد لا مقابل الباطل ، والمعروف من أخلاق العرب في ذلك العهد أنه كان يقل فيهم الكذب لئلا يفتخروا ، وعدم خضوعهم لرياسة استبدادية تضطربهم إليه ، وكانوا

يهايون الايمان الباطلة ويخفونها، ومن المنقول عنهم ان الايمان الفاجرة تدع الديار بلاقع ، وناهيك بما اشتهر به النبي ﷺ منذ صغره من الصدق والامانة حتى لقبوه بالامين ، وقد ثبت في الاحاديث الصحيحة أن بعضهم كان يسأله عن نبوته وعن الشرائع ويستحلفه فاذا حلف اطمأن لصدقه واتبعه ، وإن صدق عرب الجاهلية ليقبل مثله في رجال الدين وغيرهم من اهل هذا العصر حتى المسلمين منهم

روى احمد والشيخان وأصحاب السنن الثلاثة واللفظ للبخاري عن أنس قال بينما نحن مع رسول الله ﷺ في المسجد إذ دخل رجل على رجل فاناخه في المسجد ثم عقله ثم قال : أيكم محمد؟ قلنا هذا الرجل الابيض المتكلم فقال : ابن عبدالمطلب فقال النبي ﷺ « قد أجبتك » فقال إني سألتك فمشدد عليك في المسألة فلا تجهد علي في نفسك ، قال « سل عما بدا لك » فقال أسألك بربك ورب من قبلك الله . أرسلك الى الناس كلهم؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله الله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله الله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال « اللهم نعم » قال أنشدك بالله الله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ قال « اللهم نعم » قال آمنت بما جئت به ، وأنا رسول من ورأي قومي ، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر . ولفظ مسلم عنه : قال أنس نهيتنا في القرآن أن نسأل رسول الله ﷺ عن شيء (١) فكان يعجبنا أن يجيء الرجل العاقل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع ، فجاء رجل من أهل البادية فقال يا محمد ، أنا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك ، قال « صدق » قال فمن خلق السماء؟ قال « الله » قال فمن خلق الارض؟ قال « الله » قال فمن نصب هذه الجبال فجعل فيها ما جعل؟ قال « الله » قال فبالذي خالق السماء وخلق الارض ونصب الجبال الله أرسلك؟ قال « نعم » (ثم سأله بالذي أرسله عن كل من الصلوات والزكاة وصيام رمضان والحج

(١) يعني في قوله تعالى (لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم) أي لئلا تكثر التكليف عليهم وراجع تفسيرها في أواخر تفسير المائدة من الجزء السادس

فأجاب بهم) ثم ولى وقال ، والذي بعثك بالحق لا أزيد عليهن ولا أنقص منهن ،
فقال النبي ﷺ « لئن صدق ليدخلن الجنة »

وزاد الامام احمد انه قال له أيضاً: الله أمرك أن تأمرنا أن نعبده ولا نشرك
به شيئاً ، وأن نخلع هذه الانداد التي كان آباؤنا يعبدون معه ؟ قال « اللهم نعم »
وأنه كان أشعر ذاغديرتين ، وان النبي ﷺ قال « إن صدق ذو العقيصتين يدخل
الجنة » وذكر أنه خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه فكان أول ما تكلم به أن
قال بثست اللات والعزى ، قالوا مة يا ضمام ، اتق البرص والجذام ، اتق الجنون
قال ويلكم انهما والله ما يضران ولا ينفعان ، إن الله تعالى قد بعث إليكم رسولا
وأنزل كتابا استنقذكم به مما كنتم فيه ، واني أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، قد جئتمكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه ،
فوالله ما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلا مسلما

وأقول ان فائدة السؤال عن خلق السموات والارض والحيال وما فيها ثم
ذكره في القسم ان استحضار ذلك فيه يكون أخرى أن يلتزم في الجواب الصدق
وتعظيم القسم والخوف من عاقبة الخنث ، وقد خفي هذا كله على المفسرين لانهم
اعتادوا إثبات العقائد الدينية بالأدلة النظرية الجدلية التي وضعت للمجاهدين
بالباطل ، وجعل هذه الحقائق أعداء الاسلام من الافرنج ولا سيما السياسيين رجال
الكنيسة الكاثوليكية ودعاة التنصير البروتستنتي المطبوعين على الكذب والكسب
به والاختذ بقول رؤسائهم « ان الغاية تبرر الوسطة » يعنون أن اقرار الكذب
وسائر الرذائل لاجل مصلحة الكنيسة فضيلة - جهل هؤلاء أن عباد الاصنام في
الجاهلية كانوا أشد منهم احتراماً للصدق - فضلا عن الاسلام وكتابه ونبيه ،
فأباحوا لأنفسهم من افتراء الكذب على الله ، وكتابه وخاتم رسله ، ما لم يخطر
مثله في بال الشيطان قبلهم فيوسوس به لتغيرهم

لقد كذبوا على الاسلام كذبا تزول الشم منه مزلزلات

اما المسلمون فان الله يقول في كتابه (١٦ : ١٥) انما بهتري الكذب الذين
لا يؤمنون بآيات الله واولئك هم الكاذبون) والنبي ﷺ يقول في هديه « يطبع

المؤمن على كل خلق ليس الحيانة والكذب « رواه البيهقي في شعب الایمان عن ابن عمرو رضي الله عنهما

﴿ ولو أن لكل نفس ظلمت ما في الارض لافتدت به ﴾ أي لو أن لكل نفس تلبست بهذا الظلم جميع ما في الارض من أنواع الملك والزينة وصنوف النعم وأمكنها أن تفتدي به أي تجعله فداء لها من ذلك العذاب الذي قيل لهم ذو قوه ينقذها منه بذلك

له ، لافتدت به كمالا تدخر منه شيئاً ﴿ وأسروا الندامة ﴾ إسرار الشيء إخفاؤه وكتمانه ، وإسرار الحديث والكلام خفض الصوت به ، فهو ضد اعلانه والجر به ومنه (وأسروا قولكم أو اجهروا به ﴾ إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون) واستعمل بمعنى الجهر مطلقا فهو ضد وأنكره بعضهم ، والندم والندامة ما يجده الانسان في نفسه من الالم والحسرة عقب كل فعل يظهر له ضرره ، وقد يجبر به بالكلام كقوله « يا حسرتنا على ما فرطت » أو بالتوبة والاستغفار ، وقد يخفيه ويكتمه لعدم العائدة من اعلانه أو انقاء للشاماتة او الاهانة به ، أي وأسروا أولئك الذين ظلموا ندامتهم وحسرتهم فيما بينهم وبين ربهم أو كتموها في قلوبهم

﴿ لما رأوا العذاب ﴾ أي رأوا مبادئه عيانا بأبصارهم لما برزت الجحيم وأيقنوا أنهم واقعوها لا مصرف لهم عنها ، وقد يعبر برؤيته عن وقوعه والظاهر الاول لقوله ﴿ وقضى بينهم بالتسوط ﴾ أي وقضى الله بينهم وبين خصومهم بالعدل والحق ، فإذا أريد بالظلم الكفر والتكذيب وما يلزمه من الايذاء فخصومهم الرسل والمؤمنون بهم ، وكذا من أضلوه وظلموهم من المرءوسين والضعفاء الذين كانوا يغرونهم بالكفر ويصدونهم عن الايمان وهو ظاهر السياق هنا وفي سورة سبأ بعد حكاية مجادلة الظالمين والمظلومين يوم القيامة (٣٤:٣٣) وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجمعنا الاغلال في أعناق الذين كفروا ، هل يجوزون إلا ما كانوا يعملون) وإن أريد بالظلم ما يعم ظلمهم للناس في الاحكام وهضم الحقوق كان كل مظلوم خصما لظالمه

﴿ وهم لا يظلمون ﴾ أي لا يظلمهم الله كما ظلموا أنفسهم وظلموا أنبايعهم ومقلديهم ، بل هم الذين ظلموا أنفسهم وظلموا غيرهم . والآيات في ندم الظالمين يوم القيامة

معروفة كقولہ في آخر سورة النبا (٧٨) انا انذرتناكم عذابا قريبا يوم ينظر المرء ما قدمت يداہ ويقول الكافر يا ليتني كنت ترابا) وقوله (٢٥ : ٢٧) ويوم يعرض الظالم على يديه يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلا ٢٨ يا ويلاتي ليتني لم اتخذ فلانا خليلا) وغير ذلك

ثم قفي على ذلك بالدليل على قدرته على انفاذ حكمه وانجاز وعده وكون هؤلاء الظالمين لا يعجزونه ، ولا يستطيعون الافتداء من عذابه ، فقال ﴿ ألا إن لله مافي السموات والارض ﴾ قلنا مراراً ان السموات والارض عبارة عن جميع العالم ، وهو تعالى مالك السموات والارض وملكهما ، وله كل من فيها من العقلاء ، وما فيها من غير العقلاء ، وقد نطقت الآيات بهذا كله ولكل مقام مقال ، فهنا غلب غير العقلاء بمناسبة مافي الآية السابقة من الاشارة الى غرور الكافرين والظالمين بما كانوا يمتعون به ، وتعذر الافتداء بشيء منه ، وسيأتي تغليب العقلاء في الآية ٦٦ من هذه السورة لاقتضاء المناسبة له . وصدر الجملة بحرف التنبيه «ألا» الذي يفتتح به الكلام لتنبيه الغافلين عن هذه الحقيقة وإن كانوا يعرفونها لكثرة ذهول الناس عن تذكر امثالها ، والمعنى ليتذكر الناس وليتنبه الغافل وليعلم الجاهل ان لله وحده مافي العوالم العلوية وعالم الارض يتصرف فيها حيث يشاء ، فيعطي من يشاء ويمنع من يشاء ، ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء ، ولا يملك أحد من دونه شيئاً من التصرف والغاء ، في يوم البعث والجزاء ﴿ ألا ان وعد الله حق ﴾ أعاد فيه حرف التنبيه تأكيداً وتذكيراً لتمييزه بهذا التنبيه عما سبقه لانه المقصود هنا بذاته وانما ذكر قبله للاستدلال عليه ، أي كل ما وعد به على لسان رسله حق واقع لا ريب فيه ، لأنه وعد المالك القادر على انجاز ما وعد لا يعجزه منه شيء . ﴿ ولكن أكثرهم لا يعلمون ﴾ يعني بأكثرهم الكفار منكروى البعث والجزاء ، أي لا يعلمون أمر الآخرة لا من طريق النظر والاستدلال ، ولا من طريق الايمان بما جاء به الرسل عليهم السلام

﴿ هو يحيي ويميت ﴾ بقدرته كما يدل عليه النظر والاستدلال وقد بسطناه

في تفسير الآيتين ٣١ و ٣٤ ﴿وَالِيهِ تَرْجَعُونَ﴾ عندما يحكمكم بعد موتكم وبحشركم ليحاسبكم ويجزيكم بأعمالكم فهذه الآية بيان مستأنف لما قبله بالأيجاز ، وجلة هذه الآيات خاصة هذا السياق .

(٥٧) يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٥٨) قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ

هاتان الآيتان في موضوع تشريع القرآن العملي التهديبي جاء بعد بيان عقائد الثلاث (التوحيد والرسالة والبعث) وتأيدها بالاستدلال على كونه من الله تعالى ، وعلى صدق وعده ووعيده، والرد على مكذبيه ، وقد اجمل في الآية الاولى جميع مقاصد هذا التشريع واصلاحه للناس بما يظهر به للعاقل انه حق وخير وصلاح بذاته لا يصح لعقل ان يماري فيه ، ولا ان يحتاج للاستدلال عليه فقال

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ أي قد جاءكم كتاب جامع لكل ما تحتاجون اليه من موعظة حسنة لاصلاح أخلاقكم وأعمالكم الظاهرة ، وحكمة بالغة لاصلاح خفايا أنفسكم وشفاء أمراضها الباطنة، وهداية واضحة للضراط المستقيم الموصل إلى سعادة الدنيا والآخرة، ورحمة خاصة للمؤمنين، هي شجنة من رحمة رب العالمين، العامة للخلق أجمعين ، يترجمون بها فيما بينهم ، فنكمل بها رحمة تعالى لهم ، ورحمة للعالمين برسوله اليهم وبيهم ، وقد عرف هذا من تاريخهم أشهر فلاسفة التاريخ من الافرنج ^(١) فقال «معارف التاريخ فاتحا عدل ولا أرحم من العرب» فكان الله تعالى يقول للناس، بعد بيان هذه المقاصد الاربعة للقرآن ، فما بالكُم أيها الناس تكذبون بما لم يحيطوا به علما من أخبار هذا الكتاب ، التي هي من علم الغيب عن المآل والمآب ، ولا تفكرون

(١) هو الحكيمة الاجتماعي المؤرخ الدكتور غوستاف لوبون الفرنسي

في آدابه ومواعظه، وأحكامه وحكمه، وهداية نواميسه وسننه، وما فيها من المنافع والمصالح، التي لا يماري فيها عالم ولا يكابر فيها عاقل؟ حتى ان أشد أعداء الرسول ﷺ ابتداء له وصدا عن دعوته في أول ظهورها لم يستطيعوا الطعن على مادعا اليه من الفضائل والخير والبر، وما نهى عنه من الرذائل والشرور والفجور، كأبي سفيان عند مأسأله بهرقل قيصر الروم، وعمر بن العاص عند مأسأله أحمة نجاشي الحبشة، فان كان ذلك قد خفي على بعض الجاحدين والمقلدين لهم من المشركين قبل تعميم نشر القرآن فيهم، وقبل ظهور ما كان له من التأثير العظيم بعد انتشار الاسلام في العرب، ومن الاصلاح الديني والمدني في شعوب العجم، أفليس من العجب العجاب أن يماري به أحد بعد ذلك ويصدق ما يفتره عليه دعاة الكنييسة ورجال السياسة من الافرنج وتلاميذهم وهم أكذب البشر؟

أجبت الآية الحكيمة هذا الاصلاح القرآني لأنفس البشر في أربع قضايا أو مسائل تفكرن في اللفظ لتعظيم أمرهن، أو لبيان أنهن نوع خاص لم يعهد الناس مثلهن، حتى كالمعنوي وبيان اللفظي، وقوله (من ربكم) للتذكير بما يزيدا تعظيما، ووجوب الاعتناظ بها إيمانا وتسليما، لأنها من ممالك أمر الناس ومرئيمهم بفضله ورحمته، وعلمه وحكمته

(الاولى الموعظة الحسنة) وهي اسم من الوعظ أي الوصية بالحق والخير، واجتناب الباطل والشر، بأساليب الترغيب والترهيب التي يرق لها القلب، فتبعث على الفعل والترك، وقد تقدم في حقوق النساء من سورة البقرة (١٣١٢) واذكروا نعمة الله عليكم وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة يعظيكم به) الآية، وفي التي بعدها (ذلك بوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر، ذلكم أزكى لكم وأطهر، والله يعلم وأنتم لا تعلمون) وتقدم في سورة آل عمران بعد النهي عن أكل الربا والامر بطاعة الله ورسوله والترغيب في الانفاق في السراء والضراء وكظم الغيظ والعفو عن الناس، وما أعده الله على ذلك من الجزاء (١٣٦٣) قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين * هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) ويليه الكلام في الجهاد وغزوة أحد، وفي سورة

(يونس : ١٠) شفاء القرآن لما في الصدور من أمراض العقول والقلوب ٤٠١

النساء (٤ : ٥٨) إن الله يأمركم أن تؤدوا الامانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمًا يعظكم به (الآية ، وتقدم غير ذلك من أمثلة الوعظ وسيأتي غيره مما يفسر مراده تعالى من موعظته الربانية ، فهل يمكن أن يتأري عاقلان في حسنها ومنفعتيها للعباد في أعمالهم وأحكامهم ؟ كلا إنها مما يتوقف عليه صلاح العباد في كل زمان ومكان

(الثانية شفاء ما في الصدور) أي شفاء جميع ما في القلوب من أدواء الشرك والكفر والنفاق ، وسائر الامراض النفسية التي يشعر صاحبها ذو الضمير الحي بضيق الصدر ، من شك في الايمان ، ومخالفة للوجدان ، واضمار للحقد والحسد والبغى والعدوان ، وحب للباطل والظلم والشر ، وبغض للحق والعدل والخير

قال الراغب : قال بمض الحكماء حينما ذكر الله القلب فإشارة إلى العقل والعلم نحو (إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب) وحينما ذكر الصدر فإشارة الى ذلك وإلى سائر القوى من الشهوة والهوى والغضب ونحوها ، وقوله (رب اشرح لي صدري) فسؤال لإصلاح قواه ، وكذلك قوله (ويشف صدور قوم مؤمنين) إشارة الى اشتغائهم . وقوله (فأنا لانعمى الابصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) أي العقول التي هي مندسة فيما بين سائر القوى وليست مهتدية والله أعلم بذلك اهر التحقيق أن الصدر يطابق مجازاً أعلى القاب الحسي الذي فيه وعلاقته ظاهرة وعلى القلب المعنوي الذي هو للنفس كالقلب الحسي للبدن لانه لهما ، ومركز شعور مداركها وانفعالاتها ، دون الدماغ فإن النفس لا تشعر بما ينطبع فيه من المدركات من انشراح وبسط ، ولا حرج وضيق وقبض ، فجميع الادراكات العلمية والوجدانية توصف بها القلوب حقيقة والصدور مجازاً ، وتكون فاعلة ومفعولة وصفات الأفعال العاملة فيهما . وأما العقل في اللغة فهو الحكم الصحيح في بعض الادراكات ولوازمها من حسن وقبح وصلاح وفساد ، ونفع وضر ، ومركزه الدماغ قطعاً . فأمرض الصدور والقلوب تشمل الجهل وسوء الظن ، والشك في الايمان ، والنفاق ، والحقد والضغن والحسد ، وسوء النية وخيب الطوية ، وفساد السريرة ، وغير ذلك مما تقدم آنفاً ، والشواهد على هذا في القرآن كثيرة

٤٠٢ شفاء القرآن لأمراض الأنف لا الأبدان وهداه (التفسير : ج ١١)

وذهب بعضهم إلى أن الشفاء في الآية يشمل شفاء الأمراض البدنية واستدلوا بما أخرجه ابن المنذر وابن مردويه عن أبي سعيد الخدري (رض) قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال إني أشتكى صدري فقال « اقرأ القرآن يقول الله (شفاء لما في الصدور) وفيه أن ضيق الصدر في الغالب ألم نفسي لا بدني قد يكون سببه دينياً وقد يكون دنيوياً كالخوف والحاجة، وقراءة المؤمن للقرآن تنفع في كل منها ومن الأول قواه (١٢٥:٦) فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره الاسلام، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء) وقوله في آخر سورة الحجر (٩٧:١٥) ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون * فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين * واعبد ربك حتى يأتيك اليقين) والتسبيح بحمد الله والسجود له وعبادته بالصلاة وتلاوة القرآن أعظم أسباب انشراح الصدر، كما قال ٢٢. ٣٩ أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه (الآية

واستدلوا أيضاً بما أخرجه البيهقي في شعب الایمان عن واثلة بن الاسقع (رض) أن رجلاً شكاً إلى النبي ﷺ وجمع حاقه قال « عليك بقراءة القرآن والعسل ، فالقرآن شفاء لما في الصدور ، والعسل شفاء من كل داء » وهو على ضعفه لا يدل على ما قيل إذ معناه اقرأ القرآن، تعلم منه ما يفيدك ، إذ فيه أن القرآن شفاء لأمراض الصدور ، والعسل شفاء لأمراض البدن ، فهو كوصفه ﷺ العسل لمن شكاً له استطلاق بطن ابن أخيه في الحديث الصحيح . وقد ثبت في الطب الحديث أن العسل مطهر طيب ومضاد للفساد ، واستطلاق البطن يكون من فساد في الامعاء ، وكذا جمع الخلق بالتهاب للوزتين ونحوه ، والعسل مطهر لكل منهما، وقد روى أبو الشيخ عن الحسن البصري أنه قال: ان الله تعالى جعل القرآن شفاء لما في الصدور ولم يجعله شفاء لأمراضكم . وقال بعض المفسرين ان تشكيب الشفاء في آية العسل يدل على الخصوص لا العموم . على أن الرقية بالغائمة وغيرها قد تفيد في شفاء بعض الامراض ولا سيما اذا كان الراقي قوي الايمان والرتقي حسن الاعتقاد ، وليس هذا بما تدل عليه الآية

(الثالثة الهدى) وهو بيان الحق المنقذ من الضلال في الاعتقاد بالبرهان ،

(يونس : ١٠) رحمته تعالى للمؤمنين بالقرآن ورحمة نبيه بالناس وغيرهم ٤٠٣

وفي العمل ببيان الحكم والمصالح في أحكام الاعمال ، وهو ما فصلناه تفصيلا في هذا التفسير وبيننا أنواعا في مقاصد القرآن من مباحث الوحي في أول تفسير هذه السورة بأنواعها الدنيوية والعقيدية والاجتماعية ، وتقدم الكلام على معناه اللغوي وأنواعه في تفسير الفاتحة وأول سورة البقرة.

(الرابعة الرحمة للمؤمنين) وهي ما تثمره لهم هداية القرآن وتفيضه على قلوبهم من رحمة ربهم الخاصة وهي صفة بكل من آثارها اغاثته الملهوف، وبذل المعروف، وكف الظلم، ومنع التعدي والبغي، وغير ذلك من أعمال الخير والبر، ومقاومة الشر، وقد وصف الله المؤمنين بقوله (رحماء بينهم) وقوله (وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة) وهذه الصفات الأربع مرتبة على سنة الفطرة البشرية فالموعظة التعاليم التي تشعر النفس بنقصها وخطرها أمرضاها الاعتقادية والخلقية، وتزعجها إلى مداواتها وطلب الشفاء منها، والشفاء تخاية يتبعها طلب التحلية بالصحة الكاملة، والعافية التامة، وهو الهدى، ومن ثمراته هذه الرحمة التي لا توجد على كمالها إلا في المؤمنين المهتدين، ولا يجرمها إلا الكافرون الماديون، حتى قل بعضهم إنها ضعف في القلب، يجعل صاحبه كالمضطر إلى الاحسان والعطف، وما هذا القول إلا من فساد الفطرة، وقسوة القلب وفلسفة الكفر، فلقد كان أشجع الناس وأقوام بدنا وقلبا، أرحم الناس وأشدهم عظما، وهو سيد ولد آدم محمد رسول الله وخاتم النبيين، الذي وصفه ربه بما وصف به نفسه من قوله (بالمؤمنين رؤوف رحيم) بل جعله عين الرحمة في قوله (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وكذلك كان أصحابه (رض) حتى كان من يوصف بالشدة والقسوة كعمرو بن الخطاب [رض] صار من أرحم الناس وسيرته في ذلك معروفة وقد قال صلى الله عليه وسلم « لا تنزع الرحمة الا من شقي » رواه ابو داود والترمذي واللفظ له عن ابي هريرة (رض) وقد صح عنه صلى الله عليه وسلم انه كان اذا سمع وهو في الصلاة بكاء طمأن تجوز في صلاته، ابي اختصر وخفف رحمة به وبأمه، وروى ابن اسحاق ان بلالا [رض] مر بصفية وابنة عم لها على قتلى قومها اليهود بعد انتهاء غزوة قريظة فصكت ابنة عمها وجهها وحثت عليه التراب وهي تصيح وتبكي فقال صلى الله عليه وسلم له « أنزعت الرحمة من قلبك حتى مررت بالمرأتين على قتلاهما » وجاء اعرابي

إليه ﷺ فقال انكم تقبلون أولادكم وما تقبلهم فقال « أو أملك لك ان نزع الله الرحمة من قلبك » رواه البخاري ومسلم من حديث عائشة [رض]

بل كان ﷺ شديد الرحمة بالبهائم والطيور والحشرات وطالما أوصى بها ولا سيما صغارها وامهاتها . جاءه مرة رجل وعليه كساء وفي يده شيء قد التف عليه فقال يا رسول الله اني لما رأيتك أقبلتُ فررتُ بغيطة شجر فسمعت فيها أصوات فراخ طائر فأخذتهن فوضعتهن في كسائي فجاءت امهن فاستدارت على رأسي وكشفت لها عنهن فوقت عليهن فلففتها معهن بكسائي فبن أولاه معي ، فقال « ضعهن » (قال) ففعلت فأبت امهن إلا لزومهن فقال ﷺ « أتعجبون لرحمة ام الافراخ بفراخها ؟ قولوا نعم ، قال « والذي بعثني بالحق لله أرحم بعباده من أم الافراخ بفراخها ، ارجع بهن حتى تضعهن حيث أخذتهن ، وأمن معهن » فرجع بهن . رواه ابو داود عن ابي هريرة [رض] وروى مالك والبخاري ومسلم وابو داود من حديثه مرفوعا حديثين خلاصتهما ان الله غفر لرجل ولا امرأة يعني لان كلا منهما رأى كلبا قد اشتد به المطش فرحمه واخرج له الماء من البئر بخفه فسقاه . فقالوا له يا رسول الله إن لنا في البهائم أجراً ؟ فقال « في كل كبد رطبة أجر » ورواه مالك واحمد عن غيره بلفظ « في كل ذات كبد حررى أجر » .

وقال ﷺ « الراحمون يرحمهم الرحمن ، ارحموا من في الارض يرحمكم من في السماء » رواه الترمذي وابو داود من حديث عبد الله بن عمرو [رض] ورويناه مسلسلا بالاولية من طريق أستاذنا الشيخ محمد أبي المحاسن القاوقجي . وقال ﷺ « ان لله مائة رحمة انزل منها رحمة واحدة بين الجن والانس والبهائم والحوام ، فيها يتماطفون ، وبها يتراحمون ، وبها تعطف الوحوش على ولدها » وأخر الله تسما وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة » - وفي رواية - ولو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ، ولو يعلم المؤمن بكل ما عند الله من العذاب لم يأمّن من النار » رواه البخاري ومسلم والترمذي ، والله تعالى يقول (١٥٠ ، ٤٥) نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم ، وان عذابي هو العذاب الاليم) ويقول (انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون) ويقول (٧: ٩٨) أفأمنوا مكر الله ؟ فلا

(يونس : ١٠) أمر الله تعالى بالفزع بفضلِهِ ورحمته دون ماعدائها ٤٠٥

يأمن مكر الله الا القوم الخاسرون) وما دام المؤمن حياً فلو اوجب عليه أن يخف الله خوفاً يرهبه ويذره عن معاصيه ، وأن يرجوه رجاء يرضيه ، وما عند الله مجهول لنا ، وما أحسن قول أبي الحسن الشاذلي قدس الله سره « وقد أبهت الامر علينا لئلا نرجو ونخاف ، فأمن خوفنا ، ولا نخيب رجاءنا » اللهم آمين

خاطب الله تعالى بما تقدم كله أمة الدعوة المحمدية وهم جميع الناس فوعظة القرآن وما فيه من شفاء من أمراض الكفر والتفارق والذائل ، وهداه الى الحق والفضائل موجبات الى الجميع ، وخص المؤمنين بما تشره الثلاث من الرحمة لانهم هم الذين ينتفعون بها ، ثم خاطب رسوله ﷺ بأن يبلغ هؤلاء المؤمنين أنه يحق لهم أن يفرحوا بفضل الله عليهم بنعمة الايمان والاسلام وبهذه الرحمة الخاصة بهم لاستجباهم كل ما ذكر قبلها من مقاصد تشره به فقال :

﴿ قل بفضل الله ورحمته فبذلك فليفرحوا ﴾ فضل الله على جميع عبادِهِ عظيم وهو على المؤمنين منهم أعظم ، ورحمته العامة لهم وبهم واسعة ، ورحمته الخاصة بالمؤمنين أوسع ، وبكل من النوعين نطق القرآن ، وقد من تعالى عليهم بالجمع لهم بين الفضل والرحمة في آيات ، وبكل منهما في آيات ، وقال بعد الجمع بينهما في آيتين من سورة النور (٢٤ . ٢١) ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكا منكم من أحد أبداً ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) وان دخول الباء على كل من الفضل والرحمة هنا يدل على استقلال كل منهما بالفرح به ، فهو يرد ماروي عن مجاهد من ان المراد بهما واحد وهو القرآن ، ويرده أيضاً ماروي عن المأثور في تفسير كل منهما بمعنى ، ومنه مارواه أبو الشيخ وابن مردويه من حديث أنس مرفوعاً « فضل الله القرآن ورحمته ان جعلكم من أهله » وروي عن البراء وابي سعيد الخدري موقوفاً . وعن ابن عباس روايتان (احدهما) ان فضل الله القرآن ورحمته الاسلام (والثانية) ان الفضل العلم والرحمة محمد ﷺ وعن الحسن والضحاك وقتادة ومجاهد في الرواية الثانية عنه ، فضل الله الايمان ورحمته القرآن ، وكل هذه المعاني صحيحة في نفسها لافي روايتها . وأظهرها في الآية وهو المناسب لما قبلها ، والجامع لمعاني الروايات كلها ، ان فضل الله توفيقه إياهم تمكينة أنفسهم بالوعظة

والشفاء والهدى التي امتاز بها القرآن، ورحمته نمرتها التي فضلوا بها جميع الناس فكانوا أرحمهم، بعد أن كانوا أعدلهم وأبرهم بهم، فقد أمرهم هذا القرآن بالبر والعدل وإقامة القسط في المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وأمرهم بالرحمة حتى في الحاربين لهم بقدر ما يدفع شرهم كما فصلناه في المقصد الثامن من مقاصد القرآن في مباحث الوحي، ولولا مراعاة هذا التناسب لقلت أن المراد بفضله تعالى على هذه الامة هو قوله تعالى (١٤٣: ٢) وكذلك جعلناكم امة وسطا) الآية، وقوله (١١: ٣) كنتم خير امة اخرجت للناس) الآية ولكن ما قلته يدخل في معناه ويوافقها ولكل مقام مقال

والفرح كالسرور انفعال نفسي بنعمة حسية أو معنوية يلذ القلب ويشرح الصدر، ووضدهما الاسبى والحزن، وهما من الوجدان الطبيعي لا يمدحان ولا يذممان لذاتهما، بل حكمهما حكم سببهما أو أثرهما في النفس والعمل، خلافا لبعض الناس من الصوفية وغيرهم فيهما، فقد أمر الله تعالى هنا بالفرح بفضله ورحمته، ومدح المؤمنين بالفرح في قوله (٤: ٣٠) ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) وهذا فرح بأمر ديني دنيوي ثم قال فيها (٣٦) واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها) وقل في أهل الكتاب الذين يؤمنون به صلى الله عليه وسلم وهم يتدون بالقرآن (١٣: ٣٦) والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك) الآية.

وذم سبحانه الفرح بالباطل وفرح البطر والغرور بالمال ومتاع الدنيا وشهواتها في عدة آيات معروفة. وجعل الاعتدال بين الفرح والاسبى والحزن من صفات المؤمنين فقال بعد ذكر تربيتهم بالمصائب المقدرة في كتاب الله (٥٧: ٢٣) لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم. والله لا يحب كل مختال فخور) وتقدم تحقيق الكلام في الحزن في تفسير سورة براءة (١٠: ٢٤٠ ص ٤٢٦ ج ١٠ تفسير)

والتعبير في الآية في غاية البلاغة لما فيها من التأكيد والمبالغة في التقرير، فإن أصل المعنى بدونهما: قل ليفرحوا بفضل الله وبرحمته، فأخر الأمر وقدم عليه متملقه لإفادة الاختصاص كأنه قال إن كان في الدنيا شيء يستحق أن يفرح به فهو فضل الله ورحمته، وأدخل عليه الفاء لإفادة معنى السببية فصار فبهما فليفرحوا دون

ما يجمعون من متاع الدنيا المبين في آخر الآية، ثم ادخل على الامر (فبذلك) لزيادة التأكيذ والتقرير ، وتفصيل مباحثه في الاعراب أكثر مما قلنا ، وبسطه يشغل عن المعنى والاعتبار به ، وهو خروج عن منهجنا في هذا التفسير

ثم قال ﴿ هو خير مما يجمعون ﴾ اي ان الفرح بفضله وبرحمته أفضل وأنفع لهم مما يجمعونه من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحراث وسائر متاع الحياة الدنيا ، مع فقدهما ، لا لأنه سبب سعادة الآخرة الباقية ، المفضلة على الحياة الدنيا الفانية ، كما اشتهر فيما خطته الافلام ولا كتبه الاسنة ، بل لانه هو الذي يجمع بين سعادة الدارين كما حصل بالفعل ، إذ كانت هداية الاسلام بفضل الله وبرحمته سبباً لما ناله المسلمون في العصور الاولى من الملك الواسع ، والمال الكثير ، مع الصلاح والاصلاح ، والعدل والاحسان ، والعلم والعرفان ، والعز الكبير ، فلما صار جمع المال ومتاع الدنيا وفرح البطر به هو المقصود لهم بالذات ، وتركوا هداية الدين في انفاقه والشكر عليه ، ذهبت دنياهم من أيديهم إلى أيدي أعدائهم كما شرحناه مراراً

(٥٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِثْلَهُ حَرَامًا وَحَلَالًا، قُلْ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ (٦٠) وَمَا ظَنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ

هاتان الآيتان في إقامة الحجة على منكري الوحي من المشركين بفعل من أفعالهم لا يشكرونه ولا يجادلون فيه ، تميزاً لما تقدم من أنواع الحجج العقلية على إثباته ، ودفع شبهاتهم عليه ، وهذه الحجة مبنية على قاعدة كون التشريع العملي في التجريم والتحليل هو حق الله تعالى وحده ، وقاعدة كون الاصل في الارزاق وسائر الاشياء التي ينتفع بها الخلق الايباحة ، وقاعدة كون انتحال العبيد حق التشريع

الخاص برهم اقتراء عليه وكفرآبه، يستحق فاعلوه أشد عقابه، وهو يتضمن الشهادة على صدق رسوله ﷺ في كونه مبعثاً لهذا القرآن عنه تعالى، مؤكداً لما تقدم من الحجج على صدقه، وعلى كون القرآن كلام الله المعجز لجميع خلقه. قال عز وجل لنبيه ﷺ

﴿ قل أرأيتم ﴾ أي أخبروني أيها الجاحدون للوحي والتشريع الإلهي

﴿ ما أنزل الله لكم من رزق ﴾ أي هذا الذي أفاضه الله عليكم من نماء فضله وإحسانه من رزق تعيشون به من نبات وحبوان، وكل عطاء منه تعالى يمر عنه بالانزال كقوله (٦٠٣٩) وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) وقوله (٢٥٠٥٧) وأنزلنا الحديد فيه

أس شديد ومنافع للناس) - ﴿ فجعلتم منه حراماً وحلالاً ﴾ أي فترتب على انزاله لمنفعتكم إن جعلتم بعضه حراماً وبعضه حلالاً. وقد تقدم تفصيل هذا في سورة الأنعام. قوله تعالى (١٣٦:٦) وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشر كائنا - إلى قوله - ١٥٠ نل هلم شهداءكم الذين يشهدون أن الله حرم هذا) الآيات (١) وفي معناها قوله من سورة المائدة (١٠٣:٥) ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام، ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) أي يفترون عليه بتحريم ما لم يحرمه (٢) وقال هنا وهو المراد من الاستخيار ﴿ قل الله أذن لكم ﴾ هذا الاستفهام للتقرير ومدت همزته لدخولها على الف اسم الجلالة. أي انه ليس لأحد حق أن يحرم على الناس ويحل لهم إلا ربهم الله، فهل الله هو الذي أذن لكم بذلك بوحى

أنزله إليكم؟ ﴿ أم على الله تفترون ﴾ بزعمكم انه حرمها عليكم؟ أي لا مندوحة لكم عن الإقرار بأحد الأمرين: إما دعوى الأذن من الله لكم بالتحليل والتحريم، وهو اعتراف بالوحي وأنتم تنكرونه وتلحون وتلجون في الإنكار، وتزعمون انه محال عليه تعالى أن يوحى إلي احد من الناس، وإما الاقتراء على الله وهو الذي يلزمكم بإنكار الاول إذ لا واسطة بينهما، ويحتمل أن يكون الاستفهام للإنكار وأم متصلة،

(١) راجع تفسيرها في ص ١٢٢ ج ٨ تفسير

(٢) راجع تفسيرها في ص ٢٠٢ ج ٧ تفسير

فيكون المعنى ان الله لم يأذن لكم بل انتم تعترون على الله تعالى، والغاية واحدة، وأصل
الغري قطع الجلد لمصلحة الافتراء تكافئه وغلب في تعمد الكذب
قال الكرخي في هذا الاستفهام: نوكتي به زاجراً لمن أفتى بغير إتيان، كبعض
فقهاء هذا الزمان، وقل العباد ابن كثير في تفسيره: وقد أنكر الله على من حرم ما أحل
الله أو أحل ما حرم بمجرد الآراء والاهواء التي لا مستند لها، ولا دليل عليها اه
ونحن نقول: نوكتي به زاجراً لمن يحرمون على الناس ما لم يحرمه الله تعالى بنص كتابه
كالتحريم بالرأي والقياس، أو بدليل ظني من الكتاب والحديث غير قطعي الرواية
والدلالة، وهو مخالف لهذه الآية وأمثالها، والرووي عن السلف ان التحريم لا يكون
إلا بنص قطعي، وهو أصل مذهب الحنفية والكرخي منهم، وقد تقدم بيان هذا مسرراً
في هذا التفسير ومنه قول القاضي أبي يوسف لم يكونوا يقولون في شيء انه حرام إلا
ما كان يديناً في كتاب الله بلا تفسير (١)

وفي هذه الآية قواعد أشرنا إلى ثلاث منها (القاعدة الاولى) ان الاصل في
كل ما خلقه الله تعالى للناس من الارزاق نباتها وحيوانها الاباحة ، وهو يتضمن
بطلان قول من يحرمون أكل اللحوم ، ولهم على هذا شبهتان اولاهما قديمه وهي زعمهم
ان أكل لحم الحيوان يتوفاً على تذكيته بالذبح وغيره وهو تعذيب مستقيم عقلاً ،
وجوابه ان هذا القول جهل فان التذكية الشرعية ليست تعذيباً وربما كانت أهون
من موته بسبب آخر من أسباب الموت كافتراس سبع أو ترد من مكان عال ، أو انخناق
بين شجرتين مثلاً ، أو نطاح ، أو وقد راع قانس أو معتد آخر (٢) وقد حرم الله
في آية المائدة (٣: ٥) أكل مامات بسبب من هذه لاسباب كالذي يموت حتف أنفه .
ونهى الشرع عن تعذيب أي ذي روح وحت على رحمته كما تقدم قريياً في تفسير
الرحمة (ص ٤٠٤) وقال نبي الرحمة ﷺ « ان الله كتب الاحسان على كل شيء فاذا
قتلتم فأحسنوا القتل، واذا ذبحتم فأحسنوا الذبح ، وليجد أحدكم شفرته، ولا يبرح
ذبيحته » رواه مسلم من حديث شداد بن ثابت (رض) والذبح بهذه الصفة لا يؤلم
(١) راجع صفحة ٣٧١ ج ١٠ تفسير (٢) الوقد الضرب الشديد بالعصا وغيرها .

الحيوان إلا لحظة قصيرة ، والحيوانات لا تشعر بالالم بقدر ما يشعر به البشر كما قرره بعض علماء هذا الشأن

(الشبهة الثانية) حادثة وهي ما يزعمه النبايون الذين يفضلون الاغذية النباتية على الحيوانية من كون أكل اللحوم ضارا للناس، وجوابنا عنها أنهم إن زعموا ان أكل اللحم يضر كل أكل منهم مطلقا فهذا زعم تبطله التجارب وينكره أكثر أطباء العالم، وإن قالوا انه يضر بعضهم كأصحاب أمراض الترف وضمف العدة (كالرثية والنقرس) فهذا لا يقتضي تحريمه عليهم كالمهم بالاطلاق، وحكم الشرع في المصادر الحظر ومنه عام وخاص (القاعدة الثانية والثالثة) أن تشريع التحريم والتحليل الديني هو حق الله تعالى وحده، وأن جعله لغيره شرك به، وقد بسطنا هذا في مواضع من هذا التفسير بدلالة الآيات والسنة والآثار (١)

(القاعدة الرابعة) ان ما خلقه الله وسخره لنا من سائر منافع الكون فالاصل فيه الاباحة كالرزق ويؤخذ من هذه الآية بالفحوى، وبناء المنة فيه على كونه منه تعالى، وهو صريح قوله (٢٩:٢ هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا)

وما ظن الذين يفترون على الله الكذب يوم القيامة ^بسجل عليهم جرمة افتراء الكذب على الله وهو اختلاقه، وقفي عليه ما لو عبد عايبه مشيراً إلى ما يكون من سوء حالهم وشدة عقابهم يوم القيامة. والمعنى أي شيء ظمهم في ذلك اليوم الذي تجزى فيه كل نفس ما عملت؟ أياظنون انهم يتركون بغير عقاب على جرمة افتراء الكذب على الله وهو تعمد في حق خاص ربو بيته، فهو نزاع له فيها وشرك به، كما قال (٣١:٤٢) أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) الآية. فويل للمعمدين من جهلاء المقلدين، الذين يحرمون على الناس ويحلون لهم بتقليد بعض المؤلفين، أو اتباع الهوى والرأي في الدين، وهم يتلون قوله (١٦: ١١٦) ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا على الله الكذب - إلى قوله - ولهم عذاب أليم)

﴿ ان الله لدو فضل على الناس ﴾ هذه الآية بيان مستأنف يتضمن مفهومه تعليلا لما فهم مما قبلها من عقاب الفترين على الله بكونه عدلا استحقوه بظلمهم لانفسهم لا ظلما منه ، وهو اثبات فضله على الناس بهذه الجملة المؤكدة أشد التوكيد ، فأفاد ان صاحب هذا الفضل العظيم عليهم لمجرد احسانه اليهم ، ليس من شأنه أن يكون ظلما لهم اذا قابلوا أ كبر فضله ونعمه ، بأشد الكفر وأنكره ، وهذا المعنى المفهوم من الآيتين من أغرب ايجاز القرآن المعجز للبشر . والمعنى : تالله ان الله لدو فضل عظيم على الناس في كل ما خلقه لهم من الرزق ، وكل ما شرعه لهم من الدين ، ومنه انه جعل الاصل فيما أنزله اليهم من الرزق الاباحة ، وجعل حق التحريم والتحليل له وحده عز وجل ، لكيلا يتحكم فيهم أمثالهم من عباده ، كالذين أخذوا أخبارهم وورهبانهم أربابا من دون الله ، كما تقدم في تفسير سورة التوبة - آية (١) وهو لم يحرم عليهم إلا ما هو ضار بهم . ولهذا أباح لهم ما حرمه عليهم اذا اضطروا اليه وكان تركه أضر من تناوله ، وحصر أصول محرمات الطعام في قوله (١٤٥:٦) قل لا أجد فيما أوحى إلي محرما على طاعم يطعمه ، إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا او لحم خنزير فإنه رجس أو فسقا أهل لغير الله ، فمن اضطار غير باع ولا عاد فان ربك غفور رحيم) وفصل انواع الميتة المحرمة في أول سورة المائدة (٣:٥) فراجع تفسير الآيتين (٢)

﴿ ولكن اكثر الناس لا يشكرون ﴾ فضله عليهم كما يجب ، كما قال (وقليل من عبادي الشكور) فيجنون على انفسهم بتحريم ما لم يحرمه عليهم ، وبغير ذلك من كفر نعمه المادية والعنوية ، كاللغو في الزهد ، وترك الزينة والطيبات من الرزق ، وفي ضد ذلك من الاسراف في الاكل والشرب ، وزينة اللباس ، ابتغاء الشهرة والحيلاء والتكبر على الناس ، وشر من ذلك كله تحريمه تعبدا والاسلام يأمر بالوسط والاعتدال (٧: ٦٥) لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله) الآية أخرج الامام احمد من طرق عن ابي الاحوص وهو عوف بن مالك بن نضلة

(١) راجع صفحة ٣٦٣ ج ١٠ تفسير

(٢) الاولى في ص ١٤٨ ج ٧ والاخرى في ص ١٣٣ ج ٦

يحدث عن أبيه قال أتيت رسول الله ﷺ وأنا رث الهيثمة فقال «هل لك مال؟»
 قلت نعم، قال «من أي المال؟ قلت من كل المال من الابل والرقيق والخيل والغنم
 فقال «إذا آتاك الله مالا فلير عليك» الحديث وفي رواية أصحاب السنن الثلاثة عنه
 «إذا آتاك الله مالا فلير أثر نعمة الله عليك وكرامته» وأخرج البخاري في التاريخ
 والطبراني والضياء بسند صحيح عن زهير بن أبي عقلمة مرفوعا «إذا آتاك الله مالا
 فلير عليك فإن الله يحب أن يرى أثره على عبده حسنا، ولا يحب البؤس ولا التباؤس»
 والشكر نصف الإيمان، بحسب متعلقاته من الاعمال والاحوال، وهي ما يجب على العبد
 لربه وعباده من استعمال نعمه عليه فيما يرضيه من أحكام شرعه، وموافقة سنته
 وحكمته في خلقه، والنصف الآخر الصبر وهو ما يجب في حال وقوع الكاره
 والابتلاء من عمل بدني ونفسي. ويضاد الشكر الكفر وهو قسمان، كفر النعم وكفر المنعم،
 وأنصح للقارئ أن يطلع كتاب الصبر والشكر في المجلد الرابع من إحياء العلوم للقراني.

(٦١) وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا
 تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ، وَمَا
 يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا
 أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ

لما ذكر تعالى عباده بفضله، وما يجب عليهم من شكره، ويكون أكثرهم
 لا يشكروا، كما يجب عليهم - عطف على ذلك تذكيره لهم باحاطة علمه بشؤونهم وأعمالهم
 كلها، صغيرها وكبيرها، جليلها وحقيقها، وبكل مفي العوالم علومها وسفليها،
 ليحاسبوا أنفسهم على تصيرهم في ذكره وشكره وعبادته، وبدأ بخطاب أعظمهم
 شأنًا في أعظم شؤونه فقال

﴿وماتكون﴾ أيها الرسول ﴿في شأن﴾ أي أمر من أمور المهمة الخاصة.

بك أو العامة التي تعالجها أمر الامة ، في الدعوة إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، انذاراً وتبشيراً ، وتعلماً وعملاً ﴿ وما تتلو من قرآن ﴾ أي وما تتلو من أجل ذلك الشأن من قرآن أنزل عليك ، تعبداً به أو تبليغاً له ، فن الأولى للتعليل والثانية للتبويض ، أو الضمير في منه للكتاب لان السياق بل السورة كلها فيه ، واضماره قبل الذكر ثم بيانه تفخيم له - وقيل لله لذكره في الآية قبلها . والتعبير في خطابه صلى الله عليه وسلم بالشأن وهو الامر العظيم أو ذو البال يدل على أن جميع أموره وأعماله صلى الله عليه وسلم كانت عظيمة حتى العادات منها ، لأنه كان قدوة صالحة فيها كلها ﴿ ولا تعملون من عمل ﴾ هذا خطاب عام للامة كلها في كل شؤونها وأعمالها ، بعد خطاب رأسها وسيدها في أخص شؤونها وأعمالها ، فتذكرك الآية في أخصر الالفاظ وأقصرها بأفضل ما آتاك الله من هداية ونعمة ، وتنتقل بك إلى كل عمل تعمله من شكر وكفر وإن كان كمثل ذرة ، فان مجيء (عمل) نكرة منفية يفيد العموم ، ودخول (من) التبعيضية عليه يؤكد هذا العموم ، فيشمل أدق الاعمال وأحقرها ، وهو في معنى قوله تعالى (فن يعمل مثقال ذرة خيراً يره) * ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ﴿ إلا كتنا عليكم شهوداً ﴾ اي رقباء مطمئنين عليكم ﴿ إذ تفيضون فيه ﴾ اي تخوضون وتندفعون فيه ، فنحفظه عليكم لنجزىكم به ، وأصل الافاضة في الشيء أو من المكان الاندفاع فيه بقوة أو بكثرة كما تقدم في (أفضتم من عرفات) ﴿ وما يعزب عن ربك ﴾ اي وما يبعد عنه ولا يغيب عن علمه ولا يخفى عليه ، قرأ الجمهور يعزب بضم الزاي والكسائي بكسرها وهما الغتان فيها - وأصله من قولهم عزب الرجل يعزب بأبلة ، أي يبعد ويغيب في طلب السكلاً العازب وهو ما يكون بفلاة بعيدة حيث لا زرع ، ويقال رجل عزب بفتحتين أي منفرد ، ومنه رجل وامرأة عزب أي منفرد لا زوج له أو لها ، ويقال امرأة عزبة ، واختلف في أعزب وعزباء ، ونفي عزوب الشيء عن الرب تعالى أخص وأبلغ من نفي الغيبة أو الخفاء عنه . كما أن الافاضة في العمل أخص من إتيانه مطلقاً . وحكمة تخصيصها بالذكر دون اللفظ الاعم منها ، هي أن ما يفرض فيه الانسان مهتماً به مندفعاً فيه جدير بأن

لا ينسى أو يغفل عن مراقبة ربه فيه وإطلاعه عليه ، فاللفظ يذكره به تذكيراً آمناً مؤثراً . وكذلك لفظ (يعزب) الدال على الخفاء والبعث معاً ، فكأنه يقول ان ما شأنه أن يبعث ويخفى عليكم من أعمالكم لا يعيب عن علم ربكم فإنه لا يعزب عنه ﴿ من مثقال ذرة ﴾ أي اقل شيء يبلغ وزنه ثقل ذرة وهي الحملة الصغيرة يضربها المثل في الصغر والخفة ، ويطلق على الدقيقة من الهباء وهو الغبار الذي لا يرى إلا في ضوء الشمس الداخل من السكوى إلى البيوت ﴿ في الارض ولا في السماء ﴾ أي في الوجود سفليه وعلويه ، وقدم ذكر الارض لان الكلام مع أهلها ، وخره في آية سبأ (٣:٣٤) وقدم السماء لانها في سياق ثنائته تعالى على نفسه ووصفه بأحاطة علمه فناسب تقديم السماء لانها أعظم فان فيها من الشمس وعوالمها ما يبعث بمضه عن بعض مسافة ألوف الألوف من السنين التي تقدر ابعادها بمسرة النور ، كما ثبت في علم هذا العصر ﴿ ولا اصغر من ذلك ولا أكبر ﴾ هذا كلام مستقل بنفسه قائم برأسه ، مؤكداً لما قبله بتعبير ادق وأشمل ، والـ () فيه نافية للجنس على قراءة الجمهور ، أي ولا شيء أصغر من الذرة وهو ما لا تبصرون ، من دقائق الكون كما قل (لا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون) ولا أكبر منها وإن عظم مقداره كمرشه عز وجل ، وقرأ حمزة ويعقوب أصغر بالرفع على الابتداء والخبر ، ولا يخفى توجيهه في الاعراب على أهله . قدم ذكر الاصغر لانه هو الأهم في سياق العلم بالخفي ، وعطف عليه الاكبر لإفادة الاحاطة وكون الاكبر لا يكبر عليه كما أن الاصغر لا يعزب عنه .

﴿ إلا في كتاب مبين ﴾ أي إلا هو معلوم ومحصي عنده ومرقوم في كتاب عظيم الشأن تام البيان ، وهو الكتاب الذي كتب فيه مقادير الموجودات كلها كاللائحة النظام ، وقد بينا ما ورد في هذا الكتاب المبين في تفسير (٥٩:٦) وعنده مفاتيح الغيب (الآية من سورة الانعام فراجعه في (ص ٤٥٧ و ٤٦٩) من الجزء السادس من هذا التفسير . وفي الآية إشارة إلى ما في الوجود من أشياء لا تدر كها الابصار ، وقد رؤي كثير منها في هذا العصر بالآلات التي تكبر الثريات اضعافا كثيرة ، ولم يكن هذا مما يخطر في البال في عصر التنزيل ، فهو من دقائق تعبير القرآن ، التي تظهر حكمتها

للناس أنا بعدآن ، وتقدم التذكير بما لها من لامثال التي هي من أنواع الاعجاز

(٦٢) أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَأَخَوْفٌ تَلِيهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

(٦٣) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٤) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ، ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ

لما بين تعالى عبادته سعة علمه ، ومراقبته لعباده ، وإحصاءه أعمالهم عليهم ،
وجزائهم عليها ، وذكركم بفضله ، وما يجب عليهم من شكره ، بين لهم في هذه
الآيات الثلاث حال الشاكرين المتقين ، الذين لهم أحسن الجزاء في يوم الدين ،
فقال ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ ﴾ ففتحت هذه الجملة بكلمة (ألا) للتنبية وتوجيه الفكر
لها ، والأولياء جمع ولي وهو وصف من الولاء والتوالي ، ومن الولاية والتولي ، فيطلق
على القريب بالنسب وبالمسكانة والصدافة ، وعلى النصير ، والتولي به سر والحكم ،
أو على اليتيم والقاصر المدير لشؤونه ، ويوصف به العبد والرب تعالى كما تقدم في قوله
تعالى (٢ : ٢٥٧) ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا ﴾ وفضلنا الكلام في تفسيره بما بينا به ولاية
الله العامة والخاصة لعباده ، وولايتهم له ، وأول الشيطان والطاغوت ، وولاية بعضهم
لبعض ، وضلال بعضهم بجعل ولاية الله الخاصة به لبعض عباده ، وهم الذين يسمونهم
أولياء الله بما يسلمهم استحقاق هذا اللقب ، وذكرنا في شواهد ذلك التفسير هذه الاية
أولياء الله أضداد أعدائه المشركين به ، الكافرين بنعمه ، فهم المؤمنون
المتقون كما نطقت به الآية ، وهم درجات أنلام هم الذين يتولونه باخلاص
العبادة له وحده ، والتوكل عليه ، وحببه والحب فيه ، والولاية له ، فلا يتخذون
له أنداداً يحبونهم من نوع حبه ، ولا يتخذون من دونه ولياً ولا شفيعاً يقربهم إليه .
زلفي ، ولا وكيلاً ولا نصيراً فيما يخرج عن توفيقهم لاقامة سنته في لاسباب والسببات ،
ويتولون رسوله والمؤمنين بما أمرهم به ، قال تعالى (٦ : ٥١) ﴿ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ
يَخَافُونَ أَنْ يَحْشُرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَهُمْ يَتَّقُونَ ﴾ وقال

(٣٢ ٤) ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع أفلا تتذكرون) وقال (٣٣: ١٧) قل من ذا الذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة؟ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً) أو قل في آيتين أخريين منها ٢١ و ٤٨ وكفى بالله وكيلاً) والآيات كثيرة في توليهم له بالطاعة، وتوليه لهم بالهداية والعناية والاعانة والنصر والتوفيق.

وحسبنا هاتمان غناه عنهم وما وصفهم به ثم ما زفه إليهم من البشارة فأما مانعاه مخبر به عنهم فقوله ﴿لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ وهو مانعاه عن جميع المؤمنين الصالحين والمصلحين واللتقين في الآيات الكثيرة (راجع ٢: ٦٢ و ٥: ٧٢ و ٦: ٤٨ و ٧: ٤٣ و ٩: ٤٩ وقد تقدم تفسيرها) فأما في الآخرة حيث يتحقق هذا على أتم وجه وهو المقصود بالذات فلا خوف يقع عليهم وبرهقون به مما يخف الكفار والفساق والظالمون من أهوال الموقف وعذاب الآخرة، كما قال تعالى بعد ذكر إعادتهم عن جنهم (٢: ١٠٣) لا يحزنهم الفزع الأكبر) الآية، ولا هم يحزنون على ما تركوا وراءهم وأما في الدنيا فلا يخافون مما يخاف غيرهم من الكفار وضغفاء الأيمان وعميد الدنيا من مكروه يتوقع كقاء العدو قال (٣: ١٧٥) فلا تخفونهم وخافون إن كنتم مؤمنين) أو يخس في الحقوق أو رهق يغشاهم بالظلم والذل، قال (٧٢: ١٣) فمن يؤمن بربه فلا يخف بخصاً ولا رهقاً) ولا هم يحزنون من مكروه أو ذهاب محبوب وقم بالفعل كما قال (٥٧) لكيلا تأسوا على ما فاتكم) والمراد أنهم لا يخفون في الدنيا كخوف الكفار ولا يحزنون كحزنهم، وسند كرفي الخوف والحزن عنهم عند الموت. وأما أصل الخوف والحزن فهو من الاعراض البشرية التي لا يسلم منها أحد في الدنيا، وإنما يكون المؤمنون الصالحون أصبر الناس وأرضاهم بسنن الله اعتقاداً وعلماً بأنه إذا ابتلاه بشيء مما يخيف أو يحزن فأنما يريهم بذلك لتكميل نفوسهم وتخصيصها بالجهاد في سبيله الذي يزداد به أجرهم كما صرحت بذلك الآيات الكثيرة.

وأما ما وصفهم وعرفهم به فقوله ﴿الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ فهذا استئناف لبيان حال هؤلاء الأولياء النفسية العلمية والعملية، أي هم الذين جمعوا بين الإيمان الصحيح بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ومملكة التقوى له عز

وجل ، وما تقتضيه من عمل ، وعبر عن إيمانهم بالفعل الماضي لبيان أنه كان كاملاً باليقين ، لم يزله شك ولم يحصل بالتدريج ، وعن تقواهم بالفعل الذي يدل على الحال والاستقبال لأن التقوى تتجدد دائماً بحسب متعلقاتها : من كسب وحرِب ، وشهوة وغيظ ، والمعنى الجامع فيها انها اتقاء كل ما لا يرضي الله تعالى من ترك واجب ومندوب ، وفعل محرم ومكروه ، واتقاء مخالفة سنن الله تعالى في خلقه من أسباب الصحة والقوة والنصر والعزة وسيادة الامة. وقد فصلنا هذا في مواضع من أهمها تفسير قوله تعالى (٨ : ٢٩ يا أيها الذين آمنوا إن تقوا الله يجعل لكم قرآناً ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم)

وأما البشري التي زفها اليهم فهي قوله ﴿ لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة ﴾ البشري الخير السار الذي تنبسط به بشرة الوجه فيتهلل وتبرق أساربره . وهذه البشري مبنية في مواضع من كتاب الله تعالى ، وقد يراد بها متعلقها الذي يبشرون به ولم يذكر هنا ليشمل كل ما بشروا به في كتاب الله تعالى وعلى لسان رسوله ﷺ ، فأما البشري في الحياة الدنيا فأهمها البشارة بالنصر ، وبحسن العاقبة في كل أمر ، وباستخلافهم في الارض ، ما أقاموا شرع الله وسننه ، ونصروا دينه وأعلوا كلمته ، وأما في الآخرة فمن أكتابها وأجمعها لمعاني الآيات لأكملهم قوله (٤١ : ٣٠ ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون ٣١ نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون ٣٢ نزلا من غفور رحيم) المشهور في تنزل الملائكة عليهم أنه يكون عند البعث ، وكذا عند الموت ، ولا مانع من شموله لما في الدنيا من تثبيت قلوبهم ، وتقوية إلهام الحق والخير فيهم ، كما قال تعالى في الملائكة الذين أمد بهم أصحاب رسوله ﷺ في غزوة بدر (٨ : ١٠ وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن به قلوبكم) الآية ثم قال (١٢) اذ يوحى ربك إلى الملائكة أي معكم فثبتوا الذين آمنوا) وقد يكون منه إلهام الحق والخير كما ورد في حديث ابن مسعود مرفوعاً عند « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٣ » « الجزء الحادي عشر »

الترمذي والنسائي « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فايعاد بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم انه من الله فليحمد الله ، ومن وجد الاخرى فليتعوذ بالله من الشيطان »

﴿ لا تبديل لكلمات الله ﴾ أي لا تغيير ولا خلف في مواعيد الله عز وجل ،

ومنها هذه البشارات وما في معناها من الآيات ﴿ ذلك هو الفوز العظيم ﴾ أي ذلك الذي ذكر من البشرى بسعادة الدارين هو الفوز العظيم الذي لا يعلوه فوز ، وانما هو ثمرة الايمان الحق ، والتقوى العامة في حقوق الله وحقوق الخلق

ماورد من الاخبار والآثار في الاولياء

ذكر بعض المفسرين في تفسير الآية بعض الاخبار النبوية ولا يصح منها حديث مرفوع متصل الاسناد ، وأقرب ما رووه في تفسيرها إلى اصطلاحهم في الاولياء حديث ابي هريرة المرفوع « ان من عباد الله عباداً يفيضهم الانبياء والشهداء » قيل من هم يا رسول الله ؟ قال « هم قوم يحبوا في الله من غير أموال ولا أنساب ، وجوههم نور ، على مناير من نور ، لا يخافون اذا خاف الناس ، ولا يحزنون اذا حزن الناس » ثم قرأ (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أخرجه ابن جرير من طريق شيخه أبي هشام الرفاعي وهو محمد بن يزيد بن كثير العجلي الكوفي ، قال البخاري رأيتهم مجتمعين على ضعفه . ورواه أبو داود من حديث عمر بن الخطاب بمثل سند ابن جرير عن أبي زرعة بن عمرو ابن جرير عنه الا انه منقطع بين أبي زرعة وعمرو وقال بعضهم وأخرجه الحاكم وصححه ولم أره في تفسير السورة من المستدرک وما كل ما صححه الحاكم بصحيح . ومتن هذا الحديث مشكل لانه يدل على تفضيل الاولياء على الانبياء وهو مخالف لاجماع علماء المسلمين ، موافق لقول بعض أولياء الشياطين : ان الولي أفضل من النبي ، من حيث ان ولاية النبي أفضل من نبوته ، وهو تأويل شيطاني

ومثله حديث أبي مالك الاشعري مرفوعاً « يأتي من أفناء الناس ونوازع القبائل قوم لم تتصل بينهم أرحام متقاربة ، تحابوا في الله ، وتصاقوا في الله ، يضع

الله لهم يوم القيامة منابر من نور فيجاسمهم عليها ، يفرح الناس ولا يفرعون ، وهم أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » والحديث مطول أخرجه الامام أحمد من طريق شهر بن حوشب وفيه مقال لهم أهونه ما اكتفى به الحافظ في التقريب وهو انه صدوق كثير الارسال والاوهام ، وذكر في تهذيب التهذيب : ان مما قيل فيه انه يروي المنكرات عن الثقات ، وقال ابن حزم هو ساقط ، وقال ابن عدي ضعيف جداً

وورد عدة روايات مرفوعة وآثار في تفسير البشرى في الدنيا بالرؤيا الصالحة يراها المسلم أو المؤمن أو ترى له . وعليه ابن مسعود وأبو هريرة وابن عباس من الصحابة ، ومجاهد وعروة بن الزبير ويحيى بن أبي كثير و ابراهيم النخعي وعطاء ابن أبي رباح من التابعين وغيرهم ، وفسرها بعضهم بآية حم السجدة التي أوردناها ، أنفاً مع تفسيرها . وروي عن ابن عباس وغيره أن الاولياء هم الذين اذا رؤوا ذكر الله لرؤيتهم ورواه بعضهم مرفوعاً وهو ضعيف ، وروي عن أبي حنيفة والشافعي انهما قالا : اذا لم يكن العلماء أولياء الله فليس لله تعالى ولي . قال النووي والمراد بهم العلماء العاملين . فهذه خلاصة الروايات في الآية .

واننا لم نر في الاحاديث الصحيحة في الاولياء ما هو أقرب إلى كلام الصوفية منه الى كلام الله عز وجل الاحديث «من عادى لي ولياً فقد آذنته بحرب» الخ وقد انفرد به البخاري وفي سنده غرابة كفته . قال الحافظ ابن رجب : هبتا الحديث تفرد ياخرجه البخاري دون بقية أصحاب السكتب ، خرجه عن محمد بن عثمان بن كرامة عن خالد بن مخلد — إلى أن قال — وهو من غرائب الصحيح تفرد به ابن كرامة عن خالد وليس في مسند أحمد مع ان خالد بن مخلد القطوانى تكلم فيه الامام احمد وغيره وقالوا له منا كبير (ثم قال) وقد روي من وجوه آخر لا تخلو كلها من مقال . وذكر الحافظ في تهذيب التهذيب اختلاف أئمة الجرح والتعديل في خالد ، ومنه تصريح جماعة بروايته للمناكير ومنه : في الميزان للذهبي قال أبو حاتم يكتب حديثه ولا يحتج به ، وقال الازدي في حديثه بعض المناكير وهو عندنا في عداد أهل الصدق ، ومنه قول ابن سعد كان منكر الحديث متشيعاً

مفرطاً في التشيع وكتبوا عنه للضرورة . وذكر بعض هذا الجرح وغيره في مقدمة فتح الباري وأجاب عنه بما حاصله أن التشيع لا يضر مثله ، وأما المناكير فقد تتبعها أبو احمد بن عدي من حديثه وأوردها في كامله وليس فيها شيء مما أخرجه له البخاري (قال) بل لم أر له عنده من أفراد سوى حديث واحد وهو حديث أبي هريرة « من عادى لي ولياً » الحديث اهـ

(أقول) وأما الغرابة في متن هذا الحديث فهو قوله تعالى « ولا يزال عبد ييتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، الخ الذي استدلوأ به على الحلول والاتحاد ، وقد أوله العلماء بينت أمثل تأويل له عندي في الكلام على حب الله تعالى من تفسير (٩ : ٢٤ ص ٢٣٩ ج ١٠ تفسير) فراجعه يغفك عن ذكره كله هنا

﴿ أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان ﴾

ذلك ما فسرنا به الآيتين بشواهد مما في معناهما من الآيات ، والقرآن خير ما يفسر به القرآن وأصح ، وكل ما خلفه وخرج عنه فهو باطل ، وعززناه بأمثل ما روي من الاخبار والآثار فيهما ، فأولياء الله الذين يشهد لهم كتابه بالولاية لهم المؤمنون الصالحون المتقون ، ولكن اشتهر بين المسلمين بعد عصر السلف ما يدل على أن الأولياء عالم خيالي غير معقول ، لهم من الخصائص في عالم الغيب ، والتصرف في ملكوت السموات والارض ، فوق كل ما ورد في كتاب الله وأخبار رسوله الصادقة في أنبياء الله المرسلين ، بل فوق كل ما وصف به جميع الوثنيين آلهتهم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله ، وينقلون مثل هذه الدعاوى عن بعض من اشتهر بالولاية ممن لهم ذكر في التاريخ ، ومن لا ذكر لهم إلا في كتب الادعياء الذين فتنوا المسلمين والمسلمات بهم ، ممن يسمون بالمتصوفة وأهل الطريق ، ينقلون عنهم ما يؤيدون به مزاعمهم الخرافية الشركية كما ترى فيما نقله من الشواهد الآتية

والذين أنكروا عليهم منكر ، واحتج عليهم بكتاب ربهم وحديث نبيهم مفسر أو محدث ، يقولون هذا ضال مضل منكر للكرامات ، مخالف للقرآن ، وقرأوا عليه (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وهل هذه الآية الا كقوله تعالى (إن الذين

آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وغيره مما أوردنا من الشواهد آنفاً ، نعم إن هؤلاء المؤمنين الصالحين درجات أشرنا آنفاً إلى ادناها وأعلاها ، وفصلنا القول فيهم في الكلام على حب الله ورسوله من تفسير (١٠ : ٢٤)

هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية ألبسوها أولاً ثوب الشريعة ، وجعلوا للشريعة مقابلاً سموه الحقيقة ، ثم صاروا يلبسونها عليها لبساً ، ويمدون بها عنها معنى وحساً بقدر ما يمدون عن الاتباع ، ويوغلون في الابتداع ، واعتبر في ذلك بسيرة سلفهم الأولين كالخارث المحاسبي والسري السقطي ومنصور ابن عمار والجنيد والشبلي وجمهور رجال رسالة القشيري ، ومثل أبي إسماعيل الهروي وسيرة من بعدهم ، فإن أكثر أولئك قد رووا الحديث وتفقهوا في الدين ، وكانوا يتحرون الاعتصام بالكتاب والسنة ، ويحذرون ويتحذرون اتباعهم من البدع ، ويحشون على اتباع السلف ، من الصحابة والتابعين وأئمة آل البيت وحفاظ السنة وعلماء الأمصار كالاربعة وطبقتهم ، ولولا هذا لكان بينهم وبين غلاة متصوفة القرون الوسطى ومن بعدهم من المتدعة والدجائين أصحاب الدعاوى العريضة والخرافات الشنيعة مثل ما بين صوفية البرهمية والاسلام ، وكتابتهم (القمدا) وكتابه القرآن

أمرر ببصرك على طبقات الشعراني الكبرى فانك لا ترى فيها فرقا كبيراً بين سيرة أئمة الحديث والفقه وأئمة التصوف في العبادة والتقوى والعلم والحكمة ، ثم انظر في سيرة من بعدهم من صوفية القرون الوسطى ثم قرن المؤلف وهو العاشر وتأمل ووازن تر في أولياء الشعراني المجانين والمجان والقدرين الذين تقناثر الحشرات من رؤوسهم ولحاهم وثيابهم التي لا يفسلون حتى تبلى أو في السنة مرة واحدة ، تجد ذلك البون التاسع فيهم ، وهم مع ذلك يفضلون أنفسهم على الانبياء ، ومنهم من يدعي الاتحاد بالله أو الالوهية

تأمل ما كتبه في ترجمة الذين يسمونهم الاقطاب الاربعة فانك لا تجد فيه لأحد منهم أنه كان ينفع الناس بعلوم الشرع إلا الشيخ عبد القادر الجيلاني ، وتجد أن الشيخ احمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره ويحافظونه بقلب الدجال ويرمونه

بالجمع بين النساء والرجال ، وأما الدسوقي فكاتب عنه انه كان يتكلم بالعجمي والسرياني والعبراني والزنبيجي وسائر لغات الطيور والوحوش ، ونقل عنه كتابا من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه ، وهو خلط مخترع ليس منها في شيء ، وسلاما مثله أرسله مع أحد الحجاج إلى رسول الله ﷺ منه قوله « موز الرموز ، عموز النهوز ، سلاحات أفق ، فردناية امق ، شوامق اليرامق ، حيد وفرقيد ، وفرغاط الاسباط » الخ فما معنى هذا وأي فائدة للناس فيه ؟

ونقل عنه كلاما من الميهود من أمثاله الصوفية منه النافع والضار ، فمن الحق النافع ما معناه انه لو لم تغلب عليهم الاحوال لما قالوا في التفسير الا صحيح المأثور ، ومن الضار الذي أفسد على المصدقين بولاية هؤلاء الناس دينهم وهو مما نحن فيه قوله : وكان (رض) يقول : أنا موسى عليه السلام في مناجاته ، أنا علي (رض) في حملاته ، أنا كل ولي في الارض خلقت بيدي ، ألبس منهم من شئت ، أنا في السماء شاهدت ربي وعلى الكرسي خاطبته ، أنا بيدي أبواب النار غلقتها ، وبيدي جنة الفردوس فتحتها ، من زارني أسكنته جنة الفردوس » الخ وقوله وهو في تفسير الآية : « واعلم يا ولدي أن أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون متصلون بالله ، وما كان ولي متصل بالله إلا وهو يناجي ربه كما كان موسى عليه السلام يناجي ربه ، وما من ولي إلا وهو يحمل على الكفار كما كان علي (رض) يحمل ، وقد كنت أنا وأولياء الله أشياخا في الازل ، بين يدي قديم الازل ، وبين يدي رسول الله ﷺ وجميع الاولياء بيدي فخلعت عليهم بيدي ، وقال لي رسول الله ﷺ يا ابراهيم أنت تقيب عليهم ، فكنت أنا ورسول الله ﷺ وأخي عبد القادر خلفي وابن الرفاعي خلف عبد القادر ، ثم التفت إلي رسول الله ﷺ وقال لي « يا ابراهيم سر الى مالك وقل له يفتق النيران ، وسر الى رضوان وقل له يفتح الجنان ، ففعل مالك ما أمر به ، ورضوان ما أمر به » الخ وله ما هو أغرب منه وذكر الشعراني انه أطال في هذا الكلام وهو من مقام الاستطالة تعطي

الرتبة صاحبها أن ينطق بما ينطق به ، وقد سبقه إلى نحو ذلك الشيخ عبد القادر الجيلي (رض) وغيره فلا ينبغي مخالفته إلا بنص صريح اهـ

وتقول ان مثبت هذه الدعاوى المنكرة في عالم الغيب من شؤون رب العالمين وملائكته وأكرم رسله وجنته وناره هو الذي يحتاج في إثباته إلى النص الصريح دون منكره فإنه يتبع الاصل ، والاجماع على ان شيئاً من ذلك لا يثبت إلا بنص قطعي ، وسند كرم ما انتهت اليه هذه الدعاوى في افساد الدين ، واضلال الملايين من المسلمين .

جاء في كتب الرفاعية ان الشيخ احمد الرفاعي مس بيده سمكة فأرادوا شيبها بالنار فلم تؤثر فيها النار فذكروا له ذلك فقال : وعندي العزيز ان كل مالمسته يد هذا اللاش حميد لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة ، وجاء فيها : ان سيدي احمد الرفاعي كان يميت ويحيي ، ويسعد ويشقي ، ويفقر ويفغي ، وأنه وصل إلى مقام صارت السموات السبع في رجله كالخلخال . وفي البهجة الرفاعية ان سيدهم أحمد الرفاعي باع بستانا في الجنة لبعض الناس وذكر له حدودا أربعة . وقد نقلت هذا وما قبله في كتابي (الحكمة الشرعية في محاكمة القادرية والرفاعية)

وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلي انه مات بعض مريديه فشكت اليه أمه وبكت ففرق لها فطار وراء ملك الموت في السماء وهو صاعد الى السماء يحمل في زنبيل ما قبض من الارواح في ذلك اليوم فطاب منه أن يعطيه روح مريده أو أن يردها اليه فامتنع ، فغذب الزنبيل منه فأفلت فسقط جميع ما كان فيه من الارواح فذهبت كل روح الى جسدها ، فصعد ملك الموت الى ربه وشكا له ما فعله عبد القادر فأجابه الرب سبحانه بما امتنعنا من نقله إذ نقلنا هذه الخرافة في الجزء الاول من المجلد التاسع من المنار تغزيها وأدبا مع ربنا عز وجل

ونقلنا ثم أن خطيبا خطب المسلمين في الهند ذكراً مناقب الشيخ عبد القادر فقال : ان حداة خطفت قطعة لحم مما ذبح للشيخ عبد القادر في مولده — كما كانوا يذبحون للاصنام — فوقعت عظمتها في مقبرة فغفر الله تعالى لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبد القادر ، وياويل من ينكر أمثال هذه الخرافات فيستهدف لرميه بمخالفة قوله تعالى

(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) وإنكار الكرامات وقول اللقاني وأثبتن للأولياء الكرامة ومن نفاها فانبذن كلامه
ومن هذه الكرامات بزعمهم ادعاء الوحي ولا يناقها عندهم معارضة القرآن، وعبادة الشيطان، وعلم الغيب، وملك النفع والضر، وتدبير الأمر، وترك الفرائض وارتكاب الفواحش، لأنها لا تكون من أوليائهم إلا صورية لمصلحة، وكذا الكفر الصريح كما ترى في الشواهد الآتية :

﴿ الشاهد الأول كرامات ولي شيطاني موحد ألوهية إبليس ﴾

قال الشعرا في ترجمة الشيخ محمد الحضري « كان من أصحاب جدي رضي الله عنهما » وكان يتكلم بالغرائب والعجائب من دقائق العلوم والمعارف مادام صاحبا، فإذا قوي عليه الحال تكلم بالفاظ لا يطبق أحد سماعها في حق الأنبياء وغيرهم، وكان يرى في كذا كذا بلداً في وقت واحد وأخبرني الشيخ أبو الفضل السمرسي أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة فقال بسم الله فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده ثم قال : وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام. فقال الناس كفر، فسل السيف ونزل فهرب الناس كلهم من الجامع فجلس عند المنبر إلى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم وصلى بهم، قال فمددنا له ذلك اليوم ثلاثين خطبة هذا ونحن نراه جالسا عندنا في بلدنا « وأخبرني الشيخ أحمد القلعي أن السلطان قايتباي كان إذا رآه قاصداً له تحول ودخل البيت خوفاً أن يبطش به بمحضرة الناس . وكان إذا أمسك أحداً بمسكه من لحيته وبصير يبصق على وجهه ويصفعه حتى يبدو له اطلاقه، وكان لا يستطيع أكبر الناس أن يذهب حتى يفرغ من ضربه، وكان يقول لا يكمل الرجل حتى يكون مقامه تحت العرش على الدوام، وكان يقول : الأرض بين يدي كاللحاء الذي آكل منه، وأجساد الخلائق كالتقوير أرى ما في بواطنهم . توفي رضي الله عنه سنة سبع وتسعين وثمانمائة (رض) اهـ ص ٩٤ ج ٢ طبقات (أقول) لولا أن سلطان هؤلاء القوم مجنون بالخرافات مثلهم لما كان لمثل هذا المجنون مأوى إلا البيارستان يكف كفره وشره عنهم

﴿ الشاهد الثاني كرامة ولي العاهرات والزناة الفاعل بالأتان ﴾

قل في ترجمة من سماه (سيدي علي وحيش من مجاذيب النجارية) « كان (رض) من أعيان المجاذيب أرباب الاحوال، وكان يأتي مصر والمحلة وغيرهما من البلاد، وله كرامات وخوارق، واجتمعت به يوماً في خط بين القصرين فقال لي : ودني للزباني فوديته له فدعا لي وقال الله يصبرك على ما بين يديك من البلوى . وأخبرني الشيخ محمد الطنيجي رحمه الله تعالى قال : كان الشيخ وحيش (رض) يقيم عندنا في المحلة في حان بنات الخطا (أي العاهرات) وكان كل من خرج يقول له قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن نخرج، فيشفع فيه، وكان يجلس بعضهم اليوم واليومين ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته، وقال يوماً لبنات الخطا أخرجوا (?) فإن الخان را تحيطبق عليك، فاسمع منهن إلا واحدة فخرجت ووقع على الباقي فتمن كلهن، وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره ينزله من على الحماره ويقول له أمسك رأسها حتى أفعل فيها، فإن أي شيخ البلد تسمر في الارض لا يستطيع يمشي خطوة، وإن سمع حصل له خجل عظيم والناس يبرون عليه، وكان له احوال غريبة وقد أخبرت عنه سيدي محمد بن عنان (رض) فقال هؤلاء يخلون للناس هذه الافعال وليس لها حقيقة « اه (ص ١٢٩ منه) وولاية هذا المجنون انه قواد العاهرات بضمانه المغفرة لمن يعجز بهن بشفاعته، وأضل منه علماء الخرافات المدعون لسكرامته

﴿ الشاهد الثالث ولاية مجتهد معارض للقرآن بالكفر والهديان ﴾

قل في ترجمة الشيخ شعبان المجذوب انه كان من أهل التصريف بمصر المحروسة ونقل عن شيخه على الخواص ان الله تعالى كان يضلمه على جميع ما يقع في السنة عند رؤية هلالها، وانه كان يسأله عما يشكل عليه (ثم قال) وكان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كرامبي المساجد يوم الجمعة وغيرها فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن انها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل

« وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرءون في البيوت فصغيت إلى ما يقول فسمعته يقول : وما أنتم في تصديق هود بصادقين، ولقد أرسل الله لنا قوما بالمؤتة فكاتب يضر بونا وياخذون أموالنا وما لنا من ناصرين . ثم قال : اللهم

اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان - إلى آخر ما قال «
ثم ذكر انه كان عربانيا دائما الا انه يستر سواتيه بقطعة جلد اوبساط اوحصير
لأنه كان محرم كل ما عدا ذلك من زينة الدنيا قال « وكانت الخلائق تعتمده
اعتقاداً زائداً لم أسمع قط ان أحدا ينكر عليه شيئاً من حاله ، بل يعدون رؤيته عيداً
عندهم تحيننا عليه من الله تعالى (رض) مات (رض) سنة نيف وتسعمائة » اهـ ١٦٠ منه
(أقول) اذا كان الشعراني من أكبر علماء الازهر ومؤلفيه يعد هذا المخنون
من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره وإن تكرر ذكره في سطر واحد ، وكان شيخه
علي الخواص يتلقى عنه حل مشكلات المعارف الالهية ويمتد على كشفه ، فهل
نكون مخطئين اذا قلنا إن جميع من شهد لهم بالولاية والكرامة كانوا خرافيين
مجانين مثله ، وأي قيمة كانت في عصره للعقل والعلم والدين ، وهل يوجد دليل
على ان ذلك الجنون كان تحبظاً شيطانياً لاجنبها إلهيا أقوى من معارضة صاحبه
للقرآن بمثل ما نقله الشعراني مما سمعه ورآه منه ورواه عنه من الهذيان ؟

﴿ شواهد أخرى عن المعروف بالتجاني تابعة لما قبلها ﴾

كان من فساد هذا التصوف الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وجد
في المغرب الاقصى في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس
احمد التجاني صار له طريقة من أشهر الطرق امتدت من المغرب الاقصى إلى السودان
الفرنسي والجزائر فتونس فمصر ، وصار لها مئات الالوف من الأتباع لما فيها
من الغلو في الدعوى والخرافات والابتداع ، وتفضيل شيخها نفسه على جميع من
سبقه من أقطاب الاولياء وكذا الانبياء بأمور منها ضمان النبي ﷺ له ولاصوله
وفروعه وأتباعه ولكل من يكرمه ويحسن إليه ولو بالطعام أعلى منازل الجنة مع
رسول الله ﷺ بغير حساب ولا عقاب لأن جميع معاصيهم وتبعاتهم تغفر لهم
لاجله الخ كان الغرض من طريقته أكل أموال الناس وطعامهم والجاه عندهم خلافا
لجميع صوفية العالم ، وقد ألف احد أتباعه كتاباً كبيراً في مناقبه وكراماته وأوراده
تلغاها من لسانه وقلمه ، هدم بها هدى كتاب الله وسنة رسوله مدعياً أنه تلقاها منه
ﷺ وسماه (جواهر المعاني) وهاك بعض الشواهد منه

﴿الشاهد الرابع ضمان دخول الجنة لكل من له علاقة بالتجاني بلا حساب ولا عقاب﴾

قال المؤلف في الفصل الثاني من الباب الاول

« قال (رض) أخبرني سيد الوجود بقظة لا مناما قال لي انت من الامنين وكل من رآك من الامنين ان مات على الايمان ، وكل من أحسن اليك بخدمة أو غيرها ، وكل من أطعمك (i) يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب

(ثم قال) فلما رأيت ماصدر لي منه صلى الله عليه وسلم من المحبة وصرح لي بها تذكرت الاحباب ومن وصلني إحسانهم ، ومن تعلق بي بخدمة ، وأنا أسمع أكثرهم يقولون لي نحاسبك بين يدي الله إن دخلنا النار وأنت ترى ، فأقول لهم لا أقدر على شيء ، فلما رأيت منه صلى الله عليه وسلم هذه المحبة سألته لكل من أحبني ولم يعاديني بعدها ، ولكل من أحسن إلي بشيء من مثقال ذرة فأكثر ولم يعاديني (?) بعدها ، وآكد ذلك من أطعمني طعامه (!) قال كاهم يدخلون الجنة بلا حساب ولا عقاب

« قال وسألته صلى الله عليه وسلم لكل من أخذ عني ذكراً أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر ، وأن تؤدي عنهم تبعاتهم من خزائن فضل الله لا من حسناتهم ، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء ، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة ، وأن يدخلوا الجنة بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة الاولى ، وأن يكونوا كاهم معي في عليين في جوار النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال لي صلى الله عليه وسلم ضمننت لهم هذا كله ضماناً لا تنقطع حتى تجاورني أنت وهم في عليين

(قال المؤلف) ثم اعلم اني بعد ما كتبت هذا من سماعه وإملائه علينا (رض) من حفظه ولفظه اطلمت على ما رسمه من خطه ، ونصه :

« أسأل من فضل سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يضمن لي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب أنا وكل أب وأم ولذني من أبوي إلى أول أب وأم لي في الاسلام من جهة أبي ومن جهة أمي ، وجميع ما ولد آبائي وأمهاتي من أبوي إلى الجد الحادي عشر والجدة الحادية عشر (?) من جهة أبي ومن جهة أمي من كل ما تناسل منهم (?) من وقتهم إلى أن يموت سيدنا عيسى بن مريم من جميع الذكور والاناث ، والصغار

والكبار ، وكل من أحسن إلي باحسان من مثقال ذرة فأكثر ، من خروجي من بطن
 أمي إلى موتي ، وكل من له علي مشيخة في علم أو ذكر أو سر من كل من لم يعادني من
 جميع هؤلاء . وأما من عاداني أو أبغضني فلا ، وكل من أحبني ولم يعاديني (?) وكل من
 والاني واتخذني شميخاً أو أخذ عني ذكراً ، وكل من زارني وكل من خدمني أو قضى
 لي حاجة أودعالي ، كل هؤلاء ، من خروجي من بطن أمي إلى موتي وآبائهم (?) وأمهاتهم
 وأولادهم وبناتهم وأزواجهم ووالدي أزواجهم يضمن لي سيدنا رسول الله ولكل
 واحد من هؤلاء أن أموت أنا وكل حي منهم على الايمان والاسلام ، وأن يؤمننا
 الله وجميعهم من جميع عذابه وعقابه وتهويله وتخويله ورعبه وجميع الشرور من
 الموت إلى المستقر في الجنة ، وأن تغفر لي ولجميعهم جميع الذنوب ما تقدم منها وما تأخر
 وأن تؤدي عني وعنهم جميع تبعاتنا وتبعاتهم ، وجميع مظالمنا ومظالمهم من خزائن
 فضل الله لا من حسناتنا ، وأن يؤمنني الله وجميعهم من جميع محاسبهه ومناقشته
 وسؤاله عن القليل والكثير يوم القيامة ، وأن يظاني الله وجميعهم في ظل عرشه يوم
 القيامة ، وأن يجيزني ربي أنا وكل واحد من المذكورين على الصراط أسرع من
 طرفة العين على كواهل الملائكة ، وأن يسقيني الله وجميعهم من حوض سيدنا محمد
 يوم القيامة ، وأن يدخلني ربي وجميعهم جنته بلا حساب ولا عقاب في أول الزمرة
 الأولى ، وأن يجعلني ربي وجميعهم مستقرين في الجنة في عليين من جنة الفردوس
 ومن جنة عدن . أسأل سيدنا رسول الله بالله أن يضمن لي ولجميع الذين ذكرتهم في
 هذا الكتاب كل ما طلبته من الله لي ولهم في هذا الكتاب بكأله كله ضمانا يوصلني
 وجميع الذين ذكرتهم في هذا الكتاب إلى كل ما طلبته من الله لي ولهم [كذا بهذا
 التكرار] فأجاب رسول الله ﷺ بقوله الشريف : كل ما في هذا الكتاب ضمنته
 لك ضماناً لا تتخلف عنك وعنهم أبداً إلى أن تكون أنت وجميع ما ذكرت في جواري
 في أعلى عليين ، وضمنت لك جميع ما طلبت منا ضماناً لا يتخلف عليك الوعد فيها
 والسلام اهـ بحروفه ولحنه وتكراره من ص ٩١ و٩٢ ج ١ — قال المؤلف

ثم قال (رض) وكل هذا وقع يقظة لا مناما . ثم قال وأنتم وجميع الاحياء
 لا تحتاجون إلى رؤيتي إنما يحتاج إلى رؤيتي من لم يكن حبيباً يعني تابعاً ولا آخذاً

عني ذكراً ولا أكلت طعامه . وأما هؤلاء فقد ضمنهم لي بلا شرط رؤية مع زيادة
انهم معي في عليين» ولو روي هذا عنه في حياته لاجمع العلماء على انه مفترى عليه صلى الله عليه وسلم
ثم قال التجاني : وأما من رأى أني فقط غايته يدخل الجنة بلا حساب ولا عقاب
ولا مطمع له في عليين إلا أن يكون ممن ذكرتهم وهم أحبنا ومن أحسن البنا ومن
أخذ عنا ذكراً فإنه يستقر في عليين معنا وقد ضمن لنا هذا بوعده صادق لا خلف
فيه الا اني استثنيت من عاداني بعد المحبة والاحسان فلا مطمع له في ذلك ، فان
كنتم متمسكين بمحبتنا فابشروا بما أخبرتكم به فإنه واقع لجميع الاحباب قطعاً اه
وهنا ذكر مؤلف الكتاب ان هذه الكرامة العظيمة المقدر وهي دخول الجنة
بلا حساب ولا عقاب لمن ذكروهم لم تقع لأحد من الاولياء قبله الخ . ونزيد عليه
ان النبي صلى الله عليه وسلم لم يضمن مثل هذا في حياته لاحد من أهل بيته ولا خواص أصحابه
من المهاجرين والانصار (رض) حتى العدد القليل الذين بشرهم بالجنة كالعشرة
لم يضمن لهم ما زعم التجاني انه ضمنه لمن لا يحصى عدداً من أصوله وفرعه وأتباعه ،
ولا يوجد في شريعته ما يدل على ان الله تعالى أذن له بمثل هذا ، بل قاعدة دينه
وشريعته ان الغرم بالغنم ، فمن تضاعف حسناتهم تضاعف سيئاتهم كما صرح به
الكتاب العزيز في خطاب نساءه صلى الله عليه وسلم من سورة الاحزاب

وصح عنه صلى الله عليه وسلم انه لما نزل عليه (وأندر عشيرتك الاقربين) جمعهم وكان مما
قاله «اعملوا، لا أغني عنكم من الله شيئاً» قال هذا لعمه وعمته (رض) ولبنته السيدة
فاطمة سيدة النساء عليها السلام فكلام التجاني صريح في ان جميع أتباعه وأقاربه
ومحببيه والمحسنين اليه يكونون في عليين فوق اتباع جميع الانبياء ومحبيهم وإلا لما
بقي للجنات السبع أحد يسكنهن وهو افتراء لم يتجرأ عليه أحد من المجازفين قبله
س عنه تفضيل أوراده المتبدعة على جميع العبادات المأثورة)

ذكر مؤلف هذا الكتاب صلاة عليه صلى الله عليه وسلم يسمونها صلاة الفاتح وغلا فيما
رُوعه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم له بقراءة بها والتم في ثوابها وهذا نصها :
« اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق ، والخاتم لما سبق ، ناصر الحق بالحق ، والهادي

إلى صراطك المستقيم، صلى الله عليه وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم» ذكر أن شيخه التجاني كان يقرؤها ثم تركها الصلاة أخرى المرة الواحدة منها بسبعين الف ختمته من دلائل الخيرات فأمره النبي ﷺ بالرجوع إليها وقال في ص ٩٦ من الجزء الأول مانصه « فلما أمرني عليه السلام بقراءتها سألته عن فضلها فأخبرني أولاً بأن المرة الواحدة تعدل من القرآن ست مرات، ثم أخبرني ثانياً أن المرة الواحدة منها تعدل من كل تسبيح وقع في الكون ومن كل ذكر ومن كل دعاء صغير أو كبير ومن القرآن ستة آلاف مرة لأنه من الاذكار

(قال) « ومن جملة الادعياء (كذا) دعاء السيفي، ففي المرة الواحدة منه ثواب صوم رمضان وقيام ليلة القدر وعبادة سنة كما أخبرني به سيدنا عن سيد الوجود «وأعظم من دعاء السيفي دعاء: يا من أظهر الجليل الخ وانه هدية من جبريل للنبي ﷺ وأخبره انه لو اجتمعت ملائكة سبع سموات على أن يصفوه لما وصفوه إلى يوم القيامة. وكل واحد يصف ما لا يصفه الاخر فلا يقدرون عليه. ومن جملة ذلك ان الله يقول فيه «أعطيه من الثواب بقدر ما خلقت في سبع سموات وفي الجنة والنار، وفي العرش والكرسي وعدد القطر والمطر والبحار، وعدد الحصى والرمل» ومن جعلها أيضاً ان الله يعطيها ثواب جميع الخلائق، ومن جعلتها ان الله يعطيها ثواب سبعين نبياً كلهم بلغوا الرسالة إلى غير ذلك (قال) وهذا حديث صحيح ثابت في صحيفة عمر ابن شعيب عن أبيه عن جده عن النبي ﷺ وصححه الحاكم الخ

وصرح المؤلف بأن هذا الكذب أملاه شيخه التجاني. ثم قال عن شيخه: « وأما صلاة الفاتح لما أغلق فاني سألته (ص) عنها فأخبرني أولاً انها بستائة الف صلاة فقلت له هل في جميع تلك الصلوات أجر من صلى بصلاة مفردة فقال ﷺ ما معناه نعم يحصل في كل مرة منها أجر من صلى بستائة الف صلاة مفردة وسألته هل يقوم منها طائر الذي له سبعون الف جناح الخ الحديث أم يقوم منها في كل مرة ستائة الف طائر على تلك الصفة وثواب تسبيحهم لقارئها؟ فقال بل يقوم منها في كل مرة ستائة الف طائر على تلك الصفة في كل مرة

وقال في ص ٩٧ فسأته ﷺ عن حديث ان الصلاة عليه تعدل أربعاً غزوة

﴿ الشاهد السادس عن التجاني دعوا د موت من يكرهه كافراً ﴾

وفي هذا الكتاب من العقائد الزائفة المخالفة لعقائد جميع السلف وحفاظ السنن وأئمة الفقه والمفسرين وعلماء الكلام ما نعهد مثله عن الباطنية وأهل الوحدة والاتحاد وسائر غلاة الصوفية، ولعلم التجاني وأمثاله أن كل من له الإمام بالضروريات من عقائد الاسلام ينكر عليهم جعلوا من أصول طريقتهم التسليم لهم ظاهرًا وباطنًا وقد بالغ التجاني فيما يلقنه لأتباعه من النهي عن الاعتراض والانكار عليه حتى زعم ان من أنكر عليه وكره عمله أو طعن فيه أو أبغضه يموت كافرًا قطعاً، وهذه الدعوى باطلة كدعوى دخول أتباعه وأصوله وفروعه الجنة قطعاً، لان كلا منهما من عالم الغيب الذي لا يعلمه إلا الله تعالى . وقد اتفق العلماء على عدم جواز القطع لشخص معين بأنه من أهل الجنة أو من أهل النار إلا بنص من الشارع . وإنما القطعي ان من مات على الايمان الصحيح فهو من أهل الجنة ، ومن مات على الشرك والكفر فهو من أهل النار، وان الخواتيم لا يعلمها إلا الله تعالى ولولا أن له أتباعاً في مصر وبلاد المغرب لما سودنا صحائف هذا التفسير بذكر خرافاته وضلالاته ، وقد استفناني بعض المنكرين لدعواهم تلقي شيخهم لأوراده عن النبي ﷺ في اليقظة وحضوره ﷺ لمجالس حضرتهم عن دعوى رؤية النبي ﷺ في اليقظة والتلقي عنه فأفتيت في المنار ببطانها فلجأ بعضهم إلى بحجة مشيخة الازهر (نور الاسلام) فاستفتوها في ذلك فأفتاهم مفتيها الدجوي الدجال بما يتخذونه حجة على كل ما اقترأه على النبي ﷺ محتجاً بأن الارض لا تأكل أجساد الانبياء عليهم السلام وانهم أحياء في قبورهم يردون السلام على من سلم عليهم، والحق ان كل ما ورد في حياة الشهداء والانبياء بعد الموت فهو من أخبار الغيب التي لا يقاس عليها ولا يتعدى فيها ما صح منها عن المعصوم باجماع علماء المسلمين هذا وإني لا أجعل أن للتجانمية في المغرب والسودان الفرنسي ، حسنات في مقاومة التنصير والاستعمار المعادي للاسلام كالتقارير السنوية، ولكن كتابهم جواهر المعاني قد فضحهم فضايح لا يقبلها مسلم يعرف ضروريات الاسلام، وستعلم قيمة حسناتهم وغيرهامما سنفعله في كرامات امثالهم عن شيخ الاسلام .

(تقليد الباب والبهاء والقادياني لعقلاء الصوفية)

(في دعوى الوحي والنبوة والالوهية)

قد جراً هؤلاء العقلاء من الصوفية اخوانهم في الابتداع على دعوى الوحي والتلقي عن الله تعالى كالانبياء حتى ادعى بعضهم النبوة نفسها ، بل ادعى بعضهم الالوهية ، وانك لتجد من كلام الباب مؤسس فرقة البائية ، والبهاء مؤسس ديانة البهائية على انقاض البائية ، و غلام احمد القادياني مسيح الهند الدجال — أنهم كلهم قد ادعوا الوحي من الله لهم ، وتجد كلامهم في الغلو في أنفسهم ممزوجاً باصطلاحات الصوفية ، فلم يفسد الاسلام على اهلهم بدعة ولا فلسفة ولا رواية ولا رأي ، كما أفسد ادعياء الولاية والكشف ، فان أصل هذا الدين كتاب الله وسنة رسوله ﷺ باجماع اهلهم وبيداهة العقل أيضاً ، فأما البائية فقد انحصروا في البهائية ، وهؤلاء كان لهم رجل من أكبر الدهاة يسوسهم ذات فالحط شأنهم ، ووقع الشقاق بينهم على الزعامة ، وظهر للمسلمين تلبسهم الباطني فقلما يتخذع بدعوتهم أحد بعده ، وزعيمهم الوارث له قد تربي تربية انكليزية مفضوحة ، فهو عاجز عن تأويلات عباس أفندي الصوفية الفلسفية الباطنية

وأما القاديانية فقد نشطوا للدعاية وهم يؤملون أن يوجدوا في بقية المسلمين ما أوجدت المسيحية في اليهود ، أعني احداث ملة جديدة تسمى المسيحية الاحمدية ، وسيقتضون ، لان زعيمهم ومسيحهم رجل مجنون ، والعصر يطلب مجدداً للاسلام لا تقديس فيه إلا الله ، وجميع كتب مسيحهم غلام احمد تدور على تقديس نفسه كالبهاء ، وانكنته لم يخلفه رجل داهية كعباس عبد البهاء ، يخفي كتيبه عن العقلاء ، ويتصرف في التأويل لدعوته بمثل ذلك الدهاء ، وكيف يتسنى لهم اخفاء كتيبه ، وقد طبعها ونشرها في عصره ، وفيها أقوى الحجج على ضلاله واضلاله ، وخزبه ونكاله ؟ وجملة القول ان الصوفية ثلاث فرق : صوفية الاخلاق المهتدين بالكتاب والسنة وسيرة السلف الصالح وهم من خيار اولياء هذه الامة ، وصوفية الفلسفة « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٥ » « الجزء الحادي عشر »

الهندية الذين يسمون أنفسهم صوفية الحقائق، وغلاتهم كفلاة الشيعة الباطنية شر المتدعة الهادمين للدين ، وصوفية التقليد وهم أهل الطرائق والزوايا الكسالى ، وان هم الا صوفية أكل واحتفالات ، وبدع وخرافات ، إلا قليلا منهم ، وهاك ما وعدنا به من رأى شيخ الاسلام ، في أولياء الله وأولياء الشيطان ، ونقفي عليه بشواهد في هذا الزمان .

(كتاب الفرقان لشيخ الاسلام)

(استمتاع البشر والجن والشياطين بعضهم ببعض، وتمثلهم بصور الاولياء والقديسين)

هذا الكتاب لشيخ الاسلام احمد تقي الدين بن تيمية رحمه الله تعالى بين فيه تحقيق الحق في أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ومن أهم مباحثه ملاسة الجن والشياطين للناس وتليبهم عليهم واستمتاع كل منها بالآخر وظهور بعضهم لبعض الناس في صور مشابحهم وغيرهم من الاولياء والخضر والانبياء عليهم السلام ، والايحاء إلى بعضهم فيما يصلحهم ويعيوبهم ، وظهور بعض المؤمنين منهم فيما هو نافع ، ومن ذلك ما وقع له هو نفسه . وفي هذا الكتاب من مباحث التفسير وهدي السنة والفرقة بين المعجزات والكرامات وبين السحر والسكاهة واستخدام الجن والتأويل الباطل ووجوب الاتباع مالا يوجد في غيره ، وحكايات استخدام الجن كثيرة في قديم الامم كلها وحديثها ، وأكثر الذين يدعونها أو كلهم دجالون محتالون على أكل اموال الناس بالباطل ، وأكثر من يتمثلون لهم لا يعلمون انهم منهم ، وشيخ الاسلام محقق وصديق لا يرعى القول على عواهنه . ومما قاله في هذا الكتاب انه قد تواتر عن كثير من المسلمين واليهود والنصارى رؤية من يقول لهم انه الخضر وانهم صادقون في قولهم ، ولكن الذي يتراعى لهم ويقول هذا القول شيطان لا الخضر الذي ثبت عند المحدثين انه قد مات ، ومثل ذلك ظهور المسيح عليه السلام لكثير من النصارى عقب رفعه وبمده إلى الآن ثم قال :

« وأصحاب الخلاج لما قتل كان بأنبيهم من يقول أنا الخلاج فيرونه في صورته

وكذلك شيخ بمصر يقال له المدسوقي (١) بعد أن مات كان يأتي أصحابه من جهته رسائل وكتب مكتوبة، وأراني صادق من أصحابه الكتاب الذي أرسله فرأيت به بخط الجن، وقد رأيت خط الجن غير مرة — وفيه كلام من الجن، وذلك المعتقد يعتقد ان الشيخ حي، وكان يقول انتقل ثم مات، وكذلك شيخ آخر كان بالمشرق وكان له خوارق من الجن، وقيل كان بمد هذا يأتي خواص أصحابه في صورته فيعتقدون انه هو. والذين كانوا يمتقدون بقاء علي أو بقاء محمد بن الحنفية قد كان يأتي الى بعض أصحابهم جني في صورته، وهكذا منتظر الرفضة (٢) قد تراه أحدهم أحيانا ويكون المرئي جنياً

« فهذا باب واسع واقع كثيراً، وكلما كان القوم أجهل كان عندهم أكثر، ففي المشركين أكثر مما في النصارى، وهو في النصارى كما هو في الداخلين في الاسلام، وهذه الامور يسلم بسببها ناس ويتوب بسببها ناس يكونون أضل من أصحابها فينتقلون بسببها إلى ما هو خير مما كانوا عليه، كالشيخ الذي فيه كذب ونجور من الانس قد يأتيه قوم كفار فيدعوهم إلى الاسلام فيسلمون ويصبرون خيراً مما كانوا وإن كان قصد ذلك الرجل فاسداً، وقد قال النبي ﷺ « ان الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر وبأقوام لا خلاق لهم » (٣) وهذا كان كالحجج والادلة التي يذكرها كثير من أهل الكلام والرأي فانه ينقطع بها كثير من أهل الباطل، ويقوى بها قلوب كثير من أهل الحق، وإن كانت في نفسها باطلة فغيرها أبطال منها، والخير والشر درجات، فينتفع بها أقوام ينتقلون مما كانوا عليه إلى ما هو خير منه

« وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من الرفضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو

(١) الشيخ ابراهيم المدسوقي كان في عصر شيخ الاسلام ابن تيمية
 (٢) بفتح الظاء المعجمة يعني المهدي الذي يقولون انه اختفى في السرداب
 (٣) الجملة الاولى في أثناء حديث من الصحيح والجملة الثانية باللفظ وبالمعنى
 في غير الصحاح

خير من أن يكونوا كفاراً (١) وكذلك بعض الملوك قديروا وغزوا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثماً بذلك ، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفاراً فصاروا مسلمين ، وذلك كان شراً بالنسبة إلى القائم بالواجب ، وأما بالنسبة إلى الكفار فهو خير ، وكذلك كثير من الاحاديث الضعيفة في الترغيب والترهيب والفضائل والاحكام والقصص قديسمعها أقوام فينتقلون بها إلى خير مما كانوا عليه وإن كانت كذبا (٢) وهذا كالرجل يسلم رغبة في الدنيا ورهبة من السيف ، ثم إذا أسلم وطال مكثه بين المسلمين دخل الايمان في قلبه ، فنفس ذل الكفر الذي كان عليه وانقهاره ودخوله في حكم المسلمين خير من أن يبقى كافراً فانتقل إلى خير مما كان عليه وخف الشر الذي كان فيه ، ثم إذا أراد الله هدايته أدخل الايمان في قلبه ، والله تعالى بعث الرسل يتحصل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفساد وتعليلها ، والنبي ﷺ دعا الخلق بغاية الامكان ، وأقل كل شخص إلى خير مما كان عليه بحسب الامكان ، (و لكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) وأكثر المتكلمين يردون باطلاً بباطل وبدعة ببدعة ، لكن قديردون باطل الكفار من المشركين وأهل الكتاب بباطل المسلمين ، فيصير الكافر مسلماً مبتدعاً ، وأخص من هؤلاء من يرد البدع الظاهرة كبدعة الرافضة ببدعة أخف منها وهي بدعة أهل السنة (٣) وقد ذكرنا فيما تقدم أصناف البدع . اه المراد منه (أقول) كل المشاهدات التي نقل خبرها شيخ الاسلام هنا مشهورة عن أهل عصره وأهل عصرنا ، وقد نقل عن الشيعة أنهم يستفتون المهدي المنتظر في بعض المشكلات فيضعون ورقة الاستفتاء في شجرة ثم يجدون الفتوى مكتوبة عليها ، وانها عندهم من أقوى الحجج أو أقواها ، وقد بينا هذا في المنار ، ومن هذا ما يكون من حيل شياطين الناس وتزويرهم ، ومنهم من هم شر من شياطين الجن .

(١) يشبه هذا دعاة القاديانية الملقين بالاحمدية الى الاسلام في اوروبا وغيرها فهم فريقان منهم من يقول إن القادياني مصلح مجدد لانبي فهم مبتدعون ، ومنهم من يقول انه نبي كان يوحي اليه من الله وهم كفار مرتدون

(٢) أي والواضع لها والداعي اليها والمحتج بها كلهم آمنون اذا علموا ذلك

(٣) أي الذين يدعون أو يلقبون بأهل السنة فما من أتباع مذهب منهم إلا وقد فتن بعضهم بالبدع ، وقد بين ذلك شيخ الاسلام في مواضع من كتبه ومنها هذا الكتاب

(بعض حكايات النصرارى المعاصرين في رؤيئة المسيح ومرم عليهم السلام)

إن الذين يتراى لهم المسيح أو أمه عليها السلام أو غيرهما من القديسين عندهم كثيرون ومن الرجال المشهورين بهذا في هذا الزمان رشيد بك مطران وهو وجيه سوري من بعلبك مشهور يقيم في أوربة ويكون غالباً في (باريس) فهو يرى أو يتراى له مثال السيدة مريم العذراء في اليقظة كثيراً ويسألها عن كثير مما يشكل عليه فتجيبه . وحدثني الامير شكيب ارسلان عنه انه سأها مرة عن نبينا (ص) فأجابته مثنية عليه صلى الله عليه وسلم ثناء عظيماً لم أحفظه

وقرأت في جريدة مرآة الغرب العربية التي صدرت في (نيويورك) في مارس سنة ١٩٣٣ رسالة من عمان عاصمة إمارة شرق الاردن كتبت في ٢٦ من كانون الثاني (يناير) سنة ١٩٣٣ (الموافق ٢٩ رمضان سنة ١٣٥١) منخصاً ان امرأة نصرانية في عمان اسمها حنة بنت الياس غاني الملقب صهر الله متزوجة ولها اولاد وأخ فقيرة مشهورة بالتقوى عرض لها منذ سنة ونصف تزيف دموي عقب الولادة وأريد عمل عملية جراحية لها فأرشدت إلى التوجه أولاً إلى الطيب السماوي فدعت يسوع ليلا ثم ذهبت إلى الكنيسة بعد منتصف الليل لتصلب وهي في حال غيبوبة أو عقب رؤيا فرأت الكنيسة خالية وشاهدت في الهيكل شخصاً يحيط به نور عظيم فاشتد خوفها ورعبها ، فدعاها وقال لها لا تخافي أنا المسيح فركعت على قدميه وقالت له اشفني ياسيد ، فقال لها حسب ايمانك يكون لك ، فبرأت وقرر الاطباء بعد فحصها انه لم تبق حاجة إلى العملية الجراحية فازدادت عبادة وتقوى

«ولما كان اليوم الرابع من هذا الشهر لك ٢ من «يناير» شعرت في منتصف الساعة الثالثة بعد نصف الليل بيد تمزها من الـكتف ففتحت عينها فاذا نور عظيم في الغرفة وفي وسط التور شخص .لاك يقول لها سيحدث ضيق عظيم في العالم، ولكن لا تخافوا وستكون لكم هذه العلامة - وكان بيده كأس فغمس اليد الاخرى في الكأس وبأصابعه الثلاث وضع على جبينها علامة ثم تركها وقال اعطوا مجد الله . فقامت وصارت تمجد الله بصوت عال، فحب أهلها وقالوا لها ماذا جرى لك؟ فقالت

ألم تروا النور وتسمعوا الصوت؟ قالوا لا، قالت جيثوني بالضوء، فلما أحضروا القنديل رأوا في جيبتها علامة طائر يشبه النسر صافاً جناحيه ممتداً على طول جيبتها وعرضه (أي جبهتها) وليس ماساً للحاجبين ولا شعر الرأس ولونه عتابي كالدم ورسمه متقن كأنه رسم فنان عظيم»

وقالت كاتبة الرسالة إن أهل عمان لما علموا بهذه الحادثة أقبل الناس من وطنين وأجانب على اختلاف أديانهم فشاهدوا هذا الرسم وعني الأطباء، بإزالته فمجزوا وأن الذين شاهدوها يعدون بالمئات، ثم نقلت عن قسيس معروف جاء من نابلس وكتب عنها ما يأتي ملخصاً:

«قالت انه ظهر لها الملاك مرة ثانية في ليلة السبت السابعة من الشهر نفسه (يناير) ووضع يده على جيبتها فزالت العلامة، فقالت له يارب ارفع الضيق عن العالم، فقال «سيرون أعمال الله» قالت ارحمنا يارب، قال «تكفيمكم نعمتي» وفي ثاني ليلة أفاق أهلها فوجدوها واقفة تتكلم بالعبراني فكتبوا ماقالته وترجموه بالنهار فاذا هو تسبيح وتمجيد لله، ثم تكرر ذلك منها في الليالي التالية باللغات الألمانية والفرنسية والاطليانية وفي الخامسة وثلاث بالعربي واليوناني، وكانت ترتيلة العربي من نظمها وقولها «اصفح عن ذنبي ياربي، خذني ياربي، خذني الى أورشليم» ثم لم يحدث شيء. إلا أن الملاك ظهر لها ليلة ١٧ من الشهر ووضع عليها العلامة وقال «لتكن هذه العلامة مباركة ثم اختفى، ثم ظهر بعد يومين ومحا العلامة اه باختصار وبانغظه إلا تصحيح كلمات قليلة

(أقول) سئل بعض أدباء المسلمين في عمان كتابة عن هذه الحكاية وعمما روي في بعض الجرائد من رؤية موتى من الصحابة لم تبل أجسادهم ولا لفائفهم فأنكرها. وقد سبق لي تحقيق لامثال هذه الحكايات ملخصه أن منها ما هو كذب محض، ومنها ما هو تخيل ولدته الاوهام، يشبه الرؤى والاحلام، ومنها ما هو رؤية شيء موجود في الخارج من عالم الارواح التي تتمثل بأجسام لطيفة جداً لا يدركها إلا بعض الناس في أحوال خاصة قريبة من التجرد من كثافة الحس، ومنها ما يتمثل بصورة مادية كثيفة كما صرح من رؤية بعض الصحابة (رض) للملاك

وللجن ، والشفتلون من الافرنج بمعالجة رؤية الارواح يسمون صاحب الاستعداد الخاص لرؤية الارواح ومخاطبتها بالوسيط، والراجح عندنا ان أكثر المدعين لذلك أولو كذب وحيل وتليس، وان أقلهم يرون بعض الشياطين من جن إبليس، ولا سيما شياطين الموتى وقرنائهم العارفين بأحوالهم ، وشيخ الاسلام يقول ما قرأت آنفا وهذا الذي يقوله لا ينكر أحد من الصوفية وقوعه لسكبار شيوخهم ، بل أثبتوا ان الشيطان يتراءى لهم ويلقنهم كلاما مدعياً انه ربهم كما حكاه الشعرائي وغيره عن الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي اتفقوا على انه كان القطب الغوث الأكبر

وملخصه انه رأى نوراً عظيماً ملاً الأفق وسمع منه صوتاً يخاطبه بانه ربه وقد أحل له المحرمات ، فقال له : اخسأ يا لعين ، فتحول النور ظلاماً ودخاناً ، وقال له قد نجوت مني بفمك الخ وانه قن بهذا كثيرين من كبار الشيوخ . ومن المعلوم أن جميع غلاة الصوفية قد ادعوا أن الله خاطبهم بالحقائق وكشف لهم منها ما لم يكشفه لغيرهم كما تقدم وهم يتعارضون في دعاويهم الشيطانية كما تقدم

وللشيخ عبد الوهاب الشعرائي كتاب صغير سماه (الانوار القدسية ، في بيان آداب العبودية) مطبوع مع كتابه الطبقات ذكر في أوله انه سمع وهو في حالة بين النائم واليقظان هاتفاً يسمع صوته ولا يرى شخصه يقول له على لسان الحق سبحانه وتعالى كلاماً ذكره قال « فما استقم هذا الكلام وبقي عندي شهوة نفس لمقام من مقام الاولياء لافي الدنيا ولا في الآخرة » ثم بسط الكلام على مرادهم بالهاتف وعلاه بقوله « خوفاً أن يتوهم أحد من القاصرين الذين لا معرفة عندهم بمراتب

الوحي ان ذلك وحي كوحي الانبياء عليهم الصلاة والسلام فأقول
« اعلم ان الهاتف المذكور لا يخلو إما أن يكون ملكاً أو ولياً أو من صالحي الجن او هو الخضر عليه السلام أو غير ذلك ، لان الخضر عليه السلام حي باق لم يموت وقد اجتمعنا بمن اجتمع به وبالهمدي وأخذ عنهما طريق القوم الخ

ثم انه جعل الوحي أقساماً وضرورياً كثيرة وذكر منها الكهانة والجزر - اي وهو أسفلها - ووحى التشريع الديني الخاص بالانبياء (ع.م) وما بينهما .

ثم ذكر ان بعض الفقهاء من الاخوان سأله أن يبلي على لقاء الهاتف الذي سمعه جملة

٤٠٤ افساد كتب المتصوفة كالشعراني للناس في دينهم (التفسير : ج ١١)

بما فهمه من آداب العبودية وآداب طلب العلم وآداب الفقراء عموماً وخصوصاً

« وما يدخل على كل طائفة من الدسائس في مقاصدهم لان الشيطان لهم بالمرصاد ولا

ينجو منه الا القليل من عباد الله » وهذا محل الشاهد

وأقول ان هاتفه الذي جمعه الاصل لهذا التأليف هو من دسائس الشيطان

ايضاً لانه غير موافق للشرع المعصوم بل في هذا الكتاب كثير من المخالفة له ، وكذا

كتابه لطبقات فهي من اشد الكتب افساداً للدين اصوله وفروعه وآدابه بما فيها

من وحي الشياطين ، فقد أصبح الملايين من المسلمين مشركين بالله تعالى بعبادة هؤلاء

الذين يسمونهم الاولياء ، وقبول ما نقل عنهم من وحي الشياطين ، وهم يتبعون

الدجالين ومدعي علم الغيب وقضاء الحوائج بالكرامات أو استخدام الجن ، وهؤلاء

الدجالون يسلبون أموالهم ، ويهتكون أعراضهم ، وفي نص كتاب الله تعالى ان

الجن لا يعلمون الغيب ، وأصبح فريق آخر من المسلمين الذين تقوى العلوم العصرية

وتربوا تربية استقلالية ، يعتقدون ان الاسلام دين خرافي كغيره من الاديان

على أن من دعاة الاديان والنحل الجديدة المتولدة من التصوف من ألبسوا

دعائهم ثوب المدنية العصرية ، وهم يبثونها في بلاد الافرنج كالبهائية والقاديانية

الاحدية ، وكل خلابتهم مستمدة من تأويلات الصوفية الذين ادعوا الوحي وادعوا

الالوهية من طريق وحدة الوجود وغيره كما تقدم آنفاً .

والامة الاسلامية قد جعلها الله وسطاً بين العالمين والمقصرين ، من المعطلين

والمشركين ، فهي لا تعبد إلا الله ، ولا تؤمن بوحي ولا نبوة لأحد بعد محمد

خاتم النبيين ، ولا بتشريع ديني الا ما جاء به عن الله ، ولا بولاية إلا ما تقدم بيانه

في كتاب الله ، وقد صار المعتصمون بهذا في أمثال هذه البلاد ، التي انتشر فيها

ذلك الفساد ، جماعات قليلة الافراد ، فان لم ينصرها الله ضاع فيها الاسلام

استطراد ، في أصل الاسلام ، وما طرأ عليه من الفساد

﴿ من طريق السياسة والفلسفة والتصوف ﴾

أبها القارى لهذا التفسير قد آن أن أصارحك بمسائل مختصرة هي ثمرة علم وعمل وعبادة ورياضة وتصوف وتعليم وتصنيف ومناظرات ومحاجة في مدة نصف قرن كامل ، لم يشغلني عنها من حظوظ الدنيا شاغل ، وانها الكلمات في حقيقة دين الله وعلماؤه وعبادته صادرة عن بصيرة وتجربة ، فتأملها باخلاص واستقلال فكر ، ولا يصدنك عن النظر فيها لذاتها والاعتماد في ثبوتها على مصادرها ، حرمان المعاصرة ، واحتقار الاحياء ، وتقديس شهرة الاموات ، واهام قائلها بالغرور والدعوى ، فان عرض لك ريب أو شبهة في شيء منها فارجع الى مصادرها ودلائلها ، أو ارجع الى كاتبها فاسأله عنها ، بشرط أن يكون غرضك معرفة الحق لذاته ، دون التعصب والجلد ، أو التحرف لمذهب أو التحيز الى فئة

(المسألة الاولى) ان هذا الدين (الاسلام) وحي إلهي الى نبي أمي ظهر في أمة أمية جاهلية ، ليعلمها الكتب والحكمة ، ويزكيها بالعلم والعدل والفضيلة ، فيجعلها به معلمة وهادية لجميع شعوب التعميط والاديان والفلسفة والحضارة ، وأن الله تعالى قد شهد في كتابه بأنه أكل هذا الدين لعباده في آخر عمر نبيه ليس لاحد ان يزيد فيه بعده عقيدة ولا عبادة ولا تحريما دينيا مطلقا ، ولا تشريعا مدنيا ، الا ما أذن به لاوولى الامر من الاجتهاد على أساس زعمهم ، فإعداءه ، فكان أع الناس وأفقههم به وأصحهم دعوة اليه بالعلم والعمل ، والحكم بين الناس بالحق والعدل ، أولئك الاميون الذين تلقوه عن ذلك النبي الامي صلوات الله وسلامه عليه ، وهم خلفاؤه وأصحابه (رض) فهذه احدى معجزاته إذ لو كان هذا الدين وضعيا بشريا لكان كسائر العلوم والاعمال البشرية التي تظهر مبادئها الاولى ناقصة ثم تنمي (وفي لغة ضعيفة اشتهرت تنمو) وتتسكامل بالتدرج ، فهذه سنة من السنن المطردة في علوم البشر

(المسألة الثانية) من البراهين العلمية الثابتة بالشواهد العملية ، على ان هذا الدين من عند الله تعالى ، ان المسلمين قد اهدوا بارشاده إلى البحث والنظر في جميع أمور العالم السماوي والارضي ولا سيما نوع الانسان وعلومه وفلسفته واديانه ونظمه وتشريعهم وآداب شعوبه فازدادوا بكل من ذلك علما بحقبة المسألة الاولى ، وظهر للاسرخين في علمه ان ما أجمع عليه أولئك الاميون الاولون او أكثرهم هو الحق ، وأن كل ما خالف نصوصه القطعية من العقائد والآراء والافكار البشرية فهو باطل ، ومنه جميع نظريات المتكلمين العقلية ، وكشف فلسفة الصوفية الروحية ، وإن المصلحة للمسلمين وللإنس كافه أن يقصروا هداية الدين على نصوص القرآن المنزلة ، وما بينه من سنة الرسول المتبعة ، وسيرة خلفائه وجهود عترته وأصحابه قبل فشو الابتداع والتفرق في الملة ، ثم ما أجمع عليه علماء الامصار من مجتهدي الامة ، وان يمتد بعضهم بما لا يخرج عن هذه الاصول من المسائل غير القطعية في الدين فلا يجعلوه سببا للتفرق والشقاق ، بالتعصب للمذاهب والشيع والاحزاب ، لئلا يكونوا ممن قال الله تعالى لرسوله فيهم (٦ : ١٥٩) ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم في شيء) فاستحقوا وعيد قوله (٦ : ١٦٥) قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض ، انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أي يؤفكون) وقوله (٣ : ١٠٥) ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم اليقين وأولئك لهم عذاب عظيم)

(المسألة الثالثة) ان البدع التي فرقت الامة في أصول دينها وجعلتها شيعا تؤثر كل شعبة اتباع زعمائها ومذاهبها على كتاب الله وسنة رسوله وهدى سلفه الصالح بالتأويل ، من حيث تدعي أن أئمتها أعلم من مخالفهم بتأويل الكتاب والحديث ، وأن بعضهم مؤيد بالكشف وبعضهم بالعصمة ، فهم أحق بأن يقلدوا ويتبعوا ، ولكن الاعلم انما يعلم بالدليل لا بالتقليد ، وإيمانهم النصوص بقواعد اللغة والسنة العملية لا بما اصطالحوا عليه من التأويل ، ولهذا البدع المفرقة ثلاث مآثرات من أركان حضارة الامم الثلاثة وهي السياسة والسلطان ، والعلم العقلي والعرفان ،

وفلسفة التعبد والوجدان ، وما يتبعه من دعوى علم الغيب المسمى بالكشف ،
والكرامات الشاملة للدعوى التصرف في الكون ، ونقول في كل منها كلمة

(١) السياسة الدولية وكان مشارها الاول ماشجر بين الصحابة (رض) ثم
كان أشدها إفسادا ما كان بين أهل السنة والشيعة ، وقد زالت الخلافة وضاعت
سيادة الامة من أكثر العالم ، ومفاسدها لاتزال ماثلة ، بما للزعماء المستغلين لها
من المنافع الدنيوية الزائلة ، وانها لعصبية قضتها السياسة ، وستقضي عليها السياسة ،
وقد زالت السلطة الدينية من بعض ممالك المسلمين وبقي لها بقية في بعض ،
وبعضها مذبذبة بين بين ، ولا محل لبسط ذلك هنا ولا فائدة في هذا الوقت .
إلا التذكير بأن المنتمين إلي مذاهب السنة قد غلبهم جهلة الاعاجم على خلافتهم
بعد أن جعلوها عصبية وراثية فلم يعملوا أي عمل لتقويتها بعدضعفها ، ولا لإحيائها
بعد موتها ، ولم يضعوا نظاما للاستعداد لذلك عندمنوح الفرصة كإفعل الكاثوليك
بنظام الغانايكان البابوي ، وكانت الزيدية من الشيعة المعتدلة أشد حزما واعتصاما
منهم بنصب إمام بعد إمام لهم في جبال اليمن يتولونه ويقاتلون معه . بيد أنهم
قصروا في وضع نظام لتعميم الدعوة ، والاستعداد له بالعلم والمال والقوة .

ولكن غلاة الشيعة نقضوا أركان الاسلام من أساسه بدعاية عصمة الأئمة ،
وتأويل نصوص الكتاب والسنة ، فكان هذا أصل كل ابتداع مخرج من الملة ،
اذ انتهى بأهله الى ادعاء الوحي وادعاء الألوهية ، فخرجوا من الملة سرا فعلائية
(٢) النظريات العقلية ، وتحكيمها في النصوص النقلية ، وكان أضرها

وشرها ذلك التنازع بين أئمة الاتباع وعلى رأسهم الامام احمد بن حنبل ، ودعاة
الابتداع من متكلمي نظار المعتزلة والجهمية ، ولولا تدخل سلطان العباسيين في
نصر فريق على فريق ، لما وصات إلى ذلك الحد من الشقاق والتفريق ، وقد
ضعفت في هذا العصر في أكثر الامصار الاسلامية لانه ليس لها دول تنصر
بعض اهلها على بعض ، ومتى توطدت حرية العلم كان النصر والفالج لاهل الحق ،
وسيموت ما بقي من علم الكلام بموت الفلسفة اليونانية التي بني على قواعدها

ونظرياتها ، بل هي قد ماتت وصارت من مواريث التاريخ العلمية ، ومات هو وإن بقيت له بقية تقليدية في بعض المدارس الاسلامية ، وسيخلفه علم آخر في حراسة العقائد من شبهات العلم وفلسفة هذا العصر ، مع ابقاء الخلط بينهما وبين عقائد الدين ومحاوله تحكيم كل منهما في الآخر ، كما فعل نظارنا المتقدمون فجنوا على كل منهما بما أضعف سلطان الدين في أداء وظيفته وهي تزكية النفس ، بما يوقنها عند حدود الحق والعدل ، والفضيلة وعمل البر ، وأضعف سلطان العلم في أداء وظيفته وهي اظهار سنن الله في العالم وتسخير قوى الطبيعة لمنافع الناس ، وفاقالما أرشدهم اليه القرآن ، وقول النبي ﷺ « أنتم اعلم بأمر دينكم » رواه مسلم ولو بقينا على تأويل المتكلمين طان الامر ، لا نهم يجرون فيه على قواعد الافة وأصول الفقه ومصطلح الحديث ، ولكن نبت نابتة ودعاية لتحكيم نظريات العلم المعصري والنظريات العقلية في نصوص الكتاب والسنة ، لا بتأويل يوافق اللغة وأصول الشرع كما يقول المتكلمون ، بل بترك مدلولات الكتاب والسنة بأنها غير مرادة ولا يمكن العلم بالمراد منها ، ولبعض الدعاة الى هذا الالحاد في مصر كتب تطبع ومقالات تنشر في الصحف مصرحة بهذا ، ومشيخة الازهر تقرها لانها لا تفهمها .

(٣) دعوى الكرامات والكشف ، وتحكيمه في عقائد الدين وعباداته وآدابه وتفسير نصوصه ، وفي أحكام المعاملات والحلال والحرام ، وقد نجمت البدع من هذه الناحية صغيرة كقرون المعز ثم كبرت فصارت كقرون الوعول التي تناطح الصخور ، هاجمها علماء المنقول والمعقول يؤيدهم الخلفاء والملوك فانهمزمت أمامهم ، حتى اذا ما ضعف العلم فصار تقليديا ، وضعف الحكم فصار إرثا جهليا ، وصار صوفية علماء الازهر مثل الشعراني ، وسلاطين مصر مثل قايتباي ، خضعت رقاب المسلمين لولاية مثل الشيخ محمد الحضري الذي يصعد المنبر في يوم الجمعة فيخطبهم فيقول « اشهد أن لا إله الا لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام » ثم ينزل فيسل السيف فيهرب جميع المسلمين من المسجد فلم يتجرأ أحد على دخوله الى وقت العصر ، ويزعم الشعراني ان هذا الولي الشيطاني نفسه قد خطب خطبة الجمعة يومئذ في

ثلاثين مسجدا من مساجد القطر المصري ، بناء على قاعدتهم ان الولي قد يتمثل
بالصور الكثيرة في الامكنة المختلفة ، كالشياطين والملائكة . وهم لا يفرقون بينهما
ومثله ذلك الولي الذي كان يمارض القرآن بالهذيان ، والولي الذي كان يسكن
في ماخور المومسات ، ليسفم لكل من يأتيهن عند الله ، ويمسكه عندهن الى ان
ينجبره كشفه الشيطاني بقبول شفاعته فيه ومغفرة الله له ، وكان من كراماته اتيان
الأتان — فهذا الكفر والشرك والاحاد ، ومعارضة القرآن ، واجتراح كبار
الفسوق والعصيان ، كله عنده . وعند أمثاله من كرامات اولياء الله الذين لا خوف عليهم
ولا هم يحزنون ، وبطبع أمرهم رضوان خازن الجنان ، ومالك خازن النار ، كما نقله
الشعراني عن الدسوقي ، وجملة القول انهم يتصرفون في أمور الدنيا والآخرة
احياء وأمواتا ، وقد رسخت هذه الخرافات في قلوب الملايين من مسلمي مصر
وأمثالها من الاقطار فهم يعتمدون على هؤلاء الاولياء في أمور دنياهم وآخرتهم
وانك لتجد أكثرهم يحتج على ذلك بالآية الكريمة التي ذكرنا هذا البيان
في صدد تفسيرها بقوله تعالى (لهم ما يشاؤون عند ربهم) فهم يزعمون انه هؤلاء
الاولياء الخياليين ، وان الله تعالى يعطيهم كل ما أرادوا لانفسهم ولغيرهم في الدنيا
والآخرة ، كما يزعم الذين يقولون ان منهم أقطابا متصرفين (او مدركين) بالكون
كله ، وهذا افتراء على الله وتحريف لكتابه العزيز بما هو شرك به سبحانه ، وانماوردت
هذه الجملة في عدة سور في جزاء اهل الجنة في الجنة لا في اولياء الخيال الخرافي المزعوم
راجع سورة النحل (١٦ : ٣٠ - ٣٣) وسورة الفرقان (١٥ : ١٦) وسورة الزمر
(٣٩ : ٣٢ و ٣٣ : ٢٠) وسورة الشورى (٤٢ : ٢٠) وسورة ق (٣١ : ٣٥)
وجملة القول ان جميع هذه القنن المضلة لكثير من الناس عن الاعتصام بكتاب
الله تعالى وسنة رسوله المبينة له على النهج الذي اهتدى به سلف هذه الامة الصالح
لا يقوم لشيء منها حجة عقلية ظاهرة ولا كشفية باطنة ولو صح أنها من الاسلام
الساكن ما جاء الرسول ناقصا من كل بها

(بطلان تأويل النصوص للنظريات العقلية والعملية ، بآلة الباطنية)

أما النظريات العقلية التي يتأول النصوص لاجلها علماء الكلام فقد ظهر بطلانها وبطلان الفلسفة التي بذبت عليها علماء هذا العصر وفلاسفته وقد أجمع هؤلاء على ان جميع النظريات العقلية الفلسفية والعملية السهلة اليوم لانها أرجح من غيرها في بابها ، ليس فيها شيء يمد من الحقائق القطعية العملية الثابتة التي لا يمكن نقضها ، بل كلها قابلة للنقض والبطلان كما ثبت بطلان مثلها من مسلمات القرون الماضية إلى السنين الاخيرة من هذا القرن العشرين الميلادي التي ترجح فيها أن كل ما عرف في هذا الكون من مظاهر المادة والقوة هو مظهر لتكوين خاص مجهول لجزيئي الكهرباء الايجابي والسلبى المعبر عنهما بكامتي (البروتون والالكترون) فبطلت بهذا جميع النظريات العملية في المادة والقوة ، فكيف يجوز إذن تأويل نص ديني قطعي الرواية والدلالة في خبر عن عالم الغيب من الوحي الالهي ، لنظرية ظنية في عالم الشهادة من الرأي البشري ؟

وإذا بطل تأويل علماء الكلام المتقدمين المبني على قواعد النظر العقلي ومراعاة مدلولات اللغة ، واشترط عدم المخالفة لاصل من قواعد الشرع ، وبطل تأويل المعاصرين لما يخالف العلوم العصرية ، فأجدر بتأويلات الباطنية ان تكون أشد بطلاناً لانها تحكم في اللغة بما لا يتدل عليه مفرداتها ، ولا قواعد نحوها وبيانها ، وناقضة لاصول الشرع وقواعده القطعية الثابتة بالاجماع المتواتر ، والعمل الذي لا مجال للتأويل ولا للتحريف فيه ، كتأويل الاسماعيلية القرامطة السابقين ، والبهائية والقاديانية اللاحقين ، البهائية الذين يدعون إلى ألوهية البهاء ، والقاديانية الذين يدعون إلى نبوة ميرزا غلام أحمد ، وكل منهما يستدل بتأويل القرآن والحديث مخالفاً لآلهما على دينه الجديد الذي غايته أن يتبعه الناس ويقدموا -

بطلان الاخذ بالكشف في الدين

وأما الكشف فهو ضرب من إدراك - النفس الناطقة غير ثابت ولا مطرد -
فليس بدليل عقلي ولا شرعي، وإنما هو ادراكات ناقصة تخطئ وتصيب، وقد عرفت
أسبابه الطبيعية وأن منها ما هو فطري، ومنها ما هو كسبي وصناعي، كالنوم
الغناطيسي المعروف في هذا العصر، وما يسمونه قراءة الأفكار ومراسلة الأفكار،
ويشبهونه بنقل الأخبار بخطوط الاسلاك الكهربية وبدونها، وهو يقع للمؤمن
والكافر، والبر والفاجر، ويعترف به صوفية المسلمين لصوفية الهندوس وغيرهم،
كما يعترفون بتليس الشياطين عليهم فيه، وقلة من يميز بين الكشف الشيطاني
والكشف الحقيقي منهم، ولا يصح أن يسمى حقيقيا إلا ما وافق نصا قطعيا
ومن دلائل الخطأ والتليس والتخيلات في الكشف الذي يسمونه النوراني
تعارض أهله وتناقضهم فيه، وما يذكرونه فيه من معلوماتهم المختلفة باختلاف
معلوماتهم الفنية والخرافية والشرعية، فترى بعضهم يذكر في كشفه جبل قاف
المحيط بالارض والحية المحيطة به كما تراه في ترجمة الشعرائي للشيخ أبي مدين وهو
من الخرافات التي لا حقيقة لها، ومنهم من يذكر في كشفه الافلاك وكواكبها على
الطريقة اليونانية الباطلة أيضا. وأكثرهم يذكرون في كشفهم الاحاديث الموضوعة،
فان اعترض عليهم أو على المتونين بكشفهم علماء الحديث قالوا ان الحديث قد
صح في كشفنا وان لم يصح في رواياتكم، وكشفنا أصح لأنه من علم اليقين وعلمكم
ظني. والحاصل ان كشفنا هذا شأنه وشأن أهله ان صح ان يصدق فيما لا يخالف
نصوص الشرع وعقائده وأحكامه فلا يصح لمن يؤمن بكتاب الله وسنة رسوله
ان يصدق منه ما يخالفهما وان يثبت من أمر عالم النبي ما لم يثبت بهما، وما أغنانا
عن هذا كله، وفي جمع الجوامع أن الالهام - وهو الكشف الصحيح عندهم -
« ليس بحجة لعدم ثقة من ليس معصوما بخواطره خلافا لبعض الصوفية » أي ولا يمتد
بخلافهم لانهم خالفوا به الاصول كما خالفوا النصوص.

الكرامات لا تدل على الولاية فضلا عن العصمة

وأما الكرامات فهي نوع من خوارق العادات التي تروى عن جميع الامم المختلفة الاديان والمثل ، وقد قال علماء الكلام انها تقع للمؤمن والكافر ، والفاجر ، والنبي والساخر ، ويختلف اسمها باختلاف من ظهرت على يديه فتسمى بمعجزة للنبي المرسل اذا تجدى بها وكرامة للرجل الصالح المتبع للرسول ومعونة لمن دونه من المؤمنين واستدراجا للكافر والفاسق

وصحت الاحاديث بأن الدجال يظهر على يديه من الخوارق الكبرى ما قلما كان مثله في المعجزات حتى احياء الموتي . وقال أئمة الصوفية العارفون اذا رأى الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تعتدوا به (او كلمة بهذا المعنى) حتى تروه عند الامر والنهي الشرعيين ، وقال مثل ذلك الخلاطون منهم ، ففي الباب الثالث من كتاب (الانوار القدسية) للشعراي « وظهور الكرامات ليس بشرط في الولاية وانما يشترط امثال أوامر الله واجتناب نواهيه ، فيكون أمره مضبوطا على الكتاب والسنة فمن كان كذلك فالقرآن يشهد بولايته وان لم يمتدقيه أحد » الخ وهذا عين ما حققناه في تفسير الآية .

ومن خلطه أن أكثر ما ذكره من كلامهم في طبقاتهم مخالف لشروطه فهو يبطل ولاية أكثر رجال أهلها من العقلاء فضلا عن المجاذيب المجانين ، فانهم لا يمدون من الاولياء العارفين ، لانهم غير مكلفين .

ومنه وفي الباب الاول منه « فلو رأينا الصوفي يتربع في الهواء لا يمبأ به الا اذا امتثل أمر الله واجتنب نهيه في المحرمات الواردة في الكتاب والسنة مخاطبا بتركها كل انخلق المكلفين لا يخرج عن ذلك أحد منهم ، ومن ادعى ان يلبسه وبين الله تعالى حالة أسقطت عنه التكليف الشرعية من غير ظهور امارة تصدقه على دعواه فهو كاذب ، كمن يشخ من شهود في حضرة خيالية على الله وعلى أهل الله ولا يرفع بالاحكام الشرعية رأسا ولا يقف عند حدود الله تعالى مع وجود عقل التكليف عنده فهذا مطرود عن باب الحق ، مبعد عن مقعد الصدق ، وحرام على الفقيه وغيره ان يسلم لمثل هذا » اهـ وهو يخالف هذا الحق في مواضع أخرى

ثم قال (في آخر ص ٨ منه) واعلم ان طريق القوم على وفق الكتاب والسنة
فن خالفهما خرج عن الصراط المستقيم كما قال سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد
(رض) فلا تظن أنهم كانوا كحال غالب المنسوبين الى التصوف في هذا الزمان
فتسي الظن بهم، انما كانوا رضي الله عنهم علمين بأسرار الشريعة قائمين صائمين
زاهدين ورعين خائزين وجلين كما يعلم ذلك من تراجعهم وطبقاتهم ، وانما أنكر
من أنكر على المتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين بالمتشبهين ست
مرات منهم، فكل قرن منهم بالنسبة لمن قبله يصح عليه الانكار اذا ادعى أنه على
طريقة من كان قبله لان الناس لم يزالوا راجعين القهقري واليه الإشارة بقوله
ﷺ « خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم » الحديث اه
أقول ان هذا التصوف قد ذر قرنه في أواخر القرن الثاني وظهر الشذوذ في
المتحلين له في القرن الثالث . وقد قال الامام الشافعي الذي توفي سنة ٢٠٢ اذا
تصوف الرجل في الصباح لا يأتي المساء أو قال العصر إلا وهو مجنون . وأنكر الامام
أحمد الذي توفي سنة ٢٤١ بعده على خيارهم ونهى عن قراءة كتب الحارث المحاسبي
على التزامه الكتاب والسنة علما وعملا كما ببناء في تفسير سورة راءة ، وقد توفي
الحارث في سنة ٢٤٣ وهو أستاذ أكار البغداديين ومن أخذ عنه سيد الطائفة أبو القاسم
الجنيد . فاذا قلنا ان الشعراي يعد أهل قرنه العاشر في الدرجة السادسة من المتشبهين
بالصوفية فالظاهر أنه يعد أهل القرن الخامس أول المتشبهين الذين ينكر عليهم . وقد
أنكر الغزالي في كتاب الغرور من الاحياء على المتشبهين بهم وعد منهم فرقان من أهل
المكاشفات ، وكان ذلك في أواخر القرن الخامس فان الغزالي توفي سنة ٥٠٥ وكان
قد ناب الى الله من علوم التصوف والكلام وانقطع الى علم السنة ، ثم ان ابن الحاج
المالكي المتوفى سنة ٧٣٧ تكلم في كتابه المدخل على هؤلاء المتشبهين بالمشايخ من أهل
عصره في القرن الثامن وبين ما لهم من المنكرات ، وفند ما يدعون من الكرامات .
وقام في هذا القرن أيضا شيخ الاسلام ، مدره السنة الاكبر ، وقامع البدع الاقهر ،
أحمد بن نيمية فبذم قبله ، وأغنى عن جاء بعده ، وعلى كتبه وكتب تلميذه ابن القيم العول
« تفسير القرآن الحكيم » « ٥٧ » « الجزء الحادي عشر »

تفضيل أهل الحديث على غيرهم

ومما كتبه الشعراي في كتابه هذا من الحق بين الأباطيل قوله في الباب الثاني من كتابه المذكور - وهو في طلب العلم - ما نصه :

« واعلم أنه ماتت بالارث للانبياء عليهم السلام على الحقيقة الا المحدثون الذين رووا الاحاديث باسند المتصل الى النبي ﷺ كما قاله شيخنا فلم حظ في الرسالة لانهم نقله الوحي وهم ورثة الانبياء في التبليغ ، والفتاء بلا معرفة دليلهم ليس لهم هذه الدرجة فلا يحشرون مع الرسل انما يحشرون في عامة الناس ، فلا ينطبق اسم العلماء حقيقة الا على أهل الحديث . وكذلك العباد والزهاد وغيرهم من أهل الآخرة اذا لم يكونوا من أهل الحديث حكمهم حكم الفقهاء الذين ليسوا من أهل الحديث ، فيحشرون مع عموم الناس ويتميزون عنهم بأعمالهم الصالحة لا غير ، كما ان الفقهاء يميزون عن العامة في الدنيا ، لا غير » اهـ ولكن بمض من يسمون كبار العلماء في زماننا يفضلون خرافات المشبهين بالتصوفة في الدرجة السادسة الى العاشرة وآراء مقلدي الفقهاء في الدرجة الخامسة - وهي السفلى - على علماء الحديث وفقهائه وحكائه ، ويطمنون في المحدثين وكل من يمتدي بالحديث وولا وكتابة ، بل صرح بعضهم بأن من يعمل بالحديث فهو زنديق !!

اقرار متقدمي الصوفية ومتأخريهم بوجوب اتباع السلف

تواتر عن شيوخ الصوفية المتقدمين ان أصل طريقهم اتباع الكتاب والسنة وموافقة السلف كما تقدم آنفاً ، وتجد مثل هذا في كلام الصوفية الشاذين الذين خلطوا البدع بالسنن وزعموا أنهم يأخذون علومهم عن الله الحي الذي لا يموت مباشرة وان علماء التفسير والحديث يأخذون علومهم عن النبيين كالفقهاء والمتكلمين ، وهذا أساس الابتداع بل المروق من الدين . ومما نقله الشعراي عن الشيخ ابراهيم الدسوقي من الخلط بين الحق والباطل ما نصه :

« وكان (رض) يقول اسلم التفسير ما كان مروياً عن السلف ، وأنكره ما فتح به على القلوب في كل عصر ، ولولا محرك محرك قلوبنا لما نطقت الايمان

ورد عن السلف فإذا حرك قلوبنا وورد استفتحنا باب ربنا وسألناه الفهم في كلامه فتكلم في ذلك الوقت بقدر ما يفتح على قلوبنا ، فسلموا لنا تسلموا ، فانتا نخارة فارغة ، والعلم علم الله تعالى « اه

أقول من أين نعلم أو يعلمون هم أن خواطرهم التي يسمونها الواردات من الإلهام الإلهي لا من الوسواس الشيطاني ، وكيف نسلم لهم ما لا نعلم ، والإلهام الصحيح ليس بحجة كما تقدم ؟ ثم كيف لا نشكر عليهم ما نراه مخالفاً للكتاب والسنة وأثار السلف ، وموافقاً للحاد الباطنية أو بدع الخلف ، وأنا وإيهم متفقون على أنه هو الحق الذي لا يصح الخلاف فيه ؟

ثبت إذاً أن أولياء الله تعالى الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، هم من عرفهم تعالى بقوله الحق (الذين آمنوا وكانوا يتقون) وأنهم درجات كما بينها الله تعالى في قوله (٣٥ : ٣٢) ثم أوردنا الكتاب الذين اصطفتنا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير) فالظالم لنفسه من يقصر في اتباع الكتاب ولو بترك بعض الفضائل ، والمقصد من يترك ما نهى عنه ، ويفعل ما أمر به من الواجبات القاصرة على نفسه ، والسابق بالخيرات من يزيد على ذلك التقرب بالنوافل ، والتكامل بالفضائل ، والجمع بين التعلم والتعليم والتأديب والتأديب ، حتى يكون إماماً للمؤمنين ، فهذه درجة المقرين من شهداء الله والصدقيين ، وما قبلها درجة الصالحين من الأبرار أصحاب الجين ، فراجع سورتي الواقعة والمطففين ، ففيهما بيان لقوله تعالى (٤ : ٦٩) ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدقيين والشهداء والصالحين) وهي تفسير لدعائك في كل ركعة بقوله تعالى (اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين)

وبهذا تقوم حجة الله على العالمين ، بأن هذا الدين تنزّل من رب العالمين ، وقد أكله لنا قبل أن يقبض الله رسوله محمداً خاتم النبيين ﷺ وإنه لو صح شيء مما ابتدعه الناس فيه بغاستهم العقلية أو النفسية أو بما ادعوه من الكشف لما حجت شهادة الله بأكاله ، ولا أنه من عنده لا من عند أحد من خلقه ، وهذا كل قرضنا من هذا البحث ، وقد ظهر به الحق والله الحمد

(٦٥) وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ، إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا، هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ
 (٦٦) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَمَا يُبَسِّمُ
 الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ، إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
 يَخْرُصُونَ (٦٧) هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ آيَاتٍ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ
 مُبْصِرًا، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ

بعد ان بين الله تعالى لرسوله حال أوليائه وصفتهم وما بشرهم به في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، وكونه لا يتبدل لكلماته فيما بشرهم ووعدهم كما انه لا يتبدل لها فيما أوعدهم به أعداءه المشركين ، وكان هذا يتضمن الوعد بنصره وأنصر من آمن له وهم أولياء الله وأنصار دينه على ضعفهم وقهرهم ، وكانت العزة أي القوة والغلبة في مكة لا تزال للمشركين بكثيرتهم التي يعبرون عنها بقولهم : وإنما العزة للكافر ، وكانوا لغرورهم بكثيرتهم وأبروتهم يكذبون بوعده الله وكان ذلك يحزنه ﷺ بالطبع كما قال (٦: ٣٣) قد علم أنه لا يحزنك الذي يقولون فانهم لا يكذبونك الآية قال تعالى مسليا له ومؤكداً وعده له ولاوليائه : ووعيده لأعدائهم وأعدائه :

٦٥ ﴿ وَلَا يَحْزُنْكَ قَوْلُهُمْ ﴾ نهاء عن الحزن والقهم من قولهم الذي يقولونه في تكذيبه الذي تقدم مفصلاً في هذه السورة فحذف مقول القول للعلم به وبين له سبب هذا النهي بقوله ﴿ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴾ أي ان الغلبة والقوة والمنة لله جميعها لا يملك أحد من دونه شيئاً منها ، فهو بهيها لمن يشاء ويحرمها من يشاء ، وليست للكثرة دائماً كما يدعون ، فكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله ، وقد وعد بها رسوله والذين آمنوا بهم واتبعوه من أوليائه ، كما قال (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز * إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد * والله العزة ورسوله وللمؤمنين) فعزته تعالى ذاتية له ، وعزته رسوله

(بونس : ١٠) . اتباع المشركين للظن يخرصونه لا لشركاء الله موجودين ٤٥٣

والمؤمنين به ومنه عز وجل ، كما قال (وتعز من تشاء وتذل من تشاء) وقرأ نافع (بجزئك) بضم الياء من أحزته وهي لغة، وقرئ (أن العزة) بفتح همزة أن الحذف لامها وهي لتمايل الذي تدل عليه قراءة الجمهور بالكسر على الاستئناف البياني.

﴿ هو السميع ﴾ لما يقولون من تكذيب بالحق وادعاء للشرك ﴿ العلميم ﴾ بما يفعلون من إبداء وكيد ومكر ، فهو يذلهم ويحبط أعمالهم ، وهذا استئناف آخر في تقرير مضمون الاول وهو تسلية عليه السلام وتأكيد وعده بالعزة ووعد تكذيبه. ثم استدلل على كون العزة له جميعا والجزء بيده بقوله مستأنفا أيضا ومفتتحا بأداة التثنية

٦٦ ﴿ ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض ﴾ من عابد ومعبود فهو ربهم

وما لسكهم وهم عبيده الربوبون المملوكون له ﴿ وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء ﴾ له في ربوبيته وملسكه ، أي ان هؤلاء الشركيين الذين يعبدون غير الله بدعاتهم في الشدائد ، واستمقائتهم في النوازل ، والتقرب اليهم بالندور والقرابين والوسائل ، لا يتبعون شركاء له في تدبير امور عبادته ينفعونهم أو يكشفون الضر عنهم اذ لا شركاء له ،

﴿ ان يتبعون إلا الظن ﴾ أي ما يتبعون في الحقيقة إلا ظنهم أن هؤلاء الذين يدعونهم أو لياؤ الله وشفعاء عنده ، فهم يتوسلون بهم ويحاثيلهم اليه ، لانهم يقيسونه على ملوكهم الظالمين المتكبرين ، الذين لا يصل اليهم أحد من رعاياهم إلا بوسائل حجابية

ووسائطه ووزرائه ﴿ وإن هم إلا يخرصون ﴾ أي وما هم في اتباع هذا الظن الذي لا يقضي من الحق شيئا ، إلا يخرصون خرسا ، أي يحزرون حزرا ، أو يكذبون كذبا ، أصل الخرص الحزر والتقدير للشيء الذي لا يجري على قياس من وزن أو كيل أو ذرع ، بل هو كخرص الثمر على الشجر والحب في الزرع ، والكمرة الخطأ

فيه أطلق على لازمه الغالب وهو الكذب ، فالظن الذي يبنى عليه يكون من أضغاف الظن وأبعده عن الحق ، مثاله ما ذكرناه آنفا من قياس الرب في تدبير أمور عبادته على الملوك ، وهذا قياس شيطاني سمته من جميع طبقات الجاهلين لعقائد الاسلام ،

وتوحيد الرحمن ، حتى من يلتقون بالعلماء وبالباشوات ، ومثله قولهم في وسائلهم الذين يسمونهم الاولياء : ان الله يحبهم ، وكل من يحب أحدا فانه يقبل وساطته

وشفاعته ، فيقيسون تأثير عباد الله الصالحين عنده تعالى ، على تأثير أصدقاء الملوك والوجهاء ومعشوقهم في قبولهم منهم جميع ما يطلبونه ، ويجهلون ان أفعال الله تعالى انما تجري بمقتضى مشيئته الازلية على وفق علمه الذاتي المحيط وحكمته البالغة العادلة ، وان صفاته تعالى كاملة ازلية لا تؤثر فيها الحوادث ، وان جميع أوليائه وأنبيائه وملائكته عبيد مملوكون له (١٧ : ٥٧ أولئك الذين يدعون يبتغون الى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ، ويرجون رحمة و يخافون عذابه ان عذاب ربك كان محذورا) أي ان أقرب أولئك الذين يدعونهم ويتوسلون اليه تعالى بهم كالمسيح والملائكة ومن دونهم ، هم يتوسلون اليه راجين خائفين ، لا كأعوان الملوك الذين لا يقوم أمر ملكهم بدونهم ، ومعشوقهم الذين لا يتم تتمم الشهواني إلا بهم

٦٧ ﴿ هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا ﴾ هذا استدلال على مضمون ما قبله من نفي وجود شركاء له في الخلق والتقدير ، ولا بالشفاعة عنده في التصرف والتدبير ، أي هو الذي جعل لكم الوقت قسمين بمقتضى علمه ومشيئته بدون مساعد ولا شفيع ، بل بمحض الحكمة البالغة والرحمة الشاملة : أحدهما الليل جعله مظلما لاجل أن تسكنوا فيه بمد طول الحركة والتقلب في الارض ، وتستريحوا من التعب في طلب الرزق ، وثانيهما النهار جعله مضيئا ذا إبصار لتنتشروا في الارض ، وتقوموا بجميع أعمال العزran والكسب ، والشكر للرب ، فالبصر هنا معطي الابصار سببه حسيا كان أو معنويا ، فالاول قوله تعالى (١٧ : ١٢) وجعلنا الليل والنهار آيتين فحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم) الآية — والثاني قوله في هذه السورة أيضا (٥٩) وآيتنا نود الناقية مبصرة) أي آية مفيدة للبصرة والحجة على صدق رسولهم ، ومثله قوله في سورة النمل (٢٧ : ١٣) فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين)

وقال قطرب : تقول العرب : أظلم الليل وأبصر النهار وأضاء بمعنى صار ذا ظلمة وذا إبصار وذا ضياء اه وقد تكرر التذكير في التنزيل بآيات الله في الليل والنهار من خلقهما وتقديرهما ومدغم الناس فيهما ، وفي هذه الآية احتباك وهو انه حذف من كل من آيتي الليل والنهار ما أثبت مقابله في الاخرى والعكس . وفي قوله

تعالى ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُسْمَعُونَ﴾ مثله ، أي ان فيما ذكر الدلائل بينات ، وآيات أي آيات ، على وحدانيته في الذات والصفات ، لقوم يسمعون ما يتلى عليهم من التذكير بحكمه تعالى ونعمه فيها سماع فقه وتدبر ، ويبصرون ما في الكائنات من السنن الحكيمة إبصار تأمل ، ذكر الآيات السمعية المناسبة للليل الذي قدم ذكره ، وهي تدل على الآيات البصرية المناسبة للنهار وتذكر بها ، وهو أبلغ الإيجاز ، وقد جمع بينهما في مقام الاطناب من سورة القصص بقوله (٢٨ : ٧١) قل أرأيتم ان جعل الله الليل سرمداً الى يوم القيامة - من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون؟ ٧٢ قل أرأيتم ان جعل الله النهار سرمداً الى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون؟ ٧٣ ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) وأحسن بذلك الاطناب تفسير آما هنا من الإيجاز ، ولكل منهما موقعه من بلاغة الإعجاز

(٦٨) قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ هُوَ الْعَلِيُّ ؕ أَلَمْ يَأْتِ

السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ؕ إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطٰنٍ بِهٰذَا ؕ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَالًا لَّمْ يَلْمَعُونَ (٦٩) قُلْ إِنْ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكٰذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (٧٠) مَتَمَّعَ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نَذِيرُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ

هذه الآيات حكاية لنوع آخر من الكفر بالله تعالى قريب من كفر اتخاذ الشر كإله ، وهو زعمهم انه اتخذ ولداً ، وقد اشترك فيه عباد الاصنام والوثان وبعض أهل الكتاب ، فحكاة عنهم مفصلاً لانه نوع مستقل وتعبه بالابطال

٦٨ ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ فزعم المشركون أن الملائكة بنات الله ، وقالت

النصارى : المسيح ابن الله ، وقال بعض اليهود : عزير ابن الله ، وتقدم في سورة التوبة (ويرى بعض المؤرخين أن عزير هو أوزيروس أحد آلهة قدماء المصريين)

﴿ سبحانه ﴾ كلمة التسييح معناها التنزيه والتقديس أي تسييحاً له عز وجل عن كل مالا يليق بربوبيته وألوهيته ، وتقال في مقام التعجب ، ويصح هنا جمع الممتنين كليهما . وقفي على هذا التنزيه والتعجب بما يدل على بطلان قولهم بأنواهم

ما ليس لهم به علم فقال ﴿ هو الغني له مافي السموات وما في الارض ﴾ أي هو الغني بذاته عن الولد ، لأن كل مافي الوجود من العالم العلوي والسفلي ملك وعبيد له لا يحتاج منها الى شيء ، ويحتاج اليه كل شيء ، ولا يشبهه أو يجانسه منها شيء ، فالإنسان يحتاج الى الولد لامور منها بقاء ذكوره به وبذريته ، ومنها انه قوة وعصية له يعتز به هو وعشيرته ، ومنها ان وجوده زينته في داره يابو به في صغره ، ويفخر به أقرانه في كبره ، ومنها انه قد يحتاج اليه لقضاء مصالحه وتنمية ثروته ، وقد يحتاج الى رفقده وبره ، عند عجزه أو فقره ، والله تعالى لا يحتاج الى شيء من هذه

المنافع لانه هو الغني عن كل شيء بذاته لذاته أزلا وأبدا ﴿ إن عندكم من سلطان هذا ﴾ « إن » هنا نافية و « من » مؤكدة لهذا الغني مفيدة لعمومه ، والسلطان الحجية والبرهان . والجملة تجمیل لهم ورد عليهم ، أي ما عندكم أي نوع من أنواع الدليل والبرهان متعلق بهذا القول الذي تقولونه من غير عقل ولا علم ولا وحي إلهي ، تعارضون به هذا البرهان العقلي ، وهو تنزيه الله وغناه المطلق عن الولد وغيره ، وكونه

المالك لكل شيء مما في السموات والارض ﴿ أتقولون على الله مالا تعلمون ﴾ هذا استفهام تبيكيت وتوبيخ على أقبح الجهل والكفر ، وهو قولهم على الله تعالى ما ليس لهم به علم ، ولا سيما بعد بحبي ما ينقضه من العلم البرهاني . والوحي الالهي ، قال البيضاوي وغيره : وفيه دليل على ان كل قول لا دليل عليه فهو جهالة ، وان العقائد لا بد لها من قاطع ، وان التقليد فيها غير سائغ اه وقد تقدم حكاية اتخاذ الولد عن الكفار عامة وعن النصارى خاصة في سور البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام ، وسيأتي في سور أخرى مع ابطاله وتفنيده بالادلئل ووجوه

الحجة المختلفة الاساليب ، أو التقرير والتأنيب ، والانذار والوعيد (١)

٦٩ ﴿ قل ان الذين يفترون على الله الكذب ﴾ يأخذهم الشركاء له ، أو بزعمهم
أخذوه ولدا انفسه ، أو بغير ذلك من التحليل والتحرير ، وغيرهما من مسائل
التشريع ، أو بدعوى ولايتهم وإطلاعه اياهم على أسرار خلقه وتصريفه لهم في ملكه ،
وقد تقدم بمضه في هذه السورة كآيات ١٧ و ٥٩ و ٦٠ ﴿ لا يفلقون ﴾
أي لا يفوزون بما يؤملون من النجاة من عذاب الآخرة والتمتع بنعيمها بشقاعة
الولد أو الشركاء الذين اتخذوهم له تعالى أو فدائهم لهم من عذاب النار

٧٠ ﴿ متاع في الدنيا ﴾ هذا جواب لسؤال مقدر قد ورد على نفي فلاحهم بالاطلاق
الذي يدخل فيه منافع الدنيا ، والمفترون على الله بكل نوع من أنواع الافتراء.
المقبولة عند الجاهلين ، لهم كثير من المنافع المادية والمعنوية من أهولاء الساكنين ،
وأكثر البشر لا يزالون جاهلين يخضعون لهؤلاء الزعماء اللبسين ، فهو يقول هذا
متاع قليل - أو لهم متاع في الدنيا حقير ، يتلمون به في حياة قصيرة فأما قلته
وحقارته فيدل عليها تنكيره مع القرينة ، وأما قصر الحياة التي يكون في بعضها
فمعلوم بالاختبار ، فهما يباغ هذا الانتاع من كثرة المال وعظمة الجاه في هذه الحياة ،
ولا يكون الا قليلا بالنسبة الى ما عند الله في الآخرة للاصديقين المتقين كما صرحت
به الآيات الكثيرة ، وبالنسبة الى ما لهم من ضد ذلك كما صرح به في قوله
﴿ ثم الينا مرجعهم ﴾ بالبعث بعد الموت ، وما فيه من أهوال الحشر والحساب
والمرض ﴿ ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون ﴾ بآياتنا ونعمنا ،
وبالافتراء علينا ، وتكذيب رسالتنا ، أو الكذب عليهم بعد ان تقوم عليهم الحجة
في الحساب بأنهم يستحقونه بظلمهم لانفسهم واننا لانظلمهم شيئا ، وتقدم ذكر
الرجوع اليه تعالى وما يليه من الجزء في هذه السورة وغيرها

(١) راجع سورة مريم (١٩ : ٨٨ - ٩٥) وسورة الانبياء (٢١ : ٢٦ - ٢٩).

(٧١) وَأَتَىٰ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذِكْرِي بآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ، فَاجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ (٧٢) فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَأَسألتُكُمْ مِنَ الْجَزَىٰ إِنْ أُجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ، وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٧٣) فَكَذَّبُوهُ فَجَعَلْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفَلَاحِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَالِفًا وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ

هذا سياق جديد متصل بما سبق من مقاصد هذه السورة أتم الانصال ، بتفصيله لبعض ما فيها من اجمال ، وهو الاحتجاج على مشركي مكة وما حولها وسائر من تباهم الدعوة من المكذبين ، بأن الله تعالى سيخذ لهم وينصر رسوله عليهم كما نصر من قبله من الرسل على أقوامهم المجرمين ، فأهلكهم وأنجى المؤمنين ، فقد تقدم في أوائلها قوله (١٣) ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا) الى آخر الآية ١٤ ثم قال في الرد على تكذيبهم إياه بما وعدم من العذاب (٣٩) كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين) ثم قال (٤٧) ولكل أمة رسول فاذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لا يظلمون) جاء هذا في سياق اقامة الحجج العقلية على صدق الرسول ﷺ في دعوى الوحي وكون القرآن من عند الله لا من عنده ورأيه وكلامه ، والحجج على مضمون الدعوى من التوحيد والرسالة والبعث والجزاء والتفنن فيها ، والتكرار البليغ لمقاصدها ، وانذار اولئك المكذبين بها . فناسب ان يفصل لهم شيئا من ذلك الاجمال من هذا الوجه فجاء به معطوفا لانه مرتبط به متم له ، بخلاف سرد قصص الرسل في سورة الاعراف حيث بدأه بقوله (٧ : ٥٩) لقد أرسلنا نوحا الى قومه) لان هذه القصص أوردت هناك مستقلة ،

لا نفسيرا ولا تفصيلا لمجمل قبها وأما مناسبة هذه الآيات لما قبها مباشرة بكونها من جنس موضوعها العام فلا تدل على هذه الخصوصية العلمية التي بها كانت البلاغة فلسفة عقلية نفسية. قال عز وجل :

٧١ ﴿ واتل عليهم نيا نوح ﴾ أي واقرا ايها الرسول على هؤلاء المشركين المكذبين لك من قومك، فيما أوعدتهم من عقاب الله لهم على سابق سنته في المكذبين رسله من قبلك، خبر نوح ذي الشأن العظيم ﴿ إذ قال لقومه يا قوم ان كان كبر عليكم مقامي وتذكري بايات الله ﴾ أي نبأه حين قال لهم هذا القول فكذبوه فأغرقناهم ونجيناها هو ومن آمن معه وجعلناهم خلائف الارض — لاجمع أنباء قصته معهم (المفصلة في سورة هود التي نزلت قبل هذه السورة ووضعت بعدها في المصحف) ليعلموا من هذا النبا الخاص سنته تعالى في نصر رسله على المكذبين من قبلهم، وانه كذلك ينصرك عليهم، فيهلك المكذبين لك المغرورين بكبرتهم وقوتهم، وقلة من اتبعك وضمهم، وان هؤلاء الضعفاء سيكونون خلائف الارض في قومهم وغير قومهم من سكان الارض، قال نوح عليه السلام لقومه بعد ان طال مكثه فيهم يدعوم الى توحيد الله وعبادته وحده والاصلاح في الارض فلما مقامه، وسموا وعظه واتمروا به : يا قومي ان كان قد كبر أي شق وعظم عليكم قيامي فيكم، أو مكاني من القيام بما أقوم به من دعوتكم الى عبادة ربكم، وتذكيري اياكم باياته الدالة على وحدانيته، ووجوب عبادته وشكره، والرجاء في ثوابه للؤمنين المتقين، وانخوف من عقابه للمشركين المجرمين — التذكير يطلق على الاعلام بالآيات والدلائل في أنفس الناس وفي الآفاق فيدر كها العقل وتقتضيها العظرة، حتى يكون بيانها تذكرا أو كالتذكير لمن فقها بشيء كان يعرفه بالقوة، فمرفه بالفعل، ويطلق على الوعظ والنصح المشتمل على عواقب الأمور، وسيأتي في السورة التالية قوله لهم (١١ : ٣٤) ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم) الآية ﴿ فقل الله توكلت ﴾ دون غيره من المؤمنين الذين تستضعفونهم، أي ان كان كبر عليكم ذلك وأردتم التفتي منه بالايقاع بي فاني قد وكلت أمري إلى

الله الذي أرسلني واعتمدت عليه وحده بعد ان أدبت رسالته بقدر طاقتي ﴿فأجمعوا أمركم وشر كما أمركم﴾ من أجمع الامر كالسفر والصيام وغيرها وأجمع عليه اذا عزم عليه عزما لا تردد فيه قيل أصله جمع ما تفرق من أسبابه ومقدماته، وأجمع القوم على الشيء اتفقوا عليه كلهم لم يشذ أحد منهم ، أي أجمعوا ما تريدون من أمركم مع شر كما أنكم الذين تعبدونهم من دون الله لا تتفرقوا فيه ، وقيل التقدير وادعوا شر كما أمركم ايعينوكم كما تزعمون كما أدعوا ربي وأتوكل عليه ﴿ثم لا يكن أمركم﴾ الذي تعتمرونه ﴿عليكم غمة﴾ أي حقا فيها شيء من الحيرة او اللبس الذي يقتضي التردد في الانفاذ، بعد العزم والاجماع ، بل كونوا على علم وبصيرة فيه لكيلا تتحولوا عنه بظهور الخطأ أو التردد في كونه هو الصواب ﴿ثم اقضوا إلي﴾ ذلك الامر بعد اجماعه واعتمازه وبعد استقبائته التامة التي لا غمعة فيها ولا التباس بان تنفذوه بالفعل ، فالقضاء يطلق بمعنى أداء الشيء وتنفيذه وأتمامه ومنه (فلما قضى موسى الاجل * فمنهم من قضى نحبه * فلما قضى زيد منها وطرا) وتعديته بالى لافادة ابلاغه وإيصاله الى متعلقه بالفعل كما قال في أوائل السورة (ولو يجعل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضى اليهم أجلهم) ويطلق بمعنى الحكم بالشيء واذاعدي هذا بالى يفيد تبليغ خبره كقوله تعالى (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب) الخ وقوله (وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع مصبحين) ﴿ولا تنتظرون﴾ أي لا تمهلوني بتأخير هذا القضاء وتنفيذه بعد استيفاء تلك المقدمات كلها

هذه الآية من أبلغ آيات القرآن عبارة وأجمعها على إنجازها للمعاني الكثيرة من علم النفس، ودوجة إيمان الانبياء المرسلين وثقتهم بالله عز وجل ، وشجاعتهم واحتقارهم لكل ما في الحياة الدنيا من أسباب الخوف من غيره والرجاء فيما سواه، وبيان خاتمهم لستته تعالى فيهم وفي أقوامهم، وحسن وعظه لهم بوحى ربه تعالى، فهو يضرب لحاله ومقامه معهم مثل نوح مع قومه في غرور كل منهم بكثيرهم وقوتهم وتكذيبهم واحتقارهم لرسوله ولن آمن معه من الضعفاء والفقراء ، ولما

يتميز به كل من الرسولين من التوكل على الله والاعتماد عليه في النصر والعزة وحسن العاقبة ، والجزم باهلاك المصيرين على تكذيبه ونجاة المؤمنين المتبعين له مجملهم خلافت الارض وأصحاب السلطان فيها

صورت الآية لاهل مكة البلاغ هذه المعاني بمطالبة نوح عليه السلام لقومه على كثرتهم وقوتهم - المشهور في توارخ الامم وظواهر الكتب المقدسة أنهم جميع أهل الارض - بأن يفعلوا ما استطاعوا من الايقاع به واكتفاء أمره ، والاستراحة من دعوته ، مطالبة القوي العزيز المدلل بياسه ، المعتصم بإيمانه بوعد ربه وتوكله عليه ، للضعيف العاجز عن تنفيذ مراده مهما يكن من استيفائه لجميع أسبابه الطبيعية والسكسية ، اذ أمرهم في المرتبة الاولى باجماع أمرهم بالعزيمة الصادقة وقوة الارادة الجازمة حتى لا يكون شيء من موجباتها متفرقا بينهم ، وان يضموا الى هذه القوة النفسية السكسية قوة الايمان المعنوية بشركائهم وأهلتهم ، ولما كانت بالعزيمة الصادقة الجمعة قد يعرض لها الوهن أو الملل للمقتضية للفسخ قبل التنفيذ تهاهم أن يكون في أمرهم الذي أجمعوا شيء من الغمة والخفاء الذي يقتضي ذلك (فان قيل) ان إجماع العزم في الامر لا يكون بعد الجزم بالعلم بالمقتضي له الباعث عليه ، اذ لو كان الامر غمة امتنع إجماعه كما يمتنع إجماع الصيام من الليل في أول رمضان اذا غم الهلال في ليلة الثلاثين من شعبان ولهذا قال عَلَيْهِ السَّلَامُ «صوموا لرؤيته وافطروا لرؤيته فان غم عليكم فأكلوا شعبان ثلاثين» رواه الشيخان والترمذي عن أبي هريرة ورواه غيرهم عن غيره ، فالامر باجماع الامر يقتضي عن النهي ان يكون غمة فما حكمة ذكره بعده وعطفه عليه بهم الدالة على تأخره عنه في الرتبة ؟ (قلت) يكفي في إجماع الامر على الايقاع بنوح عليه السلام ان يعتقدوا انه مصلحة لهم غير معارضة بمفسدة أرجح منها ، وهذا لا يمنع ان يعرض لهم قبل تنفيذه شيء من الغمة والخيرة المقتضية للفسخ أو التردد ، فمن ثم اقتضت المبالغة في أمر التمجيز المذكور ان يؤكد بهذا النهي عن الغمة في المستقبل واقتضت البلاغة ان يعطف بهم لان مرتبته متأخرة عن مرتبة ذلك الامر وما يستلزمه من العلم بالمقتضي له ، كما ان مرتبة قضاء ذلك الامر وتنفيذه متأخرة عن مرتبة الامر

الاول والنهي كتيها ولذلك عطفها عليها مما يتم، وأكد هذا الامر الثاني بالنهي عن الانتظار معطوفا بالواو التي تنفيذ مطلق الجمع لا محاذز منها ورتبتها فلا ترتيب بينها. وقرأ نافع (فاجمعوا أمركم) بوصل الممزة وفتح الميم من الجمع أي اجمعوا ما تفرق منه ، وعلى هذا يكون قوله (وشركاءكم) مفعولا به معطوفا عليه لا مفعولا معه ، وقرأ الحسن وابن أبي اسحق وأبو عبد الرحمن السلمي وعيسى التقي (وشركاؤكم) بالرفع أي أنتم وشركاؤكم. وهذه القراءة شاذة مخالفة لخط المصحف الامام فلا تتلى في الصلاة وقرئ: «أفضوا الي» من الافضاء الى الشيء وهو الوصول والانتهاء اليه مباشرة، والظاهر أنها تصحيف وان كان المعنى المراد واحدا لا يختلف.

٧٢ ﴿ فان توليتم ﴾ أي انصرفتم عني مصرين على إعراضكم عن تذكيري

﴿ فما سألتكم من أجر ﴾ أي فما سألتكم على هذا التذكير ولا على غيره من مسائل الدعوة والنصح أدنى شيء من الاجر والمكافآت فتتولوا لئله عليكم ، او فيضرنني أن يفوت علي وأحرمه فأبالي بتوليكم . ﴿ ان أجرى إلا على الله ﴾ أي ما أجرى وثوابي على دعوتكم وتذكيركم إلا على الله الذي أرسلني اليكم ، فهو يوفيني اياه سواء آمنتم أو توليتم ﴿ وأمرت أن أكون من المسلمين ﴾ أي المنقادين المذنبين بالفعل لما أدعوكم إليه أسلمتم أم كفرتم ، فلا أترك شيئا مما أمرتكم به (وما أريد أن أخالفكم الى ما أنهاكم عنه)

٧٣ ﴿ فكذبوه فنجيناه ومن معه في الفلك ﴾ أي قاصروا على تكذيبه بعد أن أقام لهم الحجة بقوله وعمله على حقية دعواته ، وبراءته من كل خوف منهم اذا كذبوا ، ورجاء فيهم اذا آمنوا ، فنجيناه هو ومن آمن معه في السفينة التي كان يصنعها بأمرنا لاجل ذلك . ولفظ الفلك هنا مفرد وهو السفينة كما عبر به في سورة العنكبوت. وهو يطلق على الجمع أيضا كما قال [وتزى الفلك مواخر فيه] ويفرق بينها بالقوان ، ان لم توصف بالجمع كالمواخر ﴿ وجعلناهم خلائف ﴾ يخلفون المكذبين في الارض كلها على قلتهم ﴿ وأغرقتنا الذين كذبوا باياتنا ﴾ بعد أن أنذرهم وأوعدهم العذاب أي وأغرقتناهم لانهم كذبوا باياتنا ﴿ فانظر كيف كان عاقبة المذنبين ﴾

أي فانظر أيها الرسول بعين بصيرتك وعقلك كيف كانت عاقبة القوم الذين أنذرتهم رسولهم وقوع عذاب الله عليهم فأصروا على تكذيبه ، فكذا تكون عاقبة من يصرون على تكذيبك من قومك ، وكذلك تكون عاقبة المؤمنين المتبعين لك ، قدم ذكر تنجية المؤمنين واستخلاصهم على إغراق المكذبين وقطع دابرهم ، لانه هو الاعم في سياق صدق الوعد والوعيد من وجهين : أولهما تقديم مصداق الوعد لتسليية النبي ﷺ وتسرية حزنه على قومه ومنهم ، وثانيهما كونه هو الاظهر في الحجة على أنهما (أي الوعد والوعيد) من الله تعالى القادر على ايقاعهما على خلاف ما يعتقد المشركون المكذبون المعروفون بكسرتهم وقلة أتباع النبي ﷺ وخلاف الاصل . المهود في المصائب العامة في العادة وهو أنها تصيب الصالح والطالح على سواء ، فلا تميز فيها ولا استثناء ، ولكنه هو الذي جرت به سنة الله تعالى في مكذبي الرسل من بعد نوح فكان آية لهم ، فنولا أن الامر بيد الله على وفق وعده ووعيده لما هلك الالوف الكثيرون ، ونجا أفراد قليلون لهم صفة خاصة أخرجهم منهم تصديقاً لخبير رسولهم ، وما سبق هذا النبأ هنا الا لتقرير هذا المعنى ، وغفل عنه الباحثون عن نكتة البلاغة في المدول عن الضمير الى الاسم الموصول فقالوا انها تعجيل المسرة للمؤمنين والايذان بأن الرحمة مقدمة على العقاب ، ولكن ما قلناه هو المقصود الاول لذاته الذي يقتضيه السياق والحمد لله ملهم الصواب

(٧٤) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ، كَذَلِكَ نَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ

بين الله تعالى في هذه الآية عبرة أخرى من عبر مكذبي الرسل وسنة من سفته فيهم تكلمة لما بينه في حال قوم نوح مع رسولهم عسى أن يعتبر بها أهل مكة فيملوا كيف يتقون عاقبة المكذبين من قوم نوح وغيرهم ، فان كل سوء وضر علم سببه أمكن اتقاؤه باتقائه سببه اذا كان من عمل الناس الاختياري كالكفر والاعتداء والظلم

٧٤ ﴿ ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم ﴾ أي بعثنا من بعد نوح رسلا مثله

الى أقوامهم الذين كانوا مثل قومه فيما يأتي من خبرهم معهم ولهذا أفرد كلمة قومهم فيما يظهر لنا منه والمراد أرسلنا كل رسول منهم الى قومه كهود الى عاد وصالح الى ثمود ، ولم يرسل رسول منهم الى كل الاقوام الذين كانوا في زمانه الا شعيبا أرسل الى قومه أهل مدين والى جيرانهم أصحاب الوثفكة لاتحادها في اللغة والوطن ، وانما

أرسل محمد وحده الى الناس كافة ﴿ فجاءوهم بالبينات ﴾ أي فجاء كل رسول منهم يومه بالبينات الدالة على رسالته وصحة مادعاه اليه بحسب أفهامهم وأحوالهم العقلية

﴿ فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل ﴾ أي فما كان من شأنهم أن يؤمن بالتأخر منهم بما كذب به المتقدم من قبل ممن كان مثله في سبب كفره وهو استنكار

الرؤساء ، وتقليد الدهماء الآباء والاجداد ﴿ كذلك نطبع على قلوب المعتدين ﴾

أي مثل هذا الطبع وعلى غرار هذه السنة التي اطردت فيهم نطبع على قلوب المعتدين مثلهم في كل قوم كقومك أيها الرسول اذا كانوا مثلهم (ولا نجد لسنتنا

تحويلا * ولن نجد لسنة الله تبديلا) فأما الطبع على القلوب فهو عبارة عن عدم قبولها شيئا غير مرسوخ فيها واستحوذ عليها مما يخالفه ، كقبول الجاهل المقلد الدليل

الملمي على بطلان اعتقاده التقليدي ، ورجوع الماندين عن عناده وكبره النفسي [وقد تقدم تفصيله في تفسير ما سبق فيه من الايات في سور النساء والاعراف والتوبة ،

ومثله تفسير (حتم الله على قلوبهم في أوائل سورة البقرة) وأما الاعتداء الذي صار وصفا ثابتا هؤلاء (المعتدين) فعناه تجاوز حدود الحق والعدل انبعا لهوى

النفس وشهواتها ، فالطبع المذكور أثر طبعي للحالة النفسية التي عبر عنها بوصف الاعتداء ، وليس عقابا أنفيا (بضم تين أي جديدا) خلقه الله لمنهم من الايمان ، إذ لو كان

كذلك لكانوا معذورين بكفرهم ، ولما كان فيه عبرة لغيرهم ، بل لكان حجة لهم ، وقد فهمت قريش وسائر العرب ما لم يفهمه متكلموا الجبرية من هذه الآية وأمثالها ،

وهو أنها وصف للعلة والمعلول ، والسبب والمسبب ، وسنته تعالى في دوام كل منهما بدوام الآخر ، لا بذاته وكونه خلقيا لا مفروضا ، بل المقر أمرا اختياري يمكن ، وهو ترك

الماندين لعناده والمقلد لتقليده ، إيثارا للحق الذي يقوم عليه الدليل ، فهموا هذا فاهتدى الاكثرون بالتدريج ، وهلك الذين استحبوا العمى على الهدى في غزوة بدر وغيرها

(٧٥) ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ
 يَا يٰٓأَيُّهَا فَاسْتَكْبِرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَّجْرِمِينَ (٧٦) فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ
 مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اإِنَّ هٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ (٧٧) قَالَ مُوسَى أَتَقُولُونَ
 لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَكُمْ اأَسِحْرٌ هٰذَا؟ وَلَا يُفْلِحُ السَّحَرُونَ (٧٨) قَالُوا
 أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتْنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَاءَنَا وَتَكُونَ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ
 فِي الْاَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ؟

هذه قصة موسى وهارون عليهما السلام مع فرعون وملئه مأخوذة هنا في ١٩
 آية مفصلة مرتبة كما نبينه في تفسيرها . وهذه الاربعة منها في استكبار فرعون
 وملئه عن الايمان وزعمهم أن آيات الله لموسى من السحر ، وتعليل تكذيبهم له بأمرين
 أحدهما أن اتباعه تحويل لهم عن التقاليد الموروثة عن الآباء ، والثاني أنه يسلب
 سلطانهم منهم وينفرد هو وأخوه بما يتمتعون به من الكبرياء في الارض ، وهذا
 معنى ما تقدم من قصة نوح المختصرة في هذه السورة . وهاك تفسيره من الاختصار

٧٥ - ﴿ ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى وَهَارُونَ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِ ﴾ أي ثم
 بعثنا من بعد أولئك الرسل الذين بعثناهم إلى أقوامهم موسى وهارون إلى فرعون مصر
 وأشرف قومه الذين هم أركان دولته وإلى قومهم القبط بالتبع لهم لانهم كانوا
 مستعبدين لهم يكفرون بكفرهم ، ويؤمنون بايمانهم اإن آمنوا ﴿ يَا أَيُّهَا ﴾ أي بعثناهما
 مؤيدين باياتنا التسع المفصلة في سورة الاعراف وغيرها ﴿ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا
 قَوْمًا مَّجْرِمِينَ ﴾ أي فاستكبر فرعون وملؤه أي اعرضوا عن الايمان كبرا وعلاوا مع
 علمهم بأن ما جاء به هو الحق ، لما كانوا عليه من سمة العلم وصناعة السحر ، وكانوا
 « تفسير القرآن الحكيم » « ٥٩ » « الجزء الحادي عشر »

٤٦٦ تعليمهم دعوة موسى بالانفراد بالرياسة الدينية والملك (التفسير : ج ١٠)

قوما راسخين في الاجرام وهو الظلم والفساد في الارض ، كما قال تعالى في سورة النمل (٢٧ : ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين)

٧٦ ﴿ فلما جاءهم الحق ﴾ وهو آياتنا الدالة على الزبونية والالوهية ﴿ من عندنا ﴾ ووحينا الى موسى كما هو مفصل في أول سورة الشعراء وغيرها للبطل لادعاء فرعون لها بقوله (أنا ربكم الأعلى) وقوله (ما علمت لكم من إله غيري) ﴿ قالوا إن هذا لسحر مبين ﴾ أي أقسموا إن هذا الذي جاء به موسى من الآيات الدالة على صدقه ، إنما هو سحريين ظاهر ، وإنما السحر صناعة باطلة لهم أحذق الناس بها ، فكيف يقبعون من جاء ينازعهم سلطانهم بها ، فاذا قال لهم موسى ؟

٧٧ — ﴿ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم ﴾ أي قال لهم متعجبا من قولهم : أتقولون هذا الذي قلتم للحق الظاهر ، الذي هو أبعد الاشياء عن كيد السحر الباطل ، لما جاءكم وعزفتهم واستيقنته أنفسكم ، حذف مقول القول للدلالة ما قبله عليه وهو قولهم « إن هذا لسحر مبين » وكذا ما بعده وهو قوله منكر الاله متعجبا منه ﴿ أسخر هذا ﴾ أي ان هذا الذي ترونه من آيات الله بأعينكم ، وترجف من عظمته قلوبكم ، لا يمكن أن يكون سحرا من جنس ما تصنعه أيديكم ، ﴿ ولا يفتح الساحرون ﴾ أي والحال المعروف عندكم ان الساحرين لا يفوزون في أمور الجسد العملية من دعوة دين وتأسيس ملك وقلب نظام ، وهو ما تنهجونني به على ضعفي وقوتكم ، لان السحر أمور شعوذة وتخيل ، لا تلبث أن تفتضح وتزول ، يدل على هذا جوابهم له :

٧٨ — ﴿ قالوا أجهنما لتلفنتنا عما وجدنا عليه آباءنا ﴾ (١) وتكون لكما الكبرياء

في الارض ﴿ هذا استفهام توريط وتقرير ، تجاه ما أورده موسى من استفهام الانكار والتعجيب ، فخواه أقرر وتعتزف بأنك جهنما لتصرفنا وتحولنا عما وجدنا عليه

(١) فعل لفت يتعدى بمن وتعديته بالي مخالف لما في هذه الآية وغيرها وهو خطأ مشهور في عصرنا ، فهو ليس كفعل صرف يتعدى بمن والى

آباءنا وأجدادنا من الدين القومي الوطني لتنبع دينك وتكون لك ولا خيك
كبرياء الرياسة الدينية ، وما يتبعها من كبرياء الملك والعظمة الدنيوية التابعة لها
في أرض مصر كلها ؟ يمتنون أنه لا غرض لك من دعوتك إلا هذا وان لم تعترف به
اعترافاً ، جعلوا الخطاب الخاص بالدعوة والفرص منها لموسى لأنه هو الداعي لهم
بالذات وأشركوا معه أخاه في ثمرة الدعوة وفائدتها لأنها تكون مشتركة بينهما
بالضرورة ﴿ وما نحن لكما بمؤمنين ﴾ أي وما نحن بمتبعين لكما اتباع إيمان
واذعان فيما يخرجنا من دين آباءنا الذي تقلده عامتنا ، ويسلمنا ملكنا الذي تتمتع
بكبريائه خاصتنا - وهم الملك وأركان دولته وبطانته وحواشيه - وهذا ان الامران هما
اللذان كانا يمتنان جميع الاقوام من اتباع الانبياء والمصلحين في كل زمان .

(٧٩) وَقَالَ فِرْعَوْنُ ائْتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (٨٠) فَلَمَّا جَاءَ
السَّحَرَةُ قَال لَّهُمْ مُوسَى ائْتُوا مَا آتَمْتُمْ مُلْقُونَ (٨١) فَلَمَّا اَلْقَوْا قَالَ
مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِيَ السَّحَرُ ، اِنَّ اِلٰهَ سَيِّدِي اِلٰهُهُ ، اِنَّ اِلٰهَ لَا يُصْلِحُ
عَمَلَ الْمَفْسِدِينَ (٨٢) وَيُحِقُّ اِلٰهُ الْحَقِّ كَلِمَتَهُ وَاَوْ كَرِهَ الْخَافِرُونَ

هذه الآيات الاربعة في خلاصة ما قاوم به فرعون دعوة موسى لتأييد ادعائه
أنه ساحر وصرف قومه عن اتباعه لعدم تمييزهم بين السحر وآيات الله له

٧٩- ﴿ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم ﴾ أي ذاك ما قاله لملاً فرعون
لموسى وأخيه بمحضرة . وقال فرعون لملئه بعد ما رأوا من اصرار موسى على دعوته ،
وعدم مبالاته بالتصريح له بما يدعون او يظنون من مراده : ائتوني بكل ساحر واسع
العلم راسخ فيه متقن للسحر بالعمل كما عبر عنه في آية أخرى « بكل ساحر عليم »

٨٠- ﴿ فلما جاء السحرة ﴾ الطالوبون الموصفون بما ذكر ﴿ قال لهم موسى ﴾
بعد أن خبروه بين أن يلقي ما عنده أولاً أو يلتقوا هم ما عندهم كما هو مبين في سورتي

الاعراف وطه ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ ليرتب عليه إبطال الباطل وإظهار الحق
 ٨١- ﴿فلما ألقوا﴾ ما ألقوه من حبالهم وعصيهم الصناعية السحرية
 ﴿قال موسى: ما جئتم به للسحر﴾ أي هذا الذي جئتم به وأقيمتوه أمامنا هو
 السحر لا ما جئت به من آيات الله تعالى ومنها فرعون وملؤه سحراً ﴿إن الله سيضلهم﴾
 أي سيظهر بطلانه للناس وأنه صناعة خادعة، لا آية خارقة صادقة، فالجمله استثنائية
 لبيان ما يوقن به موسى من مآل هذا السحر، ويجوز أن تكون خبراً لما قبلها ويكون
 التقدير: ما جئتم به الذي هو السحر، إن الله سيضلهم بما جئت به من الحق، وعلل
 حكمه بقوله ﴿إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ وهو قاعدة عامة مبينة لسنة الله
 في تنازع الحق والباطل، والصلاح والفساد، ويدخل فيها سحرهم فإنه باطل وفساد
 أي لا يحمل عمل المفسدين صالحاً، والسحر من عمل فرعون وقومه المفسدين

٨٢- ﴿ويحق الله الحق بكلماته﴾ أي يثبت الحق الذي فيه صلاح الخلق وينصره
 على ما يمارضه من الباطل بكلماته التكوينية وهي مقتضى إرادته، وكلماته التشريعية
 التي يوحياها إلى رسله، ومنها وعده بنصري على فرعون واتقاد قومي من عبوديته
 وظلمه ﴿ولو كره المجرمون﴾ كفرعون وقومه. وقد سبق تفسير مثل هذه الآية
 في سورة الانفال (٨: ٨٧)

(٨٣) فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِّن
 فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ ، وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ
 لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ (٨٤) وَقَالَ مُوسَى يَتَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ
 تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ (٨٥) فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا
 فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٨٦) وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ

(٨٧) وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ وَأَخِيهِ أَنْ تَبَوَّءَ الْقَوْمَ كَمَا يُبَوِّئُ آبَاؤُكُمْ قَبْلَهُ ۖ وَآتَمُوا الصَّلَاةَ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الخمس في بيان ما كان من شأن موسى مع قومه بني اسرائيل الذين أرسله الله ليخرجهم من مصر ، في إثر ما كان من شأنه مع فرعون وملئه ٨٣ - ﴿ فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِيَةٌ مِنْ قَوْمِهِ ﴾ المتبادر إلى فهمي ان عطف هذه الجملة على ما قبلها بالفاء لا فائدة السببية أو التفریع ، أي ان إصرار فرعون وقومه على الكفر بموسى بعد خيبة السحرة وظهور حقه على باطلهم ، ثم عزمه على قتله كما أنبأ الله تعالى بقوله (٤٠ : ٢٦) وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) يعني بالفساد الثورة والخروج على السلطان - كما قتل من آمن به من السحرة . كل هذا أوقع الخوف والرعب في قلوب بني اسرائيل قوم موسى فما آمن له إلا ذرية من قومه وهم الاحداث من المراهقين والشبان ، وقيل قوم فرعون ولكن من آمن به منهم كان يكتم إيمانه ولا يقال آمن له إلا من اتبعه مؤمناً ، ولم يكونوا صغاراً . والذرية في اللغة الصغار من الاولاد ، قال الراغب وان كان يقع على الصغار والكبار معاً في التعارف ، ويستعمل

للو احد والجمع وأصله الجمع . ﴿ على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم ﴾ أي آمنوا على خوف من فرعون وملئهم أي أشرف قومهم الجبناء المرائين الذين هم عرفاؤهم عند فرعون فيما يطلب هو منهم ، فان الملوك يستدلون الشعوب ويستعبدونهم برؤساء . وعرفاء منهم ، وقيل ملاً فرعون وجمع ضميره للتعظيم على خوف منه أن يفتنهم عن الايمان لموسى واتباع دينه بالتعذيب والارهاق . الفتون الابتلاء والاختبار الشديد للحمل على الشيء أو على تركه ، واستعمل في الاضطهاد والتعذيب للارتداد عن الدين بكثرة كما تقدم في تفسير (وقالت لهم حتى لا تكون فتنة) ﴿ وإن فرعون لعال في الأرض ﴾ أي والحال أن فرعون عات شديد العتو مستبد غالب قوي القهر في أرض مصر فهو جدبیر بأن يخاف منه . فالمراد بملوه قهره واستبداده كما حكى الله عنه بقوله

٤٧٠ أمر موسى للمؤمنين من قومه بالتوكل على الله (التفسير: ج ١١)

(٧: ١٢٧) وقال الملا من قوم فرعون: أنذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآهلك؟ قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون)

﴿وانه لمن المسرفين﴾ أي المتجاوزين حدود الرحمة والعدل، إلى الظلم والقتل، والعدوان والبغي، وغمط الحق واحتقار الخلق (وهو معنى الكبرياء)

٨٤ - ﴿وقال موسى﴾ لمن آمن من قومه وقد رأى خوفهم من الفتنة والاضطهاد

مرشداً ومثبتاً لهم ﴿يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ أي إن كنتم آمنتم بالله حق الايمان فعليه توكلوا، وبعده فثقوا، إن كنتم في ايمانكم مسلمين مدعين بالفعل، وإنما يكون الايمان بقينا اذا صدقه العمل وهو الاسلام، وهذا لا يدل على ايمان جميع قومه كما قيل، فالإيمان بالله غير الايمان لموسى المتضمن لمعنى الاسلام. والاتباع المشار اليه بقوله (إن كنتم مسلمين) وهم قد طلبوا منه بعد نجاحهم ان يجعل لهم آلهة من الاصنام، ثم اتخذوا العجل المصنوع وعبدوه

٨٥ ﴿فقالوا على الله توكلنا، ربنا لا نجعلنا فتنه للقوم الظالمين﴾ أي قامتلوا الامر، اذ علموا انه يتوقف عليه إنجاز الوعد، وصرحوا به في القول، مع اللطافة بأن يحفظهم الله من فتنة القوم الظالمين بالفعل، فان التوكل على الله الذي هو أكبر مقامات الايمان لا يكمل الا بالصبر على الشدائد، والدعاء لا يصح ولا يقبل فيستجاب، الا اذا كان مسبقاً أو مقارناً لا اتخاذ الأسباب، وهو أن تعمل ما تستطيع، وتطالب من الله أن يسخر لك ما لا تستطيع. وللفظ «فتنة» هنا يحتمل معنى الفتن والغشون. فكأنهم قالوا ربنا لا تسلطهم علينا فيفتنونا، ولا تفتنناهم فتتولى عن اتباع نبينا، أو تضعف فيه قراراً من شدة ظلمهم لنا، ولا تفتنهم بنا فيزدادوا كفرةً وعناداً وظلماً بظهورهم علينا، ويظنوا أنهم على الحق واننا على الباطل. ومن المعقول والثابت بالتجارب ان سوء حال المؤمنين وأهل الحق في أي حال من ضعف أو فقر أو عمل مذموم يجملهم موضعاً أو موضوعاً لافتتان الكفار وأهل الباطل بهم، باعتقاد أنهم هم خير منهم، كما قال تعالى (٦: ٥٣) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا

أهؤلاء من الله عليهم من بيننا ؟) وقال (٢٥ : ٢٠) وجعلنا بعضكم لبعض فتنة
 أتصبرون ؟) فكيف اذا خذل أهل الحق حقهم ، وكفروا نعمة ربهم ؟

٨٦ ﴿ ونجنا برحمتك من القوم الكافرين ﴾ أي نجنا من سلطانهم وحكمهم
 لان حكم الكافر لا يطاق . ومثل هذا الدعاء في جملته قوله تعالى في سياق التآسي
 بابراهيم والذين آمنوا معه في أقوالهم لقومهم وأفعالهم وتوكلهم (٦٠ : ٤) ربنا
 عليك توكلنا واليك أنبنا وانك المصير (٥) ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا
 واغفر لنا ربنا إنك انت العزيز الحكيم) وما أجدر المسلمين اليوم بهذه الاسوة ،
 وتجديد الانابة ، وتكرار هذا الدعاء خاشعين معتبرين مستعبرين ، فقد أصبحوا
 فتنه للقوم الكافرين

٨٧ ﴿ وأوحينا الى موسى وأخيه ان تبوءا قومكما بيمينك بيوتا ﴾ يقال تبوأ
 الدار اتخذها مبيتاً او مبادء أي مسكننا ثبتا وملجأ يئو اليه أي يرجع كما فارقه الحاجة ،
 ويؤاها غيره . وقوله (ان تبوءا) تفسير لا وحيناً لانه بمعنى قلناهما : اتخذنا قومكما بيوتاً في
 مصر تكون مساكن وملاجئ يئوون اليها ويعتصمون بها . ﴿ واجعلوا بيوتكم قبلة ﴾
 أي متقابلة في جهة واحدة فالقبلة في اللغة ما يقابل الانسان ويكون تلقاء وجهه
 ومنه قبلة الصلاة وهي أخص ويصح الجمع هنا بين المعنيين العام والخاص بقريته قوله
 ﴿ وأقيموا الصلاة ﴾ أي فيها متوجهين الى جهة واحدة لان الاتحاد في الاتجاه
 يساعد على اتحاد القلوب كما قال النبي ﷺ في حكمة تسوية الصفوف في الصلاة
 « ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم » وحكمة هذا ان يكونوا مستعدين لتبليغهم ايابهم
 ما يهيمهم ويعينهم بما يحتاجه وهو النجاة وهم من عذاب فرعون باخراجهم من بلاده
 واختلاف المفسرون في الجهة التي أمروا باستقبالها والتوجه اليها في الصلاة وهي
 لا تعلم إلا بنص ولا نص ﴿ وبشر المؤمنين ﴾ بحفظ الله ايابهم من فتنة فرعون وملائته
 الظالمين لهم وتنجيتهم من ظلمهم . خص الله موسى بهذا الامر (التبشير) لانه
 من أمر الوحي والتبليغ النوط به ، وأشرك هارون معه في الامر الذي قبله لانه
 تدبير علي هو وزيره المساعد له على تنفيذه

(٨٨) وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَيَّ أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَيَّ قُلُوبَهُمْ ، فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٨٩) قَالَ قَدْ أُجِيبَت دَعْوَتُكُمْ مَا قَاتَسْتَقِيمُوا وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ

هاتان الآيتان هما الرابطتان بين سيرة موسى وهارون مع فرعون وقومه في مصر ، وبين ما انتهت إليه من نصر الله له عليه وإنجاء بني إسرائيل من ظلمه ، وإهلاكه عقابا له كما وقع لنوح مع قومه

٨٨ ﴿وقال موسى﴾ بعد أن أعد بني إسرائيل للخروج من مصر إعدادا دينيا دنيويا ، متوجها إلى الله تعالى في إتمام الامر ، بمدقياه بما يقدر عليه هو وبنو إسرائيل

من الاسباب ﴿ربنا إنك آتيت فرعون وملاؤه زينة وأموالا في الحياة الدنيا﴾ أي إنك أعطيت فرعون وأشرف قومه وكبراءهم دون دهمائهم - من الصناع والزراع والجنود والخدم - زينة من الحلبي والحللي والآنية والماعون والآثاث والرياش ، وأموالا كثيرة الانواع والمقادير ، يتمتعون بها وينفقون منها في حظوظ الدنيا من العظمة الباطلة والشهوات البدنية بدون حساب ، ﴿ربنا ليضلوا عن سبيلك﴾ أي لتكون عاقبة هذا العطاء إضلالا عبادك عن سبيلك الموصلة إلى مرضاتك باتباع الحق والعدل والعمل الصالح ، ذلك بأن الزينة سبب الكبر والخيلاء والظفیان على الناس ، وكثرة الاموال تمكنهم من ذلك وتخضع رقاب الناس لهم ، كما قال تعالى (إن الانسان ليطغى * أن رآه استغنى) وذلك دأب فراعنة مصر به تشبه آثارهم وركازهم التي لا تزال تستخرج

من إبراهيم^(١) ونواويس قبورهم إلى يومنا هذا الذي أكتب فيه تفسير هذه الآيات وتحفظ في دار الآثار المصرية ، و يوجد مثاها دور أخرى في عواصم بلاد الافرنج ملأى بامثالها . فاللام في قوله (ليضلوا) تسمى لام العاقبة والصيرورة وهي الدالة على أن ما بعدها أثر وغاية فعلية لمتعلما بها يترتب عليه بالفعل لا بالسببية ولا بقصدفاعل الفعل الذي تتعلق به كقوله تعالى في موسى عليه السلام (فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا) ويميز بينها وبين لام كي الدالة على علة الفعل بالقرينة . و جعلها بعضهم هنا منها . وحملوا على الاستدراج أي آتيتهم ذلك لكي يضلوا الناس فيستحقوا العقاب . وقد يعرزه قوله ﴿ ربنا اطمس على أموالهم ﴾ بقال طمس الاثر وطمسته الريح اذا زال حتى لا يرى اولا يعرف (ولو نشاء لطمسنا على أعينهم فاستبقوا الصراط فاني يبصرون) وهو يصدق بالعمى ويهدم الانتفاع بها كما سبق قريبا في قوله (ومنهم من ينظر اليك افأت تهدي العمى ولو كانوا لا يبصرون) وانفقوا على ان المراد بالعمى هنا عمى البصيرة لا البصر ، والمعنى هنا ربنا احق أموالهم بالآفات التي تصيب حرثهم وأنعامهم وتنقص مكاسبهم ونعماتهم وغلانهم فيذوقوا ذل الحاجة ﴿ واشدد على قلوبهم ﴾ أي اطبع عليها ، وزدها قساوة وإصراراً وعناداً ، حتى يستحقوا تعجيل عقابك فتما فيهم ﴿ فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الاليم ﴾ هذا جواب للدعاء أو دعاء آخر بلفظ النهي متم له . وقد روي أن موسى دعا بهذا الدعاء ، وأمن هارون عايبها السلام كما هو المتاد ، فاستجاب الله تعالى لها بقوله

٨٩ ﴿ قال قد أجيبتم دعوتكما ﴾ أي قبلت ، وإذا قبلت نفذت ﴿ فاستقم ﴾ على

ما أنما عليه من دعوة فرعون وقومه إلى الحق ، ومن إعداد بني اسرائيل للخروج من مصر . وعن ابن عباس (رض) فامضيا لا مري وهو الاستقامة ﴿ ولا تيمان .

(١) البرابي هباني بشكل غريب جمع برني بالفتح والقصر وقد تكتب بربا ،

وهي كلمة قبطية معناها المعبد والهيكل ، والنواويس صناديق من الحجارة توضع فيها جثث الموتى . والركاز الاموال التي كان الاقدمون يدفنونها في الارض من ركزه اذا أئبته فهو ككتاب بمعنى مكتوب

سبيل الذين لا يملعون ﴿ أي ولا تسلكان طريق الذين لا يملعون سبتي في خلقتي ، وإنجاز وعدي لرسلي ، فستعجلا الامر قبل أوانه ، وتستبظنا وقوعه في إبانه هذا - وان في قصة موسى وفرعون في سفر الخروج ما يفسر استجابة هذا الدعاء بما يوافق ما قلناه هنا من إرسال الله النوازل على مصر وأهلها ، ولجوء فرعون وآله الى موسى عند كل نازلة منها ليدعوه ربه فيكشفها عنهم فيؤمنوا به حتى اذا ما كشفها قسى الرب قلب فرعون فأصر على كفره . وقد فصّلنا هذا في تفسير قوله (١٣٣:٧ - ١٣٥) من سورة الاعراف (١) ومنه تعلم ان كل ما خالفها من أقوال المفسرين في معنى الطمس على أموالهم فهو من أباطيل الروايات الاسرائيلية التي كان من مقاصد كتب الاحبار وأمثاله منها (كما نرى) صد اليهود عن الاسلام بما يروونه في تفسير المسلمين للقرآن مخالفا لما هو متفق عليه عندهم وعند غيرهم من المؤرخين في وقائع عملية وأمور حسية

(٩٠) وَجَوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَيْنَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ

بَغْيًا وَعَدُوًّا ، حَتَّى إِذَا أَذْرَكَهُ الْفِرْقُ قَالَ ءَأَمَنْتَ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَأَمَنْتَ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ (٩١) ءَأَلْسَنَ وَوَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (٩٢) فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ ، بِمَدَنِكَ لَتَسْكُوتَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَأَيَّةٌ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ ءَأَيَّدِنَا لَغَافِلُونَ

هذه الآيات الثلاث في بيان العبارة باخر القصة وما كان من عاقبة تأييد الله لموسى وأخيه الضعيفين بأنفسهما ، على فرعون وقومه أعظم أهل الارض قوة ودولة

٩٠ - ﴿وجاوزنا بيني امرائيل البحر﴾ يقال جاز المكان وجاوزه وبجأوزه إذا ذهب فيه وقطعه حتى خلفه ورائه . وأصله من جاوز الطريق ونحوه وهو وسطه ، وتسمية الجوزاء مأخوذة من تعرضها في جوز السماء أي وسطها ، ومجازة الله البحر بهم عبارة عن كونهم جاوزوه بمونته تعالى وقدرته وحفظه ، إذ كان آية من آياته لنبيه موسى عليه السلام بفرقه تعالى بهم البحر وانفلاقه لهم كما تقدم في سورة البقرة والأعراف ﴿فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدوا﴾ أي لحقهم فأدركهم ظلماً وعدواناً عليهم ايقتك بهم أو يعيدهم الى مصر حيث يتعبدون ويسومهم سوء العذاب ﴿حتى إذا دركه الفرق﴾ أي تخاض البحر ورائهم حتى إذا وصل الى حد الفرق قال ﴿آمنت أنه لا اله الا الذي آمنت به بنو امرائيل﴾ أي قال قبل أن يفرق وهو يدل على أن البحر لم يطبق عليه دفعة واحدة : آمنت انه لا اله بالحق الا الرب الذي آمنت به جماعة بني امرائيل بدعوة موسى ﴿وأنا من المسلمين﴾ أي وأنا فرد من جماعة المذعنين له المتقادين لأمره ، بعد ما كان من كفر الجحود بآياته والتمناد لرسوله . يعني انه جمع بين الايمان الذي هو التصديق بالقلب ، والاسلام الذي هو الازعان والخضوع بالفعل ، بدون امتياز لعظمة الملك ، وكان من قبل جاحداً ، أي مصدقاً غير مذعن ولا خاضع ، بدليل قوله تعالى فيه وفي آله (٢٧: ١٤) وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) يمعي آيات موسى . وهذه هي العاقبة ، وقد أجيب فيها فرعون عن دعواه بقوله تعالى الذي يعرف بلسان الحال أو بقول جبريل (م . ع)

٩١ ﴿آلآن ؟ وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين﴾ أي أنسلم الآن أو تدعي الاسلام واذعان الطاعة والانقياد ، حيث لا محل له ولا امكان ، بما حال دونه من الهلاك ، وقد عصيت قبله وكنت من المفسدين في الارض الظالمين للعباد ، والمراد ان دعوى الاسلام الآن باطلة ، والايمان بدون الاسلام مع إمكانه لا يقبل .

فكيف يقبل وقد صار اضطرارا لامعنى لقبوله ، لانه انفعال لافعل لصاحبه ،
وجملة القول ان إسلامه كان كما قال الشاعر

أنت وحياض الموت بيني وبينها وجات بوصل حين لا ينفع الوصل

وقد تقدم مثل هذا الاستفهام الانكاري في هذه السورة وهو قوله تعالى
في المكذابين بوعد الله تعالى ووعيده بما كان يحملهم على استعجال عذابه (٥١) ثم
اذا ما وقع آمنتم به؟ آلا آن وقد كنتم به تستعجلون) وسأني بمدبضع آيات منها
ان الايمان لا ينفع عند وقوع عذاب الاستئصال الذي هو نهاية أجل القوم، كما انه
لا ينفع عند موت الشخص ، كما تقدم في قوله تعالى (٤ : ١٨) وليست التوبة للذين
يعملون السيئات حتى اذا حضر أحدهم الموت قال اني تبت الآن ، ولا الذين
يوتون وهم كفار) ومن البديهي ان التوبة من الكفر والمعصية انما تنفع بالرجوع
الى الطاعة . على أن اليأس من النبيء بالفعل ، لا يمتل أن يكون صادقا في ادعائه
اياه أو طلبه له بالقول . ولعل فرعون أراد بقوله حينئذ انه من جماعة المسلمين انه
موطن نفسه على أن يكون منهم إن نجاه الله تعالى ، وأنه كان يرجو بهذا أن ينجيه الله
تعالى كما نجاه وقومه من كل نازلة من عذاب الله حلت به وبقومه اذ كان يقول لموسى
(ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ولنرسلن معك
بني اسرائيل) ولكن تلك النوازل انما كانت لاجل إرسال بني اسرائيل مع موسى
فهي غايتها ولم تكن عقابا على الاصرار على كفر الجحود والعدا الذي هو شر أنواع
الكفر وأدله على خبث طوية صاحبه ، كهذا العقاب الاخير بعد نجاة بني اسرائيل
منه رغم أنه

٥٢ - ﴿ قال يوم تنجيك بيدنك لتكون لمن خلفك آية ﴾ قال أبو جعفر ابن جرير
الطبري يقول تعالى ذكره فرعون فال يوم نجملك على نجوة من الارض بيدنك بنظر اليك
من كذب به الاك (لتكون لمن خلفك آية) يقول لمن بعدك من الناس عبرة يعتمرون
بك فينزعرون عن معصية الله والكفر به ، والسعي في أرضه بالفساد . والنجوة
الموضع المرتفع من الارض . ومنه قول أوس بن حجر :

فمن يعقونه كمن ينجونه والمستكن كمن يمشي بقرواح (١)
 ثم ذكر رواه عن قال بهذا القول . وقال أهل اللغة : سمي المكان المرتفع
 نجوة ونجاة - وزاد بعضهم : منجى - لأن من عليه ينجو من السيل ، وإنما دفعه
 ودفعهم الى تفسير الآية بهذا الوجه من اللغة أن إنجاء الانسان من الغرق انما يكون
 بخروجه حيا بيده ونفسه كأن قدم قريبا في إنجاء نوح ومن معه في الفلك ، وكل استماله
 في القرآن بمعنى النجاة من العذاب كأنجاء بني اسرائيل من فرعون وآله ، وقال
 بعضهم ان التعبير بالنجية بهم ، وان الحكمة بذكر البدن انه يخرج جسده سالما
 ليعرف ، وقيل إن المراد بالبدن الدرع فهو من أممائها في اللغة ، وإنما محل العبرة
 أن يلاحظ البحر بيده ليعرف فيعتبر بنو اسرائيل الذين قيل انهم شكوا في غرقه
 ويعتبر القبط الذين عبدوه ، ولذلك قيل ان درعه كانت معروفة وانها من الذهب
 أو كان له فوق درع الزرد درع أخرى من الذهب ، ولكن الدرع تقتضي رسوب الغريق
 في البحر الا ان يحرقه الموج . وأما العبرة لمن بعده فهي أعم : هي ماسيةت القصة
 لأجله من كونها شاهداً كالتى قبلها على صدق وعد الله لرسله ووعيده لأعدائهم
 كطافة مكة التي أنزلت هذه الآيات بل هذه السورة كلها لاقامة حجج الله
 عليهم في هذه المسألة قبل غيرهم ، لانهم أول من بلمته الدعوة ، وقوله تعالى
 ﴿ وإن كثيراً من الناس عن آياتنا لغافلون ﴾ تعريض بهم وأكد هذا التأكيد
 لما تقتضيه شدة الغفلة من قوة التنبيه أي إنهم لشديدو الغفلة عنها على شدة ظهورها ،
 فلا يتفكرون في أسبابها ونتائجها وحكم الله فيها ، ولا يمتدرون بها ، وإنما يمرون
 عليها معرضين كما يمرون على مسارح الانعام ، وفيه ذم للغفلة وعدم التفكير في
 أسباب الحوادث وعواقبها واستبانة سنن الله فيها ، للاعتبار والاتماظ بها . ومن
 العجيب ان يكون أهل القرآن منهم ، كلاً إنه حجة على الغافلين بريء منهم

(١) البيت من قصيدة في وصف المطر نسبت لغير أوس هذا . والعقوة الساحة
 وما حول الدار ، والقرواح بالكسر المكان البارز للشمس والذي لا يمسك الماء

(٩٣) وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مَبُوءَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنْ
الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْعِلْمُ، إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ

هذه الآية خاتمة هذه القصة ومنتهاى العبرة فيها لمكذبي محمد صلى الله عليه وسلم والجاحدين من قومه النفرورين بقومهم وكثرتهم وثروتهم، في موسى والجاحدين لا ياتيه من فرعون وقومه، وقد كانوا أكثر منهم عدداً، وأشد قوة، وأعظم زينة وأوفر ثروة، وسنة الله في موسى ومن قبله واحدة، وقصته كقصه نوح في العاقبة، وأما نصر الله لمحمد نبي الرحمة والنجاز وعده له، قد جرى على وجه أتم وأكل في غايته، وان لم يكن غريباً في صورته، وهو ان الله تعالى أهلك أكثر زعماء أعدائه المشركين، وأخضع له الآخرين، وجعل العاقبة لأتباعه المؤمنين، وأعظم أعظم ملك في العالمين، ومنه ما كان أعطى موسى من قبل وهو فلسطين. قال

٩٣- ﴿ولقد بوأنا بني اسرائيل مبوا صدق﴾ قلنا آتفا ان المبوا مكان الإقامة الامين. وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم به وهو منزلهم من بلاد الشام الجنوبية المعروفة بفلسطين ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ فيه، وهي التي أشير إليها في وصف أرضها من كتبهم بانها تفيض لبناً وعسلاً، وما فيها من الغلات والثمار والانعام، وكذا صيد البر والبحر، وقد بينا من قبل ما كان من وعد الله لهم بهذه الارض المباركة على لسان ابراهيم واسحاق ويعقوب (١) ومن أبلولة هذه الارض من بعدم لذرية ابراهيم من العرب بعد حرمان اليهود منه تصديقاً، لو عيد أنبيائهم لهم على كفرهم بنعم الله تعالى أولاً ثم بكفرهم بعيسى، ثم بمحمد رسول الله النبي الأمي الذي وعدم به على لسانه ولسان من قبله كما تقدم تفصيله في تفسير سورة الاعراف (٢) وأشير إليه هنا بقوله ﴿فما اختلفوا حتى جاءهم العلم﴾

«١» راجع ص ٩٨ - ١١٣ ج ٩ تفسير «٢» راجع ص ٢٢٤ ج ٩ تفسير

على قول بعض المفسرين إن المراد بالعلم هنا محمد ﷺ أو رسالته أو القرآن الذي هو آكل وأتم ما أنزل الله من علم الدين وقوله تعالى في سياق الرد على أهل الكتاب (لكن الله يعلم بما أنزل إليك أنزله بعلمه) وقوله (فاعلموا أننا أنزل بعلم الله) وقوله (بكتاب فصلناه على علم) فقد كانوا متيقنين على بشاراة أنبيائهم به قبل بعثته فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به .

وقال آخرون وهو الاظهر : إن المراد هنا علم الدين مطلقا ، وقد اختلفوا فيه كغيرهم ممن أوتوا الكتب من وجوه فصلناها في تفسير الآية العامة في الاختلاف وهي (٢١٣:٢) وفي الآية ١٩ من هذه السورة وما هي بعيد ﴿إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون﴾ إذ جعلوا الدواء عين الداء في أمر الدين بعد إذ أنزل عليهم الكتاب ليحكم بينهم فاختلفوا في الكتاب بغير بينهم

(٩٤) فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يَهْرَعُونَ مِنَ الْكِتَابِ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٩٥) وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونُوا مِنَ الْخَاسِرِينَ (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٧) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ

هذه الآيات الاربع فذلكه هذا السياق الذي كان ذكروا قصص الانبياء شواهد فيه ، وهي تقرير صدق القرآن في دعوته ووعده ووعيده ، وكونه لا مجال للامتراء فيه ، وبيان الداعية النفسية للكافرين بآياته ، وتوجيه الاعتبار إلى أهل مكة مقرونا بالانذار ، بأسلوب التعريض والتأطاف في العبارة ، على حد : إياك أعني واسمعي يا جاره .

٩٤- ﴿فان كنت في شك مما أنزلنا إليك﴾ أي فان كنت أيها الرسول في

شك بما أنزلنا اليك في هذه الشواهد من قصة موسى ونوح وغيرهما على سبيل
الغرض والتقدير، الذي ذكر على عادة العرب في تقدير الشك في الشيء، لبني عليه ما يفتي
احتمال وقوعه أو ثبوته أصراً أو نهياً أو خبراً ، كقول أحدهم لابنه: إن كنت ابني
فكن شجاعاً أو فلا تكن بخيلاً ، أو فانك ستكون أو ستفعل كذا - بل يفرضون
سؤال الديار والاطلال أيضاً ومنه قول المسيح في جواب سؤال الله تعالى إياه
(١١٦:٥) أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله ؟ قال سبحانه ما يكون
لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته (وهذه الجملة الشرطية محل
الشاهد ، فهو عليه السلام يعلم انه لم يقل ذلك ، ولكنه يفرضه ليستدل عليه بأنه
لو قاله لعلمه الله منه

وبعض العلماء يجري على هذا الأسلوب في شكك تلميذه أو مناظره فيما لا شك
فيه عندهما لبني عليه حكماً آخر . ويجب في مثل هذا أن يكون فعل الشرط بان
التي وضعت للدلالة على عدم وقوعه أو تنزله منزلة ما لا يقع ، دون اذا الدالة على
ان الاصل في فعل شرطها الوقوع ﴿ فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك ﴾
هذا جواب الشرط المقدر قال ابن عباس لم يشك رسول الله ﷺ ولم يسأل ،
وروي مثله عن سعيد بن جبير والحسن البصري قالاه فما لغويا ، وروي عن
قيادة خبراً قال : ذكر لنا ان رسول الله ﷺ قال « لا أشك ولا أسأل » ولم
يسم الصحابي الذي ذكره فهو مرسل ، والمراد بالكتاب جنسه ، أي فاسأل
الذين يقرءون كتب الانبياء كاليهود والنصارى فانهم يعلمون أن ما أنزلناه اليك
من الشواهد حق لا يستطيعون إنكاره ، وقال بعض المفسرين ان المراد سؤال
من آمن منهم كعبد الله بن سلام من علماء اليهود و تميم الداري من علماء النصارى
ولا حاجة اليه ، والآية بل السورة نزلت في مكة ولم يكن أحد من أهل الكتاب
آمن . ومما يؤكد كون السؤال مفروضاً فرضاً قوله ﴿ لقد جاءك الحق من ربك ﴾
فهذه الشهادة المؤكدة بالقسم من ربه ، تحت احتمال إرادة الشك والسؤال بالفعل
من أصله ، وزيدها تأكيداً قوله تعالى ﴿ فلا تكونن من الممترين ﴾ أي من فريق

الشاكين الذين يحتاجون إلى السؤال ، وهذا النهي والذي بعمده يدلان على أن فرض وقوع الشك والسؤال فيما قبلهما عنه تعريض بالشاكين والممتريين والمكذبين له ^{صلى الله} _{عليه وآله} من قومه

٩٥- ﴿ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين﴾
يعني أن كل من كان من المكذبين فهو من الخاسرين الذين خسروا أنفسهم بالحمران من الإيمان وما يتبعه من سعادة الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين ، وإن فرض أنه أول المؤمنين ، محمد رسول الله وخاتم النبيين ، ورحمته للعالمين ، وإن الممتريين الشاكين فيما أنزل اليك كالمكذبين بآيات الله جحوداً بها وعناداً ، كلاهما سواء في الخسران المذكور لحمران الجميع من الاهتداء بها وماله من ربح سعادة الدنيا والآخرة . وهذا النوع من الأمر والنهي للمؤتمر المنتهي والمراد غيره على سبيل التعريض أبلغ من قوله تعالى (٣٤ : ٣٤) وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين ^{٣٤} قل لا تستلثون عما أجرمتنا ولا نثثل عما تعملون) ولكل منهما موقع وتأثير خاص في استمالة الكافرين إلى التأمل والتفكير في مضمون الدعوة

٩٦- ﴿إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون﴾ أي إن الذين ثبتت عليهم كلمة العذاب من ربك وهي كلمة التكوين الدالة على سنته فيمن فقدوا الاستعداد للاهتداء ، لا يؤمنون لرسوخهم في الكفر والظلمات ، واحاطة خطاياهم وجهالاتهم بهم من كل مكان ، وإعراضهم عن آيات الإيمان ، هذا معنى قوله (لا يؤمنون) لا أنه تعالى منعهم من الإيمان منعاً خلقياً قورياً لا كسب لهم فيه ولا اختيار . وهذا معنى الآية ٣٣ من هذه السورة فراجع تفسيرها

٩٧- ﴿ولو جاءتهم كل آية﴾ من الآيات الكونية كآيات موسى التي اقترحوها عليك أيها الرسول ، والآيات المنزلة كآيات هذا القرآن العلية العقلية الدالة باعجازها على كونها من عند الله ، وعلى حقيقة ما تدعوهم اليه وتنذرهم إياه ، ﴿حتى يروا العذاب الاليم﴾ بأعينهم ، ويذوقوه بوقوعهم بهم ، وحينئذ يكون إيمانهم اضطراباً لا يبعد فعلاً من أفعالهم ، « تفسير القرآن الحكيم » « ٦١ » « الجزء الحادي عشر »

ولا يترتب عليه عمل يظهرهم ويذكر أنفسهم ، بل يقال لهم (الآن وقد كنتم به تستعجلون) كما قيل للفرعون (الآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين)

(٩٨) فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا ، إِلَّا يَوْمَ يَأْتِسُ لِمَاءِ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي أَحْيَاؤِهِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ (٩٩) وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مِنَ فِي الْأَرْضِ أَنَّهُمْ سَمِيعًا ، أَفَأَنْتَ تُسْكِرُ الْنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (١٠٠) وَمَا آتَىٰ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِلَّا يَبْذُنَ اللَّهُ وَيَجْعَلُ الرُّجْسَ تَلَىٰ الذُّبُرِ لَا تَحْتَلُونَ

هذه الآيات الثلاث تفريع على اللواتي قبلهن وتكامل لهن في بيان سنة الله في الأمم مع رسلهم ، وفي خلق البشر مستعدين للأموار المتضادة من الإيمان والكفر ، وفي تعلق مشيئة الله وحكمته بأفعاله وأفعال عباده ووقوعها على وقتها

٩٨- ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها﴾ لولا هذه التحضيض كما قال أئمة اللغة والنحو . والمراد بالقرية أهلها وهم أقوام الأنبياء فانهم كلهم بعثوا في أهل الحضارة والعمران دون البادية . أي فهلا كان أهل قرية من قرى أقوام أولئك الرسل آمنتم بدعوتهم وإقامة الحجج عليهم ، فنفعها إيمانها قبل وقوع العذاب الذي أُنذروا به ، أي انه لم يؤمن قوم منهم برمتهم ، فان التحضيض يستلزم الجحد

﴿إلا قوم يونس لما آمنوا﴾ قبل وقوع العذاب بهم بالفعل ، وكانوا علموا بقربه من خروج نبيهم من بينهم وروى أنهم رأوا علاماته ، ويجوز في هذا الاستثناء الاتصال

والانفصال ﴿كشفتنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا﴾ أي صر فباعنهم عذاب اللذ والهوان في الدنيا لان نبيهم خرج بدون إذن الله تعالى له فلم تتم عليهم الحجج ، ولا حقت عليهم كلمة العذاب ، وقد استدلوا بذهابهم مغاضباً لهم على قرب وقوع العذاب

كما أنذرهم فتابوا وآمنوا فكشفنا عنهم ﴿ وتمعنهم إلى حين ﴾ أي وتمعنهم
بمناقضها إلى زمن معلوم هو عمرهم الطبيعي الذي يعيشه كل منهم بحسب سفته تعالى
في استعداد بنيته ومعيشته . وقد فصلنا الكلام في الاجل الذي يسمى الطبيعي
وغيره في تفسير (٢:٦) ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده) من سورة الانعام ^(١)
ولا محل للبحث عن تعذيبهم في الآخرة كما فعل بعض المفسرين فان شهادة الله
تعالى لهم بالايمان النافع ظاهرة في قبوله منهم صريحة ، في أنه لا يعذبهم في الآخرة
على سابق كفرهم ، وانما يجزون بقيره من أعمالهم بعد الايمان

هذا الذي فسرنا به الآية هو المتبادر من عبارتها والموافق لسياق ولسنة الله
تعالى في أقوام الانبياء عليهم السلام . وفيه تعريض بأهل مكة وإنذار لهم وحض
على أن يكونوا كقوم يونس الذين استحقوا عذاب الخزي بعنادهم حتى إذا
أنذرهم نبينهم قرب وقوعه وخرج من بينهم اعتبروا وآمنوا قبل اليأس ، وحلول البأس ،
وسبقني ان شاء الله تعالى ما ثبت من خبره عليه السلام في تفسير سورتى الانبياء
والصافات ، وهو موافق في جملته لما عند أهل الكتاب

٩٩ ﴿ ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً ﴾ أي ولو شاء ربك
- أيها الرسول الحريص على إيمان الناس - أن يؤمن أهل الارض كلهم جميعاً لا يشك
احد منهم لآمنوا ، بأن يلجئهم إلى الايمان الجاء ، وبوجره في قلوبهم إيجاراً ،
ولو شاء لخلقهم مؤمنين طائمين كالملائكة ، لا استعداد في فطرتهم لغير الايمان ،
وفي معنى هذا قوله تعالى (ولو شاء الله ما أشركوا) وقوله (ولو شاء ربك لجعل الناس
أمة واحدة) والمعنى الجامع في هذه الآيات انه لو شاء الله ألا يخلق هذا النوع
المسمى بالانسان المستعد بفطرته للايمان والكفر ، والخير والشر ، الذي يرجح
أحد الامور الممكنة المستطاعة له على ما يقابله ويخالفه بارادته واختياره ، لفعل ذلك ،
ولما وجد الانسان في الارض ، ولكن اقتضت حكمته أن يخلق هذا النوع العجيب

ويجعله خليفة في الارض ، كما تقدم بيانه في قصة آدم من سورة البقرة وفي آيات أخرى ، هكذا خلق الله الانسان منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به كما تقدم

﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ أي ان هذا ليس في استطاعتك أيها الرسول ولا من وظائف الرسالة التي بعثت بها أنت وسائر الرسل (إن عليك الا البلاغ * وما أنت عليهم بجبار) وهذه أول آية نزلت في أن الدين لا يكون بالكراه ، أي لا يمكن للبشر ولا استطاع ، ثم نزل عند التنفيذ (٢٥٦: ٢) لا إكراه في

الدين ، أي لا يجوز ولا يصح به ، وذكرنا في تفسيرها سبب نزولها وهو عزم بعض المسلمين على منع اولادهم كانوا يهودا ومن الجلاء مع بني النضير من الحجاز ، فأمرهم النبي ﷺ بأن يخبروهم ، وأجمع علماء المسلمين على أن إيمان المكروه باطل لا يصح . لكن نصارى الافرنج ومقلديهم من اهل الشرق لا يستحون من افتراء الكذب على الاسلام والمسلمين ، ومنه رميهم بأنهم كانوا يكرهون الناس على الاسلام ويخبرونهم بينه وبين السيف بقط رقابهم ، على حد المثل « رميتي بدانها وانسات »

١٠٠ - ﴿ وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله ﴾ أي وما كان لنفس ولا من شأنها فيما أشير اليه من استقلالها في أفعالها ، ولا مما أعطاه الله من الاختيار فيما هداها من النجدين ، وما أهمها من فجورها وتقواها الفطريين ، أن تؤمن إلا بإرادة الله ومقتضى سنته في استطاعة الترجيح بين المتعارضين ، فهي مختارة في دائرة الاسباب والمسببات ، ولكنها غير مستقلة في اختيارها أم الاستقلال ، بل مقيدة بنظام السنن والاقدار ، فالذمي هو استطاعة الخروج عن هذا النظام العام ، لا الاستطاعة الخاصة الموافقة له ، ومثله قوله تعالى (١٤٥: ٣) وما كان لنفس أن تموت الا باذن الله أي إلا بمشيئته الموافقة لحكته وسنته في اسباب الموت ، فكم من انسان يعرض نفسه للموت شهيداً أو منتحراً بما يتراءى له من أسبابه ، ثم لا يموت بها لنقصها أو لمعارض مناف لها في نظام القدر الذي لا يحيط به علماً إلا الله تعالى ، ومعنى الاذن في اللغة الاعلام بالرخصة في الامراي تسهيله وعدم المانع منه

﴿ ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون ﴾ هذا عطف على محذوف يدل عليه المذكور دلالة الضد على الضد أو النقيض على النقيض ، أي وإذ كان كل شيء باذنه وتيسيره ومشيثته التي تجري بقدره وسنته ، فهو يجعل الاذن وتيسير الايمان للذين يعقلون آياته في كتابه وفي خلقه ، ويوازنون بين الامور فيختارون خيرا الاعمال على شرها ، ويرجعون نفعها على ضررها ، باذنه وتيسيره ، ويجعل الرجس أي الخذلان والحزني الرجح للكفر والفجور ، على الذين لا يعقلون ولا يتدبرون ، فهم لأن رأيتهم ، واتباع أهوائهم ، يختارون الكفر على الايمان والفجور على التقوى . وتقدم في تفسير آيات الحجر والميسر من سورة المائدة وفي الكلام على المناقنين من أواخر سورة التوبة ، أن الرجس لفظ يعبر به عن أقبح الخبث المعنوي الذي هو مبعث الشر والامم

(١٠١) قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَا تُعْبِرُ

الآيَاتِ وَالنَّذِيرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠٢) قُلْ يَنْتَظِرُونَ الْآ

مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ تَخَلَّوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ، قُلْ فَأَنْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ

الْمُنْتَظِرِينَ (١٠٣) ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا ، كَذَلِكَ حَقًّا

عَلَيْنَا نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ

هذه الآيات الثلاث إرشاد للعقلاء الذين يفهمون مما قبلها أن سنة الله تعالى في نوع الانسان ، أن خلقه مستعداً للايمان والكفر ، والخير والشر ، وله الاختيار لنفسه ، وأن الرسول الحريص على إيمان الناس لا يقدر على جعلهم مؤمنين ، لأن الله القادر على ذلك لم يشأ أن يجعلهم أمة واحدة على الايمان وحده ولا على الكفر وحده ، وإنما جعل مدارسهم على حسن استعمال عقولهم باختيارهم في التمييز بين الكفر والايمان ، وما الرسول إلا بشير

ونذيريين الطريق المستقيم للعقل المستنير ، فالدين مساعدا لعقل على حسن الاختيار
 إذا أحسن النظر والتفكير ، والله تعالى يأمر بهما بمثل قواه :

١٠١ ﴿ قُلْ انظروا ماذا في السموات والارض ﴾ أي قل أيها الرسول لقومك
 الذين تمحروا على هدام : انظروا بعيون أبصاركم وبصائركم ماذا في السموات والارض
 من آيات الله البينات والنظام الدقيق العجيب في شمسها وقمرها ، وكواكبها ونجومها ،
 وبروجها ومنازلها ، وليلها ونهارها ، وسحابها ومطرها ، وهوائها وسائها ، وبحارها
 وأنهارها ، وأشجارها وثمارها ، وأنواع حيواناتها البرية والبحرية ، ففي كل من
 هذه الاشياء التي تبصرون آيات كثيرة تدل على علم خالقها وقدرته ، ومشيدته
 وحكمته ، ووحدة النظام في جعلتها وفي كل نوع منها هو الآية الكبرى على وحدانيته
 في ربوبيته وألوهيته ، ثم انظروا ماذا في أنفسكم منها كما قال (وفي الارض آيات
 للذوقين * وفي أنفسكم أفلا تبصرون) إنه يريدكم كل هذه الآيات ثم أنتم تشركون

﴿ وما تعني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ﴾ يجوز في هذه الجملة النفي والاستفهام ،
 والنذر فيها جمع نذير أو إنذار : والمعنى ان الآيات السكونية على ظهور دلائلها ،
 والنذر التشريعية على بلاغة حجتها ، لا فائدة فيهما ولا غنى لقوم لا يؤمنون بالله عن
 الايمان الذي يهديهم إلى الاعتبار بالآيات ، والاستدلال بها على ما تدل عليه
 أكل الدلالة من وحدانية الله وقدرته ، ومشيدته وحكمته ، وفضله ورحمته ،
 والاعتبار بسننه في خلقه ، فإفادة الايمان الاولى توجيه عقل الانسان إلى حسن
 القصد في نظره في الآيات ، والاستفادة منها فيما تزيك نفسه بالعلم والايان ، ويرفعها
 عن أرجاس الامور وسفسافها ، ويهدا تفهم معنى جعل الرجس على الذين لا يعقلون ،
 فليس المراد بالذين لا يعقلون المجانين العاقلين لغريزة العقل ، بل المراد به الذين
 لا يستعملون العقل في أفضل ما هو مستمد له من المعرفة بالله وتوحيده وعبادته ،
 التي تجلبهم أهلا لإتمام نعمه عليهم وكرامته ، بالتزام الحق والعدل ، وإيثار الخير على الشر

١٠٢ - ﴿فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبليهم﴾ أي إذا كان الامر كما قصصنا عليك أيها الرسول من سنتنا في الخلق وما أرسلنا قبلك من الرسل ، فهل ينتظر هؤلاء الكافرون من قومك إلا مثل أيام الذين خلوا من قبليهم أي وقائهم مع رسالهم مما بلغهم مبدؤه وغايته ، أي ما ثم نبي ، آخر ينتظر ﴿ قل فانتظروا أي معكم من المنتظرين ﴾ أي قل لهم منذر أو مهدداً : إذا فانتظروا ما سيكون من عاقبتكم إني معكم من المنتظرين ، على بينة مما وعد الله وصدق وعده للمرسلين ، وان الذين يصرون على الجحود والعماد سيكفون كما انديهم من الهالكين

١٠٣ - ﴿ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا﴾ هذا التعبير من أعجب ايجاز القرآن المعجز الذي انفرد به في العطف على محذوف ، وهو ذكر شيء يدل دلالة واضحة على أمر عام كسنة اجتماعية تستنبط من قصة أو قصص واقعة ، ثم يأتي بجملة معطوفة لا يصح عطفها على ما قبلها من الجمل فيتبادر الى الذهن وجوب عطفها على ذلك الامر العام ، بحرف العطف المناسب للمقام ، بحيث يستغنى به عن ذكره ، وتقديره هنا : تلك سنتنا في رسلنا مع قومهم : يبلغونهم الدعوة ، ويقيمون عليهم الحجة ، وينذرونهم سوء عاقبة الكفر والتكذيب ، فيؤمن بعض ويصر

الآخرون ، فهلك المكذبين ، ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا بهم ﴿ كذلك حقا علينا ننجح المؤمنين ﴾ أي كذلك الانجاء ننجي المؤمنين معك أيها الرسول ونهلك المصيرين على كذبتك ، وعداً حقا علينا لانخلفه (سنة من أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لستنتنا تحويلاً) وقد صدق وعده كما قال

قرأ الجمهور (ننجي رسلنا) بالتشديد من التنجية إلا في رواية عن يعقوب بالتخفيف مختلف فيها . وقرأ الكسائي وحفص ويعقوب (ننجي المؤمنين) بالتخفيف من الانجاء ، والباقون بالتشديد والمعنى واحد إلا أن التشديد يدل على المبالغة أو التكرار ، وهو الأنسب في الاولى لكثرة الاقوام

(١٠٤) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي فَلَا أَعْبُدُ
 الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَلَٰكِن أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم
 وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠٥) وَأَنْ أَقِيمَ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٦) وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ
 مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِن الظَّالِمِينَ (١٠٧)
 وَإِن يَمَسُّكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ ، وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ
 فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ، يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ، وَهُوَ الْغَفُورُ
 الرَّحِيمُ

هذه الآيات الاربعة والاثان اللتان بعد ما ختم للسورة بالنداء العام، في الدعوة
 الى عقيدة الاسلام، أجملت أمرانها وخبرها في خاتمتها، كما فصلت في جملتها . قال تعالى

١٠٤ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِّن دِينِي ﴾ اي إن كنتم في شك من صحة
 ديني الذي دعوتكم اليه ، أو من ثباتي واستقامتي عليه ، و ترجون تحويلي عنه

﴿ فلا أعبد الذين تعبدون من دون الله ﴾ أي فلا أعبد في وقت من الاوقات ،
 ولا حال من الاحوال، أحداً من الذين تعبدونهم غير الله، من ملك أو بشر، أو كوكب

أو شجر أو حجر، مما اتخذتم من الاصنام والاثان ﴿ ولكن أعبد الله الذي يتوفاكم ﴾
 أي يقبضكم اليه بالموت ثم يبعثكم فيحاسبكم ويميز بينكم ، ولا يفعل أحد غيره هذا ولا
 يقدر عليه . وإنما قال (إن كنتم في شك من ديني) وشرطه يدل على الشك في
 شكهم وهو ﷺ لا يشك فيه، لانه نزل دينه منزلة مالا ينبغي أن يشكوا فيه لشدة
 ظهوره ، وتألق نوره ، كما بينا مثله في تفسير (٢٣: ٢) وإن كنتم في ريب مما نزلنا على

(يونس : ص ١٠) تكرير النهي عن الشرك ولا سيما دعاء غير الله ٤٨٩

عبدنا فاتوا بسورة من مثله (الآية وما بعدها . ووصف الله بتوفيقهم دون غيره من صفاته وأفعاله لتذكير كل منهم بما لا يشك فيه من عاقبة أمره وانه سيكون كما وعده في

الدنيا والآخرة ﴿ وأمرت أن أكون من المؤمنين ﴾ الذين وعدم الله بالنجاة من عذابه ، وينصرهم على أعدائهم وأعدائه ، واستخلافهم في أرضه ، وانه لا يجاز بليغ

١٠٥ - ﴿ وأن أقم وجهك للدين حنيفا ﴾ أي أمرت بأن أكون من المؤمنين

وبأن أقيم وجهي للدين القيم الذي لا عوج فيه حالة كوني حنيفاً أي مائلاً عن غيره من الشرك والباطل ، ولكن اختيار هنا صيغة الطالب وفيما قبله الخبر ، ذلك بأن الخبر

هو المناسب لملاقة هذا الامر بالماضي وهو أن يكون من جماعة المؤمنين ، الموعودين بما تقدم من سنة الله في النبيين ، والطالب هو المناسب لملاقته هو وما عطف عليه من النهي

بالحال والاستقبال ، من دعوة هذا الدين الموجهة إلى أهل مكة وسائر الناس (ولا فرق بينهما في الاعراب كما حققه سيديوه وغيره) وإقامة الوجه للدين هنا وفي سورة

الروم (٤٣ : ٣٠) عبارة عن التوجه فيه إلى الله تعالى وحده في الدعاء وغيره بدون التفات إلى غيره ، والمراد به توجه القلب ، وفي معناه (٧٩ : ٦) أي وجهت وجهي

للذي فطر السموات والارض حنيفا) ومثله إسلام الوجه لله في سور البقرة (١١٢ : ٢) وآل عمران (٢٠ : ٣) والذساء (١٢٤ : ٤) وإسلامه إلى الله في سورة لقمان (٢٢ : ٣١)

وكذا توجيه الوجه الحسي إلى القبلة في آياتها وهو الاصل في اللغة ، والمراد به وجهة الانسان ، فمن توجه قلبه في عبادة من العبادات (ولا سيما منح العبادة وروحها وهو الدعاء) الى غير الله فهو عابده مشرك بالله ، وأكده بالنهي عن ضده معطوفاً

عليه فقال ﴿ ولا تكونن من المشركين ﴾ أصحاب الديانات الوثنية الباطلة الذين يحملون بينهم وبين الله تعالى حججا من الوسطاء والاولياء والشفعاء يوجهون

قلوبهم اليهم عند الشدة تصيبهم ، والحاجة التي تستعصي على كسبهم ، ووجوههم وجلتهم إلى صورهم وتماثيلهم في هياكلهم ، أو قبورهم في معابدهم ، ويدعونهم لقضاء حوائجهم إما بأنفسهم وإما بشفاعتهم ووساطتهم عند ربهم ، ثم بين هذا

بالإشارة إلى سببه عند المشركين والنهي عن مثله معطوفاً عليه فقال

١٠٧ - ﴿ ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك ﴾ أي ولا تدع غيره تعالى (دعاء عبادة وهو ما فيه معنى القرية والجري على غير المعتاد في طلب الناس بعضهم من بعض) لا على سبيل الاستقلال ولا على سبيل الاشتراك بوساطة الشفعاء - ما لا ينفعك إن دعوته لا بنفسه ولا بوساطته ولا يضرك إن تركت دعاه ولا إن دعوت غيره ﴿ فان فعلت فانك إذا من الظالمين ﴾ اي فان فعلت هذا بأن دعوت غيره فانك أيها الفاعل في هذه الحال من طقاعة الظالمين لا أنفسهم الظلم الأكبر وهو الشرك الذي فسر به النبي ﷺ قوله تعالى (ان الشرك لظلم عظيم) فانه لما كان دعاء الله وحده هو أعظم العبادة ومحبا - كما ورد في الحديث - كان دعاء غيره هو معظم الشرك ومخه، كما كررنا التصريح به بتكرار تفسير الآيات الناهية عنه ، ومنها في هذه السورة قوله تعالى (١٨) وعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقوله (٤٩) قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً الا ما شاء الله) وقوله قبله (١٢) فاذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً) وقوله في أهل الغلث (السفينة) المشركين عند إحاطة الخطر بهم (٢٢) دعوا الله مخلصين له الدين)

والآيات في هذا المعنى كثيرة متفرقة في السور ، كررت لأجل انتزاع هذا الشرك الأكبر من قلوب الجمهور الأكبر . وقد انتزع من قلوب الذين أخذوا دينهم من القرآن ، وكان جل عبادتهم تكرار تلاوته بالعدو والآصال ، والليل والنهار ، ثم عاد بقضه وقضيضه إلى الذين هجروا تدبر القرآن وهم يدعون الاسلام ، وأكثرهم يتلقون عقائد من الآباء والامهات والمعاننين ، وأكثر هؤلاء من الخرافيين الاميين الجاهلين ، وأكثر القارئين منهم على قلوبهم يأخذونها من كتب مقلدة متأخري المتكلمين الجدلية والمتصوفة الجرافية ، ولا يكاد مسجد من مساجدهم يخلو من قبر مشرف مشيد ، توعد عليه السهرج والمصايح وقد لعن الرسول ﷺ فاعليها ، ويتوجه اليه الرجال والنساء ، في كل صباح ومساء ، يدعون من دون الله من يعتقدون أنهم احياء يقيمون فيها ، ويتقربون اليهم بالهدايا والندور من الاميين ، وبعض ائض

(يونس : ١٠) وتأويل علماء السوء للشرك بالله، ولا يكشف الضر سواء ٤٩١

الاستغاثة والدعاء من المتعلمين، ليكتفوا عنهم الضر، ويهبوا لهم ما يرجون من النفع، ومن أمانهم ووراثتهم عما تم مكورة، ولحى طويلة أو مقصرة، يسمون شركهم الاكبر نوسلا، واستغاثتهم استشفاعاً، ونذورهم لغير الله صدقات مشروعة، وطوافهم بالقبور المعبودة زيارات مقبولة، ويتأولون هذه الآيات الكثيرة بل يحرّفونها عن مواضعها، بزعمهم انها خاصة بعبادة الاصنام، والنذور اللواتن، والتعظيم للصلبان، كأن الاثراك بالله جائز من بعض الناس ببعض الخلوقات دون بعض، ومن البلاء الاكبر على الاسلام والمسلمين بمصر أن أصدرت لهم مشيخة الازهر الرسمية في هذا العصر مجلة رسمية دينية، تفتيهم بشرعية كل هذه البدع الشركية القبورية، سميتها نور الاسلام وألف لهم أحد خطباء الفتنة كتاباً في هذا واطأ عليه وأمضاه له سيمون عالماً من علماء الازهر بزعمه. بل طبع في طرته خواتم بعضهم وتواقع آخريين منهم بخطوطهم وذكّر جميع أمانهم، ولا حول ولا قوة الا بالله وبه وحده المستعان لا نقاذ لاسلام من هذا الضماني. ومنهم من يحتج على نفع هذا الدعاء لغير الله بالتجارب كما يحتج المنوّد الوثنيون والنصارى فهو مشترك الا لزام وقد أبطله الله بقوله

١٠٧ - ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له الا هو﴾ هذه الآية مؤكدة لما

قبلها داخضة لشبهة الدين يدعون غير الله بأنهم طالما استفادوا من دعائهم والاستغاثة بهم فشفيت أمراضهم، وكبت أعدائهم، وكشف الضر عنهم، وأمدى الخير اليهم، يقول تعالى لكل مخاطب بهذه الدعوة الى توحيد الاسلام، بكلام الله وتبليغ محمد عليه أفضل الصلاة والسلام: وإن يمسسك الله أيها الانسان بضر كمرض بصيبك بمخالفة سننه في حفظ الصحة، أو نقص من الاموال والتمرات بأسبابه لك فيه عبرة، أو ظلم يقع عليك من الحكام المستبدين، أو غيرهم من الاعداء المعتدين، فلا كاشف له الا هو، وقد جعل لكل شيء سبباً يعرفه خلقه بتجاربههم، فكشف الامراض بمعرفة أسبابها، وخواص العقاقير التي تداوى بها، وتجارب الاعمال الجراحية التي يزاولها أهلها، فقليلك أن تطلبها من أسبابها، وتكمل أعمالها الى أربابها، وتأتي سائر البيوت من أبوابها، مع الايمان والشكر لمسخرها، فإن جهت الاسباب أو أعياك أمرها، فتوجه الى الله وحده، وادعه مخلصاً له.

٤٩٢ كشف الضر وهبة الخير بيد الله وحده دعوة الاسلام العامة (التفسير: ج ١١)

الدين متوكلا عليه وحده ، يسخر لك ماشاء أو من شاء من خلقه ، أو يشفك من مرضك بمحض فضله ، كما ضرب لك الامثال في هذه السورة وغيرها من كتابه .
﴿ وإن يردك بخير ﴾ يهبه بتسخير أسبابه لك ، وبغير سبب ولا سعي منك .
﴿ فلا راد لفضله ﴾ أي فلا أحد ولا شيء يرد فضله الذي تتعلق به إرادته ، فله شاء كان حتما ، فلا ترج الخير والنفع إلا من فضله ، ولا تخف رد ما يريد .
لك من أحد غيره ﴿ يصيب به من يشاء من عباده ﴾ يصيب بالخير من يشاء من عباده بكسب وبغير كسب ، وبسبب مما قدره في السنن العامة وبغير سبب ، فضله تعالى على عباده عام بعموم رحمته ، بخلاف الضر فانه لا يقع إلا بسبب من الاسباب الخاصة بكسب العبد ، أو العامة في نظام الخلق ، فالاول معلوم كالامراض التي تعرض بترك أسباب الصحة والوقاية جهلا أو تقصيرا ، وفساد العمران وسقوط الدول الذي يقع بترك العدل ، وكثرة الفسق والظلم ، والثاني كالضرر الذي يعرض من كثرة الامطار ، وطقيان البحار والانهار ، وزلازل الارض وصواعق السماء ﴿ وهو الغفور الرحيم ﴾ ولولا مغفرته الواسعة ورحمته العامة ، لأهلك جميع الناس بذنوبهم في الدنيا قبل الآخرة (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويمفو عن كثير * ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة)

(١٠٨) قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ
أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا
أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (١٠٩) وَأَتَّبِعْ مَا يُوْحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ
يُنزِلَ لَكَ الْوَعْدَ الَّذِي لَمْ تُخَبِرْ بِهِ الْكَاذِبِينَ

هذا النداء خاتمة البلاغ للناس كافة ، بمقتضى بعثة الرسول العامة ، وهو إجمال

لما فصل في هذه السورة وسائر السور المباركة

١٠٨- ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ أي قل أيها الرسول مخاطبا

لجميع البشر ، من حضر منهم فسمع هذه الدعوة منك ، ومن سبقه عنك ، وقد

(يونس ١٠) الاهداء والضلال لفاعلمها وأمر النبي بالاتباع والصبر حتى يحكم الله ٤٩٣

جاءكم الحق المبين لحقيقة الدين من ربكم ، يوحيه إلى رجل منكم ، وهو الذي
افتتحت هذه السورة به ، وقد كان هذا الحق مجهولاً خفياً عنكم ، بما جهل بمضكم
عن دعوة الرسل الاقدمين ، وما حرف بمضكم وجهل وبدل وتأول من كتب
الانبياء المتأخرين ، وفصله لكم هذا الكتاب العربي المبين ﴿ فن اهتدى فانما
يهتدي لنفسه ﴾ أي فن اهتدى بما جاء به هذا الرسول في هذا الكتاب الذي
لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فانما فائدة اهتدائه لنفسه ، لأنه ينال به السعادة
في دنياه ودينه ، ودون عمل غيره ، ولا فدائه ولا تأثيره ﴿ ومن ضل فانما يضل عليها ﴾
أي ومن ضل عن هذا الحق باعراضه عن آياته في هذا القرآن ، وحبججه فيه بآياته
في الانفس والآفاق ، فانما وبال ضلاله على نفسه بما يفوته من فوائد الاهداء في الدنيا ،
وما يصيبه من المذاب على كفره وجرائمه في الآخرة ﴿ وما أنا عليكم بوكيل ﴾
أي وما أنا بموكل من عند الله بأموركم ولا مسيطر عليكم فأمرهم على الايمان ،
وأمنكم بقوتي من الكفر والمعصيان ، وليس علي هداكم ، ولا أملاك نفعكم ولا
ضركم ، وانما أنا بشر لمن اهتدى ، ونذير لمن ضل وغوى ، وقد أعذر من أنذر
١٠٩ - ﴿ واتبع ما يوحى اليك ﴾ في هذا القرآن علماً وعملاً وتعلماً ﴿ واصبر ﴾
كاصبر أولو العزم من الرسل على ما يصيبك من الاذى في ذات الله ، والجهاد به
في سبيل الله ﴿ حتى يحكم الله ﴾ بينك وبين المكذبين لك ، وينجز لك ما وعدك ،

﴿ وهو خير الحاكمين ﴾ أي كل من يقع منهم حكم ، لانه لا يحكم الا بالحق ، وغيره
قد يحكم بالباطل لجهله بالحق أو لخالفته له باتباع الهوى . وقد امثل ﷺ أمره ، وصبر
حتى حكم الله بينه وبين قومه ، وأنجز وعده له ولمن اتبعه من المؤمنين ، فاستخلفهم في
الأرض وجعلهم الائمة الوارثين ، مدة إقامتهم لهذا الدين ، فجزاه الله عن أمته أفضل
ما جزى نبياً عن قومه ، وجعلنا من المهتدين بما جاء به من كتاب ربه ، وسنته الميمنة
له ، علماً وعملاً ، وإرشاداً وتعلماً ، وصلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن اتبعه وسلم تسليماً
(تم تفسير سورة يونس بفضل الله وتوفيقه تفصيلاً)

وبليه بيان ما فيها من العقائد والقواعد إجمالاً

الخلاصة الاجمالية لسورة يونس عليه السلام

وفيها ستة أبواب

(جميع آيات هذه السورة في أصول عقائد الاسلام التي كان ينكرها مشركو العرب وهي توحيد الله تعالى ، والوحي والرسالة ، والبعث والجزاء ، وما يناسب هذه الثلاث ويمدها من صفاته تعالى وافعاله وتنزيهه وآياته وسننه في خلقه ، وشؤون البشر في صفاتهم وعاداتهم واعمالهم ، ومحااجة مشركي مكة في ذلك كله ، ولا سيما هداية القرآن والرسول ﷺ والمعبرة بأحوال الرسل مع اقوامهم فهي كسورة الانعام في السور المكية إلا أنها أكثر منها ومن سائر السور إثباتا للوحي والرسالة ، ومحمد يا ما قرآن وبيانا لا عجزه وحقه بته وصدق وعده ووعيده ، وهذه المقاصد والمعانيد مكررة فيها بالاسلوب البديع ، والنظم البليغ ، بحيث يحدث في نفس سامعها وقارئها أروع الافئاع والتأثير ، من حيث لا يشعر بما فيه من التكرير ، وانني أوجز في تلخيص هذه الاصول في أبوابها ، لما سبق في هذا الجزء ، من بسطها في مباحث الوحي من تفسير أول السورة ولا سيما مسائل إعجاز القرآن ، وإثبات نبوة محمد ﷺ التي امتازت بها على سائر السور).

الباب الاول

(في توحيد الله تعالى في ربوبيته والوهيته وصفاته وعظمته وعلوه ، وتدييره لامور عباده ، وتصرفه فيهم وفضله عليهم ورحمته بهم ، وعلمه بشؤونهم ، وتنزيهه عن ظلمهم ، وما لا يليق به من أوهامهم ، وفي آياته الدالة على ما ذكر كله وفيه ثلاثة فصول)

(الفصل الاول في توحيد الربوبية والالهوية)

أجم الآيات في هذا التوحيد الآية الثالثة من هذه السورة التي خاطبت الناس بأن وهم هو الذي خلق السموات والارض أطواراً في ستة أيام أي أزمته ، ثم فيها خلقها وتكوينها فكانت ملكاً عظيماً ، ثم استوى على عرش هذا الملك الاستواء اللائق به ، الدال على علوه المطلق على جميع خلقه ، وإحاطته به بعلمه وقدرته ، وتديير

الامر فيه بمشيئته وحكته ورحمته، بغير حد ولا تشبيه، ولا شريك له في الخلق والتقدير، ولا في التصرف والتدبير، ما من شفيع عنده إلا من بعد اذنه، فله وحده الامر، ويده المقع والضرب

بعد تقرير هذه الحقيقة في توحيد الربوبية قال تعالى محتجاً بها على توحيد الألوهية (ذلكم الله ربكم فاعبدوه) أي فاعبدوه وحده ولا تمبدوا معه غيره بطالب شفاعته ولا دعاء ولا مادونهما من مظاهر العبادة، إذ لا رب لكم غيره، وإنما يجب العبادة لرب العباد دون غيره. واستدل على توحيد الربوبية بما في الآيات ٤ - ٦ من الآيات (الدلائل) الكونية

ثم عاد إلى توحيد الألوهية وهو العبادة الخاصة في الآية (١٨) ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله (ودحض هذا القول منزهاً نفسه عن هذا الشرك

ثم احتج على بطلان شركهم هذا بما في الآيتين ٢٢ و ٢٣ من ضرب مثل لهم يعرفونه بالتجربة، لوقوعه لكثير منهم في أزمنة مختلفة، وهو أنهم إذا ركبوا في الفلك وعصفت بهم الرياح، وهاج بهم البحر وأشرفوا على الهلاك، يدعون الله وحده مخلصين له الدين وينسون عند شدة الخطر ما كانوا يشركون به من الشفعاء والاولياء

ثم عاد إلى التذكير بالآيات الكونية على وحدانية الربوبية في الآيات ٣١-٣٦ وإلى توحيد الألوهية في الآية (٤٩) قل لأملك نفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) ثم عاد إلى التذكير بتوحيد الربوبية في سياق آخر فيبين في الآية ٥٦ أن الله مافي

السموات ومافي الارض. وفي الآية ٦٦ أن الله من في السموات ومن في الارض وان الذين يدعون من دون الله لا يتبعون شركاء الله إذ لا شر كالمه، ما يتبعون إلا الظن والحرص ثم بين في الآيتين ٧١ و ٨٥ ان كمال التوحيد في التوكل على الله وحده

ومن شئون الرب وحقه على عباده التشریح الديني وقدين في الآية ١٥ والآية ١٠٧ ان الرسول متبع لما يوحى اليه عملاً وتبليغاً، لا مشترع مستقل فيه ولا متحول عنه وفي الآيتين ٥٩ و ٦٠ أن جميع ما أنزله الله تعالى لعباده وأنهم به عليهم من أنواع الرزق فهو حلال لهم ليس لاحد منهم حق أن يحرمه عليهم لذاته محرماً دينياً. وان من يحكم فيه بالتحريم والتحليل فهو معتد على حقه تعالى مقرر عليه.

(الفصل الثاني في صفات الذات من العلم والمشيئة والعزة والرحمة)

أما العلم فحسبك من هذه السورة قوله تعالى (١١) وما تكون في شأن) الخ فراجع تفسيرها وتأمل عجائب بلاغتها ، وإحاطتها بعظام الأمور وصفاتها ، وظواهر الأعمال وخفاياها ، وذرات الوجود قريبها وبعيدها جليها وخفيها ، وما تدركه المشاعر وما لا تدركه من خلايا مراكباتها ودقائق بساطها . وتدبر تعلق علم الله تعالى بها كلها ، وكتابته لها من قبل إيجادها ، وشهوده إياك في كل ما تكون فيه منها ، سبحانه وإفماً لك إلى أعلى درجات الإيمان والاسلام والاحسان

ثم تأمل قوله تعالى في الذين يشركون بالله غيره بما يرجون من نفعهم لهم ، وكشفهم الضر عنهم بشفاعتهم عنده تعالى من الآية (٤٩) قل أنبئوني بالله بما لا يعلم في السموات ولا في الارض) تعلم مقدار جهل الانسان وجنابته على نفسه ، بما يقوله على الله تعالى بغير علم ، من تصغير أمر الربوبية والشرك في الاوهية ، بالتوجه في الدعاء والرجاء والخوف إلى غيره تعالى بما هو عين الشرك به كما تقدم آنفاً

وأما صفة المشيئة فتأمل فيها أمره تعالى لرسوله الاعظم في الآية (١٦) قل لو شاء الله ما تلوته عليكم) الخ وفي الآية (٤٩) قل لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً إلا ما شاء الله) تعلم منه قدر إيمانه ﷺ بمشيئته به عز وجل ، ثم انظر قوله تعالى له (٩٩) ولو شاء ربك لآمن من في الارض كلهم جميعاً) تعلم منه كيف شاء الله تعالى أن يخلق المكلفين في هذه الارض مختلفي الاستعداد للإيمان والكفر والخير والشر ، وان ما وهبه من المشيئة والاستطاعة لا عظمهم قدراً وفضلاً لا يمكن أن يخرج عن مقتضى مشيئته وسنته في نظام خلقه ، ويؤكد كده قوله تعالى بعمده (١٠٠) وما كان لنفس أن تؤمن إلا باذن الله) وهو بيان لسنته التي اقتضتها مشيئته في اختيارهم لكل من الإيمان والكفر ، وما يستلزمان من عمل الخير والشر . وفي معناه قوله فيما يصيبهم من ضر ونفع وخير وشر ، وكون كل منهما بالاسباب القيدة بسذنه في الخلق بمقتضى ارادته (١٠٧) وإن يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو) الآية فلا يقدر الاولياء ومن يسمونهم الشفعاء على النفع ولا على الضر من غير أسبابها المشتركة بين جميع الناس ، وإنما يقدر على ذلك واضع السنن والاسباب وحده

والمراد من كل هذه الآيات سد ذرائع الشرك وإعتاق البشر من رقه، باعتمادهم في أمورهم على ما وهبهم من القوى، وطلب كل شيء من أسبابه التي سخرها الله لهم، والتوجه إليه وحده في تسخير ما يهجزون عنه، ومع هذا كله نرى من سرت اليهم عدوى الوثنية من أهلها يتوجهون الى غيره تعالى من الاحياء والاموات المعتدين فيما لا يقدرون عليه بكسبهم وفيما هو من كسبهم أيضا. ولكنهم يجهلون قدرتهم أو قدرة أمثالهم كالاطباء عليه، ويظنون أن معتقديهم المتصرفين في السكون بزعمهم أقرب مثلا، كما بسطناه في تفسير كل هذه الآيات وأمثالها مكررا اتباعا لكتابه تعالى

وأما صفة العزة فليس في هذه السورة ذكر لها إلا قوله تعالى (٦٥) ولا يجوز لك قولهم: ان العزة لله جميعا هو السميع العليم) ومعناها المنمة والقوة التي شأنها أن يقبل صاحبها ولا يقبل على أمره، وينال من خصمه ولا ينال خصمه منه، وكان المشركون يعززون بكسرتهم وقوتهم وثورتهم، تجاه قلة المؤمنين وضعفهم وفقيرهم، فيطمنون في الرسول وفي الاسلام وأهله فيجزونه صلى الله عليه وسلم ما يقولون، فنهاء عز وجل عن هذا الحزن وعلاؤه بأن العزة للحق هي لله وحده، فهو يعز من يشاء، وينذل من يشاء، وقد كتبها رسوله وللمؤمنين كما بيناه في تفسير الآية، وفي هذه الآية ذكر السمع والعلم، لتذكيره صلى الله عليه وسلم ومن اتبعه عن المؤمنين بسمه تعالى لأقوالهم، كحاطته علما بأعمالهم، فهو قد يبر على اعزازه واذلامه وأما صفة الرحمة فقد جاءت مقترنة بالمعفرة في فاصلة الآية ١٠٧ الناطقة

بأنفراده تعالى بكشف الضر وإرادة الخير كما تقدم

وذكرت الرحمة بآثارها ومتعلقاتها في الرزق من الآية ٢١- وفي خصائص القرآن التشريعية من الآية ٥٧ وفيها يعمهما من الآية ٥٨ وفي التنجية من الظلم وحكم الكافرين في الآية ٨٦ فنسأله تعالى أن يعمنا بأنواع رحمته كلها ويحفظنا من الشاكرين

(الفصل الثالث في تقديسه تعالى وتنزيهه وغناه عن كل ما سواه)

نزه الله تعالى نفسه في هذه السورة في مواضع (أولها) أن يكون عنده شفعاء يتغمون من يشفعون لهم أو يكشفون الضر عنهم فيكون لتأثيرهم شرك في أفعاله تعالى - (تفسير القرآن الحكيم) (٦٣) (الجزء الحادي عشر)

وهذه شبهة شرك العرب وغيرهم، وقد فشا في أكثر النصارى وكذا جهلاء المسلمين كما بيناه تكررًا وهو نص قوله في الآية ١٨ (سبحانه وتعالى عما يشركون)

ونزه نفسه عن اتخاذ الولد وهو ضرب من الشرك أيضا بقوله (٦٨ قالوا اتخذ الله ولدا سبحانه هو الغني) الآية

ونزه نفسه عن ظلم عباده في الدنيا والآخرة وبين انهم هم الذين يظلمون أنفسهم في الآيات ٤٤ و ٤٨ و ٥٢ و ٥٤

﴿ الفصل الرابع في أفعاله تعالى وآياته في التقدير والتدبير والرزق ﴾

ونجمها في عشرين مسألة

[١] خلق السموات والارض في ستة أيام أي أزمته يحدد كلا منها طور من أطوار التكوين

[٢] استواؤه تعالى بعد هذا الخلق على عرشه يدبر أمر ملكه والمراد بهذه الآية في هذا الباب أن للعالم في جملة عرشا هو مركز التدبير والنظام العام له [راجع تفسير الآية الثالثة في بيانها وما يحيل عليه في معناها]

[٣] بدء الخلق ثم إعادته في الآيتين ٤ و ٣٤

[٤ - ٦] جعل الشمس ضياء والقمر نورا وتقديره منازل وحكمة ذلك في الآية الخامسة

[٧] اختلاف الليل والنهار في الآية السادسة وبيان حكمة ذلك في الآية ٧٦

[٨] مثل الحياة الدنيا في زينتها وغرور الناس بها وزوالها في الآية ٢٤

[٩] إنزال الرزق من السماء والارض في الآيتين ٣١ و ٩٥

(١٠) ملك السمع والابصار في ٣١ أيضا

[١١] اخراج الحي من الميت والميت من الحي فيها

[١٢] تدبير أمر الخلق في الآيتين ٣ و ٣١

(١٣) كون خلقه للشمس والقمر ضياء ونورا وحسبنا بالحق لاعناء في الآية ٣

[١٤] هدايته تعالى الى الحق ويؤيده ان الظن لا يعني من الحق في الآيتين

٣٥ و ٣٦ وانه ليس بعد الحق إلا الضلال في (٣٢) وانه يحق الحق بكلماته في (٨٢)

[١٥] الله ما في السماوات وما في الارض أي من غير العقلاء في الآية ٥٦

[١٦] الله من في السماوات ومن في الارض من العقلاء في الآية ٦٦

[١٧] الامر بنظر ما في السماوات والارض والاعتبار بهما في الآية ١٠١

[١٨] سرعة مكره تعالى من إحباط مكر الما كرين ، والاملاء للظالمين ،

في الآية ٢١

[١٩ و ٢٠] تسييره تعالى للناس في البر والبحر ، وانجاؤهم من الفرق

بعد اليأس في الآيتين ٢٢ و ٢٣

فهذه الآيات المنزلة ، المرشدة الى النظر في الآيات المكونة ، تدل على
عناية هذا الدين بالعالم بكل ما خلق الله ، وما أودع فيه من الحكم والمنافع للناس ،
ليزدادوا في كل يوم علما بدنياهم، وعرفانا وإيمانا بربهم ، كما رتلوا كتابه ، وتدبروا
آياته (كتاب أنزلناه اليك مبارك ليديره آياته وليتذكر أولوا الالباب)
فسأله تعالى أن يجعلنا من خيارهم وأبرارهم

الباب الثاني

في الوحي المحمدي وهو القرآن *

القرآن من كلام الله تعالى وانما فتحنا له بابا خاصا ولم نذكره في صفاته عز وجل
من الباب الاول لان ما ورد فيه من الآيات ليس من ناحية كونه صفة له ،
بل من ناحية كونه كتابا منزلا من عنده لهداية خلقه ، وعقيدة الايمان يكتبه
تعالى في المرتبة الثانية بين الايمان به والايان برسله ، ونلخص ما يختص بالقرآن
من هذه السورة في عشر مسائل

(١) افتتح الله هذه السورة بالاشارة الى كتابه الحكيم في الآية الاولى منها ،
وتنفي في التي تليها بالانكار على الناس عجبهم من وحيه الى بشر منهم أن يكون هاديا
لم نذير او بشيرا . وقد بينا في تفسير هذه الآية دلالة هذا الوحي باعجاز القرآن
اللفظي والمعنوي وتمنيد شبهات الذين زعموا انه وحي فاض من نفس محمد ﷺ

(*) انما فسرنا بالقرآن لان الله تعالى أوحى اليه غير القرآن أيضا

٥٠٠ إعجاز القرآن وكونه من الله لا من محمد (ص) (التفسير : ج ١١)

وعقله الباطن على لسانه بأسباب واطناب فكان ذلك مصنفًا مستقلًا مستنبطًا من جملة القرآن وعلومه وتأثيره في العالم ، فنشير إلى ما في هذه السورة منه بالأجواز

(٢) في الآية الخامسة عشرة منها اقتراح المشركين على النبي ﷺ أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن أو أن يبدله ، وما أمره الله تعالى أن يجيبهم به من عجزه عن تبديله أو الاتيان بغيره ، وكونه لا يملك من أمره فيه الا اتباع ما يوحى اليه من تليظه والعمل به ، (ومثله في آخر السورة)

(٤٣) في الآية السادسة عشرة انه ﷺ ما بلغهم هذا القرآن إلا بمشيئة الله تعالى وتسخيره ، فلو شاء تعالى أن لا يتلوه عليهم لما تلاه ، ولو شاء تعالى أن لا يدرهم ولا يعلمهم به لما أدرهم ، فهو الذي أقرأه بعدان لم يكن قارئًا (اقرأ باسم ربك ... سنقرئك فلا تنسى) وهو الذي علمه وجعله معلما (وأنزل عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم * ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان ولسكن جعلناه نورا نهدي به من نشاء من عبادنا) الخ

(٥) أنه أيد هذا بالحجة العقلية القاطعة ، وهو أنه قد لبث فيهم عمرا طويلا من قبله وهو سن الادراك والصبا فالشباب حتى بلغ أشده واستوى وبلغ أربعين سنة ، لا يقرأ ولا يقرئ ، ولا يتعلم ولا يعلم ، وقد بينا في تفسيرها (أي الآية ١٦) انه ثبت عند حكماء التاريخ بالتجارب والاستقراء ان جميع معارف البشر الكسبية واستعدادهم للعلم والعمل ، انما يظهران ويبلغان أوج قوتهما من النشأة الاولى الى منتصف العشر الثالث من العمر ، ولا يكون بعده الا التمهين والتكميل ، ومحمد ﷺ لم يظهر منه علم ولا بيان ولا عمل إصلاحى عام ديني أو دنيوي إلا بهذا الوحي الذي فوجى به بعد استكمال الاربعين

وبليها في الآية ١٧ أن أشد الناس ظلما لنفسه من اقترى على الله كذبا أو كذب بآيات الله ، وانه من الجرمين الذين لا يفلحون ، فهل يرتكب هذا الظلم من يعلم هذا ؟ ولماذا يرتكبه ؟ وقد عرف قبحه كبيرا ، بعد أن نشأ على التزام الصدق صغيرا ، واشتهر به وبالوفاء عند المعاشرين ، حتى لقبوه بالأمين ؟

(٦) في الآية الثامنة والثلاثين حكاية عن المشركين (أم يقولون اقراءه)

(يونس : ١٠) الباب ٣ النبوة والرسالة. الفصل الاول في الرسل الاولين ٥٠١

وأمره تعالى لتبنيه بتحديههم بالانتيان بسورة مثله، ودعوة من استطاعوا من دون الله الذي أنزله بهلمه ، ولا يقدر عليه أحد من خلقه ، والا كانوا كاذبين في زعمهم انه افتراء ، اذ لا يعقل أن يقتري الانسان ما هو عاجز كثيره عنه ، وقد بينا في تفسيرها معنى التحدي والعجز وموضوع الاعجاز اللفظي والمعنوي وهل يدخل فيه قصار السور مطلقاً أو مقيداً ؟ (راجع تفسيرها بتجديدها ما لا تجده في غيره)

(٧ و ٨) في الآية ٣٩ ذكر إضرابهم عن التكذيب المطلق الذي يتضمنه ذلك القول الى التكذيب المقيد بما لم يحيطوا بهلمه ، وفي الآية ٤٠ كونهم فريقين منهم من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، وفي تفسير الاولى منهما تحقيق معنى تأويل القرآن وخطأ أكثر المفسرين الذين اطلعنا على كتبهم في فهم التأويل بحمله على التأويل الاصطلاحي عند علماء الكلام والاصول، حاش الامام محمد بن جرير الطبري (٩) في الآية ٥٧ بيان انواع ارشاد القرآن وإصلاحه للبشر وهو قوله (يا ايها الناس قد جاءكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) (١٠) في الآيتين ١٠٨ و ١٠٩ وهما خاتمة السورة خلاصة تبليغ الدعوة وموضوع الاولى في خطاب الناس كافة انه قد جاءهم الحق من ربهم وهم يختارون في الاهتداء به والضلال عنه ، وموضوع الثانية أمر الرسول باتباع ما يوحى اليه تبليغاً وعملاً ، كما تقدم في المسألة الثانية

الباب الثالث

في النبوة والرسالة وفيه فصلان

(الفصل الاول في الرسالة العامة والرسل الاولين وفيه سبع مسائل)

- (١) في الآية الثانية من السورة إثبات وحي الرسالة وأن الرسل رجال من الناس وأن وظيفتهم الانذار والتبشير، وأن الكفار كانوا ينكرون أن يكون البشر رسلاً لله تعالى ، وكانوا يسمون آيات الرسول اليهم سحراً ويسمون سحراً
- (٢) في الآية ١٣ ان الله تعالى أهلك القرون [الامم] القديمة لما ظلموا أنفسهم

بالشرك والاجرام وجاءتهم رسالهم بالبينات الدالة على صدقهم في التبليغ عن الله تعالى ولم يؤمنوا بنجرام باجرامهم

(٣) في الآية ٤٩ ان الرسول لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعا فضلا عن غيره لان هذا لله وحده ، والرسول فيه كغيرهم كما ترى في آيات توحيد

(٤) في الآية ٤٧ ان الله تعالى جعل لكل امة رسولا ، فليست الرسالة خاصة ببني اسرائيل كما يدعون ، ولا بهم وبالغرب كما توهم آخرون ، والشبهة على هذه الكلية ان أكثر اأم الارض وثنية وتوارى عنها عريقة في ذلك ، كقدماء المصريين والكلدانيين والاشوريين والفرس والهند والصين وشعوب الافراج القديمة . وكذا قدماء أمريكا . وجوابها ان جميع هذه الامم لها اديان قائمة على الاركان الثلاثة التي يمت بها جميع الرسل الاولون . وهي الايمان بالله واليوم الآخر والعمل الصالح ، وقد طرأت على كل منها التقاليد الوثنية طروءاً كما بيناه في مباحث الوحي وشواهد ذلك ظاهرة في آخر هذه الامم حتى المسلمين

(٥) في هذه الآية أيضا ان كل رسول عانده قومه قضي الله بينه وبينهم

بالقسط ، والآيات التي بعدها في تكذيب قوم نبينا ﷺ له وستذكر في الفصل الثاني

(٦) من الشواهد على هذا قصة نوح مع قومه في خلاصة دعوته لهم وبإصرارهم

على تكذيبه ، وإهلاك الله إياهم بالغرق ، وأنجاء نوح ومن آمن معه في الفلك ، وجعلهم

خلائف في الارض ، وهي في ثلاث آيات من ٧١ - ٧٣ ويليها آية واحدة في

الرسول الذين بعثوا بعده اجمالا ، ويليها قصة موسى مع فرعون وملئه ، وغايتها

انه تعالى أهلك فرعون ومن أتبع بني اسرائيل معه بالغرق ، وأنجى موسى

وبني اسرائيل وجعلهم خلائف في الارض المقدسة الى حين ، وهي في الآيات

٧٥ - ٩٣ وسنين مافي هاتين القصتين من الفوائد والعبر في قصص الرسل من

تفسير سورة هود (ع . م)

(٧) في الآية ٩٨ العبرة لأهل مكة بقوم يونس بأنهم استحقوا عذاب الخزي

والاستئصال بعنادهم لمحمد رسول الله وخاتم النبيين كما استحقه قوم يونس ، وأنهم

إذا آمنوا قبل وقوع هذا العذاب ينفعهم إيمانهم كما نفع قوم يونس عليها السلام

﴿ الفصل الثاني في رسالة محمد نبينا ﷺ ﴾

وسيرته مع قومه وعاصمة بلاده ونجمل آياته في احد عشر نوعا

(١) في الآية الثانية ان الكافرين أنكروا دعوة نبوته وعجبوا امنها ان كان رجلا منهم يوحى اليه ، وسموا آيته سحراً ونزوه بالقب ساحر مبین ، كما تقدم في الكلام على الوحي وعلى الرسالة العامة في أول الفصل الاول ، والآية نزلت فيه ﷺ وشبهة السحر لا تخيل (أي لا تشبهه من أحوال الامرا اذا أشكل واشتبه) في القرآن كآيات الكونية وانما قالوه تكلفا وعنادا .

(٢) في الآية ١٥ أنهم اقترحوا عليه أن يأتي بقرآن غير هذا القرآن الذي أعجزهم أمره أو أن يبدله ، وفي الآية ١٦ الرد عليهم بما تقدم مفصلا ، وبلهياتا بيد الرد (٣) في الآية ٢٠ اقترحهم عليه ﷺ أن يأتيهم بآية كونية وجوابه لهم وفي الآيتين ٩٦ و ٩٧ أن الذين حقت عليهم كلمة الله . بقدم الاستعداد للإيمان لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية كونية مما اقترحوا وما لم يقترحوا

(٤) في الآية ٣٧ بيان ان هذا القرآن لا يمكن أن يكون مقترى من دون الله ، إذ لا يقدر على مثله أحد من خلق الله ، وأنه تصديق لما تقدمه من دعوة الرسل ، وتفصيل لما أجمل فيما قبله من الكتب ، فهو من رب العالمين لا ريب فيه ، لان محمداً ﷺ ما كان يدري شيئا مما نزل فيه

(٥) في الآية ٣٨ تحدي المشركين الذي قالوا اقترأه وهو مطا لبتم بالانبيان بسورة مثله ، واستماتتهم على ذلك بمن يستطيعون استماتتهم من دون الله تعالى (٦) في الآية ٣٩ الاضراب عن التكذيب المطلق إلى التكذيب بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله وهو ما وعدهم به من العذاب بقسميه الديوي والاخروي (٧) في الآيات ٤٠ - ٥٤ ان من أولئك المشركين من يؤمن به ومنهم من لا يؤمن به ، ومناقشة المكذبين ، ووصف حال من فقدوا الاستعداد للإيمان بحيث لا يفتقرون الدلائل السمعية ولا البصرية ، وإيهام أمر ما وعدوا به من العذاب هل يقع في حياته ﷺ أو بعد وفاته ، وحكمة هذا الإيهام له واستهجاله به ،

وكونهم يؤمنون به عند وقوعه فلا يفهمهم إيمانهم يومئذ - وسؤالهم أحق هو ؟
وجوابهم بالقسم إنه لحق ، لأن وعد الله كله حق ، وفي تفسيرنا له بيان قلة الكذب
في العرب ، واحترام القسم بالله تعالى ، واشتهار النبي ﷺ بالصدق والامانة
فيهم من صفته

(٨) بعد أن أيد الله دعوته ﷺ بقصتي نوح وموسى بالإنجاز مفصلة ، وذكّر
من بينهما بالاشارة المحملة ، أخبره ان الذين يقرءون الكتاب من قبله عندهم علم من
ذلك ، فلو انه كان في شك منه وسألهم لأجابوا إنه الحق من ربه ، وهذا تأكيده
لكونه لا موضع للامتراء به

(٩) كان ﷺ يحزنه تكذيب قومه له وكفرهم بما جاء به فنهاه الله عن ذلك
في الآية ٦٥ وكان يتنمى إيمانهم كلهم فجاءه في الآيات ٩٦ - ١٠١ بيان سنة الله
في اختلاف استعداد الناس للإيمان والكفر ، وأنه لو شاء لجعلهم كلهم مؤمنين ، ولكنوا
غير هذا النوع من خلق الله ، ولكنه لم يشاء واذن لا يقدر الرسول ولا غيره على إكراههم
على الإيمان ، وأن الآيات لا تنفع إلا المستعدين للإيمان والصلاح ، وأن النجاة لرسول
الله ومن آمن بهم بمقتضى سنته تعالى في خلقه

(١٠) ختم السورة من الآية ١٠٤ - ١٠٩ بتجديد الدعوة الى تجريد
التوحيد والعبودية المحض ، وكون الحق قد تبين فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل
فعليبها ، وإنما الرسول ﷺ مبلغ لا وكيل لله متصرف في أمر عباده ، فعليه أن ينتظر حكمه
وهو خير الحاكمين .

(١١) إعلامه تعالى هذه الامة في الآية ١٤ بأنه جعلهم خلانف في الارض
كلها بعد إهلاك أكثر القرون الاولى من أقوام الانبياء المعاندين لرسولهم ،
وتحريف آخرين لأديانهم ونسخه تعالى لما بقي منها ببعثة خاتم النبيين ﷺ
وأنه يختبرهم بهذه الخلافة فيجزئهم بما يعملون فيها ، وأخرنا هذا لانه ثمرة اجابة
الدعوة في الدنيا كأوعدمهم ، وأنجز وعدهم لهم بشرطه في الآية (٥٤: ٢٤) من سورة النور

الباب الرابع

في البعث والجزاء ، و نلخص آياته في بضعة أنواع

(١) في الآية الرابعة ذكر رجوع الناس جميعا الى الله ربهم الذي يبدأ الخلق بأجناسه وأنواعه المختلفة ، ثم يعيده ليجزي المؤمنين الصالحين بالقسط ، والكافرين بما ذكره إجمالا ، وبينافي تفسيرها كونه بالقسط ايضا كما ترى بيانه في النوع (٤) وكون جزاء المؤمنين بضاعف كما ذكر في غيرها

(٢) في الايات ٧-١١ تفصيل لجزاء الفريقين مع تمليل طبيعي عقلي لتأثير الايمان والكفر في الانفس ، وفاقا للقاعدة التي قررناها مرارا من أن جزاء الآخرة أثر لازم لسيرتها في الدنيا ، بجمعها أهلا بطبعها وصفاتها الجوار الله ورضوانه أولسخطه

(٣) في الآيات ٢٣-٣٠ تفصيل آخر موضح بضرب المثل فيه تصریح بالزيادة في جزاء المحسنين عما يستحقون ، وكون جزاء المسيئين بالمثل ، وكون كل نفس تبلو في الآخرة ما أسلفت في الدنيا ، لا ينفع أحد أحدا بنفسه ولا بماله

(٤) في الآيات ٤٥-٥٦ سياق رابع مفتتح بالتذكير بيوم الحشر وتقدير الناس لمدة إيشهم في الدنيا بساعة من النهار ، وخسران المكذبين بلقاء الله ، وتأكيده وعد الله به ، واستبظا لهم له ، واستمجالهم به ، واستنبأهم الرسول : أحق هو؟ وحالم عند وقوعه ، وتمنيهم الافتداء منه بكل ما في الارض ، واسرارهم الندامة عند رؤية العذاب ، والقضاء بينهم بالقسط (وهم لا يظلمون) وهذا الاخير في الآيتين ٤٧ و ٥٤

(٥) في الآيات ٦٢-٦٤ ذكر أولياء الله وهم المؤمنون المقتنون وأنهم لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وان لهم البشرى في الدنيا والآخرة

(٦) في الآيتين ٦٩ و ٧٠ ذكر المقربين على الله وكونهم لا يفلحون ، لهم مناع قليل في الدنيا ، ثم ان مرجعهم الى الله فيذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون

(٧) في الآية ٩٣ عقب قصة موسى مع فرعون وملئه ونجاة بني اسرائيل

بعد هلاكهم ان بني اسرائيل ما اختلفوا حتى جاءهم العلم ، وان الله يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون

اذا عددت هذه الآيات التي أشرنا اليها في البعث والجزاء وجدتها تبلغ زهاء الثلث من هذه السورة ، ولكمك لا تشعر عند ما تقرأ السورة أنك تكرر معنى واحداً فيها يبلغ هذا القدر منها، وإنما يستقر هذا المعنى في قلبك ويعملوه إيماناً ببقاء الله تعالى والخطوف من حسابه وعقابه ، والرجاء في عفوه ورحمته وثوابه، وما كان التكرار إلا لأجل هذا ، فهل يستطيع أبلغ البشر أن يأتي بكلام كهذا؟ لا لا

الباب الخامس

في صفات البشر وخلائقهم وعاداتهم وما يترتب عليها من أعمالهم
وسنن الله فيها وهي نوعان

﴿ النوع الاول الصفات الذميمة التي يجب معالجتها بالتهذيب الديني ﴾

(الاولى المعجل والاستعجال) قال الله تعالى [٣٧: ٢١ خلق الانسان من عجل] وقال [١١: ١٧ وكان الانسان عجولاً] ومن شواهد هذه الفرقة في هذه السورة قوله تعالى [١١] ولو يعجل الله للناس الشر استعجالهم بالخير لقضي اليهم أجلهم [ومنها استعجالهم بالعذاب الذي وعدهم الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ كما تراه في سياقه من الآيتين ٥١ و ٥٠]

(الثانية الظلم) قال تعالى [٣٤: ١٤ إن الانسان لظلم كفار] وقال في آية الامانة [٧٢: ٢٣] وحملها الانسان انه كان ظلوماً جهولاً [ومن الشواهد على هذه الخليفة أو الشيمة في هذه السورة ما تراه في الآيات ٤٤ و ٨٥ و ١٠٦]

(الثالثة الكفر بالله وبمنه) قال تعالى في وصف الانسان من سورته سورة الدهر [٣: ٧٦] إنه هديناها السبيل إماشاً كراً وإما كفوراً [ووصفه بالكفور في سور الاسراء والحج والشورى، وبالكفار (بالفتح للمبالغة) في سورة ابراهيم و ذكرت آفاه. ولكن ذكر الكفر بلفظه ومشتقاته في هذه السورة قليل . ذكر في الآية الثانية الكافرون بالوحي والرسالة ، وفي الآية الرابعة جزاء الذين كفروا في الآخرة

بكفرهم ، و ذكر في الآية ٨٦ . في دعاء بني اسرائيل بالانجاة من حكم الكافرين .
وأما ذكره بالمعنى فهو كثير فيها فمنه ما هو بلفظ التكذيب وعدم الرجاء
ببقاء الله ، وما هو بلازمه من الفسق والاجرام والبغي والظغيان والاستكبار ، وكذا
الظلم الذي خصصناه بالذكر

(لرابعة الشرك بالله تعالى) وهو عادة صارت وراثية في الامم ، و ذكر
في الآيات ١٨ و ٢٨ و ٣٤ و ٣٥ و ٦٦ و ٧١ وهو أخص من كل ما تقدم
(الخامسة الجهل واتباع الظن والحرص) الاصل في هذه الخليفة أن الله تعالى خلق
الانسان جاهلا لا يعلم شيئا من ضروريات حياته حتى ان غرائزه الخلقية أضعف من غرائز
الحشرات والعجاوات ، وجعل عماد أمره على التربية والتعليم التدريجي ، ونصوص
القرآن في هذا معروفة كقوله [١٦ ، ٧٨] والله أخرجكم من بيوت أمهاتكم لآلئكم لئلا تعلمون شيئا]
وآية الامانة وتقدم ذكرها في الظلم . والنص الصريح في هذه السورة قوله تعالى [٣٦]
وما يقع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يفي من الحق شيئا] وقوله [٦٦] إن يبيعون
إلا الظن وإن هم إلا يخوضون]

(السادسة الطبع على القلوب) والاعراض عن آيات الله في خلقه مما يدرك بالسمع
والابصار ، حتى لا تعود تقبل ما يخالف تقاليدها الموروثة والراسخة بمقتضى العمل وهو
نص قوله تعالى [٧٤] كذلك نطمع على قلوب المعتدين] فهو صريح في كونه نتيجة معلولة
لاعتداه حدود الفطرة السليمة كما تراه مفضلا في تفسيرها لا كما يفهمه الكثيرون
من الجبرية والقدرية الصحاء والمتأولين . وغاية هذه النتيجة القلبية النفسية في
اللدنيا الحرمان من الايمان بمقتضى كلمة الله في نظام التكوين ، وما بينه من كلمة
التكليف ، لعدم الانتفاع بالآيات المرشدة للفطرة الى الهداية ، وهو ما تراه في
الآيات ٣٣ و ٦٦ - ١٠١

(السابعة الغرور والبطر بالرخاء والنعم) فهم في أثنائها يمكرون في آيات الله
ويشركون به ويبغون في الارض حتى اذا أصابتهم الشدائد تذكروا واخلصوا
في دعائه فإذا كشفها عنهم عادوا الى شركهم وفسادهم ، كما تراه في الآيات

(النوع الثاني . الغرائز والصفات المحمودة)

نزلت هذه السورة في أوائل ظهور الاسلام بمكة وأكثر أهلها مشركون معاندون كافرون ظالمون مجرمون جاهلون، مستكبرة رؤساؤهم، مقلدة دهاؤهم، فكان مقتضى هذا تقديم الانذار فيها على التبشير كما تراه في أولها، ولهذا كان أكثرها في بيان الصفات والخلائق والعادات الفبيحة الضارة وهو النوع الاول في هذا الباب، وكان النوع الثاني مما يعلم أكثره بالاستنباط، وكون أصل غرائز الانسان الاستعداد للحق والباطل والخير والشر، وكونه مختاراً في كل منهما، وكونه فطر على ترجيح ما يثبت عنده أنه خير له بالدلائل العقلية، أو التجارب العملية، وكون الدين مؤيداً للعقل، حتى لا يغلب عليه الهوى والجهل

فتأمل الاصل في تكوين الادمي ووحدتها في فطرتها ثم طرأ الاختلاف عليها في الآية ١٩ - ثم انظر في مقدمة الدعوة العامة الى الناس كافة في آخر السورة من الآية ٩٩-١٠٣ وهي صريحة في استعدادهم المذكور، وكونه اختيارياً لا إكراه فيه، وتمبيره عن سنة الله في ترجيحهم الرجس على تزكية النفس بجعله على الذين لا يعقلون، ولا يهتدون بآيات الله في السموات والارض، ولا يعتبرون بسنته فيمن قبلهم من أقوام الرسل، وكيف كانت عاقبتهم وعاقبة ارسل ومن آمن معهم ثم تأمل خلاصة هذه الدعوة من خطاب الناس في الآية ١٠٤ الى آخر السورة من إقامة الحجة على المشركين الشاكين في دين الرسول ﷺ وكون الشك جهلاً، وكونهم إنما يعبدون وهماً، وكون ما يدعوه اليه هو مقتضى الفطرة الحنيفية، وكونهم يمدون من لا يملك لهم نفعاً ولا ضرراً، وكون ما جاءهم به هو الحق، وكونهم مختارين في الاهتداء والضلال، وكون ما يختارونه إما لأنفسهم وإما لعليها، وكونه ﷺ ليس موكلاً بهديتهم ولا مسيطراً عليهم

وهذه الخلاصة اجمالاً لما تقدم تفصيله في هذه السورة وغيرها، فارجع الى تذكيرهم بالدلائل السكونية في الآية الثالثة التي تشير الى أنها معروسة في أعماق أنفسهم، وبالذلائل العقلية بقوله في الخامسة [يفصل الآيات لقوم يعلمون] وفي السادسة-

[لقوم يتقون] وخطابه في الآية السادسة للعقل بقوله [أفلا تعقلون] وفي الحادية عشرة للفكر بقوله (كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) ثم ارجع الى قوله بمد إقامة طائفة من الدلائل العلمية الكونية (٣٥ قل هل من شر كائكم من يهدي الى الحق - ٣٩) ثم الى بيانه لهم مافي القرآن من أصول التزكية والتهديب الاربعة في الآية ٥٧ وما بعدها - وقد تقدم تفصيل ذلك وما في معناه في الفصول السابقة

الباب السادس

في الاعمال الصالحة التي هي الركن الثالث مما جاء به الرسل (ع . م)

وما يقابلها من الأعمال العامة ، وأخرناه لانه الثمرة والنتيجة وهو قسمان

(القسم الاول الاعمال الصالحة)

(١) قوله تعالى في الآية الرابعة (ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط) والصالحات ما تصلح به أنفس الافراد ونظام الاجتماع في البيوت والامة والدولة هذا هو الركن الثالث مما جاء به جميع رسل الله مجعلا ، وقصل في كل ملة بمحسب ما كان من الاستعداد فيها ، وكل عمل من العبادات الدينية أو المعاملات المدنية والسياسية لا يؤدي الى الصلاح أو الاصلاح فهو غير صالح ، فاما فاسد في أصله ، وإما أدني على غير وجهه

(٢) قوله تعالى (٩ ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم) وقد بينا في تفسيرها علاقة الايمان بالعمل الصالح وكون كل منهما يمد الآخر ويستمد منه ، ومن لم يققه هذا ويتوخه لم يققه في دينه ، ولم يكن به صالحا يستحق الجزاء الذي وعد الله به في هذه الآية وما قبلها ، وفي أمثالها من طول السور ومثيها ومفصلها حتى أقصرها (وهي سورة والمصر) ويؤيد هذا اتحاد الايمان والاسلام في الماصدق وان اختلفا في المفهوم كما ترى في الآيتين ٨٤ و ٩٠ ففهوم الايمان التصديق الاذاعي الجازم بما جاء به النبي ﷺ من الدين وهو يستلزم العمل به

ومفهوم الاسلام التسليم والانقياد بالفعل وهو العمل بمقتضى الايمان ولا يصح فيكون اسلاما الا به،

(٣) قوله تعالى (٢٦) للذين أحسنوا الحسنى وزيادة) ظاهر في دلالة الزيادة على

ما ورد في القرآن من مضاعفة هذا الجزاء

(٤) قوله تعالى في التعريف بأوليائه (٦٣) الذين آمنوا و كانوا يتقون)

فالتقوى جماع الاعمال الصالحة الحسنة مع اتقاء الاعمال الفاسدة السيئة كما فصلناه

في مواضع من هذا التفسير أبسطها وأظهرها تفسير قوله تعالى (٢٩:٨) ان تقوا الله

يجعل لكم قرآنا (الآية

(٥) قوله حكاية لوصية موسى لقومه (٨٧) وأقيمو الصلاة وبشر المؤمنين)

القسم الثاني في السيئات وفي الاعمال المطلقة بقسميها

(٦) قوله تعالى في منكري البعث والجزاء الراضين المطمئنين بالحياة الدنيا

وحدها غافلين عن آيات الله فيها (٨) أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون)

(٧) قوله فيمن يعبد الله على حرف فيدعونه في الضراء ويذسونه في السراء

(١٧) كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون)

(٨) قوله بعد بيان بني الناس في السراء وغرورهم بمتاع الحياة الدنيا وكون

وباله على أنفسهم في الآيات ٢١ - ١٣ وهي بمعنى ما قبلها (٢٣) ثم الينا صر جمعكم

فنبشكم بما كنتم تعملون)

(٩) قوله (١٥) ان أتبع إلا ما يوحى الي إني أخاف إن عصيت ربي عذاب

يوم عظيم)

(١٠) قوله (٢٧) والذين كسبوا السيئات جزاء سيئة بمثلها (الآية

(١١) قوله في الآية (٥٢) ثم قيل للذين ظلموا ذوقوا عذاب الخلد هل

يجزون الا بما كنتم تكسبون)

(١٢) قوله في الآية (٨١ ان الله لا يصلح عمل المفسدين)

(١٣) قوله تعالى في الاعمال المطلقة بقسميها (١٤ ثم جعلناكم خلائف في

الارض من بعدهم لننظر كيف تعملون)

(١٤) قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضا (٤١ وان كذبوك فقل لي عملي

ولكم عملكم انتم بريئون مما اعمل وأنا بريء مما تعملون)

(١٥) قوله تعالى بمعنى ما قبله أيضا (٦١ ولانعملون من عمل الا كنا عليكم شهودا

اذ تفيضون فيه)

(١٦) قوله في الوصية العامة من الدعوة العامة من خاتمة السورة (١٠٨ فمن

اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل)

فنسأل الله عز وجل أن يصلح أعمالنا ، ويجعل خيرها خواتيمها ،

وهذا آخر ما نختم به خلاصة هذه السورة البليغة ، ونضرع اليه عز وجل أن

يوفقنا لاتمام تفسير كتابه الحكيم مطولا ومختصرا ، مفصلا ومجملا ، كما يجب

ويرضى من بيان الحق ، وهداية الخلق ، وله الحمد والشكر في كل فائحة وخاتمة

وصلى الله وسلم على نبي الرحمة وآله وصحبه ، والمهتدين به من خلقه

قد جعلنا آخر هذه السورة آخر الجزء الحادي عشر

وقد تم طبعه في شهر المحرم سنة ١٣٥٣ للهجرة الشريفة

الجزء الحادي عشر

من

تفسير القرآن الحكيم

الشمس تفسير الناز

الطبعة الأولى صدرت سنة ١٣٥٣

مطبعة المنار بمصر

تفسيحات

للمراجعين في هذا الفهرس

(١) قد روعي الترتيب الهجائي في حروف الكلمة الاولى وفي الكلمة الثانية والثالثة اذا كانت حروفها مماثلة للكلمة التي قبلها ، وأهملت حروف الجر والعطف والتعريف

(٢) ان ترتيب الكلمات، هو على حسب النطق لا المادة وجعلنا للمعاني

المهمة عدة ألفاظ تدل عليها ككلمات الدعاء والشفاعة والاولياء في عبادة غير الله تعالى

(٣) اننا وضعنا للآيات المفسرة في الجزء فهرسا خاصا جعلنا فيه عن يمين

كل آية عددها من السورة وعن يسارها رقم الصفحة التي بدى فيها بتفسيرها

الاستغناء عن بيان عدد الصفحات كما أحلنا القارى اليها لمراجعتها

(٤) اننا نعمد في عدد الآيات على المصحف الرسمي لوزارة المعارف

المصرية فن رأى في مصحف آخر أو كتاب عدد آية مخالفا له وأراد مراجعتها

في تفسيرنا فليعتمد على عددها عندنا

وقع في السطور ١٥ و ١٦ و ١٧ من الصفحة ٦٢ خطأ فتصحح كما يأتي :

ويؤخذ من هذا قاعدة هي ان أحكام الاسلام العامة التي عليها مدار الجزاء

في الآخرة وبكاف العمل بهما كل من بلغته ان كانت من الاحكام الشخصية

التي خوطب بها أفراد الامة كلهم، وينبغيها أئمتها وأمرؤها فيها، هي ما كانت قطعية

الدلالة ببيان من الله الخ

الفهرس الاول الأبدى لمواد الجزء الحادى عشر من تفسير المنار

صفحة	صفحة
٢٨٧	آثار الخلفاء الراشدين في سلطة الامة ٢٦٦
٤٠٩	آجال الامم ٣٩٠
٢١٠	آيات القرآن : حكمة مزج العقائد والحكم والاحكام وغيرها فيها وإعجاز القرآن بهذا الاسلوب ١٩٧
٢٩٥	الاستواء على العرش ١٩٧
٤٧٤	الاسرائيليات : تشويها للتفسير في جعله هو آية نبوة محمد (ص) ٣٣٢
٢٧	الاسلام لإصلاحه المالى وقواعده فيه ٢٧
٢٦٧	« أصوله التشريعية الاساسية ١٦١-١٥٥
الاعتقادية والتعبدية العامة ٢٤٣ و ٢٤٤ و ٢٢٣	» فوائدها في الايمان وسعة العلم والحضارة ٢٤٢
القطعية وأحكامه الاجتهادية ٣٦٤	» التي اقترحت على النبي ٣٣٠
امتيازه على الاديان بالزكاة ١٢٢	» عندنا وعند أهل الكتاب ١٥٥
حججه وصفات أهله ١١٤	» آياته تعالى في خلقه نوعان ٢٢٣
حرية الاعتقاد فيه ١٣٩	» تفصيلها للعقلاء ٣٠٤
حقيقته وما طرأ عليه ٤٤١	» في خلق النيرين ٣٠٣
حكمة السياسي ٢٢٦ و ٢٥٩ و ٢٦٤	» في الليل والنهار ٤٥٤
» في الغنى والمال ٢١٨	» الكافرون بها نوعان ٢٢٨
» خلاصة ما في سورة التوبة من عقائده وأحكامه وسياسته ٩٨-١٤٠	» آيات المسيح والشبهات عليها ٢٣٤
» ما في سورة يونس منها ٤٩٤-٥١١	» موسى ٢٣٣
» دين الفطرة والعقل والفكر الخ ٢٤٤	» نبوة محمد (ص) ١٥٩ و ١٩٥ و ٢٣٩
» سياسته في المنافقين والكفار ١٣٣	» اراهم (ص) استغفاره لايه ٥٩
» صفته ومدخله وأصوله ١١٥	» أبوطالب : ما نزل في استغفار النبي له ٥٧
» ضعفه . حكومته ولفته ٢٥٩	» أبو عامر الراهب القاسق : قصته ٤١ و ٤٠
» مزاياه العامة ١٢٢ و ١٦١ و ٢٦٣	» ابولهب : حكمة تخصيصه وامرأته بالذم ١٣٠
» مضلة التفريق فيه ٤٤٢	» الاجتهاد : قواعده ٢٦٨ و ٣٦٥ و ٤١٠
» قيام دعوته بالقرآن ٢٠٤	» الاحاديث في الرحمة ٤٠٣
» كونه الدين الوحيد الذي ثبت كتابه وتاريخ نبيه بالتواتر ١٦١	» الاحاديث في الاولياء ٤١٩
» وسط بين اليهودية والنصرانية ٢٩	» لاحكام تعلقها بالاعمال لا بالاشخاص ٥
» هو العلاج لفساد الامم والدول ٣٦٦	» اختلاف البشر عند وحدتهم ٣٢٨

صفحة	صفحة
٢٧٦-٢٧١	الأعراب: منافقهم ومؤمنهم ١٢-٨
١٧١	الأعمال خيرا وشرها ٥٠٩
٣٨٩ و ٢٢٠	الأقطاب الاربعة ٤٤٢
٥٠٢ و ٤٩٥	الله تعالى، إنقائه كل شيء خلقه ٢٣٧
٤٦١	« استواءه على عرشه وتدييره ٢٩٤
٣٢١	« أسماؤه وصفاته ٩٨ و ٢٠٩ و ٤٩٦
٢١٧	« أفعاله وأفعال عبادته ١٠١-١٠٣ و ٤٩٨
٥٠ و ١٤	تأويل صفاته وآياته ٤٤٦ و ٣٧٣ و ١٠٠
١١٨	« تقديسه وتزيينه ٤٩٧ و ٤٩
٢٦٤	« التمييز بين ماله وحده وماله ولرسوله ١٠٦
١٣٥	رجوع الناس إليه ٤٥٧ و ٢٩٤
٢٣٢	« حبه تعالى ورضاه وكرهه وسخطه ١٠٠
٣٤٥	« رحمته ٤٠٤ و ٤٩٧
٢٦٤	« سذنه في أفعاله (راجع سننه)
	الشرك به (راجع أولياء ودعاه وشفاعة)
٤١٦	« صرفه المنافقين عن القرآن ٨٥
٣٣٨ و ٢٢٩ و ٢٢٦ و ٦	« الفرح بفضله وبرحمته ٤٠٥
٤٥١-٤٢٠ و ٣٩١	« قضاؤه وقدره ٢٠٣
٤٥١	« مراقبته لعباده وإحاطة علمه ٤١٢
٤٢٠	« معيته لعباده ٩٩ و ٨٠
١١٧	« وجوب شكره وهو درجات ٤١١
٢٧٥	الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ٥٤
٩٦ و ٨٥	الامر والنهي لمن يراد التعريض بغيره ٤٨٠
٣٩٣	الامر آجالها ٣٩٠
٢٤٢	« اختلافها بعد وحدتها ٢٣٨
٢٠٨	« إهلاكها بالظلم ٣١٥ و ٢٧٠
٢١١	« الحكم لها في الاسلام ٢٦٤
٣٧٨	« الأمة لا تجتمع على ضلالة ٣٤
٤٨٣	الامهات . الوصية بين ٢٨٧
٣٠٧	الاموال أنواعها الشرعية وأحكامها ١٢١
	« كونه سبب الهداية للعمل ٣٠٧

صفحة	صفحة
٤٧٤	ب
٧٧	الباب والبهاء
٣٧٩ و ٣٦٤ و ٢٥٢	الباطل - رده بمثله
٦٦ - ٧١	بدء الله تعالى الخلق ثم اعادته
١١٠ و ٦٣	البدع - تلقبها من العوام والكتب
٣١	البدعة - ردها بمثليها
	بحيرا الراهب
	البشارات والذفر في سورة التوبة
٢١٠	البصيرة - فقدتها كفقده البصر
٢٠٨	البعث بالروح والجسد لأنه بشري
٢٠٩	« المنكرون له كالعاقلين عنه
٧	« والجزاء في ملل الانبياء ٢١١ و ٥٠٥
	البعثي - عودته على الباغي وعقابه
	البنات - الوصية بين
	بنو اسرائيل والعرب - الفرق بينهما
	بنو هاشم - فضلهم على سائر قريش
	البهاائم : الرحمة والرفق بها
	ت - ث
	التائبون - المغفرة والرحمة لهم
	« وأصنافهم
	تأويل صفاته تعالى ١٠٠ و ٣٧٢ و ٤٤٦
	« النصوص لتوافق النظريات
	تبوك - غزوتها
	التجاني - ولايته الشيطانية وغلوه في
	نفسه وأوراده ٤٢٦ - ٤٣٢
	التحريم - حق الله وحده
	تسبيح أهل الجنة
	الشرع - حقه تعالى وقواعده ٤١٠ و ٤٩٥
	التصرف في الكون ٢٢٦ و ٢٢٩ و ٣٣٨ و ٣٩١
	(وراجع أولياء ودعاء)
	التفسير - تشويه الاسرائيليات له
	التفقه في الدين والغزو
	التقليد - ذمه وبطلانه ٢٥٢ و ٣٦٤ و ٣٧٩
	التوبة على الثلاثة الذين خلفوا
	« النبي والمؤمنين ٦٣ و ١١٠
	« قبول الله لها
	التوحيد - إصلاح الاسلام الديني
	والمديني به
	« - تأثيره في سلف المسلمين
	« - تكرار آياته
	التوسل البدعي والتوسل الشرعي
	الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك والآيات
	والحديث في نزول توبتهم والعبرة بها ٦٩ - ٧١
	الثورة البشرية التي أحدثها القرآن ١٩٨
	ج
	الجامعة الاسلامية وأركانها
	جان دارك - شبهة على الوحي
	الجبر والكسب وأفعال الله تعالى
	الجزاء في الآخرة أنرطبيعي للعمل
	٢١٨ و ٢٩٩ و ٣٥٠ و ٣٥٤ و ٥٠٥
	جزاء الحسنات والسيئات بمثليها
	الجزية - أحكامها
	« وكونها غاية للقتال لاعلة
	الجنة : تسبيح أهلها وتحيتهم وأول
	كلامهم وآخره ٣٠٨ و ٣٠٩
	« وجوه أهلها في الآخرة
	الجهاد - أحكامه ١٢٣ - ١٢٨
	« - الجزاء على أصغراعماله ٧٥
	« - الجمع بينه وبين التفقه في الدين ٧٧

صفحة	صفحة
١٣٦	ح
حكمة معاملة المنافقين كالمسلمين	الحامدون لله
الحكومة الاسلامية شكلها الشوري	٥٢
الديموقراطي وضعف الاسلام بتركها	٤٣
٢٢٦ و ٢٥٩ و ٢٦٥	حب الله ورسوله والكفر بهما
٣٠٩	١٠٥
الحمد لله آخر كل مطلب وكل حالة لاهل الجنة	٤٥٠
٣٤٧	٧١
الحياة الدنيا المثل البليغ لها	حديث - توبة الثلاثة الذين خلفوا
٣٠٦	٢٥٨
» جزء الراضين بها	» كل من تكلم بالعرية فهو عربي
٣٥٦	٥٤
الحبي : إخراجها من البيت وعكسه	حدود الله حفظها
حياة محمد (راجع كتاب)	الحرب - حكماها وإصلاح الاسلام
٤٠٣	٢٨٢-٢٧٦ و ١٢٨-١٢٣
الحيوان . الرفق والرحمة به	لمفاسدها
خ	٢٧٧
خديجة (رض) وشأنها مع النبي (ص)	» خطرهما في زماننا
١٧٥	٢٧٩
الخلق بدؤه ثم إعادته	» الغرض منها وتيجتها
٢٩٨ و ٢٦٠	٢٨٠
خلق السموات والارض في ستة أيام	» قاعدة إيثار السلم عليها
٢٩٥	٢٧٩
خلافة الارض للمؤمنين	» المفروضة شرعا
٤٦٢ و ٣١٦	٢٨١
الخوارق أنواعها ومباحثها	» الوفاء بالمعاهدات فيها
٢٢٣ و ١٥٥	٦٣٩
» تأثيرها في الامم والافراد	حرية الدين وأصوله فيها
١٦٠	٤١٦
» الحقيقية والصورية الكسبية	الحزن نفيه عن أولياء الله ومن هم؟
٢٣٢ و ٢٢٥	حسن صدق . انكاره للشرك بدعاء
» عند صوفية الهندوس	٣٣٩
٢٣٠	الاولياء والمشايخ
٤١٦	الحسنات والسيئات . جزاؤهما
ل	٣٥٠
الدسوقي وقول الشعرائي فيه	الحق، زواله من عقول أوربية
٤٢٢	» هداية الله واليه
دعاء غير الله شرك	٣٦٦
٢٠٨ و ٢٤٤ و ٣١٣	٣٦١
٣٢٣ و ٣٣٨ و ٣٤٦	٢٨٣
الدنيا قلة متاعها	حقوق النساء في الاسلام
٤٥٧	٢٤٨
الدين أركانه الثلاثة وإصلاح الاسلام لها	الحكمة والعلم وتعظيم القرآن لشأنهما
أفسده أهل الكتاب فيها ٢٠٧ وأولها	حكمة الابهام في (إمامة نبيهم وإمامة
الايان بالله ٢٠٨ ثابتيها الايمان بالبعث	٣٦
	يتوب عليهم
	حكمة أسلوب القرآن المزجي بتفريق
	المعاني في الموضوع الواحد ٣٧ و ١٩٧
	حكمة تخصيص انبياء وأمراته بالذم ١٣٠
	حكمة الجمع والتفريق بين السور ١٤٢

صفحة	صفحة
٥٢	والجزء ٢١١ ثالثها العمل الصالح ٢١٥
١٣	« بطلان الاخذ بالكشف فيه ٤٤٧ »
٩٤٥	« تحكيم نظريات العقل والكشف فيه ٤٤٣ »
٩٤٥	« ترقى العلم به وإسعاد البشر بالجمع بينها وضمده ٢٤٢ »
١٠٠	« التفقه فيه معناه وغايته ٧٨ »
٣٧٨	« ثبوت أصوله وأحكامه العامة بالادلة القطعية دون الظنية ٣٦٤، ٦١، ٤٥٦، ٣٧٩ »
١٧١	« حرية وأصوله الثلاثة فيها ١٣٨ »
٢٨٠	« الحرية ومنع الاكراه والسيطرة فيه ٢٥٤ »
١٠٣-١٠١-٨٩ و ٩٥ و ٢٣٧ و ٤٦٤ و ٥٠٧	« درجات الناس فيه علما وعملا ٢٦٣ »
٤٨٧	« مزاياه العشر في الاسلام ٢٦٣-٢٦١ »
٣٤٤	« وحدانه الثمان ٢٥٥ »
٣٠٧ و ١٩٩	دين الفطرة والعقل والفكر والعلم والحكمة ٢٥١ - ٢٤٤
٢٢٣	ر - ز
٢٢٤	الرازي إمامته في علوم المقول وجملة في علوم المقول ٣٧٦، ٣٧٤
٢٢٤	رحمة المؤمن بالقرآن ٤٠٣
٢٢٤	رحمة نبينا (ص) (راجع نبينا)
٢٢٤	الرسول. الايمان بجميعهم ٣٨٩ و ٢٢٠
٢٢٤	« بعثتهم في جميع الائم ٣٨٩ و ٢١٩ »
٢٢٤	« تشابه أقوامهم ٤٦٤ »
٢٢٤	« تفاضلهم بدون تنقيص لأحد منهم ٢٢٢ »
٢٢٤	« وظيفة التبليغ دون النفع والضرر ٢٢٠ »
٢٢٤	الرق ، أحكامه وما شرع لتحرير الرقيق والوصية به ٢٩٢-٢٨٨
٢٢٤	الزكاة فوائدها ١٢٢-١١٩ و ٢٧
٣٧٩	س
١٤٠-٩٨	السائقون ومعنى السياحة وفضلها ٥٢
٩١	السابقون الاولون أفضل هذه الامة ١٣
٩٤٥	السحر . حقيقته ووصفهم النبي والقرآن به ٢٤٢
١٠٠	السلف . مذهبهم في أسماء الله وصفاته وافعاله ٧٨
٣٧٨	« رجوع كبار المتكلمين إلى مذهبهم ٤٥٦، ٣٧٩ »
١٧١	سلمان الفارسي ١٣٨
٢٨٠	« الحرية ومنع الاكراه والسيطرة فيه ٢٥٤ »
١٠٣-١٠١-٨٩ و ٩٥ و ٢٣٧ و ٤٦٤ و ٥٠٧	« درجات الناس فيه علما وعملا ٢٦٣ »
٤٨٧	« مزاياه العشر في الاسلام ٢٦٣-٢٦١ »
٣٤٤	« وحدانه الثمان ٢٥٥ »
٣٠٧ و ١٩٩	دين الفطرة والعقل والفكر والعلم والحكمة ٢٥١ - ٢٤٤
٢٢٣	ر - ز
٢٢٤	الرازي إمامته في علوم المقول وجملة في علوم المقول ٣٧٦، ٣٧٤
٢٢٤	رحمة المؤمن بالقرآن ٤٠٣
٢٢٤	رحمة نبينا (ص) (راجع نبينا)
٢٢٤	الرسول. الايمان بجميعهم ٣٨٩ و ٢٢٠
٢٢٤	« بعثتهم في جميع الائم ٣٨٩ و ٢١٩ »
٢٢٤	« تشابه أقوامهم ٤٦٤ »
٢٢٤	« تفاضلهم بدون تنقيص لأحد منهم ٢٢٢ »
٢٢٤	« وظيفة التبليغ دون النفع والضرر ٢٢٠ »
٢٢٤	الرق ، أحكامه وما شرع لتحرير الرقيق والوصية به ٢٩٢-٢٨٨
٢٢٤	الزكاة فوائدها ١٢٢-١١٩ و ٢٧
٣٧٩	س
١٤٠-٩٨	السائقون ومعنى السياحة وفضلها ٥٢
٩١	السابقون الاولون أفضل هذه الامة ١٣
٩٤٥	السحر . حقيقته ووصفهم النبي والقرآن به ٢٤٢
١٠٠	السلف . مذهبهم في أسماء الله وصفاته وافعاله ٧٨
٣٧٨	« رجوع كبار المتكلمين إلى مذهبهم ٤٥٦، ٣٧٩ »
١٧١	سلمان الفارسي ١٣٨
٢٨٠	« الحرية ومنع الاكراه والسيطرة فيه ٢٥٤ »
١٠٣-١٠١-٨٩ و ٩٥ و ٢٣٧ و ٤٦٤ و ٥٠٧	« درجات الناس فيه علما وعملا ٢٦٣ »
٤٨٧	« مزاياه العشر في الاسلام ٢٦٣-٢٦١ »
٣٤٤	« وحدانه الثمان ٢٥٥ »
٣٠٧ و ١٩٩	دين الفطرة والعقل والفكر والعلم والحكمة ٢٥١ - ٢٤٤
٢٢٣	ر - ز
٢٢٤	الرازي إمامته في علوم المقول وجملة في علوم المقول ٣٧٦، ٣٧٤
٢٢٤	رحمة المؤمن بالقرآن ٤٠٣
٢٢٤	رحمة نبينا (ص) (راجع نبينا)
٢٢٤	الرسول. الايمان بجميعهم ٣٨٩ و ٢٢٠
٢٢٤	« بعثتهم في جميع الائم ٣٨٩ و ٢١٩ »
٢٢٤	« تشابه أقوامهم ٤٦٤ »
٢٢٤	« تفاضلهم بدون تنقيص لأحد منهم ٢٢٢ »
٢٢٤	« وظيفة التبليغ دون النفع والضرر ٢٢٠ »
٢٢٤	الرق ، أحكامه وما شرع لتحرير الرقيق والوصية به ٢٩٢-٢٨٨
٢٢٤	الزكاة فوائدها ١٢٢-١١٩ و ٢٧

صفحة		صفحة	
٢٦٤	الشورى في حكم الاسلام	١٤١	سورة يونس الكلام في مكيتها وتروها
٣٢٧	شئون الرب في عالم الغيب ثوقيفية	٥١١-٤٩٤	» » خلاصتها الاجمالية
٠٤٣٤	الشياطين تمثلهم بصورة الصالحين		سولون اليوناني ، شبهة قانونه على الوحي
٠٤٢٠٠٤١٥	الشیطان أولياؤه	١٩٠	المحمدي
	ص - ض	١٢٧، ١٢٣	سياسة الاسلام في الحرب
٧١	الصادقون عند الله	١٣٣	» في المنافقين
٢٣٦	الصالحون ، سبب عبادة بعضهم	٣٥١	السيئات جزاؤها في الآخرة
	العجاجة ، شهادة الله برضاه عنهم ورضاهم عنه		السيرة المحمدية - درس علماء الافرنج
١٥	وطعن الرافضة فيهم وعدالتهم	١٦٢	لها وشهادتهم بصدقه (ص)
٢٠٠	الصحابة فضلهم على قوم موسى		(ش)
٤٧٨	الصدق ، مبوءه لبني اسرائيل	١٥٢	الشبهات على شريعتي موسى وعيسى
٣٩٦	» مكاته والحلف عند العرب	٣٧١، ١٦٩، ١٦٣	» الوحي المحمدي
٧١	» وما رخص فيه من الكذب		الشبهة على الاحتجاج على النبوة ببلاغة القرآن
٣١	الصدقات : أخذ الله لها	٣٧١	
٢٣	» تطهيرها وتركيتها للنفس	٣٠٠	شبهة على عذاب الآخرة
٢٧	» فوائدها	٣١٠	الشر ، استعجال الناس له
٢٥	الصلاة لغة وشرعا		الشرك بدعاء غير الله (راجع دعاء)
٢٦	صلاة المؤمنين على النبي (ص) وعلى آله		» باتخاذ الشفعاء (راجع الشفاعة)
٢٦٥، ٢٥	صلاة النبي (ص) على المتصدقين	٤٨٩	الشرك . تكرار النهي عنه
٢٨٠، ١٢٣	الصلاح ، أحكامه	٤٩١، ٥٦	الشرك ، تأويل علماء السوء له
٢٣١	صوفي هندي دفته . ثم إخراجها حيا	٦	الشرك بدعاء الولي كدعاء الصنم
٥٣	الصوفية والسياسة وبعدها		الشعراني : خلطه الحق بالباطل في الشفاعة الشركية
٤٥١-٤٢١	الصوفية ومعرفتهم وكراماتهم	٢٠٨، ٥٦	
	الصوفية . ضلال المتشبهين بهم منذ عشرة قرون	٣٢٦ و ٣٢٣ و ٢٩٦ و ٢٢٠	شقاء البشر في ارتقاء العلوم والفنون بدون الدين
٤٤٩		٢٤٣	
	ط - ظ	٤١١	شكر الله ، وجوده ودرجاته
٤٢٠، ٤١٥	الطاغوت ، أولياؤه	٣٠١	الشمس . معنى كونها ضياء
٢٩٧	الظالمون ، حالهم عند رؤية العذاب	٣٤	شهداء . الله من خلقه عليهم

صفحة	صفحة
٦٤	٣٧٥ العسرة في غزوة تبوك
٢١	٣٢٢ (عسى) دلالتها على الرجاء
٤٥٦	٣١٥ العقائد انما تثبت بالقطع
٢٩٧	٢٨٥ « المبتدعة . من العوام والكتب
٢٤٨	٣٨٤ العلم . والحكمة تعظم القرآن لشأنها
٧٨	٣٦٣ علم الدين طلبه للأنداز والتبشير به
٣٧٩	٣٦٤٦٢٢ علم الكلام . (راجع المتكلمون)
٣٤٩	٤٥٦٦٣٧٩٩ علماء السوء . صرفهم الناس عن القرآن
	العمل . الامر به ورؤية الله ورسوله
٣٣	والمؤمنين له
٤٠٩٢١٥	٥١ . العمل الصالح من أركان الدين
٣١٦:٣٠٧	٣٧٥ العمل الصالح نتيجة الايمان
٩٩	٢٣٨ العندية الالهية
١٥٢	٣٢٧ عيسى وموسى . الشبهات على شريعتها
	غزوة تبوك . حال المسامحين في عسرتها
٦٤	٣٢٣٦٢٤٤
٢٧٤	٢٣٦ الغنى . مدحه في القرآن
٢٦٢	٢٨٨ الغلو في الدين . حظره
٢٤١	الغيب . ترقى الحضارة والعلم بالايمان به
٢٢٤	٢٣٤٦١٥٥ الغيب قسمان حقيقي وإضافي
٣٢٧	٢٦٩ الغيب . كون اخباره توقيفية
	عبادة غير الله (راجع دعاء وأولياء)
	العبادة العظمية . تحقيق معناها
	عبادة المسيح . سببها
	عتق الرقيق
	العجائب . كلام النصارى فيها وفيما
	للمسيح منها
	العدل العام والمساواة في الاسلام
	عذاب الاستئصال . إيهام الوعيد به
	وشروطه وكونه لن يقع على أمته (ص) ٣٨٧
	العذاب . الايمان به بعد وقوعه
	عذاب الخلد وكونه أثر طبيعياً لصفة
	النفس
	العرب وبنو اسرائيل . الفرق بينهما
	العرايبة لغة الاسلام
	العرش العظيم . استواء الرب عليه
	العزائم والرخص
	فتون الله للمنافقين وعدم توبتهم به
	الفخر الرازي . (راجع الرازي)
	الفرائض . ثبوتها بالنص القطعي
	الفراغنة إضلالهم بزيتهم وأموالهم
	الفرح المحمود والمذموم
	فرعون . إسلامه عند الفرق وكونه لم ينفعه
	وتنجيته بيد نه للعبرة به

ع - غ

العابدون

عافية الظالمين

العالم، قيامه بنظام عام مطرد

عالم الغيب . اخباره توقيفية

عبادة غير الله (راجع دعاء وأولياء)

العبادة العظمية . تحقيق معناها

عبادة المسيح . سببها

عتق الرقيق

العجائب . كلام النصارى فيها وفيما

للمسيح منها

العدل العام والمساواة في الاسلام

عذاب الاستئصال . إيهام الوعيد به

وشروطه وكونه لن يقع على أمته (ص) ٣٨٧

العذاب . الايمان به بعد وقوعه

عذاب الخلد وكونه أثر طبيعياً لصفة

النفس

العرب وبنو اسرائيل . الفرق بينهما

العرايبة لغة الاسلام

العرش العظيم . استواء الرب عليه

العزائم والرخص

ف

صفحة	صفحة
القرآن. تحديه العالم بسورة مثله ٣٦٩	ق
» ترجيح فضائله على الانجيل ٢١٧	٤٣٣
» تشريره الاجمالي العملي ٣٩٩	القبوريون والنصارى: الحججة عليهما ٣٢٥
» تصديقه لما قبله وتفصيله لما بعده ٣٦٨	القتال . أحكامه ١٢٣، ١٢٦
» تعظيمه للعلم والحكمة ٢٤٨	القتال للقرب فالقرب والغلظة فيه ٨٠
» توقف مجد السالمين على هدايته ٢٠١	قدم الصدق عند الله ١٤٤
» الثورة التي أحدثها في البشر ١٩٨	القرآن آية الله الكبرى ٢٤٠ و ١٩٥
» حكم ما أنبته من آيات الرسل	» أرجى الآيات فيه ٢٢
قطعا أو ظنا وما سكت عنه ٢٤٠	» استنصاه للشرك ٤٩٠
» دلالة التحدي به على إعجازه ٣٦٩	» أسلوبه المزجي وإعجازه به ١٩٧
» عجز النبي عن مثله ٣١٧ و ٣٢٠	» إصلاحه لمقائد الملل ٢٠٧
» ذمه التزيه للكفار والمتافقين	» إعجازه بالسور القصيرة ٣٧١
ليس شتا ١٣١ و ١٢٩	» إعجازه بتربية العرب كباراً ١٩٩
» رحمته تعالى للمؤمنين به ٤٠٣	» » في اختيار الالفاظ في المعنى الواحد ٤١٣
» سنته في الارشاد الى الاعمال ٢١٦	» اقتراح المشركين تبديله أو الايتان بغيره والرد عليهم ٣١٨
» الشبهة على كون إعجازه ببلاغته	» أنباء الغيب فيه ١١٤
» دليلا على نبوته (ص) ٣٧١	» إيجازه بالعطف المعجز ٤٠٧
» شفاؤه لأمراض القلوب ٤٠٢	» بلاغته العجيبة في قراءاته وتعدية أفعاله ٣٦٢
» صرف علماء السوء الناس عن هدايته ٣٤٩	» » في التقديم والتأخير ٤٦٣
» قيام دعوة الاسلام به ٢٠٤	» » في دقائق علم النفس ٤٦٠
» كونه لا يمكن أن يفترى ٣٦٧	» » في الموازنة بين مؤسسي مسجدي التقوى والضرار ٤٥
» ما يفضل به كتب الانبياء ١٥٣ و ١٩٥	» تأثيره في مشركي العرب ٢٠٢
» مقاصده العشر في إصلاح البشر	» » في مسلميهم ٢٠٥
٢٨٨-٢٠٦	» تأويله وخطأ المفسرين فيه ٣٧٣
» موعظة وشفاء وهدى ورحمة ٤٠٠	» تأويله ليوافق النظريات ٤٤٦
القرون: إهلاكهم بظلمهم ٣١٤	» تبليغ الرسول له بتصه العربي ٣٣٦
قريش دعاء النبي عليها بالفتح ٣٣٥	
» فضلها على سائر العرب ٩٦ مشابهة	
تكذيبهم لتكذيب من قبلهم ٣٧٥	

صفحة	صفحة
الكرامات عدم دلالتها على الولاية فضلاً	١٧١ قس بن ساعدة
عن العصمة ٤٤٨ الغلو في دعاؤها	٢٠٨ قسطنطين. جعله النصرانية وثنية
وشموله للمعاصي والكفر ٤٢٣	١٠٣ قضاء الله وقدره
كرشنة في الثالوث الهندي كبسوع في	١٠٢٦٦٥ القلوب زيغها
٢١١	١٠٢٦٨٥ « صرقها عن الايمان
الكسب والجبر وأفعال الله وتصرفه ١٠١	٥٠٧٦٤٦٤٦١٠٢ القلوب: الطبع عليها
٤٤٤	٣٠٢ القمر: تقديره منازل
الكشف في العقائد	٣٣٣ « مسألة انشقاقه
الكشف غير حجة شرعية ومنه شيطاني	٤٤٧ قواعد التشريع
وحيقي	٤١٠٣٩٩٦٣٦٥٢٦٨
الكفار - اتباعهم للظن في عقائدهم ٣٦٣	٢٧٨ قواعد الحرب والسلام
« ذم القرآن لهم بيان حق لاشتم ١٢٩	٤٤٦ القول على الله بغير علم كفر
الكفار. سياسة الاسلام فيهم ١٣٤	
الكفر بدعاء غير الله (راجع دعاء)	
الكفر بدعوى الولاية والكشف	
٤٤٤	٣٢٨ الكافرون بآيات الله قسمان: جاحدون
والكرامات	بها ومشركون فيها
٤٨١	الكافرون بدعاء غيره في الرخاء دون
كناية - فضائها على سائر العرب ٩٦	الشدّة معها والكافرون بدعاء
٢٠٨	٣١٣ غيره في الحالين
الكنيسة. صدها عن الاسلام ١٥٤	٤٣٩ كتاب الانوار القدسية للشعراني
	٢٨ « الحركات الفكرية الشيوعي
	١٧٨-١٦٩٦١٥٤ « حياة محمد
	٠٤٢١ « الطبقات الكبرى للشعراني
	٣٣٤ « الفرقان لابن تيمية
	٣٧٦ « المحصل للرازي وما قيل فيه
	١٣٦ الكتابي حربه في دينه دون المناق
	٤٢٣ كتب الرفاعية وغلوها في الرفاعي
	٤٢٣ « مناقب الجيلاني وغلوها فيه
	٤٥١-٤٢٠ كتب المتصوفة ومفاسد بعضها
	٤٤٦٦٣٢٢ الكذب على الله أشد الظلم
	٢٢٦ الكرامة والمعجزة. الفرق بينها

ل

الكافرون بآيات الله قسمان: جاحدون
بها ومشركون فيها
الكافرون بدعاء غيره في الرخاء دون
الشدّة معها والكافرون بدعاء
غيره في الحالين

كتاب الانوار القدسية للشعراني
« الحركات الفكرية الشيوعي
« حياة محمد
« الطبقات الكبرى للشعراني
« الفرقان لابن تيمية
« المحصل للرازي وما قيل فيه
الكتابي حربه في دينه دون المناق
كتب الرفاعية وغلوها في الرفاعي
« مناقب الجيلاني وغلوها فيه
كتب المتصوفة ومفاسد بعضها
الكذب على الله أشد الظلم
الكرامة والمعجزة. الفرق بينها

م

المال - آيات القرآن فيه ستة أنواع
كونه فتنة واختياراً وكونه يظني
وذم البخل به والاسراف فيه ومدح
الاقتصاد ومدح الغنى وكونه نعمة
وبذله في الحقوق المفروضة
والمندوبة
٢٧٦-٢٧١
« أنواعه الشرعية ١٢١ و١١٩
« تأثيره في شؤون البشر ٢٧
« مكان إتفاقه من الدين ٢٧٥ و١٢٠

صفحة	صفحة
٣١١	المتكلمون . خطوهم فيما خالفوا فيه
» دعوى رؤية النصارى	السلف ١٠٠، ٣٧٤، ٣٧٦، ٣٧٩
٤٣٧	المتكلمون . اعتمادهم في إعجاز القرآن
» عبادة النصارى له	٣٧٠
٢٣٦	على البلاغة
٤٤٣	» مبالغتهم في التوحيد بانكار
» الاحتجاج عليهم بقصة	الاسباب
٤٥٨	مشارت اليدع المفرقة للامة
» نوح وموسى	٤٤٢-٤٤٥
» اقتراحهم الايات الكونية	٥٥
٢٢٩	محاسبة النفس بالقرآن
» على النبي (ص)	٢٢
» باتخاذ الشفعاة (راجع الشفاعة)	١٥٩
» بدعاء الله في الشدة فقط	» استعداده الفطري للنبوة
والمشركون بدعاء غيره في	وضرب المثل له
الشدة والرءاء	١٩١-١٩٤
٣٣٩	» الافتراء والاغلاط في
» تصدقهم لقسمه (ص)	أخبار أسفاره وأحواله
٣٩٦	» شهادة بعض علماء الافرنج
» تعليل نبدنا ليهودهم	بدموته
١٢٤	١٤٧
» حظار الاستغفار لهم	» تحمیل در منغام الشعري في
مشركو العرب . الفرق بينهم وبين سائر	خلوته في الغار
الوثنيين	١٧٦
١٢٢	» تفضيل بعض الماديين له
٣٨٩	على جميع البشر
» مشيئة الله . استثناء الانبياء بها	١٩٦
» في البشر	» وجوب اتباع جميع البشر له
٤٨٤ و ٤٩٦	١٩٥
١٢٣	راجع نبينا
المعاهدات - أحكامها	مذهب السلف ١٠٠ (وراجع المتكلمون)
المعاهدات الدولية . مفاسدها واصلاح	المسجد الذي أسس على التقوى
الاسلام لها	٤٢
٢٧٧	مسجد الضرار - المقاصد منه و ربية
المعجزات - اقطاعها بختم النبوة	أصحابه الملازمة لقلوبهم
٢٣٨	٣٧-٤٧
معجزات الانبياء . لا تثبت إلا بالقرآن	المسلمون . جعلهم خلائف في الارض
٢٣٩	٣١٦
المعجزات - كونية وروحانية	المسلمون - ان يعود إليهم عزم إلا
» شبهة المنكرين لها بالخوارق	بهداية القرآن
٢٣٣	٢٠١
» الكسبية	المسيح . آياته والشبهات عليها
٢٣٠	١٥٥ و ٢٣٤
المعجزة والكرامة - الفرق بينهما	» الاحتجاج على عابديه
٢٢٦	٢٢٥
المعدود - سرده بدون عطف	٥٥

صفحة	صفحة
١٠٩	المعروف — الأمر به
٨٣	المعية الالهية
١٣٧	المقلدون يقولون على الله ما لا يعلمون
٣٦	المقصد الاول من مقاصد القرآن بيان حقيقة أركان الدين الثلاثة
٤	» الثاني بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل
١٢٩	» الثالث بيان أن الاسلام دين الفطرة السليمة والعقل والتفكر والعلم الخ
١٨	» الرابع الاصلاح الاجتماعي الانساني والسياسي
١٤٠-١٣٠	» الخامس تقرير مزايا الاسلام العامة في التكليف الشخصية
١٧	» السادس بيان حكم الاسلام السياسي لدولي نوعه وأساسه وأصوله
٣٨٠	» السابع الارشاد إلى الاصلاح المالي
٥٤	» الثامن اصلاح نظام الحرب ودفع عقابها
١٣	» التاسع إعطاء النساء جميع الحقوق الانسانية والدينية والمدنية
١٧	» العاشر تحرير الرقيق
٤٧١	» الحادية عشر تعالى لعبادة الملائكة — كتابتهم لأعمال الناس
٤٦٩	» الثانية عشر باقامة القرآن بدء أو عوداً
٤٧٣	» الثالثة عشر الوصية بهم
٤٦٥	» الرابعة عشر منازل القمر وأسماؤها
٢٢٢ و ١٥٢	» الخامسة عشر المناقون — إحاطة السوء بهم
٣٠٣	» السادسة عشر أحوالهم وأقوالهم عند نزول القرآن
٣٨٥	» السابعة عشر توكلهم على الله
١١٢ و ٢٢٤	
١٠٣ و ٩٠	

صفحة	صفحة
١٩٣ و ١٧٥	٢٤ المؤمنون . شهادتهم وعدالتهم
» تطهيره وتزكيته للمؤمنين	» صفاتهم وطبقاتهم
١١٢ و ٢٣٠	ن
» بالصدقة	النار . وجوه أهلها في الآخرة
١٥١	» تفضيله على الانبياء قبله
» دعاءه على قريش بالقحطه ٣٣٥	الناس . بغيهم في الارض
» رأفته ورحمته ٨٩ و ١١١ و ١١٣	» كانوا أمة واحدة فاختلفوا
» رحمته بالانسان والحيوان ٤٠٣	» غرائزم وصفاتهم وعاداتهم ٥٠٦
» شباهتهم على نبوته ١٦٣	» أعمالهم الصالحات والسيئات ٥٠٩
» شهادة علماء الكون له ١٦٢	النبوة عندنا وعند أهل الكتاب
» طهارة نسبه واصطفاه	١٥٣-١٤٦
» قومه وعشيرته ٩٤	النبوة والرسالة العامة في سورة يونس ٥٠١
» فترة الوحي وحاله قبل	نبوة محمد . آياتها ومباحثها في سورة التوبة
» الامر بالتبليغ ١٨٨	١٠٤-١١٤ آياتها ومباحثها في سورة
» فرض شكه في القرآن	يونس ٥٠٣ آيتها العامية الكبرى ١٥٩
» وأمره بأساؤل ٤٨٩	امتيازها على نبوة من قبله ١٥١ تصور
» فضله ومناقبه وحقوقه	منكري الوحي الالهي لها ١٦٣ الكلام
١٠٤-١١٤ و ٢٢٢	في براهينها مع مثبتي الوحي ١٤٦
» قوله تعالى فيه (عزيز عليه	الكلام فيها مع منكري عالم الغيب ١٦٣
» ما عنتم حر يص عليكم) الخ ٨٩	نبينا (ص) إخباره بعبود الله عنه قبل
» قول المشركين انه ساحر ٦٤٤	إخباره بالذنب ١٠٩
» كونه لا يملك لنفسه ضراً	» استعداده للنبوة ١٩١
» ولا نفعاً ٥٠٢ و ٤٩٥ و ٣٨٩	» اقتراح المشركين الآيات
» ما يجب له على أمته وما	الكونية عليه ٣٣٠
» يحظر من أيدائه ١١٣	» اقتراحهم الايتان بغير هذا
» منة الله على العرب	القرآن أو تبديله عليه ٣١٨
» والبشرية ٨٧	» امتياز نبوته على غيرها ١٥١
» نهي عن الحزن من قولهم فيه ٤٥٢	و ١٥٩ و ١٦١
» وصفه تعالى له برؤف رحيم ٨٩	» أبنائه ١٧٤
» حقوقهن الانسانية والدينية	» تبليغه للقرآن بلفظه ٣٣٦
» والمدنية ٢٨٣-٢٨٧	» تحديه بالقرآن ٣٧٠

صفحة		صفحة	
٥٥	واو الثمانية	١٥٤	النصارى افتراؤهم وطعنهم على الاسلام
٢٠٨	الوثنية . طغيانها قبل الاسلام	١٤٩	» الالهام في اصطلاحهم
٤٨٩	الوجه . إقامته للدين حنيفا	١٥٣ - ١٤٦	» النبوة عندهم
٢١٠	وحدة الوجود		النصارى . المعاصرون . حكايات رؤيتهم
	الوحي . أقسامه عند الصوفية من شيطاني	٤٣٧	للمسيح وأمه يقظة
٤٣٩	وإلهامي وتشريحي	٢٠٨	» وثنيتهم
١٩٤	الوحي الالهي . استعداد محمد لأكله	٢٩	النصرانية الزهدية
١٤٦	الوحي المحمدي . إثباته	٢٠٨	» الوثنية
١٧٩	» بدؤه وصفته وفترته	١٧٠	» في بلاد العرب
	» تحييلات درمنغام في		النصوص . بطلان تأويلها للنظريات العقلية
١٧٧	مقدماته	٤٤٦	والعلمية
	» حال النبي (ص) قبله وفي	٢٣٨	نظام العالم
١٨٨	فترته		النفس . اختياراتها في الآخرة على ما أسلفت
١٨٤ و ١٦٢	» تصويرهم له	٣٥٤	في الدنيا
١٨٦	» لإبطال شبهتهم من وجوه	٤٨٤	» إلهامها فجورها وتقواها
٢٩٢	» خلاصة ما تقدم من مباحثه	٢٣	» تطهيرها وتزكيتها بأصدقات
	شبهة قانون سولون اليوناني	١٢	النفقة في سبيل الله . جزاؤها
١٩٠	عليه	١٢٨	التغير العام وحكمه
	» كونه فوق معارف أهل		النهي والامر لمن براد التعريض بغيره
١٨٩	الكتاب وكتبتهم	٤٨٠	النهي عن الشرك . تكراره في القرآن
	» ما في سورة يونس من آياته	٤٨٩	نوح . خلاصة قصته والحجة بها على
٤٩٩	مجتمعة	٤٥٨	مشركي مكة
١٨٤	الوحي النفسي . بسط ما يصورونه به		
١٨٢	ورقة بن نوفل كلامه للنبي (ص)		
١٧٠	مقاله النصارى فيه		
٤٩	وعد الله الحق للبايعين أنفسهم له		
٣٩٨	أوعد الله ووعدته حق	٨٥	هداية القرآن صرف القلوب عنها
٤٤٤	الولاية . الكفر بها	٢٢١	المهندوس . حوار قديم
	(راجع أولياء)		الهواتف ومصادرها عند الصوفية من
١٧٠	اليهودية في بلاد العرب	٤٣٨	إلهامية وشيطانية

﴿ الفهرس الثاني للآيات المفسرة في هذا الجزء ﴾

الآية	الصفحة	بقية آيات سورة التوبة	الصفحة	الآية
١٢٠	٧٤	٩٤	٢	٩٤
١٢١	٧٦	٩٥	٤	٩٥
١٢٢	٧٧	٩٦	٥	٩٦
١٢٣	٨٠	٩٧	٨	٩٧
١٢٤	٨٢	٩٨	٩	٩٨
١٢٥	٨٣	٩٩	١١	٩٩
١٢٦	٨٣	١٠٠	١٣	١٠٠
١٢٧	٨٤	١٠١	١٨	١٠١
١٢٨	٨٧	١٠٢	٢٠	١٠٢
١٢٩	٩٠	١٠٣	٢٤	١٠٣
سورة الأيو يس		١٠٤	٣٢	١٠٤
٢٠١	١٤٣	١٠٥	٣٣	١٠٥
٣	٢٩٥	١٠٦	٣٦	١٠٦
٤	٢٩٨	١٠٧	٣٨	١٠٧
٥	٣٠١	١٠٨	٤١	١٠٨
٦	٣٠٥	١٠٩	٤٤	١٠٩
٧	٣٠٦	١١٠	٤٦	١١٠
٨	«	١١١	٤٨	١١١
٩	ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات	١١٢	٥١	١١٢
١٠	يهدهم ربهم بأمرهم	١١٣	٥٦	١١٣
١١	دعواهم فيها سبحانه اللهم	١١٤	٥٩	١١٤
١٢	ولو يجعل الله للناس الشر	١١٥	٦١	١١٥
١٣	وإذا مس الانسان الضر	١١٦	٦٣	١١٦
١٤	ولقد أهلكنا القرون من قبلكم	١١٧	٦٤	١١٧
١٥	ثم جعلناكم خلائف في الارض	١١٨	٦٦	١١٨
١٦	وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات	١١٩		١١٩
١٧	قل لو شاء الله ما تلوه عليكم		٧٢	
	فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً			

الآية	الصفحة	الآية	الصفحة
١٨	٣٢٣	٤٧	٣٨٩
١٩	٣٢٨	٤٨	»
٢٠	٣٢٩	٤٩	»
٢١	٣٣٣	٥٠	٣٩٢
٢٢	٣٣٧	٥١	»
٢٣	٣٤٢	٥٢	»
٢٤	٣٤٧	٥٣	٣٩٤
٢٥	٣٤٩	٥٤	٣٩٧
٢٦	٣٥٠	٥٥	٣٩٨
٢٧	٣٥١	٥٦	»
٢٨	٣٥٣	٥٧	٣٩٩
٢٩	٣٥٤	٥٨	٤٠٥
٣٠	»	٥٩	٤٠٨
٣١	٣٥٥	٦٠	٤١٠
٣٢	٣٥٨	٦١	٤١٢
٣٣	٣٥٩	٦٢	٤١٥
٣٤	٣٦٠	٦٣	٤١٦
٣٥	٣٦١	٦٤	٤١٧
٣٦	٣٦٣	٦٥	٤٥٢
٣٧	٣٦٧	٦٦	٤٥٣
٣٨	٣٦٨	٦٧	٤٥٤
٣٩	٣٧٣	٦٨	٤٥٥
٤٠	٣٨٠	٦٩	٤٥٧
٤١	٣٨١	٧٠	»
٤٢	٣٨٢	٧١	٤٥٩
٤٣	٣٨٣	٧٢	٤٦٢
٤٤	٣٨٤	٧٣	»
٤٥	٣٨٥	٧٤	٤٦٣
٤٦	٣٨٧	٧٥	٤٦٥

٤٧٦	الصفحة ٩٢	قال يوم ننجيك بيدك	الآية
٤٧٨	٩٣	ولقد يوأنا بني اسرائيل	٧٦ فلما جاءهم الحق من عندنا
٤٧٩	٩٤	فان كنت في شك	٧٧ قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم
٤٨١	٩٥	ولا تكونن من الذين كذبوا	٧٨ قالوا أجنثنا لثقتنا
»	٩٦	ان الذين حقت عليهم كلمة ربك	٧٩ وقال فرعون ائتوني بكل ساحر
»	٩٧	ولو جاءتهم كل آية حتى يروا	٨٠ فلما جاء السحرة قال لهم موسى
٤٨٢	٩٨	فلولا كانت قرية آمنت فنقمها	٨١ فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به
٤٨٣	٩٩	ولو شاء ربك لآمن من في الارض	٨٢ ويحق الله الحق بكلماته
٤٨٤	١٠٠	وما كان لنفس ان تؤمن إلا باذن	٨٣ فما آمن لموسى إلا ذرية
٤٨٦	١٠١	قل انظروا ماذا في السموات	٨٤ وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم
٤٨٧	١٠٢	فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين	٨٥ فقالوا على الله توكلنا
»	١٠٣	ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا	٨٦ ونجينا برحمتك من القوم الكافرين
٤٨٨	١٠٤	قل يا ايها الناس ان كنتم في شك	٨٧ واوحينا الى موسى واخيه
٤٨٩	١٠٥	وان اقم وجهك للدين حنيفا	٨٨ وقال موسى ربنا انك آتيت
٤٩٠	١٠٦	ولا ندع من دون الله ما لا ينفعك	٨٩ قال قد اجيبت دعوتكما
٤٩١	١٠٧	وان تمسك الله بضر فلا كاشف له	٩٠ وجاوزنا بني اسرائيل البحر فأتبعهم
٤٩٢	١٠٨	قل يا ايها الناس قد جاءكم الحق	٤٧٥
٤٩٣	١٠٩	واتبع ما يوحى اليك واصبر	٩٢ آلآن وقد عصيت قبل

﴿ تصويب خطأ الطبع بذكر الصواب وحده ﴾

ص ٣٣ ١ جنوح واثمان ص ١٥ ٨ فيها أبدأ ص ١٩ ٤ يخرج الله ص ٣٣٢ ١٤ من
 المستحقين إياها ص ٣٣ ٢١ منها ص ٣٦ ٢٢ حتى كان ص ٣٦ ٢٤ وما يريهم
 ص ٣٧ ٥ لمن ص ٤٩ ٨ عليها ص ٥٨ ١ وأبوجهل وعبدالله به اودانه ص ٥٨
 ٢ انه على ص ٦٢ ٥ عذاب عظيم ص ٦٢ ١٥ قاعدة هي ص ٦٢ ١٦ اها كل من
 بلغته ان كانت من الاحكام الشخصية التي تأخذ ص ١٧ وينفذها (وفيه) فأثبتت بنص
 قطعي ص ٦٥ ١٤ برجمها ص ٨٠ ٢٢ وأوحى الي ص ٨٩ ١ يدعوهم ص ٩٠
 ١٦ في الآية ص ٩٧ ٧ في آخر ص ٩٩ ١٠ سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ص ١٠٥
 ٢٠ وبرسوله ص ١٢٤ ١٧ فن ص ١٣١ ٢ ولاذمة ص ٢٣٦ ٢٢ من دون الله
 ص ٢٤٩ ٩ وأنزل الله ص ٢٤٩ ١٨ وآناه الله اللالك ص ٢٥٠ ١٢ به فانما ص ٢٥٧
 ٢٣ أو أعرض عنهم وإن تعرض عنهم فلن يضروك شيئا ص ٣٣٦ ٢٢ مراقبتنا
 ص ٣٧٢ ١١ يتجلى له ص ٤٨٧ ١٧ من قد أرسلنا ص ٥٠٠ ١٠ وأنزل الله